

ديوان المعاني
ابو هلال العسكري

To PDF: www.al-mostafa.com

ديوان المعاني

الباب الأول

كتاب المبالغة

في المديح والتهاني والافتخار وهو الباب الأول من كتاب ديوان المعاني وهو ثلاثة فصول.
الباب الأول من كتاب ديوان المعاني

الفصل الأول

المديح

سمعت أبا أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد، رحمه الله تعالى يقول: أمدح بيت قالته العرب قول النابغة الذبياني.

ألم تر أن الله أعطاك سورة
ترى كل ملك دونها يتذبذب
بأنك شمس والملوك كواكب
إذا طلعت لم يبذ منهن كوكب

ثم قال: أخبرنا أبو بكر محمد بن يحيى بن العباس قال: حدثني أبو ذكوان قال: ألم تر أن الله أعطاك سورة البيتين فقلت: ما عندي فيه إلا الظاهر المشهور، يقول: فضلك على الملوك، كفضل الشمس على الكواكب فقال: نفهم معناه قبل هذا، إنما يعتذر إلى النعمان من مدحه آل جفنه الغسانيين وتركه له، ويريد أن له، في مدحه لهم عذراً ألا ترى إلى قوله:

ولكنني كنتُ أمراً لي جانبُ
من الأرض فيه مسترادٌ ومذهبُ
ملوك وإخوان إذا ما أتيتهم
أحكم في أموالهم وأقرب
كحكمتك في قوم أراك اصطفتيتهم
فلم ترهم في شكر ذلك أذنبوا

يقول: لا تلمي على شكري، وقد أحسنوا إلي إذ لجأت إليهم، وإن كانوا أعداءك، كما أحسنت إلى قوم فشكروك عند أعدائك، فقد أحسنوا ولم يذنبوا، ثم قال: اعمل على أي أذنبت فمن أين تجد من لا يذنب فقال:

على شَعَثِ أَيُّ الرِّجَالِ المَهْذَبِ؟

ولستُ بِمُسْتَبِقٍ أَخَا لَا تَلْمُهُ

وإن يك ذا عتبي فمئتك يُعتَبُ

فإن أكُ مظلوماً فعبد ظلمته

يقول: مئتك يعفو ويحسن وإن كان عاتباً، وفي كرمك ما يفعل ذلك، ولك العتبي والرجوع إلى ما يجب، ثم فضله عليهم فقال:

ترى كل ملكٍ دونها يتذبذبُ

ألم ترَ أن الله أعطاك سورةً

إذا طلعت لم يبذ منهن كوكب

بأنك شمسٌ والملوك كواكب

يقول: ما صلحت لي أنت، فإني لا أريد غيرك من الملوك، كما أن من طلعت عليه الشمس لم يحتج إلى النجوم. قال أبو ذكوان: وما رأيت أعلم بالشعر منه. ثم قال: لو أراد كاتب بليغ، أن ينثر من هذه المعاني ما نظمته النابغة، ما جاء به في أضعاف كلامه، وكان يفضل هذا الشعر على جميع أشعار الناس. وقد سبق بعض شعراء كندة النابغة إلى هذا المعنى فقال يمدح عمرو بن هند:

لِعَمْرُو بنِ هِنْدٍ غَضِبَةٌ وَهُوَ عَاتِبُ

تَكَادُ تَمِيدُ الأَرْضُ بِالنَّاسِ إن رَأَوْا

على كل ضوءٍ والملوك كواكب

هو الشمس وافت يوم سعد فأفضلت

وقالت صفية الباهلية:

يُبقِي الزمانُ على شئٍ ولا يَذُرُ

أخنى على مالكٍ ريبُ الزمانِ ولا

يجلُو الدُّجَى فهوى من بيننا القمر

كنا كأنجمٍ ليلٍ بيننا قمرٌ

ومن ههنا أخذ أبو تمام:

نجومُ سماءِ خرٍّ من بينها البدرُ

كأن بني نبهانٍ يومَ وفاته

وقال نصيب في معنى النابغة:

وهل يشبه البدرَ المضى الكواكبُ؟

هو البدر والناسُ الكوكبُ حَوْلَهُ

ومثل قول النابغة:

احكم في أموالهم وأقرب

قول الأشجع:

خَطَبُوا المديحَ إليَّ بالأموالِ

لا تَعْدُلُونِي فِي مَدِيحِي معشراً

عن كل مُتَكَاٍ من الإجلالِ

يتزحزونَ إذا رأوني مُقبلاً

وسمعت أبا أحمد يقول: أبرع بيت قيل في المديح قول النابغة:

فإنك كالليل الذي هو مُدركي وإن خلتُ أن المنتأى عنك واسعٌ

ثم قال: أخبرني محمد بن يحيى قال: أخبرنا عون بن محمد الكندي، أخبرنا قعنب بن محرز قال: سمعت الأصمعي قال: سمعت أبا عمرو يقول: كان زهير يمدح السوقة، ولو ضرب أسفل قدميه مائة على أن يقول مثل قول النابغة:

فإنك كالليل الذي هو مدركي

ما قاله، فما لا يقول مثله زهير كان غيره أبعد منه.

أخبرنا أبو أحمد، أخبرنا أبو بكر بن دريد، عن السكن بن سعيد، عن محمد بن عباد قال سمعت أبا عبد الله نبطويه يذكر عن الفراء قال: قال الكسائي: حضرت مجلساً للخليل بن أحمد وقد جمع بينه وبين يونس بن حبيب عند العباس بن محمد في مفاتحه اللغات ومجاريها، ونوادير الإعراب ومذاهب العرب ومجازها وأخبارها، فكان الخليل كالسابق قرن به، ذو الزوائد الحطم في حلبة المضمار، إلى أن تذاكروا الأشعار والشعراء فأكثر يونس من ذكر زهير وتقديمه، وذكر الخليل النابغة وقدمه وعظم أمره، فقال العباس للخليل: بم تذكر النابغة؟ قال: كان النابغة أعذب على أفواه الملوك وأبسط قوافي شعر، كأن الشعر ثمرات تدانين من خلده، فهو يجتنيهن اختياراً، له سهولة السبك، وبراعة اللسان، ونقاية الفطن، لا يتوعر عليه الكلام لعدوية مخرجه وسهولة مطلبه. أخبرنا شيخ باهلة يكنى أبا جحار أن النابغة وفد على النعمان معتذراً من تلك البلاغات ومعه اعتذاره الذي يقول فيه:

فإنك كالليل الذي هو مدركي

فقال النعمان: أقبل منك عذرِك وأصفح لقدرك عنك، ثم أمر فخلع عليه خلع الرضا، وكن حيرت حضرا مطرفة بالدر في قضب الذهب، وانصرف إلى منزله. قال الباهلي: وإن النابغة جاء يوماً مستأذناً معتذراً فقال له الحاجب: الملك على شرابه، قال: فهو وقت الملق، والشعر تقبله الأفتدة عند السكر، فإن يبلغ لي فلق المجد عن غرر مواهبه، فأنت قسيم ما أفتد. فقال الحاجب: والله ما نفي عنايتي بك بدون شكرك لي، فكيف أرغب فيما تصف ودون ما ترغب رهبة التعدي؟ فهل من سبب يمكن الاستئذان؟ فقال النابغة: فعلت ما يجب عليك في الأدب، وقضاؤها ومعقود بشكرك، فمن عنده؟ قال: خالد بن جعفر الكلابي. فقال: أين أنت عنه بما أقول لك؟ قال: قل. تقول له حالياً: إن زياداً يقول: إن قدرك فوق الغمام، ووفائك وفاء الكرام - وقال الفراء: تقول له حالياً إن زياداً يقول: إن من قدرك نيل الدرك بك -

وزكاة الحاه رقد المستعين، وناحيتي من الشكر ما علمت، وحاجتي ملاطة الأسباب، حتى يحرك ذكراً يمكن بمثله الاستئذان - وقال الفراء يجري ذكراً- فلما صار خالد إلى بعض ما يبعث موارد الشراب، نهض، فاعترضه الحاجب فقال: ليهنك أبا البسام حادث النعم. قال خالد: هناك عيشك، كل ما نحن فيه تجديد للتفضيل، وإتمام للشرف وكل ذلك بقاء الملك وحسن مواده، فما ذاك؟ فأخبره بما قال النابغة، فقال: آذنه بالطاعة وانتظار المراجعة. وكان خالد رفيقاً يتأني الأمور والأسباب لطفاً وحسن بصيرة في الارتداد، فدخل متبسماً وهو يقول:

ألا لملكك أو من أنت سابقه سبق الجواد إذا استولى على الأمد

ثم قال: واللات والعزى لكأني أنظر إلى أملاك ذي رعين وذي فايش، وقد مدت لهم قصبان المجد إلى معالي الأحساب، ومناكب الأنساب، في حيلة أنت - أبيت اللعن - غرمتها، فجئت سابقاً متمهلاً، وجاؤا لم يتم لهم سعي، وجاء زياد فقال النعمان: والله لأنت في وصفك أبلغ إحساناً من إحسان النابغة، فينا في نظم قوافيه، فقال خالد: أيها الملك، واللات ما أبلغ فيك حسناً إلا غمره قدرك استحقاقاً للشرف الباهر، ولو كان النابغة حاضراً لقال وقلنا، فقال النعمان: النابغة يا غلام! فخرج الحاجب، فقال النابغة: ما وراءك؟ قال: رفع الحجاب وأذن في السيادة والافضال، فدخل فانتصب بين يدي النعمان، وحياه بتحية الملك، ثم قال: أيفاخرك - أبيت اللعن - ابن جفنة وأنت سائس العرب وغرة الحسب؟ واللات، لأمسك أجهى من يومه، ولقدالك أحسن من وجهه، وليسارك أسمح من يمينه، ولعبدك أكثر من قومه، ولنفسك أكبر من جده، وليومك أشرف من دهره، ولوعدك أنجز من رفته، ولهزلك أصوب من جده، ولفترك أبسط من شبيره، ولأملك خير من أبيه، ثم أنشأ:

أخلاق مجدك جلت مالها حصر في البأس والجود بين البذو والحضر
مَنوَج بالمعالي فوق مفرقه وفي الوغى ضيغم في صورة القمر

قال: فتهلل وجه النعمان بالسرور، وأمر فحشى فمه درأ، وقال: لمثل هذا ترتاح القلوب وبمثله تمدح الملوك، ثم قال الخليل: أفيحسن زهير أن يقول مثل هذا؟ فقال يونس للعباس: إني لأعجب مما حدث عن قصة النابغة وشعره قوله:

وفي الوغى ضيغم في صورة القمر

أجود شيء قيل في الحسن مع الشجاعة من شعر المتقدمين ومن شعر المحدثين قول أبي العتاهية بمدح الرشيد وولده:

بنو المصطفى هارون حول سريره
يُقَلَّبُ أَلْحَاظَ الْمَهَابَةِ بَيْنَهُمْ

وأخذه مسلم بن الوليد فقال:

كَأَنَّ فِي سَرَجِهِ بَدْرًا وَضُرْغَامًا

وقلت:

فَتَى عَلَى نَفْسِهِ مِنْ نَفْسِهِ رَصْدٌ
مَا زَالَ يَغْنَمُ مَا لَمْ يَغْرَمْهُ
أَغْرَ أُرُوعٍ يَحْكِي الْغَيْثَ مَكْرَمُهُ
تَجَلَّه حِينَ يَبْدُو أَنْ تَقُولَ لَهُ

وقد تداول الناس معنى قوله:

كَأَنَّكَ كَاللَّيْلِ الَّذِي هُوَ مَدْرَكِي

فقال الفرزدق:

وَلَوْ حَمَلْتَنِي الرِّيحُ ثُمَّ طَلَبْتَنِي

وهو دون قول النابغة، لأن الليل أعم من الريح، والريح أيضاً يمتنع منه بأشياء، والليل لا يمتنع منه بشيء.
وأخذ الأخطل قول الفرزدق فقال:

فَأَنْتِ كَالدَّهْرِ مَبْتُوثًا حَبَائِلُهُ

وَلَوْ مَلَكْتَ عِنَانَ الرِّيحِ أَصْرِفُهُ

وأخذ مسلم البيت الأول من الأخطل فقال:

وَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَفِعْلُهُ

وهو أيضاً مأخوذ من قول النابغة وأخذه أبو تمام فقال:

خَشَعُوا لَصَوْتِكَ الَّتِي هِيَ عِنْدَهُمْ

فَالْقَوْلُ هَمْسٌ وَالنِّدَاءُ إِشَارَةٌ

وأخذه علي بن جبلة فقال:

وَمَا لِأَمْرِي حَاوِلَتَهُ مِنْكَ مَهْرَبٌ

فخير قيام حوله وقعود
عوين ظباء في قلوب أسود

يَصِدُّهُ إِنْ نَطَقَ الشَّيْنُ وَالذَّامَا
مَا زَالَ لِلْمَالِ غَنَامًا وَغَرَامَا
وَالنَّجْمَ مَنْزِلَةً وَالطُّوْدَ أَحْلَامَا
كَأَنَّ فِي سَرَجِهِ بَدْرًا وَضُرْغَامَا

لكنك كحي أدركته مقاديره

وَالدَّهْرُ لَا مَلَكًا مِنْهُ وَلَا هَرَبٌ

فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ مَا فَاتَكَ الطَّلَبُ

لِكَالدَّهْرِ لَا عَارَ بِمَا فَعَلَ الدَّهْرُ

كَالْمَوْتِ يَأْتِي لَيْسَ فِيهِ عَارٌ

خَوْفَ أَنْتِقَامِكَ وَالْحَدِيثُ سِرَارٌ

وَلَوْ رَفَعْتَهُ فِي السَّمَاءِ الْمَطَالِعُ

يلي هارب لا يهتدي لمكانه

وقال البحترى:

ظلامٌ ولا ضوءٌ من الصبحِ لامعٌ

لَمُجِدِّهِمْ مِنْ أَخَذِ بِأَسْكَ مَهْرَبٌ

ولو أنهم ركبوا الكواكبَ لم يَكُنْ

وقلت في قريب منه:

يواكب ضوء الصبح في كل مطلبٍ

ويدنوله المطلوبُ حتى كأنما

وقالوا: أمدح بيت قائلته العرب قول أبي الطمحان:

دُجَى الليل حتى نَظَمَ الجزعَ ثاقبةً

أضاعت لهم أحسابهم ووجوههم

بدا كوكب تأوي إليه كواكبه

نجومُ سماءٍ كلما انقضَّ كوكبٌ

تسيرُ المنايا حيثُ سارتُ كتائبه

وما زال منهم حيث كان مسودٌ

ومثله قول الحطيئة:

كما أضاعت نجوم الليل للساري

نمشي على قول أحساب أضأن لنا

ومثله قول الآخر:

صدعن الدجى حتى يرى الليلُ ينجلي

وجوة لو أن المدلجين اعتشوا بها

وقال بعض الأعراب في رجل: ما دفعته في سواد إلا محاه، ولا قابلت به ملاماً إلا كفاه. ومثل قوله:

صد عن الدجى

قول بعض المحدثين:

كقوسٍ لجينٍ يشقُّ الدجى

ومصباحنا قمرٌ زاهرٌ

وقلت:

يضحك في أوجه الدُّجَنَاتِ

وانشقَّ ثوبُ الظلامِ عن قمر

قبيعة في نصاب مرآة

كأنما النجم حين قابله

وقلت:

على أنه من نورٍ وجهك أبيضُ

بليل كما ترنو الغزاة أسودٍ

قبائع منها مذهبٌ ومفضضُ

كواكبه زهر وصفر كأنها

وقلت: وذي غنجٍ يأوي إلى فرعه الدجى=ولكنها عن وجهه تتفرج

وفيه ظلامٌ بالصباحِ مُتَوَجِّحٌ

وقول أبي الطمحان مولى ابن أبي السمط: فتى لا يُيالي المدلجون بنوره=إلى بابه ألاً تضيء الكواكبُ

وليس له عن طالبِ العُرفِ حاجبٌ

له حاجبٌ عن كل أمرٍ يَشِينُهُ

وقول آخر:

لو أنك تستضيءُ بهم أضأؤوا

من البيضِ الوجوه بني سنانٍ

وقول الآخر:

له سيماء لا تشقُّ على البصرِ

غلامٌ رماه الله بالحسن يافعا

وفي أنفه الشعرى وفي وجهه القمر

كأن الثريا علقت في جبينه

تردَّى بثوب واسع الذيل واتزر

ولما رأى المجد استعيرت ثيابه

ذليلٌ بلا ذلٍّ ولو شاء لانتصر

إذا قيلت العوزاءُ غض كأنه

وقول آخر:

أولو فضولٍ وأقدارٍ وأخطارٍ

إخترَ فناء بني عمرو فإنهمُ

فالجهد يخرج منهم طيبَ أخبارٍ

إن يسألوا الخير يُعطوه وإن جهدوا

كشفت أذمارَ سرٍّ غير أسرارٍ

وإن توددتهم لأنوا وإن شتموا

أربابُ مكرمة أبناء إيسارٍ

هينون لينون أيسارٌ ذوو يسرٍ

مثلَ النجوم التي يُهدى بها الساري

من تلقَ منهم تقل: لاقيت سيدهم

وهذا عندي أمدح شيء قيل في وصف جماعة.

وأنشدنا أبو أحمد لعيسى بن أوس في الجنيد بن عبد الرحمن:

تقاصر عنه الشاهق المتطاوُلُ

إلى مُستتير الوجه طال بسوود

ومن مدح الأقدامِ حقٍّ وباطلٍ

مدحتك بالحق الذي أنت أهله

فليس لحي بعد موتك طائل

يعيش الندى ما دمت حياً فإن تمت

سواك وقد جادت عليّ مخايلُ

وما لامرئ عندي مُخيلة نعمة

وقالوا: أمدح بيت قالته العرب قول الأعشى:

فتى لو ينادي الشمس أَلقت قِنَاعَهَا

أو القمرَ الساري لألقى المقالدا

وهذا وقول أبي الطمحان من الغلو، والغلو عند بعضهم مدموم وليس كذلك، ولو كان مدموماً، لما جعلوا هذين البيتين من أمدح ما قالت العرب، وهما من الغلو على ما هما عليه، ومثل هذا الغلو قول طريح بن إسماعيل:

أنتَ ابنُ مُسلنطح البطاح ولم

يضرِب عليك الحنيّ والولج

لو قلت للسيل دع طريقك والم

وج عليه كالهضب يعتلج

لارتدَّ أو ساخ أو لكان له

في جانبِ الأرضِ عنك مُنعرَج

وهذا من أعلى الغلو لأن السيل لا ترد وجهته هيبة ولا مخافة، والعرب تقول أجراً من السيل فيهمز ولا يهمز، والهمز من الجراءة وترك الهمز من الجري، ويقال في المثل: "لا أفعل كذا حتى يرد وجه السيل" وليس هذا الشعر بمختار الرصف واللفظ، وإنما جئت به لمكان غلوه.

ومن الغلو المشهور المستفيض الذي قبله الناس واستحسنوه ورووه بكل لسان قول أبي تمام في المعتصم:

بيمنِ أبي إسحاق طالَتْ يدُ العَلَا

وقامت قنَاةُ الدِّينِ واشتدَّ كاهله

هوَ البحرُ من أيِّ النواحي أتَيْته

فلجَّتهُ المعروفُ والجودُ ساحلُهُ

تعودُ بسطِ الكفِّ حتى لو أنه

أرادَ انقباضاً لم تُطِعُهُ أنامله

ولو لم يكن في كفه غيرُ نفسه

لجادَ بها فليتقِ الله سائله

وقلت في قريب منه:

وكيف يبببُ الجارُ منك على صدى

وكفُّكَ بحرٌ لجةُ البحرِ ساحلُهُ

أخبرنا أبو أحمد قال: سمعت أبا بكر - يعني ابن دريد - يحكى عن أبي حاتم قال: قال الأصمعي سمعت أعرابياً يقول: انكم معاشر أهل الحضرة لتخطئون المعنى، إن أحدكم ليصف الرجل بالشجاعة فيقول كأنه الأسد، ويصف المرأة بالحسن فيقول: كأنها الشمس، لم لا تجعلون هذه الأشياء بهم أشبه؟ ثم قال: لانشدك شعراً يكون لك إماماً، ثم أنشدني:

إذا سألتَ الودى عن كل مكرمةٍ

لم تلفِ نسبتهَا إلَّا إلى الهولِ

فتى جواداً أعاد النيل نائله

فالنيلُ يشكرُ منه كثرة النيلِ

وليس هذا الشعر مختاراً عندي:

والموتُ يرهبُ أن يلقى منيتهُ

في شدَّةٍ عند لفِّ الخيلِ بالخيلِ

أوزاحم الصم ألجاها إلى الميل
دون القوافي كمثل الليل بالليل
وعند أعدائه أجرى من السيل

ما حكاه علم البأس الأسد

لو عارض الشمس أبقى الشمس مظلمة
أو بارز الليل غطته قوادمه
أمضى من النجم إن نابته نائبة

ومن الجيد في هذا المعنى قول الآخر:

علم الغيث الندى حتى إذا

وله الليث مقر بالجد

فله الغيث مقر بالندى

وقد أنكر عبد الملك ما أنكره الأعرابي من تشبيه الممدوح بالأسد والصخر والبحر، فأخبرنا أبو أحمد قال:
أخبرنا أبو بكر، أخبرنا عبد الأول بن مزيد - أحد بني أنف الناقة - عن ابن عائشة عن أبيه قال: قال
عبد الملك يوماً وقد اجتمع الشعراء عنده: تشبهونا بالأسد، الأسد أنجز، وبالبحر والبحر أحاج، وبالجبيل
والجبيل أوعر، ألا قلت كما قال أيمن بن خريم بن فاتك في بني هاشم:

وليلكم صلاة واقترأ

نهاركم مكابدة وصوم

وبينكم وبينهم الهواء

أجعلكم وأقواماً سواء

لأعينهم وأرؤسهم سماء

وهم أرض لأرجلكم وأنتم

وهذا من قول أمية بن أبي الصلت وهو أول من أتى به قوله في عبد الله بن جدعان:

حياؤك، وإن شيمتك الحياء

أذكر حاجتي أم قد كفاني

عن الخلق الكريم ولا المساء

كريم لا يغيره صباح

بنو تيم، وأنت لهم سماء

وأرضك أرض مكرمة بنتها

ونحوه قوله:

وأنت الرأس يقدم كل هادي

لكل قبيلة شرف وعز

وتصرف فيه المحدثون فقال ابن الرومي:

ومن غناء محل البيض واليلب

قوم يحلون من مجد ومن شرف

نفعاً ورفعاً وإطلالاً على الرتب

حلوا محلها من كل جمجمة

ومن يمتل بين الرأس والذنب؟

قوم هم الرأس إذ حسادهم ذنب

ومنه قول الحطيئة:

قومٌ هم الأنفُ والاذنابُ وغيرهمُ

ومن يسويُّ بأنفِ الناقةِ الذنبا

وقال غيره:

الناسُ أرضُ بكلِ أرضٍ

وأنتَ من فوقهم سماءُ

وقلت:

أبشر فإنك رأسُ العُلا جسدُ

والمجدُ وجهٌ وأنتَ السمعُ والبصرُ

لولاك لم صح للأيام منقبةٌ

تسمو إليها ولا للدَّهرِ مفتخرُ

وأخبرنا أبو أحمد قال: أخبرنا أبو بكر بإسناد ذكره عن الهيثم بن عدي قال: دخل الأخطل على عبد الملك بن مروان، فقال: يا أمير المؤمنين! قد امتدحتك فاستمع مني! فقال: إن كنت شبهتني بالصقر والأسد فلا حاجة لي بمدحك، وإن كنت قلت: كما قالت أخت بني الشريد لأخيها صخر، فهات. فقال الأخطل: وما قالت يا أمير المؤمنين؟ قال: هي التي تقول:

فما بلغتُ كفُ امرئٍ متناولٍ

بها المجدَ إلا حيثُ ما نلتَ أطولُ

ولا بلغَ المهدونَ في القولِ مدحةً

ولو أطنبوا إلا الذي فيكَ أفضلُ

فقال الأخطل: والله لقد أحسنت القول، ولقد قلت فيك بيتين ما هما بدون قولها، قال: هات فأنشده:

إذا متَّ ماتَ العرفُ وانقطعَ الندى

من الناسِ إلا في قليلٍ مُصرِّدٍ

وردتْ أكفُ السائلينَ وأمسكوا

من الدينِ والدنيا بخلفٍ محردٍ

وليس يحسن عندي أن يقال للممدوح: إذا مت، فإن استماع ذلك مكروه، وإن كانت الشعراء قد استعملته في كثير من مقاماتها، أنشدنا أبو أحمد عن ابن دريد:

إذا متَّ لم توصلُ بعرفٍ قرابةً

ولم يبقَ في الدنيا رجاءٌ لنازلٍ

وهو من قول النابغة:

فإن يهلك أبو قابوس يهلكُ

ربيع الناس، والشهرُ الحرام

ويمسك بعدهُ بذناب عيشٍ

أجبَّ الظهرِ ليس له سنامُ

وهذا أجود من الأول، لأنه لم يخاطب به الممدوح، ولو قيل: لولا فلان لكان كذا وكذا لكان كما قال علي بن جبلة:

لولا أبو ذُلف لم تحيي عارفةً

ولم ينؤنؤ مأمول بآمالٍ

يا بن الأكارم من عدنان قد علموا

وتالدُ المجدِ بين العمِّ والخال

وناقِلُ الناسَ من عُدْمِ إلى جِدَةٍ وصارِفُ الدهرِ من حالٍ إلى حالٍ
أنتَ الذي تنزِلُ الأيامَ منزلها وتمسكُ الأرضَ عن خسفٍ وزلزالٍ
وما مددتَ مدى طرفٍ إلى أحدٍ إلا قضيتَ بآجالٍ وآمالٍ
تزورُ سخطاً، فتسمي البيضُ راضيةً وتستهلُّ فتبكي أوجهُ المالِ

وأخبرنا أبو أحمد في كتاب الورقة عن ابن داود قال: قال أبو هفان: اجتمع الشعراء بباب المتعصم، فقعد لهم محمد بن عبد الملك الزيات، فقال: إن أمير المؤمنين يقرأ عليكم السلام ويقول لكم: من كان يحسن أن يقول مثل قول النمري في الرشيد:

خليفةُ الله إنَّ الجودَ أوديةٌ أحلكَ الله منها حيثُ تجتمعُ
إنَّ أخلفَ القطرُ لم تخلفَ مخايله أو ضاقَ أمرٌ ذكرناه فيتسعُ
فقال ابن وهب فينا من يقول مثله:

ثَلَاثَةٌ تشرقُ الدُّنيا ببهجتها شمسُ الضحَى وأبو إسحاقَ والقمرُ
تحكي أفاعيله في كلِّ نائبةٍ الغيثُ والليثُ والصمصامةُ الذكرُ
قال فأجازه وفضل ابن وهب.
ولبعض الشعراء في المهلب.

أمسى العراقُ سليباً لا أنيسَ له إلَّا المهلبُ بعدَ الله والمطرُ
هذا يجودُ ويحمي عن ذمارهم وذا تعيشُ به الأنعامُ والشجرُ
ومنه أخذ ابن وهب.

وقلت في معناه: لم تزل للورى ثلاثُ شمسٍ = وجهك المستضيءُ والقمرانِ وقالوا: أمدح بيت قالته العرب قول زهير:

تراه إذا ما جئتُه مُتهللاً كأنك تُعطيهِ الذي أنتَ سائلُهُ
وعاب بعضهم هذا البيت، فقال: جعل الممدوح فرحاً بعرض يناله وليس هذا شأن الكبير الهمة، والجيد قول أبي نوفل عمرو بن محمد الثقفي:

ولئن فرحتَ بما يُنبئك إنه بما يُنبئك من نداءِ أفرحُ
ما زال يُعطي ناطفاً أو ساكتاً حتى ظننتُ أبا عقيلٍ يمزحُ

فجعله يفرح بما ينيل. ومثله قول أبي تمام:

أسائل نصر لا تسله فإنه
أحن إلى الإرفاد منك إلى الرقد

وقال بعض الأعراب: ما زال فلان يعطيني حتى حسبت أنه يودعني، ونحو ذلك أن الحجاج قال لإياس بن معاوية: أي الناس حب إليك؟ قال: من أعطاني. قال: ثم من؟ قال: من أعطيته.

وقال أبو السمع الطائي في خلاف ما قال زهير:

فتى لا يرى سوق المهور غرابة
ولا غاليات المال حلياً على نحر
فتى كان مكراماً لنفس كريمة
مُهيناً لدينا غير مأمونة الغدر

وعندي أن بيت زهير أجود ما قيل في الشعر القديم، وممن أبدع في ذلك البحترى في قوله:

سلام وإن كان السلام تحية
فوجهك دون الرد يكفي المسلماً

ومن الجيد في ذلك قول ابن الرومي:

كأنما القطر من ندى يده
والبرق من بشره ومن ضحكه

وقول أبي الأسد:

ولائمة لأمته يا فيض في الندى
فقلت لها لن يقدح اللوم في البحر

أرادت لتنتهي الفيض عن عادة الندى
ومن ذا الذي يثني السحاب عن القطر؟

إذا ما أتاه السائلون توقدت
عليه مصابيح الطلاقة والبشر

له في بني الحاجات أيد كأنها
مواقع ماء المزن في البلد القفر

وقريب منه قول أبي تمام:

عهدي بهم تستنير الأرض إن نزلوا
فيها وتجتمع الدنيا إذا اجتمعوا

ويضحك الدهر منهم عن غطارفة
كأن أيامهم من أنسها جمع

وقلت:

إذا عبس الزمان فمل إليه
تجده البشر في وجه الزمان

وقلت:

كأنك في خد الزمان تورد
وفي فمه ضحك وفي وجهه بشر

فمن يك ممدوحاً بنظم يصوغه
فإنك ممدوح بك النظم والنثر

وقال البحترى:

وتَوَاضَعُ لولا التَّكْرُمُ عاقفةٌ
وَقُتُورَةٌ جمعَ التَّقَى أطرافها
وشببيةٌ فيها النهى فإذا بدتْ
طلقُ اليدين إذا تفرقَ ماله
جدلانُ يطربُ للسؤالِ كأنما

وقال ابن الرومي:

عنه علوٌ لم يَبْلُهُ الفرقدُ
وندى أحاطَ بجانيبه السؤودُ
لذوي التوسمِ فهي شيبٌ أسودُ
جمع العلا فيما يفيد وينفذُ
غناه مالكٌ طيءٍ أو معبدُ

أغرُّ أبلجُ يكسو نفسه حللاً
تلقاه من نهضة للمجدِ في صمدٍ
كأنه وهو مسؤولٌ وممتدحٌ
يهتزُّ عطفاه عند الحمدِ يسمعه
وهذا المصراع من قول أبي تمام:

من المحامدِ لا تبلى على الحقبِ
ومن تواضعه للحقِّ في صبيبِ
غناه إسحاقُ والأوتارُ في صخبِ
من هزةِ المجدِ لا من هزةِ الطربِ
من خفةِ الخوفِ لا من خفةِ الطربِ

موكلٌ ببياعِ الأرضِ يشرفه

وقلت:

وقد يؤنسُ الزوارِ منك إذا التقوا

وقلت: أخذ زهير قول بعضهم فقال:

سخاء عليه للطلاقة شاهدُ

كأنك بالمنقاشِ تنتفُ شاريةُ

وقد أحسن لحظة في هذا المعنى أنشدناه أبو أحمد عنه:

حاولتُ نتفَ الشعرِ من أنافهمُ

ذهبَ الذين بُعاشُ في أكتافهم

قومٌ أحاولُ نيلهم فكأنني

قُمٌ فاسقنيها بالكبيرِ وغنني

وقالوا أمدح بيت قائلته العرب قول جرير:

وأندى العالمين بطنون راح

ألستم خيرَ من ركبِ المطايا

وليس هذا الاستفهام للشك وفي القرآن الشريف: "أليس الله بعزيز ذي انتقام".

"أليس الله بأحكم الحاكمين".

"أليس الله بكأف عبده".

وسئل بعض العرب عن أشعر الناس؟ فقال جرير وذلك أن بيوت الشعر أربعة: المديح والهجاء والافتخار والغزل وفي كلها سبق جرير: قال في المديح:

وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ بَطُونِ رَاحٍ

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكَبَ الْمَطَايَا

وقال في الهجاء:

فَلَا كَعْبًا بَلَّغْتَ وَلَا كِلَابًا

فَغَضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نَمِيرٍ

وقال في الافتخار:

حَسَبْتَ النَّاسَ كُلَّهُمْ غَضَابًا

إِذَا غَضِبْتَ عَلَيْكَ بَنُو تَمِيمٍ

وقال في الغزل:

قَتَلْنَا ثُمَّ لَمْ يُحْيِينَا قَتْلَانَا
وَهَنَّ أَوْعَفُ خَلْقِ اللَّهِ أَرْكَانَا

إِنَّ الْعَيُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا حَوْرٌ
يَصْرَعْنَ ذَا اللَّبِّ حَتَّى لَا حَرَكَ بِه

وقال التنوخي في هذا المعنى:

ضَعَفًا تَقْوِينَ عَلَى ضَعْفِ الْقَوَى

فَكَلَّمَا زَادَتْ قَوَى أَجْقَانِهَا

وأمثال هذه كثيرة نوردها فيما بعد، ونقض بعضهم قوله:

إِذَا غَضِبْتَ عَلَيْكَ بَنُو تَمِيمٍ

فقال:

فَمَا نَكَأْتُ بِغَضِبْتِهَا ذُبَابًا

لَقَدْ غَضِبْتُ عَلَيْكَ بَنُو تَمِيمٍ

وقالوا أمدح بيت قالته العرب قول حسان:

لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمَقْبَلِ

يَغْشَوْنَ حَتَّى مَلْتَهَرِ كِلَابِهِمْ

يقول: قد أنست كلابهم بالزوار فهي لا تنبحهم، وهم من شجاعتهم لا يسألون عن جيش يقبل نحوهم لقلة اكترائهم بهم، ولثقتهم ببسالة أنفسهم وشدتهم على أعدائهم. ومثله ما أنشد أبو تمام:

لَأَيَّةِ حَرْبٍ أَوْ لَأَيِّ مَكَانٍ

إِذَا اسْتَجَدُّوا لَمْ يَسْأَلُوا مِنْ دَعَاهُمْ

وقال ابن هرمة في أثر الكلب بالضيف:

لَيْسَقَطَ عَنْهُ وَهُوَ بِالثَّوْبِ مَعْصَمٌ

وَمُسْتَنْبِحٌ تَسْتَكْشِطُ الرِّيحُ ثَوْبَهُ

لِيَنْبِحَ كَلْبٌ أَوْ لِيَفْرَغَ نَوْمٌ

عَوَى فِي سَوَادِ اللَّيْلِ بَعْدَ اعْتِسَافِهِ

لَهُ عِنْدَ إِتْيَانِ الْمُهَيَّبِينَ مَطْمٌ

فَجَاوَبَهُ مُسْتَسْمِعُ الصَّوْتِ لِلْقَرَى

يكاد إذا ما أبصرَ الضيفَ مُقبِلاً

وقال عمران بن عصام ويروى لنصيب:

لعبد العزيز على قومه

فبابك ألينُ أبوابهم

وكلبك أنسُ بالمعتفينَ

وكفك حينَ ترى السائلينَ

فمنك العطاءُ ومنا الثناء

وقال الحطيئة في خلاف ذلك:

ملوا قراه وهرته كلابهم

وقال بشار في قريب من المعنى الأول:

سقى الله القباب وتل عيدي

وأيام لنا قصرت وطالت

وقال آخر:

يكلمه من حبه وهو أعجمُ

وغيرهم من غامرة

ودارك مأهولة عامره

من الأم بابنتها الزائره

أندى من الليلة الماطرة

لكل مخبرة سائره

وضرسوه بأنياب وأضراس

وبالشرفين أيام القباب

على فرعان نائمة الكلاب

جبان الكلب مهزول الفصيل

معناه أن الكلب يضرب إذ نبح الضيف، فهو جبان ويؤثر الضيف باللبن، والفصيل مهزول. وقالوا أمدح بيت قالته العرب قول النابغة الجعدي:

فتى تم فيه ما يسر صديقه

على أن فيه ما يسوء الأعدايا

وهذا غاية المدح، لأن الرجل إذ قدر على النفع والضرر فقد كمل، ولهذا قيل في البرامكة:

عند الملوك مضرة ومنافع

وأرى البرامك لا تضر وتنفع

لا يعرف أمجاهم أم مدحهم، لأنه إذا نفى عنهم أن يضرُوا فقد قصرهم، وقد قيل:

إذا أنت لم تنفع فضر فإنما

يراد الفتى كيما يضر وينفع

وقد تداول الناس معنى النابغة فقال بعضهم، وهو من أحسن ما يروى عنه:

متى تهزز بني قطن تجدهم

سيوفاً في عواتقهم سيوف

جلوس في مجالسهم رزان

وإن ضيف ألم فهم وقوف

إذا نزلوا حسبتهم بدوراً

وإن ركبوا فإنهم حتوف

وقال آخر:

فذلَّ أعناق الصعاب ببيأسه
وأعناق طلاب الندى بالفواضلِ
فما انقبضت كفاهُ إلَّا بصارم
ولا انبسطت كفاهُ إلَّا بنائلِ

وقال محمد بن بشر الأزدي:

فتى وقف الأيام بالعتب والرضا
على بذل مال أو على حد منصلِ
وما إن له من نظرة ليس تحتها
غمامة غيث أو ضبابة قسطلِ

وقال آخر:

فتى دهره شطران فيما ينويه
فلا من بغاة الخير في عينه قذى
وفي بأسه شطر وفي جوده شطر
ولا من زئير الأسد في أذنه وقر

وقد أحسن البحري في هذا المعنى وهو قوله:

هو العارضُ الثجاجُ أخضلَّ جوده
وإطار حواشي برقه فتلها
إذا ما تلظى في وغي أصنع العدى
وإن فاض في أكرومة غمر الرُّبا
رزين إذا ما القوم خفت حلومهم
وقور إذا ما حادث الدهر أجلبا
حياتك أن يلقاك بالجوود راضيا
وموتك أن يلقاك بالبأس مغضبا
حرون إذا عاززته في ملمة
فإن جئته من جانب الذل أصحابا
إذا هم لم يقعد به العجز مقعدا
وإن كف لم يذهب به الحزن مذهبا

وقال الأسدي في نفي الخير والشر عن المذكور وهو من أشد الهجاء وأدله على الخمول:

فحسبك في القوم أن يعلموا
بأنك فيهم غني مضر
وأنت مليح كلحم الحوار
فلا أنت حلو ولا أنت مر

وقال غيره:

شبيخ من بني الجارو
د لا خير ولا شر

وقال آخر:

ولقد نزلت على زياد مرة
فطننته شيخا يضر وينفع
فإذا زياد في الديار كأنه
مشط يقبله خصي أصلع

وقد أحسن البحري في المعنى الأول وهو قوله:

ديوان المعاني - أبو هلال العسكري

فَللهُ تقوَاهُ وللمجدِ سائرُهُ
فلا الغيثُ ثَانِيَةٌ ولا اللبثُ عَائِرُهُ

هو الملكُ الموهوبُ للبأسِ والتقى
له البأسُ يُخشى والسماحةُ تُرتجى
كَأنه من قول منصور وهو من المعنى الذي نحن فيه:

وصولته لا يستطيعُ خطرُها
يُؤملُ جدواها ويُخشى ذمارها
أتاها حياها أم أتاها بوارها
وخيرٌ وإلّا فالدماءُ قطارها
أخو الجود والنعمى اللباب صغارها
ومن سابقات لا يشق غبارها
من الدهر أعناقُ فأنت قصارها

هو الملكُ المملوكُ للمجد والتقى
لقد نشأتُ للشامِ منك سحابةٌ
فطوبى لأهل الشامِ أم ويل أمها
فإن سلموا كانت غمامة نعمة
أبوكَ أبو الأملاك يحيى بن خالدٍ
وكائن ترى في البرمكيين من به
طبيبٌ بأخبار الأمور إذ التوت
وبعد بيت النابغة الجعدي قوله:

جوادٌ فما يبقي من المالِ باقيا
إذا لم يرح للمجد أصبح غاديا

فتى كملت أخلاقه غير أنه
أشم طوال الساعدين شمردلٌ

أخبرنا أبو أحمد، أخبرنا محمد بن علي الأجرى ببغداد، حدثنا أبو العيناء قال: قال الأصمعي: أنشدت
الرشيد أبيات النابغة الجعدي حتى انتهت إلى قوله:

إذا لم يرح للمجد أصبح غاديا

أشم طوال الساعدين شمردلٌ

فقال الرشيد: ويله ولم يروحه للمجد؟ ألا قال:

إذا راح للمعروف أصبح غاديا

فقلت: وأنت، والله، يا أمير المؤمنين أعلم منه بالشعر، وكان الرشيد جيد المعرفة ثاقب الفطنة، قال لأبي
نواس: لم وثب بك أهل مصر؟ قال لقولي:

فإن عصا موسى بكف خصيبٍ

فإن يك باقي إفك فرعون فيكمُ

قال: فوثبوا بي وأرادوا قتلي، وقالوا: جعلت معجزة موسى لخصيب؟ فقال له الرشيد: ألا قلت:

فباقي عصا موسى بكف خصيبٍ

فإن كان باقي إفك فرعون فيكمُ

فيكون شعرك أحسن ويكون سالماً من التبعة؟ فقال: والله يا أمير المؤمنين إنك لأشعر مني، وإني لم أفطن لذلك، وأنشده العماني الراجز في صفة الفرس:

كأن أذنيه إذا تشوّفاً قادمةً أو قلماً محرّفاً

فقال له الرشيد: دع كأن وقل: تخال حتى يستوي شعرك، وكان قد لحن العماني ولم يعرف ولم يفطن له أهل المجلس حتى قال له الرشيد ذلك، فتعجبوا من علمه وفطنته.

وقالوا: أمدح بيت قالته العرب قول حسان: بيض الوجوه كريمة أحسابهم=شم الأنوف من الطراز الأول

يغشون حتى ما تهرُّ كلابهم لا يسألون عن السواد المقبل

وقبله:

لله در عصابة نادمتهم يوماً بجلق في الزمان الأول

أولاد جفنة حول قبر أبيهم قبر ابن مارية الكريم المفضل

ثم قال:

فلبثتُ أزماناً طوالاً فيهم ثم ادكرت كأنني لم أفعل

وفتيّ يحب المجدَ يجعل ماله من دون والده وإن لم يسأل

قوله: بيض الوجوه معناه مشهورون ببهاء ولم يعن بهم البياض، وقد تضمن هذا اللفظ معنى اليأس والجد وغيرهما من خلال الخير، لأن الإنسان لا يكون نبيهاً مشهوراً حتى يقال عنه: أبيض الوجه، وأغر، ووضاح، إلا إذا جمعها وما يجري معها. قال الراجز:

فهن يحملن فتىً وضاحاً

وقال أبو طالب عن النبي صلى الله عليه وسلم:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه

وقال السموءل:

ثمالُ اليتامى عصمةً للأراملِ

لها غررٌ معروفةٌ وحجولُ

وأيامنا مشهورةٌ في عدونا

أراد بالغرة والحجول الشهرة.

وقلب بعض أهل البصرة قول حسان:

بيض الوجوه كريمة أحسابهم

فقال:

سودُ الوجوهِ لئيمةٌ أحسابُهُم

كما قلب بعضهم بيت أبي فراس:

فُطسُ الأنوفِ من الطرازِ الآخرِ

يندبُ شجواً بين أترابِ

ويلطمُ الوجهَ بعنابِ

يا قمراً في مأتَمِ

بيكي فيذري الدرَّ من نرجسِ

فقال:

يندبُ شجواً بتخاليطِ

ويلطمُ الشوكِ ببلوطِ

وأعور أبصرتُ في مأتَمِ

بيكي فيذري البعر من كوةِ

وأخذ حسان قوله:

ثم ادركرت كأنني لم أفعل

من قول أبي كبير:

وإذا مضى شيءٌ كأن لم يفعل

فأذنُ وذلك ليس إلَّا حينه

وقال ابن شبرمة أمدح ما قالت العرب قول الحطيئة:

وإن عاهدوا أوفوا وإن عقدوا شدوا

وإن أنعموا لا كدروها ولا كدوا

من اللوم أو سدوا المكان الذي سدوا

وما قلتُ إلَّا بالذي علمتُ سعدُ

وإن غضبوا جاء الحفيظةُ والحدُ

أولئك قومٌ إن بنوا أحسنوا البُنا

وإن كانتِ النعماءُ فيهم جزوا بها

أقلوا عليهم لا أبا لأبيكمُ

ويعذلني أبناءُ سعدٍ عليهمُ

يسوسون أحلاماً بعيداً أناتها

ولعمري إن معاني هذه الأبيات أباكار ليس للعرب مثلها، وكل من تناولها فإنما استعارها من الحطيئة،

وهي جامعة لخصال المدح كلها، وقوله:

جاء الحفيظة والحد

وروي والجد والحد من قولك حد السيف وحد السنان، والجد خلاف الهزل والمختار الحد بالحاء. يقول

الحطيئة في بني لأي بن شماس من قريع، وكان الزبرقان بن بدر لقي الحطيئة في سفر فقال: من أنت؟

فقال: أنا حسب موضوع أبو مليكة. فقال له الزبرقان: إني أريد وجهاً، فصر إلى مترلي وكن هناك حتى

أرجع فصار الحطيئة إلى امرأة الزبرقان، فأنزلته وأكرمته، فحسده بنو عمه، وهم بنو لأي فسدوا إلى

الخطيئة وقالوا له: إن تحولت إلينا أعطيناك مائة ناقة، ونشد إلى كل طنب من أطناب بيتك حلة محبرة، وقالوا لامرأة الزبرقان: إن الزبرقان إنما قدم هذا الشيخ ليتزوج بنته، فقدح ذلك في نفسها، فلما أراد القوم النجعة تخلف الخطيئة وتغافت امرأة الزبرقان عنه، فاحتمله القريعيون ووفوا له بما قالوا، فأخذ في مدحهم وهجا الزبرقان فقال:

أزمتُ يأساً مبيناً من نوالكم
دع المكارم لا ترحل لبغيتهما
ولا ترى طارداً للحر كالياس
من يفعل الخير لا يعدم جوازيه
وأقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي
لا يذهبُ العرفُ بين الله والناسِ

فاستعدى الزبرقان عليه، فحكم عمر حسان فقال حسان: ما هجاه ولكن سلح عليه. ثم حبس عمر الخطيئة فقال يستعطفه:

ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ
ألقيت كاسبهم في قعر مظلمة
حمر الحواصل لا ماء ولا شجر
لكن لأنفسهم كانت بك الأثر
فاغفر عليك سلام الله يا عمر
ما أتروك بها إذ قدموك لها

فأخرجه عمر وأجلسه على كرسي، وأخذ شفرة وأوهمه أنه يريد قطع لسانه، فضج وقال: إني والله يا أمير المؤمنين، قد هجوت أُمي وأب ونفسي فتبسم عمر وقال: ما الذي قلت؟ قال: قلت لأبي وأُمي:

ولقد رأيتك في النساء فسؤتني
وأبا بينك فسأعتني في المجلس
وقلت لأبي خاصة:

فبئس الشيخ أنت لدى تميم
وقلت لأمي خاصة:

تتحي فاجلسي مني بعيداً
أغربالاً إذا استودعت سرّاً
أراح الله منك العالمينا
وقلت لامرأتي خاصة:

أطوف ما أطوف ثم آوي
إلى بيت قعيدته لكاع
وقلت لنفسي:

أبت شفتاي اليوم إلا تكلماً
أرى لي وجهاً قبح الله خلقه
بسوء فلا أدري لمن أنا قائله
فقبح من وجهه وقبح حامله

وقد هجا أيضاً من أحسن إليه فقال:

منحت، ولم تبخل، ولم تعطِ طائلاً

فسيان لا ذمّ عليك ولا حمدُ

ثم خلى سبيله عمر، وأخذ عليه ألا يهجو أحداً، وجعل له ثلاثة آلاف درهم اشترى بها من أعراض المسلمين، فقال يذكر نهي إياه عن الهجاء ويتأسف:

وأخذتَ اطرار الكلام فلم تدع

شتماً يضرُّ ولا مديحاً ينفعُ

ومنعنتي عرضَ البخيل فلم يخفُ

شتمي وأصبحَ آمناً لا يجرعُ

وكان الحطيئة يذم البخل، كما ترى، وهو أبخل الناس، اعترضه رجل وهو يرعى غنماً له، فقال له: يا راعي الغنم، وكان بيد الحطيئة عصاً يزجر بها الغنم، فرفعها وقال: عجراً من سلم؟ فقال الرجل: إنما أنا ضيف فقال: للأضياف أعددتها. فتمثلت به العرب وقالوا: أبخل من الحطيئة. وكان أحد الحمقى أوصى عند موته بأن يحمل على حمار وقال: لعلي إن حملت عليه لا أموت، فإني ما رأيت كريماً مات عليه قط. وقال:

لكل جديد لذة غير أنني

رأيتُ جديدَ الموتِ غيرَ لذيدِ

وقيل له: أوص فقال: أوصي أن مالي للذكور دون الإناث، قالوا: فإن الله لا يقوله! قال: لكني أقوله، وقالوا له: قل لا إله إلا الله. قال: أشهد أن الشماخ أشعر غطفان: وأخذ قوله:

أغربالاً إذا استودعت سرا

من قول كعب بن زهير حيث يقول:

ولا تمسك بالعهد الذي عهدتُ

إلّا كما يمسك الماء الغرابيلُ

أخبرنا أبو أحمد، عن الصولي عن أبي خليفة عن دماذ عن أبي علي القداح وعباد بن سليم الخضرمي قال: أنشد الحطيئة عمر:

مهاريسُ يُروي رسلها ضيفَ أهلها

إذا النارُ أبدتْ أوجهَ الخفّراتِ

عظامٌ مقيل الهام غلبُ رقابها

تباكر ورد الماء في السبراتِ

يُزيلُ القتادَ جذبها عن أصوله

إذا ما غدت مقورةً خرصاتِ

وكان هجا قومه فلما بلغ إلى قوله:

فإن يصطنعني الله لا أصطنعكم
ولم دفر مثل التيوس ونسوة
ولا أعطكم مالي على العثرات
مماجين مثل الأتن التثرات

قال عمر: بئس الرجل أنت، تمدح إبلك وتهجو قومك؟ فخرج وقال:

رأيت ابن خطاب تجاهل بعدما
ألا قد علمنا أن ما قال هكذا
رأيت له عقلاً وما كان جاهلاً
ومن قال حقاً غير ما قال باطلاً

وقالوا: أمدح أبيات قيلت ما أنشدناه أبو أحمد عن مهلهل بن يموت عن أبيه عن الجاحظ:

اختر فناء بني عمرو فإنهم
إن يسألوا الخير يُعطوه وإن جهدوا
أولو فضولٍ وأقدارٍ وأخطارٍ
وإن توددتهم لأنوا وإن شتموا
كشفت أذمارٍ سرٍ غير أسرارٍ
هينون لينون أيسارٌ ذوو يسرٍ
أبناءً مكرمةً أبناءً إيسارٍ
مثل النجوم التي يسري بها الساري

وهي على الحقيقة أمدح أبيات قيلت.

وقالوا: أمدح بيت قيل قول الخنساء في أخيها:

أغرُّ أبلجُ تأنمُ الهداةُ به
كأنه علمٌ في رأسه نارٌ

أخبرنا أبو أحمد، حدثنا الأنباري عن أبي عكرمة الضبي، أخبرنا أبو دعامة عن صالح بن محمد بن المسيب قال: سمعت المفضل الضبي يقول: أتاني رسول المهدي فقال: أجب فهالني ذلك، فمضيت معه حتى دخلت، وعنده علي بن يقطين، وعمر بن بزيع، والمعلّى مولاة فسلمت فرد وقال اجلس، فجلست فقال: أخبرني بأمدح بيت قالته العرب. فتحيرت ثم جرى على لساني قول الخنساء:

وإن صخرًا لمولانا وسيدنا
أغرُّ أبلجُ تأنمُ الهداةُ به
وإن صخرًا إذا يشنو لنجَارُ
كأنه علمٌ في رأسه نارٌ

فقال: أخبرت هؤلاء فأبوا علي، فقلت: يا أمير المؤمنين كنت أحق بالصواب. فقال: يا مفضل، أسهرتني أبيات ابن مطير الأسدي:

وقد تغدُرُ الدنيا فيضحى غنيها
وكم قد رأينا من تكدرٍ عيشةٍ
فقيراً ويغنى بعد بؤسٍ فقيرها
وأخرى صفا بعد اكدرارٍ غديرها
فلا تقربِ الأمرِ الحرامِ فإنه
حلاوتها تفني ويبقى مريرها

ثم قال: حدثني يا مفضل، فقلت: أي الأحاديث يشتهي أمير المؤمنين؟ قال: أحاديث الأعراب، فحدثته حتى كاد النهار ينتصف، فقال: كيف حالك؟. فقلت: كيف حال رجل مأخوذ بعشرة آلاف درهم. فقال: يا عمر بن بزيع أعطه عشرة آلاف درهم لقضاء دينه، وعشرة آلاف درهم لنفقة عياله، فانصرفت بها. وكانوا يقولون: قاتل الله الخنساء، ما رضيت أن جعلت أخاها جبلاً حتى جعلت في رأسه ناراً، فبالغت أشد المبالغة. واعترض ابن الرومي قولها فقال:

من نسل شيبان بين الطلح والسلم

هذا أبو الصقر في مكارمه

على البرية لا نارٌ على علم

كأنه الشمس في البرج المنيف به

وتبعته فقلت:

وشرهم لشرار الناس سوار

خير الورى لخيار الناس كلهم

كالشمس لا علم في رأسه نار

منبه الذكر معروف طرائقه

ومن جيد ما قيل في النباهة قول الأول، أنشده أبو تمام:

كالشمس لا تخفى بكل مكان

إني إذا خفي الرجال وجدنتني

وقال بشار:

ذرت بي الشمس للقاضي وللداني

أنا المرعت لا أخفى على أحد

وقلت:

نداه أول والغيث ثاني

أتأمل أن تنال ندى كريم

فلا يخفى على ناء ودان

ويجري والمجرة في عنان

على نأي المحلة والمكان

تصور في القلوب فليس ينأى

تجدد البشر في وجه الزمان

إذا عبس الزمان فمِل إليه

وقلت:

وجار ابن عيسى ، كيف يخشى ويخضع

تريدون أن أخشى وأخضع للأذى

ولا فيه إقصار ولا عنه مرجع

فتى بأسه كالدهر مأمّن ملجأ

به البدر يعلو أو سنى الصبح يسطع

أغر شهير في البلاد كأنما

ومثله قول القاسم بن حنبل رحمه الله تعالى:

لو انك تستضيء بهم أضأوا
ونور لا يفنيه العماء
ومن حسب العشيرة حيث شاؤوا
ومكرمة دنت لهم السماء

من البيض الوجوه بني سنان
لهم شمس النهار إذا استقلت
هم حلوا من الشرف المعلى
فلو أن السماء دنت لمجد

وقالوا: أمدح بيت قالته العرب قول الخطيئة:

تجدُ خيرَ نارٍ عندها خيرُ موقدٍ

متى تأتته تَعشو إلى ضوءِ نارِهِ

وقالوا: أمدح المدح ما يكون بالترفضيل، وهو أن يقول: فلان خير من فلان، وفلان أكرم من فلان، ومن أجود ما جاء في ذلك قول أبي تمام:

لما جرى وجريت كنت قطوفا
مثل الربيع حياً وكان خريفاً
في الذروة العليا وكان رديفاً

كم من وساع الخطو في طلب الندى
أحسنتما صفدي ولكن كنت لي
وكلاكما اقتعد العلا فركبتها

وقال:

إذا طلعت باعت بصغر كواكبه

كواكب مجد يعلم المجد أنها

وقال ابن الرومي:

كأنها ملة الإسلام في الملل

تلوح في دولة الأيام دولتهم

وقلت:

ودانت لك الدنيا وذل لك الدهر
تطيب بك الدنيا وينعمر العمر
على صفحتي ليل وأنت لهم بدر
أولئك أئامد وأنت لهم بحر
فهم شفق فيها وأنت بها فجر
فإن العلا روض وأنت به زهر
لها أنجم من زهر أخلاقكم زهر

نصرت على الأعداء فليهنك النصر
فأنت كإقبال الشبيبة والصبأ
وليس كرام الناس إلا كواكبا
وفي الناس أجواد كثير وإنما
فإن أظلم الأحداث وأسود ليلها
أبا قاسم فخراً على المجد والعلا
غدت أرضنا منكم سماء مظلة

وبعد بيت الخطيئة:

وأنت امرؤٌ من تعطه اليوم نائلاً
ترى الجودَ لا يدني من المرءِ حنقه
ومثله قول ليلي الأخيلية في توبة:

بكفيك لم يمنحك من نائلِ الغدِ
كما البخل للانسان ليس بمخلدِ

فلا يبعدنك الله يا توبُ إنها
فنعم فتى الدنيا وإن كان فاجراً
فتى كان أحيا من فتاة خريدة
فتى ينهل الحاجات ثم بعلها

لقاء المنايا دارعاً مثل حاسرِ
وفوق الفتى إن كان ليس بفاجرِ
وأشجع من ليث بخفان خادرِ
فيطلعها عنه ثنايا المصادر

تقول: لا يمنعه قضاء الحاجة الأولى عن قضاء الحاجة الأخرى، كما قال الآخر:

وأرضع حاجةً بلبانٍ أخرى
يقول: فيرفعها المشنون عليه حتى كأنها ثنية رجع:

كذلك الحاجُ ترضع باللبانِ
وأفعل من نالت صرُوفُ المقادرِ

فأقسم أبكى بعد توبة هالكاً
وكان بيت الأعشى:

وبات على النارِ الندى والمحلِقُ

نُشبٌ لمقرورين يصطليانها
يستحسن حتى قال الخطيئة:

متى تأتته تعشو إلى ضوء ناره
على أن قول الأعشى:

وبات على النار : الندى والمحلِق

من أجود الكلام وأبلغه، والمحلِق الممدوح ومثله قول حماس بن ثامل:

وإنَّ على النارِ : الندى وابن ثامل

فقلت له أقبل فإنك راشدٌ

وأخبرنا أبو أحمد، أخبرنا أبو الحسن الأخصش، أخبرنا ثعلب قال: اجتمعنا عند أحمد بن إبراهيم فأنشده
رجل:

على نفسه ومشيغ غناه

أمر مالك قاصرٌ فقره

فقال أحمد: قد جاء مثل هذا كثيراً.
فأنشد:

ساداتها عدوه بالخنصرِ

فتى إذا عدت تميم معاً

ألبسه الله ثيابَ العلا

فقال أحمد: وقد جاء مثل هذا، فأنشد الرجل:

فلم تطل عنه ولم تقصر

هل سب من أحد أو سبَّ أو بخلا

أعدت ثلاثَ خلالٍ قد عرفن له

فقال أحمد: وقد جاء مثله هذا، فغاظني فقلت: هات. فقال: نعم المدح الغريب الذي لم يؤت مثله:

لله درُّ أبي المغيِّثِ فإنه

وقريب من هذا قول أبي البحتري:

حسنُ الفعَالِ ضعيفُ خَبَطِ الدرهمِ

حتى توهمناه مخروق اليد

وفي خلاف قوله:

فلم تطل عنه ولم تقصر

قول ابن الرومي:

تجاوزُ حدَّ الحسنِ لو كان يشكرُ

بعوراءِ عيني جدَّه كان ينظرُ

سوى أنها ظلَّت تطولُ وتقصرُ

مدحتُ سليمانَ المِغْلَبَ مدخَةً

فعمي عنها ناظرأه كأنما

سبغت عليه حليةً ليس عيُّها

بجحو سليمان بن عبد الله بن طاهر.

وسمعت عم أبي يقول: أمدح شيء قيل قول الأول:

طابوا وطابَ من الأولاد ما ولدوا

قومٌ بعزهم أو مجدهم قعدوا

لا ينزعُ اللهُ عنهم ماله حُسدوا

قوم سنان أبوهم حين تنسبهم

لو كان يقعدُ فوقَ الشمسِ من كرمٍ

محسِّدون على ما كان من نعمٍ

فأخذ جماعة قوله:

محسِّدون على ما كان من نعم

فصرفوه فيه وحده. ومنها قول أبي تمام:

للحاسدِ النعمى على المحسودِ

ما كان يُعرفُ طيبُ عُرفِ العودِ

لولا التخوفُ للعواقبِ لم يزل

لولا اشتعالُ النارِ فيما جاورتُ

وقال البحتري:

ولن يستبينَ الدهرَ موضعَ نعمةٍ

إذا أنتَ لم تدلُّ عليها بحاسدٍ

وقال:

محسدون كأن المكرماتِ أبتُ

أن توجدَ الدهرَ إلّا عند محسودٍ

محسدونَ وشرُّ الناسِ منزلةً

من عاش في الناسِ يوماً غيرَ محسودٍ

وسمّعه يقول: من أوائل المدح الجيد الذي لا نظير له، قول أمية بن أبي الصلت في عبد الله بن جدعان:

عطاؤك زينٌ لامرئٍ إن حبوته

بيذلٍ وما كلُّ العطاء يزينُ

وليس بشينٍ لامرئٍ بذلٌ وجهه

إليك ، كما بعضُ السؤال يشين

وقال زهير:

من يلقَ يوماً على علّاته هراماً

يلقَ السماحةَ منه والندى خُلقاً

لو نال حيٌّ من الدنيا بمكرمة

أفقَ السماءِ لنالت كفه الأفقا

قد جعلَ المبتغونَ الخيرَ في هَرَمٍ

والسائلونَ إلى أبوابه طُرُقاً

وروى بعض الرواة للنابغة، وروي لسعيد:

واللهُ واللهُ لنعمَ الفنى

الاعرجُ لا النكسُ ولا الخامل

الحاربُ الوافرُ والجابرُ ال

محروبُ والمرجلُ والجامل

والطاعنُ الطعنةَ يومَ الوغى

ينهلُ منها الأسلُ الناهلُ

والقائلُ القولَ الذي مثله

يمرعُ منه البلدُ الماحلُ

والغافرُ الذنبَ لأهلِ الحجا

والقاطعُ الأقرانَ والواصل

وقال بعض الإسلاميين وأحسن:

خُلقتُ أناملهُ لقائمٍ مُرهَفٍ

ولبتُ فائدةً، وذروة منبرٍ

يلقى الرماحَ بوجهه وبصدره

ويقيمُ هامته مقامَ المغفرِ

ويقول للطرفِ : اصطبر لشبا القنا

فهدمت ركنَ المجد إن لم تعقر

وإذا تأملَ شخصَ ضيفٍ مُقبلٍ

متسرّبِلِ سربالٍ ليلٍ أُغبرِ

أوماً إلى الكوماءِ : هذا طارقُ

نحرتني الأعداءُ إن لم تتحري

وسمعت الشيخ أبا أحمد يقول: أمدح شيء قاله محدث قول مروان بن أبي حفصة في معن بن زائدة الشيباني:

بنو مطر يوم اللقاء كأنهم
أسودّ لها في غيل خفان أشبل
هم المانعون الحار حتى كأنما
لجارهم بين السماكين منزل
بهاليل في الإسلام سادوا ولم يكن
كأولهم في الجاهلية أول
هم القوم إن قالوا أصابوا وإن دُعوا
أجابوا وإن أعطوا أطابوا وأجزلوا
ثلاث بأمثال الجبال حياهم
وأحلامهم منها لدى الوزن أثقل
ولا يستطيع الفاعلون فعالهم
وإن أحسنوا في النائبات وأجملوا

ثم أخبرنا المفجع، أخبرنا أبو العباس محمد بن يزيد قال: بلغني أن يحيى بن خالد البرمكي قال لشراحيل بن معن بن زائدة: أي شعر قاله ابن أبي حفصة في أبيك أشعر؟ قال قوله:

نعم المناخ لراغب أو راهب
ممن تصيب جوائح الأزمان
معن بن زائدة الذي زيدت به
شرفاً إلى شرف بنو شيبان
مطر أبوك أبو الأهله والذي
بالسيف حاز هجائن النعمان
نفسى فداء أبو الوليد إذا علا
رهج السنابك والرماح دواني

فقال يحيى: أنت لا تعلم ما قيل في أبيك، أين أنت عن قوله:

بنو مطر يوم اللقاء كأنهم
أسودّ لها في غيل خفان أشبل

وأنشد الأبيات المتقدمة وزاد:

تشابه يوماء علينا فأشكلا
فما نحن ندرى أي يوميه أفضل
أيوم نداه الغمر أم يوم بأسه
وما منهما إلا أغر محجل

وأخبرنا قال: أخبرنا محمد بن يحيى بن علي عن أبيه عن إسحاق الموصلي، أخبرنا أبو يوسف القاضي - وكان عدليل الرشيد في طريق الحج - قال: اعترضه أعرابي فأنشد أبياتاً فزبره وقال: ألم أنهكم عن قول مثل هذا الشعر؟ ألم أقل لكم امدحوني بمثل قول القائل:

بنو مطر يوم اللقاء كأنهم

وذكر الأبيات المتقدمة، قال أبو يوسف: فقلت له: فيمن قيلت؟ قال: في أب هذا الشاب، الذي يسير في ظل القبة، فقلت للشاب: من أنت؟ فقال: شراحيل بن معن بن زائدة. قال إسحاق: فسمعت شراحيل يقول: ذلك اليوم آثر عندي من الدنيا بحذافيرها. وأنشد بعض أهل الأدب قول ابن أبي طاهر وقال: لو استعمل الإنصاف لكان هذا أحسن مدح قاله متقدم ومتأخر:

إذا أبو أحمد جادت لنا يده
لم يُحمد الأجدان: البحرُ والمطرُ
وإن أضاعت لنا أنوارَ غرته
تضاءلَ النيرانُ الشمسُ والقمرُ
وإن مضى رأيه أو حدَّ عزمته
تأخر الماضيان: السيفُ والقدرُ
من لم يكن حذراً من حدِّ صولته
لم يدر ما المزعجان: الخوفُ والحذرُ
حلوٌ إذا أنت لم تبعث مرارته
فإن أمرَّ فحلَّوَّ عنده الصبرُ
سهلُ الخلائقِ إلا أنه خشنٌ
لَينُ المهزلةِ إلا أنه حجرُ
لاحيةٌ ذكرٌ في مثلِ صولته
إن صال يوماً ولا الصمامةُ الذكرُ
الجودُ منه عيانٌ لا ارتيابَ به
إذ جودُ كلِّ جوادٍ عنده خيرُ

ومن المديح القليل النظير، قول علي بن محمد بن الأفوه:

إذا الرجال طغت آراؤهم وعموا
بالأمر ردَّ إليه الرأي والنظرُ
أوفوا من المجدِ والعلياءِ في قُللِ
شمُّ قواعدهنَّ: البأسُ والجودُ
سبَّ اللقاءِ إذا شيمت مخائلهم
بُسلُ اللقاءِ إذا صيدَ الصناديدُ
محسِّدون ومن يعلقُ بحبلهم
من البرية يُصبحُ وهو محسودُ

وقال الفرزدق وهو أجود ما قيل في الجود عوداً على بدء:

له راحةٌ بيضاءٌ يندي بنانها
قليلٌ إذا اعتلَّ البخيلُ اعتلالها
جوادٌ إذا اعطتكَ يوماً يمينه
وُعدتَ غداً عادتْ عليك شمالها

ونحوه قول الأعرابي في عبد الملك:

ولقد ضربنا في البلاد فلم نجد
أحداً سواك إلى المكارم يُنسبُ
فاصبر لعادتنا التي عودتنا
أو لا فأرشدنا إلى من نذهب

وقول الآخر، وهو من أجود ما قيل في حمد الرجل مكانه من قومه:

رَأَيْتَكُمْ بَقِيَّةَ حَيِّ قَيْسٍ
وَهَضْبَتَةَ الَّتِي فَوْقَ الْهَضَابِ
تُبَارُونَ الرِّيحَ إِذَا تَبَارَتْ
وَتَمْتَثِلُونَ أَفْعَالَ السَّحَابِ
يَذْكُرُنِي مَقَامِي فِي ذُرَاكُم
مَقَامِي أَمْسٍ فِي ظِلِّ الشَّبَابِ

ومن عادة الناس أن يتكروها ما هم فيه من العيش وما هم عليه الأحوال وقد حمد هذا حاله معهم، وعيشه فيهم، حتى شبهه بعيشه في ظل الشباب، وهو من أجود ما قيل في هذا المعنى. وقالوا: أمدح بيت قاله محدث، قول علي بن جبلة المعروف بالعكوك في أبي دلف:

إِنَّمَا الدُّنْيَا أَبُو دَلْفٍ
فَإِذَا وَلَّى أَبُو دَلْفٍ
بَيْنَ مَبْدَاهِ وَمَحْتَضِرِهِ
وَلَّتْ الدُّنْيَا عَلَى أَثَرِهِ

قال بعض من حضر: لا يجوز أن يكون مثل هذا الشعر لهذا، وإنما ازدراه لدمامته وعمشه، فقال له أبو دلف: أما تسمع ما يقول الناس فيك؟ إن الشعر لغيرك لأن ألفاظه ألقاظ كاتب متأدب. قال: الإمتحان يزيل الظنة عني، وما ظلم من استبرأ، فكيف رأى الأمير في الامتحان؟ قال: نعطيك صدوراً لتردفيها بأعجاز. قال: ما اشططت ولا كلفت، إلا الذي من نكب عنه، حق عليه القول. فدعا أبو دلف بدواة وقرطاس وكتب:

رَبِيعٌ لَمَنْشُورٍ عَلَى مَفْرَقِهِ
أَهْدَامُ شَيْبٍ جُدَّدَ فِي رَأْسِهِ
ذَمُّ لَهُ عَهْدَ الصَّبَا حِينَ انْتَسَبَ
مَكْرُوهَةَ الْجَدَّةِ انْضَاءَ الْعَقَبِ

ثم ناوله الدرج فقال: كم لي في ذلك من الأجل؟ قال: شهر. قال: فانطلق بهما إلى رحلي. قال: ليس الامتحان للشاعر في بيته بمزيل للظنة عنه، ولكن تبوأ حجرة من القصر. قال: فليأمر الأمير بها. ففعل وركب إلى دار المأمون، فأبطأت كرتة، فلما رجع دخل عليه علي والدرج بيده، قال: قد أجزت البيتين بقصيدة. قال: لقد خشيت عليك النقص من الإعجال! قال إليك تساق الرفاق. ثم أنشدني بيتي أبي دلف. ثم قال:

أَشْرَقْنَ فِي أَسْوَدَ اأَزْرِينَ بِهِ
فَاعْتَضْنَ أَيَّامَ الْغَوَانِي وَالصَّبَا
كَانَ دُجَاهَ لَهْوَى الْبَيْضِ سَبَبُ
فَنَازَلُ لَمْ يُبْتَهَجْ نَزْوَلُهُ
عَنْ مِيَّتِ مُطْلَبِهِ فَنَ الْأَدْبُ
لَمْ أَرَ كَالشَّيْبِ وَقَاراً يَحْتَوَى
وَرَا حُلَّ أَبْقَى جَوَى حِينَ ذَهَبَ
كَالشَّبَابِ الْغَضُّ ظَلاًَّ يَسْتَلِبُ
وَصَاحِباً حَرّاً، عَزِيزاً الْمَصْطَحِبُ
كَانَ الشَّبَابُ لَمَّةً أَزْهَى بِهَا

إذ أنا أجري واثباً في غيّه
وأذعرُ الربربَ عن أطفاله
مطرُذُ يرتجُ في أقطاره
تحسبه أقعد في استقباله
وهو على إرهاقه وطيه
تقولُ فيه جنبُ إذا انتنى
يخطو على عوجِ يناهبن الثرى
تحسبها نائنةً حين خطأ
يرتاد بالصيد فعارضنا به
لا يبلغُ الجهدَ به راكبه
إذا تظنينا به صدقنا
ثم انقضى ذاك كأن لم تبقه
وخلفَ الدهرَ على أعقابه
فحملَ الدهرَ ابن عيسى قاسماً
كرونق السيف انبلاجاً بالندى
لا وسنتُ عينُ رأت غرتهُ
لولا الأميرُ لغدونا هملاً
ولم يقم ببأسِ يومِ وندى
تكادُ تبدي الأرضُ ما أضمره
ويستهلُّ أملاً وخيفةً
وهو وإن كان ابنُ فرغى وائل
وبعلاه وعُلاً آبائه
يا واحدَ الدنيا ويا بابَ الندى
لولاك ما كان سدى ولا ندى

لا أعتب الدهرَ إذا الدهرُ عتبُ
باعوجي دلفي المنتسبُ
كالماءِ جالتُ فيه ريحُ فاضطربُ
حتى إذا استدبرتهُ قلتَ أكبُ
يقصرُ عنه المخزمان واللببُ
وهو كمثل القدح ما فيه جنبُ
لم يتوا كل عن شظاً ولا عصبُ
كأنها واطئةٌ على نكبُ
أوابد الوحش فأجدى واكتسبُ
ويبلغُ الريحَ به حين طلبُ
وإن تظني فوته الطرفُ لزبُ
وكل بقيا فإلى يوم عطبُ
في القدح فيه وارتجاع ما وهبُ
ينهض به فراخُ هم وكربُ
أو كغراريه على أهل الريبُ
واستيقظت نبوته من النوبُ
لم يمتثل مجد ولم يرع حسبُ
ولا تلاقى سببُ إلى سببُ
إذا تداعى خيله هلا وهبُ
إذا استهلَّ وجهه وإن قطبُ
فبسماعيه ترقى في الحسابُ
تُحوى غداة السيقِ أخطارُ القصبُ
ويا مُجيرَ الرعبِ في يوم الرهبُ
ولا قريشُ عُرفت ولا العربُ

لكنه غير مليء بالنشب

أنتَ عليها الرأسُ والناسُ ذنُبُ

قال: فجعل ينشد وأبو دلف يرجف إليه حتى مست ركبته ركبته، فلما بلغ قوله:

خذها امتحاناً من مليء بالحجا

وقرَّ بالأرض أو استقر بها

لكنه غير مليء بالنشب

قال: لا ملأني الله إن لم أملاك، يا غلام! كم في بيت المال؟ قال: ما قبضته من عامل الجبل، وهو مائة ألف درهم، قال: أعطه إياها وقليل له ذلك، قال: فأقبل عليه عقيل أخوه يعذله ويقول له: أنت على باب أمير المؤمنين، وبين ظهري قواده وأمرائه، ولا وجه لما لا يرد عليك من الجبل، فادفع إليه البعض. قال: إليك عني، والله لو شاطرته عمري لكان ذلك دون ما يستحقه علي.

ومن المديح الجيد قول مروان بن أبي حفصة:

يُحْمى بها الدينُ أو يُرعى بها الحسبُ

وليس من كنزه الأوراق والذهب

فيسنتيرُ وتخبو عنده الشهب

في كل يوم رهان تحرزُ القصبُ

بالصدق إن نزلوا والموت إن ركبوا

أهل الحلوم وأهل الشغب إن شغبوا

أقصر فمالك إلا الفوت والطلب

كفى القبائلَ معنُ كلِّ معضلةٍ

كنز المحامدِ والتقوى ذخائرهُ

أنت الشهابُ الذي يرمى العدوُّ به

بنو شريك هم القومُ الذين لهم

إن الفوارسَ من شيباً قد عُرفوا

قد جرَّبَ الناسُ قبلَ اليومِ أنهم

قل للجواد الذي يسعى ليدركه

قوله: فما لك إلا الفوت والطلب. من أحسن معنى وأجوده، وأبينه بياناً، وأشدّه إحتصاراً، وهو من قول زهير:

فلم يفعلوا أو لم يلاموا فلم يألوا

سعى بعدهم قومٌ لكي يُدركوهمُ

وقال طريح:

نالوا ولا قاربوا وقد جهدوا

قوى فتعلو وأنت مقتصدٌ

قد طلب الناسُ ما طلبتَ فما

يرفتك الله بالتكرم والت

وقلت في قريب منه:

تسامى له ضخْمُ الهمومِ هُمَامُ

إذ عنَّ مجدٌ أو تعرضَ سُؤودٌ

إذا اهتزَّ للهيجاءِ فهو مُهنَّدٌ
تواضعَ وهو النجمُ عزاً ورفعةً
أرجيه يوماً أو الأقيه ساعةً
يُريدونَ منه أن يَضمنَ وإنما
ولا عيبَ فيه غير أن ذوي الندى
بلغتَ من العلياءِ ما فاتهم معا
فمن مُبلغُ عني الأكارمَ أنهم
وأجمع بيتَ قيلَ في المديح قول أبي
قالت: ركعتَ فقلتُ: إن وراءكم
وعهدتني أمضي لشأني مطلقاً
يا من يؤملُ أن تكونَ خلاله
فلأنصحنك في المشورةِ والذي
أصدقُ وعفٌّ وجدٌ وأنصتُ وأحتملُ

وقد جمع هذا البيت جميع خصال المدح، وسمعه المتنبي فأراد أن يعيب على قاله فأتى بما لا ينطق به اللسان ولا ينطوي عليه الجنان.

ومن الأبيات الجامعة في المديح، قول ابن الرومي:

هو الغرة البيضاء من آل هاشمٍ
ومن الأبيات الجامعة لمعاني الحسن قول البحري:
ذاتِ حسنٍ لو استزادت من الحُس
فهي الشمسُ بهجةً والقضيبُ ال
وقال في هذه القصيدة:

وإذا ما عددت يحيى وعمرا
وعبيداً ومُسهرًا وجديا
وإياساً وعامراً ووليداً
وتدولاً وبحترًا وعتوداً

نع من هم أن يكون مجيداً

لم أدع من مناقب ما يُق

وقلت في المديح:

وبأس وجودٍ وخيرٍ وخيرٍ

حليفُ علاءٍ ومجدٍ وفخرٍ

وتم فأغضى تمامَ البدرِ

أضاءَ فاطرقَ ضوءَ الشمسِ

وقلت في المديح أيضاً:

وصالوا أسوداً واستهلوا سوارياً

من الغرِّ لاحوا أشمساً ومضوا ظبيّ

ومن المديح البليغ قول الأول:

متواضعٌ في القومِ وهو مُعظَّمٌ

متنبلٌ في الحيِّ وهو مُبجَّلٌ

وما أحسن في ذكر التواضع أحد كإحسان أبي تمام في قوله:

بلا منة أحسنت أن تتطولا

إذا أحسن الأقوم أن يتطاولوا

وأوصاك نبلُ القدر أن تنتبلا

فعظمتَ عن ذلك التعظم منهم

وقال البحترى في التواضع مع علو الرتبة:

فحالك: انحدارٌ وارتفاعٌ

دنوت تواضعاً وعلوتَ قدراً

ويدنو الضوء منها والشعاعُ

كذلك الشمسُ تبعدُ أن تسامى

فأتيت بهذا المعنى في بيت:

كما انحطَّ ضوءُ البدرِ وارتفعَ البدرُ

تواضع إذا مد العلاء بضبعه

وأجود ما قيل في صفة الرجل الحازم من قديم الشعر، قول لقيط بن يعمر:

رحبَ الذراعِ بأمر الحق مضطلعا

فقلدوا أمركم الله درُكم

ولا إذا عضَّ مكروهٌ به خشعا

لا مترفاً إن رخاءَ العيشِ ساعده

يكون مُتَّبِعاً طوراً ومُتَّبِعاً

ما انفكَّ يخلب هذا الدهرُ أشطره

همُّ يكادُ حشاه يحطم الضلعا

لا يطعمُ النومَ إلا ريثَ يبعثه

مستحکم الرأي لا قمعاً ولا ضرعاً

حتى استمرَّ على شزرٍ مريرته

ومن هنا أخذنا الشاعر قوله:

ولا جازعٍ من صرفه المتقلب

ولستُ بمفراح إذا الدهرُ سرني

وقول دريد بن الصمة:

لمجدُ ثناءٍ ثمَّ يزدد
وطولُ السُّرى درى عَضْبٍ مهنِّدٍ

ينازلُ أخدانَ الرجالِ وإنَّه
ويخرجُ من العزاءِ الشدةَ مصدقاً

هذا البيت أجود ما قيل في سمة الخلق من قديم الشعر:

صبورٌ على العزاءِ طلاعُ أنجدٍ
من اليومِ أعقابَ الأحاديثِ في غدٍ
لرؤيته كالمأتم المتبددِ
ومن يعله ركنٌ من الأرضِ يبعد

كميشُ الإزارِ خارجُ نصفِ ساقه
قليلُ التشكي للمصيباتِ حافظُ
إذا سارَ بالأرضِ الفضاءِ تزينتِ
فلا يبعدنك الله حياً وميتاً

موضع هذه الأبيات من باب المراثي وإنما أوردتها هنا لأن قوله فيها: قليل التشكي للمصيبات، شبيه بما تقدم من قوله الآخر:

ولا جازع من صرفه المتقلب

ومن شعر المحدثين قول أبي تمام:

أمست وأصبحتِ الثغورُ عزيفاً
فغداً جليلاً في العيونِ لطيفا
وأخيفَ في ذاتِ الآلهِ وخيفا
شزراً وتقفَ عزمه تنقيفاً
لو أنهن طبعن كَنَّ سيوفا

وعزرتُ بالسبعِ الذي بزئيره
قطب الخشونةِ والليانِ بنفسه
هزته معضلةُ الأمورِ وهزها
يقظان أحصدت التجاربُ جزمه
وسلكن من أترابه الشعل التي

وإنما أخذ وصف هذا البيت من ديك الجن وكان أبو تمام كثير الإناحة عليه وهو قوله في مراثيته:

لو كان من مطرٍ لكان هزيماً
لم تخطيء الغسلين والزقوقاً
ظلَّ لكان الحرَّ واليحوماً

ماء العبرات خدي أرضه
وبلايل لو أنهن مآكل
وكرمي بر وعسى لو أنه

ونقل البيت الأول أبو تمام إلي موضع آخر فقال:

حتى الصباح ومقلتاي سماؤه

مطرٌ من العبرات خدي أرضه

ومن ذلك قول أبي تمام:

ووعى ومبدي غارةٍ ومُعيدا

وإذا رأيتَ أبا يزيدٍ في ندى

تُدْمِي وَأَنْ مِنَ الشَّجَاعَةِ جُوداً
إِنْ كَانَ هَضْبُ عَمَارِيَتَيْنِ تَلِيدَا
كَانَ الزَّمَانُ بِأَخْرَيْنِ بَلِيدَا

أَيَقْنَتُ أَنْ مِنَ السَّمَاكِ شَجَاعَةً
وَمَكَارِماً عُنُقَ النَّجَارِ تَلِيدَةً
مَتَوَقِّدٌ مِنْهُ الزَّمَانُ وَرَبِمَا

وقال البحرني:

ظَهِيرٌ عَلَيْهِ مَا يَخِيبُ وَشَافِعُ
تَغُولُ أَقْصَى جَهْدِهِمْ وَهُوَ وَادِعُ
وَمَا يَتَكَافَى فِي الْيَدَيْنِ الْأَصَابِعُ
وَإِنْ قَالَ فَلَاعْنَاقُ صُورٌ خَوَاضِعُ
رَبَايَا عَلَى أَعْدَائِهِ وَطَلَائِعُ
وَصَدْرٌ لَمَّا يَأْتِي مِنَ الدَّهْرِ وَاسِعُ
ضَبَابَةٌ نَقَعَتْ تَحْتَهُ الْمَوْتَ نَاقِعُ
وَعَزْمٌ كَصَدْرِ الْهِنْدَوَانِيِّ قَاطِعُ
يَحَاوِلُهَا مِنْهُ الْأَرِيْبُ الْمَخَادِعُ
عَلَى طَرَفِ الرَّائِي الَّذِي هُوَ تَابِعُ
مَتَى هُوَ مَصْبُوبٌ عَلَيْهِمْ فَوَاقِعُ

أَغْرُ لَنَا مِنْ جُودِهِ وَسَمَاحِهِ
وَلَمَّا جَرَى لِلْمَجْدِ وَالْقَوْمِ خَلْفَهُ
وَهَلْ يَتَكَافَى النَّاسُ شَتَى خِلَالِهِمْ
إِذَا ارْتَدَّتْ صَمْتًا فَالرُّؤُوسُ نَوَاسِكُ
وَأَغْلَبُ مَا يَنْفِكُ مِنْ يَقْظَاتِهِ
جَنَانٌ عَلَى مَا جَرَّتْ الْحَرْبُ جَامِعُ
جَدِيرٌ بَأَنْ يَنْشَقَّ عَنِ ضَوْءِ وَجْهِهِ
تَذُودُ الدَّنَايَا عَنْهُ نَفْسٌ أُبْيَةُ
بَعِيدٌ مَقِيلُ السَّرِّ لَا يُدْرِكُ التِّي
وَمَنْكُمُ التَّدْبِيرُ لَيْسَ بِظَاهِرٍ
وَلَا يَعْلَمُ الْأَعْدَاءُ مِنْ فَرَطٍ عَزْمِهِ

لم يبق وجه من وجوه المدح في الجود والشجاعة، وتصوب الرأي، ومضاء العزيمة، والدهاء وشدة الفكر، إلا قد اجتمع ذكره في هذه الأبيات، ولا أعرف أحداً يستوفي مثل هذه المعاني في أكثر مدائحه إلا البحرني.

وقال بعضهم: أجود ما قيل في صفة الرجل الحازم قول زينب بنت الطثرية:

وَذُو بَاطِلٍ إِنْ شَتَّتْ أَلْهَاكَ بَاطِلُهُ
وَكَلَّ الَّذِي حَمَلْتَهُ فَهُوَ حَامِلُهُ

إِذَا جَدَّ عِنْدَ الْجَدِّ أَرْضَاكَ جَدُّهُ
يَسْرُكُ مَظْلُوماً وَيُرْضِيكَ ظَالِماً

ومثله قول الآخر:

وَذُو بَاطِلٍ إِنْ كَانَ فِي النَّاسِ بَاطِلُ

أَخُو الْجَدِّ إِنْ جَدَّ الرِّجَالُ وَشَمَرُوا

ومن المديح المفرط قول منصور النمري في هارون:

فَلَيْسَ لِهَارُونَ الْإِمَامِ نَظِيرُ

إِذَا مَا عَدَدْتَ النَّاسَ بَعْدَ مُحَمَّدٍ

فضله على أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم من الصحابة رضي الله تعالى عنهم، وهذا مكروه جداً،
وأكره منه قول أبي نواس:

خَلَقًا وَخُلُقًا كَمَا قَدَّ الشَّرَ الْكَانِ

تَنَازَعَ الْأَحْمَدَانِ الشَّبَابَةَ فَاشْتَبَهَا

فجعل النبي صلى الله عليه وسلم ومحمد بن هارون سواءً في الخلق والخلق.

وبعد بيت النمري أبيات جياذ منها قوله:

بِظُلِّ النَّدَى يَسْطُو بِهَا وَيَسُورُ

مَنْعِ الْحَمَى لَكِنْ أَعْنَاقَ مَالِهِ

كأنه من قول كثير:

غَلَقْتَ لَضَحِكَتِهِ رِقَابُ الْمَالِ

عُرَّ الرَّدَاءِ إِذَا تَبَسَّمَ ضَاحِكًا

وهذا في قول الأخطل:

عَلَيْكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَمِيرُ

وَقَفْتُ عَلَى حَالِكَمَا إِذَا النَّدَى

عَلَيْكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَمِيرُ

خَرَجْتُ أُجْرُ الذَّيْلِ حَتَّى كَأَنَّي

عَلَى أَنَّهُ يَوْمَ الْمَرَامِ ذَكِيرُ

يُرُوحُ وَيَغْدُو سَاجِيًا فِي وَقَارِهِ

بِمَكْتَرْتِ لَكِنْ لَهْنَ قَهُورُ

وَلَيْسَ لِأَعْبَاءِ الْأُمُورِ إِذَا عَرْتُ

يُرِيكَ الْهَوَيْنَا وَالْأُمُورَ تَطِيرُ

يُرَى سَاكِنَ الْأَوْصَالِ بِاسْطِ جِهْدِهِ

ولا أعرف في هذا المعنى أجود من هذا البيت.

وقالوا: أمدح بيت قاله محدث قول النمري في هارون:

أَحْلَكَ اللَّهُ مِنْهَا حَيْثُ تَجْتَمِعُ

إِنَّ الْمَكَارِمَ وَالْمَعْرُوفَ أَوْدِيَّةً

أخذه من قول أبي وجزة السعدي:

وَأَنْتَ لَهْ بِمَجْتَمَعِ السَّيُولِ

أَتَاكَ الْمَجْدُ مِنْ هُنَا وَهِنَا

وأخذه ابن أمية الكاتب فقال في غزل:

وَأَنْتَ مِنْهَا بِمَجْمَعِ الطَّرِيقِ

تَرَكْتَ فِيكَ الَّتِي.....

ونقلته إلى الهجاء فقلت:

وَأَنْتَ بَعِيبِ الْعَالَمِينَ مَوْكَلُ

أَتَغْدُو بِمَسْتَنِّ الْعَيُونِ مَخِيمًا

وفي قصيدة النمري أبيات قليلة النظير منها قوله:

عَنْ الرِّجَالِ بَرِيْبِ الدَّهْرِ مِضْطَلَعُ

مِسْتَحْكَمِ الرَّأْيِ مُسْتَغْنٍ بِوَحْدَتِهِ

من كلِّ ذاك القرى أحواضه ترعُ
للحادثاتِ بحمدِ الله نختشع
أيقنتُ أنني من الأحداثِ ممتنع
منه القلوبُ وجارتُ تحته ترع

يقري العدوَّ المنايا والقناةُ ندى
إذا بلغنا جمال الأرض لم ترنا
لما أخذتُ بكفي حبلِ طاعته
إن الخليفةَ هارونَ الذي امتلأتُ

أو ضاقَ أمرٌ ذكرناه فيتسعُ

إن أخلف الغيثُ لم تخلف مخائله

أخبرنا أبو أحمد، رحمه الله تعالى، عن الصولي عن الميرد وغيره قال: شكا منصور إلى العتابي طلقاً استمر بامرأته ثلاثة أيام، تخوف عليها منه، فقال العتابي: دواؤه معك، أقرب منها وقل: هارون فإن أمرها يسهل. فغضب منصور فقال له: لا تغضب فأنت قضيت بذلك في قولك:

أو ضاقَ أمرٌ ذكرناه فيتسعُ

إن أخلف الغيثُ لم تخلف مخائله

فأسكت منصور.

ومن المديح البارع قول بشار:

نجومَ السماءِ بسعيِ أممٍ
فأنشأتَ تطلبها لست تم
لها بالعطاءِ وضربِ البُهْمِ
نصيحاً ولا خير في المنهم
فبناه لها عمراً ثمَّ نمَّ
ولا يشربُ الماءَ إلا بدم
فيغدو على نِعَمٍ أو نِقَمٍ

ألا أيها الطلبُ المبتغي
سمعتَ بمكرمةِ ابن العلاءِ
إذا عَرَضَ الهمُّ في صدره
فقل للخليفةِ إن جنته
إذا أيقظتك جسامُ الأمور
فتى لا يبيتُ على رmqه
يحبُّ العطاءَ وسفكَ الدماءِ

وقال البحري:

حسبتَ السماءَ كاثرتك نجومها

إذا المهتدي بالله عُدَّتْ خِلاله

وقلت:

من رامها فكأنه ما رامها
يعلو كرامُ العالمين لثامها
نالوا مناسمها ونلت سناسمها

كم غاية لكم تقاصر دُونها
يعلو كرام العالمين وإنما
وإذا تسامى الأكرمون إلى العلا

أمن المكارم أن يُبددَ شملها
ذلت له نوبُ الزمان وأصبحت

وقال البحرني:

لما رأتك نظاماً ونظامها
في عقوتيه جبالها آكامها

إذا ذكرت أسلافه وتُشوهرت
إذا ماتت الأرضُ ابتدوها كأنما
ودون غلاهم للمسامين برزخٌ
بتدبير مأمونٍ على الأمر رأيه
وذو هاجسٍ لا يحجبُ الغيبُ دونه

أماكنها قلت: النجوم قبورها
إليهم حياها أو عليهم نشورها
إذا كلفته العير طال مسيرها
ذكيرٌ وأمضى المرهفات ذكورها
تريه بطون المشكلات ظهورها

أخبرنا أبو أحمد عن الصولي، عن عبد الله بن الحسن، عن البحرني قال: سمعت إبراهيم ابن الحسن بن سهل يقول: كان المأمون يتعصب للأوائل من الشعراء ويقول: انقضى الشعر مع ملك بني أمية، وكان عمي الفضل بن سهل يقول: الأوائل حجة وهؤلاء أحسن تفريراً، إلى أنه أنشده يوماً عبد الله بن أيوب التيمي شعراً يمدحه فيه فلما بلغ إلى قوله:

تري ظاهر المأمون أحسن ظاهر
يناجي له نفساً تريع بهمة
ويُخشع إجلالاً له كل ناظرٍ
طويلُ نجاد السيفِ مضطمر الحشا
رفلٌ إذا ما السلمُ رفل ذيله
وأحسن منه ما أسرَّ وأضمر
إلى كل معروفٍ وقلباً مطهراً
ويأبى لخوف الله أن يتكبرا
طواه طراد الجيش حتى تحسرا
وإن شمريت يوماً له الحرب شمر

فقال للفضل: ما بعد هذا مدح وما أشبه فروع الإحسان بأصوله.

ومن المدح القليل النظير، قول أمانة بنت الجلاح الكلبيّة:

أخبرنا أبو أحمد، أخبرنا أبو الحسن البرمكي أحمد بن جعفر، حدثني محمد بن ناجية الرصغاني قال: كنت أحد من وقعت عليه التهمة أيام الواقعة بمال مصر، فطلبني السلطان طلباً شديداً حتى ضاقت علي الأرض برحبها، فخرجت إلى البلاد مرتاداً رجلاً عزيزاً منيع الدار، أعوذ به وأنزل عليه، حتى انتهيت إلى بني شيبان ابن ثعلبة، فدفعت إلى بيت مشرف بظهر رابية منيعة، وإلى جانبه فرس مربوط ورمح مركز يلمع سنامه، فترلت عن فرسي، وتقدمت فسلمت على أهل الخباء، فرد علي نساء من وراء السجف، يرمقني من خلل الستور بعيون كعيون أخشاف الظباء، فقالت إحداهن: اطمئن يا حضري! فقلت: وكيف

يطمئن المطلوب أو يأمن المرعوب، وقلما ينجو من السلطان طالبه، والخوف غالبه، دون أن يأوي إلى جبل يعصمه، أو معقل يمنعه، فقالت: يا حضري! لقد ترجم لسانك عن قلب صغير وذنب كبير، قد نزلت بفناء بيت لا يضام فيه أحد، ولا يجوع فيه كبد، ما دام لهذا الحي سبد أو لبد هذا بيت الأسود بن قنان، إخوانه كلب، وأعمامه شيبان، صعلوك الحي في ماله وسيدهم في فعاله، لا ينازع ولا يدافع، له الجوار وموقد النار، وطلب الثار، وبهذا وصفته أمامة بنت الخلاج الكلبية حيث يقول:

إذا شئت أن تلقى فتى لو وزنته
بكل معدي ولك يمانى
وقى بهم حلماً وجوداً وسودداً
وبأساً فهذا الأسود بن قنان
فتى كالفاتة البكر يسفر وجهه
كأن تلالي وجهه القمران
أغر أبر ابني نزار ويعرب
وأوتقهم عقداً يقول لسان
وأوفاهم عهداً وأطولهم يداً
وأعلاهم فعلاً بكل مكان
وأضربهم بالسيف من دون جاره
وأطعنهم من دونه بسنان
كأن العطايا والمنايا بكفه
سحابان مقرونان مؤتلفان

فقلت: الآن ذهبت عني الوحشة وسكنت الروعة، فأني لي به؟ قالت: يا جارية اخرجي فنادي مولاك، فخرجت الجارية فما لبثت إلا هنيهة، حتى جاءت وهو معها في جمع من بني عمه، فرأيت غلاماً حسناً اخضر شاربه واختط عارضه وخشن جانبه، فقال: أي المنعمين علينا أنت؟ فبادرت المرأة فقالت: يا أبا مرهف! هذا رجل نبت به أوطانه، وأزعجه سلطانه، وأوحشه زمانه، وقد أحب جوارك ورغب في ذمتك، وقد ضمنا له يضمناه له لمثله مثلك، فقال: بل الله فاك! قال: فأخذ بيدي وجلس وجلست، ثم قال: يا بني أبي وذوي رحمي! أشهدكم أن هذا الرجل في ذمتي وجواري، فمن أراده فقد أرادني، ومن كاده فقد كادني، وما يلزمني من أمره من حال إلا ويلزمكم مثله، فليسمع الرجل منكم ما يسكن إليه قلبه وتطمئن إليه نفسه. فما رأيت جواباً قط أحسن من جوابهم إذ قالوا أجمعهم: ما هي أول منة مننت بها علينا، ولا أول يد بيضاء طوقتناها، وما زال أبوك قبلك في بناء الشرف لنا ودفع الدم عنا، فهذه أنفسنا وأموالنا بين يديك. ثم ضرب لي قبة إلى جانب بيته فلم أزل عزيزاً منيعاً، حتى سنع لي السلطان ما أملت فانصرفت إلى أهلي.

ومن المديح البارع قول الأخطل:

شمسُ العدوِّ حتى يستقَادَ لهم
وأعظمُ الناسِ أحلاماً إذا قدرُوا
أخذه خارجة بن مليح المكي وأحسن:

إذا احتبى الليلُ في ظلماته زهورا
ذاتَ الإباءِ وإن يأسرتهم يسروا

وقد ألبوا من جمعهم ما تألبا
لما شاء منهم طائعين تحببا

فإن جئته من جانب الذلِّ أصحابا

ويدنو وأطرافُ الرماحِ دواني
وحداه إن خاشنته خشان

دُجى الليلِ حتى يستتيرَ لنا الفجرُ

سبيل المطايا بالوجوه السوافرِ

وأفَى الرضا بين أيديها بأقياد
ومن رجائك في أعقابها حادي
عن الرتوعِ وتلهينا عن الزادِ

كفى خابطَ الظلماءِ ضوءُ المصابيح
فكم ثمَّ من آسي جراحٍ وجراح

آل الزبير نجومٌ يُسضاء بهم
قومٌ إذا شومسوا لجَّ الشماسُ بهم
ومنه قول كثير في عبد الملك:

أبوك الذي لما أتى مرجَ راهط
تسناً للأعداء حتى إذا أتوا
وقال البحتري:

حرونٌ إذا عاززته في مُلمةٍ
ونحوه:

كريمٌ يعضُّ الطرفَ فضلُ حياته
وكالسيفِ إن لا ينته لأن ممتةً
ومثل قول خارجة:

إذا احتبى الليل في ظلماته زهروا
قول الأشجع:

إذا غاب عنا الفجرُ خُضنا بوجهه
وقال خارجة أيضاً:

ويسفر للساري إذا جُنَّ ليله
وقال إدريس بن أبي حفصة:

لما أتتك وقد كانت منازعةً
لها أمامك نورٌ تستضيء به
لها أحاديثُ من ذكراك تشغلها
ولا أعرف في معناه مثلها.

وقال غيره:

إذا أشرقت في جنح ليل وجوههم
وإن ناب خطبٌ أو أمت مُلمةٌ

ومن أجود ما قيل في صفة الرجل الجواد، قول أبي الأسد الدينوري:

ولائمة لامتك يا فيضُ في الندى
فقلتُ لها لن يقدَحَ اللومُ في البحرِ
أردات لتنتهي الفيضَ عن عادة الندى
ومن ذا الذي يثني السحابَ عن القطرِ
مواقع جودِ الفيضِ في كلِّ بلدةٍ
مواقع ماءِ المزنِ في البلدِ القفرِ
ولا أعرف في معناها مثلها.
وقلت:

تقضي مآربه من كلِّ فائدة
لكن من المجد ما تقضي مآربه
أفاده العزَّ آباءُ ذوو كرم
وزاده الخلقُ المخضر جانبه
لقد فضلتَ كرامَ الناسِ كلهم
فهم مناسبٌ مجد أنت غاربه
يا ليتَ شعري هل يستطيعُ شكركم
دهرٌ مساعيكم فيه مناقبه
وحيثَ أرضيتم كنتم نوافله
وأنتم حين أسخطتم نوائبه
منكم على الدهر عينٌ لا تتاومه
وللحوادثِ قرن لا تغالبه
ومن أجود ما قيل في ذكر الجود قول الأشجع في جعفر بن يحيى:

يرومُ الملوكُ جدى جعفر
ولا يصنعون كما يصنعُ
وكيف ينالون غاياته
وهم يجمعون ولا يجمعُ
وليس بأوسعهم في الغنى
ولكنَّ معروفه أوسع
فما خلفه لامرئ مطمعُ
ولا دونه لامرئ مقنع
إذا رفعت كفه معشراً
أبى العزُّ والفضل أن يوضعوا
ولا يرفعُ الناسُ من حطه
ولا يرفعُ الناسُ من حطه
رأيتُ الملوكَ تغضُّ العيون
بديهته مثلُ تدبيره
متى هجته فهو مُستجمع

أخذ قوله بأوسعهم في الغنى من قول الأول:

له نارٌ تشبُّ بكلِّ أرض
وإذا النيرانُ جللتِ القناعا
وما أن كان أكثرهم سواداً
ولكن كان أرحبهم ذراعاً
وقال بعض المولدين:

وما رأيتك في حال تكونُ بها
أدنى إلى كل خيرٍ منك في العدم
ومن أجود ما قيل في الصلة على بعد الدار قول هُشَل بن حري:

جزى الله خيراً والجزاء بكفه
بنى الصلتِ إخوان السماحةِ والمجدِ
أتاني وأهلي بالعراق نداهمُ
كما صاب غيثٌ من تهامةٍ في نجد
فما يتغيرُ من زمانٍ وأهله
فما غير الأيامِ مجدكمُ بعدي

فأخذه البحترى أخذاً ما رأيت أعجب منه، وقد وجه إليه بنو السمط برمي حمص إلى منبج فقال:

جزى الله خيراً والجزاء بكفه
بنى السمطِ إخوانِ السماحةِ والمجدِ
همُ خضروني والمهامهُ بيننا
كما ارفضَّ غيثٌ من تهامةٍ في نجد
إلا أن قوله:

هم حضروني والمهامهُ بيننا
أبدع وأحسن من قول هُشَل:

أتاني وأهلي بالعراق نداهم
وأخذه ابن المولى فقال:

فرحتُ بجعفرٍ لما أتانا
كما سرَّ المسافرُ بالإيابِ
كممطورٍ ببلدتهِ فأضحى
غنياً عن مطالعةِ السحابِ

وأخذه أبو السمط بن أبي حفصة فقال في عبد الله بن طاهر:

لعمري لنعم الغيث غيثٌ أصابنا
ببغدادٍ من أرضِ الجزيرةِ وأبله
ونعم الفتى والسدُّ بيني وبينه
بسبعين ألفاً صبحتي رسائله
فكنا كحيِّ صبَّح الغيثُ داره
ولم يحتمل أظعانه وجمائله

وأخذه أبو تمام فقال:

لم أستطع سيراً لمُدحةِ خالدٍ
فجعلتُ مدحتُ إليه رسولا
فليرحلنَّ إليك نائلُ خالدٍ
وليكفينَّ رواحي الترحيلا

وأخذه أبو هفان فقال في أحمد بن محمد بن ثوابة:

نفسى فداءً أبي العباس من رجلٍ
لم ينسني قطُّ في نأى ولا كَثَبِ

يقري وبالرقة البيضاء منزله
من بالعراقين من عجم ومن عرب
أغنيتني عن رجال أنت فوقهم
في المكرمات ودون القوم في النشب

وأصل ذلك كله من قول جرير: أخبرنا أبو أحمد، عن علي بن سليمان الأحفش، عن ثعلب، عن محمد بن سلام، قال: قال أبو الغراف: بعث عبد العزيز بن مروان إلى جرير بمال من الشام فتجهز يريده فأتاه نعيه فقال جرير يرثيه:

بنفسي امرأ والشام بيني وبينه
أنتني ببشرى برده ورسائله

قال أبو أحمد قال أبو الحن لا يجوز عندنا إلا امرؤ إلا أن الرواية هكذا، معناه أهدى.

أتى زمن البيضاء بعدك فانتحي
على العظم حتى أثلمته حوامله
فيومان من عبد العزيز تفاضلا
ففي أي يوميه تلوم عواذله
فيوم تحوط المسلمين جياده
ويوم عطاءه ما تغب نوافله

ومن المديح البارع قول إبراهيم بن العباس:

أسد ضار إذا هيجته
وأب بر إذا ما قدرا
يعلم الأبعد إن أثرى ولا
يعلم الأدنى إذا ما افتقرا

ومن بليغ المديح ما أنشدناه أبو أحمد في جملة خبر أخبرناه عن أبيه، عن أحمد ابن أبي طاهر النديم، عن عبد الله بن السري، عن أحمد بن سليمان قال: قال عبد الله بن زيد القسري: كنت قائماً على رأس ابن هبيرة وعنده سمطان من وجوه الناس، إذا أقبل شاب لم أر مثل جماله وكماله، فقال: أصلح الله الأمير، إني امرؤ فدحته كربة، وأوحشته غربة، ونأت به الدار، وأقلقه الأمعار وحل به عظيم خذله أخلاؤه، وشمته به أعداؤه، وجفاه القريب وأسلمه البعيد، فقمتم مقاماً لا أرى فيه معولاً، ولا جازى نعمه إلا رجاء الله تعالى، وحسن عائدة الأمير، وأنا، أصلح الله الأمير، ممن لا تجهل أسرته ولا تضع حرمته، فإن رأى الأمير أن يسد خلتي، ويجبر خصاصتي، فعل، فقال ابن هبيرة: ممن الرجل؟ قال: من الذين يقول لهم القائل:

فزاره بيت المجد والعز فيهم
فزاره قيس حسب قيس فعالها
لها العزة القعساء والشرف الذي
بناه لقيس في القديم رجالها
وهل أحد إن مد يوماً بأنفه
إلى الشمس في جو السماء ينالها
لهيهات ما أعي القرون التي مضت
مأثر قيس واعتلاها خصالها

فقال ابن هبيرة: إن هذا الأدب حسن مع ما أرى من حداثة سنك، فكم أتت لك؟ قال: تسع وعشرين - فلحن الفتى - فتبسم ابن هبيرة كالشامت به وقال: ألحن أيضاً مع جميل ما أتى عليه منطقتك، شبته بأقبح عيب، فأبصر الفتى ما وقع فيه فقال: إن الأمير، أصلحه الله تعالى، عظم في عيني، وملاأت هيبته صدري، فنطق لساني بما لا يعرفه قلبي.

فقال له ابن هبيرة: وما على أحدكم أن يتعلم العربية فيقيم بها أوده، ويحضر بها سلطانه ويزين بها مشهده، ويتبوأ بها على خصمه، أو يرضى أحدكم أن يكون لسانه مثل لسان مملوكه وأكاره وقد أمرنا لك بعشرة آلاف درهم، فإن كان سبقك لسانك، وإلا فاستعن على إصلاحه ببعض ما أوصلناه إليك، ولا يستحي أحدكم من التعلم، فإنه لولا هذا اللسان لكان الإنسان كالبهيمة المهملة، قاتل الله الشاعر حيث يقول:

ألم ترَ مَفْتاحَ الفؤادِ لسانه
وكائنُ ترى من صامتٍ لك مُعجبٍ
لسانُ الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤادُه
ومن بارع المديح:

إذا هو أبدى ما يقول من الفم
زيادته أو نقصه في التكلم
فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

ولي منك موعودٌ طلبتُ نجاحه
وعودتني أن لا تزال تُظلني
وأنت امرؤ لا تخلفُ الدهرَ موعدا
يدُّ منك قد قدَّمتَ من قبلها يدا

فلو أن مجداً أو ندى أو فضيلةً
تخلدُ شيئاً كنتَ أنتَ المخلدا

ومن بليغ المديح ما أنشدناه أبو أحمد عن الصولي عن أبي العيناء عن الأصمعي للصموت الكلاي: وقال مرة للصموت الكلايية امرأة:

الله درك أي جنة خائف
متخبط يطأ الرجال غلبةً
وتفرج الباب الشديد رتاجه
ومتاع دنيا أنت في الحدثن
وطأ الفنيق دوارج القردان
حتى يكون كأنه بابان

وتبعه أبو تمام فقال في ابن دؤاد:

فلتبتك الأحساب أي حياة
عائق متق من اللوم إلا
وحيا أزمة وحية واد
من مقاساة مغرم أو نجاد

ومن أجود ما قيل في صفة الكمال قول كشاحم:

ومهدب الألفاظ منطقة
ما فيه من خطلٍ ولا ميين
ما شئت من ظرفٍ ومن شيم
ما في محاسنهن من شين
ما كان أحوج ذا الكمال إلى
عيب يوقيه من العين

قد أحسن وظرف ولم يقصر في تقليل الحز وإصابة المفضل. ومثله قوله:

يا كامل الآداب مفرد العلاء
والمكرمات ويا كثير الجاسد
شخص الأنام إلى كمالك فاستعد
من شر أعينهم بعيب واحد

وقال ابن الرومي يمدح بعض العمال وقد نكب:

لا يستطيعك بالتنقص حادث
وأبي لك التكميل أن تتزيدا
وكأنني بك قد نجوت محمد
في النائبات كما دعيت محمدا
فطلعت كالسيف الحسام مجرداً
للق أو مثل الهلال مجددا
شهد النهار وكشفه غم الدجى
إن الزمان مبيض ما سودا

ومثله قول الآخر:

فما كنت إلا السيف جرد في الوغى
وأخمد في الهيجاء ورد إلى الغمد

ومن أبلغ المديح:

بديهته وفكرته سواء
وإذا ما نابيه الخطب الكبير
وصدر فيه لله اتساع
إذا ضاقت من هم الصدور

ومن أبلغ المديح قول البحترى:

أخذوا النبوة والخلافة وانثوا
بالمكرمات كثيرها وقليلها
وإذا قریش فاضلتك فضلتها
بأبي خلائفها وعم رسولها
وجوادها ابن جوادها وكريمها ابن
كريمها ونبيلها ابن نبيلها
لو سارت الأيام في مسعاتهم
لنتالها لنقطعت في طولها
رفعتهم الآيات في تنزيلها
وقضت لهم بالفضل في تأويلها
وإذا انشعبت أخذت خير فروعها
وإذا رجعت أخذت خير أصولها

وقلت:

ليحيى كثيرٌ في العلا والمكارم
وشكري له شكرَ الثرى للغمامِ
يلوحُ على عرف من الليل فاحم
بعزم على الأيام والدهر حاكم
ويعلو من الأمجاد كل مكارم
وطور كجري الماء في عين حائم
وعزم كحدّ المشرفية صارم
ويسقي بها الألى دماء الضراغم

لئن قلَّ أربابُ المكارم والعلا
يذكرني جودَ الغمامِ جوده
تخال به بدرًا مع الليل باهراً
يديلُ من الأيام والدهر مُنصف
ييزُّ من الأنجاد كل مساور
بخلق كمتنِ الصخر في كفِّ لاسٍ
ورأى كصدر الراغبية شارع
على بلدة يسقي الضراغم ملؤها

ومن بارع المديح قول أبي تمام:

لنتكلم إلا في اللباب المهذب
وفي البرق ما شام امرؤُ برقُ خلب
إلينا ولكن عُذره عُذْرُ مذنب
وفي نحر أعداءٍ وفي قلبِ موكب
إليك ولكن مذهبي فيك مذهبي
عليك وهذا مركبُ الحمدِ فاركب

رأيت لعياشٍ خلائفَ لم تكن
له كرمٌ لو كان في الماء لم يغضب
أخو عزماتٍ بذله بذلُ مُحسن
يهولُك أن تلقاه في صدرِ محفل
وما ضيقُ أخطارِ البلادِ أضاقني
وهذي ثيابُ المدحِ فاجرر ذيولها

وقد أحسن التنوخي في أبيات له منها:

بيض العطايا حين يسودُّ الأمل
وأسدُّ موتٍ بين غاباتِ أسل

وفتية من حميرِ حُمرِ الطُّبى
شموسُ مجدٍ في سمواتِ علا

وقلت:

والجودُ إلا غمامٌ أنت سلسله
وكل فاضلٍ حزبٍ أنت فاضله
والعرض تمنعهُ والمال تبذله

المجدُ إلا سماءٌ أنت كوكبها
فكل سابقٍ قومٍ أنت سابقه
بالعقد تحكمه والأمر تبرمه

وللمحدثين أبيات بارعة سائرة في المديح منها قول أبي تمام:

أيامناً مصقولةً أطرأفها

بك والليالي كلُّها أسحارُ

مأخوذ من قول عبد الملك بن صالح، حدثنا أبو أحمد أخبرنا الصولي حدثنا شيخ ابن حاتم العكلي حدثنا يعقوب بن جعفر قال: لما دخل الرشيد منبج، قال لعبد الملك: أهذا البلد متزلك؟ قال: هو لك ولي بك. قال: كيف بناؤك فيه؟ قال: دون منازل أهلي وفوق منازل غيرهم، قال: فكيف صفة مدينتك هذه؟ قال: هي عذبة الماء، باردة الهواء، قليلة الأدوية. قال: كيف ليلها؟. قال: سحر كله قال: صدقت! ياها لطيبة. قال: لك طابت وبك كملت، وأين بها عن الطيب، وهي تربة حمراء، وسنبلة صفراء، وشجرة خضراء، فياف فيح بين قيصوم وشيخ. فقال الرشيد لجعفر بن يحيى: هذا الكلام أحسن من الدر المنظوم، فأخذه ابن المعتز فقال:

يَا رَبِّ لَيْلٍ سَحَرَ كُلُّهُ

مَفْتَضِحُ الْبَدْرِ عَلِيلُ النَّسِيمِ

تَلْتَقِطُ الْأَنْفَاسُ بَرْدَ النَّدَى

فِيهِ فَتْهَدِيهِ لِنَارِ الْهَمُومِ

وقال ابن الرومي:

كَأَنَّ أَيَّامَهُنَّ كَالْبُكَرِ

وقلت:

أَيَّامُنَا فِي جَوَارِهِ بَكَرُ

وَلَيْلُنَا فِي فَنَائِهِ سَحَرُ

ومنها قول أبي نواس:

أَنْتَ الْخَصِيبُ وَهَذِهِ مِصْرُ

فَتَدْفَقَا فِكْلَاكَمَا بَحْرُ

وقوله:

وَلَيْسَ عَلَى اللَّهِ بِمَسْتَكْرٍ

أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمَ فِي وَاحِدٍ

وقوله:

فَتَى يَشْتَرِي حَسَنَ الثَّنَاءِ بِمَالِهِ

وَيَعْلَمُ أَنَّ الدَّائِرَاتِ تَدُورُ

فَمَا جَازَهُ جُودٌ وَلَا حَلَّ دُونَهُ

وَلَكِنْ يَصِيرُ الْجُودُ حَيْثُ يَصِيرُ

وقول ابي العتاهية:

أَنْتَهُ الْخِلَافَةُ مَنَقَادَةٌ

إِلَيْهِ تَجْرُرُ أَذْيَالُهَا

وَلَمْ تَكُ تَصْلُحُ إِلَّا لَهُ

وَلَمْ يَكُ يَصْلُحُ إِلَّا لَهَا

وَلَوْ رَامَهَا أَحَدٌ غَيْرُهُ

لَزَلْزَلَتْ الْأَرْضُ زَلْزَالَهَا

وقول مسلم إلا أنه مرثية:

لكالغمد يوم الروح فارقة النصل
فكالوحش يدينها من الأنس المحل

وإني وإسماعيل يوم وفاته
فإن أغش قوماً بعده أو أزرهم
الأنس جمع مثل خدم.

وقول بعض الأعراب في معن بن زائدة:

فإن فُقدتَ فما جودٌ لموجود
لا بل يمينك منها صورة الجود
ومن ثنائك يجري الماء في العود

أنت الجوادُ ومنك الجودُ أوله
أضحت يمينك من جودٍ مصورة
من نور وجهك تضحى الأرضُ
مشرفةً

وقول البحري:

دع المجدَ فالفتحُ بنُ خاقانِ شاغله
ورقتُ كما رقَّ النسيمُ شمائله

وقد قلتُ للمعلي إلى المجدِ طرفه
صفتُ مثل ما تصفو المدامُ خلاله

والعرب تتمدح بطول القامة، فمن أجود ما قيل فيه، قول أبي تمام:

رأيتهم رجلى كأنهم ركبُ
بغيرهم للدهرِ صرفٌ ولا كربُ
رحا سؤددٍ إلا وأنت لها قُطبُ
مجنبتني مجدٍ وأنت لها قلبُ

أناس إذا يدعى نزالٍ إلى الوغى
من المطريين الأولى ليس ينجلي
جعلتَ نظامَ المكرمات فلم تدرُ
إذا افتخرت يوماً ربيعةً أقبلتُ

ومن أجود ما قيل في قدم الشرف ووضوح النسب قول أبي تمام:

نوراً ومن فلق الصباح عموداً
فيه ولا يبغى عليه شهوداً
خلقُ المناسبِ ما يكون جديداً
علويةً لظننتُ عودك عوداً
ملاً البسيطةً عدةً وعديداً

نسبٌ كأن عليه من شمس الضحى
عُريانٌ لا يكبو دليلٌ من عمى
شرفٌ على أولي الزمانِ وإنما
لو لم تكن من نبيعةٍ نجديةً
مطرٌ أبوك أبو أهلةً وابل

جمعوا جدوداً في العلا وجدوداً

ورثوا الأبوةَ والخطوطَ فأصبحوا

ولد الحتوف أسوداً وأسوداً

كالصبح فيه ترفُّعٌ وضياءٌ
والفضلُ ما شهدت به الأعداء

حتى يسلمها إليه عداه

ما نالها أخواك: البحر والمطرُ
لم يُعْطها خادماك: السيفُ والقدرُ
فقلتُ: قد تمطرُ الأنهارُ والغدرُ
فالمجدُ مجتمعٌ والماءُ منتشرُ
فالروضُ منتظمٌ والغيثُ منتشرُ
كأنها أصلٌ للدهرِ أو بُكرُ
والمجدُ وجةٌ وأنتَ السمعُ والبصرُ
تسمو إليها ولا الدهرُ مفتخرُ

والغيثُ باكرٌ وبلهؤُ سجامه
والرمحُ قومٌ للقاءِ قوامه
واخضرٌ روضته وصابُ غمامه
أو مثلُ صرفِ الراحِ فُضَّ ختامه
وعلى العداةِ سمومه وسمامه
وزرى على أيامه أيامه
كالخصبِ يُنْعَشُ كلُّ خلقِ عامه
في موكبِ منشورةِ أعلامه

أكفأؤه تلذُّ الرجالَ وإنما

أخذه السري فقال في المهلي:

نسبٌ أضاءَ عموده في رفعه
وشمائِلُ شهدَ العدوُّ بفضلها

وهذا من قول البحترى:

لا أدعي لأبي العلاءِ فضيلةً

وقلت:

قد نلتَ بالرأيِ والتمييزِ منزلةً
وبالتكريمِ والأفضالِ مرتبةً
قالوا: أيمطرُ من محلِّ ألمِّ به
مالٌ يبدهُ في جمعِ مكرمةٍ
كروضةٍ أخذتَ بالغيثِ زخرُفها
مناقبُ ما يكادُ الدهرُ يهدمها
فابشرِ فإنك رأسٌ والعلاءُ جسدُ
لولاك لم تكِ للأيامِ منقبةً

وقلت:

هل أنتِ إلا البدرُ تمَّ تمامه
والسيفُ أرهفَ للمضاءِ غرارُه
أنتِ الربيعُ الغضُّ رِقَّ نسيمه
خُلِقَ كُنْشَرِ الروضِ طلَّ نباته
للأولياءِ رخاؤه ورخاؤه
يا من أدلَّ على الزمانِ زمانه
يدنو فيغمرُ كلَّ شيءٍ فضلُه
ما أن يزالَ من المآثرِ والعلاءِ

أوفى على قمم النجوم سنّامه
والليل قد قبض العيون ظلامه
وعلا القرينَ فما يُرام مرامه
فكما أبرّ على القضاءِ حُسامه
وكأنما أقيافه أسيافه
ونذاك لؤلؤةٌ وأنت نظامه
والبأسُ في يدك الشمالِ خطامه
مولي المخافة خلفه وأمامه
قد تمّ فيك على الورى إنعامه

نعماء ما صغرت إلا لأن عظموا

لكان لها يومَ الفخارِ بك الفضلُ
فلا تعبٌ يدني إليك ولا مهل
فلا مثلَ ذا بذلٌ ولا مثلَ ذا بُخلُ

وقفْتُ على صوبِ الربيعِ رجائيا
تمطيت جدواه ففقت اللياليا
وإن آب جاء المزن في الجود تاليا
أو البرق جاراه ثنى البرق كاييا
حططنا إليه كي نزين القوافيا
وصالوا أسوداً واستهلوا سواريا
فكن باقياً حتى ترى الدهرَ فانيا

عالِ تسوّرَ فوق قِمةِ سوّدِ
يبدو فييدي الصبحُ غُرةً وجهه
سبق الجيادَ فما يُشقُّ غبارُه
ولئن أبرّ على الحسامِ عزيمةً
وكأنما أقيافه أسيافه
ما المجدُ إلا العقدُ جوّدكُ شذره
والجودُ في يدك اليمينِ عنانه
ما زال فوتك في اللواءِ موليا
فاعمر على زمنٍ أغر محجّل

وقال آخر وأحسن:

كم صغروا منهم والله يكلوهم

وقال أبو يعقوب الخريمي:

فلم لم يكن إلا بنفسك فخرها
جريت على مهل فأتعتت من جرى
ويبذل دنياه ويمنع دينه

وقلت:

وقفْتُ على يحيى رجائي وإنما
إذا ما الليالي أدركت ما سعت له
إذا غاب جاء المزن في الجود سابقا
إذا الغيثُ باراه ثنى الغيثُ مقصرا
فتى لم نزنه بالقوافي وإنما
من الغرِّ لاحوا أشمسا ومضوا ظبي
رأيت جمالَ الدهر فيك مجدداً

وقلت:

عرسٌ تكامل حسنها وعرائس
للمجد والعلواء فيه مجالس
زهرٌ وإن نظروا العدو حنادس
فهم ضراغم والعدة فرائس
هم دامسٌ والدهرٌ منهم وارس

من الأيدي جميعاً والأمانى
لجانيتها فتمكّن كلّ جاني

وأخبرنا أبو أحمد عن العبشمي، عن المبرد قال: أتى شاعر أبا البختری وهب بن وهب، وكان من أجود قريش، كان إذا سمع المادح له ضحك وسرى السرور بجوانحه، وأعطى وزاد، فأنشده هذا الشاعر:

ورأس العلا طراً عقيدٌ الندى وهبٌ
كما لا يضر البدرَ ينبحه الكلب

فثنى له الوسادة وهش إليه ورفده وحمله وأضافه، فلما أراد الرحيل وهو أشد خلقه اغتباطاً، لم يخدمه أحد من غلمانة أبي البختری، ولا عقب له ولا حلن فأنكر ذلك مع جميل ما فعل به، فعاتب بعضهم فقال: إنما نعین النازل على الإقامة ولا نعین المرتحل على الفراق، فبلغ ذلك جليلاً من القرشيين فقال: والله لفعل هؤلاء العبيد أحسن من رفق سيدهم. ومن بليغ المعاني في المديح قول ابن الرومي:

يموت الكاشحون وأنت تحيا
وقيت به من الحدّثان محيا

لعاً من عاثر لك يا ابن يحيى
على أن الممات لكل حيّ

وقال خلف بن خليفة:

وإن أثروا أن يجهلوا عظم الجهل
ملوكُ الرجال أو تخاطرتِ النزل
بتلك التي إن سُميت وجب الفعل
وإن غضبوا في موطن رخص القتل

إن استجهلوا لم يغرب الحلم عنهم
همُ الجبلُ الأعلى إذا ما تناكرت
مواعيدهم فعلٌ إذا ما تكلموا
ألم تر أن القتلَ غالٍ إذا رضوا

وقلت:

لقد علمت يحيى موافية العلا
فحاز طريفَ المجدِ بعدَ تليدهِ
فتى غرَّةَ الأيامِ حسنُ صنيعه
وما هو إلا المزن تصفو خلاله

فضائل آباء تلتها فضائله
رفيع يطول النجم حين يطاوله
وتيجانها أخلاقه وشمائله
ويعلو مبواه ويبكرُ هاطله

الفصل الثاني من الباب الأول في

الافتخار

قالوا: أفخر بيت قالته العرب قول جرير:

إذا غضبت عليك بنو تميم
حسبت الناس كلهم غضابا

وقالوا: قال عبد الملك بن مروان للفرزدق وجرير والأخطل: من أتاني منكم بصدر هذا البيت: والعود أحمد، فله عشرة آلاف درهم، فما كان فيهم مجيب، فأدخل أعرايي من عذرة إليه، فأنشده:

فإن كان مني ما كرهت فإنني
أعودُ لما تهوَّاهُ والعودُ أحمدُ

قال لم تصب ما أردت فأنشد:

وأحسن عمرو في الذي كان بيننا
فإن عاد بالإحسان فالعودُ أحمدُ

فقال عبد الملك: أحسنت، ولكن لم تصب ما أردت، فأنشد:

جزينا بني شيبان قديماً بفعلهم
وعُدنا بمثل البدء والعودُ أحمدُ

فقال: هذا طلبت. ثم قال: أخبرني عن أهجى بيت قالته العرب. قال: قول جرير:

فغضَّ الطرفَ إنك من نميرٍ
فلا كعباً بلغت ولا كلابا

ولو وضعت ففاحُ بني نميرٍ
على خبثِ الحديدِ إذاً لذابا

قال: فأخبرني عن أمدح بيت قالته العرب العرب! قال: قول جرير:

ألستم خيرَ من ركب المطايا
وأندى العالمين بطنون راح

قال: فما أفجز قالته العرب؟ قال: قول جرير:

إذا غضبت عليك بنو تميم
حسبت الناس كلهم غضابا

قال: فما أغزل بيت قالته العرب؟ قال: قول جرير:

إن العيونَ التي في طرفها مرض
قتلنا ثم لم يحيين قتلنا

وهُنَّ أضعفُ خلقَ الله أركاناً

طي التجار بحضرموت برودا

تُسمى بعدَ قضيتها الرحابا

كنفقةِ الفرزدق حينَ شابا

حينَ الزيارة فارجعي بسلام

قال: فهل تعرف جريراً؟ قال: لا ولكن ترد علينا أقاويل الشعراء، فلم أر شعراً أرق في الوزن، ولا أملاً للفم من شعره، فقام جرير فقبل رأسه، وجعل جائزته في هذا العام له، وأضاف عبد الملك إليها مثلها، وكتب إلى عامله باليمامة أن ينصف من خصم تظلم منه. وقد قال عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير:

وإن عدتمُ أثنيتمُ والعودُ أحسن

وقد عدتُ بعد النسك والعودُ أحمد

وقال ابن حبيب: دخل رجل من بني سعد على عبد الملك بن مروان فقال له: ممن الرجل؟ قال من الذين قال لهم الشاعر:

حسبت الناس كلهم غضابا

وأنقل من وزن الجبال حلومها

وأوجههم عند الشاهدِ غرأنُ

بأن يبنوا المكارم حيث شاؤوا

يصر عن ذا اللب حتى لا حراك به

قال: فما أحسن بيت قيل؟ قال قول جرير:

وطوى الطراد مع القيادة بطونها

قال فما أفصح بيت قيل: قال قول جرير:

ألم ترَ أنَّ جِعْتَنَ وَسَطَ سَعْدٍ

ترى برصاً بأسفل إسكتيها

قال: فما أهجن بيت قيل؟ قال: قول جرير:

طرقتك صائدة القلو وليس ذا

بدأتم فأحسنتم فأثنيتمُ جاهداً

وقال ابن المعتز أو غيره:

خليليَّ قد طابَ الشرابُ المبرِّدُ

قال: فمن أيهم أنت؟ قال: من الذين يقول لهم القائل:

يزيد بنو سعد على عدد الحصى

قال: فمن أيها أنت؟ قال من الذين يقول لهم الشاعر:

ثيابُ بني عوفٍ طهاري نقيّة

قال: فمن أيهم أنت؟ قال: من الذين يقول لهم الشاعر:

فلا وأبيك ما ظلمت قريع

قال: فمن أيهم أنت؟ قال من الذين يقول لهم الشاعر:

ومن يسوي بأنف الناقة الذنبا

قوم هم الأنف والأذنب غيرهم

قال: اجلس لا جلست والله لقد خفت أن تفخر علي.

وقالوا: أفخر بيت قائلته العرب، قول الفرزدق:

وإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا

ترى الناس ما سرنا يسرون خلفنا

ورواه لنا أبو علي بن أبي حفص: أربأنا قال: والإرباء الإشارة إلى خلف والإيماء إلى قدام، والناس يجعلون

هذا البيت لجميل في قصيدته التي يقول فيها:

فهل يقتلني ذو بنان يطرف

وكانت تجيد الأسد عنا مخافة

وكم من مخيل يرتجي ثم يخلف

لقد أخلفت ظني وكانت مخيلة

لنا مغرفا مجد وللناس مغرف

إذا انتهب الأقوام مجداً فإننا

بما سوف نوفيه إذا الناس طففوا

وضعنا لهم صاع القصاص رهينة

وإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا

ترى الناس ما سرنا يسرون خلفنا

وكان جميل جيد الافتخار قال:

كي يلمسوه وأين اللمس من زحل

والشاعر المتألي الشعاعون به

وعند الناس قصيدته الفائية أحسن وأسلس من قصيدة الفرزدق. وأخذ بعضهم قوله:

وكم من مخيل يرتجي ثم يخلف

فقال وأحسن:

فيا رب مظنون به الخير يخلف

ظننت به ظناً فقصر دونه

وما الدار بالدار التي كنت أعرف

وما الناس الذين عرفتهم

وما كل من أنصفتك لك منصف

وما كل من تهواه يهواك قلبه

أخبرنا أبو أحمد، عن الميرما، عن أبي جعفر بن العباسي عن العباسي قال: من أحسن ما مدح به الرجل

نفسه قول أعشى ربيعة:

بمنهضم حقي ولا قارع سني

وما أنا في نفسي ولا في عشيرتي

ولا خائف مولاي من شر ما أجنبي

ولا مسلم مولاي عند جنابية

بما أبصرت عيني وما سمعت أذني

وإن فوادي بين جنبي عالم

أقول على علم وأعلم ما أعني

وفضلي في الشعر واللب أنني

فأصبحتُ إذا فضلتُ مروانَ وابنه على الناسِ قد فضلتُ خيرَ أب وابن
وأنشدنا أبو أحمد عن أبي بكر عن أبي حاتم عن الأصمعي قال وهو من أجود ما مدح به الرجل نفسه،
قال أبو هلال وهو لمسكين الدارمي:

ورُبُّ أُمونٍ قد برّيت لحاءها وقومت من أصلابها ثم رشتها
أقيم بدارِ الحزمِ ما لم أهن بها فإن خفتُ من دارِ هوانا تركتها
وأصلحُ جلّ المالِ حتى حسبتني بخيلاً وإن حقُّ عرابي أهنّتها
ولست بولّاجِ البيوتِ لفاقةٍ ولكن إذا استغنيتُ عنها ولجتها
إذا قصرتُ أيدي الكرامِ عن العلا مددتُ لها باعاً طويلاً فنلتها
وعوراءُ من قيلِ امرئِ ذي عداوةٍ تصاممتُ عنها بعد أن قد سمعتها
رجاءِ غدٍ أن يعطفَ الودُّ بيننا ومظلمةٍ من بجنبي عركتها

غيره:

وماليّ وجهٌ في اللئامِ ولا يدُّ ولكنّ وجهي في الكرامِ عريضُ
أصحُّ إذا لاقيتهم وكأنني إذا أنا لاقيت اللئامَ مريضُ

وقلت في معناه:

وخلّ الجهولَ وبُغضي له فأئنني لبيبُ أحبُّ اللبّيا
يصادفني الضيفَ طلقاً ضحوكاً وإن كنتُ لم أر بدعا عجيبا
وأستعملُ الحلمَ ما لم أكن أصبتُ من الذلِّ فيه نصيبا
من الحلمِ ضرباً إذا رُمته لقيتُ من الذلِّ فيه ضروبا

وأنشدنا أبو أحمد قول أبي هفان:

فإن تسألني عنا فإننا حلى العلا

ثم قال: ليس لقوله:

فإننا حلى العلا

نظير، وأنشدنا له:

لعمرى لئن بُيعت في دارِ غربةٍ ثيابي إذا ضاقت عليّ المآكلُ

له حليّة من نفسه وهو عاطل

فما أنا إلّا السيف يأكلُ جفنه

وقد زاد في هذا البيت على النمر بن تولب في قوله، وهو أول من أتى بهذا المعنى:

فإني كمثلِ السيفِ في خلقِ الغمدِ

فإن تكُ أثوابي تمزق عن بلي

ولأبي هفان أيضاً:

تعجبي من بياضِ الصبحِ في السدِّفِ

تعجبتُ دُرٌّ من شبيبي فقلتُ لها

وما درتُ دُرٌّ أنَّ الدرَّ في الصدِّفِ

وزادها عجباً أن رحتُ في سَمَلِ

فرايت في المعنى تكلفا فقلت:

والدرُّ لا تزري به الصدْفُ

عيرتني أن رحتُ في سَمَلِ

وله أيضاً في هذا المعنى:

فعزيزتُ نفسي مصدراً ثم مورداً

يُعيرني عربي رجالٍ سفاهةً

وأهيب ما يُلقى إذا هو جرداً

بأني مثلُ السيفِ أحسن ما يرى

في ألفاظه فضول لا يحتاج إليها.

ومثله في المعنى قول علي بن الجهم أورده في مصراع وهو:

والسيف أهيبُ ما يرى مسلواً

ولا أعرف في الافتخار أحسن ما أنشده أبو تمام:

فلسنا بشتامين للمتشم

فقل لزهير إن شتمت سراتنا

بكل رقيق الشفرتين مصمصم

ولكننا نأبى الظلامَ ونعتصي

ونشتم بالأفعال لا بالتكلم

وتجهل أدينا ويحلم رأينا

هذا أحسن من كل شيء في الافتخار، وقريب من هذا المعنى قول لقيط بن زرارة:

بصيرٌ وأني بالفواحشِ أخرقُ

أغرکمُ أني بأحسنِ شيمةٍ

هنيئاً مريئاً أنت بالفحشِ أحنقُ

وأنتُ قد ساببتنا فغلبتنا

أخبرنا أبو أحمد قال: أخبرنا الجوهري عن عمر بن شبة قال: يروي أنه قيل للفرزدق أي بيت قالته

الشعراء أفخر؟ قال: قول امرئ القيس:

كفاني ولم أطلب قليل من المالِ

قلو أن ما أسعى لأدنى معيشةٍ

وقد يُدركُ المجدَ المؤتَّل أمثالي

ولكنني أسعى لمجدٍ مؤتَّلٍ

قيل له: فأيتها أحكم؟ قال قوله:

والبرُّ خيرُ حَقِيبةِ الرَّجُلِ

اللَّهِ أَنْجَحُ مَا طَلَبْتَ بِهِ

قال: فأيتها أرق؟ قال قوله:

بسهميكِ في أعشارِ قلبٍ مُقْتَلِ

وما ذرَّقتِ عيناكِ إلَّا لتضربني

قال: فأيتها أحسن؟ قال قوله:

لدى وَكَرِهَها العُنَابُ والحشَفُ البالي

كأن قلوبَ الطيرِ رطباً ويابساً

وقالوا: أفخر بيت قالته العرب قول كعب بن مالك الأنصاري:

جبريلُ تحتَ لوائنا ومحمدُ

وببئرِ بدرٍ إذ يرُدُّ وجوهكم

ومن بليغ الافتخار قول الجحاف:

وإذا جَزَعنا لم نجد من يصبرُ

صبرت سليمٌ للطعانِ وعامرُ

يومَ اللِّقا وإذا علَّوا لم يفخروا

نحن الذين إذا علَّوا لم يضجروا

وقال ضمرة بن ضمرة:

وقد يشتكي مني العداةُ الأبعادُ

أذيق الصديقَ رأفتي وإحاطتي

فقصر عني سعيه وهو جاهدُ

وذى تِرَّةٍ أوجعته وسبقته

قصر وهو جاهد بليغ جداً، ومنه أخذ المحدثون.

ومن جيد الافتخار بالجود وطيب النفس قول بعض العرب:

ومالي غير ما أنفقتُ مالُ

تُسائلني هوازنُ أين مالي

أضرب به الملماتُ النِّقالُ

فقلتُ لها هوازن إنَّ مالي

على ما كان من مالٍ وبالُ

أضرب به نَعَمَ ونَعَمَ قديماً

المعنى حسن جداً، وفي الألفاظ تكرير شائئ.

أبلغ ما افتخر به في كثرة العدد قول الأول:

ولا تغيبُ إلَّا عند أحرانا

ما تطلُعُ الشمسُ إلَّا عند أولنا

وقول أبي جندب:

ولو فَقَدنا مثلهم لم نفتقد

فلو نَزاد ألفٌ لم نَزِد

وهو من أبيات أخبرنا بها أبو أحمد قال: أخبرنا أبو بكر بن دريد عن عمه، عن أبيه عن ابن الكلبي، وأخبرنا به غيره فأوردنا أجود اللفظين، وأصح الروايتين، قال: بلغني أن عبد الرحمن بن حسان كان يخبر أبيه قال: خرجت حاجاً في الجاهلية فإذا أنا بشاب حسن العينين، وضيء، وبشيخ يسابه، قال: فسبه الفتى، ثم إن الشيخ غيره بأن أمه من بني الأصفر فحزني الفتى، فبلغ ذلك أمه فأقبلت ترقل إرقال الناقة الصعبة حتى أخذت بمنكي الشيخ وهزته وقالت:

سائل وخلل في إباد بن معد
هل كانت الروم عبداً لآخذ
هم الربيع والسنام المعتمد
والذروة العليا والركن الأشد
وأنت حرمي لئيم المستند
عصارة اللؤم التي فيها تلد

فسألت عن الشيخ فقيل: المغيرة بن عبد الله المخزومي، وسألت عن الشاب، فقيل: ورقة بن نوفل. ثم مررت من فوري حتى آتي منى، فإذا رجل على حمل عظيم لا يمر يقوم إلا هجاهم، لأنه بالأوس والخزرج فهجاهم، لا هجوته، فنظر إلى قباب بيض في شرقي الجبل فقال: لمن هذه؟ فقيل: لقرن بن تميم من هذيل، فأمرها وقال:

هل ههنا من ولد قرن من أحد
أعطيهم من رجز اليوم وغد
فخرج أبو جندب وهو يقول:

نعم غلام منهم جلد عتد
إني ورب الراقصات في السند
ينفرن من وقع العصبي والقدد
إني لذو اليوم وذو أمس وغد
وابن هذيل وابن أشياخ معد
ثم لفهم ولفهم العدد
فلو نزاد ألف ألف لم نزد
ولو فقدنا مثلهم لم نفتقد
فارجع إلى معزك تيساً ذا جيد
أوفي على رأس يفاع فصخذ

قال: فخلفت إني لا أهجو أحداً ما دام أبو جندب حياً. والعرب تفتخر بكثرة العدد وتذم قلته قال الأخطل:

الأكثرين حصي والأطيبين ثرى

واحتج السموال لقلة العدد فأحسن:

تعبيرنا أنا قليل عدينا
فقلت لها إن الكرام قليل
وما قل من كانت بقاياها مثلنا
شباب تسامى للعلا وكهول

وما ضررنا أنا قليلٌ وجارنا

عزيزٌ وجارُ الأكثرين ذليلٌ

وهذه قصيدة في الافتخار ليس لها نظير، وإنما تركت إيرادها كلها لشهرتها.

ومن أجود ما افتخر به محدث قول أبي تمام:

لنا جوهرٌ لو خالط الأرض أصبحت

وْبطنانها منه وظهرانها تسبرُ

مقاماتنا وقفٌ على الحلم والحجا

وأمردنا كهلٌ وأشيبنا حبرُ

إذا زينة الدنيا من المالٍ عرضتُ

فأزينُ منها عندنا الحمدَ والشكرُ

ليفخرَ بجودٍ من أرادَ فإنه

عوانٌ لهذا الخلقِ وهو لنا بكرُ

جرى حاتمٌ في حلبةٍ منه لو جرى

بها القطرُ يوماً قيلَ أيهما القطرُ

فتى دخرَ الدنيا أناسٌ ولم يزل

لها باذلاً فانظر لمن بقي الذُخرُ

ومنها:

كماةٌ إذا ظلَّ الكماةُ لدى الوغى

وأرماحهم حُمرٌ وألوانهم صفرُ

بخيلٍ لزيد الخيل فيها فوارسُ

إذا نطقوا في مسهبٍ خرسَ الدهرُ

طوى بطنها الإسأدُ حتى لو أنه

بدالك ما شككتَ في أنه ظهرُ

صبيته ما أن تحدثُ نفسها

بما خلفها ما دامَ قدامها وترُ

فإن دمتِ الأعداءُ سوءَ صباحها

فليس يؤدي شكرها الذئبُ والنسرُ

مساعٍ يضل الشعرُ في طُرقٍ وصفها

فما يهندي إلا لأصغرِها الشعرُ

وقوله:

مضوا وكأنَّ المكرماتِ لديهم

لكثرةٍ ما أوصوا بهنَّ شرائعُ

بهاليلٍ لو عاينتَ فيضَ أكفهم

لأيقنتَ أن الرزقَ في الأرضِ واسعُ

وأبي يدٍ في المجدِ مدَّت فلم تكن

لها راحةٌ من جودهم وأصابعُ

أصارت لهم أرضَ العدوِّ قطائعاً

نفوسٌ لحدِّ المرهفاتِ قطائعُ

إذا ما أغاروا فاحتوا مالَ معشرٍ

أغارَت عليهم فاحتوته الصنائعُ

فيعطي الذي يعطيهم الجود والقنا

أكفٌ لإرثِ المكرماتِ موانعُ

يمدون بالبيض القواطع أيدياً

وهنَّ سواءٌ والسيوف القواطعُ

وقلما تجد في الافتخار شعراً يداي هاتين القطعتين.
وقلت:

خليلي باع الدهر بالعرف ضيق
وواقعُ نعماء عن الحرّ طائرٌ
متى ما يُصنبي بالقوارع طرفه
وهماتٌ مثلي للخطوب جوالبُ
تريك اشتغالا بالنجوم طوالاً
وتزري على البيض الطوالع أن مضتُ
تخافني الأيام فهي تخيفني
ولو كنّ في عيني لما قذبت بها
أتطلع منها في دياري طوالعُ
يقارغُ مني باسلاً ذا حفيظة
فتى باتمّ الفضل ليس بقانع
فما صحبته للأنام صنيعاً
ولم يتواضع في مصاداة منة
له شرف في آل ساسان باذخُ

إلى أن قلت:

تؤدّبهُ الأيام حين تضره
وما ضاع مثلي حيث حلت ركابه
ومتلي مخضوعٌ له غير أنه
ومتلي متبوعٌ على كلّ حالةٍ

وقال ديك الجن يفتخر بكلب:

كلبٌ قبيلي وكلبٌ خيرٌ من ولدت
وعيرتنا وما إن طلّ را
حواءٌ من عربٍ غرٍ ومن عجم
كل وحدك والدين لم يُرم

غلاة موته والاشراكُ مكتهلُ
إن تعبسي لدمٍ منا هُريقَ بها
أقعد وقم عالماً أن لو تطوقها
أقام حصنٌ عليهم حصن مكرمةٍ
إذا غدت خيلهم تستجد المطي
والدينُ أمرُدُ لم يبيغ فيحتلم
فقد حقناً دمَ الإسلام فابتسمي
بغير أحمدَ لم تقعد ولم تقم
يرتج طوداه: من نعى ومن نَقَم
لنجدة عُدَّتِ الآجال في الحوم

كم عرَضُوا أيدياً بيضاً مُكرمةً
أسدُّ يرون الردى المفضي بأنفسهم
وقال الحماني:

نحنُ سننا الصبرَ في كلِّ موطنٍ
وحطَّت مساعينا على حطِّ الفجرِ
وقال:

بنا يستشارُ العزُّ عن مستقرِّه
وعن سخطننا تدنى ألوفُ المتالفِ
وقال ابن المعتز:

فقري غنى وشبابي كهلُ
أشكي لجودي حين يشكي البخلُ
وكلُّ فضلٍ لي عليه فضلُ

وقرأت لقابوس بن وشمكير الختلي رسالة في الافتخار والعتاب ليس لها نظير في علوها وإفراطها وهي:
الإنسان خلق ألوفا، وطبع عطوفا، فما بال الإصبيد لا يجيل عوده ولا يرجى عوده، ولا يخال لغيته مخيلة،
ولا يخال عن تنكره بحيلة، أمن صخر تدمر قلبه فليس يلينه العتاب؟ أم من الحديد جانبه فلا يميله الاعتاب؟
أخلق من صفاقه الدهر نبوه فقد نبا عليه غرب كل حجاج، أو من قساوته إباء مزاج إباطه فقد أبى على
كل علاج. ما هذا الاختيار الذي يعد الوهم فهما؟ وهذا التمييز الذي يحسب الجهل علما؟ وهذا الرأي
الذي يزين له قبح العقوق، ويمقت إليه رعاية الحقوق، وما هذا الإعراض الذي صار ضربة لازب،
والنسيان الذي أنساه كل واجب؟ أين الطبع الذي هو للصدور، وللتألف ألوف ودود وأين الخلق الذي
هو في وجه الدنيا البشر وفي مبسمها الثنايا الغر؟ وأين الحياء الذي يجلى به الكرم، وتحلى بمحاسنه الشيم؟
كيف يزهد فيمن ملك عنان الدهر فهو طوع قيادة، وتبع مراده، ينتظر أمره ليمثل، ويرتقب نهيته ليعتزل.
وكيف يهجر من تضاءلت الأرض تحت قدمه فصارت له في الانقياد كعبض خدمه. إذا رأت منه هشاشة

أعشبت، وإن أحست منه بجفوة أجدبت. وكيف يستغنى عن خيله العزمات والأوهام، وأنصاره الليالي والأيام؟ من هرب منه أدركه بمكائدها، ومن طلبه وجدته في مراصدها. وكيف يعرض عن تعرض رفاهة العيش بإعراضه؟ وتنقبض الأرزاق بانقباضه؟ وأضاء نجم الاقبال إذا أقبل، وأهل هلال المجد إذا تهلل؟ وكيف يزهى على من تحقر في عينه الدنيا، وترى تحته السماء العليا؟ وقد ركب عنق الفلك، واستوى على ذات الحبك، فتبرجب له البروج، وتكوكبت لعبادته الكواكب، واستجارت بعزته المجرة، وآثرت لمحاسنه أوضاع الثريا بل كيف يهون من لو شاء عقد الهواء، وجسم الهباء، وفصل تراكيب الأشياء، وألف بين النار والماء، وأحمد ضياء الشمس والقمر، وكفاهما عناء السير والسفر، وسد مناخر الرياح الزعازع، وأطبق أحقان البروق اللوامع، وقطع ألسنة الرعود بسيف الوعيد، ونظم صوب الغمام نظم الفريد، ورفع عن الأرض سطوة الزلازل، وقضى ما يراه على القضاء النازل، وعرض الشيطان بمعرض الإنسان، وكحل العيون بصور الغيلان، وأنبت العشب على البحار، وألبس الليل ضوء النهار، أو لم يعلم أن مهاجرة من هذه قدرته ضلال، ومنابذة من هذه صورته خيال وأن من له هذه المعجزات، يشتري رضاه بالنفس والحياة، ومن يأتي بهذه الآيات، ينتغي هواه بالصوم والصلاة، ومن لم يتعلق منه بجبل كان بهيماً لا شية به، ومن لم يأو منه إلى ظل ظليل ظل صريعاً لا عصمة له، ولم لا يسترد عازب الرأي فيعلم أنه ما لم يعاود الصلة مأفون، ويستعيد غائب الفكر فيفهم أنه إن أقام على الفرقة مغبون، أظنه يقدر أن الاستغناء عني هو الغناء والغنى، ولا يظن أن الالتواء علي هو البلاء والبلى، ويخال أنه مكنت بماله وعرضه، وتمعزز بسمائه وأرضه، ولا يشعر أي كل لبعض، وطول في عرض وأن قوة الجناح بالقوادم دون الخوافي، وعمل الرماح بالأسنة دون العوالي، ليس إلحاحي على سيدي مستعيداً وصاله ومستصلحاً بالالحاف خصاله، وعدي عليه هذه العجائب، لاستمالاته من جانب إلى جانب، لأني ممن يرغب في راغب عن وصلته، أو يترع إلى نازع عن خلته، أو مؤثلاً حالاً عند من ينحت أثلته ومقبل بوده على من لا يجعله قبلته، فإني لو علمت أن الأرض لا تسف تراب قدمي لما وضعت عليها جانباً، وإن السماء لا تتوق إلى تقبيل هامتي لما رفعت إليها طرفاً، ولكني أكره أن يعرى نحره من قلادة الحمد، ويجنب جبينه إكليل المجد، ويظل وجه الوفاء بقبضه على يده مسوداً، وركن الإحاء بفته في عضده منهداً، ولا يعجبني أن يكسو ضوء مكارمه كلف الحمول، ويأذن لطوالع بالأقوال، فإن فضل سيدي الحمود على الوقود، والعدم على الوجود، ونزل من شامخ إلى خفض، ومن حالقٍ إلى دحض، وجاهر بهجره، وأصر على صرمه، ومال إلى الملال، ولم يصل نار الوصال، حللت عنه معقود خنصري، وشغل عن الشغل به خاطري، بل محوت ذكره من صفحة فؤادي واعتدت وده فيما سال به الوادي:

وفي الناس إن رنتَ حبالكِ واصلٌ وفي الأرضِ عن دارِ القليِّ مُتحوِّلٌ
وفي بعض ألفاظ هذه الرسالة تكلف إلا أني أوردتها لعلو معانيها.
وقال بعضهم:

ومن يفتقر منا يسألُ حُسامه ومن يفتقر من سائرِ الناسِ يسألهُ
وقال ابن المعتز:

سألنكما بالله ما تُعلمانني ولا تكتما شيئاً فعندكما خُبري
أرفع نيرانَ القرى لعفاتها وأصبرُ يومَ الروعِ في ثغرةِ الثغري
وأسألُ نيلاً لا يُجادُ بمثله فيفتحهُ بشري ويختمه عُذري
ويا ربُّ يومٍ ما تواري نجومه مددتُ إلى المظلومِ فيه يدَ النصرِ
وقال:

وقمت إلى اللوم الصفايا بمنصلي فصيرتها مجداً لقومي وأحسابا
وأنشدنا أبو القاسم، عن العقدي، عن أبي جعفر، لعبد العزيز بن زرارة:

قد عشتُ في الدهرِ أطواراً في طُرُقٍ شتى فصادفتُ فيه اللينَ والقطعا
لا يملأُ الأمرُ صدري قبلَ موقعه ولا يضيقُ به ذرعي إذا وقعا
كُلاً لبستُ فلا النعماءُ تُبطنني ولا تخشعتُ من لأوائها جَزعا

وسألني بعض أدباء البصرة فقال: ما أدل بيت علي عقل صاحبه وحزمه؟ فقلت: قول الأقبيل القيني:
إذا لم أجدُ بدأً من الأمرِ خلنتني كأنَّ الذي يأبى عليَّ يسيرُ
فقال: ما عدوت ما في نفسي: ومثله قول أبي النشاش:

على أي شيء يصعبُ الأمرُ قد ترى بعينك أن لا بدأً أنك راكبه
وفي ألفاظ هذا البيت زيادة. وقلت في معناه:

علام تستصعبُ الأم رلا ترى منه بدأ
بادر وخلُّ الهويينا وجدَّ كيما تجدا
فلن تلاقِي جداً حتى تلاقِي كذا
ومن بليغ الافتخار بذلاقة اللسان قول جرير:

ولا السيفُ أشوى وقعةً من لسانيا

وليس لسيفي في العظام بقيةً

وهي من قول حسان:

ويبلغ ما لا يبلغُ السيفُ مذودي

وقلت:

سعى مساعيَ ضرغامٍ وثعبانٍ

ولي لسانٌ إذا أطلقتُهُ عرضاً

من نجلٍ ساسانَ تزهو نجلٍ ساسانٍ

وقد نمتنيَ أمجادٌ جحاجةٌ

أو القنانَ على أثباجِ أعنانٍ

همُّ الكواكبُ في أطرافِ داجيةٍ

ولا يمنونَ إن منوا بإحسانٍ

قومٌ إذا ما أتوا بالسوءِ ما اعتذروا

وقلت:

لم يضرهُ أن لم يَصُلْ بسنانٍ

من يكن صائلاً بمثلِ لساني

وأخبرنا أبو القاسم عن العقدي، عن أبي جعفر، عن المدائني قال: قلت لرجل من جذام، وأكثر من وصف ملوك الحيرة: لو كان هؤلاء الأنصار لم ترد! فقال: لئن كان هؤلاء القوم نصرُوا الدين، لقد نصر أولئك الكرم، ولئن كان هؤلاء خصوا بالاسلام، لقد خص أولئك بالإنعام، ولئن حاز هؤلاء شرف اليوم وغد، لقد سبق لأولئك شرف هو باق على الأبد، ولو علا فعل هؤلاء على الهواء، لجازت مكارم أولئك أعنان السماء، ومن يقرن بالبلد الخراب اليباب بلداً تحل به السحاب في كل مغدى ومآب؟ ومن جيد الافتخار قول مبشر بن هذيل الشمخي:

كريمٌ على حين الكرامٍ قليلٌ

ألم تعلمي يا عمرك الله أنني

جوادٌ وأخزى أن يُقالَ بخيلٌ

وإني لا أخزى إذا قيلَ مُملقٌ

له بالخصال الصالحاتِ وصولٌ

فإن لم يكن عظمي طويلاً فإنني

إذا حلَّ أمرٌ سآحتي لجليلٌ

وإن ألكُ قَصداً في الرجالِ فإنني

بعارفةٍ حتى يُقالَ طويلٌ

إذا كنتُ في قومٍ طوالٍ فضلتهم

إذا لم تَزِنْ طولَ الجسومِ عقولٌ

ولا خيرَ في طولِ الجسومِ وعرضِها

فحلواً وأما وجهه فجميلٌ

ولم أرَ كالمعروفِ أمّا مذاقه

وقلت:

وكنزيَ أدابي وزبي عافيا

غنايَ غنى نفسي ومالي قناعتي

وفخريَ أسلامي وذخريَ أمانتي
ولي عزمات كالسيوفِ قواضبا
وتغشى صدورَ النائباتِ صدورُها
ألا لا يذمُّ الدهرَ من كان عاجزاً
فمن لم تبلِّغهُ المعاليَ نفسهُ
وجنديَ أشعاريَ وسيفيَ لسانيا
إذا عنَّ خطبٌ والحتوفُ قواضيا
كما غشيتُ سمرُ العوالي التراقيا
ولا يعذلُ الأقدارَ من كان دانيا
فغيرِ جديرٍ أن ينالَ المعاليا

ولا أعرف في افتخار الجاهلية أجود ولا أبلغ من قول عمرو بن كلثوم:

ونحنُ العاصمون إذا أطعنا
ونحنُ التاركون لما سخطنا
وقد أحسن إبراهيم بن العباس في قوله:
أما تريني أمامَ القومِ متبعاً
يوماً أنيخُ فلا أدعى على نشبٍ
لا تسألي القومَ عن حيِّ صحبتهمُ
ونحنُ العازمون إذا عصينا
ونحنُ الآخذون لما رضينا
فقد أرى من وراء الخيل أتبعُ
واستبيحُ فلا أبقى ولا أدعُ
ماذا صنعت وماذا أهله صنعوا

وقال:

أميلُ مع الزمامِ على ابنِ عمي
أفرقُ بين معروفٍ ومني
فإما تلفني حراً مطاعاً
وأفضي للصديقِ على الشقيقِ
وأجمع بين مالي والحقوقِ
فإنك واجدي عبدَ الصديقِ
وهذا من قول الأول:

وإني لعبدُ الضيفِ ما دامَ ثاوريا
وما فيَّ إلا ذاك من شيمة العبدِ
وقال الآخر:

وعبد للصحابة غير عبد
وسمعت بعض الشيوخ يقول: أبلغ شيء قيل في الافتخار قول الآخر:

أبني حنيفة أحكموا سفهاءكم
إني أخاف عليكم أن أغضبا

قوله أخاف عليكم أن أغضب بليغ في الوعيد، وفي دلائل القدرة على ما يسؤوهم، قال أبو هلال: هو لجرير فهدد فيه بالهجاء، ولو كان لمن يتمكن من القتل والاسر والنكايه لكان أفخر بيت قيل.

وأخبرنا أبو أحمد عن ابن دريد عن عبد الرحمن عن عمه قال: ذكر أعرابي قوما فقال: ما نالوا بأطراف
أناملهم شيئا إلا وطئناه بأخامص أقدامنا، وإن أقصى مناهم لأدنى فعالنا. وقال أبو دلف العجلي:

وكن على الدهر فارساً بطلا
فإنما الدهر فارسٌ بطلٌ
لا بُدَّ للخيل أن تحولَ بنا
والخيلُ أرحامنا التي نصلُ
فمرةً باللجين ننقلها
ومرةً بالدماء تنتقلُ
حتى ترى الموت تحت رايتنا
تطفأ نيرانها وتشتعلُ

الفصل الثالث من الباب الأول في

التهاني

لم تكن من الأقسام التي كانت العرب تصوغ فيها شعراً، وإنما كانت أقسام الشعر في الجاهلية خمسة: المديح والهجاء والوصف والتشبيب والمراثي، حتى زاد النابغة فيها قسماً سادساً وهو، الاعتذار، فأحسن فيه ولا أعرف أحداً من المحدثين بلغ مبلغه فيه إلا البحثري، فانه قد أجاد القول في صنوفه، وأحسن وأبلغ، ولم يذر لأحد مزيداً، حتى قال بعضهم: هو في هذا النوع النابغة الثاني. ولا أعرف للعرب شيئاً ينسب إلى التهاني، ومهما جاء عنهم من شكلها شيء فهو عند العلماء معدود في جملة المديح، مثل قول أبي الصلت الثقفي يذكر سيف بن ذي يزن وإتيانه بالفرس ومحاربتة بهم الحبيشة حتى أزالهم عن أرضه، وهو قوله بعد ذكر الفرس:

فاشرب هنيئاً عليك التاج مرتفقاً
في رأس غمدان دار منك مَحَللاً
تلك المكارم لأقعبانٍ من لَبِنٍ
شيبا بماءٍ فعادا بعدُ أبو الـ

أخذه بعض شعراء الجبل فقال في بعض رؤسائه:

فاشرب هنيئاً عليك التاج مرتفقاً
في شاذ مهر ودع غمدانَ لليمنِ
فأنت أولى بتاج الملكِ تقصدهُ
من هوزة بن عليّ وابن ذي يزنِ

ولست أختار من التهاني بالأعياد على أبيات أشجع شيئاً:

لا زلت تنشر أعياداً وتطويها
تمضي بها لك أيام وتثنيها
مستقبلاً غرة الدنيا وبهجتها
أيامها لك نظمٌ في لياليها
العيد والعيد والأيام بينهما
موصولةٌ لك لا تقنى وتقنيها

ولا تقضت بك الدنيا ولا برحت
وليهنك النصر والأيام مقبلة
أمست هرقله تدمي من جوانبها
إن الخليفة سيف لا يجرده
ما قارع الدين والدنيا عدوهما

وقلت:

تطوي بك الدهر أياماً وتطويها
إليك بالفتح معقود نواصيها
وناصر الملك والإسلام مدميها
إلا الذي يملك الدنيا وما فيها
بمثل هارون راعيه وراعيا

ما لليالي والأيام منقبة

غراء تسمو بها إلا مساعيك

ربي يبيئك ما تهوى على فرح
لألف فصل كهذا الفصل تبلغه
ولا تزال لك الأيام موطأة

كما يُلقيك ما تهوى ويعليكا
باليمن والخير تبليه وينميكا
تمضي قضايك منها في أمانيك

ووجدت بخط أبي أحمد من أجود ما قيل في التهئة بالنوروز قول هارون بن علي لعلي بن محمد الحواري:

علي يا ذا الجود والمعالي

يا معدن الإنعام والإفضال

يا من به نيطت عرى الآمال

فحكّم الآمال في الاموال

جود بلا من ولا اعتلال

مبتداً يُغني عن السؤال

قابله النوروز بالإقبال

ونعم تأتي على اتصال

محروسة مأمونة الزوال

شبهك في تصرف الأحوال

فليله أزهروا ذو اشتعال

كأنه وجهك في الجمال

وصحبه بالمال ذو انهمال

يحكي ندى كفاك ذا الأسيال

جرى بماء وجرت بمال

ومنها:

قول غدا يوفي على الأقوال

كمثل ما توفي على الرجال

فاشتبه الأجواد بالبخال

وعدت مسروراً رضي البال

في نعمة ضافية الأذيال

بعز ذي العزة والجلال

وأخبرني بعض أصحابنا قال: كتب أحمد بن أبي طاهر إلى إسماعيل بن بليل: أنا وإن كنت في عدد الحشم والأتباع الذين يخرجون من تفضيل الخاصة، ويرتفعون عن الدخول في جملة العامة، فإني في وسط القلادة منهم، وبمكان من نظام نعمتك التي تجمعهم، وقوادهم وكتابهم، بالإهداء إليهم وقبول ما أهدوه منهم، ليعرف مكان التشريف في مرتبته، من مكان المنحط عن منزلته، وموضع النعم من المنعم عليه، في التقدم بقبول ما يهديه إليه، وكل يهدي على قدر بضاعته ورتبته، ومقداره في نفسه وهيمته، وعلى حسب موضعه من سيده ومالكه، وما يحويه ملكه وتبلغه مقدرته، وكرهت أن أمسك عن البر، فأخرج عن جملة العبيد والحشم، وأهدي ما يقصر عن الواجب اللازم والحق المفترض، فجعلت هبتي مع الثقة بعذرِكَ، والاعتماد على تفضيلِكَ وصفحك، أبياتاً اقتصرت فيها على الدعاء لك، والثناء عليك، أسأل الله تعالى أن يقرنه بالإجابة فيك، كما قرن مدحي لك بالتصديق.

فقلت:

أبا الصقرِ لا زالتِ من الله نعمةً
ولا زالتِ الأعيادُ تمضي وتَقضي
فإنكَ للعالمِ جمالٌ وزينةٌ
رأيتَ الهدايا كلها دونَ قدره
فلا فضلَ إلا وهو من فضلِ جوده
فأهديتُ من حلي المديحِ جواهرًا
مدائحَ تبقى بعد ما نفذ الدهرُ
شكرتُ لإسماعيلَ حُسنَ بلائه
تجدُّها الأيامُ عندك والدهرُ
وتبقى لنا أيامك الغرُّ الزهرُ
وإنكَ للأحرارِ ذخراً هو الذخرُ
وليس لشيءٍ عند مقداره قدرُ
ولا برٍّ إلا دونهُ ذلك البرُّ
منصلةٌ يزهي بها النظمُ والنثرُ
وتبهي بها الأيامُ ما اتصل العمرُ
وأفضل ما تُجزى به النعمُ الشكرُ

أخبرنا أبو أحمد عن أبيه، عن أحمد بن أبي طاهر، عن أبي هفان، قال: دخلت على سعيد بن حميد في يوم نيروز وهو مستعد يكتب إلى إخوانه، فقرأت عليه كتابك وشعرك إلى أبي الصقر - يعني الكتاب والشعر الذي تقدم - فكتب وأنا حاضر إلى الحسن بن مخلد:

أيها السيد النجيب، عشت أطول الأعمار في زيادة من النعم، موصولة بقرائنها من الشكر، لا تقضي حق نعمة حتى تتجدد لك أخرى، ولا يمر بك يوم إلا كان موفياً على ما قبله، مقصراً عما بعده، قد تصحفت أحوال الأتباع الذين تجب عليهم الهدايا إلى السادة في هذا اليوم، والتمست التأسى بهم في الإهداء إليك، وإن قصرت الحال عن الواجب لك، فرأيتني أن أهديت نفسي، فهي لك لاحظ فيها لغيرك، ورميت بطرفي إلى كرائم مالي، فوجدتها منك، فكنت ان أهديت شيئاً كمهدي مالك إليك، ولم يزد على أن نبه

على نعمتك، واقتضى نفسه بشكرك، وفرغت إلى مودتي وشكري، فوجدتهما لك خالصتين قدميتين غير مستجدتين، وإني إن جعلتهما هديتي، لم أجدد لهذا اليوم براً ولا لطفاً، ولم أفس متزلة شكري بمترلة من نعمتك، إلا كان الشكر مقصراً عن الحق، والنعمة زائدة على ما لم تبلغه الطاقة، ولم أسلك سبيلاً ألتمس بها ما أعتد به في مجازاتك، إلا وجدت فضلك قد سبقني إليها، فقدم لك الحق وأحرز لك سبق، فجعلت الاعتراف بالتقصير عن حقلك هدية إليك تفي ما يجب لك، والعذر في العجز عن برك براً أتوصل به إليك:

إن أهد نفسي فهو مالكاها
أهد مالاً فهو واهبة
أهد شكري فهو مرتهن
والشمس تستغني إذا طلعت
وله أصون كرائم الذخر
وأنا الحقيق عليه بالشكر
بجميل فعلك آخر الدهر
أن تستضيء بسنة البدر

ثم قرأه علي فقلت: أبا عثمان! الساعة قرأت عليك لابن أبي طاهر هذه المعاني بأعيانها، قال: والساعة عملتها وليس بيننا حشمة.

ولا أعرف لهاتين الرسالتين في هذا الباب نظيراً في رقة معانيها وحسن تخريجها، ورسالة سعيد بن حميد أكثرهما معاني.

وأول من افتتح المكتبة في التهاني بالنوروز والمهرجان أحمد بن يوسف، أهدى إلى المأمون سفظ ذهب فيه قطعة عود هندي، في طوله وعرضه، وكتب معها: هذا يوم جرت فيه العادة بألطف العبيد السادة. وقد قلت:

على العبد حق فهو لا شك فاعله
ألم ترنا نهدى إلى الله ماله
ولو كان يهدى للجليل بقدره
ولكننا نهدى إلى من نجله
وإن عظم المولى وجلت فضائله
وإن كان عنه غنى فهو قابله
لقصر عل البحر عنك وناهله
وإن لم يكن في وسعنا ما يُشاكله

فأخذ سعيد بن حميد هذه المعاني وكتب إلى ابن صالح بن يزداد: النفس لك، والمال منك، والرجاء موقوف عليك، والأمر مصروف إليك، فما عسانا أن نهدى لك في هذا اليوم؟ وهو يوم شملت فيه العدة للأتباع الأولياء. بإهدائهم إلى السادة العظماء، وكرهنا أن تحليه من سننه فنكون من المقصرين، أو ندعي أن في وسعنا ما يفي بحقلك علينا، فنكون من الكاذبين، فاقصرنا على هدية تقضي بعض الحق وتقوم عندك مقام أجمل البر، وهي الثناء الجميل والدعاء الحسن فقلت: لا زلت أيها السيد الكريم، دائم السرور

والعطية، في أتم العافية وأعلى منازل الكرامة، تمر بك الأيام المفرحة والأعياد الصالحة، فتخلقها وأنت جديد.

فأول كلامه مأخوذ من قول المعلى بن أيوب للمعتصم: النفس لأمير المؤمنين والمال منه، وليس فيما أوجبه الحق نقيصة، ولا على أحد فيه غضاضة، وباقية من كلام أحمد بن يوسف، والدعاء الذي في آخره لعلي بن عبيدة الريحاني لم يزد سعيد بن حميد فيه شيئاً.

وأحسن ما سمعت من الدعاء قول علي بن هارون بن يحيى المنجم: أمتع الله الأمير بما حوله، واستقبل به من العمر اسره وأطول، وملاه من العز وأمدته وأكمله، وألبسه من الإنعام أسبغه وأجزله، ومهد له من العيش أرغده وأفضله، وجمع له من الخير آخره وأوله.

وللصاحب أبي القاسم إسماعيل بن عياد فصول في التهاني قليلة النظر، منها ما كتب بهيء بالوزارة: أنا أهنيء أطال الله بقاء سيدي الوزارة بإلقائها إلى فضله مقادتها، وبلوغها في ظلها ارادتها، وانحيازها إلى ذراه واضحة المجد والفخر، وتوشحها من كفايته بغرة سائلة على وجه الدهر، واشكر له حسن أثره عليها، وعطفه عنان الفكر إليها، حتى قرت لديه قرارها، وأتقبت بيديه نارها، بعد أن هفا قلبها إشفاقاً من استشراف أيادي النقص لها، وخرج صدرها من تحدث احلاس الجهل بها، ولا غرو فهي وليدة ذراه، قد آلت لا تخطت خطته، وعاهدت لا برحت ساحتها، فالحمد لله الذي أقر عين الفضل، ووطأ مهاده المجد، وترك الحساد يتعثرون في ذيول الخيبة، ويتسقطون في فضول الحسرة، حمداً يديم أيام مولانا ويطيل بقاءه، ويجرس عزه وينصر لواءه، فقد شرح صدور المجالس وشد ظهور المحامد بتقويض الصدر إلى من وليه بحقين: قديم وحديث، وبفضلين: مكتسب وموروث.

وكتب: الأستاذ الربيع الذي يتصل مطره من حيث يؤمن ضرره، ويدوم زهره من حيث يتعجل ثمره، لا زالت الأيام مسعودة بقرعها إلى إنفاذ وتقديره، والأزمان محسودة بانحيازها إلى إمضائه وتدييره، فما اكتسى الدهر حلة أجمى من حصول عنانه في يديه، ومثوله من جملة العبيد لديه، لا زال أمراً ناهياً، سامياً عالياً، تنهأ الأعياد بمصادفة سلطانه، وتستفيد المحاسن من رياض إحسانه.

وكتب: الأستاذ عيد الزمان وربيع الأيام، وهذا الفضل الجامع لأحكام الفضل معتر إليه، معتر بما لديه، فغيته متشبه بكفه، واعتداله مضاه لخلقه، وزهره مواز لنشره، وان تسعد به سعادات لا يبلغ حدها ولا يحصر عدها، وهو - أطال الله بقاءه - يحظر المهادة بما يحضر، ما خلا الكتب التي لا يترفع عنها كبير، ولا يتمتع منها خطير، ولا زال جنابة موروداً بالعلم، ومتحملاً عنه بالغنم.

ومثله ما كتب: قد أقبل النوروز إلى الأستاذ ناشراً حلله التي استعارها من شيمته، ومبدياً حليه التي أخذها من سجيته، ومستصبحاً من أنواره ما اكتساه من محاسن أيامه، ومن أمطاره ما اقتبسه من جوده وإنعامه،

مؤكداً الوعد بطول بقائه، حتى يتحلى العمر، ويستغرق الدهر، ويستكمل من الرتب أعلاها، ويحل من المنازل أسماها، ويرى السادة الفتيان قد اقتفروا سعيه واقتفوا هديه، وأسعده سعادة تستوفي معها المهمة، وما ترتقي إليه، والأمل وما يشرف عليه.

وكتب: أما بعد فهناء سيدي الموهبة التي ساقها إليه ومد رواقها عليه، إذ كانت من عقائل المواهب، مسفرة عن خصائص المراتب، وكيف لا تكون كذلك وقد صدرت عن مالك الأرض، وولي البسط والقبض، ومصرف الثقلين ومدبر الخافقين، أدام الله سلطانه وأيد أعوانه، مكنوفة بكرم رأيه وشرف اختصاصه واجتنائه، وخطبتها عناية مولانا الأمير أدام الله أيامه، ونصر أعلامه، وحلت من سيدي محل الإيجاب والاستيجاب، والاستحقاق دون الاتفاق، فعرفه الله ميامن أغزر شريعة بأشرف ذريعة، وأبرع فضيلة حصلها بأرفع وسيلة.

وكتب في فصل له يهنئ فيه عضد الدولة، وقد ولد له ابنان توأمان: وصل كتاب الأمير بالبشرى التي أبت النعمة بها أن تقع مفردة، وامتنعت العارفة فيها أن تسنح موحدة، حتى تيسرت منحتان في موطن، وانتظمت موهبتان في قرن، وطلع من النجيين أبي القاسم وأبي كالجار، أدام الله عزهما، طالعاً ملكاً، ونجماً سعداً، وشهاباً عزاً، وكوكباً مجداً، فتأهلت بهما رباع المحاسن، ووطئت لهما أكناف المكارم، واستشرفت إليهما صدور الأسرة والمنابر، وفهمته وشكرت الله تعالى شكر من نادى الآمال فأجابته مكبة، ودعا الأمانى فأجابته مصحبة، وحمدته حمداً مكافئاً جسيم ما أتاح وعظيم ما أفاد، واكتنفي من السرور ما فسح مناهج الغبطة، وسهل موارد وسعت ما ورد اتساعه، شرحت صدور الأولياء بمسارها، وأزعجت قلوب الأعداء عن مقارها، وسألت الله اتمام ما أدناه من الأميرين السيدين من سعادة لا يهتدي إليها الاختيار علواً، ولا ترتقي إليها الأفكار سمواً، وسلطان تضيق البحار عن اتساعه، وتنخفض الأفلاك عن ارتفاعه، وتبليغهما أفضل ما تقسمه السعود وتعلو به الحدود، حتى يستغرقا مع السابقين أخويهما مساعي الفضل، ويشيدا قواعد الفخر، ويرحما صروف الدهر، ويغبطا أطراف الأرض، وهو تعالى قريب مجيب.

وله تهنئة بتجدد رتبة:

وصل كتاب الأستاذ من الحضرة البهية، يشير أن أنسها الله وحرسها بذكر ما لقاها كرم مولانا ورقاه إليه من مراتب تشريف لا تكمل القرائح لاقتراحها واستدعائها، ولا تتسع الخواطر لالتماسها واقتضائها، فحمدت الله ولي الحمد والشكر، وأخذت بالحظ من قوة القلب وانشراح الصدر، وسألته أن يطيل بقاء مولانا في العز الراهن، والسلطان القاطن، ويعرف الاستاذ بركة ما درعه من شرف لا يرحل مقيم، ولا يتحيف عميمه، إنه فعال لما يريد.

وكتب في تهنئة بالسلامة من الغرق: لولا أن الله تعالى، عز اسمه، حماني عن سماع المكروه إلا في ضمان المحبوب، حتى تقدم نبأ التبشير ذكر السبب المحذور، لما وجدت في التماسك به بصيرة، ولا من ترك التهالك ذخيرة، إلا أن لطف الله وعطفه عجلا إلي خير البشرى، فانتفت الروعة قبل استقرارها، وانتقلت الوحشة قبل استمرارها، فتلقيت جميل صنع الله بالحمد صنع الله بالحمد لله رب العالمين، أفضل ما قوبلت به النعم، وشكرت الرغائب والقسم.

وللبحتري تهنئة للمتوكل ببلوغ المعتر يقول فيها:

ومقيم نَهَجِي حَجَّه وَجِهَادِهِ
فينا فضيلة هديه ورشاده
عن حلمه ووقاره وسداده
بقريب عهد كان من ميلاده
بعلو همته وورى زناده
وترى الكهول الشيب من أولاده

يا كاليء الإسلام في غفلاته
يهنيك في المعتر بشرى بينت
قد أدرك الحلم الذي أبدى لنا
ومبارك ميلاد ملكك مخبر
تمت لنا النعماء فيك ممتعا
وبقيت حتى تستضيء برأيه

وقلت في تهنئة لمولود:

محض صريح في الكرام ضميم
للعز قرن والسماك نديم
حالاته ولشأنه التفخيم
حظ بتخليد السرور زعيم
حتى يكر الدهر وهو أروم
ويهد سد الليل وهو بهيم
وغدا إذا نزل العظيم عظيم
خلق لمحسود الرياح وخيم
ولديهم شرف أشم عميم
تصفو وتسلس أو يقال نسيم
أفرانه ولشأوه التقديم

قد زادني عدد الكرام كريم
عالي المحلة لا يزال كأنه
فلأمره التتميم كيف تصرفت
فأبشر فقد وافاك يوم رزفته
فرع تكفل دهره بنمائه
إن الهلال يصير مدة كاملاً
وهو الوجية إذا تبدى وجهه
وجه كتوير الرياض وتحتة
فلأهله شرف به متوطد
فاقرر به عيناً فإن خلاله
ولحده التصميم حين تلاحت

ومن أعجب ما جاء في التهئة والتعزية قول عبد الملك بن صالح: أخبرنا أبو أحمد عن الصولي قال: قيل للرشيد: إن عبد الملك بن صالح يعد كلامه، فأنكر الرشيد ذلك وقال: بل هو طبع فيه، حتى جلس يوماً ودخل عبد الملك، فقال للفضل: قل له: ولد لأمير المؤمنين في هذه الليلة ابن، ومات له ابن، ففعل الفضل ذلك، فدنا عبد الملك فقال: يا أمير المؤمنين! سرك الله فيما ساءك، ولا ساءك فيما سرك، وجعلها واحدة بوحدة: ثواب الشاكر وأجر الصابر. فقال الرشيد: أهذا الذي زعموا أنه يصنع الكلام؟ ما رأى الناس أطبع من عبد الملك في الفصاحة؟ وقلت في تهئة بمولود:

عما يعيبُ الورى نزيه

يملك أبصارَ ناظريه

كشفَ عن وجهه الوجيه

تكثرَ علاتِ عائبه

يقربُ من كفِّ مجتنيه

يشقى به جد كاشحيه

حتى ترى الشيبَ من بنيه

فاستقبلَ الخيرَ في نجيب

شمسُ نهارٍ وبدرُ ليلٍ

يملاها بهجة إذا ما

رُزقته كاملاً سوياً

جنى لذيذُ المذاقِ حلُو

وعن قليلٍ يصيرُ شهماً

ألا فعش في ضمانِ خيرٍ

وقلت في تهئة بإملاك:

فإنك قد فصلتَ بالتبرِ جوهرًا

وظيرته في الأفقِ نشرًا معطرًا

تجلى لك الأملاكُ عما تحبه

فصيرته للدهرِ عقداً مفصلاً

ومكروهةً شطت وصعباً تيسرا

هو اليمن لم يعدمك محبوباً دنت

ومن عجائب المعاني تهئة لأبي اسحاق الصابيء مشوبة بالعقد لرجل زوج أمه: قد جعلك الله، وله الحمد، من أهل التحصيل والرأي الأصيل، وخلوص اليقين، فكما أنك لا تتبع الشهوة في محذور تحله، فكذلك لا تطيع الأنفة في مباح تحظره، وبأوي إلينا من ايقاعك العقد بين الوالدة - نفس الله لها في مدتك وأحسن بالبقية منها امتاعك - وبين فلان، ما علمنا أنك فيه بين طاعة الديانة توحيثها، ومشقة فيها تجشمتها، وانك قد جدعت أنف الغيرة لها، وأضرعت خد الحمية فيها، وأسخطت نفسك بارضاؤها، وعصيت هواك لرأيها، فنحن نعزيك على فائت مرادك، ونسأل الله الخيرة لك، وان يجعلها أبداً معك، فيما شئت وأتيت، وتجنبت وأنبت، والسلام.

قال الشيخ أبو هلال رحمه الله تعالى: جدعت أنفي الغيرة، من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد رأى علياً وفاطمة عليهما السلام في بيت فرد عليهما الباب وقال: جدع الحلال أنف الغيرة".

وهناً بعضهم بخروج اللحية، وهو أبو نصر بن هبة الله: الحمد لله الذي له عند خلقه في الأحوال التي يتصرفون فيها، والطبقات التي ينتقلون بينها، والمراتب التي يندرجون عليها لطائف من حكمه، وفوائد من نعمه، توافق مصالحهم وتطابق حوائجهم في تصارييف نشوهم، الطفولية والإيفاع، والشبية والاجتماع، والبلوغ والاكتهال، والانتها والكمال، وجعل لكل واحد منهم في كل حد من الحدود، وسن من الأسنان، قدراً من الأسر والقوة، وصنفاً من اللون والصورة، ومسافة في السعي والهمة، وغاية في الطلب والبغية، يكون به قوام عيشه وسداد أمره، محطوطاً من الاضطراب بزيادة في بعض ذلك يعطاها، قبل بلوغ أدواته منتهاها، يناقص سائره وينافي نظائره، فيفتح بالزيادة في الزوائد صورته، ويظهر بالنقصان في الناقص آفته، حتى إذا تعالى في المراتب أمد النهاية، وتوافت إليه أقسامه في الكفاية، كمل الله إحسانه إليه، وأتم إنعامه عليه، والله المنة والفضل، وبه القوة والحول، الحمد لله الذي كساك باللحية حلة الوقار، ورداك بما رداء الأبرار، وصانك عن ميسم الصبا، ومطالع أهل الهوى، ما جلك من الهية البهية، وألبسك من لباس ذوي اللب والروية، وألحقك في متصرفاتك بمن يستقبل بنفسه ساعياً، ويستغني عنمن يصحبه حافظاً، وجعلك بما جعل من صورتك، وكمل من اداتك وآلتك، قرناً لمن جاذبك، وخصماً لمن نازعك، ونفى عنك ذلة الاحتقار من أهل المراتب والأخطار، تستوي معهم في المجالس الحافلة، وتجري مجراهم في المشاهد الجامعة، مسموعاً قولك إذا قلت، مصغي لك إذا نطقت، آمناً من انصراف الأبصار عنك لقرب ولادك، ونبو الاستماع من حديثك لقلة الثقة بسدادك، وجارياً مجرى جلة الرجال على الحملة، إلى أن تكشف مخابرك بالحنة، وتعطي المهابة من الذاعر العادي، ومن السبع الضاري، إذا اتفق لكما مقام يخلو فيه كل واحد منكما من رقد يمدده، وناصر يؤيده، يملكه الاشفاق من صاحبه، ويقطعه من مواليه إليه، من ترك إبقائه في السطوة عليه، ولو كان عارياً من هذه الكسوة الشريفة، والحلية النفسية، لسبقت إليه بالازدراء الأعين، وبالاستصغار القلوب والألسن، وبالطمع أصناف الحيوان، من البهيمة والإنسان، ثم لا يحسن من نفسه قوة على الدفع عنها، ولا من حريمه قدرة على ما يدها منها، وتلك نعمة من الله حباك بمزيتها في جمال غشاك، وكمال أتك، فليصدق بما اعترافك وشكرك، وليحسن ثناؤك ونشرك، قضاءً لحق الله عليك، واستدراراً للمزيد في إحسانه إليك.

وكتب صاحب تهنئة بتزوج أم وتعزية بموت أب:

الأيام - أطل الله بقاءك - تجري على أنحاء مختلفة وشعب متفرقة، وأحكامها تتفاوت بيننا بما يسوء ويسر، وينفع ويضر، وبلغني من نفوذ قضاء الله في شيخك، رحمه الله تعالى، ما أزعجني، وأبهم طرق

السلوة دوني، وان كان من خلفك غير خارج عن رؤية الأحياء، ولا حاصل في زمرة الأموات، والله
يأسو كلمك، ويسد ثلمك، وقد فعل ذلك بأن أتاح الله لك، بعد أهلك أباً، لا يقصر عنه شفقة عليك
وحنواً، وإيثاراً لك وبراً، وقد لعمرى وفقت حين وصلت بجملك حبله، وأسكنت الكبيرة - حرسها الله
- ظله، لئلا تفقد من الماضي، عفا الله عنه، إلا شخصه، فالحمد لله الذي أرشدك لما يعيد الشمل مجتمعا
بعد فراقه، والعدد موفوراً بعد انتقاصه، حمداً يقضي لك بالمسرة، ويجسم دونك مواد الوحشة، ويلقيك
ثواب ما قضيته من الحق، وتحملته فيه من الأرق، إنه فعال لما يريد.

وكتب تهنئة بقدوم: قد جدد الله، وله الحمد، جمال الدنيا وضاعف بماءها، وزادها محاسن ترفل في حللها
وتبتخرت في حلبيها، واكتنفها بميامن يمرع جناهما ويفتح بالخيرات أبوابها، ما استأنف - جل اسمه - من
النعمة الشاملة، والمنة الكاملة، في تقريب ركاب مولانا - أطال الله بقاءه - وكتب أعداءه وكب
حساده، وزادهم رغباً بزيادته تعالى إياه، نعماً لا يرحل مقيمها ولا يتحيف عميمها، ما اختلف العصران
وتعاقب النيران، واستقبل به في وفدته ما ينقاد له أقصر الأبيار، ويحتوي عليه أربعة غايات الاختيار، بمنه
وجوده.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله، حمداً لا يبلغ نداءه، ولا ينفصل آخراه من أولاه، حتى يستغرق نعمه، ويستوفي فواضله وقسمه، وأني ذلك وهي متطرفة إلى غير غاية، وممدودة إلى غير نهاية، لا يتخطى إلى شكر بعضها إلا بتجدد أمثاله من جملتها، وترادف نظائره من جماعتها، والحمد لله الذي أعطى كثيراً، وقيل من الشكر قليلاً، وأوجب به مزيداً، والصلاة على نبيه محمد وآله وسلم كثيراً، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

الباب الثاني من كتاب ديوان المعاني

كتاب المبالغة

أوصاف خصال الإنسان المحمودة

من : الجود والشجاعة، والعلم والحلم، والحزم والعقل، وما يجري مع ذلك

سمعت الشيوخ، رحمهم الله تعالى، يقولون: أجود بيت قالته العرب قول مسلم ابن الوليد:

يجودُ بالنفس إن ضنَّ الجوادُ بها **والجودُ بالنفس أقصى غايةِ الجودِ**

وأول من جاء بهذا المعنى علقمة بن عبدة:

تجودُ بنفس لا يُجادُ بمثلها **فأنتَ بها يومَ اللقاءِ خصيبُ**

وهذا مثل قول يزيد بن أبي يزيد الشيباني: من جاد بنفسه عند اللقاء، وبماله عند العطاء، فقد جاد بنفسه كليهما. وقال أعرابي: من جاد بماله، فقد جاد بنفسه وإن لا يكن جاد بما فقد جاد بفولهما. وقال علي بن الجهم:

طلبت هديةً لك باحتيالي **على ما كانَ من حسي وبسِّي**

فلما لم أجد شيئاً نفيساً **يكونُ هديةً أهديت نفسي**

وكتب العباس بن حرب إلى بعض الأمراء وأهدى إليه هديه: لا أعلم بمثلته توحشه من الأمير، أعزه الله، ولا توحشه مني أنا موقر من بلائه، وفي الطاعة له كيد، وفي المودة له كنفسه، وفي الخاصة كأحد أهله، وإنما ألقفه من ماله، وقد بعثت إليه ما يصلح ليومه، وأهديت له نفسي التي هي لبذلته وخدمته. وقال أبو تمام:

ولو لم يكن في كفه غير نفسه **لجادَ بها فليتيقِ الله سائلُهُ**

وقد أنكر خلف بن خليفة إهداء النفس: قدم أخ له من سفر فاقتضاه خلف الهدية فقال: أهديت نفسي، فقال خلف:

وكنْتُ إذا ما غابَ أنشدُهُ الركبَا
فقال: بنفسِي قلتُ: انحفُ
ولا أتمنى ما حبيتُ لها قُربَا
فلا السهلَ لقاها الآلةُ ولا الرحبا

أتانا أخٌ من غيبةٍ كان غابها
فقلتُ له هل جئتنا بهدية
هي النفسُ لا آسى عليها إذا نأت
إذا هي وافت من ثمانينَ قامَةً
وقالوا: قول مروان بن أبي حفصة:

كأنه حين يعطي المال يغنمه
أجود من قول زهير:

كأنك معطيه الذي أنت سائله
لأن للغنيمة حلاوة ليست للعطية.
وأجود ما قيل عندي قول أبي العتاهية:

قل: لا وأنت مخلدٌ، ما قالها

لو قيل للعباس: يا بن محمد

أخبرنا أبو أحمد، عن الصولي، حدثنا الحسن بن الحسن الأزدي، حدثنا محمد بن حبيب، وعن الصولي أيضاً عن إبراهيم بن المعلى، عن ابن حبيب قال: قال أبو العتاهية يمدح العباس بن محمد:

قل: لا وأنت مخلدٌ، ما قالها
حتى حللت براحتيك عقالها
كانوا كواكبها وكنت هلالها

لو قيل للعباس: يا بن محمد
إن السماحة لم تزل معقولةً
وإذا المولكُ تسابرت في بلدةٍ

فلم يشبه فقال:

فلما أن ضربت بك انتنيتُ
كذبتُ عليك فيها وافتترقتُ

هزرتك هزةً السيف المحلى
فهبها مدحةً ذهب ضياعاً

فلما قرأ العباس الأبيات غضب وقال: والله لأجهدن في حتفه، قال: فمر أبو العتاهية بإسحاق بن العباس، فقال له إسحاق: أنشدني شيئاً من شعرك. فأنشده:

ألا أيها الطالبُ المستغيثُ
ألا تسأل الله من فضله
إذا جئت أفضلهم للسؤال
كأنك من خشيةٍ للسؤالِ
ففرّ إلى الله من لؤمهم
وإني أرى الناسَ قد أبرقوا
بمن لا يفيدُ ولا يرفدُ
فإن عطاياها لا تتفدُ
ردّ وأحشاؤه تُرعدُ
في عينه الحيةُ الأسودُ
فأني أرى الناسَ قد أصلدوا
بلؤمِ الفعالِ وقد أرددوا

ثم مضى، فقيل لإسحاق، ما هذا الشعر إلا في أبيك! فقال إسحاق: أولى له أن عرض نفسه، وأحوج أبي العتاهية إلى مثل هذا مع ملكه وقعدته. ومثل قوله:

كذبت عليك فيها واقتريت

قول علي بن جبلة، وقال له أبو دلف: إنك تحسن أن تمدح ولا تحسن أن تهجو، فقال: الهدم أيسر من البناء، ثم قال:

أبو دلف كالطبل يذهب صوتهُ
أبا دلف يا أكذبَ الناسِ كلهم
وأخذ البحترى قوله:

وبالطنه خلوّ من الخيرِ أخرجُ
سواي فأني في مديحك أكذبُ

كانوا كواكبها وكنت هلالها

فقال في المتوكل:

إذا غبتَ عن أرضٍ ويمتَ غيرها
غدّت بك آفاقُ البلادِ خصيبةً
فقد غابَ عنها شمسُها وهلالُها
وهل تمحلُ الدنيا وأنتَ ثمالُها

فأما قوله:

كأنك من خشيةٍ للسؤالِ
في عينه الحيةُ الأسودُ

فمن قول بعض العرب:

من دون سيبك وجهٌ ليلٍ مظلم
وأخوك محتملٌ عليك ضغينة
والضيفُ عندك مثلُ أسودٍ سالخ
وحفيفٌ نافحةٌ وكلبٌ موسدُ
وخسيفٌ قومك لائمٌ لا يحمدُ
لا بل أحبهما إليك الأسودُ

ومن جيد ما جاء في خلاف ذلك من الحث على الإنفاق ومجانبة الإمساك، قول ديك الجن:

قلتُ: السلامُ على المحيلِ مُحالٌ
ومرادُ عيني قلَّةٌ وحِجالٌ
ولأطرقنَّ البيتَ فيه غزال
حُرُقٌ وحشوءُ فؤاده بلبال
وكلاهما لي بادرٌ سلسال
وكذاك يا ذا المالِ مالك مال
يرديهما ووراءَ حالِك حال
للترهاتِ وتُقتلُ الأبطال
شظفًا من الأيامِ فهي رجال

لكنه لك مالٌ يومٌ تنفقه
وسوف توبقك الدنيا وتوبقه
ولست تعلم أن الدهرَ يرمقه
فسوف يطرقه ركضاً فيرهقه

فكنه تكن مثل ما يعجبك
حجابٌ إذا جئته يحجبك

أباح لك الدهرُ ما يخربك

وإذا كان أفضل الجود ما كان مع الحاجة، على حسب ما مدح الله تعالى به الأنصار، فقال: "ويؤثرون

على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة".

وأجود ما قيل قول عروة بن الورد:

تعودُ على مالي الحقوقُ والعوائدُ
خصاصةً جسم وهو طيَّانٌ ماجد

قالوا: السلامُ عليك يا أطلالُ
عاج الشقي مراده دمن البلى
لأنادمنَّ الراح وهي زلال
ولأتركن حليلها وبقلبه
وليشفين حبي فم وحنى يدُ
ماذا الغنى والبخل مالك من غنى
أطلق يدك فإن بين يدك ما
قد تسلم الأوكال وهي مواكلُ
ورجال هذي النائبات وإن رأوا

ولم يكن لك مالٌ يوم تكسبه
تحبُّ من أجله الدنيا وتورثها
سترتة عن عيون الناس كلهم
إن لم تبكر إليه في نوائبه

وقد أحسن القائل:

إذا أعجبتك خصالُ امرئ
فليس على الجودِ والمكرماتِ

هو المالُ إن أنت لم تخترب

فلا تشتمني يا بن ورد فإنني
ومن يؤثر الحقَّ النؤوبَ يكن به

وقال عبد الملك بن مروان: ما وددت أن أحداً من العرب ولديني إلا قاتل هذه الأبيات.
ومن جيد ما قيل في الإيثار على النفس قول عبيد الله بن عبد الله بن طاهر، كتبه عبيد الله بن سليمان
حين ولي الوزارة:

أبى دهرنا إسعافنا في نفوسنا
فأسعفنا فيمن تُحبُّ ونكرمُ
فقلت له: نعماك فيهم أتمها
ودع أمرنا إنَّ المهمَّ المقدمُ

وهذا غاية لأنه جعل أمر المدوح أهم له من نفسه وإصلاح شأنه.

ومن جيد ما قيل في جود على قوم دون قوم قول البحري:

سحابٌ عداني جوذُهُ وهو هامرٌ
وبحرٌ خطاني فيضُهُ وهو مفعمٌ
وبرقٌ أضواءَ الأرضِ شرقاً ومغرباً
وموضعٌ رجلي منه أسودٌ مظلمٌ

ومن أجود ما قيل في كبر الهمة قول بعض العرب:

له هممٌ لا مُنتهى لكبارها
له راحةٌ لو أن معشارَ جوذِها
وهمتُهُ الصغرى أجلُّ من الدهر
على البركانِ البرُّ أندى من البحر

أخذه المتنبي فقال وقصر:

تجمعت في فؤاده هممٌ
ملءُ فؤادِ الزمانِ إحداهما

وموضع التقصير فيه أن الأول جعل همته الصغرى أجل من الدهر، وجعل المتنبي إحدى هممه ملء فؤاد
الزمان، فإذا كانت ملء فؤاده فليس بأجل منها.

ومما يذكر في وصف كبر الهمة أن سيف بن ذي يزن دخل على كسرى، فتطأطأ في طاق رفيع من طيقان

قصره، وجلس فدفعت إليه مخدة، فجعلها على رأسه وكسرى يرمقه، فلما سأل سيف حاجته قيل له: إن

الملك قد رأى منك خلتين عجيبتين: وضع المخدة على رأسك وإنما أعطيتها لتجلس عليها، وتطأطؤك في

الطاق الرفيع. فقال: أما المخدة فرأيت عليها صورة الملك فوضعتها على أكرم موضع عندي، وأما

تطأطئي في الطاق الكبير فإن همتي أكبر منه. فاستحسن كلامه وضم إليه جيشاً أزاح بهم الحبشة عن بلده:

ومن بليغ ما قيل في كبر الهمة، قول علي بن محمد البصري:

قلبي نظيرُ الجبلِ الصعبِ
فاستخر الله وخذُ مُرهفاً
وهمّتي أكبرُ من قلبي
وافتك بأهلِ الشرقِ والغربِ
ولا تمت إن حضرت ميةً
حتى تميتَ السيفَ بالضربِ

ومن المذكور في ذلك قول أبي تمام:

أعلم منه بخدأءِ ابله
ممتعاً مضطجعاً بحمله
مولوداً همته من قبله
كالصَّابِ من يذقه لا يستخله

رأى ابنُ دهرٍ عرقاً في خيله
قد لعبت أيدي النوى بشمله
مُنصَلتاً كالسيفِ عند سلّه
قد دانَ ذو الفضل له بفضله
إلّا بأن يسكنَ تحت ظلّه

وقال:

ألفٌ للحضيضِ فهو حضيضٌ
حصاةٌ بنبعٍ لأوريتَ ناراً

هَمَّةٌ تَنطَحُ النجومُ وجدُّ
أبلغ ما قيل في يمن النقيبة قول الأعشى:
ولو رُحِتَ في ظلمةٍ قادحاً

الحصاة مع النبع لا تورى، قال: فأنت من يمن نقيبتك لو قدحت بهما لأوريت.
وقال بعض الأعراب:

لو أشرفَ القومُ على أرضِ العدى
وأرسلوا سعداً إلى الماءِ سرى

يذكرني سعداً دعاءً بالقري
واختلطَ الليلُ بألوانِ الحصى
من غير دلوٍ ورشاءٍ لأستقى

وهو بليغ في هذا المعنى جداً: وقلت:

إلى العلى والمكرُماتِ مُطَّرَحُ
فحوى المجد بما جاد وشحَّ
فسواءٌ جدٌّ فيه أو مزحُ

ليس للعينِ وراءِ شأوه
قد شحَّ بالعرضِ وجاد بالهوى
فإذا همَّ بأمرٍ ناله

وقلت:

وكم بادىء للزمزى غير معقبِ

إذا ما بدت فينا عطاياهُ عقبتِ

فقلت لعلَّ الدهرَ لم يتقلب
يواكب ضوء الصبح في كل مطلب

ولما يقرره تقلبَ دهره
ويدنو له المطلوبُ حتى كأنما

أبلغ ما قيل في اهتمام الرجل بأمر أخيه قول بعضهم:

سأشكرُ عمراً إن تراختُ منِّي
أأيادي لم تُمنن وإن هي جلتِ
فتى غير مفراح إذا الخيرُ مسه
ولا مظهر الشكوى إذا النعلُ زلتِ
رأى خلتي من حيث يُحفي مكانها
فكانت قذى عينيه حتى تجلتِ

قوله: قذى عينيه لا يقوم مقامه شيء في شدة الاهتمام، لأن الانسان، إذا قذيت عينه، صرف الهممة إلى تقديتها من غير اشتغال بشيء غيرها، وهو على قوله: من حيث يحفي مكانها، أبلغ لأنه يدل على تفقد شديد وعناية تامة.

ومما هو في هذه الطريقة قول أمية بن أبي الصلت.

إذا ليلةً نابتك بالشكوى لم أبت
لشكواك إلا ساهراً أتململُ
كأني أنا المطروقُ دونك بالذي
طُرقت به دوني فعيني تهملُ

وقالوا: أشجع بيت قالته العرب، قول عباس بن مرداس السلمي.

أشدُّ على الكتيبة لا أبالي
أحتفي كان فيها أم سواها

قالوا: أربعة من الشجعان تبين دلائل الجبن في شعر ثلاثة منهم، فمن الثلاثة عنترة في قوله:

فإذا شربتُ فإنني مستهلكُ
مالي وعرضي وافرٌ لم يكلم
وإذا صحوتُ فما أقصرُّ عن ندى
وكما علمتِ شمائلي وتكرمي
وخليل غانية تركتُ مجدلاً
تمكو فريضة كشدقِ الأعم
هلاً سألتِ الخيل يا بنة مالكِ
إن كنت جاهلةً بما لم تعلمي
يخبرك من شهدَ الوقعة أنني
أغشى الوغى وأعفُ عند المغنم
ومُدجج كره الكُماة نزاله
لا ممعن هرباً ولا مستسلم
سبقت يداي له بعاجلِ طعنة
ليس الكريم على القنا بمحرم
نبئت عمراً غير شاكر نعمتي
والكفرُ مخبلةٌ لنفسِ المنعم

ثم قال:

إذ يتقون بي الأسنة لم أحم
عنها ولكني تضايقٌ مقدمي

قالوا: فدل على أنه وقف ولم يقدم، واعتذر بتضايق المقدم. وكان عنترة هجيناً، أمه أمة فاستعبده أبوه، وهذه كانت العرب عادتها في المهجناء، فكان يرعى ثم اتخذ سلاحاً وصنع مهراً فأغارت طيء على عبس فسبوا أهله وجيرانه، فركب مهره واتبع القوم ثم جنبهم حتى أتى من أمامهم، فما زال يطعن في أعين

القوم حتى ردوا عليه أباه وأمه ثم عمد وابنته عبلة، ثم قال: لا انصرف بأهلي وأترك جبراني، فكر عليهم فقتل منهم أربعين، فردوا عليه جيرانه، وكان يقول له أبوه وعمه: كره، فيقول: لا يحسن العبد الكر، وإنما يحسن الحلب والصر، يقرعهم بذلك إذا كانوا قد استعبدوه، فاستلحقه أبوه يومئذ، وزوجه عمه عبلة ابنته، وكان عنتره يسمى الفلحاء وكانت أمه حبشية تسمى زبيبة، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "وما سمعت بأعرابي فاشتبهت أن أراه إلا عنتره".
والآخر قول عمرو بن معديكرب في قوله:

حذرَ الموتِ وإني لفرورُ

ولقد أجمعُ رجليَ بها

حينَ للنفسِ من الموتِ هريرُ

ولقد أعطفها كارهةً

وبكل أنا في الروع جديرُ

كل ما ذلك مني خلق

فقال: وإن لفرور. وقال بعض أهل الأدب: إنما هو لقرور بالقاف لأن الشجاع لا يمدح نفسه بالفرار سيما باللفظ البليغ من فرور. وليس كذلك لأن قوله: كل ما ذلك مني خلق. على أنه ذكر حال فرار، وحال ثبات، فحال الثبات قوله: ولقد أجمع رجلي بها. والحال الأخرى حال الفرار إذا كان ذلك أحزم. ولو ذكرنا حالا واحدة لم يحسن أن يقول: كل ماء لك مني خلق.

وإنما دل على أصالته وعقله في ثباته وقت الثبات، وفراره ساعة الفرار، وليس الشجاعة أن يجمل الرجل نفسه على الهلكة، إنما ذلك هوج، والشجاعة أن يتقدم، وغالب ظنه أن يظفر، فأما أنه إذا أقدم هلك، ثم أقدم، فإن ذلك جنون، لأن كل أحد يقدر أن يقدم على الهلكة فيهلك، وإنما الشأن في أن يحمد غب إقدامه. وفي قريب من ذلك قوله:

فرُدَّتْ على مكروها فاستقرتِ

فجاشت إلي النفسُ أولَ مرة

فما جاشت نفسه إلا وجبن، ولو وصف عمرو هذه الأشياء من نفسه قيل: إنه ممن يصدق عن نفسه، على أنه ربما كذب الكذبة الصلعاء.

وروى لنا أبو أحمد عن العيشمي، عن المبرد، وعن غيره، قال: وقف عمرو بن معد يكرب وخالد بن الصقعب النهدي في جماعة بالكناسه يتحدثون، فقال عمرو: أغرنا مرة على بني همد، فخرجوا مستر عفين بخالد بن الصقعب، فحملت عليه، فطعنته فأرديته، ثم ملت عليه بالصمصامة، فأخذت رأسه، فقال خالد: حلاً أبا ثوار؟ فان قتيلك هو المحدث. فقال عمرو: يا هذا! إذا حدثت فاسمع، فانما نرهب هؤلاء المعدية.

مسترعفين أي متقدمين، وقوله: حلا أبا ثور! أي قل إن شاء الله. ويقال: حلف ولم يتحلل، أي لم يستثن.

ويروى عن العرب كذب كثير، فمن ذلك ما يزعمون أنهم يرون الجن، ويكلمون الغيلان والسعالي، حتى زعم تأبط شراً انه طلب نكاح السعلاة في قوله:

وادهم قد جبت جلبابه
فطالبتها بضعها فانتنت
وكنت إذا ما هممتُ اعتزمتُ
فيا جارتا أنت ما أهولا
بوجه تهوّل واستغولا
وأحرى إذا قلتُ أن أفعلا

وقال آخر:

أخو ققراتِ حالفَ الجنَّ واتقى
له نسبُ الإنسيِّ يعرفُ نحلّه
من الإنسِ حتى ما تقضتِ رسائلهُ
وللجنِّ منه خلقُهُ وشمائلهُ

وقال عبيد بن أيوب:

فلله درُّ الغولِ أيُّ رفيقةٍ
لصاحبِ ققرٍ خائفٍ متفقرٍ

وكان كثيرٌ من شعرائهم يدعي أن له شيطاناً يعلمه الشعر، منهم الفرزدق كما يكنى شيطانه أبا لبيئ، وذكر أنه ذهب إلى جبل فناده، فجاء مثل الذباب، فدخل في حلقة، فقال قصيدته التي أولها:

عزفت بأعشاشٍ وما كنت تعزف

وقال أبو النجم:

وجدت كلَّ شاعرٍ من البشرِ
شيطانه أنثى وشيطاني ذكر

وزعموا أن عروة بن عتبة صرخ بقومه فأسمعهم من مسيرة ليلة. ورووا أن لقمان بن عاد لما ضعف بصره كان يفصل بين أثر الذكر والأنثى، والذر إذا دب على الصفا في الليلة الظلماء.

وقال رجل لأبي حنيفة: ما كذبت قط! قال: هذه كذبة أشهد بها عليك.

وسأل الحجاج قاصاً عن اسم بقرة بني اسرائيل، قال: حنثمة. فقال له رجل من أولاد أبي موسى الأشعري: في أي كتاب وجدت هذا؟ قال: في كتاب عمرو بن العاص.

ودخل عبد الله بن الزبير يوماً على معاوية، فقال: اسمع أبياتاً قلتها:

إذا أنت لم تتصف أخاك وجدته
ويركب حدَّ السيفِ من أن تضيّمهُ
على طرفِ الهجرانِ إن كان يعقلُ
إذا لم يكن عن شفرةِ السيفِ مزحلُ

ثم دخل معن بن أوس المزني فأنشد:

لعمرك ما أدري وإني لأؤجلُ

حتى صار إلى البيتين، فقال معاوية: ما هذا يا أبا بكر؟ فقال: أنا أصلحت المعاني، وهو ألف كلام، وهو بعد ابن ظئري، وما قال من شيء فهو لي. وكان عبد الله بن الزبير مسترضعاً في مزينة. والثالث عمرو بن الأطنابة حيث يقول:

وقولي كلما جشأتُ وجاشتُ

مكانك تحمدي أو تستريحي

فرعم أنه نفسه جشأت وجاشت، وليس ذلك إلا من الجبن.

أخبرنا أبو أحمد، أخبرنا أبو بكر بن دريد، عن الرياشي، حدثنا العتيبي عن أبيه، قال: دخل الحارث بن نوفل بابنه علي معاوية، فقال: ما علمت ابنك؟ فقال: القرآن والفرائض، فقال روه من فصيح الشعر، فإنه يفتح العقل، ويفصح المنطق، ويطلق اللسان، ويدل على المروءة والشجاعة، ولقد رأيتني ليلة صفين وما يجبسنني إلا أبيات عمرو بن الأطنابة حيث يقول:

أبت لي عفتي وأبى بلائي

وأخذي الحمد بالثمن الربيح

وإعطائي على المكروه مالي

وضربي هامة الشيخ المشيح

وقولي كلما جشأتُ وجاشتُ

مكانك تحمدي أو تستريحي

لأدفع عن مآثر صالحات

وأحمي بعدُ عن عرضٍ صحيح

بذي شطب كلون الملح صافٍ

ونفس لا تقرُّ على القبيح

قالوا: والذي يدل على الشجاعة الخالصة قول العباس بن مرداس:

أشدُّ على الكتيبة لا أبالي

أحتفي كان فيا أو سواها

وهذا على مذهب من ذكرنا قبل هوج، والذي يدل على أن التثبث والتأني وسكون النفس من تمام الشجاعة قول بلعاء بن قيس:

وفارس في غمار الموت منغمس

إذا تأنَّى على مكروهه صدقا

غشيتُهُ وهو في جأواء باسلة

عضباً أصابَ سواءَ الرأسِ فانلقا

بضربةٍ لم تكن مني مخالسةً

ولا تعجلتها جبناً ولا فرقا

فذكر أن مخالسة الضرب من الجبن.

وأحسن ما قيل في التقدم في الحرب قول زهير:

ليث بعثر يصطادُ الرجالَ إذا ما الليثُ كذبَ عن أقرانه صدقاً
يظعنهم ما ارتموا حتى إذا ظعنوا ضاربَ حتى إذا ما ضاربوا اعتقاً
وصفة بالتقدم على كل حال. وقل أحد منهم لم يصف نفسه بالتأخر.
قال حصين بن حمام:

تأخرتُ أستبقي الحياة فلم أجد لنفسي حياةً مثلَ أن أتقدماً
فلسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ولكن على أقدامنا نُقطر الدما
ذكر أنه تأخر، ثم رأى أن التقدم أحرز لظفر يعيش بن عزيزاً، أو موت يموته شريفاً.
وأخبرنا أبو أحمد، رحمه الله تعالى، عن أبيه عن علي، قال: قال المهدي لابن داب: أنشدني أحسن ما قيل
في وصف الفتى الشجاع.
فأنشده للشماخ:

وأشعثَ قد قدَّ السِّفارُ قميصَه يجر شِواءً بالعصا غيرَ مُنضَج
دعوتُ إلى ما نابني فأجابني كريمٌ من الفتيان غيرِ مُزَلِّج
فتى بملأ الشيزى ويروي سنانَه ويضربُ في رأسِ الكميِّ المدجج
فالتفت إلى عبد الله بن مالك الخزاعي وقال: هذه صفتك.
وقالوا: أشجع بيت قالته العرب، قول كعب بن مالك:

نصلُ السيفَ إذا قصُرنا بخطونا قَدماً ونلحقها إذا لم تلحق
ورأى بعض العرب سيفاً فقال: ما أجوده لولا قصر فيه! فقال صاحبه: نصله بخطوة. فقال الرجل: تلك
الخطوة أشد من مشيتي إلى الصين.
وأبلغ ما قيل في سعة الخطو في الحرب قول أبي تمام:

خطوُ ترى الصارمَ الهنديَّ منتصراً به من المارنِ الخطيِّ منتصفاً
يقول: لسعة الخطو ينتصف صاحب السيف من صاحب الرمح.
وقالوا: أشجع ما قيل قول الشاعر:

أقولُ لنفسي لا يجادُ بمثلها أقليُّ شكوكا إنني غيرُ مدبرٍ
وأجود ما قيل في صدق اللقاء مع قلة العدد قول أبي تمام:
قلوا ولكنهم طابوا فانجدهم جيشٌ من الصبر لا يُحصى له عددٌ

من اليقين ذرّوعاً مالها زردُ

إلا السيوفُ على أعدائهم مددُ

وأجود ما قيل في وصف الفتى الشجاع وصاحب الحرب من شعر المحدثين، قول مسلم بن الوليد في يزيد بن يزيد الشيباني:

أو مائل الرأس أو مسترخي الطولِ

أقام قائمته من كان ذا ميلِ

بقائم السيف لا بالختل والحيلِ

كأنه أجل يسعى إلى أملِ

كالموتِ مستعجلاً يأتي على مهلِ

ويجعل الهام تيجان القنا والذُبُلِ

شوارعاً تتحدى الناس بالأجلِ

فهن يتبعنه في كلِّ مُرتحلِ

مسالك الموتِ في الأبدان والقللِ

خوف المخيفِ وأمن الخائفِ الوجلِ

حلماً وطفلهُم في هدى مُكتهلِ

إذا سلمت ولا في الدين من خللِ

كذاك ما لبني شيبان من مثلِ

وأنت وابنك ركننا ذلك الجبلِ

إذا رأوا للمنايا عارضاً لبسوا

ناء عن المصرح الأدنى فليس لهم

لولا يزيد لأضحى الملكُ مضطرباً

حاط الخليفة سيف من بني مطرِ

سدّ الثغورَ يزيدٌ بعد ما انفرجت

موف على مهج في يوم ذي رهجِ

ينال بالرفق ما يعيا الرجالُ به

يكسو السيوف نفوس الناكثين به

يغدو فتغدو المنايا في أسنته

قد عود الطير عادات وثقن بها

إذا انتضى سيفه كانت مسالكه

الزائدون قوم في رماحهم

كبيرهم لا تقوم الراسيات له

إسلم يزيدُ فما في الملك من أودِ

وافخر فمالك في شيبان من مثلِ

لله من هاشم في أرضه جبلُ

وقوله:

يمضي فيخترق الأحشاء والهاما

قد أوسع الناس إنعاماً وإرغاما

لا زال للمال والأعداء ظلاماً

تُكسى العيونُ به نوراً وإظلاماً

كأن في سرجه بدرأ وضرغاما

سل الخليفة سيفاً من بني مطر

كالدهر لا ينتهي عمّا يهّم به

تظلم المال والأعداء من يده

إذا بدا رفع الأستار عن ملك

تمضي المنايا لما تمضي أسنته

وله أيضاً:

يلقى المنية في أمثال عدتها
كالليث بل مثله الليث الهصور إذا
وقالوا: أشجع بيت قاله محدث قول أبي تمام:
فما بل في مستنقع الموت رجله
وقد كان فوت الموت سهلاً فردّه
غدا غدوةً والحمد نسج ردائه
كالسيل يقذف جلموداً بجمود
غنى الحديد غناءً غير تغريد
وقال لها من تحت أخصك الحشر
عليه الحفاظ المرّ والخلق الوعر
فلم ينصرف إلا وأكفانه الأجر

أخذ معنى البيت الأول من قول عوف بن قطن بقوله يوم الجمل:

لا أبتغي اللحد ولا أبغي الكفن
وأجود ما قيل في سكون الجأش في الحرب، قول البحري:

لقد كان ذاك الجأش جأش مسالم
تسرّع حتى قال من شهد الوعى
وصاعقة في كفه ينكفي بها
على أن الزي زي محارب
لقاء عداً أم لقاء حبايب
على رؤس الأقران خمس سحائب

وهذا البيت أجود ما قيل في معناه، جعل السيف صاعقة، وأصابع الضارب سحائب تجود على مؤملين
بغيتها، وتقتل معاوية بصاعقتها.

أصدق بيت قالته العرب

أخبرنا أبو أحمد عن الصولي، عن أبي العيناء، قال: قال الأصمعي: أصدق بيت قالته العرب وأحكمه قول
الخطيئة:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه
وقال المحدث في معناه:

ما ضاع عرف وان أوليته حجراً

وقال الأفوه:

والخير تزداد منه ما كفيت به
والشر يكفيك منه قلما زاد

وقيل: خير من الخير فاعله، وخير من الذهب معطيه، وقال عبید بن الأبرص:

الخيرُ يبقى وإن طالَ الزمانُ به

والشرُّ أخبثُ ما أُوعيتَ من زاد

وأخبرنا أبو أحمد رحمه الله تعالى، أخبرنا الجوهري، أخبرنا عمر بن شبة، حدثنا محمد بن عبد الله بن الزبير، حدثنا سفيان بن سعيد، عن عبد الملك بن عمير، قال: سمعت أبا سلمة بن عبد الرحمن، يحدث بحديث عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أصدق كلمة قالتها العرب:

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ

وَكُلُّ نَعِيمٍ لَا مُحَالَةَ زَائِلٌ

وَكُلُّ أَنَاسٍ سَوْفَ تَدْخُلُ بَيْنَهُمْ

دَوِيهِيَّةٌ تَصْفَرُّ مِنْهَا الْأَنَامِلُ

وأخبرنا أبو أحمد رحمه الله تعالى، أخبرنا الجوهري، أخبرنا أبو زيد، حدثنا ابراهيم بن المنذر، حدثنا محمد بن فليح، عن موسى بن عقبة، عن ابن شهاب، أن عثمان بن مظعون كان في جوار الوليد بن المغيرة، وكان لا يؤذى كما يؤذى أصحابه يعني من المسلمين، فسأل الوليد أن يتزل من جواره فبرىء منه، فلما جلس مع القوم وليد ينشدهم: ألا كل شيء ما خلا الله باطل.

فقال عثمان: صدقت، ثم أنشد لبيد رأس البيت: وكل نعيم لا محالة زائل.

فقال عثمان: كذبت. فأسكت القوم ولم يدروا ما أراد، ثم أعاد ثانية فصدقه عثمان وكذبه، لأن نعيم الآخرة لا يزول. فقال لبيد: ما هكذا كانت مجالسكم، فترا رجل من قريش فلطم عين عثمان، فأحضرت، فقال له الوليد: كنت في ذمة منيعة فخرجت منها، وكنت عن الذي لقيت عينك غنيا. فقال: بل كنت إلى الذي لقيت فقيراً، وعيني التي لم تلطم إلى مثل ما لقيت صاحبها فقيرة، فقال: إن شئت أجزتلك ثانية، فقال: لا أرب لي في جوارك. وأول هذه القصيدة:

أَلَا تَسْأَلَانِ الْمَرْءَ مَاذَا يُحَاوِلُ

أَنْجَبُ فَيُقْضَى أَمْ ضَلَالٌ وَبَاطِلٌ

حِبَائِلُهُ مَبْتُوثةٌ بِسَبِيلِهِ

وَيَفْنَى إِذَا مَا أَخْطَأَتْهُ الْحِبَائِلُ

إِذَا الْمَرْءُ أَسْرَى لَيْلَةً ظَنَّ أَنَّهُ

قَضَى عَمَلًا وَالْمَرْءُ مَا عَاشَ عَامِلٌ

وأجود من هذا سبكاً ورصفاً قول الصلتان:

نَرُوحُ وَنَعْدُو لِحَاجَاتِنَا

وَحَاجَةٌ مِنْ عَاشٍ لَا تَنْقُضِي

وأخبرنا أبو أحمد عن رحالة، قال: قيل لرجل سماه: أنشدنا أصدق بيت قالتها العرب، قال: الناس يقولون:

كُلُّ امْرِئٍ فِي شَأْنِهِ سَاعِي

وأنا أقول:

إلى كل من يلقى من الناس مذنباً

كأن مقرّ حين يغدو لحاجة

وأصدق بيت قاله محدث قول البحترى:

يسودُ الفتى من حيث يسخو ويشجعُ
وجلُّ حصادِ المرءِ من حيث يزرع

نصليكَ في الأكرؤمتين فإنما
زرعتُ رجاءً في ذراكٍ مُبكرًا

أجود ما قيل في القناعة قول الشاعر:

فدعها لأخرى لينّ لك بابها
ويكفيك سوات الأمور اجتنابها

إذا سدّ بابٌ عنك من دون حاجةٍ
وإن قرابَ البطنِ يُغنيك ملوّه

أخذه ابن الرومي فقال وأحسن:

يوماً كذبَ الشهوةَ

إذا ما شئت أن تعرفَ

عن العذبةِ والحلوةَ

فكل ما شئت يعنيك

عن الخناء في الذرّوةَ

وطأ من شئت يغنيك

هُ نيلُ الشيءِ لم تهوّه

فكم أنساك ما تهوا

وقال ابن هرمة:

كتائب ناس كرّها واطرأها

إذا مطمّعٌ يوماً غزاني غزوتهُ

أعالج منها حضرّها واكتادها

أمصّ ثمادي والمياه كثيرة

هو الرأي أن ترضى النفوس ثمادها

وأرضى بها من بحر آخر أنه

وأبرع بيت قيل من قديم الشعر، قول أبي ذؤيب:

وإذا تردُّ إلى قليلٍ تقنعُ

والنفسُ راغبةٌ إذا رغبتّها

وقد أحسن أبو العتاهية في قوله:

دون ما ترضى بأدنى ما لديك

أنت محتاج فقيرٌ أبداً

وذم بعضهم القناعة فقال: هي خلق البهيمة، معناه أنها إذا وجدت أكلت، وإن لم تجد باتت على الخسف، ليس لها محالة دون الانطواء على الجوع، ولا نكير دون الإقرار بالهزل. كما قيل:

إلا الأذلان غير الحي والوتدُ

ولا يقيم على ضيمٍ يُرادُ به

وذا يُشجُّ فلا يرثي له أحدُ

هذا على الخسفِ مربوطٌ برمتهِ

وإلى هذا المذهب ذهب علي بن محمد في قوله:

إذا اللئيم مطَّ حاجبيهِ
فاترك عنانَ البخيلِ في يديهِ
واستنزل الرزق بمضربيهِ
وإذا عن حريمِ درهميهِ
وقم إلى السيفِ وشفرتيهِ
إن قعدَ الدهرُ فقمِ إليهِ

وقلت:

سأستعطف الأيامَ حتى تردَّني
وأقنعُ لا أن القناعةَ لي هوى
وإلى جانب منها يلينُ ويسهلُ
ولكنَّ صونَ العرضِ بالحرِّ أجملُ

وقال ديك الجن:

لا تقم للزمانِ في منزلِ الضي
وإذا خفت إن يراهقك العد
وأهن نفسك الكريمةَ للمو
فلعمري للموتُ أجملُ بالحرِّ
أي ماءٍ يجولُ في وجهك الحرِّ
ثم لا سيما وقد عصفَ الده
فقليلٌ من الورى من تراه
م ولا ترتبطك رقةُ حالِ
مُ فعذ بالمتقفات العوالي
ت وقحم بها على الأهوال
من العيشِ ضارعاً للرجال
إذا ما امتهنته بالسؤال
رُ بأهل الندى وأهل النوال
يُرتجى أن يصونَ عرضاً بمالِ

وفي المعنى الأول ما أنشدناه أبو أحمد رحمه الله تعالى، أنشدنا أبو بكر بن دريد، أنشدني أحمد بن المعدل لأخيه عبد الصمد:

رأت عدمي فاسترأنت رحيلي
يرجى اليسار لها بالقول
لعمر التي وعدتك الثراء
لقد قذفت بك صعب المرام
سأقني العفاف وأغني الكفال
ولا أتصدى لشكر الجوادِ
سبيلك إن سواها سبيلي
لعلَّ المنيةَ قبل القبولِ
بجدوى الصديقِ وبرِّ الخليلِ
واستجملت لك غير الجميلِ
فليس غنى النفس جودُ الجزيلِ
ولا أستعدُّ لذمِّ البخيلِ

وأعلمُ أن بنات الرجاءِ
تحلُّ العزيزَ محلَّ الذليلِ
وأن ليس مستغنياً بالكثيرِ
من ليس مُستغنياً بالقليلِ

قال أبو أحمد: لو كان شعر عبد الصمد كله هكذا، لرأيتَه نبي الشعر.
وقال البصير:

قلتُ لأهلي وراموا أن أميرهم
بماء وجهي فلم أفعل ولم أكدِ
لا تجمعوا أن تهينوني وأكرمكم
ولا تمثؤا إلى نيل اللئامِ يدي
تبلغوا وادفعوا الحاجاتِ ما اندفعت
ولا يكن همكم في يومكم لغدِ
فربّ ملتمسٍ ما ليس يُدركهُ
ومدركٌ ما تمنى غير مجتهدِ

أبلغ ما قيل في مساعدة الرجل أخاه وأجوده، قول دريد بن الصمة، وقد أغار هو وأخوه عبد الله على نعم لقيس، فاستاقوها، فلما كانوا ببعض الطريق نزل عبد الله ليريح ويستريح ويقسم المال بين أصحابه، فنهاه دريد، فبينما هما كذلك رأوا غيرة فقالوا لربيهم: ما ترى؟ قال: خيلاً كالعقبان، عليها فوارس كالصبيان، فقال: فزاره ولا بأس. ثم رأوا غيرة أخرى فقالوا له: ما ترى؟ قال خيلاً كأن قوائمها تنقلع من صخر، قال تلك عبس والموت، فلما خالطوهم قتل عبد الله، فقال دريد:

أمرتهم أمرى بمنعرج اللوى
فلم عصوني كنت منهم وقد أرى
فلم يستبينوا الرشدَ إلا ضحى الغدِ
وما أنا إلا من غزية إن غوتُ
غوايتهم أو أنفي غير مهتدي
غويتُ وإن ترشد غزيةً أرشدِ

وأسرد دريد ثم نجا فغزاهم من قابل فقتل قاتل أخيه.
ووجه المبالغة في هذا الكلام أنه أخبر بموافقة أخيه على علمه بألما غي، وترك مخالفته مع معرفته ألما رشد، كراهة الخروج من هواه، وترك مطابقتة على رضاه.
وقريب منه قول عمر بن أبي ربيعة وروي لغيره:

وذي ودٍ أملتُ إليه نصحاً
أطاف بغيةً ونهيتُ عنها
وكان لما أشيرُ به سميحاً
أردتُ رشادهُ جهدي فلما
عصى وأبى ركبناها جميعاً
عصى وأبى ركبناها جميعاً

وأشدنا أبو أحمد عن الصولي، عن الحسن بن محمد المهري، عن التوزي:

تتخلتُ آرائي وسقتُ نصيحتي
إلى غير طلق للنصيح ولا هشٍ

وقال آخر:

وأوسعته من زور قولٍ من غشٍّ

لما أبى نصحي سلكتُ سبيله

وقال آخر:

أغشُّ إذا ما النصحُ لم يُتقبل

ألم تعلموا يا بني دجاجةً أنني

ومن جيد ما قيل في النصيحة، قول مخيس بن أرطاة:

فقال غششتني والنصحُ مرُّ

عرضتُ نصيحةً مني ليحي

يُقالُ عليه في نقعاء شرُّ

وما بي أن أكونَ أعيب يحيى

يُقالُ عليك إن الحرَّ حرُّ

فقلتُ له تجنبْ كلَّ شيء

ومثل ما تقدم قول الشاعر، أنشدناه أبو أحمد عن جماعة:

ومن يضرُّ نفسه لينفعك

إن أخا الصدقِ الذي لمن يخدعك

شئتَ شملَ نفسه ليجمعك

ومن إذا صرفَ زمانَ صدعك

وإن غدوتَ ظالماً غداً معك

فسروه: يكفك عن الظلم، وليس كذلك، لأن معنى الأبيات لا يقتضيه، إنما أراد أنه: يعاونك على الظلم، على حسب ما قال عمر بن أبي ربيعة: ركبناها جميعاً وقال ابن ميادة في النصيحة:

فقلت هشيمةً من أهل نجد

نصحتك يا رباحُ بأمرِ حزم

على محبوبكةِ الأصلابِ جُردِ

نهيتك عن رجال من قريش

وما أغنيت شيئاً غير وجدي

ووجداً ما وجدتُ على رياح

وقال العباس بن جرير:

د الذي يصفو وصنُّه

إرعَ الإخاءَ أبا محم

في نيل مكرمةٍ فكُنُه

وإذا رأيتَ منافساً

يرعاك حينَ تغيبُ عنه

أن الصديقَ هو الذي

أحمدتَ ما كشفتَ عنه

وإذا كشفتَ غطاءَهُ

هُ أخو الحفيظةِ لم يخنُه

مثل الحسامِ إذا انتضا

كرماً وإن لم تستعنه

يسعى لما تسعى له

ومن أبلغ ما قيل في إرضاء الرجل عن أخيه قول الراجز:

لم أقبض من صُحبة زيدٍ أربي

أبيض بسّام وإن لم يعجب

موكل النفس بحفظ الغيب

وهذا خلاف ما قيل:

من غاب غاب نصيبه

وقلت في قريب منه:

فتى إذا نبهته لم يغضب

ولا يرضن بالمتاع المحقب

أقصى رفيقين له كالأقرب

لما جد أجمل إذا لم أجمل

فعرز في عيني حين دل لي

وقد يكون العز في التذل

بذلت من شكري ما لم يبذل

يحمل من ثقلي ما لم يحمل

إن جمال الحر في التجمل

والمجد شهد يُجنتى من حنظل

ومن قدسم ما جاء في هذا النحو قول أوس:

يلومك إن ولى ويرضيك مقبلا

وصاحبك الأذني إذا الأمر أعضلا

وليس أخوك الدائم العهد بالذي

ولكنه النائى إذا كنت آمنا

أبلغ ما قيل في التأني وأجوده، وأشدّه اختصاراً، ما أنشدناه أبو أحمد للمرار الفقعسي:

وبعد الأرض يقطعه النزول

تقطع بالنزول الأرض عنا

وهذا مأخوذ من قول النبي صلى الله الرحمن الرحيم: "ألا إن الدين متين، فأوغل فيه برفق، فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى".

وتقول العرب: شر السير المحققة وهي شدة السير.

وقلت في نحو قول المرار:

يقلل إكثار الذميل ذميلها

وأقلق هجران الحبيب مقيلها

على الدار يسقي ظلهن طولها

وقد يكون مع المستعجل الزلل

وحطّ بها أكوار خوص لواغب

نغض عبرة حلّ الفراق عقالها

فلا غرو إن فاضت دموع متيم

ومن المشهور في التأني قول القطامي:

قد يدرك المتأني بعض حاجته

وقال غيره:

ومستعجل والمكثُ أدنى لرشده

ولم يدر ما يلقاه حين يُبادرُ

وقيل لبعض العلماء: لم لم يقل كل حاجته فيكون أبلغ؟ قال: ليس كل من كلام الشعر، وقد صدق، ولو قال كل حاجته لكان متكلفاً مردوداً، وكثيراً ما يقع كل في الشعر قلق المكان، كوقوعه في بيت ابن طباطبا.

فيا لأئمي دعني أعالِي بقيمتي

فقيمةُ كلِّ الناسِ ما يحسنونهُ

ولا أعرف أن كلا وقع في بيت أحسن منه في بيت أبي العتاهية:

أعلمتُ عتْبَةً أنني

منها على أجلٍ مطل

وشكوتُ ما ألقى إلي

ها والمدامعُ تستهلُّ

حتى إذا برمتُ بما

أشكو كما يشكو الأذل

قالت فأبي الناسِ تع

رفُ ما تقولُ فقلتُ: كل

ومن الذي يهوى فلا

يزهَى عليه ولا يذلُّ

وقد أصاب القائل في صفة العقل:

وجدتُ العقلَ نوعين

فمطبوعٌ ومسموعٌ

ولا ينفَعُ مسموعٌ

إذا لم يكُ مطبوع

أجود ما قيل في الاختيار قول ابن المعدل أظنه:

إذا لم تقدحي زنديك يوماً

فما يدريك أيهما الوريُّ

وأول الأبيات:

رأتنا أم عمرو فازدرتنا

ونقضُ الحرب منظره زريُّ

إذا لم تقدحي زنديك يوماً

فما يدريك أيهما الوريُّ

سلي بي تخبري أني طروب

إلى الإيسار أبلجُ بختريُّ

وإني حين تختلف العوالي

إلى الإبطال أكيس قسوريُّ

كليني للندى والبأسِ إني

بكل بسالة وندى حريُّ

ومثله قول الآخر:

زني القومَ حتى تعرفي عندَ وزنهم

إذا رفَع الميزانُ كيفَ أميلُ

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "أخبر ثقله" معناه اختبر من شئت تجد دون ما تظنه فيه، وتطلع على ما تكره منه فتبغضه، وليس في جميع ما قيل في هذا المعنى أبلغ منه ولا أوجز. وقد شرحه ابن الرومي فقال:

دعنتي إلى فضل معروفكم
فأخلفت ما توسمته
وكم لمعة خلتها روضة
ظلمتكم لا تطيب الفرو
وكننت حسبت فما حسب
ت عفى الحساب مع المحسبة
وجوه مناظرها مُعجبة
وقل حميداً على التجربة
فألفيتها دمنة مُعشبة
ع إلا وأعرافها طيبة

فهل تعذروني كعذريكم
جزيت موازينكم بالسوا
بأن أصولكم المذنبه
ء وعذراً بعذر فلا معتبه

وقد قال الناس: الطمانينة قبل التجربة حمق. والمثل السائر.
لا تحمدن امرأ حتى تجربه.

سمعت عم أبي، يقول: ما سمعناه في الشكر أوجز من قول يحيى بن خالد:

الشكر كفو النعمة

ولا أطرف من قول البحترى:

الشكر نسيم النعمة

وأنا أقول لم يسمع أجمع في الشكر من قول إبراهيم بن العباس: أخبرنا به أبو أحمد عن الصولي، عن أحمد بن إسماعيل، قال: قال إبراهيم بن العباس: الشكر داعية المزيد، وقيمة العارفة، ورباط النعمة، ولسان المعطفة.

وأبلغ ما قيل في الشكر، من الشعر قول يحيى بن زياد الحارثي أنشدناه أبو أحمد عن الصولي:

حلفت برب العيس تهوي بركبها
لما بلغ الأنعام في الفضل غاية
ولا بلغت أيدي المنيلين بسطة
ولا ثقلت في الوزن أعباء منة
إلى حرم ما عنه للركب معدل
تفضل إلا غاية الشكر أفضل
من الطول إلا بسطة الشكر أطول
على المرء إلا منة الشكر أنقل

فمن شكرَ المعروف يوماً فقد أتى
أخا العرف من جنس المكافاة من علُ
وقال الآخر:

فعلتَ خيراً كثيراً
وأنت أكثرُ منه
ونحنُ أكثرُ منه
لشكرنا لك عنه

وأجود ما قيل في عظم النعمة وقصور الشكر من قديم الشعر، قول طريح بن إسماعيل:

سعبت ابتغاءَ الشكر فيما صنعت بي
فقصرت مغلوباً وإني لشاكرُ
قوله: وإني لشاكر مع قوله: مغلوباً حسن الموقع، وهو مأخوذ من قول الآخر:

فراق حبيب لم يبين وهو بائنُ
لأنك توليني الجميلَ بداهةً
فأرجع مغبوطاً وترجع بالتي
لها أولُ في المكرماتِ وآخرُ
وأنت لما استكثرت من ذاك حاقر
وقول الآخر:

ولو أن لي كلَّ منبتِ شعرةٍ
لساناً يبثُ الشكر فيك لقصراً
وقال دعبل:

هَجَرْتُكَ لَاعِنَ جَفْوَةٍ وَمَلَالَةٍ
ولكنني لما أتيتك راغباً
فملاًن لا آتيك إلا معذراً
فإن زدت في بري تزايدتُ جفوةً
ولا لقلّي أبطأتُ عنك أبا بكر
فأفرطت في بري عجزتُ عن الشكر
أزورك في الشهرين يوماً أو الشهر
فلا نلتقي حتى القيامة والحشر
وقول أبي نواس:

قد قلتُ للعباسِ مُعْتَذِراً
أنت امرؤٌ قلدتني نعماً
لا تسدينَ إليَّ عارِفَةً
من ضعف سُكْرِيهِ وَمَعْتَرِفاً
أوهت قوَى سُكْرِي وقد ضعفاً
حتى أقومَ بشكر ما سلفاً

وهو أول من أتى بهذا المعنى، إلا أنه عبر عنه عبارة طويلة، وأحد أدواء الكلام فضل ألفاظه على معانيه.
وقال البحري:

هاتيك أخرقُ إسماعيل في تعبٍ
من العلا والعلا منهن في تعبٍ
أدأبتُ سُكْرِي فأمسي منك في نصبٍ
أقصر فمالي في جدواك من أرب

لا أقبل الدهرَ نيلاً لا يقومُ له
لما سألتك وافاني نذاك على

وقلت في معناه:

شكري ولو كان مسديه إليّ أبي
أضعاف شكري فلم أظفر ولم أخبِ

تقاصرَ عن نداء باعُ شكري
وآسى أن تطولَ يداي منه
كأن ندى يديه عناقُ بينِ
لهجتُ بذكره لأبينَ عنه
حناني ثقله ولو أن قوساً
فها أنا منه مفتقرٌ وغان

وقال البحرني:

قصورَ الزجِّ عن زلقِ اللسانِ
إلى ما لا يطاولُهُ لساني
فليس يسرُّني إلا شجاني
فضاقُ بوصفه ذرعَ البيانِ
تلقي منكبيّ لما حناني
وقلبي فيه منطلقٌ وعان

إني هجرتك إذ هجرتك وحشةً
أخجلتني بندي يديك فسودتُ
وقطعتني بالجوّدِ حتى إنني

لا العودُ يذهبها ولا الإبداءُ
ما بيننا تلك اليدُ البيضاءُ
متخوفٌ أن لا يكون لقاء

صلةٌ غدتُ في الناسِ وهي قطيعةٌ
ليواصلنك ركبُ شعرٍ سائرِ
حتى يتمّ لك التناءُ مخلداً
فتظلُّ تحسدك الملوكُ الصيّدِ بي

عجباً وبرُّ راحٍ وهو جفاء
يرويه فيك لحسنه الأعداء
أبداً كما تمت لك النعماء
وتظلُّ تحسدني بك الشعراء

وقد أحسن ثمامة فيما كتب إلى بعضهم: قد حيرني سوء رأيك في، فما أهتدي لطلب الاعتذار وأنت مولى نعمة أنا عبد شكرها، فلا تفضمني من حسن رأيك فأضوي، ولا تسقطني عن حيطتك فأثوي. وقريب من المعنى الأول قول البحرني:

مَنْ مُعِينِي مِنْكُمْ عَلَى ابْنِ فُرَاتٍ
كَلِمَا قَلْتُ أَطْلُقَ الشُّكْرُ رَقِي

ومكافأة ما أنال وأسدّي
رجعتني له أياديهِ عبداً

سمعت عم أبي يقول: ما سمعنا بالرضى بالقسمة والشكر وأحسن من قول صالح بن مسمار: ما أدري أنعمة الله فيما بسط عليّ أفضل أم نعمته فيما زوى عني، فجعل ما منعه نعمة، والناس يجعلونه محنة

ونقمة.

وكتب بعضهم في المعنى الأول: أنا وإن كنت ذا فاقة إلى طولك، فليست، لي طاقة بما حملتني من برك، وما أجد لنفسي معقلاً، ولا أعرف لها متعللاً، إلا في الاقتداء بمن عجز عن شكر ما أولى، فجبر نقيصته بالاعتراف والتقصير، واعتمد من شكره على تصريف المعاذير.

وكتب إلي بعض الأصدقاء: وصل كتابك مقرونا بالتوقيع في معنى المعيشة، فأعاد الأمل جديداً والجد سعيداً، والهمة سامية تمسح وجه النجم، وتقبل عارض الشمس، وتمسك بعنان البدر فأذن بعمارة الجاه، وتكفل برفع القدر وضمن أعلاء الأولياء، وكتب الحساد وكب الأعداء، إلى غير ذلك من أنس أورده، وسرور جدده، ووحشة صرفها، وكربة كشفها، وفهمته وتأملت التوقيع، فتصور لي الغناء بصورته، وقابلني بصدق مخيلته، وعرفت أن الدهر قد غضت جفونه، ونامت عيونه، وتنحت عن ساحتي خطوته، وهذه نعم أعياء بذكرها، فكيف أطمع في أداء شكرها، بل عسى أن يكون الاعتراف بقصور الشكر عنها شكراً لها، ومقبلة لما خلص إلي منها، وأنا معترف بذلك، اعتراف الروض بحقوق الأنواء، إذا تحلى بيوافقت الأنوار ولآلىء الأنداء.

وجعل جعفر بن يحيى البرمكي الشكر بإظهار حسن الحال أبلغ من الشكر بالقول: أخبرنا أبو أحمد أخبرنا الميرمان أخبرنا أبو جعفر بن القتيبي قال: أراد جعفر بن يحيى حاجة، كان طريقه إليها على باب الأصمعي، فدفع إلى خادم له كيساً فيه ألف دينار، وقال: إني سأنزل في رجعتي إلى الأصمعي، ثم سيحدثني ويضحكني، فإذا ضحكت فضع الكيس بين يديه، فلما رجع ودخل عليه فرأى حياً مكسور الرأس، وجرة مكسورة العنق، وقصة مشعبة، وجفنة أعشار، وراه على مصلى بال، وعليه بركان أجرد، فغمز غلامه أن لا يضع الكيس بين يديه، فلم يدع الأصمعي شيئاً مما يضحك الثكلان والغضببان إلا أورده عليه، فما تبسم ثم خرج، فقال لرجل يسايره: من استرعى الذئب ظلم، ومن زرع سبخة حصد الفقر، إني والله لما علمت أن هذا يكتنم المعروف بالفعل، ما حفلت بنشره له باللسان، وأين يقع مديح اللسان من آثار العيان! إن اللسان قد يكذب، والحال لا يكذب، والله درن نصيب حيث يقول:

فعادوا فأنثوا بالذي أنتَ أهلهُ ولو سكتوا أثنت عليك الحقائبُ

ثم قال: أعلمت أن ناس أبرويز أمدح لأبرويز من شعر زهير لآل سنان؟ قد أتى جعفر في هذا الفصل من المعاني بما لم يأت به أحد قبله وشرحه شرحاً ليس مثله لأحد سواه.

وقالت الحكماء: لسان الحال أصدق من لسان الشكوى.

وقد أجاد ابن الرومي في هذا المعنى فقال:

حال تبيحُ بما أوليتَ من حسنٍ
كلي هجاءٌ وقتلي لا يحلُّ لكم
وكل ما تدعيه غيرُ مردودٍ
فما يداويكمُ مني سوى الجودِ

وقالوا: "شهادات الأحوال أعدل من شهادات الرجال".

ومما يجري في باب الشكر، وهو من أبداع ما قيل في معناه، ما أنشدناه أبو أحمد قال: أنشدنا الصولي قال:
أنشدنا أحمد بن إسماعيل الخطيب لنفسه:

وإني وإن أحسنتُ في القولِ مرّةً
تعلمتُ مما قلتُهُ وفعلتُهُ
فمنك ومن أثارك امتار هاجسي
فأهديتُ غصناً من حناني لغارسي

أخذه ابن طباطبا فقال في ابن رستم الأصبهاني:

لا تتكرن اهداءنا لك منطقاً
فالله جلّ وعزّ يشكرُ فعلَ من
منك استفدنا حسنةً ونظامه
يتلو عليه وحيه وكلامه
وفي غير هذا المعنى يقول أبو تمام:

كم غارةٍ لك في المكارمِ ضخمةٍ
فرايتَ أكثرَ ما بذلتَ من اللّهي
غادرتَ فيها ما ملكتَ قتيلاً
نزرأً وأصغرأً ما شكرتَ جزيلاً
وقد أحسن ابن الرومي:

هاجرتُ عنك إلى الرجا
ورجعتُ من كُتّب إلي
ولما أرومُ بما أقو
لكنه حقٌّ أوفّي
ل فكانَ عرْفهمُ كُنُكركُ
ك مفرغاً نفسي لشُكرك
ل زيادةً في رفعِ ذِكرك
ه عوانك بعدَ بِكركُ
كم نعمةٍ لك ملءِ فكٍ
ري لا تلاحظها بفِكركُ

أحسن ما قيل في الصبر

أخبرنا أبو أحمد عن الصولي، عن ابن الرياشي، عن أبيه عن الأصمعي، قال: قال أبو عمرو: أحسن ما قيل
في الصبر قول أبي خراش:

تقولُ أراه بعدَ عروةٍ لاهيا
فلا تحسبي أنني تناسيتُ عهدهُ
وذلك رزءٌ لو علمتَ جليلُ
ولكنَّ صبري يا أميمُ جميلُ

وبعده:

ألم تعلمي أن قد تفرقَ قبلنا
خليلاً صفاء مالكٌ وعقيلٌ

وقال الأصمعي: أحسن ما قيل فيه مع الشرح وقول أبي ذؤيب:

وتجلّدي للشامتين أريهمُ
أني لريبِ الدهرِ لا أنتضعُ
حتى كأني للحوادثِ مروّةٌ
بصفا المشقر كل يوم تُقرعُ

وقوله:

وإني لصبرتُ النفسَ بعدَ ابنِ عنبسٍ
وقد لَجَّ من ماءِ الشؤونِ لجوجُ
لأحسبَ جلدًا أو لينبأ شامتٌ
وللشرِّ بعد القارعاتِ فروجُ

وأحود ما قاله محدث فيه قول ابن الرومي أنشدناه أبو أحمد عن ابن المسيب، راوية ابن الرومي عن ابن الرومي:

أرى الصبرَ محموداً وفيه مذاهبُ
فكيف إذا ما لم يكن عنه مذهبُ
هناك يحقُّ الصبرُ والصبرُ واجبُ
وما كان منه كالضرورةٍ أوجبُ
فشدَّ امرؤٌ بالصبرِ كفاً فإنه
له عصمةٌ أسبابها لا تقضبُ
هو المهربُ المنجى لمن أهدقتُ به
مكارهُ دهرٍ ليس عنهنَّ مهربُ
لبوسُ جمالٍ جنةً من شماتةِ
شفاءٍ أسي يثني به ويثوبُ
فيا عجباً للشيء هذي خلالهُ
وتاركُ ما فيه من الخطِّ أعجبُ
وقد يتظى الناسُ أن أساهمُ
وصبرهمُ فيه طباعُ مركبُ
وإنهما ليس كشيءٍ مصرفٍ
يصرفه ذو نكبةٍ حين ينكبُ
فإن شاء أن يأسى أطاعَ له الأسي
وان شار صبراً جاءه الصبرِ يجلبُ
وليسَ كما ظنوهما بل كلاهما
لكل لبيبٍ مُستطاعُ مسببُ
يصرفه المختار منها فتارةً
يرادُ فيأتي أو يزدادُ فيذهبُ
إذا احتجَّ محتجٌّ على النفس لم يكد
على قدر ما يمني له تتعتبُ
وساعدها الصبرُ الجميلُ فأقبلت
إليها له طوعاً جنائبُ تجنبُ
وإن هو مناها الأباطيلُ لم تزل
تقاتلُ بالغيبِ القضاء فتغلبُ

وتمسي هلو عاً إذا تعذر مطلب
بأن قيل إن الصبر لا يكتسب

بيري الصدور إذا ما جمره حرثا
فإنما بيرو المصدور ما نفتا
ولا تكن لصغير الأمر مكرثا

توفيك ما تسدي من القرض والفرض
وبعض السجايا ينتسبن إلى بعض
فتم ترى شكراً على حسن القرض

لينقض وتراً آخر الدهر ذو نقض

وأول من مدح الحقد عبد الملك بن صالح في قوله: إن كنت تريد الحقد بقاء الخير والشر عندي إنهما
الباقيان.

وأجمع كلمة قيلت في الصبر قول بعضهم: الصبر مظنة النصر.
وقال الآخر: الصبر مطية لا تكبو وإن عنف عليه الزمان.
وسمعت عم أبي يقول: الصبر شرية تنمر أرية وقال:

نفرج أيام الكريهة بالصبر

وقال آخر:

وهل جزعٌ يُجدي عليّ فأجزع

فجعل الصابر الصبر ضرورة لعلمه أن الجزع غير مجد.
وقلت:

لكن لقلّة حيلتي أتصبرُ

قالوا صبرت وما صبرتُ جلادة

وليس في الحيوان شيء أصبر من الحمار والجمال، وذلك أنهما يحملان الحمل الثقيل، على الدبر، ويبلغان
به الغاية البعيدة على الحفا، حتى قالت العرب: "أصبر من ذي ضاغط" وهو أن يضغط موضع الأبط أصل

فتضحى جزوعاً ان أصابت مُصيبة
فلا يعذرَنَّ التارك الصبر نفسه
ومن أجود ما قيل في ذم الحقد قول ابن الرومي:

الحقد داءٌ دفينٌ لا دواء له
فاستشف منه بصفحٍ أو معاتبَةٍ
واجعل طلابك بالأوتار ما عظمت

ثم قال يمدحه:

وخيرُ سجيّات الرجالِ سجيّةٌ
وما الحقدُ إلا توأمُ الشكرِ في الفتى
فحيثُ ترى حقداً على ذي إساءةٍ

ولو لا الحقودُ المستكناتُ لم يكن

الكركرة حتى يدميه.

ويقولون:

أصبرُ من عودِ بجنبيهِ جلبُ قد أثرَ البطانُ فيه والحقبُ

قال حلحلة بن قيس من أشيم فصار مثلاً، وقال سعيد بن ابان بن عيينة بن حصن:

أصبرُ من ذي ضاغِطٍ مُعَرَكَ ألقى بواني صدره للمبركِ

ويقولون: "أصبر من صب" لما هو فيه من القشف واليبس.

وقالوا: "حيلة من لا حيلة له الصبر" وسمعت والدي يقول: لعن الله الصبر، فإن مضرتة عاجلة، ومنفعته آجلة، وذلك أنك معجل بالصبر ألم القلب، لتنال المنفعة في العاقبة، ولعلها تفوتك لعارض يعرض، وكنت قد تعجلت الضرر، من غير أن تصل إلى نفع. فنظمته بعد ذلك وقلت:

الصبرُ عن تحبه صبرُ ونفعُ من لأمَ في الهوى ضررُ

من كان دون المرادِ مُصْطَبِراً فليستُ دون المرادِ أصْطَبِراً

منفعةُ الصبرِ غيرُ عاجلةٍ وربما حالَ دُونها الغيرُ

فقم بنا نلتمسُ ما ربنا أقامَ أو لم يقم بنا القدرُ

ان لنا أنفساً تسودنا أعانهن الزمان أو يذرُ

وابغ من العيش ما تسرُّ به إن عدلَ الناس فيه أو عذروا

وقال أبو هلال: أجمع كلمات سمعناها في الحلم ما سمعت عم أبي يقول: الحليم ذليل عزيز، وذلك أن صورة الحليم صورة الذليل الذي لا انتصار له، واحتمال السفه والتغافل عنه، في ظاهر الحال ذل، وان لم يكن به. وقيل: "الحليم مطية الجهول لاحتماله جهله وتركه الانتصاف منه".

وقال الأول:

وليس ينمُّ الحلمُ للمرءِ راضياً إذ كان عندَ السخطِ لا يتحلّمُ

كما لا ينمُّ الجودُ للمرءِ موسراً إذا كان عندَ العسرِ لا يتكرمُ

ولهذا قال شيخ من الأعراب وقد قيل له ما الحلم؟ قال الذي تصبر عليه.

وقال الشاعر:

لن يدركَ المجدَ أقوامٌ وإن كرموا حتى يذلوا وإن عزوا لأقوام

ويُشتموا فترى الألوان مُسفرةً

لا صفح ذلٌ ولكن صفح أحلام

وسمعته يقول: الحلم عقال الشر، وذلك أن من سمع مكروهة، فسكت عنها انقطع عنه أسبابها، وإن أجاب أتصلت بأمثالها.

وأنشدوا في هذا المعنى:

وتخرج نفسُ المرءِ عن وقع شتمةٍ

ويشتم ألفاً بعدها ثم يصبرُ

ولا أعرف في الحلم معنى أحسن من معنى معاوية في قوله: إني لأرفع نفسي أن يكون ذنبٌ أورثه من حلمي، وما غضبي على من أملك أو ما غضبي على من لا أملك.

يريد: إني إذا كنت مالكا للمذنب، فإني قادر على الانتقام منه، فلم ألزم نفسي الغضب؟ وإن لم أكن أملكه، فليس يضره غضبي، فلم أغضب عليه فأضر نفسي ولا أضره.

وقال الشاعر في الحلم والاعضاء عن المكروه مع القدرة على التغيير:

مغض على العوراء لو

لا الحلمُ غيره انتصاره

وأسمع بعضهم الشعبي فقال له: إن كنت صادقاً فغفر الله لي، وإن كنت كاذباً فغفر الله لك. وهذا أعجب ما جاء في هذا الباب وأحسنه.

وأحد شيء قيل في الحلم من الشعر، ما أخبرنا به أبو أحمد، أخبرنا ابن دريد، أخبرنا أبو عثمان، عن الأحفش قال: نال رجل من الخليل بن أحمد وأسمعه فقال الخليل:

سألزم نفسي الصفحَ عن كلِّ مُذنبٍ

وإن كثرت منه عليَّ الجرائمُ

وما الناسُ ألا واحدٌ من ثلاثةٍ

شريفٌ ومشروفٌ وممثلٌ مُقاومٌ

فأما الذي فوقي فأعرفُ فضلهُ

وأتبعُ فيه الحقَّ والحقُّ لازمٌ

وأما الذي مثلي فأن زلَّ أو هفا

تفضلتُ إنَّ الفضلَ بالعزِّ حاكمٌ

وأما الذي دوني فأن قالَ صنتُ عن

إجابتهِ عرضي وإن لأمَ لائمٌ

قسم هذا الشاعر ثم فسر فأحسن ولم يدع مزيداً. ومن عجيب ما روي في الحلم، ما أخبرنا به أبو أحمد عن رجاله، قال: جيء قيس بن عاصم، بابن له قتيلاً، وابن أخ له كتيفاً، وقيل له: هذا قتل ابنك، فلم يقطع حديثه ولا نقض حبوته، فلما فرغ من حديثه، التفت إلى بعض بنيه، فقال: قم إلى ابن عمك فأطلقه، وإلى أخيك فادفنه وإلى أم القاتل فاعطها مائة ناقة، فإنها غريبة، لعلها أن تسلو عنه ثم اتكأ على شقة الأيسر، وقال:

إني امرؤ لا يعترني خلقي
من منقرٍ في بيتٍ مكرمةٍ
خطباءً حين يقول قائلهم
لا يفطنون لعيب جارهم
دنسٌ يغيره ولا أفنٌ
والفرعُ يَنْبِتُ فوقه الغصنُ
بيضُ الوجوهِ مصافحُ لُسنُ
وهم لحفظِ جوارهم فُطنُ

ويوصف الحلم بالرزانة، وأجود ما قيل في ذلك قول مروان بن أبي حفصة:

ثلاثٌ بأمثالِ الجبالِ حياهمُ
وأحلامهم منها لدى الوزنِ أثقلُ

وقد ذكرناه.

والعرب تسمي العلم حلماً قال المتلمس:

لذي الحلم قبل اليوم ما تُقرع العصا
وما علم الإنسان إلا ليعلمنا

ومن أشرف نعوت الإنسان، أن يدعى حليماً، لأنه لا يدعاه حتى يكون عاقلاً، وعالماً ومصطبراً محتسباً، وعفوياً وصافحاً ومحتماً وكاظماً، وهذه شرائف الأخلاق وكرائم السجايا والخصال.
وقد خولف هؤلاء، ف قيل في خلاف مذهبهم هذا أنشد المبرد:

أبا حسن ما أقبح الجهل بالفتى
إذا كان حلم المرء عونَ عدوه
وللحلم أحياناً من الجهل أقبحُ
عليه فإنَّ الجهل لأعفى وأروحُ

وقال غيره:

قليل الأذى إلا عن القرن في الوغى
ويحلم ما لم يجلب الحلم ذلةً
كثير الأيادي واسع الذرع بالفضلِ
ويجهل ما شددت قوى الحلم بالجهلِ

وقال غيره:

ترفعت عن شتم العشيرة أنني
حليمٌ إذا ما الحلم كان جلالهً
رأيت أبي قد كفَّ عن شتمهم قبلي
وأجهلُ أحياناً إذا التمسوا جهلي

وقال غيره:

إذا الحلم لم ينفك فالجهل أحزم

وقالوا: ليس شيء خيراً من الحق إلا العفو، وذلك أن عقاب المستحق للعقاب حق، والعفو خير منه.
ومن أحسن ما جاء فيه قول بعضهم: لو أن المسيء لي عبد الأخ لي، لرأيت تغمده، والصفح عنه إجلالاً

لقد مولاه وإعظاماً لحق صاحبه، فأنا بالصفح عن عبد الله أولى.
وفي ذم العفو قول عمارة بن عقيل:

قطوعُ الرحمِ بادية الأديم
وطولُ العفوِ أدربُ للظلومِ

وما ينفكُ من سعدِ إلينا
ونغفرها كأن لم يفعلوها

أجود ما قيل في المشهورة قول بشار.

أخبرنا أبو أحمد، أخبرنا محمد بن يحيى حدثنا الغلابي، حدثنا محمد بن عبد الرحمن التميمي، قال: دخل بشار على إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسين، فأنشده قصيدة، يهجو فيها المنصور، ويشير برأى يستعمله في أمره، فلما قتل إبراهيم، خاف بشار فقلب الكنية وأظهر أنه قالها في أبي مسلم. أولها:

وما سالمٌ عما قليلٍ بسالمٍ
ويصرعُهُ في المأزقِ المتلاحمِ
عظيم ولم تعلم بهلك الأعاجم
وأمسى أبو العباسِ أحلامَ نائمٍ
وردن كلوماً باديات الشكائم
لاجرامه لا بل قليل الجرائم
ولا تتقي أشباه تلك الفقائم

أبا جعفر ما كل عيشٍ بدائمٍ
على الملك الجبارِ يقتحمُ الردى
كأنك لم تسمع بقتل متوجٍ
تقسم كسرى رهطه بسيوفهم
وقد ترد الأيام عزاً وربما
ومروانٌ قد دارت على نفسه الردى
وأصبحت تجري سادراً في طريقهم

وتُعري مطايا لليوث الضراغم
عليك فعاذوا بالسيوفِ الصوارمِ
وما زلتِ مروّساً خبيثَ المطاعمِ
غداً أريحياً عاشقاً للمكارمِ
جهاراً ومن يهديك مثل ابن فاطمِ
يكونُ ظلاماً للعدوِّ المزاحمِ
برأى نصيح أو نصيحة حازم
فإن الخوافي قوةٌ للقوامِ

تجردت للاسلام تغفو رسومه
فما زلتَ حتى استنصر الدينُ أهله
لحى الله قوماً رأسوك عليهم
أقول لبسامٍ عليه جلاله
من الفاطميين الدعاة إلى الهدى
سراجٍ لعين المستضيء وتارة
إذا بلغَ الرأي المشورة فاستعن
ولا تجعل الشورى عليك غضاضةً

وما خيرُ كَفُّ أَمْسِكِ العُلُّ اختها
وما خيرُ كَفُّ أَمْسِكِ العُلُّ اختها
وخلُّ الهوينا للضعيف ولا تكن
وخلُّ الهوينا للضعيف ولا تكن
وحارب إذا لم تُعطَ إلا ظلامَةً
وحارب إذا لم تُعطَ إلا ظلامَةً
وما خيرُ سيفٍ لم يؤيِّدَ بقائم
وما خيرُ سيفٍ لم يؤيِّدَ بقائم
نؤوماً فإنَّ الحزمَ ليس بنائم
نؤوماً فإنَّ الحزمَ ليس بنائم
شبا الحرب خيرٌ من قبول المظالم
شبا الحرب خيرٌ من قبول المظالم

هذا ما أورده أبو هلال العسكري، وفي بعض الكتب زيادة في هذه القصيدة وهي:

فأذن على الشورى المقرب نفسه
فأذن على الشورى المقرب نفسه
فإنك لا تستطرُدُ الهَمَّ بالمنى
فإنك لا تستطرُدُ الهَمَّ بالمنى
وما قارعَ الأقوامَ مثلُ مُشيع
وما قارعَ الأقوامَ مثلُ مُشيع
ولا تُشهدِ الشورى أمراً غيرَ كاتمٍ
ولا تُشهدِ الشورى أمراً غيرَ كاتمٍ
ولا تبُلِّغِ العلياً بغيرِ المكارم
ولا تبُلِّغِ العلياً بغيرِ المكارم
أريبٍ ولا جلى العمى مثلُ عالمٍ
أريبٍ ولا جلى العمى مثلُ عالمٍ

وما خير كف البيت.

قال أبو بكر: فحدثني الجمحي قال: سمعت المازني يقول: سمعت أبا عبيدة يقول: ميمية بشار هذه أحب إلي من ميميّ جريير والفرزدق.

وقيل لبشار: ما أحسن أبياتك في المشورة؟ فقال: المستشير بين صواب يفوز بثمرته، أو خطأ يشارك في مكروهه فقليل له: هذا والله أحسن من شعرك.

ومن الأفراد التي لا شبيه لها قول عبد الملك بن صالح في ذم المشورة: ما استشرت أحداً إلا تكبر علي، وتصاغر له، ودخلتني الذلة، فعليك بالاستبداد، فإن صاحبه جليل في العيون، مهيب في الصدور، فإذا افتقرت إلى العقول، حقرتك العيون فتضعض شأنك، ورجفت بك أركانك، واستحقرك الصغير، واستخف بك الكبير، وما عز سلطان، لم يغنه عقله من عقول وزرائه وآراء نصحائه.

فدم المشورة كما ترى وهي ممدوحة بكل لسان.

وقال رومي لفارسي: نحن لا نملك من يشاور. فقال الفارسي: نحن لا نملك من لا يشاور، وقد أجمع الناس أن الفرس أعقل من الروم.

ومن أوجز ما قيل في الطمع قول بعضهم: إذا طمعت مللت.

ويقولون: الطمع طبع، والطمع الدنس، وأنشد:

لا خير في طمع يدعو إلى طبع
لا خير في طمع يدعو إلى طبع
وغفّة من قوام العيش تكفيني
وغفّة من قوام العيش تكفيني

والغفة القوت، وأصلها الفأرة وسميت بذلك لأنها قوت للسنور.

وأنا أقول: إن أول الطمع ذلة، وأوسطه شقوة وآخره حسرة.

وقال ثابت قطنة:

الأئمتي عميرة أن رأنتي
الأئمتي عميرة أن رأنتي
عزفت النفس عما لا ينال
عزفت النفس عما لا ينال

أحزم كلما سمعناها عن العرب قولهم: "إن ترد الماء بماء أكيس" معناه ينبغي أن تحتفظ بما عندك حتى تصل إلى غيره، ولا تلقي ما في يدك رجاء لما هو أكثر منه، فلعلك لا تناله لحادث يحدث.
مثل ذلك قولهم: "لا يرسل الساق إلا ممسكاً ساقاً" أي لا يترك معتمداً إلا إذا وجد مثله. وأصله في الحرب لا يترك ساق شجرة حتى يمسك بساق أخرى.
قال الشاعر:

لا يرسل الساق إلا ممسكاً ساقاً

أنى أتيج لها حرباء تنضبة

أجود ما قيل في الحياء قول الخنساء:

بين البيوت من الحياء سقيماً

ومخرق عنه القميص تخالهُ

تحت اللواء على الخميس زعيماً

حتى إذا رفع اللواء رأيتهُ

أخذه بعضهم وأحسن:

وطول أنضية الأعناقِ والقممِ

يشبهون سيوفاً في صرامتهم

راحوا كأنهم مرضى من الكرم

إذا غدا المسك يجري في مفارقهم

وقال غيره:

ويدنو وأطراف الرماح دوانٍ

كريمٍ يغض الطرف فضل حيائه

وحدها إن خاشنته خشنان

وكالسيف إن لاينته لان مسه

وقال أبو دهبيل:

صمتاً وليس بجسمه سقم

نزرُ الكلام من الحياء تخالهُ

إن النساء بمثله عقم

عقم النساء فلا يلدن شبيههُ

غيره:

ولا أمانة بين الناس عريانا

إني كأني أرى من لا حياء له

أجود ما قيل في تفضيل الجد على العقل والاحبار بأن الحظ والعقل لا يجتمعان قول الأول:

بأغنى في المعيشة من فتيل

وما لب اللبيب بغير حظ

وهيهات الحظوظ من العقول

رأيت الحظ يستتر عيب قوم

والعرب تقول: "اسع بجدُّ أو دع".

أجود ما قيل في التتره والتصون وترك السؤال قول بعضهم: السخاء أن تكون بمالك متبرعاً، وعن مال غيرك متورعاً. فجعل اليأس مما في أيدي الناس سخاءً، لأن النفس، إذا سخت وسمحت، لم تتطلع إلى مال الغير، كما أهما إذا ضاقت وحرصت، تاقت إلى ما ليس لها. وهو معنى حسن دقيق أخذه ابن أبي خازم فقال:

وأفضل من عطاياها السؤال

ومنتظر سؤالك بالعطايا

فدعه فالتز به عنه مال

إذا لم يأتك المعروف طوعاً

وما أحسب أي سمعت في هذا المعنى أحسن من هذا وقلت:

لدى كرم يروح بغير مال

ألا أن القناعة خير مال

بمن عثرت به نوب الليالي

وان تصبر فإن الصبر أولى

فإن من التجمل حسن حال

تجمل إن بليت بسوء حال

أجود ما قيل في مضاء العزم، وثبوت الرأي والفتنة، من الشعر القديم قول أوس بن حجر:

كأن قد رأى وقد سمعا

الألمعي الذي يظن بك الظن

وقالت الحكماء: لا ينتفع الرجل بعلمه، حتى ينتفع بظنه. وكان عمر رضي الله عنه يقول: إذ أنا لم أعلم ما لم أر، ما علمت ما رأيت.

وقلت:

وسئيك موقوف على كل راغب

أمانك مصروف إلى كل راهب

فلم تتباشر بالغيوث الصوائب

تباشرت الدنيا بجدواك واكتفت

وعين عليه في اختلاف النوائب

تبسم منك الدهر عن زائن له

تكشف عن رأي وراء العواقب

بصير له دون العواقب فكرة

وتحميه بالنصلين: عزم وقاضب

ليشرك مجد لا تزال تحوطه

أخذت بأهداب الغيوم السواكب

كأنني إذا أمسكت منك بعروة

وليس في المضاء والعزيمة أجود من قول أبي تمام:

على مثلها والليل تسطو غياهبه

وركب كأطراف الأسنه عرسوا

وليس عليهم أن تتم عواقبه

لأمر عليهم أن تتم صدورهم

مأخوذ من قول الأول:

غلام وغي تقمها فأودي
وكان على الفتى الأقدام فيها

وقوله:

وقد علم الأفسين وهو الذي به
يُصانُ رداء الملك من كل جانب

بأنك لما استخذل الأمر واكتسى إهابي سيفي في وجوه التجارب:

تجللت بال رأي حتى أريته
سللت له سيفين رأياً ومنصلاً
وكننت متى تهزز لخطب تغشه
به ملء عينيه مكان العواقب
وكلُّ لنجم في الدُّجْنَة ثاقب
ضرائب أمضى من رفاق المضارب

وقال:

وسارت به بين القنابل والقنا
عزائم كانت كالقنا والقنابل

ومن جيد ما قيل في كتمان السر قول الأول:

تلاقت حيازيمي على قلب حازم
أواخي رجالاً لست أطلع بعضهم
على سرّ بعضٍ إن قلبي واسعة

وقال الآخر:

سأكتمه سري وأحفظ سرّه
عليم فينسى أو جهول يذيعه
ولا غرّني أنني عليه كريم
وما الناس إلا جاهلٌ وعليمٌ

والمثل السائر:

إذا ضاق صدر المرء عن سرّ نفسه
فصدر الذي يستودع السر أضيق

أحسن ما قيل في العقل ما أنشدناه أبو أحمد عن ابن دريد:

أفضل قسم الله للمرء عقله
إذا كمل الرحمن للمرء عقله
فليس من الخيرات شيء يقاربه
فقد كملت أخلاقه وضرائبه

يعيشُ الفتى بالعقل في الناس أنه
ومن كان غالباً بعقل ونجدة
على العقل يجري علمه وتجاربه
فدو الجدّ في عقل المعيشة غالبه

وإن كان محظوراً عليه مكاسبه
وإن كرمّت أعرافه ومناسبه

يزين الفتى في الناس صحةً عقله
ويزري الفتى في الناس قلةً عقله

ونحوه قول الآخر:

ولم أرَ مثلَ المالِ أرفعَ للنذلِ

ولم أرَ مثلَ الفقرِ أوضعَ للفتى

إذا عاشَ بينَ الناسِ منعدمِ العقلِ

ولم أرَ منَ عدمِ أضربَ على الفتى

وقال سهل بن هارون: العقل راية الروح، والعلم راية العقل والبيان ترجمان العلم. أخبرنا أبو أحمد، أخبرنا أحمد بن عبد الواحد، أخبرنا أحمد بن يحيى، عن ابن الأعرابي، قال: قال قس بن ساعدة: أفضل العقل معرفة الرجل بنفسه، وأفضل العلم وقوف المرء عند علمه، وأفضل المروءة استبقاء الرجل ماء وجهه، وأفضل المال ما قضيت منه الحقوق. ومن العجب، أن العرب تمثلت في جميع الخصال، بأقوام جعلوهم أعلى ما فيها، فضربوا بها المثل، إذا أرادوا المبالغة، فقالوا: "أحلم من الأحنف ومن قيس بن عاصم".

"وأجود من حاتم ومن كعب بن أمية".

وأبين من سحبان.

"وأرمى من ابن تقن".

"وأعلم من دغفل".

ولم يقولوا أعقل من فلان، فلعلهم لم يستكملوا عقل أحد، على حسب ما قال الأعرابي، وقد قيل له: حد لنا العقل، فقال: كيف ولم أره كاملاً في أحد قط.

ووصف بعضهم الحجاج بالعقل، وعكس أمره آخر فوصفه بالحمق، قال عتبة بن عبد الرحمن: رأيت عقول الناس تتقارب إلا ما كان من عقل الحجاج بن يوسف وإياس بن معاوية، ثم قال أبو الصغدي، كان الحجاج أحق بني مدينته في بادية النبط، ثم حماهم دخولها فلما رحل عنها دخلوها من قرب. وقال يونس بن حبيب: كان والله يفتق ولا يرتق، ويحرق ولا يرفق، وقال بعضهم: ما دخل العراق أكثر أدباً من الحجاج، فلما طال مكثه في ولايته، واشتد في سلطانه، وترك الناس الرد عليه فسد أدبه، وقال له عبد الملك: إن الرجل لا يكون عاقلاً حتى يعرف نفسه، وأمير المؤمنين يقسم عليك لتخبره عن نفسك، فقال: أنا حديد حقود، ذو قسوة حسود، فانتحل الشر بخذافيره وجمعه بزوبره. ومن العجب، أنهم قالوا: من عرف نفسه نجح، وقد عرف الحجاج نفسه وهو هالك. وقالوا: العاقل لا يخبر بعبث نفسه، وقال بعضهم

لا يعرف الرجل حقيقة ما اشتمل عليه من العيب، كما أن أكل الثوم لا يجد رائحته من نفسه: وقلت في ذلك:

لو تمَّ شيءٌ من الدنيا لذي أدبٍ لانضمام مالٍ إلى علمي وأدبي
فتمَّ جاهي عند الناسٍ كلهم وطابَ عيشي في أهلي وأصحابي
عز الكمال فلا يحظى به أحدٌ فكلُّ خلقٍ وان لم يدرِ ذو عاب

وقال إسماعيل بن غزوان: كل علم لا يكون في مغرس عقل وبيان، لا يكون في نصاب علم وخلق، لا يجري على عرقه فليس له ثبات، إذا احتيج إلى الثبات وقال أبو داود:

على أعراقه يجري المذكي وليس على تكلفه وجهه

وقال بعض الملوك لحاجبه: أدخل عليّ رجلاً عاقلاً، فأدخل عليه رجلاً قال: ثم عرفت عقله؟ قال: رأيته يلبس الكتان في الصيف، والقطن في الشتاء واللبس في الحر، والجديد في القر.
ومما قيل في علامة العاقل أعجب إلي من قول الأول: علامة العاقل أن يكون عالماً بأهل زمانه، حافظاً للسانه، مقبلاً على شأنه. وقال بعضهم: إنما تنفع التجارب من كان عاقلاً.
ومما يدخل في الباب، ما أخبرنا أبو أحمد عن أبي بكر، عن عبد الرحمن، عن عمه قال: لم يقل أحد في التفرح بالمنادمة إلى الإخوان، والتسلي بمناعة أهل الحفاظ. بمثل قول بشار حيث يقول:

وأبثتُ عمراً بعضاً ما في جوانحي وجرعته من مرٍّ أتجرعُ

ولا بدّ من شكوى إلى ذي حفيظةٍ إذا جعلتُ أسرارُ نفسي تطلّعُ

ومن أجود ما قيل في ترك الشيء إذا أدبر قول بعض الأعراب:

إذا ضيعت أول كلِّ أمرٍ أبت أعجازُهُ إلا التواء

وإن حملتُ أمرك كلَّ وغدٍ ضعيفٍ كان أمركما سواء

وإن داويتُ دنيا بالتناسي وبالليان أخطأت الدواء

وقال الأعشى:

إذا حاجةٌ ولتكَ لا تستطيعها فخذُ طرفاً من غيرها حين تسبقُ

فذلك أحرى أن تنالَ جسيمها وللقصدِ أهدى في المسيرِ وألحقُ

ومن أجود ما قيل في المهابة من قديم الشعر ما ينسب إلى الفرزدق وهو لغيره في علي بن الحسين رضي الله تعالى عنهما:

يغضبي حياءً ويغضى من مهابته

فما يكلم إلا حين يبتسم

جعله مهيباً في السكون والإغضاء، ولو جعله مهيباً مع الصولة والبطش لما كان كذلك فهو بليغ جداً. وأنشدنا أبو أحمد عن بعض رجاله، لشاعر في بعض العلماء هو الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة رحمه الله تعالى:

يأبى الجوابَ فما يراجعُ هيبَةً

والسائلونَ نواكسُ الأذقانِ

هدى التقىّ وعزُّ سلطانِ النهى

وهو المهيبُ وليس ذا سلطانِ

ومن أحسن تشبيه جاء في الهيبة قولهم: "كأن على رؤوسهم الطير". وذلك أن الهائب تسكن جوارحه فكأن على رأسه طائراً يخاف طيرانه إن تحرك. وقال أبو نواس:

أضمرُ في القلبِ عتاباً له

فإن بدا أنسيبُ من هيبته

ومثلها في النسب كثير وشبيهه قول الأول:

أهانك إجلالاً وما بك قدرة

عليّ ولكن ملء عين حبيبها

وما هجرتك النفسُ أنك عندها

قليلٌ ولا إن قلّ منك نصيبها

ولا ترى أجود من قوله: ملء عين حبيبها ولا أحسن ولا أبلغ ولعلك لا تجد لفضة تقوم مقامها، ويقولون: حسن بملأ العين، وهيبة تملأ الصدر. وقال:

وتملأ عين الناظر المتوسم

وقال ابن الرومي:

في فتية من ولد المنصور

أملأ للعين من البدور

وقال آخر:

إذا ذكرت أمثالها تملأ الفما

وقد أجاد أبو تمام في صفة الهيبة والمخافة فقال:

نبت المقام يرى القبيلة واحداً

ويرى فتحسبه القبيل قبيلة

وقال:

قد أترعت منه الجوانح هيبَةً

بطلت لديها سورة الأبطال

لو لم يزاحفهم لزاحفهم له

ومثله قول ابن المعتز:

ما في قلوبهم من الأوجال

أنا جيشٌ إذا غدوتُ وحيداً

وقلت في ذلك:

ووحيدٌ في الجحفلِ الجراء

قبيلكم في العزِّ يعلو قبائلاً

وقال الأشجع في إبراهيم بن فهيك وقد ولي لمعونة:

وواحدكم في المجدِ يكثر معشرا

شدَّ الخطامَ بأنفِ كلِّ مخالفٍ

حتى استقامَ له الذي لم يخطم

لا يصلح السلطان إلا هيبَةً

تلقى البريءَ بفضلِ جرمِ المجرم

منعت مهابتك النفوسَ حديثها

بالشيءِ تكرهه وإن لم تعلم

ونهجتَ من حزمِ السياسةِ منهجاً

فهمت مذهبه الذي لم يفهم

وأبلغ من هذا كله ما أنشدناه أبو أحمد عن العبشمي عن المبرد:

وأثبت حياً في الحروب محلهم

والجيش باسم أبيهم يستهزم

يقول: به الجيش يستهزم إذا ذكر فليس أبلغ منه.

ومثله قول الفرزدق:

لبيكِ وكيف خيلُ ليلٍ مغيرةٌ

تساقي الحِمامَ بالرُّدينيةِ السُّمرِ

لقوا مثلهم فاستهزموهم بدعوةٍ

دعوها وكيفاً والجيادُ بهم تجري

ومثله قول الآخر:

سماؤك تمطر الذهبا

وحربك يلتظي الهبا

وأى كتيبة لاقت

ك لم تستحسن الهربا

فجعلها تستحسن الهرب إذا لاقت، ولا تحشى اللائمة إذا فرت منه فهو غاية.

ومما هو بليغ في باب المهابة قول الأشجع:

وعلى عدوك يا بن عمِّ محمد

رصدان ضوء الصبح والأظلام

فإذا تبتة رعتة وإذا هذى

سلت عليك سيوفك الأحلام

فنقله أبو نواس إلى غزال فقال:

قسيت في الهوم والأطما

وصرت فيه بين الورى علما

أكون يقظان في تذكره

حتى إذا نمتُ كان لي حلما

ومما هو أبلغ من ذلك كله قول النبي صلى الله عليه وسلم "نصرت بالرعب" وما وصف أحد هيبة صاحب السلطان إذا بدا كما وصفها البحترى في قوله:

إذا ما مشى بين الصفوف تقاصرت

رؤوسُ الرجالِ عن أشمِّ سميذع

يقومون من بُعدٍ إذا أبصروا بهِ

لأبلج موقورِ الجلالةِ أروع

يدعونَ بالأسماءِ مثني وموحداً

إذا حضروا بابَ الرّواقِ المرفعِ

وإن سارَ كُفَّ اللحظُ عن كلِّ منظرٍ

سواه وُغُضَّ الصوتُ عن كلِّ مسمَعِ

فلستَ ترى إلا إفاضةً شاخصِ

إليه بعينٍ أو مشيرٍ بأصبعِ

وقوله:

ترأعوك من أقصى السماطِ فقصروا

خطاهم وقد جازوا الستورَ وهم عجل

ولما قضوا صدرَ السلامِ تهافتوا

على يدِ بسامِ سجيتهُ رسلُ

إذا أسرعوا في خطبةٍ قطعتهمُ

جلالةُ طلقِ الوجهِ جانبهُ السهلِ

إذا نكسوا أبصارهم من مهابةِ

ومالوا بلحظٍ خلتَ أنهم قبلُ

وقال أبو بكر الصولي وهو من البليغ:

إذا ما بدا والقومُ فوقَ سروجهم

تتناثرتِ الأشرافُ منهم على الأرضِ

وقال البحترى:

ومبجل وسطَ الرجالِ خفوفهم

لقيامه وقيامهم لعوده

فإنه يكلؤه لنا ويحوطه

ويعزّه ويزيدُ في تأييده

أبلغ ما جاء في وصف العلم قول علي رضي الله تعالى عنه: قيمة كل امرئ ما يحسنه.

وشد به بعضهم فقال: قيمة كل امرئ علمه.

ولا أعرف في مدح العلم، وعد خصاله، أبلغ من كلامه رضي الله تعالى عنه، خاطب به كميل بن زياد،

أثبته لك هنا وإن كان مشهوراً: أخبرنا أبو أحمد، حدثنا الهيثم بن أحمد الزيداني، حدثنا علي بن حكيم

الأذري، حدثنا الربيع بن عبد الله المدني، حدثنا عبد الله بن حسن، عن محمد بن علي، عن آبائه عن

كميل بن زياد، قال: أخذ بيدي علي رضي الله تعالى عنه، فلما أصحرتنا قال: يا كميل إن هذه القلوب

أوعية، وخيرها أوعاها فاحفظ عني، ما أقول لك: الناس ثلاثة: عالم رباني، ومتعلم على سبيل النجاة، وهمج رعا ع أتباع كل ناعق، يميلون مع كل ربح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يأووا إلى ركن وثيق. يا كميل، العلم خير من المال، العلم يحرسك، وأنت تحرس المال، والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو على الإنفاق، يا كميل محبة العلم دين، تدان به تكتسب به الطاعة في حياتك، وجميل الأحدثه بعد وفاتك، والعلم حاكم، والمال محكوم عليه، يا كميل، مات خزان المال، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة، هاه إن ههنا لعلماً جمماً، لو أصبت له حملة بلى أصبت لقتاً، غير مأمون يستعمل آلة الدين في طلب الدنيا فيستظهر بحجج الله على أوليائه، أو منقاداً لحملة الحق، لا بصيرة له في أجنائه، فيقدح الشك في قلبه عند أول عارض من شبهة، أولاً ذا ولاذا فمنهوم باللذات، سلس القياد للشهوات، ومغرم بالجمع والادخار، ليس من رعاة الدين، أقرب شهباً بهم الأنعام السائمة، اللهم بلى لا تخلو الأرض من قائم بحجة: إما ظاهر وإما خائف، لئلا تبطل حجة الله وتبينه، وكم وأين أولئك الأقلون عدداً، الأعظمون قدراً، بهم يحفظ الله تعالى حججه حتى يودعوها أسماع نظرائهم، ويزرعوها في قلوب أشباههم؟ هجم بهم العلم على حقائق الأمور، فباشروا روح اليقين، واستلانوا ما استوعده المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها، متعلقة بالمحل الأعلى، يا كميل، أولئك أولياء من خلقه، وعماله في أرضه، والدعاة إلى دينه، هاه شوقاً إلى رؤيتهم. ومما حث به على تحفظ العلوم، قول بعض الأوائل: خير العلم ما إذا غرقت بسفينتك سبح معك. وقال الخليل:

حاة إنها فخرُ المكائر

أفخر وكائر بالقري

أوعيتَ في صحف الضمائر

وأعلم بأنَّ العلمَ ما

وقال أبو هلال رحمه الله تعالى: لو قال ما ضمنته صحف الضمائر كان أجود.

وقال غيره:

وبئس مُستودعُ العلمِ القراطيسُ

استودعَ العلمَ قرطاساً فضيعه

وقلت:

دفاتر تلقى في الظروف وترفعُ

تقل غناء عن جهولٍ مغمر

وكائن رأينا من نفيسٍ يضيع

تروح وتغدو عنده في مضبعةٍ

ومن المختار في طلاقة اللسان قول الآخر:

لعيّ ولم يثن اللسان على هجرٍ

إذا قال لم يترك مقالا ولم يقف

يصرِّفُ بالقولِ اللسانَ كما انتحى

وينظرُ في أعطافه نظرَ الصقر

ونحوه:

لا خيرَ في حشوِ الكلا

م إذا اهتديتَ إلى عيوبه

وأجود ما قيل في إقامة الإعراب، وترك التغيير ما أنشدناه أبو أحمد عن الصولي:

ويعجبني زيُّ الفتى وجماله

ويسقط من عينيَّ ساعةً يلحنُ

على أن للإعراب حداً وربما

سمعت من الأعراب ما ليس يحسنُ

ولا خيرَ في اللفظ الكريه استماعه

ولا في قبيح اللحن والقصدُ أزينُ

سمعت أبا أحمد يقول: أحسن ما سمعت في السؤال: قول عبد الله بن العباس وقد سئل: بم أدركت هذا العلم؟ قال: بلسان سؤال وقلب عقول.

ثم أخبرنا قال: أخبرنا الحسن بن علي بن عاصم، ثنا الهيثم بن عبد الله، حدثنا علي بن موسى الرضى، حدثني أبي، حدثني أبو جعفر بن محمد، عن أبيه عن علي بن الحسن رضى الله تعالى عنهم، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "العلم خزائن مفتاحها السؤال فاسألوا فإنه يؤخر فيه أربعة: السائل والمستمع والعالم والمحب لهم".

وأجود ما قيل في السؤال من الشعر ما أنشدناه أبو أحمد أنشدنا ابن الأنباري عن أبيه:

شفاء العيِّ في طولِ السؤالِ

وعدلك في المقالِ وفي الفعالِ

وبحثك في الأمورِ عن المعاني

وتخريج المقالِ من المقالِ

وقولك بالصواب إذا أنارت

شواهدُهُ ورفضك للجدال

وصمتك حينَ تسمعُ من حكيم

ليفهمك الصحيحَ من المحالِ

أجود ما قيل في صفة اللسان وأتمه، ما أخبرنا به أبو أحمد، أخبرنا أبو بكر بن دريد، قال أحمد بن عيسى العكلي: حدثنا الخليل عن عبد الله بن صالح بن مسلم القاضي قال: قال بعض الحكماء لابنه: يا بني، اللسان أداة يظهر بها البيان، وشاهد يخبر عن الضمير، وحاكم يفصل به الخطاب، وناطق يرد به الجواب، وشفاع يدرك به الحاجة، ومعز يرد الأحران، وواعظ ينهى عن القبيح، ومزين يدعو إلى الحسن، وزارع يحرث المودة، وحاصد يذهب بالضغين، ومله يوقف الأسماع، ألا ترى أن الله تعالى رفع درجة اللسان بأن أنطقه بالتوحيد، وليس شيء من الجوارح ينطق به غيره.

ومن أجود ما أحتج به للكلام: ما أخبرنا به أبو أحمد، حدثني أبي، حدثنا أحمد بن أبي طاهر، حدثنا أبو تمام، قال: تذاكرنا الكلام في مجلس سعيد بن عبد العزيز التنوخي وحسنه، والصمت ونبله، فقال سعيد: ليس النجم كالقمر، إنك إنما تمدح السكوت بالكلام، ولا تمدح الكلام بالسكوت، وما أنبأ عن شيء فهو أكبر منه.

ومثله ما أخبرنا به أبو أحمد عن أبيه، عن أحمد، حدثنا أبو تمام، حدثنا أبو عبد الرحمن الأموي: قال: ذكر الكلام في مجلس سليمان بن عبد الملك، فذمه أهل المجلس، فقال سليمان: كلاً! إن من تكلم فأحسن، قدر أن يسكت فيحسن، وليس كل من سكت فأحسن، قدر أن يتكلم فيحسن. وليس كل من سكت فأحسن، قدر أن يتكلم فيحسن.

ومن أجود ما أحتج به للصمت، ما أخبرنا به أبو أحمد، أخبرنا أبي أخبرنا أحمد بن أبي طاهر، حدثنا حبيب بن أوس، حدثني عمرو بن هاشم البيروتي قال: تحدثنا بباب الأوزاعي، وفينا أعرابي من بني عليم بن جناب، لا يتكلم فقليل له: بحق ما سميتم خرس العرب، ألا تتحدث مع القوم؟ فقال إن الحظ للمرء في أذنه وإن الحظ في لسانه لغيره، وإنما جعل للمرء أذنان ولسان، ليكون استماعه ضعف كلامه. قال فحدثنا الأوزاعي، فقال والله لقد حدثكم فأحسن.

وقد سوى بعضهم بين الصمت والكلام، فحدثني أبو أحمد عن أبيه عن أحمد بن أبي طاهر، عن أبي تمام، حدثني يحيى بن إسماعيل الأموي، حدثني إسماعيل بن عبيد الله قال جدي: الصمت منام العاقل والنطق يقظته ولا منام إلا بيقظة ولا يقظة إلا بمنام.

قال أبو هلال: وأنا أقول الصمت يورث الحبسة والحصر وإن اللسان كلما قلب وأدير بالقول كان أطلق له: أخبرني بعض أصحابنا قال: ناطقت فتى من بعض أهل القرى، فوجدته ذليق اللسان، فقلت له: من أين لك هذه الذلاقة؟ قال: كنت أعمد كل يوم إلى خمسين ورقة من كتب الجاحظ، فأقرأها برفع صوت، فلم أجر على ذلك مدة حتى صرت إلى ما ترى. وسمى البيان سحراً لدقة مسلكه. وأول من نطق به رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو من أجمع ما مدح به البيان:

حدثنا أبو القاسم عبد الوهاب بن إبراهيم، أخبرنا أبو بكر أحمد بن حماد العقدي، أخبرنا أبو جعفر أحمد بن الحارث الخزاز، أخبرنا المدائني قال: قال أبو الحسن بن مسلم بن محارب بن مسلم بن زياد، عن عيينة بن عبد الرحمن عن أبيه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعمرو بن الأهم: أخبرني عن الزبرقان بن بدر: فقال: مطاع في أذنيه، شديد العارضة، مانع لما وراء ظهره. فقال الزبرقان: إنه ليعلم مني أكثر من هذا ولكنه حسدي. فقال عمرو: أما والله يا رسول الله إنه لزم المرءة، ضيق العطن، أحمد الوالد، لئيم الخال، وما كذبت في الأولى ولقد صدقت في الأخرى، رضيت فقلت أحسن ما أعلم، وسخطت فقلت

أسوأ ما أعلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن من البيان لسحرا وان من الشعر لحكمة". وإنما تعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم من نقضه وإبرامه في حال واحدة، ومثل هذا من البلاغة أصعب مراماً وأعجز مطلباً، وقد أشبعنا القول فيه في كتاب صنعة الكلام.

ومما يدخل في بابه، ما أخبرنا به أبو أحمد أخبرنا الصولي، حدثني الطيب بن محمد الباهلي، قال موسى بن سعيد بن مسلم عن أحمد بن يوسف الكاتب قال: دخل خالد بن صفوان التميمي على أبي العباس السفاح وعنده أخواله من بني الحارث بن كعب فقال له ما تقول في أخوالي؟ قال: هم هامة الشرف، وخرطوم الكرم، وغرس الجود، إن فيهم لخصالاً ما اجتمعت في غيرهم من قومهم، إنهم لأطولهم أمماً، وأكرمهم شيماً وأطعمهم طعماً، وأوفاهم ذمماً وأبعدهم همماً، هم الجمرة في الحرب، والرغد في الجذب، والرأس في الخطب، وغيرهم بمتزلة العجب.

فقال: لقد وصفت أبا صفوان فأحسنت، فزاد أخواله في الفخر، فغضب أبو العباس لأعمامه: فقال: أفخر يا خالد، فقال أعلى أخوال أمير المؤمنين؟ فقال: نعم وأنت من أعمامه، فقال: وكيف أفاخر أقواماً هم بين ناسج برد، وسائر قرد، ودابغ جلد، دل عليهم الهدهد وغرقتهم الفأرة وملكتهم امرأة؟ فأشرق وجه أبي العباس وجعل يضحك.

قال وحدثني ابن المزرع قال: سمعت عمرو بن بحر الجاحظ، وقد ذكر كلام خالد هذا يقول: والله لو نفكر في جمع معانيهم، واختصار اللفظ في مثالبهم، بعد ذلك المدح المهذب سنة، لكان قليلاً فكيف على بديه لم يرض فكراً.

وأجود ما قيل في كراهة المزاح قولهم: إن المزاح هو السباب الأصغر، وقيل المزاح سباب النوكى. وأجود ما قيل في تخوف عاقبته قول أبي نواس:

وأيّ جدٍ بلغ المازحُ

إنه نارٌ وقدحُ القادحِ

ومثله:

رُبَّ جدٍ جرّه لعبٌ

صارَ جداً ما فرحت به

وقلت:

غضبت للمزح ولم تنظر في موقعه المزح في موضعه كالجذ في موضعه

أجود ما قيل في التضافر والتعاون، قول قيس بن عاصم المنقري يوصي ولده وقومه: وجدت في كتاب غير مسموع، لما حضر عبد الملك بن مروان الوفاة، وعابنته قال: يا بني أوصيكم بتقوى الله، وليعطف الكبير منكم على الصغير، ولا يجهل الصغير حق الكبير، وأكرموا مسلمة بن عبد الملك فإنه نابكم الذي

عنه تعبرون، ومجنكم الذي به تستجرون، ولا تقطعوا من دونه رأياً، ولا تعصوا له أمراً، وأكرموا الحجاج بن يوسف، فإنه الذي وطأ لكم المغابر، وذل لكم قارب العرب، وعليكم بالتعاون والتضافر، وإياكم والتقاطع والتدابير.

فقال قيس بن عاصم لبيه:

بصلاح ذاتِ البينِ طولُ بقائكم
إِن مَدَّ في عمري وإن لم يُمددِ
حتى تلين جلودكم وقلوبكم
لمسودَّ منكم وغير مسودَّ
إِن القداحَ إِذا جُمعنَ فرامها
بالكسر ذو حَنقٍ وبطشِ أيدِ
عزت ولم تُكسر وإن هي بُدِّتْ
فالوهنُ والتكسيرُ للمتبدد

ثم قام علي بن خالد بن يزيد بن معاوية وخالد بن عبد الله بن أسيد فقال لهما: قد حضر من الأمر ما تريان، فإن كان في نفوسكما شيء من بيعة الوليد نزعتماه وجعلتما الأمر حيث شئتما: قالوا: بل رضينا أكمل الناس لها، وأقواهم عليها، قال: أما والله لو غيرنا قلتما لمتما قبلي، ثم رفع طرف فراشه، فإذا تحته سيف مجرد، فقال: للوليد لا أعرفنك إذا أنا مت تعصر عينيك وتمسحها نعل الأمة الوعكاء شمر وبرز والبس جلد النمر، وادع الناس إلى بيعتك، فمن قال برأسه هكذا فقل بسيفك هكذا. ثم لم يزل متمثلاً بقول الشاعر:

وهل من خالد أما هلكننا
وهل بالموتِ يا للناسِ عار

ثم قال: الحمد لله الذي لا يبالي صغير هلك في ملكه أم كبير ثم قضى.
فقال هشام بن عبد الملك:

وما كان قيسٌ هلكهُ هلك واحدٍ
ولكنه بنيانُ قومٍ تهدما

فسمعها الوليد فتطير منها، فرفع يده فلطمه، وقال: إنك أعور مشؤوم، هلا قلت كما قال التميمي:

إِذا سيِّدٌ منا ذرأ حدننا به
تخبِطُ فينا نابُ آخرٍ مقرم

فسمع مسلمة الصيحة، فقال: ذروا الصياح، فإنكم إن استقمتم استقام الناس، وإن اختلفتم اختلفوا. أخبرنا أبو أحمد، أخبرنا أبو بكر بن دريد، أخبرنا أبو حاتم، عن أبي عبيدة، قال: كان عبد الملك بن مروان، ذات ليلة، في سمره مع ولده، وأهل بيته، وخاصته، فقال: ليقل كل واحد منكم أحسن ما قيل من الشعر، وليفضل من رأى من الشعراء تفضيله، فأنشدوا وفضلوا، فقال بعضهم: أمرؤ القيس، وقال بعضهم النابغة وقال بعضهم: الأعشى، ولما فرغوا قال: أشعر والله من هؤلاء جميعاً عندي الذي يقول:

وذی رحمٍ قلمتُ أظفارَ ضغنه
 إذا سُمتهُ وصلَ القرابةِ سامني
 وأسعى لکي وأبني ويهدمُ صالحی
 يحاولُ رغمي لا يحاولُ غيرهُ
 فإن أنتصر منه أكن مثلَ رائش
 وبادرت منه النأي والمرءُ قادرٌ
 فإن أعفُ عنه أغضُ جفناً على القذی
 حفظتُ الذي قد كان بيني وبينه
 فما زلتُ في لينٍ له وتعطفٍ
 لأستلَّ منه الضغنَ حتى سللته
 بحلمي عنه وهو ليس له حُم
 قطيعتها تلك السفاهةُ والظلمُ
 وليس الذي بيني كمن شأنه الهدمُ
 وكالموتِ عندي أن يحل به رغمُ
 سهامِ عدوٍ يستهاضُ بها العظمُ
 على سهمه ما دام في كفه السهم
 وليس له بالصفحِ عن ذنبه علم
 وهل يستوي حربُ الأقاربِ والسلام
 عليه كما تحنو على الولدِ الأمُّ
 وإن كان ذا ضغنٍ يضيقُ به الحزم

فقالوا: يا أمير المؤمنين، من قائل هذه الأبيات؟ فما أحسنها وأرضاهها؟ قال: معن ابن أوس المزني.
 ومن أجمع ما قيل في المعروف، قول النبي صلى الله عليه وسلم: "المعروف كاسمه".

أخبرني عم أبي عن أبيه قال: قال العتابي كنت واقفاً بباب المأمون، أنتظر من يستأذنه لي، فأقبل يحيى بن
 أكثم، فقمتم إليه، فقلت: أستأذن لي على أمير المؤمنين، فقال: لست بحاجب، فقلت: ولكنك ذو فضل،
 وذو الفضل معوان، قال: سلكت بي غير سبيلي، قلت: ان الله قد أتخفك بجاه، وهو مقبل عليك بالزيادة
 إن شكرت، وبالنقصان إن كفرت، وأنا لك منذ اليوم أنفع منك لنفسك، أدعو إلى ازدياد نعمتك وتأي
 علي، ولكل شيء زكاة، وزكاة الجاه رفا المستعين، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أفضل
 المعروف فضل جاهك تعود به على من لاجاه له". فعددت وخل، فما لبث ان خرج الحاجب يسأل عني،
 فدخلت فقال: حدثنا أبو نصر التمار عن سفيان بن عيينة عن ابن نجيح عن مجاهد عن ابن عباس قال:
 اجتمع أربعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب، والعباس بن عبد المطلب،
 وجعفر الطيار، وعمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنهم أجمعين، فتذاكروا المعروف فقال علي: المعروف
 حصن من الحصون، وكثر من الكنوز، فلا يزهديك فيه كفر من كفره، فقد يشكر الشاكر ما أضعاه
 جحود الكافر. وقال العباس: المعروف أفضل الأمور، وأوثق الحصون، ولا يتم إلا بثلاثة: تعجيله،
 وتصغيره، وستره، فإذا عجلته هنأته، وإذا صغرت عظمته، وإذا سترته تمتته، إن بأهل المعروف من الرغبة،
 أكثر مما بأهل الحاجة إليهم، وبيان ذلك أن لهم ذكره وسناه وفخره، فمهما أتيت من معروف، فإنما أتيت

لنفسك. وقال عمر: إن لكل شيء أنفأ، وأنف المعروف السراح. فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "فيم أنتم؟" فقالوا: نذاكر المعروف، فقال عليه الصلاة والسلام: "المعروف كاسمه، وأول من يدخل الجنة المعروف وأهله".

ومن أجود ما قيل في بذل المعروف، وإن كان قليلاً، ما أخبرنا به أبو أحمد عن الجوهري، عن المنقري، عن الأصمعي، عن بعض العباسيين، قال: كتب كلثوم بن عمرو إلى رجل في حاجة: بسم الله الرحمن الرحيم أطل الله بقاءك، وجعله يمتد بك إلى رضوانه وجنته. أما بعد فإنك كنت روضة من رياض الكرم، تبتهج النفوس بها، وتستريح القلوب إليها، وكنا نعفيها من النجعة استتماماً لزهرتها، وشفقة على نضرتها، وادخاراً لثمرتها، حتى مرت بنا في سفرتنا هذه سنة، كانت قطعة من سني يوسف، اشتد علينا كلبها، واخلفتنا غيومها، وكذبتنا بروقها، وفقدنا صالح الإخوان فيها، فانتجعتك وأنا بانتجاعي بك كثير الشفقة عليك، مع علمي بأنك نعم موضع الزاد، واعلم بأن الكريم إذا استحى من إعطاء القليل، ولم يحقر الكثير، لم يعرف جوده، ولم تظهر همته، وأنا أقول في ذلك:

ظُلَّ اليسارِ على العباسِ محدودُ
وَقَلْبُهُ أبداً بالبخلِ معقودُ
إِنَّ الكريمَ ليخفي عنك عسرتَهُ
حتى تراه غنياً وهو مجهودُ
وَللبخيلِ على أمواله عِلٌّ
زرقُ العيونِ عليها أوجهٌ سود
إذا تكرّهت أن تعطي القليلِ ولم
تقدر على سعةٍ لم يظهر الجود
بثَّ النوالِ ولا يمنعك قلتَهُ
فكل ما سدَّ فقراً فهو محمودُ

قال: فشاطره ماله حتى بعث إليه قيمة نصف خاتمه وفرد نعله.

ومن مליح ما جاء في هذا المعنى قول ابن الرومي:

أبا عمرو لك المثلُ المعلى
وجدُ عدوكُ التُّربُ الذليلُ
رأيتُ المطلَّ ميداناً طويلاً
يروضُ طباعَهُ فيه البخيلُ
فما هذا المطالُ فدتك نفسي
وباعُك بالندى باعُ طويلُ
أظنك حينَ بقدرك لي نوالاً
يقُلُّ لديك لي منه الجزيلُ
فلا تقدرُ بقدرك لي نوالاً
ولا قدرِي فيحقرُ ما تتيلُ
وأطلقُ ما تهتمُّ به عساهُ
كفافي أيها الرجلُ النبيلُ
وإلا فالسلامُ عليك مني
نبتُ دارٍ فأسرعَ بي الرحيلُ

إذا ضاق على أمل بلاد

فما سُدَّتْ على عزم سبيل

وقال غيره:

وما الجودُ عن فقرِ الرجالِ ولا الغنى

ولكنهُ خيمُ الرجالِ وخيرُها

ومن عجيب المعاني في عظم السؤال، وموازنته للنوال، بل رجاحته عليه، ما أخبرنا به أبو أحمد، أخبرنا أبو بكر بن دريد، أخبرنا السكن بن سعيد، عن محمد بن عباد قال: دخل كوثر بن زفر بن الحارث الكلابي على يزيد بن المهلب فقال له: أيها الأمير، أنت أعظم قدراً من أن تستعان أو يستعان عليك، وليس تفعل المعروف شيئاً ألا وهو يصغر دونك، وأنت أكبر منه، وليس العجب أن تفعل، ولكن العجب أن لا تفعل. فقال: سل حاجتك، قال: حملت عشر ديات وقد بهظتني، فقال: قد أمرت لك بها، وشفعتها لك بمثلها، فقال: أما ما سألتك بوجهي فأقبله منك، وأما ما أبتدأتني به فلا حاجة لي فيه. قال ولم وقد كفيته مؤنة السؤال؟ قال لأني رأيت الذي أخذت مني بمسألتي إياك بوجهي، أكثر مما نالني من عرفك، وكرهت الفضل على نفسي. فقال له يزيد أسألك بحقك علي لما رأيتني أهله من إنزال الحاجة بي إلا قبلتها فقبلها. وسأل العتابي رجلاً فحصر وأقل، فقيل له: قد أقللت، فقال وكيف لا أقل ومعني ذل المسألة، وحيرة الطلب، وخضوع الهيبة، وخوف الرد. وقيل لآخر متى يكون البليغ عيباً؟ قال: إذا سأل حاجة لنفسه. وقال أحمد بن أبي خالد الأحوال: ما استكثرت بذلاً بذلته قط، لأني أرى الأجر والشكر أكثر منه، ولا استصغرت معروفاً قط لأني أراه أكبر من تركه. ومن جيد ما قيل في الترغيب في المعروف قول الأول:

فإنك لا تدري إذا جاء سائل

أأنت بما تعطيه أم هو أسعد

عسى سائل ذو حاجة ان منعتهُ

من اليوم سؤالاً أن يكون له غد

هذا آخر كتابا الخصال، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي بصرنا سبيل الحمد، ووقفنا على طرق الدم، لنضع كلاً منهما في موضعه، ونستعمله في حينه، ونلحقه بمسحقه، إذ ذكر من أحبه فقال: "نعم العبد إنه أواب"، ووصف من مقتته فقال: "همازٍ مشاءٍ بنميم، مناعٍ للخير معتدٍ أثيم، عتلٍ بعد ذلك زنيم". فذم قوله وفعله، وعاب شيمته، وحلقه وهتك الشتم عرضه، وسود بالدم وجهه، جزاءً بما اكتسب من ذميم الفعال، ووفقاً لما أطلقها من اسم المقال، نكالاً من الله والله عزيز حكيم. وصلى الله على نبيه محمد البشير النذير الداعي إلى الله باذنه والسراج المنير وعلى آله الطيبين وعترته. هذا كتاب المبالغة

المعانيب والهجاء والاعتذار

الباب الثالث من كتاب ديوان المعاني وهو يشتمل على ثلاثة فصول

الفصل الأول في

المعانيب

فمن أوائل ذلك، ما أخبرنا به أبو القاسم، عن العقدي، عن أبي جعفر، عن المدائني، قال: قال عليه رسول عليه الصلاة والسلام لطلحة، حين رأى تلون عليه: "فراقٌ جميلٌ خيرٌ من صحبةٍ على دخن" والدخن والدخل: الفساد والمدخول: الفاسد، وقد دخل فسد، وروي على دخل، ومن قديم ما جاء في ذلك قول أبي ذؤيب:

تُرِيدِينَ كَيْمَا تَجْمَعِينِي وَخَالِدًا وَهَلْ يُجْمَعُ السِّيفَانِ وَيْحَكَ فِي غَمِدٍ

يقول لأم عمرو امرأة من هذيل، وكان رجل منهم يقال له وهب بن عمرو وقيل وهب بن جابر هويها فامتعت عليه، فخرج يوماً يتصيد، فختل ظبية، فلما أخذها أنشد:

فمالكِ يا شبيهةَ أمِّ عمروِ إذا عاينتنا لا تأمنينا

فعينك عينها إذ تنظرينا وجيدك جيدها لو تتطينا

وساقك ساقها ولأمِّ عمروِ خدلجةٌ يضيقُ بها البرينا

ورأسك أزعر ولأمِّ عمروِ غدائرُ ينعفرنَ وينثنينا

ثم خلا منها فبلغ ذلك أم عمرو، فواصلته، وكان رسوله إليها أبو ذؤيب، فلما أئنع وترعرع، رغبـت إليه، واطرحت وهباً، وخشي أبو ذؤيب الفضيحة، فقصر عنها وجعل يرسل إليها خالد بن إبراهيم فلم تلبث أن علقت خالداً وتركت أبا ذؤيب، فجعل أبو ذؤيب يعاتب خالداً، مثل قوله:

فنفسك فاحفظها ولا تبد للعدى
من السر ما يطوى عليه ضميرها
رعى خالد سرِّي ليالي نفسه
توالى على قصد السبيل أمورها
فلما تراماه الشباب وغيه
وفي النفس منه غدره ونورها

لوى رأسه عني ومال بوده
أغانيج خود كان فينا يزورها
تعلقه منها دلال ومقلة
تظل لأصحاب الشقاء تديرها
وما أنفـسُ الفتيان إلا قرائن
تبين ويبقى هامها وقبورها

فأجابه خالد:

لا يبعـدن الله حلمك إذ غزا
وسافر والأحلام جم عثورها
لعلك إما أم عمرو تبدلت
سواك خليلاً شاتمي تستخيرها
فلا تجز عن من سنة أنت سرتها
فأول راضي سنة من يسيرها

وهذا جواب لا نرى أقطع منه، لأنه ذكر أنه إنما جوزي بمثل فعله:

فإن التي فينا زعمت ومثلها
لفيك ولكني أراك تجوزها
ألم تنتقذها من ابن عويمر
وأنت صفي نفسه وسجيرها
فان يك يشكو من قريب مخانة
فتلك الجوازي عقبها ونورها

وفيه يقول أبو ذؤيب:

يُرى ناصحاً فيما بدا فإذا خلا
فذلك سكين على الحلق حاذق

ثم إن وهباً بعث ابنه عمراً، فوهب لها ذات يده، فواصلته، وكان لعمرو علانيتها، ولخالد سرها، فجاء خالد ليلاً، وعمرو معها، على شراب فقتله وهرب، فبلغ الخبر وهباً، فركب في جمع، فتبعوه حتى لحقوه فقتلوه، فقال أبو ذؤيب يرثيه:

لعمرو أبي الطير المرية غدوة
على خالد أن قد وقعن على لحم
كليه وربي لن تعودي بمثله
عشية لامته المنية بالردم

بجنب الستارَ بين أظلم فالحزم
ولا البكر لاضمت يداك على غنم
إذا التفت الأبطالُ مجتمعَ الحزم

فإنك لو أبصرتِ مصرعَ خالدٍ
علمت بأن النابَ ليست رزيه
ضروب لهامات الرجالِ بسيفه
ومن قدسم العتاب الممزوج بالشكوى قول جميل:

ومن حبله إن مدَّ غير متينٍ
تقصب لها أسباب كل قرين
على العهدِ خوانٌ لكل أمين
فحلواً وأما غيبه فظنون

لحي الله من لا ينفعُ الودُّ عنده
ومن هو إن تحدث له العينُ نظرةً
ومن هو ذو لونين ليس بدائم
ومن هو عند العينِ أما لقاؤه

وكتب بعض الكتاب: لو كنت أعلم أنك تعتب، إذا عاتبتك، سلكت في ذلك مذهباً، لا أبلغ فيه القصوى، ولا اقتصر على الأدين، ولا أخليتك من الاستزادة في غير شكوى، والتعريف في غير تعنيف، والاحتجاج في غير تنكيت ولا توقيف، ولكن شر القوم ما لا يسمع، وليس لقائله فيه منتفع، وأشبه البر بالعقوق، ما استكرهت عليه النفوس، وقد قال الشاعر:

إذا لم يكن بين الضلوع شفيح

وليس بمغن في المودة شافع

وكتب الكرخي: قد واصلت أياماً تباعاً غدواً إليك ورواحا، حتى ملني البكور، وسئمني التهجير، وشكاني الطريق، ولحاني الصديق، في كل ذلك أعاق بالحجاب، وتستقبلني ردة البواب:

عليك ولا في صاحب لا توافقه

ولا خير في ودِّ امرئ متكاره

وهذا ذرء عتاب جاش به الصدر، وضاق عن كتمانة الصبر، فإن عطفك حفاظ، فأهل الفضل والبر أنت، وإلا فإني على العهد الذي بيننا، ولا أقول كما قيل:

ولا فاتني شيء فظلت له أبكي

فما ملني الإنسان إلا ملته

ولا أقول كما قيل:

ولست إذا مال الصديق على حرف

وإني على عهد الأخلاء دائم

فلا انبسطت في الحادثات إذا كفى

إذا أنا لم أصفح وأغضض على القذى

ومن أطف الكلام، قول بعض الكتاب: أنفذ إلي أبو فلان كتاباً منك، فيه ذرء عتاب، كان أحلى عندي من تعريسة الفجر، وألد من الزلال العذب، فلك العتي ولييك وسعديك داعياً مستجاباً له، وعاتباً معتذراً إليه، ولو شئت مع ذلك أن أقول: إن العتب عليك أوجب، والاعتذار لك ألزم لقلت، ولكني أسامحك

ولا أشاحك، وأسلم لك ولا رادك، لأن أفعالك عندي مرضية، وشيمك لدي مقبولة، ولولا أن للحجة موقعها، لقصرت العنان عما أجريت إليه من هذا العتاب، وكففت اللسان عما أطلقتته فيه من مر الخطاب.

وقلت:

إذا مرضتم أنيناكم نعودكم
ونذنبون فنأتيكم ونعتذر

ولا ترى كلاماً ألطف من هذا ولا أحسن في معناه. وكتب بعضهم لست أقتضى الوفاء بكثرة الاحاح فأثقل عليك، ولا أقابل الجفاء بترك العتاب فأغتنم القطيعة منك، والمثل السائر ويبقى الود ما بقي العتاب. وقلت:

أمنعاً إذا جننتكم أستعير
ومثلي إذا كان في معشر
فكيف إذا جننت أستوهب
فلمعز عندهم منكب
ويكرم مثلي إذا يقرب
عنتك للود لا للقلبي
وواصل صديقاً ما تعتب

وما يجري مع هذا الباب قول الآخر:

إذا رأيت أزراراً من أخي ثقة
فإن صدّدت بوجهي كي أكافئه
ضاقت عليّ برحب الأرض أوطاني
فالعين غضبي وقلبي غير غضبان

وقد أحسن العباس بن الأحنف في قوله:

كنا نعاتبكم ليالي عودكم
فالآن إذ ظهر التعتب منكم
حلو المذاق وفيكم مستعتب
ذهب العتاب وليس عنكم مذهب

ومن مشهور العتاب قولهم:

طال المطال فلا خلود فحاجة
واعلم بأني لا أسرُّ بحاجة
مقضية أو برُّ ينفع
إلا وفي عمري بها مستمتع

ومن جيد المعانيات قول أبي تمام في أبي دلف:

يا أيها الملك النائي بغرته
ليس الحجاب بمقص عنك لي أملاً
وجوده لمرجّي جوده كتب
إن السماء ترجّي حين تتجب

ما دونَ بابك لي بابٌ ألوذُ به

وقوله في أبي سعيد:

وما وراءك لي مثوىٌ ومطلبٌ

لعمرك لليأسُ غيرُ المريثِ

خيرٌ من الطمعِ الكاذبِ

وللريبُ تحصره بالنجاحِ

خيرٌ من الأملِ الخائبِ

وقال يعاتب موسى بن إبراهيم الرافعي في ضنه عنه بجاهه:

سأقطعُ أرسانَ العتابِ بمنطقِ

قصيرُ عناءِ الفكرِ فيه يطولُ

وانَّ امرأً ضنت يداهُ على امرئٍ

بنيلِ يدٍ من غيره لبخيلِ

أخذه من قول مسلم:

وأحببتُ من حبها الباخلينَ

حتى رمقتُ ابن سلم سعيداً

إذا سئل عرفاً كسا وجهه

ثياباً من البخلِ صفراً وسوداً

يغارُ على المالِ فعلَ الجوادِ

وتأبى خلائقه أن يسوداً

وقول أبي تمام:

لآل وهبٍ أكفُّ كلما اجتديتُ

فعلنَ في المحلِّ ما لم تفعلِ الديمُّ

قومٌ تراهم غيارى دُونَ مجدهم

حتى كأنَّ المعاليَ عندهم عرمُ

ومنها:

دنيا ولكنها دنيا ستتنصرم

وآخرُ الحيوانِ الموتُ والهرمُ

ومنها:

فلا تقلِ قدمٌ أزرى ببهجتهِ

لبسِ العلا طلالاً يزري به القدمُ

وقد أحسن ابن الرومي وأجاد، في قوله لقومٍ إستعان بهم فأعانوا خصمه:

تخذتكم درعاً وترساً لتدفعوا

نبالَ العدى عني فكنتم نصالها

وقد كنت أرجو منكم خيراً ناصر

على حين خذلانِ اليمينِ شمالها

فإن أنتم لم تحفظوا لمودتي

ذماماً فكونوا لا عليها ولا لها

قفوا موقفَ المعذورِ مني بمنزلِ

وخلوا نبالي للعدى ونبالها

هي النفسُ إما أن تعيش عزيزةً

وإلا فغنمٌ أن تزولَ زوالها

عفاءً على ذكر الحياة إذا حمت
وهذا مثل قوله أيضاً:

على المرء إلا رفقها وسمالها

عفاءً على الدنيا إذا مستحقها

بغاها ولن يرجى لديه منوعها

وسأل بعض الرؤساء أن يكتب له كتاباً إلى رئيس فقال:

أتبخل بالقرطاسِ والخطِّ عن أخ

وكفأك أُندي في العطايا من المزنِ

فلا يكن المبدول للوم سمعه

وقرطاسه بين الصيانةِ والخزنِ

وقال جحظة يعاتب على شدة الحجاب:

لله يعلمُ أنني لك شاكرٌ

والحرُّ للفعلِ الجميلِ شكورٌ

لكن رأيتُ بباب دارك جفوةً

فيها لصفو صنيعه تكديرٌ

ما بال دارك حين تدخلُ جنة

وبباب دارك منكرٌ ونكير

غيره:

سأترك هذا البابَ ما دامَ إذنه

على ما أرى حتى يلينَ قليلاً

إذا لم أجد يوماً إلى الأذنِ سلماً

وجدتُ إلى تركِ المجيءِ سبيلاً

وقول أبي تمام:

إن السماءَ ترجى حين تحتجب

على ما أرى حتى يلينَ قليلاً

مأخوذ من قول الأول:

وأني لأرجوكم على بطءِ سعيكم

كما في بطونِ الحاملا رجاءُ

وقد أحسن أبو تمام في معاتبه ابن أبي دؤاد واستبطائه إياه في قوله:

رأيتُ العلا معمورةً منك دارها

إذا اجتمعتُ يوماً وقرَّ قرارها

وكم نكبةٍ ظلماءَ تحسبُ ليلةً

تجلى لنا من راحتك نهارها

فلا جارك العافي تناولَ محلها

ولا عرضك الوافي تناولَ عارها

فلا تمكننَّ المطلَ من ذمةِ الندى

فبئس أخو الأيدي الكبارِ وجارها

فإن الأيادي الصالحاتِ كبارها

إذا وقعت تحت المطالِ صغارها

وما نفع من قد بات بالأمسِ صادياً

إذا ما سماءُ اليوم طالَ انهماؤها

وخيرُ عاداتِ المرءِ محتضراتها
وما العرفُ بالتسويفِ الا كخلة
كما أنَّ خيراتِ الليالي قصارها
تسليتَ عنها حينَ شطَّ مزارها

وقد أحسن في هذه الأبيات ما شاء، وفي قوله أيضاً مالِك بن طوق، وقد حجه:

قل لابنِ طوقِ رجا سعدٍ إذا خبطتُ
أصبحتِ حاتمها جوداً وأحنفها
نوائبُ الدَّهرِ أعلاها وأسفلها
حلماً وكيسها علماً ودغفلها
عني وقد طالَ ما استفتحتُ مقفلها
كأنها جنَّةُ الفردوسِ معرضةٌ
وليس لي عملٌ زكٍ فأدخلها

وليس لهذا التمثيل نظير في حسنه وبراعته.

وكتب الصاحب أبو قاسم، إلى بعضهم يعاتبه في صغر كتابه إليه: كتابي وعندي نعم من أعظمها خلوص ودك، وبقاء عهدك، ورد لي كتاب، حسبه يطير من يدي لحنه، ويلطف عن حسي لقلته، وعهدي بك تروي إذا سقيت، وتجزل إذا أعطيت، فما الذي أحالك وبدل حالك: أملال أم كلال أو إقلال؟ وليس عندي أنك تملُّ صديقاً صدوقاً، وشفيقاً شقيقاً، ولا عندي أنك تكل، ولو ملأت الأرض كلاماً، وشحنت صفحات الجو نظاماً، ولا عندي أنك تقلُّ، وبحر فضلك فياض، وثوب علمك فضفاض، فما أملك وقد نبوت وزهدت وجفوت، إلا أن أصبر على هجرتك، كما تمتعت بصلتك، لتكون عني نسخة أخلاقك إذا قربت وبعدت، ووصلت وصددت، وأكره أن أطيل وقد قصرت، وأكثر وقد أقللت فتسامني، كما سئمت عادتك، وتتركني وقد تركت شيمتك، فأحب أن تطالعني بأخبارك، وعوارض أوطارك، إن شاء الله تعالى:

إذا أنتَ عاتبْتَ الصديقَ ولم يكنْ
ومن يرعَ شرقيَّ البلادِ سوامه
يوذُك لم يعتبك حينَ تعاتبه
ومن يخلط الماءَ الزُّلالَ بأجنْ
وغريبها يملكه صاحبه
من الماءِ تخبث ما تطيب مشاربه

وقفت على الفصل المؤذن بالجفاء، المشتمل على سوء الجزاء، وعلى ما احتواه من دين الخطاب، ووضع الدعاء، وعجبت كيف حطت الدعاء من رتبته المعروفة، وخفضت الخطاب عن درجته المألوفة، وأنت على منزلتك لم تزد نقيراً، وأنا في درجتي لم أنقض قطميراً، فكيف لو زدت زادك الله بصرًا بمالك وعليك، وأراك من عيبك ما لا يتصور لديك، وكفاك من شر نفسك ما هاصر عليك، من كيد عدوك، وشماتة حسودك، ولا أختار لك أن تتكبر كلما تكبر، وتتجبر كلما تجبر، فقد سمعت ما قال يحيى بن خالد:

من بلغ رتبة فتاه أخير أن محله دوئها، ومن بلغها فتواضع، أعلم أن حقه فوقها، فكيف والأحوال على ما كانت عليه، لم يصير الهلال بدرًا، ولا الشبل ليشًا، ولا الغصن ساقًا، ولا القطوف معتاقًا. والعرب تسمى الكبير تيهًا، وهو الحيرة، لأن صاحبه لا يهتدي لرشاد، ولا يصل إلى سداد، ولو لم يكن إلا التطير من اسمه، دون التحلي بقيق سمته ورسمه، لكان العاقل حقيقًا بتركه وخليقًا برفضه، وقد قيل: ليس لمعجب رأي، ولا لمتكبر صديق، فإياك أن تحرم نفسك بكبرك الذي يضرك ولا ينفعك، ويحطك ولا يرفعك، استفادة الإخوان الذين هم أبلغ في الخير والشر من البيض الحداد، وأحضر عناء في الأمن والخوف من الطرائف والتلاد، فإن ذلك غبن كبير، وحرمان جسيم، وقد قال الأول:

وآخره جيفةً يفخرُ

ما بال من أوله نطفةً

ولبعض بني هاشم وهو الرضى رحمه الله تعالى:

طولُ العتابِ ولا عناءُ العذلِ
والسيفُ يأخذُ من بنانِ الصيقلِ
والماءُ يجمعُ نفسه في الجدولِ

ولربِّ مولى لا يعضُّ جماعه
يطغى عليك وأنت تلامُّ شعبه
ضاقَ الزمانُ فضاقتُ فيه قلبي

وقال بعضهم في يزيد بن المهلب:

فمنزلكم للشكرِ منزلُ
فقد يسألوكم فوقَ ما كان يسألُ
وما فاتكم ممن تقدّمَ أوّلُ
وإن كنتَ لم أبلغَ بكم ما أوَمَلُ
إليكم بكم في حاجتي أتوسّلُ
فقد يستتمُّ النعمةَ المتفضلُ
جميلًا فإن العودَ بالفضلِ أفضلُ
ويمنعنا من أن نلجَّ التجملُ
ولا يكملُ المعروفُ والوجهُ يبذلُ

فمن يلازم النازلون محله
رأى الناسُ فوقَ المجدِ مقدارَ مجدكم
وقصّرَ عن مسعاكم كلُّ آخرِ
بلغتُ الذي قد كنتُ أمله لكم
ومالي حقٌّ واجبٌ غيرَ أنني
فان أنتم أنعمتم وبررتم
وان كنتم أو ليتموني تفضلا
وكم ملحفٍ قد نالَ منكم رغبةً
وعودتموني قبل أن أسألَ الغنى

وقال ابن الرومي:

فعلجُ خسيساً أو فأجلٌ موفراً
وإلا فكن عقصاً أقلَّ ويسراً

من الحيفِ تخسيسُ النوالِ ومطله
وكن نخلةً تلوي وتُسني عطاءها

وقال:

ن وفي بعدُ المثلِ
رُةً بالماءِ الزُّلالِ

يا شبيبةَ البدرِ في الح
جُدُ فقدُ تنفجرُ الصخ

وله في المعانيات ما لا أعرف لغيره - قال:

لا تجمعنَّ عليَّ العارَ والنارَ
فأثروا في بالإحسانِ آثارا
منكم ثواباً فردُّوه وما سارا
من الثوابِ كسى من قاله عارا
وقد يظنُّ سوى المختارِ مختارا
تقصيركم بي فقد أزمعت إقصارا
يوماً ليهبطَ بانيتهاً اغوارا
حتى يمدَّ إليها الناسَ أبصارا
من حالقٍ ولعلَّ الله قد خارا
وغائرٍ منجدٍ من بعد ما غارا
تهوي وشالَ خفافَ الناسِ أقدارا
يوماً وكم واقع من بعد ما طارا
يحسنُّ نقضاً كما أحسنَّ امرارا

يا بن الوزير الذي تمتَّ وزارتهُ
إن كنتُ أحسنتُ في وصفي مآثركم
وإن أكن قلت ما لا أستحقُّ به
إن المديح إذا ما سارَ مُفردا
فقد يعزُّ بليغ في بلاغته
أسهبتُ فيكم لكي أعلى فطأطأني
إنَّ السلايمَ لا تبني أطولها
لكن ليصعدَ انجاداً تشرفه
وقد هبطتُ بما شيدته لكم
كم هابطٍ صاعدٍ من بعد مهبطه
ثقلتُ في كفه الميزان فانكدرتُ
صبراً فكم ناهضٍ من بعد وقعته
لابني سميرٍ صروفٍ غير غافلةٍ

وقال:

فلم أنا في نعماك رديف وهم صدرُ
فلم شربهم صفو ولم مشربي كدرُ
فلم كسبهم مدُّ ولم مكسبي جزرُ

وتابع بعد الفتح قوماً سبقتهم
ولم يصف من شيءٍ صفاء طويّتي
وما جاء مدحٌ مثل مدحي فيكم

ولي منكم ظهرٌ وما مثلكم ظهرُ
لتجبر من مالي وقد أمكن الجبرُ

ومالي لا أنفك أنعي مسنداً
لعمري لقد غوثت غير مقصرٍ

وكم قائلٍ أبلغتَ فيما تقوله

فقلتَ له غنيتُ لو ساعدَ الزمُرُ

وقلت:

قد كنتَ تولينيَ الحسنَى وتُكرِمني

وكنتَ أشكرُ ما تأتي من الحسنِ

ما بدا لك في جُودٍ ومكرمةٍ

تجري من المجد مجرى الروح في البدنِ

رجع إلى الحالةِ الأولى فإنَّ لنا

شكراً يكونُ لها من أوفرِ الثمنِ

وحسنَ أحوثةٍ لو كنتَ تبصرها

حسبتها غرَّةً في جبهةِ الزمَنِ

أزكى من المسكِ في أصداعِ غانيةٍ

كأنها قمرٌ أوفى على غصنِ

وللصاحب بن عباد في الإستزادة والعتاب، أبيات لم يمر بي من شعره أجود منها فمنها:

سيشهدُ أبناءُ المفاخرِ كلهم

بأن مضيعَ الأكرمينَ مضيعٌ

يزعزعك الواشونَ عن حومةِ العلا

وكان بعيداً أن يزعزعَ لعلع

وقد طرف البحرني في قوله يستبطئ محمد بن العباس الكلابي:

المئةُ الدينارِ منسيةٌ

في عدةٍ أشبعتها خلفاً

لا صدقَ إسماعيلَ فيها ولا

وفاء إبراهيم إذ وفي

إن كنتَ لا تتوي نجاحاً لها

فكيفَ لا تجعلها ألفاً

وقوله:

عمرتَ أبا إسحاق ما صلحَ العمرُ

ولا زال مَزْهواً بآبائكِ الدَّهرُ

فأنتَ ندى نحيا به حيثَ لا ندى

وقطرٌ يرجي جوده حيثُ لا قطرُ

على أنني بعدَ الرضا مُتسخطٌ

ومستعتبٌ من خطةٍ سهلها وعرُ

وقد أوحشتني ردةٌ لم أكن بها

بأهلٍ ولا عندي بتأويلها خبرُ

فلم جئت طوعَ الشوقِ من بعد غايتي

إلى غيرِ مشتاقٍ ولم ردتني بشرُ

وما باله يأبى دخولي وقد رأى

خروجي من أبوابه ويدي صفرُ

ومن جيد ما قيل في حسن الإقتضاء قول أبي تمام:

وإذا المجدُ كان عوني على المر

ءِ تقاضيتُهُ بتركِ التقاضي

وقول الآخر:

أروح بتسليم وأغدو بمثله

وحسبك بالتسليم مني تقاضيا

وفي خلاف ذلك قول بعضهم: ثقني بكرمك تمنع من لإقتضائك، وعلمي بشغلك يحدو على إذكارك.
ومما يجري مع هذا الباب قول الآخر:

أنتَ أمضى من أن تحركَ للمج

دِ ولكنْ شراهةُ الشعراءِ

وفي خلاف ذلك قول الآخر:

أروحُ وأغدو نحوكم في حوائجي

فأصْبُحُ منها غدوةٌ كالذي أمسى

وقد كنتُ أرجو للصدیقِ شفاعتي

فقد صرتُ أرضى أن أشفعَ في نفسي

وقول الآخر:

وللموتِ خيرٌ من حياةٍ زهيدةٍ

وللمنعِ خيرٌ من عطاءٍ مكدّرٍ

ومن مליح الإستبطاء ما كتب بعضهم: كتابي ليس باستبطاء، وإمساكي ليس بإستغناء، ولكن كتابي
تذكرة لك، وإمساكي ثقة بك.

وكتب عثمان إلى علي رضي الله تعالى عنهما: أما بعد فقد بلغ الماء الزبي، والحزام الطيبين، وطمع في من
لا يدفع عن نفسه:

فإن كنتَ مأكولاً فكنَ خيرَ آكلٍ

وإلا فادركني ولما أمزق

ومما جاء في ذم العتاب، قول بعض الحكماء: العتاب رسول الفرقة وداعي القلى وسبب السلوان وباعث
المحجران. وقال بعضهم: العتاب التجني، والتجني ابن المحاجة، والمحاجة أخت العداوة، والعداوة أم القطيعة.
وقال بعضهم: سبيل من يأخذ على أيدي الأحداث، أن لا يكدرهم بالتوبيخ، لئلا يضطروا إلى القحة.
وقال غيره: العتاب داعية الإجتنب، فإذا انبسطت المعاتبة انقبضت المصاحبة. وقال آخر: حرك إخوانك
ببعض العتاب لئلا يستعذبوا أخلاقك، وأغض عن بعض ما تنكر منهم لئلا يوحشهم إلحاحك. وهذا
أقصد ما قيل في هذا المعنى.

وكتب في فصل لي:

العتاب مقدمة القطيعة، وطلبة الفرقة، فتجنبه قبل أن يجنبك حظك من السرور، برؤية أحبابك، وانتقل
عنه قبل أن ينتقل بك عن مقر غبطتك، بمشاهدة أودائك، وإن لم تجد منه بدأ، فاقتصد فيه ولا تكثر منه،
فإن الكثير من المحبوب مملول، فكيف من المكروه، والإقتصاد في الحمد ممدوح فكيف من المذموم.
وقال ابن الرومي:

أرفه ما أرفه في التقاضي

وليسَ لديكَ غيرُ المطلِّ نقدُ

فأعرضَ دونهُ مطلٌ يمدُّ
فيكفيني من الوعدين وعدُّ

خلا وعدٍ مددت إليه كفي
إذا إنجازٌ وعدك كان وعداً

وقال:

فجدت بكرٌ من المنعِ وافٍ
مهلاً هُديتَ ففي المنعِ كافٍ
ذاك الذي من وراءِ الشغافِ

سألتُ قفيزين من حنطةٍ
وأتبعَتَ منعكَ لي بالحجابِ
كأني سألتُكَ حَبَّ القلوبِ

وقد أجاد الآخر حيث يقول:

جميعاً لما أوليتَ من حسنِ أهلٍ
تتأطُّ بك الآمالُ ما اتَّصلَ الشغلُ

وكنْ عندَ ما نرجوهُ منك فإننا
ولا تعتذرُ بالشغلِ عنا فإنما

الفصل الثاني من الباب الثالث في

الهجاء

قالوا: أهجى بيت قالته العرب قول جرير:

فلا كعباً بلغت ولا كلاباً

فغضَّ الطرفَ إنك من نميرٍ

أخبرنا أبو أحمد، أخبرنا أبو بكر بن دريد، حدثنا أبو عثمان عن التوزي، عن أبي عبيدة، عن يونس، قال: قال عبد الملك بن مروان يوماً وعنده جلساؤه: هل تعلمون أهل بيت قيل فيهم شعر ودوا أنهم افتدوا منه بأموالهم، وشعر لم يسرهم به حمر النعم؟ فقال أسماء بن خارجة: نحن يا أمير المؤمنين، قال وما قيل فيكم؟ قال قول الحارث بن ظالم:

ولا بفزارة الشعر الرقابا

وما قومي بثعلبة بن سعدٍ

فوالله يا أمير المؤمنين، إني لألبس العمامة الصفيقة، فيخيل لي أن شعر قفائي قد بدا منها.

وقول قيس بن الخطيم:

مسيرَ حذيفة الخيرِ بن بدرٍ

هممنا بالإقامة ثم سرنا

فما يسرنا أن لنا بها أو به سود النعم. فقال هانيء بن قبيصة أولئك نحن يا أمير المؤمنين، قال ما قيل فيكم؟ قال قول جرير:

فلا كعباً بلغت ولا كلاباً

فغضَّ الطرفَ إنك من نميرٍ

والله لو ددنا أننا افتديناه بأملأ كنا، وقول زياد الأعجم:

بطائشة الصدور ولا قصار

لعمرك ما رماخُ بني نميرٍ

فوالله ما يسرنا به حمر النعم. قال أبو بكر وذكر أن جريراً لما قال:

حكَّ استه وتَمَثَّلَ الأمثالاً

والتغلبى إذا تتحنح للقرى

قال: قد قلت بيتاً فيهم لو طعن أحد في استه لم يحكها.

وأخبرنا أبو القاسم، عن العقدي، عن أبي جعفر، عن المدائني، قال: مرت امرأة ببني نمير فتغامزوا إليها، فقالت: يا بني نمير لم تعملوا بقول الله تعالى ولا بقول الشاعر. يقول الله تعالى: "قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم".

ويقول الشاعر:

فغض الطرف إنك من نمير

فخجلوا وكان النميري إذا قيل له ممن أنت؟ قال من نمير فصار يقول: من بني عامر بن صعصعة. ولو قيل: إن أهجى بيت قالته العرب قول الفرزدق لم يبعد وهو:

تجوم الليل ما وضحت لساري

ولو ترمى بلؤم بني كليب

لدنس لؤمهم وضح النهار

ولو يرمى بلؤمهم نهاراً

وهذا مثل قول الآخر:

على الليل لم تبدُ النجوم لمن يرى

ولو أن عبد القيس ترمي بلؤمها

وقالوا أهجى بيت قالته العرب قول الأعشى:

وجاراتكم غرتي بيتن خمائصا

تبيتون في المشتى ملاء بطونكم

وكان من حديث هذا الشعر، أن عامر بن الطفيل بن مالك، وعلقمة بن علاثة، تنازعا الزعامة فقال عامر: أنا أفضل منك، وهي لعمي ولم يمت وعمه عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب وكان قد اهتز وسقط وقال علقمة: أنا أفضل منك أنا عفيف وأنت عاهر، وأنا وفي وأنت غادر، وأنا ولود وأنت عاقر، وأنا أدنى إلى ربيعة. فتداعيا إلى هرم بن قطبة ليحكم بينهما، فرحلا إليه ومع كل واحد منهما ثلثمائة من الإبل، مائة يطعمها من تبعه، ومائة يعطيها الحاكم، ومائة يعقرها إذا حكم. فأبي هرم ابن قطبة أن يحكم بينهما مخافة الشر، وأبيا أن يرحلا فخلا بعلقمة وقال له: أترجو أن ينصرك رجل من العرب على عامر، فارس مضر أندى الناس كفاً، وأشجعهم لقاءً، لسان رمح عامر أذكر في العرب من الأحوص، وعمه ملاعب الأسنة وأمه كبشة بنت عروة الرحال، وجدته أم البنين بنت عمرو بن عامر فارس الضحيا،

وأملك من النخع وكانت أمه مهيبة وأم علاثة من النخع، ثم خلا بعامر، فقال له: أعلى علقمة تفخر أنت تناوته؟ أعلى ابن عوف بن الأحوص أعف بني عامر وأحلمه وأسوده وأنت أعور عاقر مشؤوم، أما كان لك رأى يزعمك عن هذا، أكنت تظن أن أحداً من العرب ينصرك عليه. فلما اجتمعا، وحضر الناس للقضاء، قال أنتما كركبتي البعير، فرجعا راضيين. والصحيح أنه تواري عنهما ولم تقل شيئاً فيهما، ولو قال أنتما كركبتي الجمل، لقال كل منهما أنا اليمنى فكان الشر حاضراً. ولقد سأله عمر بن الخطاب رضي الله عنهما بعد ذلك: لمن كنت حاكماً لو حكمت؟ فقال: أعفني يا أمير المؤمنين، فلو قلتها لعادت جذعة. فقال عمر صدقت مثلك فليحكم. فارتحلوا عن هرم لما أعياهم نحو عكاظ، فلقبهم الأعشى منحدرًا من اليمن، وكان لما أرادها قال لعلقمة: اعقد لي حبالاً قال: أعقد لك من بني عامر قال: لا تغني عني قال: فمن قيس قال لا قال: فما أنا رائدك. فأتى عامر بن الطفيل، فأجاره من أهل السماء والأرض، فقيل له: كيف تجيره من أهل السماء؟ قال ابن مات وديته، فقال الأعشى لعامر أظهر انكما حكمتاني، ففعل، فقام الأعشى فرفع عقيرته في الناس فقال:

أبلج القمر القمر الزاهر	حكمتموه ففضى بينكم
ولا يبالي غبن الخاسر	لا يأخذ الرثوة في حكمه
الناقض الأوتار والواتر	علقم ما أنت إلى عامر
ثار عجاج الكبة الثائر	واللامس الخيل بخيل إذا
وكابراً سادوك عن كابري	ساد وألفى رهطه سادة

وشد القوم على الإبل المائة فعقروها وقالوا عامر وذهبت به الغوغاء وجهد علقمة أن يردها فلم يردها فلم يقدر على ذلك فجعل يتهدد الأعشى فقال الأعشى:

أتاني وعيد الخوص من آل جعفر	فيا عبد عمرو لو نهيت الأحوصا
فما ذنبنا أن جاش بحر ابن عمكم	وبحرك ساج لا يوارى الدعامصا
كلا أويكم كان فرع دعامة	ولكنهم زادوا وأصبحت ناقصا
تبيتون في المشتى ملاء بطونكم	وجاراتكم غرثى يبتن خمائصا
يراقبن من جوع خلال مخافة	نجوم العشاء القائمات القوامصا
رمى بك في أخراهم تركك الندى	وفضل أقواماً عليك مراھصا
فعض حديد الأرض ان كنت ساخطاً	بفيك وأحجار الكلاب الرواهصا

فيكى علقمة لما بلغه هذا الشعر وكان بكأؤه زيادة في العار.
والعرب تعير بالبكاء، قال مهلهل:

يبكى علينا ولا نبكي على أحدٍ
لنحنُ أغلظُ أكباداً من الإبلِ
وقال جرير:

بكى دويلٌ لا يرقأ الله دمعَهُ
ألا إنما يبكي من الذلِّ دويلٌ
وكان الحطيئة مع علقمة وليد مع عامر فقال الحطيئة:

يا عام قد كنت ذا باعٍ ومكرمةٍ
جارت قرماً أجادَ الأحوصانِ بهِ
لا يصعبُ الأمرُ إلا حيث يركبه
لو أن مسعاةً من جاريتَهُ أممٌ
ضخم الدسيعة في عرينه شَمَمٌ
ولا يبيتُ على مالٍ له قَسَمٌ
وقال:

فما ينظر الحكامُ في الفصلِ بعدما
بدا واضحٌ ذو غرّةٍ وحُجُولِ

وهاتان القصيدتان جيدتان بارعتان في معنيهما، ولكن الناس استخفوا قول الأعشى:

علقم لالنت إلى عامر

فمر على ألسنتهم وسقط شعر الحطيئة.

أخبرنا أبو علي بن أبي جعفر، أخبرنا جعفر بن محمد، حدثنا أبو عبيدة العسكري، حدثنا محمد، يعني ابن الوليد، حدثنا أبو زكريا عن الأصمعي قال: قال عبد الملك ابن مروان لأمية مالك وللشاعر إذ يقول:

إذا هتفَ العصفورُ طارَ فؤادهُ
وليثُ حديدُ النابِ عند الثرائدِ

قال: أصابه حد من حدود الله تعالى فأقمته عليه، قال: فهلا درأته عنه بالشبهات؟ قال: كان أهون علي من أن أعطل حداً من حدود الله تعالى، فقال: يا بني أمية أحسابكم أحسابكم، يسرني اني هجيت بيت الأعشى حيث يقول:

تبيتون في المشتى ملاءً بطونكم
وجاراتكم غرثى بيتن خمائصا

ولي الدنيا بحذافيرها، ولو أن رجلاً خرج من عرض الدنيا، كان قد أخذ عوضاً لقول ابن حرثان:

على مكثريهم حق من يعترتهم
وعند المقلين السماحة والبذل

هكذا رواه لنا والبيت لزهير.

وقالوا: أهجى بيت قالته العرب قول الحطيئة في الزبرقان بن بدر:

دَعِ المَكَارِمَ لَا تَرَحَّلْ لِبَغِيئِهَا وَأَقْعِدِ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الكَاسِي

وأخبرني أبو أحمد، سمعت بعض الشيوخ يقول: اجتمع مطيع بن إياس ويحيى بن زياد وحماد عجرد وجعفر بن أبي وزه، في مسجد الكوفة، فامتروا في أهجى بيت قالته العرب ثم اتفقوا على قول الفرزدق في جرير:

أَنْتُمْ قَرَارَةٌ كُلِّ مَعْدِنِ سَوَاءٍ وَلِكُلِّ سَائِلَةٍ تَسِيلُ قَرَارُ

أخذه أبو تمام فقال:

وكانت زفرةً ثمَّ أطمأنت كذاك لكلِّ سائِلَةٍ قَرَارُ

وقالوا: أهجى بيت قالته العرب قول الأخطل لجرير:

ما زال فينا رباطُ الخيلِ معلمةً وفي كليبِ رباطُ اللؤمِ والعارِ
قومٌ إذا استبجح الأضيافَ كلبهم قالوا لأهمهم: بولي على النارِ

قالت بنو تميم: ما هجينا بشيء هو أشد علينا من هذا البيت. وهو يتضمن وجوها شتى جعلهم بخلاء بالقري، وجعل أهمهم خادمتهم، يأمرونها بكشف فرجها، وجعلهم ييخلون بالماء، أن يطفئوا به النار، فيأمرونها بأن تطفئها ببولها بينهم وبين الجوس لتعظيم الجوس النار، إلى غير ذلك، وإن نارهم من قلتها كانت تطفئها ببولها.

وقالت بنو مشاجع ما هجينا بشعر أشد علينا من قول جرير:

وبر حرحانَ غداةَ كِبَلٍ معبدٍ نكحتُ نساؤُهُمُ بغيرِ مهوَرٍ

وقالت بنو كليب ما هجينا بشعر أشد علينا من قول الفرزدق:

ألستَ كليليًّا إذا سيمَ سوءةً أقرَّ كإقرارِ الحليَّةِ للبعلِ

وقالوا بل أهجى بيت قالته العرب قول الطرماح:

تميمٌ بطرقِ اللؤمِ أهدى من القطا ولو سلكتِ سُبُلَ المَكَارِمِ ضلَّتِ

وقال بعض الشيوخ: لو أن هذا البيت لجرير أو لمن في طبقتة، لحكم على جميع ما في معناه وبعده وهو أبلغ ما قيل في الاحتقار والتقليل والجن:

ولو أن حرقوصاً على ظهرِ نملةٍ تشدُّ على صفي تميمٍ لولَّتِ
ولو جمعت يوماً تميمٌ جُموعها على ذرةٍ معقولةٍ لاستقلتِ

ولو أن أم العنكبوت بنت لها
ولو أن برغوثاً يزقق مسكه
وأبلغ ما قيل في الحمول قوله أيضاً:

مظلتها يوم الندى لاستظلت
إذا نهلت منه تميم وعلت

لو كان يخفى على الرحمن خافيةً
قومٌ أقامَ بدارِ الذلِّ أولهم

من خلقه خفيت عنه بنو أسدٍ
كما أقامت عليه جذمةُ الوندِ

وقال ابن الأعرابي: قال أبو عمرو بن العلاء: أحسن الهجاء ما تنشده العاتق في صدرها، فلا يقبح بها مثل قول أوس:

إذا ناقةٍ شعرت برحلٍ ونمرقٍ

وقال ابن الأعرابي: وأنا أقول مثل قول جرير:

إلى حكَمٍ بعدي فضلٌ ضالها

يوم التفاخرِ لم تزنْ متقالاً

ولو أن تغلبَ جمعتُ أحسابها

وقيل أهجى ما قالته العرب قول الأعرابي:

واللؤم كرم من وبر وما ولدا

اللؤم أكرمُ من وبرٍ ووالده

من لؤمهم أحسابهم أن يقتلوا قودا

قومٌ إذا جرجانٍ منهم أمنوا

وقال النجاشي في بني العجلان:

ولا يظلمون الناسَ حبةَ خردلٍ

قبيلة لا يغدرونَ بذمةٍ

إذا صدرَ الورَّادُ عن كلِّ منهلٍ

ولا يردون الماءَ إلا عشيةً

فاستعدوا عليه عمر بن الخطاب فقال ما قيل فيكم؟ فأنشدوه:

فعداى بني العجلانِ رهطُ ابنِ مقبلٍ

إذا الله عادى أهلَ لؤمٍ ورقةٍ

فقال عمر إن كان مظلوماً استجيب له، قالوا وقد قال:

ولا يظلمونَ الناسَ حبةَ خردلٍ

قبيلة لا يغدرونَ بذمةٍ

فقال: ليت آل الخطاب هكذا. قالوا: وقد قال:

إذا صدرَ الورَّادُ عن كلِّ منهلٍ

ولا يردون الماءَ إلا عشيةً

قال عمر: ذاك أقل للكأك يعني الأزدهام قالوا: وقد قال:

ويأكلن من عوفٍ وكعبٍ ونهشلٍ

تعاف الكلاب الضارياتُ لحومهم

قال أحيا القوم قتلاهم ولم يضيعوهم، قالوا وقد قال:

وما سُمِّيَ العجلان إلا لقليلهم خذ القعبَ واحلبْ أيها العبدُ واعجل

فقال عمر: خير القوم خادمهم، ثم بعث إلى حسان فسأله فقال: ما هجاهم ولكن سلح عليهم، فتهدد النجاشي وقال إن عدت: قطعت لسانك؟ وكانوا يتمدحون بتقدم الورد، وكان أعزهم أسبقهم إلى الماء بإبله ومثل قوله:

تعاف الكلابُ الضارياتُ لحومهم

قول البحثري:

ورددتُ العتابَ عليك حتى سئمت وأخر الودَّ العتابُ

وهانَ عليك سخطي حينَ تغدو بعرضٍ ليس يأكلهُ الكلاب

ومن التناهي في الاحتقار والحمول قول بعضهم:

قالوا الأشاقر تهجوهم فقلت لهم ما كنتُ أحسبهم كانوا ولا خلقوا

قومٌ من الحسبِ الزاكي بمنزلةٍ كالققعِ بالقاعِ لا أصلٌ ولا ورقُ

أنَّ الأشاقرَ قد حلوا بمنزلةٍ لو يرهبونَ بنعلِ عندنا علقوا

لا يكثرُونَ وإن طالتْ حياتُهُمُ ولو تبولُ عليهم فأرةٌ غرقوا

وقول الآخر:

لو يحلوا بالحرير ما وجدوا

وقول الآخر، أستغفر الله من قوله:

يكادُ من رقةٍ ولوِّمٍ يخفى على البارئِ القديم

وقول أبي الهيثم:

يا جعفرَ بن القاسمِ بن محمدٍ ما لي أراك عن الندى معزولا

إني أقولُ مقالةً تجري بها لو كنتَ من كرمِ لكنتَ قليلا

وقول أبي تمام:

ما كنتُ أحسبُ أنَّ الدَّهرَ يمهلني حتى أرى أحداً يهجوهُ لا أحد

ونحوه قوله:

هبْ من له شيءٌ يريدُ حجابهُ ما بالُ لا شيءٌ عليه حجابُ

وقال:

وأنت أنزرت من لا شيء في العدد .

وشكا رجل إلى أبي العيناء رجلاً، فقال فاك دخل في العدد وخرج من العدد، يقول: هو يعد في الحساب ويخرج من عدد التحصيل، وهو من قول القائل:

وفينا زياد أبو صعصعة
وخمسة رهط به أربعة

خرجنا الغداة إلى نزهة
فسته رهط به خمسة

وقلت في معناه:

فانما الناس قلوا كلما زادوا
فليس للناس في التحصيل أعداد
والناس منذ خلقوا في الخير زهاد

أنظر إليهم ولا تعجبك كثرتهم
ولا يهولنك من دهمائهم عدد
عجبت من زهدهم فيما يزينهم

ومن التناهي في صفة الخمول، قول عبد الصمد في أبي العباس محمد بن يزيد المبرد:

فقال القائلون ومن ثمانلة
فقالوا زدتنا بهم جهالة

سألنا عن ثمانلة كل حي
فقلت محمد بن يزيد منهم

ومن الاستحقار الشديد قول مسلم:

لا أنت معلوم ولا مجهول
والمدح عنك كما علمت جليل
عرض عززت به وأنت ذليل

أمويس قل لي أين أنت من الورى
أما الهجاء فدق عرضك دونه
فاذهب فأنت طليق عرضك إنه

فجعله دون الهجاء، والهجاء فوقه فلا يهجي لضعته وقلته.

ومن ههنا أخذ ابراهيم بن العباس قوله:

وأبرق يميناً وأرغد شمالاً
حمته مقاذيره أن ينالاً

فكن كيف شئت وقل ما تشا
نجا بك لوم منجى الذباب

وهذه الأبيات، وإن كانت مشهورة، فإن لإيرادها ههنا معنى كبيراً وذلك أني لست أجد خيراً منها في معناها وأجود، وقد شرطت أن لا أضمن هذا الكتاب إلا كل جيد اللفظ بارع المعنى، وأنت أيضاً إذا

احتجت إليه تتاوله من قرب.

وأنشد الجاحظ:

ووثقت أنك لا تسبُّ

حماك لؤمك أن تسبًّا

وقال الآخر:

بذلة والديك كسيت عزا

وباللؤم أجتزأت على الجواب

وقال غيره:

دناءة عرضك حصن منيع

تفيك إذا ساء منك الصنيع

فقل لعدوك ما تشتهي

فأنت الرقيق المنيع الوضيع

وقلت:

لست الوضيع ولا الصغير وإنما

أنت الوضيع عن الوضيع الأصغر

لا تفخرن وإن غدوت مقدما

فعلى جبينك سيمياء مؤخر

وقال أبو نواس:

ما كان لو لم أهجه غالب

قام له هجوي مقام الشرف

يقول قد أسرف في هجوننا

وإنما زاد بذاك السرف

غالب لا تسعى لتبني العلا

بلغت مجداً بهجائي فقف

قد كنت مجهولاً ولكنني

نوهت بالمجهول حتى عرف

فجعل شرفهم ونباهتهم بهجائه إياهم، وقوله:

وما أبقيت من غيلان إلا

كما أبقيت من البظر الموسي

ومن قدس الهجاء لمن لا يقع في حياته وفي موته فجيحة قول بعضهم:

وأنت امرؤ منا خلقت لغيرنا

حياتك لا نفع وموتك فاجع

وقال ابن الرومي:

فلا تخش من أسهمي قاصداً

ولا تأمنن من العاير

ولكن وفاق معرّاتها

تضاؤل قدرك في خاطر

وقال غيره:

إني هجوت بكل لفظ مقذع

زيداً وكان له الهجاء مديحا

وقلت:

يا أبا القاسم هل أبصرت
ونظيراً لك في شؤمك
إن من شبهك الكلب
شبهاً لك في قبحك
أو لؤمك أو شحك
فقد بالغ في مدحك

وقلت:

أهنت هجائي يا بن عروة فانتحي
وقالوا أتيجو مثله في سقوطه
عليّ ملامّ الناس في البعد والقرب
فقلت لهم جريتُ سفي على كلب

وقال ابن الرومي:

خسأت كلباً مرّ بي مرّة
حسبكم خزيّاً بني آدم
فقال مهلاً يا أبا خالد
شركتكم إياه في الوالد

ومثله ما أنشدناه أبو أحمد قال أنشدني ابن لنكك لنفسه:

وعصبة لما توسّطتهم
كأنهم من سوء أفهامهم
صارت عليّ الأرض كالخاتم
لم يخرجوا بعد إلى العالم
يضحك إبليس سروراً بهم
لأنهم عار على آدم

وقلت:

قلت للكلب حين مرّ بي أخساً
أترى أنني أعدك كلباً
فكأنني كويت قلبك كيا
أنت عندي إذا نبحت الثريا

ومن التناهي في الاستصغار والحمول قول زياد الأعجم:

إذا ما اتقى الله امرؤً وأطاعه
ولو جمعت جرّم على رأس نملة
فليس به بأس وإن كان من جرّم
لباتوا شباعاً يضرطون من الشحم

ومن بليغ ما جاء في الاستصغار، ما رواه قدامة قال: قال محمد بن ناشد سألني فلان عن رجل فقلت يساوي فلساً، فقال: قد زدت في قيمته درهمين.

ومن أبلغ ما قيل في الهجاء قول ذي الرمة:

وأمثل أخلاق امرئ القيس إنها
وما انتظرت غيابها لملمة
صلاب على طول الهوان جلودها
ولا استؤمرت في حل أمر شهودها

من الأرض لم يصلح ظهوراً صعيدها

إذا أمرنياتٌ حللن ببلدة

وقال غيره:

من اللؤم ما دامت عليه ظهورها

لعمرك ما تبلى سراييلُ عامرٍ

وقال أبو سعيد المخزومي:

دولٌ وأحراها بأن تتنقلا

يا ثابت بن أبي سعيدٍ إنها

في أَسْتِ أمِّ كلبٍ لا تساوي دعبلا

هلا جعلت لنا كحرمةٍ دعبلٍ

وقالوا أهجى بيت قاله محدث بيت حماد في بشار:

فهبك لبردٍ نلتَ أمك من بردٍ

نسبتَ إلى بردٍ وأنتَ لغيره

وأخبرني أبو أحمد، أخبرني أبو الحسن الصيمري عن أبي العلاء، قال حماد عجرد:

نسبتَ إلى بردٍ وأنتَ لغيره

قال بشار: هجياً لحماد في هجائي في هذا البيت خمسة معان، أوردتها جرير في الفرزدق، فلم يقدر عليها حيث يقول:

وضع البعيثِ جدعتُ أنفَ الأخطلِ

لما وضعتُ على الفرزدق ميسمي

ومن أجود ما هجى به الدعي قول الدعبل في مالك بن طوق:

ما بينَ ذي فرحٍ منها ومهمومٍ

الناسُ كلهم يسعى لحاجتهِ

يرمُّ منها خراباً غير مرمومٍ

ومالكٌ ظلَّ مشغولاً بنسبتهِ

ما بينَ طوقٍ إلى عمرو بنِ كلثومٍ

يبني بيوتاً خراباً لا أنيس بها

وقال إبراهيم بن إسماعيل النسوي:

وأثبتوك لقليل الأمرُ مصنوعُ

لو أن موتى تميمٍ كلهم نُشروا

تبيينَ الناسُ أنَّ الثوبَ مرقوعُ

إنَّ الجديدَ إذا ما زيدَ في خلقِ

وقالوا أهجى بيت قاله محدث قول الآخر:

حسنتُ مناظرهم لقبح المخبرِ

قبحتُ مناظرهم فحينَ خبرتهم

ولست أعرف أبلغ في الهجاء من قول الأول:

أو يبخلوا لم يحفلوا

إن يفخروا أو يغدروا

نَ كأنهم لم يفعلوا

وغدوا عليك مرّجلي

هذا أبلغ من ذكر الفروج والقول الفاحش المقذع في الأمهات والأخوات.
ومن البليغ قول حسان:

أبناء طارف لن تلقى لهم شبيهاً
إلا التيوس على أقفائها الشعرُ
إن نافروا نفرا أو كاثروا كاثروا
أو قامروا الزنج عن أحسابهم قمرُوا
كأن ريحهم في الناس إذ خرجوا
ريح الكلاب إذا ما مسها المطرُ

قد استوفى المعنى عند قوله: ريح الكلاب ثم قال: إذا ما مسها المطر فجاء بتميم حسن.
وقالوا قول جرير:

نُتِقَتْ شواربُهُمْ على الأبوابِ

وقالوا قول حسان:

أبوك أبو سوءٍ وخالك مثلهُ
ولست بخيرٍ من أبيك وخالكِ
وإنَّ أحقَّ الناسِ أنْ لا تلومَهُ
على اللؤمِ من ألفى أباهُ كذلكِ

ومن الأفراط في صفة البخل قول ابن الرومي في سليمان بن عبد الله بن طاهر:

تجنب سليمان قفل الندى
فقد يئس الناس من فتحه
فلو كان يملك أمرَ استه
لما طمع الحش في سلحه

وأبلغ ما قيل في الهجاء باللؤم قول الفرزدق:

ولو ترمى بلؤم بني كليب
نجوم الليل ما وضحت لساير
ولو لبس النهارُ بني كليب
لدنس لؤمهم وضح النهارِ
وما يغدو عزيزُ بني كليب
ليطلب حاجةً إلا بجارِ

وقد مر البيتان الأولان فيما تقدم.

ومن الافراط في الهجاء قول الآخر:

لو اطلع الغرابُ على تميم
وما فيها من السواتِ شابا
وقول الآخر:

سل الله ذا المن من فضله
ولا تسألن أباً وائله
فما سأل الله عبداً له
فخاب ولو كان من باهله

وقال الآخر:

ولو قيل للكلب يا باهلي

لأعول من قبح هذا النسب

وأنشدني أبو أحمد، أنشدني أبو مسلم بن بحر، لإبراهيم بن العباس، وهي أبيات مشهورة أوردتها لأبي
لست أجد مثلها في معناها:

ولما رأيتك لا فاسقاً

تهابُ ولا أنت بالزاهدِ

وليس عدوك بالمتقي

وليس صديقك بالحامدِ

أتيت بك السوق سوق الرقيقِ

فناديت هل فيك من زائدِ

على رجلٍ غادرٍ بالصدیقِ

كفورٍ لنعمائه جاحدِ

سوى رجلٍ حارٍ منه الشقا

وحلَّت به دعوةُ الوالدِ

فما جاءني رجلٌ واحدٌ

يزيدُ على درهمٍ واحدِ

فبعتك منه بلا شاهدِ

مخافةً أدرك بالشاهدِ

وأبتُ إلى منزلي سالماً

وحلَّ البلاءُ على الناقدِ

وقد أحسن التصرف فيها فما قاربه في معانيها أحد.

وأبلغ ما قيل في البخل قول ابن الرومي:

يُقترُ عيسى على نفسه

وليس بباقي ولا خالدِ

فلو يستطيعُ لتقتيره

تنفس من منخر واحدِ

رضيت لتشتيت أمواله

يدا وارثٍ ليس بالحامدِ

والناس يظنون أن ابن الرومي ابتكر هذا المعنى، وإنما أخذه مما رواه الجاحظ أن فلاناً كان يغير إحدى
عينيه ويقول: إن النظر بهما في زمن واحد من السرف.

ومن الفرد الذي لا شبيه له قول بعضهم:

إلى الله أشكو أنني بت طاهراً

فجاء سلوليُّ فبال على رجلي

فقلتُ أقطعوها بآرك الله فيكم

فإني كريمٌ غير مدخلها رحلي

وقلت:

وقفت لديكم للسلام عليكم

وقوفي على أطلال سلمى وعاتكة

يرومك تسليم العفاة كأنه

بوادر طعن في الضلوع مواشكة

ولكن إذا ما ساء أكرم نائلة
فإن القروء والكلاب ملائكة

وما فيكم حرٌّ يكرم ضيفه
وإن كنتم ناسا وما أنتم به

وليس في هذا الباب أبلغ من هذا، ولا أعرفني سبقت إليه.
وقال بعضهم:

رد قبيح وقول ليس بالحسن
رجل البعوضة من فخارة اللبن

سمعت المديح أناساً دون مالهم
فلم أفر منهم إلا بما حملت
وهكذا كما تراه بليغ جداً.
وقال الآخر:

من الدنيا تخاف عليه أكل
فما بال الكنيف عليه قفل
فحتى السلاح منك عليك بخل

يعطيك ما تعطيك مكحلة
وأنشدنا أبو أحمد عن أبيه عن أبي طاهر لدعبل:
أتقفل مطبخاً لا شيء فيه
فهذا المطبخ استوتقت منه
ولكن قد بخلت بكل شيء
وأنشدنا:

وأنواع الفواكه والشراب
وأبواب تطابق دُون باب
كأمثال الملائكة الغضاب

وإن له لطبخاً وخبزاً
ولكن دونه حبس وضرب
يزودون الذباب يمرُّ عنه

وقال الخليل بن أحمد:

فالكوكبُ النحسُ يسقي الأرضَ أحياناً

لا تعجبن لخير زل عن يده

وقال أبو تمام:

لا والرغيف فذاك البر من قسمة
فإن موقعها من لحمه ودمه
على جرادقة كانت على حرمة

صدق اليتيم إن قال متجهداً
وإن هممت به فافتك بخبزته
قد كان يعجبني لو أن غيرته

وقال آخر:

يزدادن تنن الكلاب بالمطر

يزداد لوماً على المديح كما

وقلت:

خُبزُ الأميرِ عشيَّةً
وإذا بدأَ لجليسهِ
وتحوطُهُ أحراسُهُ
فالزورُ يُصْفَعُ عندهِ
يَعْدُوْ عليهِ يُلاعِبُهُ
أفضى إليهِ يعاتبُهُ
وتَذبُّ عنهِ كتائبه
والضيفُ ينتفُ شاربهِ

وقال آخر:

فتى لرغيفه فرط وشغف
إذا كسر الرغيف بكى عليه
ودون رغيفه قلع الثنايا
واكيلان من دُرٍّ وشذرٍ
بكا الخنساء إذا فجعت بصخر
وحرَبٌ مثل وقعة يوم بدرٍ

وقال آخر:

إنَّ هذا الفتى يصون رغيفاً
هو في سفرتين من أدم الطا
خُتْمَتْ كُلُّ سَلَةِ برصاصٍ
في جرابٍ في جوف تابوتِ موسى
ما إليه لآكلٍ من سبيلٍ
ثف في سلتين في مندبلٍ
وسبورٍ قُددن من جلدِ فيلٍ
والمفاتيحُ عندَ ميكائيلٍ

وقلت:

لنا سيّدٌ واحدٌ ماجدٌ
لئيمٌ إذا جاءه طارقٌ
وهل يطمعُ الناسُ في خيزه
فما ولغ الكلب في لؤمه
يقنل في الجود آباءه
فقد جاءه كلُّ ما ساءه
إذا كن يمنعهم مائه
لما زال يقذفُ أمعاه

وسمعت عن أبي حفص يقول: قال جعفر بن محمد العسكري: أبلغ ما قاله محدث في البخل قول بعضهم:

الحابس الروث في أعفاج بخلته
وأجود ما قيل في البخل قول بعضهم:
وعدت فأكدت المواعيد بيننا
وأجرت لي حبلاً طويلاً تبعته
خوفاً على الحب من لقط العصافير
وأقلعت إقلاع الجهام بلا وبلٍ
ولم أدر أن اليأس في طرف الحبل

وقال أبو نواس:

وقدر الرقّاشين زهراء كالبدر
ثلاثا كنقط الثاء من نقط الحبر
أمامهم الحولي من ولد الذر
لأخرجت ما فيها على طرف الظفر

رأيتُ قدور الناس سوداً من الصلّى
يُبيّتها للمعتفي بفنائهم
إذا ما تتادوا للرحيل سعى بها
ولو جنتها ملأى عبيطاً مجزراً

غيره:

ويعمل ضرسه في كل زاد
سوى بيت لأبرهة الأيادي
ولا يبقى الكثير مع الفساد

يحصن زاده عن كل ضرس
ولا يروى من الآداب شيئاً
قليل المال تصلحه فيبقى

وقلت في مثله:

ويختم البرمة والجفنه
قد تذهب البطنة بالفطنة

يطعم دون الشبع أولاده
لم يرو إلا خبراً واحداً

وقال آخر:

وماء الكرم للرجل الكريم

ظلمتك إذ سألتك ماء كرم

وقلت:

من أن تدنس بالدسم
كالبدر في غسق الظلم
كنت الممدح في الأمم
لك كنت تاريخ الكرم

لك برمة نرّتها
بيضاء يُشرق نورها
لو كان عرضك مثلها
أو كان فعلك مثل قو

ومن أبجل بيت قيل:

ولكن خفت مرزئة الذباب

وما روحتنا لتذبّ عنا

وقل أبو نواس يصف قدراً:

وينضج ما فيها بعودٍ خلال
وتنزلها عفواً بغير جعال

يغصُّ بحلقوم الجرادّة صدرها
وتغلى بذكر النار من غير حرّها

هي القدرُ قدرُ الشيخ بكر بن وائلٍ

وقال ابن الرومي:

ربيع اليتامى عام كل هزالٍ

فلست ترى في بيته غيرَ جائعٍ

رأى البخلَ طباً فهو يحمي ويحتمي

ومن أجود ما قيل في زيادة البخل والشح، مع زيادة المال قول ابن الرومي:

يزيد به يبساً وإن ظنَّ يربطُ

إذا غمر المالُ البخيلَ وجدتهُ

إذا غمرَ الماءُ الحجارَةَ تصلبُ

وليس عجباً ذلك منه فإنهُ

وهو مأخوذ من قول بعض حكماء الهند.

وأنشدنا أبو أحمد عن أبيه عن أبي طاهر:

وحرّاسٌ وأبوابٌ منيعةُ

رغيفك في الحجابِ عليه قفلُ

فقال لضيفه هذا وديعه

رأوا في بيته يوماً رغيفاً

وأنشدنا عنه:

وحاجبٌ حاجبه مُحْتَجِبُ

ه حاجبٌ دونه حاجبُ

وقال أبو تمام:

في غيرِ منفعةٍ مؤونةٌ حاجبِ

لا تكلفنَّ وأرضُ وجهك صخرةُ

وقال آخر:

عليك من وجهك حُجَابُ

لا تتخذُ باباً ولا حاجباً

وأنشدنا:

فركوبه ظهرَ المنايرِ أعجبُ

أعجبت أن ركب ابن حزم بغلة

سُبْحانَ من جعلَ ابنَ حزمٍ يحجبُ

وعجبت أن جعل ابن حزم حاجباً

وقال آخر:

وكان لا يحتجبُ الحاجبِ

إحتجب الكاتب في دهرنا

فينكحُ المحجوبُ والحاجبِ

القومُ يخلون بحجابهم

وقال آخر وأحسن:

وبخله يُسرِّعُ تكذبي

وصاحبٌ أسرفتُ في مدحه

وبخله أحسنُ تأديبي

حجابهُ الزمني منزلي

وقلت في معناه:

ولكنّ دهرًا لم يساعذك مذنب
خلاتقهم يشهدن أنك تكذبُ

مدحت فلم تصدق ولم تك مُذنباً
وما الجهلُ إلا أن تقرّظَ معشراً

وأنشدنا أبو أحمد:

والخيرُ يأتيك من يدي عمرٍ
كأنه آدمُ أبو البشر

لا خيرَ في صاعدٍ فأذكرُهُ
ليس له ما خلا اسمه نسبُ

ومن أظرف ما قيل في هذا الباب قول ابن الرومي:

لمحات كثيرة من رجالٍ
معلمات أن لست بآبن حلالٍ

لك وجهٌ كأخر الصكِّ فيه
كخطوطِ الشهودِ مشتبّهاتٍ

وقلت:

فكذا خالك غيرُ مؤتلفة
شبهت داركم به عرفه
فأنت خالك وهي مختلفة
وورثت ذاك خناه أو صلفه

إن كان شكلك غير مُنفقٍ
من عصبية شتى إذا اجتمعوا
صورت من نطفٍ قد اختلفت
فورثت من ذا قبجٍ منظره

وأجود ما قيل في عظم الجسم، مع قلة العقل، من الشعر القديم قول حسان:

جِسْمُ البِغَالِ وَأَحْلَامُ العَصَافِيرِ

وقال ابن الرومي:

فليسَ يحسنُ إلا وهو مصلوبُ

طولٌ وعرضٌ بلا عقلٍ ولا أدبٍ

وقال وأحسن:

فلا يسبقك بالشيم الشريفة
وتصبحُ أعظمَ الرجلين جيفه

إذا فقتَ الذمِّمَ بحسن جسمٍ
فيصبحُ أفضلَ الرجلين نفساً

وأنشدنا أبو أحمد أنشدني ابن لنكك لنفسه:

بغضُ أبي إسحاقٍ والموتُ
قد طارَ بالجهلِ له الصوتُ

إثنان لم ينكرهما منكرُ
ويدعي العلمَ على أنه

لا يلتقي والعلم في مجلس

أو يلتقي الإدراك والفوت

وكتب ابن العميد: وليت شعري بأي حلي تصديت له، وأنت لو توجت بالثريا، وتمنطقت بالجوزاء، وتوشحت بالجرة، وتقلدت قلادة الفكّة، ما كنت إلا عطلاً، ولو توضحت بأنوار الربيع الزاهر، وشدخت في جبينك غرة البدر الباهر، واستعرت من الصباح ثوباً، وخضت أوضاع النهار خوضاً، ما كنا إلا غفلاً.

وأبلغ ما قيل في صفة ثقيل ما أنشدناه ابن أبي حفص عن جعفر:

وتقيل أشدّ من غصص المو

ت ومن زفرة العذاب الأليم

لو عصت ربّها الجحيم لما كا

ن سواه عقوبة للجحيم

وأبدع ما قيل في هذا المعنى قول بشار:

ربما يتقل الجليس وإن كا

ن خفيفاً في كفة الميزان

ولقد قلت حين طلّ على القو

م ثقيلٌ أربى على ثهلان

كيف لم تحمل الأمانة أرض

حملت فوقها أبا سفيان

أخذه ابن الرومي فقال:

أنت فضلٌ وفضلة الشيء لغو

ثم أردفت ذلة التصغير

حقرَ الفضلُ ثم صغرّت عنه

زادك الله يا صغيرَ الحقير

ثم عرّجت فاحتواك انتقاص

في اسم سورٍ وجسمٍ سوءٍ ضرير

ثم بردت فانتصفت من النا

ر ببردٍ يربى على الزمهير

فقبولُ النفوس إياك عندي

آيةً فيك للطيفِ الخبير

إنّ قوماً أصبحت تنفقُ فيهم

لعلى غاية من التسخير

أو أناس غدوا وراحوا من الظر

ف على حالة الفقير الوقير

فمتى ظفروا بزور ظريف

أعجبتهم زخارفُ التزوير

كالأعاريب لم يروا درمك البر

فهم يعظمون خبز الشعير

وكذا القوم لم يروا لجة البح

ر فهم يكبرون ماء الغدير

يا ثقيلًا على القلوب خفيفاً

في الموازين دون وزن النقيير

طر سخيفاً وقع مقتيا فطوراً

كسفاة وتارة كثير

وله:

وتعالى عن كلِّ مثلٍ وندِّ
وَتَقِيلُ سَبْحَانَهُ مِنْ تَقِيلٍ
وَعَلَاهَا بِثَالِثٍ مِنْ أَدِّ
حَمَلِ اللَّهِ أَرْضَهُ ثَقِيلَهَا

وأجود ما قيل في تباعد الأشباه من الأقرباء ما أخبرنا به أبو أحمد، عن الصولي قال: سمعت المبرد يقول: لم يقل في تباعد الأشباه من الأقرباء أجود ما قول ابن أبي عيينة يهجو خالد بن يزيد المهلي ويمدح أباه في كلمة:

أبوك لنا غيثٌ نعيشُ بفضلِهِ
وَأَنْتَ جَرَادٌ لَيْسَ بِيَقَى وَلَا يَذَرُ
لَهُ أَثْرٌ فِي الْمَكْرَمَاتِ يَسْرُنَا
وَأَنْتَ تَعْفِي دَائِمًا ذَلِكَ الْأَثْرَ
لَقَدْ قَنَعْتُ قَحْطَانَ خَزِيًّا بِخَالِدِ
فَهَلْ لَكَ فِيهِ يَخْزُكَ اللَّهُ يَا مُضْرُ

فسمع المهدي بيته هذا فقال: بل تكرمون وتوثرون.

وله في مثل ذلك يقول في قبضة بن روح بن حاتم يفضل عليه ابن عمه داود بن يزيد بن حاتم:

أَقْبِيصُ لَسْتُ وَإِنْ جَهَدْتَ بِبَالِغِ
سَعَى ابْنِ عَمِّكَ فِي النَّدَى دَاوِدِ

شَتَانَ بَيْنَكَ يَا قَبِيصُ وَبَيْنِهِ
إِنَّ الْمَذَمَّ لَيْسَ كَالْمَحْمُودِ
دَاوُدُ مَحْمُودٌ وَأَنْتَ مُذَمَّمٌ
عَجَبًا لَذَاكَ وَأَنْتَمَا مِنْ عَوْدِ
وَلِرَبِّ عَوْدٍ قَدْ يَشْقُ لِمَسْجِدِ
نَصْفًا وَسَائِرُهُ لِحَشِّ يَهُودِ

وقلت في خلاف ذلك:

كَمْ حَاجَةٌ أَرْزَلَتْهَا
بِكْرِيمِ قَوْمٍ أَوْ لَنِيمِ
فَإِذَا الْكْرِيمُ مِنَ اللَّئِي
م أَوْ اللَّئِيمِ مِنَ الْكْرِيمِ
سُبْحَانَ رَبِّ قَادِرِ
قَدْرَ الْبَرِيَّةِ مِنْ أَدِيمِ
فَشْرِيْفُهُمْ وَوَضِيْعُهُمْ
سِيَانِ فِي شَرْفٍ وَلُومِ
قَدْ قَلَّ خَيْرٌ غَنِيَهُمْ
فَغَنِيَهُمْ مِثْلَ الْعَدِيمِ
وَإِذَا اخْتَبَرْتَ حَمِيدَهُمْ
أَلْفَيْتَهُ مِثْلَ الذَّمِيمِ
لَا نَفْعَ فِيهِ لِلصَّغِي
رٍ مِنْ الْأُمُورِ وَلَا الْعَظِيمِ
أَنْظُرْ إِلَى كِبَرِ الْجَسُودِ
م وَلَا تَسْلُ رَفَعِ الْجَسِيمِ

وقالوا: أنصف بيت قيل في الهجاء قول حسان:

وعند الله في ذلك الجزاءُ

هجوتَ محمداً فأجبتُ عنه

فشركما لخبركما الفداءُ

أتهجوهُ ولستَ له بكفءٍ

يقوله في أبي سفيان بن الحارث.

وفيه يقول أيضاً:

وقد يلدُ الحرَّانِ غيرَ نجيبٍ

أبوكَ أبٌ حرٌّ وأمُّك حرَّةٌ

فما خَبْتُ من فضةٍ بعجيبٍ

فلا يعجبنَّ الناسُ منكُ ومنهما

أخبرنا أبو علي بن أبي حفص أخبرنا جعفر بن محمد قال أهدى ما قالت العرب قول الشاعر:

وكلُّ ذليلٍ خيرٌ عادته الصبرُ

فصبراً على ذلِّ ربيع بن مالك

وبئسَ الحليفان المذلةُ والفقيرُ

تحالفكم فقرٌ قديمٌ وذلةٌ

ومن غير هذا الفن، ما أخبرنا به أبو أحمد، عن أبيه، عن عسل، قال: قال أبو سرح: سمعني أبو دلف

أنشد:

نزوغُ نفسٍ إلى أهلٍ وأوطانٍ

لا يمنعك خفضُ العيشِ في دعةٍ

أهلاً بأهلٍ وجيراناً بجيرانٍ

تلقى بكلِّ بلادٍ إن حلتَ بها

فقال: هذا الأم بيت قالته العرب. والتزوع هنا رديء والجيد التراع، وإنما جعل هذا البيت أبو دلف ألام

بيت قالته العرب، لأنه يدل على قلة رعاية وشدة قساوة، وحينئذ الرجل إلى وطنه من المناقب التي يعتد

بها، ويمدح لأجلها، لما فيه من الدلائل على كرم الطينة ووفور العقل.

وقد قالت الحكماء: حينئذ الرجل إلى وطنه من علامات الرشدة.

وقال بزرجهمر: من علامات العاقل بره بإخوانه، وحينئذ إلى أوطانه، ومداراته لأمل زمانه.

وقال أعرابي: لا تشك بلداً فيه قبائلك، ولا تحف أرضاً فيها قوابلك.

وقالت العرب: وأكرم الخيل أشدها جزعاً من السوط، وأكيس الصبيان أشدهم بغضاً للمكتب، وأكرم

الصفايا أشدها حنيناً إلى أوطانها، وأكرم المهارة أشدها ملازمة لأمهاتها، وأكرم الناس آلفهم للناس.

وقلت:

فليسَ مكاني في النهي بمكينٍ

إذا أنا لا أشتاقُ أرضَ عشيرتي

غنيتُ بخرصٍ في ذراه ولينٍ

من العقل أن أشتاق أولَ منزلٍ

و غصن ثناه بالغداةِ يميني
بنات النوى دونَ الخليطِ ودوني
فلست بمأمون ولا بأمين

وروض رعاهُ بالأصائلِ ناظري
واني لا أنسى العهودَ إذا أتت
إذا أنا لم أرَع العهود على النوى

وسنذكر من هذا الباب طرفاً فيما بعد إن شاء الله تعالى.

ومما لا تكاد تجد أجود منه في معناه، ما أخبرنا به أبو أحمد، عن الصولي قال: دخل بعض الشعراء على بعض الأمراء برقعيد فجعل ينشده وجعل الأمير يعاتب جارية بين يديه، ولا يسمع منه فخرج وهو يقول:

مما تُؤدَّبُ برقعيدُ
دُ فكيفَ يَعْرِفُ ما نريدُ
دُ فكيفَ يَضْبِطُهُ القصيدُ
أينَ السلاسلُ والقيودُ
أم ليسَ يصطكُ الحديدُ

أدبُ لعمركُ فاسدُ
منَ ليسَ يَعْرِفُ ما يري
منَ ليسَ يَضْبِطُهُ الحدي
مالي رأيتكُ مرسلًا
أغلا الحديدُ بأرضكم

وقلت في المعنى الذي تقدم:

فغناه كعدمه

قلَّ خيرُ ابنِ قاسم

يختبي في حرامه
كأبيه وعمه
لو تسميت باسمه

كادَ منَ خشيةِ القرى
جازَ في اللؤمِ حدَّهُ
كادَ يعديكُ لؤمُهُ

قلت:

فأصبحَ فينا ظالماً للبهائمِ
ونحنَ على أعناقِ أغبرِ قائمِ
وإن جازَ في فقهِ اللئامِ الأشائمِ
تعاورُ ضيفٍ في دُجى الليلِ عائمِ
كأننا على غبراءَ من ظهرِ واشمِ
دحاريحَ لا تتساقُ في حلقِ طاعمِ

قرانا بقولاً إذ أنخنا ببابه
وقفنا عليه الركبَ نسألهُ القرى
فصامَ وصومَ الليلِ ليس بجائزِ
أجازَ صيامَ الليلِ حينَ استفرَّه
فبتنا أديمَ الليلِ نطوي على الطوى
وأطعمنا لما مرقنا من الدُجى

مُدَوَّرَةٌ سَوْدَ المَتونِ كَأَنَّها
خَصَى الزَّنَجَ لاحتِ تحتَ فَيْشِ قوائِمِ
فأَبشارِها تحكي بَطونَ عَقاربِ
وأرؤسِها تحكي أنوفَ مَحاجِمِ
ومن أعجب المَهجاءِ، هَجوَ الرَّجُلِ نَفسَهُ وهو ما رويناه للحطِيبَةِ ثم قال ديك الجن:

أيها السائلُ عني
لستَ بي أخبرَ مِنِّي
أنا إنسانٌ براني اللهُ
في صورةِ جَنِي
بل أنا الأسمُجُ في العِي
ن فدَعَ عنكَ التَّنْظِي
أنا لا أسلمُ من نَفْسِ
ي فمَن يَسلِمُ مِنِّي

وهجا أبو نواس نفسه من حيث لا يعلم فقال في رجل وعده أبو نواس وعداً ثم مطله:

وأحوس ولاجَّ عليَّ ورائحُ
رجاءَ نوالٍ لو أعينَ بَعودِ
زَوَيْتُ لَهُ وَجهاً قَطوباً عن الندى
وأياسَتُهُ من وعده بوَعيدِ
فان كنتَ لاعنَ سوءَ فَعَلِكِ مَقْلَعاً
فدونك فاستظهِرِ بِنَعْلِ حَديدِ
فَعندي مَطْلٌ لا يَطيرُ غَرائِبُهُ
مَطيرٍ ولا يدعى لَهُ بوليدِ

ومن حبيث المَهجاءِ قول ابن الرومي:

مَني الهِجاءِ وَمَنكَ الصَبْرُ فاصطَبِرِ
لشَرٍّ مُنتظِرٍ يا شَرٍّ مُنتظِرِ
أنتَ اللئيمُ فان تصبِرِ فَمَن قَحَّةِ
على الهوانِ وإِن تجزَعِ فَمَن خورِ
رأيتَ عيبَكَ شعري حينَ تالمه
شبيبهِ عَضِّ أخيكِ الكَلبِ لِلحَجَرِ
فانظِرِ إلى الكَلبي مَرمياً لتَعلَمَ أن
لم تتركِ شَبهاً مِنْهُ ولم تذرِ

وقال ابن الزمكدم:

وليلِ كَوجهِ البرقِعيديِّ ظَلَمَةِ
وبردِ أغانيه وطولِ قَرونِهِ
سَريتَ ونومي فيه نومٌ مشرَّدٌ
كعقلِ ابنِ هارونِ ورقَةِ دينِهِ
على أولقِ فيه اختِبالٌ كأنه
أبو جابرِ في خبطِهِ وجنونِهِ

ومن أبلغ ما قيل في الجبن من الشعر القديم قول الشاعر:

ولو أنها عصفورةٌ لحسبتُها
مَسَمومَةٌ تَدعو عبيداً وأزلاما

أي لو رأيت لحسبتها من جنبك خيلاً مسومة، ومثله قول عروة بن الورد:

وأشجع قد أدركتهم فوجدتهم

ومثله قول الآخر:

يحافونَ خطف الطير من كلِّ جانبٍ

ما زلت تحسب كلَّ شيءٍ بعدهم

وقال أبو تمام:

خيلاً تكررُ عليهم ورجالا

موكل بفضاء الأرض يشرفه

وأبلغ ما قاله محدث في ذلك قول ابن الرومي:

من خفة الخوف لا من خفة الطربِ

وفارس أجبن من صفرة

يحول أو يعول من صفرة

لو صاح في الليل به صائحٌ

لكانت الأرض له طفره

يرحمه الرحمن من جنبه

فيرزق الجندبه النصره

وقال في سليمان بن عبد الله بن طاهر:

شوقٌ إلى وجهه سيدنفه

قرنٌ سليمان قد أضرب به

قفاه من فرسخ فيعرفه

لا يعرف القرن وجهه ويرى

وقال فيه:

ولكنه تغلب المعركة

هو الأسدُ الوردُ في قصره

ومن ظريف ما جاء في ذلك: قول أبي الغمر هارون بن محمد من أهل آمل، خرج عليه اللصوص فسلم إليهم متاعه وهرب: أنشدناه أبو أحمد عن الأنباري:

وللشجاعة خطبٌ غير مجهولٍ

طلت تشجعتني ضلاً بتضليل

أوجدك ألف جبان غير مقتولٍ

هاتي شجاعاً بغير القتل مصرعه

بالنصر ما خاطرت نفسي لجبريل

والله لو أن جبريلاً تكفل لي

خلاف بأس المساعير البهاليل

إسمع أحدثك عن بأسِي بذي شكر

تسرع الذعر في عرضي وفي طولي

لما بدت منهم نحوي جميعه

وانصعت أطوى الفلا ميلاً إلى ميل

حتى أنقيتهم طوعاً بذات بدي

حتى تخلصت مخضوب السراويل

الله خلصني منهم و

وهذا خلاف ما قاله المتنبي:

وإذا لم يكن من الموت بدُّ

وقال سعيد بن العاصي حين هرب مروان بن محمد:

لجَّ الفرارُ بمروانٍ فقلتُ لهُ

أنى الفرارُ وترك الحربِ إذ كشفت

فراسه الحلم فرعون العذاب وان

فشبهه بالنعامة في الجبن وهو من أنقر الحيوان.

وقال بعض العرب:

نفرجةٌ ينفرُ من ظلِّ الشجرِ

والنفرجة الجبان.

ومن جيد ما قيل في التطير قول بعضهم:

الكوكب الذنبيُّ يخ

خلعوا عليه ووجلوا

وكذاك يُفعلُ بالجدو

وقريب منه:

وزارة العباس منكوسةٌ

كأنه حين غدا راكباً

جاريةُ السوء إذا جربت

وأكسل ما سمعناه ما أنشدناه أبو أحمد عن ابن عماد عن سليمان عن يحيى بن سعيد الأموي لبعضهم:

وكان الله يفعل ما يشاءُ

ويرقدها وقد كشف الغطاء

ويرقدها وقد قضى القضاءُ

فيغسلنا ولا يلقى عناءُ

سألت الله أن يأتي بسلمى

فيأخذها ويطرَحُها بجنبي

ويأخذني ويطرَحُني عليها

ويرسل ديمةً سحا علينا

أخبرنا أبو أحمد، عن أبي عمر، عن ثعلب، قال: قلت لابن الأعرابي من أحق الأعراب؟ قال أعرابي سبق

الناس إلى الموسم، وجعل يدعو الله لحاله وشأنه ويقول: اللهم اقض حاجاتي قبل أن يدهمك الوفد. قال

ثعلب أفلا أدلك على أحق منه الذي يقول:

خلق السماء وأرضه في ستة
وأبوك يمدد حوضه في عام
وسألني بعض الأدباء من أهل البصرة فقال: أي الشعراء أشد حمقاً؟ قلت الذي يقول:
أتيه على إنس البلاد وجنّها
ولو لم أجد خلقاً لتهت على نفسي
أتيه فلا أدري من التيه من أنا
سوى ما يقول الناس فيّ وفي جنسي
فإن صدقوا أني من الإنس مثلهم
فما فيّ عيبٌ غير أني من الإنس
فقال ما وعدت ما في نفسي.

وقال بعضهم لابنه: إياك والكبر، وكيف الكبر مع النطفة التي منها خلقت، والرحم التي فيها حملت،
والغذاء الذي به غذيت.
ومن بليغ ما جاء في ذم الكبر قول بعضهم: التواضع مع السخافة والبخل، أحمد من السخاء والأدب مع
الكبر والعجب.
وقلت في مثل هذا:

وعندهم مُذنبٌ مُنيبٌ
أحمدٌ من محسنٍ مدلٌّ
وأبلغ ما قيل في صلابة الوجه قول الأعرابي: لو دق بوجهه الحجارة لرضها ولو خلا بالكعبة لسرقها.
ومن المنظوم قول بعضهم:

لو كنت في شيء خلافك لم تكن
يا ليت لي من جلد وجهك رقعة
لتكون إلا مشجباً في مشجب
فأقدّ منها حافراً للأشهب
والبيت الأول مأخوذ من قول بعضهم: فلان يشجب من حيث رأيتَه وجدت لا.
وقد أحسن ابن أبي العتاهية في قوله:

قتلت لا فإنها
فهي تستهلك الجمي
خلعت خلعة العدم
ل وتأتي على الكرم
وقول أبي تمام:

وسابح هطل التعداد هتان
أظمي الفصوص ولم تظماً قوائمه
على الجزاء أمين غير خوان
فخل عينيك في ظمان ريان
تحت السنابك من مثني ووحدان
فلو تراه مسيحاً في الحصى ريم

أيقنت ان لم تثبت أن حافره

وقال في معناه يمدح رجلاً ويهجو عثمان هذا:

عثمان لا تلهج بذكر محمد

بذ لك كله امساكه

وكان عرضك في السهولة وجهه

وقال أبو الشمقمق:

صلابة الوجه سلاح الفتى

من كان صلباً وجهه محكماً

ومن أبخل ما قاله محدث قول ابن طباطبا الأصبهاني يخاطب غلامه:

إجعل الزّوج من سراجك فردا

إن يكن فقدك الضياء رديئاً

وقد غير هذا البيت في وجوه الأبيات المقولة في البخل: ومن أملح ما قيل في مخالفة ظاهر الرجل باطنة قول بعضهم:

إذا ما جئت أحمد مستميحاً

له خلق وليس عليه خلق

وممن ملح في الدعوة رزين العروضي:

لقد جئت يا بن أبي تبّع

حلفت بأنك من حمير

وملح أيضاً في قوله:

إن فخر الناس بأبائهم

قلت وأدغمت أباً خاملاً

ومن أملح ما قيل في إفشاء السر، قول بعضهم:

أودعته السرراً فالفيتة

وقال السري:

ثنتي عنك فاستشعرت هجرا

من صخر تدمر أو من وجه عثمان

يرضيك طول المجد عنك وعرضه

ويفوت بسطك في المكارم قبضه

وكان وجهك في الحزونة عرضه

ورقة الوجه من الحرفة

فأنت منه الدهر في طرفه

واقصد يا غلام والقصد أجدى

فاقتصادي للزر أردى وأردى

وقد غير هذا البيت في وجوه الأبيات المقولة في البخل: ومن أملح ما قيل في مخالفة ظاهر الرجل باطنة قول بعضهم:

فلا يغررك منظره الأنيق

كبارقة تروق ولا تريق

بأمّ الدّواهي لدى المجمع

وليس اليمين على المدعي

أتيتهم بالعجب العاجب

أنا ابن أخت الحسن الحاجب

انم من كأس على راح

خلال فيك لست لها براض

أنم من النسيم على الرياضِ

وإنك كلما استودعتَ سرّاً

وقد أحسن كعب بن زهير غاية الإحسان في قوله:

إلا كما يمسك الماء الغرابيلُ

ولا تمسك بالعهد الذي عهدتُ

وأخذه الحطيئة فقال:

وكانونا على المتحدّثينا

أغربالاً إذا استودعتَ سرّاً

والكانون: الرجل الثقيل. قال الشاعر:

تحت الثريا بحبل ثم ينقطع

ليت الكوانين في زبل معلقة

وقد مر فيما تقدم بيت الحطيئة: ومدح ابن الرومي ابن المدبر فرد مديحه فقال فيه:

وقد دنستُ ملبسه الجديداً

رددتُ عليّ مدحي بعدَ مطلٍ

ومن ذا يقبل المدح الرّدّ يدا

وقلت امدح به من شئتَ غيري

مخازيك اللواتي لن تبيدا

ولا سيما وقد أعلقتَ فيه

ثم أحنى عليه بالهجاء، حتى قال فيه، وقد ضربه الريح بالأهواز، ضربة في وجهه، مدحه بها البحري مدحاً كثيراً فمن ذلك قوله:

على النجح والحاجاتُ تترى عجالتها

ووجهُ ضمان البشر فيه موقفٌ

صفيحةٌ وضّاح يروق جمالها

به من صفيح الهند وشمّ تبنيه

أعيد إليها بالسؤالِ صقالها

متى ربدتها عزةٌ أو حفيظةٌ

تعجبك من شمسٍ عليها هلالها

متى ترها يوماً عليها دليلها

وذكرها ابن الرومي فأفحش في قوله:

له قصةٌ غير الذي هو يظهرُ

بوجه أبي إسحاق صدغٌ كعرضة

ببعض سيوف الزنج حين يخبر

يخبر عنه أنه أثرُ ضربة

أيورهم فانشقّ في وجهه حرُّ

وما ضربته الزنج في الوجه بل رأى

في أبيات سخيفة، فطلبه ابن المدبر أشد الطلب فلما ظفر به وأراد قتله أنشأ يقول:

أنّ قتلي محلّ لك طلقُ

حقك الصفحُ عن ذنوبي وحقّي

طلّ بما يستحقُّ ما تستحقُّ

فاعفُ عن عبدك المسيءِ ولا تب

فعفا عنه وأجازه.

وقال يهجو بجيلاً:

أنك أصبحت لي من الغيرِ

أشبهَ خطم الخنزير بالقدرِ

نعماك عندي التي أقرُّ بها

وحبك الذمَّ لائقٌ بك ما

قذرت في أخرياته الآخرِ

في رأسه ما اقتنى من العكسرِ

أبديت في أوليات لؤمك ما

كالقطران الذي يرى أبداً

وهو من قول الناس: أول الدن دردي.

وقالت العلماء: البلاغة أن تجعل المعنى الدنيء ربيعاً والمعنى الرفيع وضيعاً.

ومثل قول ابن الرومي قول الديلمي:

يبُ وهذا من أول الدنِّ دردي

في أوان الشباب عاجلني الش

وليس هذا بالمختار لا بتدال لفظه.

وقلت في بجيل:

مثل من فيه مذ زمانه

ومن الجوع والطوى في بطانه

ولمولاه ذلّةً ومهانه

فكأنني في بيته أرسانه

ققع البردُ ضيف عمرو فأضحى

بات للبرد في ظهارة سوءٍ

وهو قدماً للضيف جوعٌ وقرٌّ

جمع الرأس بين رأسه ورجلي

وقلت:

زادني أكله على الجوع جوعا

لهف نفسي على رغيغ أضيعا

ربما أصبح الخدوعُ خديعا

فغدا ذلك الرفيغُ وضيعا

كيف لم يمتنع وكان منيعا

ضفت عمراً فجاءني برغيغ

ثم ولى يقول وهو كئيبٌ

كان خداعة الضيوف ولكن

كنت أنزلته محلاً ربيعاً

عجباً منه إذ أتيج هجاءُ

اتفاق الأسماء والألقاب وتباعد ما بينها في الأخلاق

قال الأول في ذلك:

يزيد الخير إنَّ يزيد قومي
يقودُ عصابةً وتقودُ أخرى
شبيهك في الولادة والتسمي
سميكَ لا يزيدُ وكما تزيدُ
فيرزق من يقودُ ومن تقودُ
ولكن لا يجودُ كما تجودُ

ومثله:

عليٌّ وعبدُ الله بينهما أبٌ
ألم ترَ عبدَ الله يلحى على الندى
وشتانَ ما بين الطبائعِ والفعلِ
عليّاً ويلحاهُ عليٌّ على البخلِ

ومثله:

فإنَّ يكَ مجرانا إلى جمع نسبةٍ
وما أنت مثلي في مقام أقومهُ
ففي الرأي والأخلاقِ مختلفانِ
لدى البأسِ إلا أننا أخوانِ

آخر:

لئن وصلتُ أبوتنا انتساباً
أبوك أبي وأنت أخي ولكنْ
لقد قطعتُ مرارتنا العقولُ
تباينت الطبائعُ والشكولُ

أخبرنا أبو أحمد عن الصولي، قال: قال لنا المكتفي بالله يوماً: ما أهلك بيت من الشعر، وأفجر قائل أتعرفونه؟ فقال يحيى بن علي المنجم قول أبي نواس:

ألا فاسقتني خمرأً وقل لي هي الخمرُ
ولا تسقتني سرأً إذا أمكن الجهرُ

فقلت له: إن المأمون أمر أن يخطب بهذا البيت على منابر خراسان وقال: من عيوب محمد أنه استجلس رجلاً يقول ألا اسقني خمرأً، ولكن الحسين بن الضحاك الخليع قد قال ما هو أهلك من هذا قال وما هو؟ فأشده:

أتبعتُ سكرأً بسكر
وابتعتُ خمرأً بقمر

فقال هذا العمري أهلك من ذلك.

قال أبو هلال رحمه الله تعالى: وأبلغ الهجاء، ما يكون بسلب الصفات المستحسنة، التي تخص النفس، من الحلم والعلم والعقل وما يجري مجرى ذلك، وليس الهجاء بقبح الوجه وضؤولة الجسم وقصر القامة وما في معنى ذلك بليغاً مرضياً، وينبغي أيضاً أن يتضمن الهجاء والمديح من نعوت المهجو والممدوح وأسمائهما وصفاتهما ما هما مشهوران به فإذا ذكر لم يخفيا.

أخبرنا أبو أحمد، عن أبي بكر بن دريد، عن الأشناداني عن التوزي عن أبي عبيدة قال: مدح مصعب بن عمير الليثي عاصم بن عمرو بن عثمان بن عفان فحرمه فقال:

سيروا فقد جنّ الظلام عليكمُ
فبئس امرؤ يرجو القرى عند عاصم
دفعنا إليه وهو كالذئخ خاطباً
فشدّ على أكبادنا بالعمائم
ومالي من ذنب إليه علمته
سوى أنني قد جنته غير صائم
فلولا يدُ الفاروقِ عندي رميته
بقافيةٍ يُحدي بها في المواسم
فليتك من جرم بن زبان أو بني
نعيم أو النوكى أبان بن دارم
أناسٌ إذا ما الضيفُ حلّ بدارهم
غدا جائعاً غرثان ليس بناعم

فلما بلغ ذلك عاصماً قال: ما أكثر من يسمى عاصماً حتى يقول: عاصم بن عمرو بن عثمان بن عفان فبلغه ذلك فقال:

جنبتها عاصماً من أن تلمّ به
أعني ابن عمرو بن عثمان بن عفان
إذا أناخت به الضيفان طارقة
جاءت بنوه إلى الضيفان ضيفاناً

فبلغه ذلك فقال: الآن طوقني بما طوق الحمامة لعنة الله تعالى. وقال بعضهم:

أرى ضيفك في الدار وكرب الموت يغشاه
على خبزك مكتوبٌ سيكفيكهمُ الله
وقال بشار:

وضيفُ عمرو وعمروٌ يسهران معاً
وعمر ولبطنته والضيفُ للجوع
آخر:

نوالك دونه خرطُ القتاد
وخبزك كالثريا في البعاد
ولو أبصرت ضيفاً في المنام
لحرمت المنام إلى التناد
أرى عمرَ الرغيفِ يطولُ جداً
لديك كأنه من قوم عاد
وما أهجوك أنك كفاء شعري
ولكني هجوتك للكساد

وقال آخر:

رأى الصيفَ مكتوباً فظنَّ لبخله
وتصحيفه ضيفاً فقام يوائبه
ورأيت في ألفاظ هذا البيت زيادة فقلت:

قد كانَ للمالِ ربا فصار في البخلِ عبدهُ وصحفَ الصيفَ ضيفاً فقامَ بلطمُ خده

وقال أبو نواس:

على خبزِ إسماعيلِ واقيةُ البخلِ

أخبرنا أبو أحمد، أخبرنا أحمد بن عماد، أخبرنا ابن مهرويه، حدثني محمد بن عمران بن مطر الشامي، حدثني خالي الحسن ابن محمد قال: نصب إسماعيل بن نوبخت طارمة في صحن داره، فاصطحبنا أربعين يوماً ومعنا أبو نواس، فبلغت نفقته أربعين ألف درهم فقال أبو نواس بعد ذلك فيه:

ي إذا ما شقَّ يُرفا

خبزُ إسماعيلَ كالوش

عة فيه كيف يخفى

عجباً من أثر الصن

ألفُ الأمة كفا

إن رفاعك هذا

ف من الحروف نصفاً

فإذا ألصق بالنص

ما ترى مطعن أشفى

ألف الصنعة حتى

ور ما غادر حرفاً

مثل ما جاء من التن

عملٌ أبدع ظرفاً

وله في الماء أيضاً

بئر كي يزداد ضعفا

مزجة العذاب بماء ال

مثل ما يشرب صرفاً

فهو لا يسقيك منه

فلم يسبق أبو نواس إلى هذه المعاني وهي كما تراها غاية.

قال: وقال فيه أيضاً:

فقد حلَّ في دار الأمان من الأكلِ

على خبزِ إسماعيلِ واقيةُ البخلِ

تصورُ في بسطِ الملوك وفي المثلِ

وما خبزُهُ إلا كعنقاء مغربٍ

سوى صورةٍ ما إن تمرَّ ولا تحلي

يحدث عنها الناسُ من غير رؤيةٍ

ولم ير أوى في الحزون وفي السهلِ

وما خبزُهُ إلا كأوى يرى ابنه

ليالي يحمي عزه منبت البقلِ

وما خبزُهُ إلا كليبُ بن وائلٍ

ولا الصوت مرفوعٌ بجدٍّ ولا هزلِ

وإذ هو لا يستبُّ خصمان عنده

أصاب كليياً لم يكن ذلك عن ذلِّ

فإن خبزُ إسماعيل حلَّ به الذي

بحيلة ذي مكرٍ، ولا دهى ذي عقلِ

ولكن قضاءً ليس يسطاع رده

وكان الجاحظ يفضل قوله:

إذا هو لا يستبُ خصمان عندهُ

على قول مهلهل:

واستبَّ بعدك يا كليبُ المنزل

ومما قيل في قبح الخلقه وغير ذلك قال ابن الرومي:

وقينة أبرَد من تلجة

كأنها من ننتها ثومةُ

تفاوتت خلقتها فاعتدت

كأنها والوشمُ في جلدها

خرَاجةٌ للفسق دَخالةُ

كأنما ففحتها فحمةُ

وهي أبيات سخيفة تركت أثرها لسخفه.

ونقل قوله:

فهي لمن عطل محتجه

إلى موضع آخر فقال في إسماعيل بن بلبل:

لا سُقيتُ نعى تسربلتها

وقد أبدع أبو نواس في قوله يهجو جعفر بن يحيى:

قالوا امتدحتَ فماذا اعتضتِ قلت لهم

ذاك الأميرُ الذي طالتُ علاوتهُ

وكان جعفر طويل الوجه والقفا. وقال فيه أيضاً:

قفا ملك يقضي الهموم على بئق

وقلت:

سوداء يذرفُ دمعها

وكأنها من قبحها

وقال أبو تمام:

تظلُّ منها النفسُ في ضجّةٍ

لكنها في اللونِ أترجّه

لكلِّ مَنْ عطلَّ محتجه

زرنخةٌ شيبتُ بلبانجه

تعجبها الدخلةُ والخرجه

فتَ عليها عابثُ تلجةُ

كم حجةٌ فيها لزنديقِ

خرقَ النعالِ وإخلاقِ السراويلِ

كأنه ناظرٌ في السيفِ بالطولِ

مثلُ الأتونِ إذا وكفُ

سلحُ العليلِ على الخزفِ

وزيدُ الخيلِ دونك في الشجاعةُ

فأنتَ نسيحُ وحدك في القناعه

أصلُّ به نهاراً في جماعه

لَهُ حاجبٌ من أنفه وهو مطرقُ

توهّمت أنَّ السوق منها سيغرقُ

على وجهه منه كنيفٌ معلقُ

نك في الدار يطوفُ

خنافس سودا في صراة قليبِ

وإنما خص الأنياب العلى دون السفلى، لأنها تبدو في التبسم والتكلم، وعند الثأوب، وهو كقول الآخر:

لأفقرَ مني إنني لفقيرُ

فشبهه أسنانها بالخنافس وسعة فمها بالقليب، والصراة: الماء الفاسد فشبهه به فساد نكهتها. وأخبرنا أبو أحمد عن أبي بكر، عن الرياشي، عن ابن سلام، قال: دخلت ديباجة المدنية على امرأة، فقيل لها: كيف رأيتها؟ قالت: لعنها الله كأن بطنها قربة، وكأن ثديها دبة، وكأن استها رقعة، وكان وجهها وجه ديك قد نفس عرفه يقاتل ديكاً.

ومن بديع الهجاء بالتبزق والتمخط والبخر قول ابن الرومي:

من سدّة في أنفك المورمُ

إن لم تتخّع مرّةً تتخّم

دكناء رقطاعٍ بقيقٍ أودم

تضرطُ من أنفٍ وتفسو من فم

حتى دعاك الملاء ارحم تُرحم

وأعرضَ عني جانباً فحييتُ

فأشهدُ ما جسرتَ عليّ إلا

ووجهك إذ رضيت به نديما

ولو بدلتهُ وجهاً إذا لم

ومن أعجب ما قيل في كثير الأنف قول كشاجم:

لقد مرَّ عبدُ الله في السوق راكباً

رعيت له من جانب السوق مخطّة

فأقدر به أنفاً وأقدر بربه

وقال غيره:

أنت في البيت وعرني

ومن أقبح ما جاء في قبح الأسنان قول جرير:

إذا ضحكت شبّهت أنيابها العلى

إذا كان يهدي بردُ أنيابها العلى

تحسبُ مزكوماً وإن لم تزكم

مُحشرجَ الصدرِ برِطليّ بلغم

نخامةٌ كالضفدعِ الموشمِ

ممتخطاً بالكوعِ أو بالمعصم

ذا نكهةٍ من لم تمنه يصدّم

وقال جحظة في البحر:

تنفسَ في وجهي فكدتُ أموتُ

ونتنتني حتى حسبتُ بأنني

وقال بعضهم في سرعة الكلام:

كَأَنَّ بَنِي رَالَانَ إِذْ جَاءَ جَمْعَهُمْ

وقال دعبيل في قصر الشعر:

فَوَهَاءُ شَوْهَاءُ لَهَا شَعْرَةٌ

وقال ابن المعتز في أمر دنتف:

وَخَذَهُ مُشَوِّكٌ مَزُورٌ التَّلْوِيزِ

وَأَنْفُهُ كَسْتَرَةٍ مُشْتَرَقِ الْأَفْرِيزِ

وقلت:

لَعِبَ الزَّمَانُ بِحَسَنِ وَجْهِ مُحَمَّدٍ

قَدْ كَانَ مَعْرُوفَ الْجَمَالِ فَلَمْ يَزَلْ

عَهْدِي بِهِ مُتَكَفِّرٌ مُتَعَصِفٌ

وَكَأَنَّمَا صُدَّغَاهُ فِي وَجَنَاتِهِ

وقال ابن الرومي في غير هذا المعنى يحكي عن امرأة:

أَنَا كَعْبَةُ النِّيكَ الَّتِي نَصَبْتُ لَهُ

فَتَبَيْتُ بَيْنَ مَقَابِلٍ وَمَدَائِرٍ

كَأَجْبِرِي الْمُنْشَارَ يَجْتَذِبَانَهُ

ولا أعرفه سبق إلى هذا المعنى وهو من أظرف معنى وأعجبه.

وقال أيضاً وهو من ظريف المعاني:

رَأَيْتُ فِي دَارِ حُسَيْنٍ مَشْرَعَهُ

لَهَا بظُورٍ فِي اسْتِهَا مَجْمَعَهُ

وقال في خصي أراد ابن أن يتزوج بامرأة:

قَلِّ لِنَجْحٍ: أَخْطَأْتُ بَابَ النِّجَاحِ

لَسْتُ بِالسَّابِحِ الْمَجِيدِ فَدَعِ عَنِ

وربكما يا صاحبي خريتُ

فراريحُ يلقى بينهنَّ سويقُ

كأنها خملٌ على مسحِ

كأنه فرنيةٌ كثيرةُ الشونيزِ

تحسبه إذا بدا سماجةُ النوروزِ

لعبَ الصبا بالربيعِ حتى أففرا

ينتأبهُ الحدثانِ حتى أنكرا

ثم اغتدى متصنِداً متزعفرا

جُعْلانٍ ينتأبانِ سلحاً أصفرا

فتلقَّ مني حيثَ شئتَ وكبرِ

مثلَ الطريقِ لمقبلٍ أو مدبرِ

متنازِعينِ في فليحِ صنوبرِ

وامرأةً قاعدةً مربعةً

كأنها أترجةٌ مفقعه

إذ تعاطيتهُ بلا مفتاحِ

كركوبِ البحارِ للسباحِ

فطعَ الحبُّ بالخصيِّ كما يف
ليتَ شعري بما تظنك تصبي
أبوجه كأنه وجهُ قرْدٍ
نمشةٌ فوقَ صُفرةٍ فتراه
إنما أنتمُ ففاحٌ فمهلاً
إنَّ من يعشق النساء بلا أي
لن يكونَ الطعانُ إلا برمح

ثم قال:

معشراً شبهوا القروءَ ولكن

وهي طويلة.

ومن أعجب ما قيل في البحر قول الخالدي في رجل حلق سباله بعد أن أطاله:

ظع فقدُ المُردِيِّ بالملاحِ
قلب ودان يا كسيرَ الجناح
حائلُ اللونِ خامدُ المصباح
كونيمِ الذبابِ في اللقاح
ما غناءُ الففاحِ في الأحراح
رِ كمثلِ الغازي بغير سلاح
فدعوا الطعنَ للطوالِ الرِّماح

خالفوها في خِفةِ الأرواح

حلقتَ سبالك جهلاً بما

فعدبتَ صحبك حتى المساء

فلا أبعد الله ذاك السبال

وقال ابن السكن:

رجلٌ يعقُ الكأسَ كلَّ عشيةٍ

وقلت:

يواري من النكرات القباح
وعذبتَ عرسك حتى الصباح
فقد كان سترأ على مستراح

ويعاقب المسواك كلَّ صباح

قال لي صاحبي وقد صففته

لعنَ اللهَ ليلةً بتُ فيها

وقد أبدع ابن الرومي في قوله:

نفحات الكروّس من في وصيفِ
مع رفيقي كأننا في الكنيفِ

إن لم تقم من بيننا قمنا
من ينف فيه ذا كما كنا

فسا على القوم فقالوا له

فقال لا عدتُ فقالوا له

وقال أيضاً يذكر قينة:

صحفت التقبيل تقتيلاً

مسمومة الرِّيق إذا قبلتُ

يُحَسِّنُ لِلْبَخْرَاءِ تَقْبِيلًا
قَدْ كُمَلَّتْ بِالْبِطْرِ تَكْمِيلًا
إِلَّا بَطُولَ الْبِطْرِ تَفْضِيلًا
قَلْنَا أَعَارَتْ بِطَرَهَا الْفِيْلَا
يُرُونَ فِي النَّوْمِ التَّهْلُوِيْلَا
وَأَحْسَنَ الْأَسْوَدَ إِكْلِيْلَا
طَوْرَيْنِ تَعْجِيْلًا وَتَأْجِيْلَا
يُطْفِئُ فِي اللَّيْلِ الْقِنَادِيْلَا
مَا خَلَّتْهُ إِلَّا سِرَاوِيْلَا
فَكَانَ لِلتَّكْيِيلِ تَكْيِيْلَا
لِسِنَّةِ الشَّيْطَانِ تَبْدِيْلَا
قَطُوفُهَا لِلنَّيْلِ تَنْذِيْلَا

قُبْلُهَا جَمْلُوْدُ عُرَارَةِ
فَاحِشَةُ النَّقْصَانِ لَكْنِهَا
أَزْرَى بِهَا اللَّهُ فَلَمْ يُعْطِهَا
إِذَا بَدَا الْفَيْلُ وَخَرَطُوْمُهُ
غَوْلٌ يَبِيْتُ الشَّرْبِ مِنْ قَبْحِهَا
مَا أَحْسَنَ الْأَرْقَمَ طَوْقًا لَهَا
قَدْ عَذَّبَ اللَّهُ أَمْرًا نَالَهَا
لَهَا ضُرَاطٌ رِيْحُهُ عَاصِفٌ
حَلَّتْ سِرَاوِيْلِي عَلَى وَاسِعٍ
أَحَلَّتْ تَكْيِيْلِي بَبَابِ اسْتِهَا
لَوْ رَامَتِ التَّوْبَةَ لَمْ تَسْتَطِعْ
يَابِسَةُ الْعُوْدِ وَقَدْ ذَلَّتْ

وهي طويلة عجيبة ليس لأحد في ملاحظتها وعلو جودتها وكثرة معانيها شيء.
ومما قيل في طول اللحية قول ابن الرومي:

أَغْنَى بِهَا كَوَاسِدَ النَّوَاسِجِ
وَفَرَّقَ الْبَاقِي عَلَى الْكَوَاسِجِ
كَأَنَّكَ مِنْهَا قَاعِدٌ فِي جَوَالِقِ

وَلِحْيَةٍ لَوْ شَاءَ ذُو الْمَعَارِجِ
بَنْسَجٍ مَسْحِينِ لَخَانَ الدَّرَاجِ
وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ بَعْضِهِمْ وَهُوَ مَشْهُورٌ:
أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَعْطَاكَ لِحْيَةً

وقال الآخر:

كَأَنَّكَ مِنْهَا بَيْنَ تَيْسِينَ قَاعَا

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَعْطَاكَ لِحْيَةً

وكان العوني، إذا كتب كتاباً، أخذ لحيته تحت إبطه، وإذا كلمه انسان من الجانب الآخر، التفت إليه فخلصت لحيته من تحت إبطه، فمرت على الكتاب فطمست جميع ما كتبه، فيقول اللهم غفرا، فقال فيه بعضهم أو في غيره:

مَجْهُودَهَا لَمْ تَكُنْ كَعَنْفَقَتِهِ

لِحْيَةُ قَاضِي الْقِضَاةِ لَوْ جَهَدْتُ

فَقَدْ كَفَّتُهُ مَكَانَ مَرْفَقَتِهِ

إِذَا أَرَادَ الْكِرَى تَوَسَّدَهَا

وقال رقية بن مصقلة لأبي شيبه القاضي: لو كانت لحيتك هذه من الذنوب لكانت من الكبائر. وقد قيل من تدلت لحيته فقد تقلص عقله. وقلت:

قل للمدلّ بلحية موفورة
لا يعجبك طول نبتك إنّه
وسماد لحية كل ألقى جهله
من طال لحيته تكوسج عقله

وقد أجاد ابن الرومي وأبلغ، وجمع في أبيات من المعاني ما لم يجمعه أحد في هذا الباب وهو قوله:

إن تطلّ لحيةً عليك وتعرضُ
علقَ الله في عذاريك مخلاً
فالمخالي معروفةٌ للحميرِ
لو غدا حكمها عليّ لطارتُ
عَـةٌ ولكنها بغيرِ شعيرِ
ارع منها موسى فإنك منها
شهدَ الله في أثام كبيرِ
أيما كوسج رآها فيلقى
هو أحرى بأن يشكَّ ويغرى
بإتهام الحكيم في التقديرِ
ما تلقاك كوسجٍ قطُّ إلا
جورَ الله أيما تجويرِ
لحيةً أهملتُ فطالتُ وفاضتُ
فإليها تشيرُ كفُّ المشيرِ
قطُّ إلا أهلٌ بالتكبيرِ
ما رأتها عينُ امرئٍ ما رأتها
من رأى وجهَ منكرٍ ونكيرِ
روعةٌ تستخفه لم يرعها
منكراً منك ممكن التغييرِ
فانتق الله ذا الجلال وغيرِ
قيد شبرٍ علامة التذكيرِ
أو فقصر منها فحسبك منها
في لحي الناس سنّة التقصيرِ
لو رآها النبي يوماً لأجرى
ق مكان الإعفاء والتوفيرِ
واستحبّ الإحفاء فيهنّ والحل

أراد قول النبي صلى الله عليه وسلم: "أحفوا الشوارب واعفوا عن اللحي".

وقلت:

إن أبا عمرو له لحيةٌ
مضى إلى السوق وعُثنونه
بعيدةُ البعض من البعضِ
وهو إذا ما مرَّ في سكةٍ
أقام في البيت فلم يمضِ
يملأها بالطول والعرضِ

يَدُوسُهَا النَّاسُ بِأَقْدَامِهِمْ

كَأَنَّهُمْ أَرْضٌ عَلَى الْأَرْضِ

وأخبرنا أبو أحمد، عن أبيه، قال: قال الجماز: كان لبعض أصابنا في الظاهرة تل تراب، فأتاه غلامه برجل يضرب له اللبن، وقد حمل في عنقه قالباً وإذا لحيته ملء القلب، فقلت له: ليس في قلبك فضل يدخل فيه الطين مع لحيتك؟ فقال إني سأخرجها من القلب قبل ضرب اللبن، وإنما أردت أن أدفنها فيه قليلاً، قال فلما رأيت حمقه، قلت: يحتاج أن يضرب في كل يوم ألف لبنة. قال خريم أنا أقدر على ذلك. وقال الناجم:

لَابِنِ شَاهِينَ لَحِيَةً

طَوَّلُهُ شَطْرُ طَوْلِهَا

فَهُوَ الدَّهْرُ كُلُّهُ

عَاثِرٌ فِي فَضُولِهَا

ولولا القصد لجمع أعيان المعاني، والشرط المتقدم لتركت التشنيع، الملفوظ من المنظوم والمنثور، على أن العلماء لو تركوا رواية سخييف الشعر، لسقطت عنهم فوائد كثيرة، ومحاسن جمّة موفورة، في مثل شعر الفرزدق، وجرير، والبعيث، والأخطل، وغيرهم، ولو لم يصلح ذلك الفروج بتصريح أسمائها، لكان تسمية أهل اللغة إياها بذلك خطأ، وهذا محال. ومما قيل في الذمامة وقصر القامة ما ينسب لأبي نواس وهو لغيره:

إِذَا اسْتَنَّ فِي قُوْهِيةٍ مَتَّبَعْتَهَا

فَقَلَّ جَرْدٌ يَسْتَنُّ فِي لَبَنِ مَحْضٍ

فَأَقْسَمُ لَوْ خَرَّتْ مِنْ اسْتِكَ بَيْضَةٌ

لَمَا انْكَسَرَتْ مِنْ قَرَبِ بَعْضِكَ مِنْ بَعْضٍ

وقال غيره:

أَلَا يَا بَيْدَقَ الشُّطْرَيْنِ

ج فِي الْقِيَمَةِ وَالْقَامَةِ

وقال آخر:

يَعْتَرِ النَّاسَ فِي الطَّرِي

قِي بِهِ مِنْ دِمَامَتِهِ

وقال آخر:

فَقَامَ إِلَى الْغَلَامِ أَسَى وَغِيظاً

بِقَدِّ لَمْ يَزِدْ فِيهِ الْقِيَامُ

وقال ابن الرومي:

أَنْتِ تَشْتَمُ عَرْضِي

وَأَنْتِ فِي طَوْلِ أَيْرِي

وقال الناجم:

يَنْقُصُ الْأَحْرَارِ مِنْ شَأْنِهِ

وَهُوَ أَخُو الْقَلَّةِ وَالنَّقْصِ

كأنه البرغوثُ لم يخطه

وقال:

وعازبُ الرأي ضعيفٌ مغرورٌ
في جسم عصفورٍ وحلم عصفور

وقال آخر:

كأنهمُ كلي غنم الأضاحي

وفي غير هذا المعنى قول الآخر:

إذا لبسَ البياضَ فعدل قطن

وقال ابن الرومي في القبح والسواد:

وجهك يا جعفر من قبحه

كأنما تأوي إليه الدُّجى

وقال ابن طباطبا في مجدور:

نو جُدريٍّ وجْههُ

أو جلدٌ أفعى سلخت

أو حلقُ الدَّرْع إذا

أو سفرٍ محبيب

أو منخلٌ أو عرضٌ

أو حجرُ الحمام كم

أو كورٌ زنبور إذا

أو كدر الماء إذا

أو سلحةٌ جامدةٌ

بيغضه من قبحه

وقد أبدع ابن الرومي:

جُدريٌّ ما شأنها وهي شينٌ

في صِغَرِ الجنمانِ والقرصِ

مكاثِرٌ في العلم وهو مكثور

إذا قاموا حسبَتَهُمُ قعودا

وان لبسَ السوادَ فعدل فحم

أولى من العروةِ بالسترِ

إذا هي انقضت عن الفجرِ

يحكيه جلدُ السمكة

أو قطعةٌ من شبكه

أبصرتها مشتبكه

أو كرشٌ منفركة

رقعته منتهكه

من وسخٍ قد دلكه

فرَّخَ فيه تركه

أظهر فيه حبكه

تنقرُ فيها الديكةُ

كلُّ طريقٍ سلكةُ

كلُّ أثرٍ في ذلك الوجهِ نقشٌ

حمل أنف فيه لفرخين عش

بدلت من ضفائر وقرون

وقلت في غير هذا المعنى:

وأمر مخبره ومنظره

قد حسن ظاهره وباطنه

مثل المكا الرطب تسفره

شعر تجدد في عوارضه

وقال ابن طباطبا في أسودين: أخبرنا أبو بكر أحمد، أخبرني عبد الله بن أبي عامر، قال: كان أبو الحسن العلوي المعروف بابن طباطبا، قصد يوماً أبا علي بن رستم فصادف على باب عثمانين أسودين، كالفتح متعممين بعمامتين حمراوين، فامتحنهما فوجدهما من الأدب خاليين، فدخل مجلس ابن رستم وكتب في درج:

ذوي عمامتين حمراوين

رأيتُ بباب الدار أسودين

قد غادراً الرفضِ قرير العين

كجمرتين فوق فحمتين

فماله أنسل ظلمتين

جدُّ كما عثمانُ ذو النورين

حدائد تطبع من لجين

يا قبح شينِ صادرٍ عن زين

طيرا فقد وقعتما للحين

ما أنتما إلا غرابا بين

المظهرين الحب للشخين

زورا ذوي السنة في المصرين

لا تبرما إیرام ربّ الدين

وخليا الشيعة للسبطين

صكاً بخفين إلى حنين

ستعطيان في مدى عامين

وقال أبو تمام يهجو عياشاً بعد ما مات:

وساءه كرتك الخاسرة

كرت على اللوم بما ساده

عليك أثوابك بالساهرة

أسهرت عين اللوم منذ انطوت

منك ولكن لُدت بالآخرة

قد كانت الدنيا شفت لوعتي

من بين لحي أسد القاهرة

يا أسد الموت تخلصته

فاقرة نجتك من فاقره

أجارك المكروه من مثله

وقال فيه:

حتى ظننا أنه المقبور

وتصور القبر الذي ضمنته

فأتيح لأبي تمام مخلص الموصل في هجاءه بعد موته فقال:

من المنى وقطعان من الكمر
فجاءه الموت من حرٍّ ومن حصر

سقى حمارك يا طائي غادية
حر الحلاق وبرد الشعر اتلفه

ومما قيل في البرد أيضاً قول بعضهم في المبرد:

على أنه منها أحرُّ وأومدُ
فما زلتُ في ألفاظه أتبردُ

ويوم كنار الشوق في القلب والحشا
ظللتُ به عند المبرد قائلًا

وفلج أحد الشعراء فسئل عنه رجل فقيل له: ما كان سبب فالجه؟ قال أكل بيتين من شعره. ومن جيد ما قيل في برد الغناء قول بعضهم:

ضربَ الله شقّه بغناؤه

كاد من برده يجمد روجي

وقال غيره:

مصعبُ جرّك على السبع
فكان يحتاجُ إلى الصفع
أدعو على كفيه بالقطع

غنى لنا نصرٌ فقلنا له
وحرّك العودَ بأطرافه
فقمتم من مجلسه هارباً

وقال كشاجم:

مة مختلّ اليدين

ومغنّ بارد النغ

دار قومٍ مرتين
ات من صيحة بين

ما رآه أحدٌ في
صوته أقطع للذ

وقلت:

كما تعرّك آذان السنابير
أهدت لسمعي تهدير الخنازير
خلت الزنابير تشدو في القوارير
نصبتهن شراكاً للمدايير

قد أسمعتنا غناءً لا خلاق به
حتى إذا ارتفعت في الصوت لا ارتفعت
وكلما انخفضت فيه مززمة
لا تخدعنه بأثوابٍ مُصبّغة

وقال ابن الرومي:

كلّ عرقٍ مثل بيت الأرضه

وإذا غنت ترى في حلقها

وقال الناجم:

وقينة شتمها قنوتُ
مفقودة الكلِّ غير بطن

وقال غيره:

أحسن أصواتها السكوتُ
متقل فهي عنكبوتُ

كأن أبا الحسين إذا تغنى
يلوك لسانه طورا وطورا

وقال المصيبي:

يحاكي عاطسا في عين شمسٍ
كأن بضرسه ضربانَ ضرسٍ

وتحسب الندمان في حلقه
ما عجبني منه ولكنني

وقلت في عواد:

دجاجة يخنقها ثعلبُ
من الذي يعجبه أعجبُ

يقول لنا غير ما يضرب
ككيسان يكتب غير الذي

ويضرب غير الذي نحسبُ
يقول المحدثُ والمكتب

فيكتب غير الذي قاله
فصمتا إذا شئت اطرابنا

ويقرأ غير الذي يكتب
فنحن إذا قلت لا نظربُ

ولا تأتيني إذا جئتني
وقلت:

فإني إذا جئتني أذهب

تغنى لنا فجعلنا عليه
جعلنا اللطام لها لحمه

عمائم تنزع جلدَ القفا
وننف الشوارب فيها سدى

ومن جيد ما قيل في تغير وجوه الأحداث عند خروج اللحي قول البسامي:

قالوا تغير عن ملاحظته
يا زهرة ومحاسنا مسخت

قلت الزمان يريكم العبرا
ماذا لجاه الشعر لو شعرا

قد كانت الأبصار تجرحه
وقال سعيد بن حميد:

واليوم يجرحها إذا حضرا

فالآن حين بدت بخدك لحيه
وقال ابن طباطبا:

ذهبت بملحك ملء كف القابض

حمن عما خلقتُ

كفك مما اجتרכתُ

إذا الوحوشُ حشرت

بأيِّ ذنبٍ نتفتُ

يا من يزيل خلقه الر

تب وخفِ اللّه على

هل لك عذرٌ عندهُ

بلحيةٍ إن سُئلت

وقلت:

كأنني مشطُ ابنِ منصورٍ

بأصبعٍ منه وأظفور

وتارة من قشر بلور

وتارة في لون كافورٍ

حكاية زور من الزورِ

إذا غرسَ الظلمةَ في النورِ

حصلت في بيتي ذا غلظة

يا لحيّةً هتك أستارها

فخذهُ من سح تارةً

فتارة كالمسك في لونه

يعجبه المرءُ فيحكيمهُ

يقول ما أحسنَ ربّ الوري

وقلت:

مسوّدَةٌ قبلَ أن تبدو عوارضهم

فيهنَّ أو لعبتُ فيها مقارضهم

من شقوةِ المرءِ أن تبدو شواربهم

يا ويحهم من لحي جدّت مناقشهم

قد أتيت في هذا الفصل على ما فيه مقنع وبالله التوفيق.

الفصل الثالث

الاعتذار

الإعتذار أيدك الله ذلة، ولا بد منه، لأن الإصرار على الذنب، فيما بينك وبين خالقك هلكة، وفيما بينك وبين صديقك فرقة، وعند سائر الناس مثلبة وهجنة، فعليك به إذا وقعت الذنب، وقارفت الجرم، ولا تستنكف من خصومك وتذللك فيه، فرما استشير العز من تحت الذلة، واجتني الشرف من شجرة الندلة، ورب محبوب في مكروه.

والمجد شهد يجتني من حنظل

ومما خص به الإعتذار أن الحق لا يثبت لباطله، والحقيقة لا تقوم مع تخييله. وتمويهه، وإن رده لا يسمع

من الكذب اللاتح في صفحاته، وقالوا: المعاذير مكاذب، ويقولون مع ذلك لا عذر في رد الاعتذار والمعتذر من الذنب كمن لا ذنب له. وهذه خصلة لا يشركه فيها غيره، ولم يرو عن أحد قبل النابغة الذياني في الاعتذار شعر فيه أجود منه، ومما نرويه له فيه قوله حين سعى به المنخل اليشكري إلى النعمان، وزعم أنه غشي المتجرده حظية النعمان وذلك حين وصفها النابغة فقال:

وإذا لمستَ أختمَ جاثماً
متحيزاً بمكانه ملءَ اليدِ
وإذا طعنتَ في مستهدفٍ
رابي المجسَّةِ بالعبيرِ مقرمِ
وإذا نزعْتَ نزعْتَ عن مستحصفٍ
نزعَ الحزورَ بالرشاءِ المحصدِ

فقال المنخل للنعمان: هذا وصف من ذاقها. فوقر في نفس النعمان، ثم وفد عليه رهط من بني سعد بن زيد مناة بني قريع، فأبلغوه أن النابغة ما زال يذكرها ويصف فيها، فأجمع النعمان على الإيقاع بالنابغة، فعرفه ذلك عصام حاجب النعمان وهو الذي قيل فيه: نفس عصام سَوَدَتْ عصاما فصار يتمثل به فيقال عصامي وليس بعظامي، وإذا كان يكسب المآثر لنفسه ولا يتكل على مآثر الأموات من أسلافه، ويقولون كن عصامياً لا عظامياً، فانطلق النابغة إلى آل غسان، وكانوا قتلوا المنذر ولد النعمان، فزادهم لحاق النابغة بهم حشمة ثم اتصلت به كثرة مدائح النابغة لهم، فحسدتهم عليه فأمنه وراسله في المصير إليه، فصار إليه وجعل يعتذر مما قرف به ومن مدحه لآل غسان في قوله:

حلفتُ فلمَ أتُركَ لنفسك ربيبةً
وليسَ وراءَ الله للمرءِ مذهبُ
لئنَ كنتَ قد بُلغتَ عني خيانةً
لمبُلغك الواشي أغشُ وأكذبُ
ولستَ بمستبِقِ أخاً لا تلمهُ
على شعثِ أيِّ الرجالِ المهذبُ

وقد ذكرنا هذا في أول الكتاب، وقوله:

وعيدُ أبي قابوسَ في غيرِ كُنْهه
أتاني ودوني راكسٌ فالضواجعُ
فبتُ كأني ساورتني ضئيلةٌ
من الرُقشِ في أنيابها السمُّ نافعُ
أتاني أبيتَ اللعنَ أنك لمتني
وتلك التي تستك منها المسامعُ

إلى أن قال:

فإن كنتَ لا ذو الضغن عني مكذبُ
ولا أنا مأمونٌ بشيءٍ أقولهُ
وإن خلتُ أن المنتأى عنك واسعُ
ولا حلفي على البراءة نافعُ
فإنك كالليل الذي هو مدركي

وقال:

أنبتت أن أبا قابوس أوعدني
مهلاً فداءً لك الأقوم كلهم
لا تقذفني بركن لكفاء له
ما قلت من سيء مما أتيت به
ها إن ذي عذرة إلا تكن نفعت
ولا قرار على زارٍ من الأسد
وما أثمر من مال ومن ولد
وإن تأتفك الأعداء بالرقد
إذا فلا رفعت سوطي إلي يدي
فإن صاحبها قد تاه في البلد

فخلع عليه النعمان خلع الرضا، وكن حبرات خضرا مطرفة بالجواهر، وقد ذكرنا الحديث بطوله فيما تقدم. وما سلك أحد طريقته هذه فأحسن فيها كاحسان البحري: أخبرنا أبو أحمد، أخبرنا الصولي: سمعت عبد الله بن المعتز يقول: لو لم يكن للبحري إلا قصيدته السينية في وصف إيوانه كسرى، فليس للعرب مثلها، وقصيدته في صفة البركة:

ميلوا إلى دار من ليلي نحيبها

واعذاراته في قصائده إلى الفتح التي ليس للعرب بعد اعتذارات النابغة مثلها، وقصيدته في دينار التي وصف فيها ما لم يصفه أحد قبله وهي التي أولها:

ألم تر تغليس الربيع المبكر

وصف حرب المراكب في البحر لكان أشعر الناس في زمانه، فكيف وقد انضاف إلى هذا صفاء مدحه، ورقة تشبيهه في قصائده! فمن اعتذاراته قوله في قصيدته التي أولها:

لوت بالسلام بنانا خضيبا

فقال فيها:

فدينك من أي خطب عرا
وإن كان رأيك قد حال في
يريبني الشيء تأتي به
ونائبة أوشكت أن تنوبا
فلقيتني بعد بشر قطوبا
وأكبر قدرك أن أسترينا

وأكره أن أتمادي على
أكذب نفسي بأن قد جنيت
ولو لم تكن ساخطاً لم أكن
سبيل اغترار فألقى شعوبا
وما كنت أعهد ظني كذوبا
أذم الزمان وأشكو الخطوبا

أيصبح وردِي في ساحتك
وما كان سخطك إلا الفراق
ولو كنتُ أعرف ذنباً لما
سأصبرُ حتى ألاقِي رضاك
طرقاً ومرعياً محلاً جديبا
أفاضِ الدُموعَ وأشجى القلوبا
تخالجني الشكُّ في أن أتوبا
إما بعيداً وإما قريباً
وأنظرُ عطفك حتى يثوبا
أراقبُ رأيك حتى يصحَّ

وقوله:

عذيري من الأيام رنقنٍ مشربي
وأكسبني سخط امرئٍ بتُ موهناً
تبلجُ عن بعض الرضا وانطوى على
إذا قلت يوماً قد تجاوزَ حدّها
وأصيد إن نازعتهُ الطرفَ ردّه
ثناه العدى عني فأصبح معرضاً
وقد كان سهلاً واضحاً فتوَّعرت
أمتخذُ عندي الإساءة محسنً
ومكتسبٌ في الملامة ماجدً
يخوفني من سوءِ رأيك معشرُ
أعيذك أن أخشاك من غيرِ حادث
ألسن الموالي فيك نظم قصائد
أعدُ نظراً فيما تسخطتُ هل ترى
رأيت العراق ناكرتني وأقسمتُ
وكان رجائي أن أووبَ مملكا
حياء فلم يذهب بي الغيُّ مذهباً
ولم اعرف الذنب الذي سوّنتي له
ولو كان ما خبرته أو ظننته
ولقيني نحساً من الطيرِ أشأماً
أرى سخطه ليلاً مع الليل مظلماً
بقية عتب شارفتُ أن تصرماً
تلبث في أعقابها وتلوّماً
كليلاً وإن راجعته القولَ جمجماً
وأوهمه الواشون حتى توهما
رُباه وطلقاً ضاحكاً فتجهما
ومنتقمٌ مني امرئٌ كان منعماً
يرى الحمدَ غنماً والملاحه مغرماً
ولا خوف إلا أن تجورَ وتظلماً
تبيّن أو جرم إليك تقدماً
هي الأنجم اقتادت مع الليل أنجماً
مقالاً دنيئاً أو فعلاً مذمماً
عليّ صروف الدهر أن أنشأماً
فصار رجائي أن أووبَ مسلماً
بعيداً ولم أركبُ من الأمر معظماً
فأقتل نفسي حسرةً وتندماً
لما كان غرواً أن ألومَ وتكرماً

أذكرك العهد الذي ليس سؤوداً
وما حمل الركبان شرقاً ومغرباً
تناسيه والودَّ الصحيحَ المسلما
وأنجدَ في أعلى البلادِ وأتهما
أقرُّ بما لم أجنه متنعلاً
إليك على أنني أخالك ألوما
لي الذنبُ معروفاً وإن كنتَ جاهلاً
به فلك العتبي عليّ وأنعما
ومتلك من أبدي الفعالِ اعادةً
وإن صنعَ المعروف زاد وتمما

ونحن نقول: إن لكل شيء ثمناً وثمان خضوع المعتذر قبوله.

وكتبت: وسيلتي إليك الثقة بكرم أخلاقك، وشرف أعراقك، وقد طلبت المسامحة منك بك، وجعلت كرمك أقوى أسبابي إليك، وقد خفضت لك جناح الذل في التنصل مما فرط، فتفضل علي بالقبول، لئلا يلحقني هجنتان: هجنة تذليلي لك، وأخرى ردك لي. وقد قيل: ارض لطالب الخضوع وللقارف ذنباً مذلة الإعتذار.

وفي هذا المعنى ما كتب بعضهم: لما تعذر علي العذر، جعلت معولي على فضلك أبلغ عذر أقدمه وأقوى سبب أو كده.

وأخبرنا أبو أحمد، عن أبي روق، عن السكري، عن إبراهيم الندي قال: قلت لرجل: ما حملك على بذلك وجهك في حرائج الناس؟ قال: إني لم أسمع شيئاً أحسن من بناء حسن، على رجل أحسن، ومن شكر حر، وشفاعة شفيع لطالب شاكر، ولأني لا أبلغ المجهود، ولا أسأل من لا يجود، وليس صدق العذر عندي بدون إنجاز الوعد، ولا إكداء السائل بأغلظ من الأجحاف بالمسؤول، ولا أرى الراغب إلي بالمسألة بحسن ظنه بي أو جب حقاً علي من المرغوب إليه الذي يتحملة من لدي، والعرب تقول: إن مع الهيبة الخيبة، والفرصة خلسه، فثبت عند صدور الأمور، ولا تتبع اعجازها. وقال ابن المعتز؟ العذر مع التعذر واجب.

ومن أعجب الاعتذار في التقاضي قول بعضهم:

هزرتك لا أني ظننتك ناسياً
لوعد ولا أني أردتُ التقاضيا
ولكن رأيتُ السيفَ في حالِ سله
إلى الهزُّ محتاجاً وإن كان ماضيا

ومن مליح ما يجري في هذا الباب: ما أخبرنا به أبو أحمد، عن ابن دريد، عن أبي حاتم، عن العتي، عن أبيه، عن شيخ من قريش، قال: قال رجل لسليمان بن عبد الملك: إن القدرة تمنع الحفيظة، وأنت تجل عن العقوبة، وإن تعف فأهل ذلك أنت، وإن تعاقب فأهل ذلك أنا، فعفا عنه، فأخذه بعض المحدثين فقال:

فإن عاقبتني فبسوءِ فعلي
وما ظلمتُ عقوبةً مستفيدٍ

دَعوتَ بهِ إلى شکرِ جَدیدِ

وإن تَغفرَ فإِحسانٌ جَدیدٌ

تم الباب والحمد لله وحده.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اللهم عونك، جمع الله شملك، ووصل حبلك، ومعتك بأحبتك، وأعطاك مأمولك. في نفسك وأعزتك، وأعاذك من قطيعة أحبابك، وجنبك تجنب أودائك، ولا جعل للهجر عليك سييلاً، ولا للفراق عليك دليلاً، لينعم باللذة جسمك، ويعمر بالسرور قلبك، فتعيش في ضمان الفرح، ويؤ حاسدك بأعباء الترح، إنه حميد مجيد فعال لما يريد.

العشق، أدام الله توفيقك، من شرائف أخلاق الفتيان، وكرائم سجايا الشبان، يطلق لسان العبي، ويفتق حيلة البليد، ويبعث على السخاء. مما تسمح به نفس الكريم، وينحر دون بذله اللئيم، ويدعو إلى استعمال الفتوة، واظهار المروءة في تنظيف اللباس، وتحسين الرياش، ويجدد حب المساعدة والاتلاف، وكرهه التباين والاختلاف، إلى غير ذلك من محمود الحال، وممدوح الخصال، وإذا رزقت منه نصيباً جزلاً فوفه حقه، واسلك به طريقه، وتأمل ما أهديت إليك فيه فإنه يعينك عليه، ويحسن أسبابه لك، ويكبت لائمه فيه، ويكون جلاءً لناظر، وشحذاً لناظر، إن شاء الله سبحانه وتعالى.

هذا

كتاب المبالغة في

التشبيب وأوصاف الحسان

وما يجري مع ذلك وهو

الباب الرابع من كتاب ديوان المعاني

قالوا: أرق بيت قالته القرب قول امرئ القيس:

وما ذرقت عيناك إلا لتضربي بسهميك في أعشار قلبٍ مقتلٍ

يقول: ما بكيت إلا لتجرحي قلباً معشراً أي مكسراً، يقال برمة اعشار إذا كانت مشعوبة، يريد أن قلبه عليل، وأنت تزيدنه علة بسهميك، يعني عينيها، والمقتل المذلل.
ومثله قول الشاعر:

رمتك ابنة البكري عن فرع ضالة وهن بنا خوصٌ يخلن نعائمًا

و لم نسمع للأعشار بواحد.

وأخبرنا أبو أحمد قال حكى لي عن ابن سلام أنه قال أنسب بيت قالته العرب:

ولما التقى الحيان ألقى العصا
وقالوا: أنسب بيت قالته العرب قول الآخر:
و مات الهوى لما أصيبت مقاتله
إذا قلتُ إني مُشْتَفٍ بِلِقَائِهَا
فحم التلاقي بيننا زادنا سقما
وأبلغ من هذا قول أبي نواس:

ما يرجع الطرفُ عنها حينَ أبصرها
وقد أحسن ابن الرومي ولا أعرف في معناه أبلغ منه:

أعانقها والنفسُ بعدَ مَشْوَقَةٍ
وألثمُ فهاكي تموتُ حزازتي
إليها وهلُ بعدَ العناقِ تداني
والمَ كان مقدارَ الذي بي من الجوى
فيشندُ ما ألقى من الهيجانِ
فإنَّ فؤادي ليس يشفي رسيه
ليشفيه ما ترشفُ الشفتانِ
سوى أن ترى الروحانِ تمتازانِ

ومن البليغ في الاشتياق، وما أنشدنا أبو أحمد، عن الصولي، عن الحسين بن إسماعيل:

هبتُ شمالاً فقالَ من بلد
وقبلَ الريحَ من صبابتهِ
أنتَ به طابَ ذلكَ البلدُ
ما قبلَ الريحَ قبلُ أحدُ

وأبلغ ما قيل في شدة الحب: قول بعضهم، وقد قيل له ما بلغ من حبك فلانة؟ قال إني أرى الشمس على حيطانها أحسن منها على حيطان جيرانها.

وقال نصر بن الحجاج لامرأة: أحبك حباً لو كان فوقك لأظلك، أو كان تحتك لأقلك، أخذه بشار فقال:

إني لأكتم في الحشى حباً لها
ويبيت بينَ جوانحي وجدٌ بها
لو كانَ أصبحَ فوقها لأظلمها
لو باتَ تحتَ فراشها لأقلها

وقلت:

أحبك يا شبيهة الشمس حباً
فلم ألقيتُهُ ما بينَ ماءٍ
تفرّدَ بالتمامِ فلا تمامَ
ونارٍ كانَ بينهما التمامُ

وقال ابن الرومي في اجتماع الأهواء على محبوبه:

سلالة نورٍ ليس يدركها اللمس
به أمست الأهواءُ يجمعها هوى

وقال بشار:

إذا ما بدا أغضى له البدرُ والشمسُ
كأنّ نفوس الناس في حُبهِ نفس

ولست بناسٍ من يكونُ كلامه
ومن ظريف التشبب أيضاً قول ابن المعتز:

بأذني وإن غيّبتُ قرطاً معلقاً

كذبت يا من لحاني من مودتِهِ

ما صورة البدرِ إلا دُونَ صورتهِ

يا ربُّ أن لم يكن في وصله طمَعٌ

ولم يكن فرَجٌ من طول جفوتِهِ

فاشف السقام الذي في لحظ مُقلتهِ

واستر ملاحه خديهِ بلحيتِهِ

ومن الظريف قول كشاجم:

كأنّ الشفاه اللعسَ منها خواتمٌ

مِنَ التبرِ مختومٌ بهنَّ على الدرِّ

ولا أعرف في وصف الفم أحسن من هذا.

وأحسن ما قيل في حث الشوق، من قديم الشعر، قول عمرو بن شأس الأسدي:

إذا نحن أدلجنا وأنت امامنا

كفى لمطايانا بذكرنا حاديا

أليس يزينُ العيسَ خفةَ أذرع

وإن كنّ حسرى ان تكون اماميا

وَأتم من ذلك شرحاً قول الآخر:

إذا علقت خبت وإن هي خليتُ

لترتّع لم ترتّع بأدنى المراتع

كأنّ لديها سائقاً يستحثها

كفى سائقاً بالشوق بين الأضالع

ومن جيد ما قيل في ازدياد الشوق على القرب قول الآخر:

صَبُّ يَحْتُ مطاياهُ بذكركم

وليس ينساكم إن حلّ أو سارا

يرجُو النجاةَ من البلوى بقربكم

والقلبُ يلهبُ في أحشائه نارا

ومن ظرف الأعرابي قوله أنشد المبرد:

وعود قليل الذنب عاودتُ ضربه

إذا عادَ قلبي في معاهدها ذكرُ

وقلتُ له ولقاءٌ ويحك سببتُ

لك الضربَ فاصبر إن عادتك الصبرُ

ونحوه قول الآخر:

قد قطع الاحراجُ أعناقَ الابل

وقول الآخر وقد ألغز:

فهي تسيرُ سيرَ مشتاقٍ عَجِلُ

لم يُدَلِّجَ الليلةَ فيمن أدلجا

إنَّ لها لسائقاً خدلجا

وفي خلاف ذلك يقول العباس بن الأحنف:

كالماء يقتلُ بردهُ عطشَ الصدى

أيامَ يقتلُ شوقها زيارتي

فأما أجود ما قيل في التذكر على البعد فقول بعضهم:

إني وإن كنتُ لا ألقاهُ ألقاه

أذكرُ أخانا تولى اللهُ صحبتَهُ

وكيف يذكره من ليس ينساه

اللهُ يعلمُ أنني لستُ أذكره

وقلت:

ذكرى الشبابِ الذي قد كانَ عاصاني

ذكرتهمُ والنوىَ بيني وبينهمُ

هل يعرضُ الذكرُ إلا بعد نسيان

بل كيفَ أذكرُ عهداً لستُ ناسيةُ

ونحوه يقول السري:

وينامُ عن ليلى وأسهرهُ

غضبان ينساني وأذكرهُ

حظى وحظُّ سواي مثمرهُ

وبجوره ماضار مورقه

ما رُحِتَ أضمره وأظهرهُ

وكفى الهوى لو كانَ مكتفياً

إلا وحظي منه أوفرهُ

لم يقننم في العاشقينَ أسى

وأعوم في دمع أحدرهُ

فأصبح في نفس أصعدهُ

ومن مליح ذلك قول بشار:

بأذني وإن غيبتُ قرطاً معلقاً

ولستُ بناسٍ من يكونُ كلامه

أجود ما قيل في إخفاء الحركة، عند زيارة المعشوق، من الشعر القديم قول امرئ القيس:

سموَّ حبابِ الماءِ حالاً على حالِ

سموت إليها بعدَ ما نامَ أهلها

وأحسن من هذا وأظرف قول وضاح اليمن:

ليلةً لأناه ولا زاجرُ

واسقطُ علينا كسقوطِ الندى

وهذا أبلغ أيضاً، لأن سقوط الندى أخفى من سمو حباب الماء، لأن لسمو حباب الماء صوتاً خفياً، ليس

ذلك لسقوط الندى وهو من أبيات ظريفة أولها:

إِنَّ أَبَانَا رَجُلٌ غَاثُرٌ
قَلْتُ فَإِنِّي وَاثِبٌ ظَافِرٌ
قَلْتُ فَإِنِّي فَوْقَهُ ظَاهِرٌ
قَلْتُ فَسِيفِي مُرْهَفٌ بَاتِرٌ
قَلْتُ فَإِنِّي سَابِحٌ مَاهِرٌ
قَلْتُ بَلَى وَهُوَ لَنَا غَافِرٌ
فَأَتِ إِذَا مَا هَجَعَ السَّامِرُ
لَيْلَةً لَأَنَاهِ وَلَا زَاجِرُ

وَاللَّيْلُ كَالطَّيْلَسَانِ مُعْتَكِرُ
مَنْ عِنْدَ خُودِ كَأَنَّهَا قَمَرُ
يَحَارُ فِيهَا مِنْ حَسَنِهَا النَّظَرُ
وَفِي خَطَايَاهَا إِذَا مَشَتْ قَصَرُ

جُودِي وَلَا يَمْنَعُنكَ الْخَفَرُ
أَنْتِ أَمْرٌ بِالْقَبِيحِ مَشْتَهَرُ
يَنْبِتُ فِي بَطْنِ رَاحَتِي شَعْرُ
وَلَا أَمِيرٌ عَلَيَّ مَوْتَمِرُ
تَحْتَ الظَّلَامِ الْقَضَاءُ وَالْقَدْرُ
وَبِأَشْرِي قَدْ تَطَاوَلَ الْعَسْرُ
تَكَادُ مِنْهُ السَّمَاءُ تَنْفَطِرُ
وَعَشِيَّتُهَا الْهَمُومُ وَالْفَكْرُ
أَنْثَى وَلَكِنْ يِعَاقِبُ الذَّكْرُ
وَقَدْ أَتَتْنَا بِغَيْرِهِ النَّذْرُ

قَالَتْ أَلَا لَا تَلْجُنْ دَارَنَا
أَمَا رَأَيْتَ الْبَابَ مِنْ دُونِنَا
قَالَتْ فَإِنَّ الْقَصَرَ مِنْ دُونِنَا
قَالَتْ فَإِنَّ اللَّيْثَ عَادَ بِهِ
قَالَتْ فَهَذَا الْبَحْرُ مَا بَيْنَنَا
قَالَتْ أَلَيْسَ اللَّهُ مِنْ فَوْقِنَا
قَالَتْ فَأَمَا كُنْتَ أَعْيَيْتَنَا
وَاسْقُطْ عَلَيْنَا كَسْقُوطِ النَّدَى

وَمَنْ مَلِيحٌ مَا جَاءَ فِي هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُ الْمُؤْمَلِ:

وَطَارِقَاتٍ طَرَقْنِي رَسَلًا
فَقَلَنْ جِنْنَا إِلَيْكَ عَنْ ثِقَةٍ
هَلْ لَكَ فِي غَادَةِ مُنْعَمَةٍ
فِي الْجَيِّدِ مِنْهَا طُولٌ إِذَا التَّقْتُ

فَقَمْتُ أَسْعَى إِلَى مُحَجَّجَةٍ مِنْهَا الْبُيُوتُ وَالْحَجْرُ:

فَقَلْتُ لَمَّا بَدَأَ تَخَفَّرُهَا
قَالَتْ تَوَقَّرُ وَدَعِ مَقَالِكَ ذَا
وَاللَّهِ لَا نَلْتَمَسُ مَا تَطَالِبُ أَوْ
لَا أَنْتِ لِي قِيَمٌ فَتَخْبِرُنِي
قَلْتُ وَلَكِنْ ضَيْفٌ أَتَاكَ بِهِ
فَاحْتَسِبِي الْأَجْرَ فِي إِثَالَتِهِ
قَالَتْ فَقَدْ جِئْتَ تَبْتَغِي عَمَلًا
فَقَلْتُ لَمَّا رَأَيْتُهَا حَرَجْتَ
لَا عَاقِبَ اللَّهُ فِي الصَّبَا أَبَدًا
قَالَتْ لَقَدْ جِئْنَا بِمُتَبَدِّعٍ

وازره غير وزرها تزر
لا تحرمنا لذاتنا السور
لا وأبي لا يمسه سقر

قد بين الله في الكتاب فلا
قلت دعي سورة لهجت بها
وجهك وجهه تمت محاسنه

ومثل هذا أصعب ما يرام من الشعر، ولا يكاد يوجد في هذا المعنى أحسن من هاتين المقطوعتين.
ومن أحسن ما عذر به المعشوق في سوء فعله قول كشاجم:

بعوذة من سوء أفعالها

تستدفع الأعين عن حسنها

وهي من أبيات قليلة النظير:

ظالمة في كل أفعالها
يخطر لي ذكر على بالها
عندي وأغراني بإجلالها
بعوذة من سوء أفعالها
أصغت إلى أقوال عدالها
أقبلت الشمس بإقبالها
عن ساقها فاضل سربالها
لا حترقت من نار خلخالها

هل حاكم يعدي على ظبية
دائمة الإعراض عني فما
صغيرة عظمها حبها
تستدفع الأعين عن حسنها
لم أطع العذال فيها وقد
تمضي بليل فإذا أقبلت
قلت وقد أبصرت حاسراً
لو لم يكن من برد ساقها

وقد أحسن في هذا المعنى ولا أظنه سبق إليه.

وقد أحسن ابن الرومي في ذكر الخلخال والساق أيضاً وهو قوله:

كذبين أسماء الخلال

وإذا لبسنا خلخالاً

يقول: لا تخلخل الخلال في سوقهن، أي لا تتحرك فقد كذبت أسماءها، وذلك أن اشتقاقها من التخلخل وهو التحرك.

وفي نحو تقدم قول كشاجم:

قمر يميناه والقدر
ما على الأحباب إذ مزحوا
أننا في النوم نصطح

وكان الشمس نيط بها
صدر إذا مازحته غضباً
وهو لا يدري لنخوته

ثمَّ لا أنسى مقالته

أطفيليُّ ويقترح

ومن أفراد المعاني قول الشاعر:

وإني لأغضي الطرفَ عنها تستراً

ولي نظراً لولا الحياءَ شديداً

ونبتتها قالتُ لقد نلتُ ودّه

وما ضرَّني بخلٌ فكيفَ أجودُ

وقالوا أنسب بيت قالته العرب قول الآخر:

ستبقى لها في مضمِرِ القلبِ والحشا

سريرةٌ ودُّ يومَ تبلى السرائرُ

ومن أجود ما قيل في حسن الحبيب، في عين المحبوب، قول عمرو بن أبي ربيعة:

خرجتُ غداةَ النحرِ أعترضُ الدُمى

فلم أرَ ألقى منك في العينِ والقلبِ

فوالله ما أدري أحسناً رزقته

أم الحبُّ يعمي مثل ما قيل في الحبِّ

وهو من قول النبي صلى الله عليه وسلم: "حُبُّك الشيءَ يُعمي ويصم" وأنشدني أبو أحمد، عن الصولي عن أحمد بن سعيد الشامي، عن الزبير بن بكار، لعمر بن أبي ربيعة:

زعموها سألتُ جاراتِها

وتعرَّتْ يومَ حرِّ تبترد

أكما ينعتني تبصرنني

عمركنَّ الله أم لا يقتصد

فتضاحكنَ وقد قلنَ لها

حسنٌ في كلِّ عين من تودِّ

حسداً حملنهُ من أجلها

وقديماً كان في الناس الحسد

وأنشدنا عنه قال أنشدنا إسحاق لرجل:

حفلتُ بصحراءِ الحجونِ وناقتي

لها بين قاع الأخشين حنينٌ

غموساً لقد فضلت في الحسن بسطة

على الناس أو بي من هواك جنون

وأنكر بعض المحدثين، أن يكون استحسانه لحبيبه لإفراط حبه، أو لجنونه له فيه فقال وأحسن:

حسنٌ والله في عي

ني وفي كلِّ العيونِ

قينةٌ بيضاء كالفضة

سوداء القرونِ

لم يصبها سقمٌ ق

طُّ سوى سقمِ العيونِ

لم أصفها بجمالٍ

لهوى أم لجنونِ

بل لحسنٍ وجمال

قول حقٍّ ويقين

وقد أبدع الآخر في قوله في المعنى الأول:

أنظر بعيني إليه
تصير ملك يديه

يا مَنْ يلوْمُ عليه
فلست تبرحُ حتى
وقد جمع القائل جمعاً حسناً في قوله:

وفي أربع مني حكّت منك أربع

أجود ما قيل في صفة النساء

من الشعر القديم، ما أخبرنا به أبو أحمد قال: قال ابن سلام أحسن ما قيل في صفة النساء:

إذا اجتلاهنّ قيظٌ ليله ومدّ

كأن بيض نعام في ملاحفها

وتشبيه النساء ببيض النعم، تشبيه قديم وهو كثير مشتهر.

قالوا أحسن ما قيل في الوجه، من الشعر القديم قول قيس بن الخطيم:

بدا حاجبٌ منها وضنت بحاجبِ

تبدّت لنا كالشمس تحت قناعها

مأخوذ من قول النمر بن تولب:

بدا حاجبٌ منها وضنت بحاجبِ

فصدّت كأنّ الشمس تحت قناعها

وهو أحسن ما قيل في إعراض المرأة، ونقله قيس إلى موضع آخر وزاد فيه فقال:

ولهوتُ من لهو امرئ مكدوبِ

كان المنى بلقائها فلقيتها

في الحسنِ أو كدنوّها لغروبِ

فرأيتُ مثلَ الشمسِ عند طلوعها

أراد في وقتين يمكن الناظر النظر إلى الشمس فيها. ونحو ذلك قول زهير:

كنت المنورَ ليلة القدرِ

لو كنت من شيء سوى بشر

وفضلها كثير على الشمس فقال وأحسن:

طبن العدوُّ لها فغيّرَ حالها

بأبي وأمي أنت من معشوقة

جعل الآله خدودهنّ نعالها

وسعى إليّ بعيب عزة نسوة

في الحسن عند موقف لقضى لها

ولو أن عزة خاصمتُ شمس الضحى

قوله عند موقف غاية ما يكوم من الإحسان.

ومن أحسن ما قيل في حسن الوجه قول عمر بن أبي ربيعة:

وَجُوءٌ زهاها الحسنُ أن تتنقعا

فلما توافقنا وسلمتُ أقبلتُ

تبالهن بالعرفان لما رأيني
وقلن امرؤ باغٍ أكلٍ وأوضعا
وقربن أسباب الهوى لمتيم
يقيس ذراعا كلما قسن أصبعا
فذكر أنهن لم يتقنعن لحسن وجوههن، أخذه من قول الشماخ:

لها شرقٌ من زغفرانٍ وعنبرٍ
أطارت من الحسن الرداء المحبرا
ثم تصرّف المحدثون في تشبيهه، أي الوجه، بالشمس فقال ابن الرومي:

كالشمس غابت في حمرة الشفق
وزاد أبو النواس فقال في الأمين قبل الخلافة:

تتبه الشمس والقمر المنير
فإن يك أشدها منه قليلا
لأن الشمس تغرب حين تسمي
ونور محمد أبداً تمام
وقد أحسن الآخر وقد جعل في البدر مشاهمة من وجه المرأة فقال:

يا بدر إنك قد كسيت مشابهاً
أراك تمصح في المحاق وحسناها
وقال العباس بن الأحنف:

الت ظلوم وما جارت وما ظلمت
بدر ليس له عينٌ مكحلة
وقال النظام:

مشرقاً ملأ العيو
وفى على شمس الضحى
وزاد الآخر على هؤلاء كلهم فقال:

ذا عتبها شبهتها البدر طالعا
ومن أبلغ ما قيل في حسن الوجه من طريقة أخرى قول أبي نواس:

زيدك وجهه حسنا
إذا ما زدته نظرا

فذكر أن حسنه يزداد على تكرار النظر، والمعهود في كل شيء نقصانه على كثرة التأمل، ولا يكاد الشيء الرائع يروعك إذا اعتدته.
وقريب منه قول كشاجم:

يضاء يحضر طيب العيش ما حضرت وإن نأت عنك غاب اللهو والفرح
كل اللباس عليها معرضٌ حسنٌ وكل ما تتغنى فهو مقترح

والمعارضة تتخير للجواري على حسب ألوانهم، فالبيضاء تبرز في المعرض الأحمر والأسود والأزرق والسوداء في الأصفر، فذكر أن هذه تحسن في كل معرض فهو غاية وقريب من المعنى الأول قول كشاجم أيضاً:

منعمة يقرّبهما هواها وإن نرحت بمنزلها البلاد
يعاد حديثها فيزيد حسناً وقد يستقبح الشيء المعاد
وقال الحماني:

إذا كنت لم أفقد الغائبين وإن غبت كنت فريداً وحيدا
تباعد نفس إذا ما بعدت فليس تعاود حتى تعودا
وهو من قول أبي النواس:

أشبهك الشيء حسناً فما أتمم ذلك حتى تزيدا
وقال بعضهم:

وكلما عدت فيه يكون في العود أحمداً
وأخبرنا أبو أحمد، عن الصولي عن أبي العيلاء، عن الأصمعي، قال: أحسن ما قيل في اللون قول ابن أبي ربيعة:

وهو مكنونة تحير منها في أديم الخدين ماء الشباب
بات يعمي يعالج السهرا وراح نشوان يقسم النظرا
أغيد ماء الشباب يرغد في خديه لولا أديمه قطرا
وقال ابن الأحنف:

وقد ملئت ماء الشباب كأنها قضيب من الريحان ريان أخضر
وقال السري:

ومخطف يهتزُّ عن ماء الصبا

وقلت

كأنما يهتزُّ عن ماء العنب

ووجهٌ تشرب ماء النعيم

فلو عُصِرَ الحسنُ منه انعصر

يمرُّ فأمنحه ناظري

فينشر ورداً عليه الخفر

تمتعت العينُ في حسنه

فما حفلتُ بطلوع القمرِ

وقال ابن المعتز:

يحرِّك الدلَّ في أثوابه غصنا

ويطلعُ الحسنُ من أزراره قمرا

وقال ابن الرومي:

متعاتٌ وجهك في بديهتها

جددٌ وفي أعقابها آخرُ

وقوله:

مخففة مثقلة تراها

كأن لم يغدُ نصفها الغذاءُ

إذا الإغبابُ جدَّدَ حسنَ شيءٍ

من الأشياءِ جدَّدَها اللقاءُ

ومثله قوله:

لا شيءَ إلا وفيه أحسنه

فالعينُ منه إليه تنتقلُ

فوائدُ العينِ منه طارقةٌ

كأنما أخرياتُها الأُولُ

وقد أطرف أبو النواس في قوله:

إنَّ اسمَ حسنٍ لوجهها صفةٌ

ولا أرى ذا لغيرها اجتماعا

فهي إذا سميتُ فقد وصفت

قد يجمع اللفظُ معنيين معا

وقد بالغ ذو الرمة في قوله:

فيا لك من خدِّ أسيلٍ ومنطقٍ

رخيمٍ ومن خلقٍ تعلقَ جادبهُ

إلا أنه ذكر خلقها أجمع، والجادب: العائب، هو يقول: إن الذي يعيبها لا يجد عيباً فهو يتعلل. وهو في خبر حسن: أخبرنا به أبو أحمد عن العبشمي عن المبرد حدثنا عمر بن شبة، حدثني إسحاق بن إبراهيم الموصلي، حدثني أبو صالح الفزاري، قال: ذكر ذو الرمة في مجلس فيه عدة من الأعراب فقال عصمة بن مالك شيخ منهم كان قد بلغ مائة وعشرين سنة: - إياي فاسألوا عنه كان من أطرف بني آدم، خفيف العارضين، حسن الضحك، حلو المنطق، وكان إذا أنشد بربر وحبس صوته، فإذا راجعك لم تسأم حديثه

وكلامه، وكان له أخوة يقولون الشعر: منهم مسعود وحرفاس وهو أوفي، وهشام وكانوا يقولون القصيدة فيزيد فيها الأبيات فيغلب عليها، فجمعني وإياهم مربع فأتاني يوماً وقال لي: يا عصمة إن مياً منقرية وبنو منقر أحبث حي وأقوفه لأثر، وأبصره في نظر، فهل عندك من ناقة نزار عليها مياً فقلت: أي والله إن عندي للجؤذر قال: عليّ بها، فركبناها جميعاً وخرجنا حتى نشرف على بيوت الحي، فاذا هم خلوف، وإذا بيت مية خلوف، فعرف النساء ذا الرمة، فقمنا إلى بيت مي، وجئنا حتى أنحنا وسلمنا وقعدنا نتحدث، وإذا ميّ جارية أملود، واردة الشعر، صفراء فيها عسر، وإذا عليها سب أصفر، وطاق أخضر، فتحدثن ملياً ثم قلن له: أنشدنا يا ذا الرمة فقال: أنشدن يا عصمة فأنشدن قوله:

نظرتُ إلى أظعان ميّ كأنها

ذرى النخل أو أثل تميل ذوائبه

فأوشكت العينان والصدر كاتم

بمغرورقٍ نمت عليه سواكبه

بكى وامق جاء الفراق ولم تجل

جوائها أسرارهُ ومعاتبه

فقالت ظريفة منهن: لكن الآن فليجل، فنظرت إليها ميّ، ثم مضيت في القصيدة إلى قوله:

إذا سرحت من حُبّ ميّ سوارح

عن القلب أتته جميعاً عوازبه

فقالت الظريفة: قتلته قتلك الله، فقلت ميّ: خف عواقب الله يا غيلان، ثم مضيت حتى انتهيت إلى قوله:

وقد حلفت بالله مية ما الذي

أقولُ بها إلا الذي أنا كاذبه

إذا فرماني الله من حيث لا أرى

ولا زال في أرضي عدوُّ أحرابه

فقالت الظريفة للنساء: إن لهذين لشأنا، فقمنا بنا، فقمنا وقمت معهن، فجلست في بيت أراها منه فسمعتها قالت له: كذبت والله، وما أدري ما قال لها وما أكذبت، فلبث قليلاً ثم جاءني ومعه قارورة، فيها دهن وقلائد، فقال: طيب أتخفتنا به ميّ وهذه قلائد للجؤذر، ولا والله لا أقلدهن بغيراً، وشدهن بدؤابة سيفه، ثم انصرفنا فكان يختلف إليها، حتى تقضى الربيع، ودعا الناس الصيف، فأتاني فقال: يا عصمة قد رحلت ميّ ولم يبق إلا الآثار والنظر إلى الديار، فاذهب بنا ننظر في ديارها، ونقفو آثارها، فخرجنا حتى أتينا منزلها فوقف ينظر ثم قال:

إذا راجعتك القول مية أو بدا

لك الوجه منها أو نضا الدرّع سالبه

فيا لك من خدّ أسيل ومنطق

رخيم ومن خلق تغلّ جادبه

قال عصمة: فما ملك عينيه فقلت: مه فانتبه وقال: إني لجلد وإن كان ميّ ما ترى.

قال: فما رأيت أحداً كان أشد منه صباية ولا أحسن عزاءً وصبراً ثم انصرفنا وتفرقنا وكان آخر العهد به.

الم قلبي ناره وما شعر
دبت إليه عقرب وقت السحر
دبت إلى ظبي بعينه حور
دبيب لوطي توارى وانتشر
فظفرت لا ظفرت أي ظفر
وهكذا العقرب للقمر

أحسن ما قيل في العيون

أخبرنا أبو أحمد، أخبرنا أبو بكر بن دريد، عن أبي حاتم، عن الأصمعي، قال: قال أبو عمرو لأصحابه: ما أحسن ما قيل في العيون؟ قال بعضهم قول جرير:

إن العيون التي في طرفها حور
يصر عن ذا اللب حتى لا حراك به
وقال آخر قول ذي الرمة:

وعينان قال الله كونا فكانتا
وقال آخر بل قوله:

يذكرني ميا من الظبي عينه
ومرارة حشو لا يحتاج إليه، فقال أبو عمرو: أحسن من هذا كله قول عدي بن الرقاع:

وكانها بين النساء أعارها
وسنان أقصده النعاس فرتقت
أخذ بعض المحدثين قول جرير:

وهن أضعف خلق الله أركاننا
فقال:

كأنما ازدادت قوى أجفانها
ومثله أيضاً قول الناشئ:

لا شيء أعجب في جفنيه أنهما
وقد أحسن ذو الرمة في قوله:

إذا عرضت بالرمل أو ماء عوهج
لناقلت هذا عين مي وجيدها

ومن التمثيل القليل النظير قول ابن المعتز:

كما لان متنُ السيف والحدُّ قاطعُ

ويجرحُ أحشائي بعينِ مريضة

ومن أحسن ما قيل في النظر قول ابن الرومي:

ثمَّ انتنتُ عنه فكادَ يهيمُ

نظرتُ فأفصدتِ الفؤادَ بسهمها

وقعُ السهامِ ونزعهنَّ أليمُ

ويلاهُ إنْ نظرتُ وإنْ هي أعرضتُ

ومن البديع النادر الغريب في لك قوله بعضهم:

فحفوته وحسن بها المسرة

جعل الفتور بعينه كحلا

وقول الآخر:

يمطرنَ أحشاءَ الكريمِ نبالا

ينظرنَ من خللِ السجوفِ كأنما

ومن أطراف ما سمعناه في هذا المعنى قول محمد بن أبي الموج:

تلك المحاجرُ في المعاجرِ

لله ما صنعتُ بنا

بِ من الخناجرُ في الحناجرِ

أمضى وأنفذُ في القلو

وقلت:

شقائقُ وجنةٍ سقيتُ مُدما

فأرعى تحتَ حاشيةِ الدِّياجي

حسبتُ قلوبنا مطرتُ سهاماً

إذا اكرتُ لواحظُ مقلتيه

سقانا من شمائله سقانا

وإن مالتُ بعطفيه شمولُ

وقال ابن الرومي:

ونصفُ كخوطِ الخيزرانِ مذكرُ

تقسمها نصفان نصفٌ مؤنثُ

وإن سقيتُ ربا من النومِ تسهرُ

عبد من شاءتُ بعينِ كأنها

وقلت:

كالبدرِ بينِ كواكبِ شهبِ

راحتُ تميمسُ وحولها خردُ

ونسيتُ ما يجنى على الصبِّ

فمألتُ طرفي من محاسنها

أصبحتُ آمنها على قلبي

عين تفل السيف لحظتها

وقال ابن المعتز:

حتى الصباحِ موسداً كفية

كم ليلةٍ عانقتُ فيها بدرها

فسكرتُ لا أدري أمن سكر الهوى

وغدا فنمَّ عليه عند رقيبهِ

وسقام عين لم تذق طعم الكرى

وقلت:

أم كأسه أم فيه أم عينيه

أثرٌ من التقبيلِ في شفنيه

يدعو العوائد في الصباح إليه

إذا ما جاءني للأخذِ عني

وقال البحترى:

تشاغلَ طرفهُ بالأخذِ مني

أجد النارَ تستعارُ من النا

وقلت:

رِ وَيَنشأ من سقمِ عينيكِ سُقمي

يسعى إليَّ مقرطقٌ في كفه

وقد أطرف البحترى في قوله:

كأسٌ وبينَ جفونه كاسانِ

والذي صير الملاحه في عي

لا أطعتُ العذولَ فيه وإن أس

فدعا اللوم في التصابي فإني

وقلت:

نيه وقفاً والسحرَ في أجفانه

رف في ظلمه وفي عدوانه

لا أرى في السلو ما تريانه

ومقلة كحميا الكأس مسكرةً

وقلت أيضاً:

وحاجبٍ كهلالِ الشهرِ مقرونُ

ونسقيك في ليلٍ شبيهٍ بفرعها

شبيهاً بعينيها وشكلاً بخدّهما

فتسكرُ من عينٍ وكأسٍ ووجنةٍ

وقالوا أجود ما قيل في الثغر من شعر المتقدمين قول جرير:

تحبيك أعتاب الكؤوس بوردهما

تجري السواك على أغرٍ كأنه

وقالوا بيت النابغة:

بردٌ تحدّرَ من مُتونٍ غمامِ

تجلو بقادمتي حمامةٍ أيكه

كالأقحوان غداة غبّ سمائه

برداً أسفُّ لثاته بالإنمدِ

جفتُ أعاليه وأسفله ندي

شبه الشفتين لرقتهما بقادمي حمامة.

وقالوا بيت بشر بن أبي خازمك

يُفْلَجْنَ الشفاه عن اقحوان

ومن أحسن ما جاء فيذلك قول البحرى:

ولما التقينا والتقى مَرَعْدٌ لنا

فمن برَدٍ تجلوه عند ابتسامها

وهذا أحسن من قول الأول ومنه أخذ البحرى:

إذا هنَّ ساقطنَ الأحاديثَ بالضحى

جلاه غب سارية قطارٍ

تبينَ رامى الدُرِّ منا ولاقطه

ومن لؤلؤ عند الحديثِ تساقطه

سقاط حصى المرجانِ من كفِّ ناظمٍ

أحسن ما قيل في بياض الثغر

قول البحرى أيضاً:

ويرجعُ الليلُ مبييضاً إذا ضحكتُ
عن أبيضِ خضلِ السمطينِ وضاحٍ

فجعله يجلو الظلام لبياضه، وذكر كثيرة الريق، فقال: خضل لأن قلة الريق تورث تغير الفم، وذكر حسن تنضيد الثغر فجعله سمطين. فلا يرى في هذا المعنى أجمع من هذا البيت. وقد أحسن ابن طباطبا:

كالعناب المزردِ

ثغرُهُ عندَ سرده

بين درٍ منضدٍ

مثل دُرٍّ منظمٍ

وقد أحسن البحرى وابلغ في قوله:

دُويشتمهُ جنى التفاحُ

وأرتنا خدّاً يراح له الور

م ويُزري على شتيت الأفاحي

وشتيتاً بغضٌ لؤلؤ النظم

ب وكادت تضيءُ للمصباح

فأضاءت تحت الدُّجينة للشر

ظِ مرضٍ من التصابي صحاح

وأشارت إلى الغناء بألحا

وسكرنا منهناً قبل الرّاح

فطربنا لهنّ قبل المثنائي

باب ما لا يدورُ في الأقداح

وتدير الجفون من عدم الأل

وقلت:

مخضبة الأطراف تحسب أنها أساريع في أفواههن عقيق

دهاني منها نرجس يرشق الحشا وهل نرجس يا للرجال رشوق

ومبتسم عذب المذاقة مونق تجمع فيه لؤلؤ ورحيق

وقلت لبعض البغداديين: ما أحسن ما قيل في طيب النكهة والريق وحسن الثغر؟ فقال قول ابن الرومي:

وقبّلت أفواهاً عذاباً كأنها ينابيع خمر خضبت لؤلؤ البحر

فقلت: إلا أن قوله لؤلؤ البحر فضل لا يحتاج إليه، لأن اللؤلؤ لا يكون إلا في البحر، ولو كان في غير البحر لؤلؤ فليس لنسبته إليه فائدة.

وقد أحسن ابن الرومي في وصف طيب النكهة فقال:

وما تعتربها آفة بشرية من النوم إلا أنها تتختر

كذلك أنفاس الرياض بسحرة تطيب وأنفاس الأنام تغير

هذا التمثيل مليح جداً.

وأجود ما قيل في الريق أيضاً قوله:

يارب ريق بدر الدجى يمجّه بين ثناياكا

يروى ولا ينهك عن شربه والماء يرويك وينهاكا

ولا أعرف لهذا البين نظيراً في معناه. وقد سبق ابن الرومي إلى قوله:

سفتة ابنة العمري من خمر عينها ووجنتها كأساً يमित ويدنف

فقال امزجها بالرؤصاب لعلّه يسكن من خمر الهوى ويخفف

فصدت ملياً ثم جادت بريفة يزيد بها سكر المحب ويضعف

فراح بضعفي سكره من مزاجها وقد يسأل العدل الولاة فيسعف

فهل من مزاج زاد في سكر شارب سوى ريق ذات الخال أم أنت تعرف

وقال:

مزجت خمره عينها بريقتها كيما تكفكف عني من حماها

فاشتد إسكارها إياي إذ مزجت ومزجك الكأس ينهي عنك طغيها

وأخبرنا أبو أحمد عن يحيى، عن الرياشي، قال: قال الأصمعي: أحسن ما قيل في الثغر قول ذي الرمة:

وتجلو بفرع من أراك كأنه من العنبر الهندي والمسك ينفخ

ذُرَى أَقْحَوَانٍ وَاجِهَ اللَّيْلِ وَارْتَقَى

وَقَدْ أَحْسَنَ دِيكَ الْجَنِّ فِي قَوْلِهِ:

وَقَهْوَةٌ كَوَكْبَهَا يُزْهِرُ

وَرَدِيَّةٌ يَحْتَنُّهَا أَحْوَرُ

مَهْفَهْفٌ لَمْ يَبْتَسِمِ ضَاحِكًا

وَقَدْ جَمَعَ كَشَاحِمَ فَأَحْسَنَ فِي قَوْلِهِ:

الْبَدْرُ لَا يَغْنِيكَ عَنْهَا إِذَا

فِي فَمِهَا مَسْكٌ وَمَشْمُولَةٌ

فَالْمَسْكُ لِلنَّكْهَةِ وَالْخَمْرُ لِل

جَمْعٍ ثُمَّ قَسَمَ تَقْسِيمًا صَحِيحًا، وَلَمْ يَتْرِكْ مَزِيدًا. وَمِنَ الْبَارِعِ الْمَشْهُورِ فِي هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُ الصُّنُوبَرِيِّ:

تَلَّكَ التَّنَائِيَا مِنْ عَقْدِهَا نَظْمًا

وَقَالَ غَيْرُهُ وَأَحْسَنَ التَّقْسِيمِ:

وَتَّنَائِيَا وَرَيْقَةً كَغَدِيرِ

قَالَ ابْنُ الْمَعْتَزِ:

مَشْرَبٌ عَذْبٌ مَشَارِعُهُ

وَقَالَ:

قَلْتُ لِلْكَأْسِ وَهُوَ يَكْرَعُ مِنْهَا

وَقَالَ:

يَا سِرُّ إِنْ أَنْكَرْتَنِي فَلَكُمْ

بِأَبِي حَبِيبٍ كُنْتُ أَعْهَدُهُ

عَبَقُ الْكَلَامِ بِمَسْكَةٍ نَفَحَتْ

وَقَدْ أَحْسَنَ أَبُو تَمَّامٍ فِي قَوْلِهِ:

تَعْطِيكَ مَنْطِقَهَا فَتَعْلَمُ أَنَّهُ

وَهُوَ مِنْ قَوْلِ بَشَّارٍ:

إِلَيْهِ النَّدَى غَادِيهِ وَالْمَتْرُوحَ

يَنْفُحُ مِنْ خَدِّهِ الْمَسْكُ وَالْعَنْبَرُ

كَأَنَّهَا مِنْ خَدِّهِ تُعْصَرُ

مَذُكَانَ إِلَّا كَنْبِيذَ الْجَوْهَرِ

غَابَتْ وَتَغْنِيكَ عَنِ الْبَدْرِ

صَرَفٌ وَمَنْظُومٌ مِنَ الدُّرِّ

رَيْقَةً وَاللُّؤْلُؤَ لِلشَّغْرِ

جَمْعٌ ثُمَّ قَسَمَ تَقْسِيمًا صَحِيحًا، وَلَمْ يَتْرِكْ مَزِيدًا. وَمِنَ الْبَارِعِ الْمَشْهُورِ فِي هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُ الصُّنُوبَرِيِّ:

أَمْ نَظَّمَ الْعَقْدُ مِنْ تَّنَائِيَا

وَعَقَارٍ وَرَوْضَةٍ مِنْ أَقْحَاحِ

جَامِدٌ وَفِي خَمْرِهِ بَرْدٌ

ذَقْتُ مِنْهُ وَاللَّهُ أَطْيَبُ مِنْكَ

لَيْلٍ رَأَتْكَ مَعِيَ كَوَاكِبُهُ

لِي وَأَصْلًا فَازُورٌ جَانِبُهُ

مِنْ فِيهِ تَرْضَى مِنْ يُعَاتِبُهُ

يَجْنِي عَذُوبَتَهُ يَمُرُّ بِشَغْرِهَا

يا أطيّبَ الناسَ ريقاً غيرَ مُختَبِرٍ
وقل بشار من قول قيس:

كَأَنَّ عَلَى أَنْيَابِهَا الْخَمْرُ شَجَمًا
وَمَا ذَقْتُهُ إِلَّا بَعِينِي تَفْرُسًا
ومثله قول الآخر:

وتبسم عن ألمى اللثات مفلج
وقال ابن الرومي:

بدالي وميضٌ مؤذِنٌ أَنْ صَوْبَهُ
وَمَا ذَقْتُهُ إِلَّا لِشِيمِ ابْتِسَامِهَا
وقال عمارة بن عقيل:

كَأَنَّ عَلَى أَنْيَابِهَا مَبِيتُ الْكُرَى
تَأْمَلُ عَيْنٌ لَا تَقِيلُ إِذَا ارْتَأَتْ
وقال آخر وأحسن:

بأبي فمٌ شهدَ المحبَ له
كشهادةِ اللهِ خالصةً
وقلت في معنى الأول:

قول لما لاح من خدره
بدره أحسن من وجهه
دمالت الرقّة في شطره
أزره غصت بأردافه
صبحت لا أدري وإن لم يكن
شعره أحسن من وجهه
دره يؤخذ من لفظه
ثغره ينظم من عقده

إلا شهادة أطرافِ المساويكِ

بماء الندى من آخر الليل غابق
كما شيم من أعلى السحابة بارق

خليق الثنايا بالعدوبة والبرد

عريضٌ وما عندي سوى ذاك مخبرٌ
فكم مخبرٌ يبيده للعينِ منظرٌ

وقيعه يردى تهلل في تعب
وقلب وما أنباك أشعر من قلب

قبل المذاق بأنه عذب
قبل العيان بأنه رب

والليلُ يرخي الفضل من ستره
أم وجهه أحسن من بدره
ومالت الغلظة في شطره
ووشحه جالت على خصره
في الأرض شيءٌ أنا لم أدره
أم وجهه أحسن من شعره
أم لفظه يؤخذ من دره
أم عقده ينظم من ثغره

ومن يجيرُ القلب من هجره
عساه يجزيني على قدره

من عذير الصبِّ من صدّه
البيته يعرفُ حُبِّي له

أحسن ما قيل في حديث النساء قول القطامي:

مواقع الماء من ذي الغلة الصادي
وكالدُّر منظوماً إذا لم تكلم
وتملأ عين الناظر المتوسم

هنَّ ينبذن من قولٍ يصبن به
هي الدُّرُ منثوراً إذا ما تكلمتُ
تعبدُ أحرارِ القلوب بدلها

وقد أحسن ابن المعتز غاية الإحسان في قوله:

عليّ وما ألقاك إلا كما أخلو

لعمرك ما أجدى هواك سوى المنى

ثم قال:

جنى النحل لم يمجج حلاوتها النحلُ

وشر أحاديث عذاب لو أنها

الناس كلهم شهبوا حلاوة الحديث بحلاوة العسل، وزاد ابن المعتز هذه الزيادة فأحسن:

لم يجن قتل المسلم المتحرز
ودَّ المحدث أنها لم توجز
للمطمئن وعقلة المستوفز

وحديثها السحرُ الحلال لو أنه
إن طال لم يملل وإن هي أوجزت
شرك القلوب وفتنة ما مثلها

ومن جيد ما قيل في الحديث ومشهوره قول ابن الرومي:

فكأن أطيها خبيث
مثل اسمه أبداً حديث

ولقد سئمت مآربي
إلا الحديث فإنه

وقلت:

بات يرعاه أهل نبلٍ وسرو

وحديث الرجال روضة أنس

ومن جيد ما قيل في الحياء: ما أخبرني به عم أبي، قال: قال أبو العباس، الفضل ابن محمد اليزيدي، قال:
قال المهيثم: قال لنا صالح بن حسان يوماً هل تعرفون بيتاً شريفاً في امرأة خفرة؟ قلنا نعم بيت حاتم إذ
يقول:

إذا هي ليلاً حاولت أن تبسما

يضيءُ بها البيتُ القليلُ خصاصه

قال لم يصف شيئاً، قلنا فبيت الأعشي:

مرُّ السحابةِ لا ريثٌ ولا عجل

كأنَّ مشيتها من بيتِ جارتها

قال قد جعلها خرجت وهذا ضد الحفر، قلنا فهات ما عندك قال: قول أبي قيس بن الأسلت:

وتعتلُّ عن إتيانهنَّ فتعتذرنَّ

ويكرمُها جاراتها فيزرنَّها

أجود ما قيل في العناق قول بكر بن خراجه:

كما تعانقُ لأمَّ الكاتبِ الألفا

إني رأيتك في نومٍ تعانقني

وهذا من المقلوب، لأن الألف تعانق اللام، ويجوز أن يحتج له بأن يقال الألف لا تعانق اللام إلا واللام معانقة لها.

ومن أطرف ما قيل في ذلك قول ابن معتر:

تنفّستُ في ليلها البارِدِ

كأنني عانقتُ ريحانةً

حسبتنا من جسدٍ واحدٍ

فلو ترانا في قميصِ الدُّجى

وقلت في نحو ذلك:

كأننا عقدانِ في نحرٍ

ونحن نظمٌ في الهوى واحدٌ

وقال التنوخي:

وطوالها بالقاصراتِ قصارُ

لله أيامٌ مَصِينٍ قطعنها

والشمسُ لي دونَ الشعارِ شعارُ

أخلو النهارَ على النهارِ وأنتني

والثغرِ سوسنُ والرضابُ عُقارُ

خداهُ ورَدُّ والنواظرُ نرجسُ

دُونِ الإزارِ من العناقِ إزارُ

حتى إذا ما الليلُ أقبلَ ضمنا

وعلى الخدودِ من الخدودِ خمارُ

فعلَى النحورِ من النحورِ قلادةُ

وقد أحسن وطرف إلا أنه أخذ قوله من العناق إزار من قول ابن الرومي:

ح لنا ساقٌ بساقٍ

طالما التفتتُ إلى الصب

وإزارٍ من عناقٍ

في قناعٍ من لثامٍ

وأشده أبو أحمد، عن الصولي: عن أحمد بن سعيد لابن عيد، كأنه الكاتب:

كارتداءِ السيفِ في يومِ الوغى

وكلانا مُرتدِّ صاحبهُ

وشفاهِ مُروياتٍ من ظما

بخدودِ شافياتٍ من جوى

زق أماناتِ القطا زغبَ القطا

نتساقى الريقَ فيما بيننا

أحسن ما قيل في الشعور من الشعر القديم قول الأعشي:

فأفضيت منها إلى جنةٍ تدلت عليّ عناقيدها

ليس لأشعار المتقدمين نظير، وكان بشار يتعجب من حسنه ويقدمه على جميع ما قيل في الشعر.
وقد أحسن القائل:

بيضاء تسحبُ من قيام فرعها وتغيبُ فيه وهو جتلُ أسحمُ

وكأنها فيه نهارٌ ساطعٌ وكأنه ليلٌ عليها مظلم

أخذه بعضهم فقال وأحسن:

نشرت عليّ ذوائباً من شعرها حذرَ الكواشح والعدوَّ المحنق

كأنني وكأنها وكأنه صباحانِ باتا تحت ليلٍ مطبق

وقد أحسن السري القول في سواد الشعر مع أوصاف آخر وهو قوله:

صقولةٌ بسنى الصباح وجوهها مصبوغةٌ بدجى الظلام طرارها

أغصانُ بانٍ أبدعت في حملها فغرائبُ الوردِ الجنيّ ثمارها

طالت ليالي الحبِّ بعد فراقها وأحبهنَّ إلى المحبِّ قصارها

ولرُبَّ ليالاتٍ بهنَّ تفرَّجتُ أسدانها وتأرَّجتُ أسحارها

ما كانَ ذاكَ العيشُ إلا سكرةً رحلتُ لذاذتها وحلَّ خمارها

وقال ديك الجن:

أنظر إلى شمسِ القصورِ وبدرها وإلى خزامها وبهجةِ زهرها

لم يبيلُ عينك أبيضاً في أسودٍ جمعَ الجمالِ كوجهها في شعرها

وقال أبو تمام:

بيضاء تسحبُ شعرها من وجهها في حسنه أو وجهها من شعرها

وقال أبو النواس:

وسالتُ من عقبيصتها سلاسلُ كُسرتُ حلقا

وقال آخر:

سيقربُ منك الردى عنوةً إذا ما نأتُ عنك أحماله

وهل تشجبتك أطلاله
توجع صب وإعواله
وضاق بما فيه خلخاله
ويبدي لك الصبح إقباله
جميل وإن قل إجماله

رشيق مخطف الخصر
وقد قنع بالفجر
ك يا أحسن من بدر
ك طول البين والهجر

ومقلتا هروت بين محاجر
ومصافحاً خلخاله بصفائره
ليصونها من أن تمر بخاطره
أوليته انتعلت بناظره

ينعل أقدامها القرون
وتنتهي فوقها المتون
أفرد المثل والقرين
لا بي حراك ولا سكون

ظلمة الليل فوق ضوء الصباح

فهل أنت باك على أثره
سيكثر من بعد ترحاله
بنفسي الذي قلقت وشحه
يريك الحنادس إداره
مليح الدلال قليل النوال

وقلت:

رخيم فاتر اللحظ
وقد عم بالليل
وما ينفعني حسن
إذا كان نصيبي من

وقال كشاحم:

بالله يا متفرداً في حسنه
ومحكماً أردافه في خصره
ويكاتم الأسرار حتى إنه
لا تغضبن على فتى يرضى بما

أخذ قوله:

ومصافحاً خلخاله بصفائره

من قول أبي النواس:

بانوا وفيهم شمس دجن
تعوم أعجازهن عوماً
غريب شكل بديع حسن
بانوا بروحي فصرت وقفاً

وقال نصر بن أحمد:

سلسل الشعر فوق وجه فحاكى

وقال السري:

قصرت ليلة الخورنق حسناً
إذ وجوه الأنام فيه رياضٌ
وجنات تحير الورد فيها
فضحاه من الذوائب ليلٌ
والليالي الطوال فيه قصارٌ
ومياه السرور في غمارٌ
وثغور جرت عليها العقار
ودُجَاه من الخدود نهار

وقال:

ومالت غصون طوقتها مناطقٌ
ولاحت شمسٌ توجّتها حنادسٌ

وقلت:

وذي غنج يأوي إلى فرعه الدُجى
ففيه ظلام بالصباح معمم
يروق سُليمى منك جعد مسلسلٌ
وفرعك من صبغ الشباب ممسكٌ
ووجهك مثل الروض يغسله الحيا
ولكنها عن وجهه تتقرّجُ
وفه صباح بالظلام متوجّجُ
ويسليك منها أقحوانٌ مفلجُ
وخذك من ماء الجمال مضرّجُ
تمشطه أيدي الرياح فيبهجُ

أبلغ ما قل في صفة الأصدغ والعدار: فمن بديع ما قيل في الصدغ قول ابن المعتز:

له طرة كجناح الغداف
وفي عطفة الصدغ خال له
وكان عقرباً صدغه وقفت
تلوح على غمرة مقمرة
كما استلب الصولجان الكرة
لما دنت من نارٍ وجنته

وقوله:

غلالة خده وردّ جنّي
ونون الصدغ منقوطٌ بخالٍ

وقوله:

وكان دائرة صدغه وعداره
ألفٌ تقوم تحت نونٍ تغطف

وقال ديك الجن:

فقام مختلفاً كالبدرٍ مطلقاً
رقت غلالة خديه فلو رُميا
والخشف ملتفتاً والغصن منقطفاً
باللحظٍ أو بالمنى بأن يكفا

كَأَنَّ لَاماً أُدِيرَتْ فَوْقَ وَجْنَتِهِ

وقلت:

وَاخْتَطَّ كَاتِبُهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلْفَا

إِذَا التَّوَى الصَّدْعُ فَوْقَ وَجْنَتِهِ

وقلت:

رَأَيْتَ تَفَاحَةً بِهَا عَضَّة

الغَيْمُ بَيْنَ مَمْسَكٍ وَمَكْفَرٍ

وَالرَّوْضُ بَيْنَ مَجْدَدٍ وَمَدْبِجٍ

فَإِذَا شَرِبْتَ فَمَنْ رَحِيقٍ سَلْسَلٍ

وَإِذَا رَشَفْتَ فَمَنْ شَتَيْتَ أَفْلَجٍ

مَنْ رِيقٍ أَهَيْفَ كَالْقَضِيبِ مَخْضَرًا

أَوْ كَفَّ أَبْلَجَ كَالصَّبَاحِ الْأَبْلَجِ

فَإِذَا جَلَا لَكَ غُرَّةٌ فِي طَرَّةٍ

أَلْوَى بِقَلْبِكَ أَبْلَجٌ فِي أَدْعَجٍ

فَانظُرْ عِنَاقَ مَمْسَكٍ لِمَكْفَرٍ

يَجْلُوهُ حَسَنُ مَفْلَجٍ وَمَضْرَجٍ

وَإِذَا تَعَانَقَ خَدُّهُ وَعِذَارُهُ

فَانظُرْ عِنَاقَ عِقَاتِقٍ وَبِنَفْسِجٍ

وقال آخر:

عَجِبِي لَخْضِرَةِ زَعْفَرَانَ عِذَارِهِ

وَمِنَ الْعَجَائِبِ زَعْفَرَانٌ أَخْضَرُ

وقال ابن معتز:

مَنْ كَفَّ رِيمٌ تَتْنَى مَنَاطِقَهُ

عَلَى هَضِيمِ الْكُشْحِينِ مَمَشُوقٍ

يُعْطِيكَ مَا شَاءَ مِنْ مَعَانِقَةٍ

مَقْفَلَةٌ مِنْ وَرَاءِ مَعَشُوقٍ

مَسْطَرُ الْخَدِّ بِالْعِدَارِ وَلَا

يَحْسُنُ غِصْنٌ إِلَّا بِتَوْرِيْقٍ

وقلت:

لَهُ وَجْنَتَا وَرَدٍ وَعَيْنَا غَزَالَةٍ

وَعُرَّةٌ إِصْبَاحٍ وَطَّرَةٌ غَيْهَبِ

وَصَدْعٌ يِنَاجِي الْأَذْنَ وَهُوَ مُعْقَرَبٌ

وَطُورًا يِنَاغِي الْخَدَّ غَيْرَ مُعْقَرَبِ

لَهُ مِنْ ظَلَامِ اللَّيْلِ أَحْسَنُ مَلْبَسِ

وَفَوْقَ ضِيَاءِ الصَّبْحِ أَحْسَنُ مَلْعَبِ

وقال الصنوبري:

تَلِكْ طَرَارٌ عَلَيْكَ أَمْ حَلَقٌ

زَانِكٌ صَدَّغَانَ أَمْ هَمَا زَرْدٌ

وقلت:

يَفْتَنُ الْقَلْبَ بِخَدِّ

لَمْ يَدْعُ لِلْوَرْدِ قَدْرًا

ك على الكافورِ سطرًا
وما يعرفُ سحرًا
كما تعقدُ عشرًا
كان لي وجهك فجرًا

مثلما تكتبُ بالمس
وعذار يسحرُ الصبَّ
وبصدغ دارَ في الخدِّ
كلما أظلم ليلى

وقال ابن معتز:

ولكنه قد زاد حُسناً وأضعفا
فما يحسنُ الدينارُ إلا مسيفا

لعمرك ما أزرّت بيوسفَ لحيّةً
فلا تعتذر من حبه في التحائه

وقال في خضرة الشارب:

تكشفَ عن دُرِّ حجابِ زبرجدٍ

تبسمَ إذ مازحتُه فكأنما

وقال بعض المتأخرين وأحسن:

أقلامُ مسكٍ تستمدُّ خلقًا
تحت الزبرجدِ لؤلؤًا وعقيقًا

ومُعذرين كأنَّ نبتَ خُدودهم
قرنوا البنفسجَ بالشقيقِ ونظموا

وقلت:

كالعين في العين أو كالجيم في الجيم

وعانقت حلق من صدغه حلقًا

وقلت وليس من هذا الباب:

وعطفةُ الغصنِ شاربٌ خضرٌ

كأنما النور مضحكٌ يقوق

وقلت:

وترى الغصنَ مثلَ شاربٍ أمردٍ

وترى النورَ مثلَ مضحكٍ خُودٍ

ولعبد الرحمن السيلي رجل من أهل خراسان:

في عارضيه على جهدٍ بها طرقًا

وشادن سائقات الشعر قد سلكتُ

هذا البيت متكلف جداً:

ولت تعودُ فدارت كلها حلقًا

لما رأت أنها قد أخطأت وجنتُ

وهو مأخوذ من قول كشاجم:

أنه جار عليه فوقف

علم الشعر الذي عاجله

فقال هذا وقف وقال عبد الرحمن دارت حلقا الفرق بينهما هذا.
وقلت:

لا والذي دار من صدغيك وانعطفا
ما كنت إذ خنتني إلا أختة
لم أسبق لمعنى البيت الأول: وقلت:
قد التوى صدغه واختطَّ عارضه
وقلت أيضاً ولم أسبق إلى معناه:

ومغنج قال الكمال لوجهه
زعم البنفسج أنه كعداره
أعني الهنة النابتة تحت ورقة البنفسج: وقلت:

بنفسج عارضه ينثني
فيجعل قلبي في كفه
إلى حمرة من وجنتيه
يسيء إليه ويعدو عليه

وقال ابن المعتز:

والصدغ فوق العذار منكسر

وقال:

وصدغه كالصولجان المنكسر

أجود ما قيل في حسن القد، ورقة الخصر، وكبير العجيزة: أخبرنا أبو أحمد، أخبرنا أبي، عن عسل بن
ذكوان، وأخبرنا به أبو علي بن أبي حفص، عن جعفر بن محمد العسكري، عن بعض رجاله قال: قال أبو
عمرو بن العلاء لأصحابه أنشدوني أحسن ما قيل في حسن القد، وعظم العجيزة، فأنشده بعضهم قول
علقمة:

صفر الوشاحين ملء الدرع بهنكة
قال: لم تأت بشيء، فأنشد بيت ذي الرمة:

ترى خلفها نصفاً قناة قويمة

وأنشد بيت الأعشى:

صفر الوشاحين ملء الدرع بهنكة

إذا تمشت يكاد الخصر ينحول

وأنشد بيت ذي الرمة:

عنها الوشاح وتمّ الجسمُ والقصبُ

عزاءٌ ممكورةٌ خمصانةٌ قلقُ

فقال أحسن من هذا كله قول الحارث:

شبعان من أردافها المرطُ

غرثان سمط وشاحها قلقُ

قال أبو هلال أحذه عبد الله بن عبد الله بن طاهر فقال:

والوصف أنواعاً وألواناً

سلمى وما سلمى تفوق المنى

كجائع يحسدُ شبعانا

وشاحها يحسدُ خلخالها

نقله إلى وصف الساق، وأحذه ابن المعتز بلفظه ومعناه فقال:

مشبعات المأزرِ

وظباءٌ غرائرُ

ومن البديع قول أبي نواس:

يظماً من ضمير الحشا ويجاع

وريان من ماء الشباب كأنه

أحذه الآخر فقال:

من ضميره ظماً وجوعاً

ظبيٌّ كأنَّ بخصره

وقلت:

كشمات كافور

وقد نقطن أدقانا

على مثل الزنايرِ

وقد شدت زنايراً

وقد أحسن ابن المعتز حيث يقول:

زناير عكان معاقدها السررُ

وتحت زناير شددن عقودها

وقال مؤمل وأفرط:

تشبه البدر إذ بدا

من رأى مثل حبتي

خل أردافها غدا

تدخل اليوم ثم تد

وأنشد أبو أحمد قال أنشدني أبو بكر بن دريد:

والردف يجذبُ خصره من خلفه

قد قلت لما مرَّ يخطو ماشياً

سلم فؤاد محبه من طرفه

يا من يسلمُ خصره من ردفه

وقد أحسن القائل في وصف لين القوام والترنج:

ممن له حسن الرحيق وطيبه

ومزاج شاربه ومشى نريبه

وقلت:

لا والظباء الأنسات إذا رنتُ

فافتنَّ حسنُ عيونهنَّ فتونا

إنْ لُحْنُ لُحْنٍ كواكباً أو نُحْنُ نَحْ

نَ لَطائماً أو مِلْنِ مِلْنٍ غصونا

ويدرن من مَقْلٍ إِلَيْكَ فواترٍ

يكسينَ قَلْبَكَ بِالْفَتورِ فتونا

ما خنتُ عهدَ هوىِّ عليكِ وقفتهُ

وأخو المروءةِ لا يكونُ خوُّونا

وقبل هذا:

مترجرجُ الأردافِ مضطمرُ الحشا

لذنُ القوامِ يكادُ يعقدُ لينا

دأبَ النعيمُ له فأثمرَ صدرُهُ

ثمراً إذا جلتُ الثمارُ حلينا

يقال حلا الشيء في الفم وحلى في القلب. وكتبت في فصل لي: والله يعلم أني أخدمه بالضمير خدمة، لو تصورت له لرأها الرائي ممتوراً، ووشياً منتوراً، ولؤلؤاً منظوماً ومنتوراً، بل لأبصر أعطاف الفتيان تتثنى تتني الأغصان في قراطق الحبير، ومن زيرات الديقاج والحريير، وقد اطلعت أزرارهم بواهر الأقمار، مطرفة بعقارب الاصداع، وحلق الأطرار، فأقبلوا يسفرون عن غرة الصباح، ويسمون عن حباب الراح، ويمزجون الدلال بخجل، أسأراء فيهم الوصال فإذا حضروا وكلوا الأبصار، وإذا غابوا استوهبوا القلوب والأفكار، فهم الداء والدواء ومنهم السقم والشفاء. ومن الإفراط في ذكر الغيد وهو لين القامة قول ماني:

أتمنى الذي إذا أنا أوماً

تُ إليه بطرفِ عيني عيني تجنى

أهيفُ كالقضيبِ لو أنَّ ريحاً

حرَّكتُ هذبَ ثوبه لتنتني

وأجود ما قيل في النهود وعظم العجيزة قول الأعرابي: بيضاء جعدة لا يمسه الثوب منها، إلا مشاشة كتفيها، وحلمتي ثديها. أخذه الشاعر فقال: أو أخذه الأعرابي من الشاعر:

أبت الروادفُ والثديُّ لقمصِها

مَسَّ البَطونِ وأن تَمسَّ ظهورا

وإذا الرِّياحُ مع العشيِّ تناوحتُ

نَبهنَ حاسِدةً وهجنَ غيورا

وقلت:

تمشي بأردافِ أبينَ قعودها

بينَ النساءِ كما أبينَ قيامها

وقال ابن المعتز في النهود:

خَشِيتُ أَنْ يَسْقُطَ رُمَانُهُ

قَدْ ذَلَّ فِي حُبِّكَ سُلْطَانُهُ

يَا غُصْنًا إِنَّ هَزَّةَ مَشِيئِهِ

إِرْحَمَ مَلِيكًا صَارَ مُسْتَعْبَدًا

وأخبرنا أبو أحمد عن أبي بكر بن دريد، عن العكلي عن ابن خالد، عن الهيثم بن عدي، قال: قعد أعرابي إلى جانب دار إسماعيل بن علي بالكوفة، فخرجت جارية فطفق الأعرابي ينظر إليها، فقال له رجل: ما نظرك إلى شيء غيرك؟ أقبل على شأنك واصبر، والجارية تسمع فقال الأعرابي ربلات تصطك، وغصن يهتز وثندي يخرق إهابه وتقول اصطبر، فضحكت الجارية، وقالت: والله ما مدحني أحد مثل ما مدحتني به. فقال: بأبي أنت وأمي، إن الهوى يظهر جيد القول، وييدي المستتر الكامن، وإنك لما يكنى عنه. الربلات: مجامع الفخذين؟ وقلت:

بَكَرَ اللَّحْظُ يَلْقَطُهُ

يَكَادُ الْمَشْيُ يَسْقُطُهُ

وَشَمْسُ الدُّجْنِ تَغْبِطُهُ

وَحُبُّ الْوَصْلِ يَبْسِطُهُ

أَيَا وَرْدًا عَلَى غُصْنِ

وَرْمَانًا عَلَى فَنَنِ

أَتَى وَالْبَدْرُ يَحْسُدُهُ

وَخَوْفُ النَّاسِ يَقْبِضُهُ

وأحسن ما قيل في الثدي:

وَأَقْبِحَ مِنْ ذَلِكَ أَنْ تَهْجُرِي

وَرُمَانَتَيْنِ عَلَى مَنْبَرِ

بِرَأْسَيْهِمَا نَقَطْنَا عُنْبِرِ

قَبِيحٌ بِمَثَلِكِ أَنْ تَهْجُرِي

أَقَاتَلْتِي بِفَتُورِ الْجَفُونِ

كَحَقِيقِينَ مِنْ لَبِّ كَافُورَةٍ

والناس يستسنون قول مسلم بن الوليد:

وَقَدْ فَاجَأَتْهَا الْعَيْنُ وَالسُّتْرُ وَقَعُ

كَأَيْدِي الْأَسَارِيِّ أَتَقَلَّتْهَا الْجَوَامِعُ

طَلَبْتُ إِلَى صَمِّ الصُّخُورِ

كَيْفَ انْتَسَبْنَ إِلَى الْغُرُورِ

تَجْنِينَ رُمَانَ الصُّدُورِ

فَأَقْسَمْتُ أَنْسَى الدَّاعِيَاتِ إِلَى الصَّبَا

فَغَطَّتْ بِكَفَيْهَا ثَمَارَ نَحُورِهَا

وهو حسن جداً ومثله قول النمرى:

أَعْمِيرُ كَيْفَ بِحَاجَةٍ

لِللَّهِ دَرُّ عِدَاتِكُمْ

وَلَقَدْ تَبَيَّتُ أَنَامِلِي

وقال علي بن الجهم:

شاخصٌ في الصدر غضبان على

يملاً الكفّ ولا يفضلهُ

وقد طرف ابن الرومي في قوله:

قَبِبِ البَطْنِ وَطِيَّ العُكْنِ

وَإِذَا أَثْنَيْتَهُ لَا يَنْتَنِي

صدورٌ فوقهنَّ حِقَاقِ عَاجِ

يَقُولُ القَائِلُونَ إِذَا رَأَوْهَا

وَحَلِيٌّ زَانُهُ حَسَنٌ اتسَاقِ

أَهَذَا الحَلِيِّ مِنْ هَذِي الحِقَاقِ

أجود ما قيل في الخضاب بأنامل المرأة، من قديم الشعر، قول الأسود بن يعفر:

يَسْعَى بِهَا ذُو تَوْمَتَيْنِ مُقْرَطِقٌ

قَتَأَتْ أَنَامِلُهُ مِنَ الفِرْصَادِ

فأخذ المحدثون ذلك، وتصرفوا فيه فمن أحسن ذلك قول أبي نواس:

يَا قَمْرًا أَبْصَرْتُ فِي مَاتَمِ

يَنْدَبُ شَجْوًا بَيْنَ أَتْرَابِ

يَبْكِي فَيَلْقِي الدَّرَّ مِنْ نَرْجِسِ

وَيَلْطَمُ الوَرْدَ بَعْنَابِ

وقال ديك الجن:

وَدَعْتُهَا لِفِرَاقِ فَاشْتَكَّتْ كَبْدِي

وَشَبَكْتَ يَدَهَا مِنْ لَوْعَةِ بِيَدِي

وَحَازَرْتُ أَعْيْنَ الوَاشِيْنَ وَانصَرَفْتُ

تَعْضُ مِنْ غِيظِهَا العَنَابِ بِالبرْدِ

فَكَانَ أَوَّلَ عَهْدِ العَيْنِ يَوْمَ نَأْتُ

بِالدَّمْعِ آخِرُ عَهْدِ القَلْبِ بِالجلْدِ

ومن البديع في هذا المعنى قول الآخر:

قَالُوا الرِّحِيلَ فَاسْرَعَتْ أَطْرَافُهَا

فِي خَدَّهَا وَقَدْ اكْتَسَيْنَ خَضَابَا

فَاخْضَرَ مَوْضِعَ كَفِّهَا فَكَأَنَّمَا

عَرَسَتْ بِأَرْضِ بِنَفْسِجِ عُنَابَا

وقال الناشيء وهو أحسن الواصفين لهذا المعنى:

مِنْ كَفِّ جَارِيَةٍ كَأَنَّ بِنَانَهَا

مِنْ فِضَّةٍ قَدْ طَرَفَتْ عُنَابَا

وَكَأَنَّ يَمَانَهَا إِذَا نَطَقَتْ بِهِ

يَلْقَى عَلَى يَدَيْهَا الشَّمَالِ حِسَابَا

وقال أيضاً:

لَنَا قِينَةٌ تَرْنُو بِنَاطِرَتَيْنِ

بِمَا فِي قُلُوبِ النَّاسِ عَالَمَتَيْنِ

تَخَالُ تَطَارِيفَ الخَضَابِ بِكَفِّهَا

فصِوَصَ عَقِيْقٍ فَوْقَ قَضْبِ لَجِينِ

وقال:

قد نامَ بينهما العتابُ فطابا
فكأنما يتدارسان كتابا

متعاشقان مكاتمان هواهما
يتناقلان اللحظَ من جفنيهما

كفاهما خلس السلام سلابا
وأنامل منها كسينَ خضابا
عنباً وتجنیه له عنابا

وإذا هدّت عينُ الرقيب تخالست
بأنامل منه يلوح مدادها
فكأنما يجني لها من كفه
يذكر أثر المداد بأنامله أثر الخضاب بأناملها.
وقلت:

مثل البنفسج منثوراً على فضة
فنضدته على جمارة غضة

انظر إلى النقش من أطرافها البضة
أوخلتها أخذت أطراف خرمة

ومن غريب ما قيل في نظم حليهن قول النمر بن تولب:

ونظّم كأجوانِ الجرادِ مفصّلُ

كعابٍ عليها لؤلؤٌ وزبرجدُ

قوله كأجوان الجراد غريب بديع، لم يسبق إليه ولا أعرف أحداً أخذه منه. ومن البديع قول الدمشقي:

وأنجمُ الليلِ عليه رعائُ
وشعره في ظلماتٍ ثلاثُ

بدر بدا والشمسُ في كفه
وهو من الليلِ ومن طرفه

أحسن ما قيل في صفة الدمع إذا امتزج بالدم قول أبي الشيص:

وفي كبدي من حرّهن حريق
يُذاب بعيني لؤلؤٌ وعقيق

لهوتُ عن الأحزان إذا أسفر الضحى
مزجتُ دماً بالدمع حتى كأنما

وقول أبي تمام:

والدمعُ يحملُ بعضَ ثقلِ المُغرَمِ
في مثلِ حاشيةِ الرداءِ المعلمِ

نثرتُ فريدَ مدامعٍ لم تُنظَمِ
وصلتُ نجيعاً بالدموعِ فخذها

وقال:

فيا ليت شعري هل تراعونها بعدي
كأنّي حللتُ العقدَ من طرفِ العقدِ

أبيتُ أراعي أنجم الليلِ بعدكم
ودمعٍ نثرتُ ذرّه وعقيقه

ومن أجود ما قيل في بياض الدمع، على الحمرة الخد، ما أنشدناه أبو أحمد عن الصولي:

لو كنت يومَ الوداعِ حاضرنا

لم ترَ إلا الدُموعَ جاريةً

كأنَّ تلكَ الدموعَ قطرُ ندى

ونحوه قول ابن الرومي:

لما دنا البينُ وراح الدلُّ

وخذها من قطره مُخضَلُّ

ومن أجمع بيت قيل قول المحدثين:

فأسبلت لؤلؤاً من نرجسٍ وسقتُ

ليس لهذا البيت نظير.

وقلت:

يبكي فيسقي الدمعُ وجنته

ومن المشهور قول بعضهم وهو حسن:

كأنَّ الدُموعَ على خدِّها

ونحوه ما أنشدناه أبو أحمد في العرق:

يحدر من أرجاءِ صورةِ وجهه

فُرادي ومثني يستبينُ كأنَّهُ

ومثله ما قلت:

أخرجه الحمَّامُ كالفضه

كأنما الماءُ على جسمه

وفي صفة الدمع:

توريدُ دمعي من خديك مختلَسُ

لم يبق لي رمقٌ أشكو هواك به

وأبلغ ما قيل في امتلاء العين من الدمع قول بعض الأعراب أظنه:

فظلتُ كأنِّي من وراء زُجاجةٍ

وقول البحري في معناه:

وهنَّ يطفئنَ لوعةَ الوجدِ

تسقطُ من مقلَّةٍ على خدِّ

يقطرُ من نرجسٍ على وردٍ

ودَعَتْها ودمعُها مُنهلٌ

كأنَّهُ وردٌ عليه طلُّ

وردًا وعضَّتْ على العنَّابِ بالبردِ

كما سقى الطلُّ وردةً غضه

بقيةً طلُّ على جنارِ

من الفم سُح في الجبين وفي الخدِّ

سقيطُ ندى وفي على ورقِ الوردِ

يحسدُ منه بعضه بعضه

طلُّ على سوسنةٍ غضه

وسقم جسمي من عينيك مُسترقُ

وإنما يتشكى من به رمقُ

إلى الدار من فرطِ الصَّبابَةِ أنظرُ

وقد يستحسن السيفُ الصقيلُ
يعالج دمعها طرفٌ قليلُ
تعلق لا يعيُضُ ولا يسيلُ

ويحسنُ دلُّها والموتُ فيهِ
وقفنا والعيونُ مُشغلاتُ
نهتهُ رقبَةُ الواشينَ حتى

قوله يحسن دلها والموت فيه أحسن ما قيل في الدلال.

ومن أعجب ما قيل في الدمع، قول بعضهم، ونسب إلى السري، ولا أظنه له:

فجدَّدَ بعدَ اليأسِ في الوصلِ مطمعي
وأظهرَ للعذَّالِ ما بينَ أضلعي

بنفسي من ردِّ التحيةِ ضاحكاً
إذا ما بدا أبدى الغرامُ سرائري

كأنَّ دُموعَ العينِ تعشقهُ معي

وحالتُ دُموعُ العينِ بيني وبينه

وهذا معنى ظريف حسن جداً.

ومن حسن الاستعارة في صفة الدمع ما أنشدناه أبو أحمد عن الصولي:

وعنانُ سرِّي في يدِ الكتمانِ
رقاتُ دموعي خشيةُ الإعلانِ

قد كانَ في طولِ البكا لي راحةً
حتى إذا الإعلانُ نبهَ وأشياً

ومن البديع في ذلك قول بشار وهو مشهور:

فهل سمعتم بماءٍ فاض من نارِ

ماءُ الصبايةِ نارُ الشوقِ تحذره

وقلت:

حتى علقنَ بجفنِ ردها الغرقُ
وفي الجفونِ مقيلٌ للكرى قلق
والعودُ يقطرُ ماءً حيثَ يحترقُ

أشكو الهوى بدموعِ قادهما قلق
ففي فؤادي سبلٌ للأسى جدُّ
لهيبُ قلبي أفاضَ الدَّمعَ من بصري

ولا أظني سبقت إلى هذا التمثيل.

وقال ابن المعتز:

وتنتثرُ دمعاً لا يباعُ بأثمانِ

ولطمةُ خدِّ تجعلُ الورْدَ خرماً

ونظير المصراع الأول قول صاحب مصر:

وصبا وإن كانَ التصابي أجدر

والله لولا أن يُقالَ تغيرا

لثمي وكافورَ الترائبِ عنبرا

لأعادَ تفاحَ الخدودِ بنفسجاً

وأخبرنا أبو أحمد عن الصولي، قال: أنشد الحسن بن رجاء عن المبرد، يوماً بيت ذي الرمة:

لعلَّ اندحارَ الدَّمعِ يُعقبُ راحةً من الوجدِ أو يشفي نجيَّ البلابلِ

وقال له من قال في مثله؟ فقال قد ملح الحسن بن وهب في قوله:

إبكِ فما أكثرُ نفعِ البكا والحبُّ إشفاقٌ وتعليلُ

إفزعِ إليه في ازدحامِ الجوى ففيه مسلاةٌ وتسهيلُ

وهو إذا أنتَ تأملتَهُ حزنٌ على الخدينِ محلولُ

وقد ملح العباس بن الأحنف:

إني لأجدُ حبكم وأسرهُ والدَّمعُ معترفٌ به لم يجحد

والدَّمعُ يشهدُ أنني لك عاشقٌ والناسُ قد علموا وإن لم يشهد

وقال:

طال عهدي بها فلما رأته نظمت لؤلؤاً على تفاح

وقد أحسن الآخر في قوله:

إذا لا جوابَ لمفحمٍ متحير إلا الدُّموعُ تصانُ بالأطرافِ

قوله تصان بالأطراف عبارة صحيحة جيدة.

وقال آخر:

تقول غداةً البين عندَ وداعها لك الكبدِ الحرَّى فسرِ ولك الصبرُ

وقد سبقتها عبرةٌ فدموعُها على خدِّها بيضٌ وفي نحرِها حمرُ

معناه إذا انحدرت إلى نحرها، إنصبغت بلون الطيب والزعفران بها. ومن غريب المعنى قول الآخر:

غدَتُ بأحبتني كوم المطايا فبانَ النومُ وامتنعَ القرارُ

وكان الدَّمعُ لي ذخرًا معدًّا فأنفقتُ الذَّخيرةَ يومَ ساروا

أجود ما قيل في طيب عرف المرأة: جميع ما مر بي من الشعر في هذا الفن متقارب في المعنى، لا يفضل بعضه بعضاً إلا في القليل، ومنه ما هو جيد المعنى حلو المعرض، فتركته لأن الشرط قد تقدم بإيراد الجيد لفظاً، ومعنى، ورسفاً، وذلك قليل ليس يقع إلا بعد التصفح الطويل والتعب الكثير: فمن أجود ما قيل في ذلك من قديم الشعر قول الأعشى:

ما روضةٌ من رياضِ الحزنِ معشبةٌ خضراءَ جاد عليها مسبلٌ هطلُ

مؤزَّرُ بعميمِ النَّبْتِ مَكْتَهُ
ولا بأحسنَ منها إذ دنا الأصلُ

يضاحك الشمسَ منها كوكبُ شرقُ
يوماً بأطيبَ منها نشرَ رائحةٍ

وقول القطامي وهو جيد النظم متضمن لماء الطلاوة:

له أرْجُ من طيبِ النَّبْتِ عازبُ
من الليلِ وسنى جانباً بعد جانبِ

وما ريحُ قاعِ ذي خزامى وحنوةٍ
بأطيبَ من مِيٍّ إذا ما تقلبتُ

إلا أنه جاء بالمعنى في بيتين: ومما هو مضطرب الرصف جيد المعنى قول ابن الطثرية:

من طيبها عبقا يطيبُ ويكثرُ

خودٌ يكون بها القليلُ يمسهُ

هذا البيت على غاية اضطراب الرصف:

إنَّ القبيحةَ جلدُها لا يشكرُ

شكر الكرامة جلدُها فصفا لها

قوله شكر الكرامة جلدُها في غاية من الحسن، أخذه ابن الرومي فقال:

إذا أساءتْ جوارَ العطرِ أبدانُ

ألوفُ عطرٍ تذكي وهي ذاكيةٌ

ويشمسُ الليلِ منها فهو ضحيانُ

يغيمُ كلُّ نهارٍ من مجامرِها

شمسُ عليها ضباباتٌ وأدخان

كأنها وعثانُ المدِّ يشملُها

وأخذ ابن المعتز قول القطامي ببعض لفظه، إلا أنه زاد زيادة حسنة، وجاء بألفاظ بديعة وهو قوله:

وروضٌ من الرِّيحانِ سَحَّتْ سحائبُهُ

وما ريحُ قاعِ زاهرٍ مستِ الندى

كما جرَّ من ذيلِ الغلالةِ ساحبه

فجاء سُحيراً بين يومٍ وليلةٍ

إذا الليلُ أدجى دابرَ كتائبهِ

بأطيبَ من أثوابِ شمرٍ موهبا

تضوَّعَ مسكاً أين مالتِ جوانبُهُ

إذا رغبتُ عن جانبٍ من فراشِها

وقد طرف ابن الأحنف في قوله:

وبالرَّاحِ لما قابلتِ أوجهَ الشربِ

ذكرتُك بالرِّيحانِ لما شمتُهُ

وبالرَّاحِ طعماً من مقبلكِ العذبِ

تذكرتِ بالرِّيحانِ منكِ روائحاً

وأنشدني أبو أحمد عن الصولي قال أنشدني عبيد الله بن عبد الله لنفسه:

مكانك عيني لا خلا منك خاليا

تطيرتُ أيامَ اجتنابك أن ترى

يذكرني منك الذي لستُ ناسيا

فأسكنتُهُ نوراً كرىك طيبةً

وقد أحسن وحسنه قليل.

وقيل لأعرابي أية رائحة أطيّب؟ قال رائحة بدن تحبه إو ولد تربه فقال ابن الرومي:

ريحه ريح طيب الأولاد

وقلت:

والليل يقضي نحبهُ

يمرُّ بي وفدُ الصبا

ذرَّ عليه عشبهُ

مرَّ بروضِ زاهرٍ

نشوةً من أحبه

فخلتُهُ من طيبه

ومن البليغ قول سحيم:

إلى الحولِ حتى أنهجَ البردُ باليا

فما زال بُردي طيباً من ثيابها

وأبلغ من ذلك وصفهم طيب المواضع التي وطنها الحبيب، وأول من قال ذلك النميري:

به زينبُ في نسوةٍ خفرات

تضوع مسكاً بطنُ نعمانٍ إذ مشتُ

ومن أحسنه وأرشقه قول جميل:

عفا وخلا من بعد ما كان لا يخلو

ألا أيها الربع الذي غيرَ البلا

به المسكُ إذ جرَّتْ به ذيلها جملُ

تداعبَ ريحُ المسكِ فيه وإنما

وقوله:

إليّ وأوطاني بلادٌ سواهما

وأنت الذي حببتِ شغباً إلى بدا

بهذي قطابَ الواديانِ كلاهما

حللت بهذي مرّةً ثم مرّة

وقال الآخر:

لها حججٌ يزداد طيباً تراؤها

أرى كلَّ أرضٍ يممتهَا وإن مضت

وقد طرف ابن الأحنف في قوله:

لّة قد أوسعَ المشاربَ طيبا

وجدَ الناسُ ساطعَ المسكِ من دج

رُون أنْ قد حللتَ منها قريبا

فهمُ ينكرونَ ذاك وما يد

وقال البحترى:

وجرسُ الحلّي عليها رقبيا

فكان العبيرُ بها وأشياً

وقلت:

وبدراً منيراً وغصناً رطيباً
يبببب سناء عليها رقيباً
قضيياً تفرع منه كثيباً
يقبلن للهجر طرفاً مريباً
كواكب شيب تهاوت غروباً
وغزلان رمل قلبن القلوباً
جمالاً بديعاً وشكلاً غريباً
وخلفن فيه جمالاً وطيباً

والطيب فيها المسك والعنبر
والحلي فيها الدر والجوهر

وجدت بها طيباً وإن لم تطيب

وقالت وهل يحتاج عطر إلى عطر

ومن رياه ريحان

وكأن معهداً حلوم
ني رهطه الرجل العريم
برد الضحى إلا النسيم

لقلت بنفسى النشاء الصغار

تأملت منها غزالاً ريبياً
جلت لك عن خضل واضح
وهزت لنا بسراة الكثيب
عشية راحت وأترابها
كواكب ليل إذا ما رأت
وأقمار روض قمرن العقول
إذا زدتها نظراً زدنتي
رحلن العشية من ذي الغضا

وقد أحسن القائل في قوله:

جارية أطيب من طيبها
ووجهها أحسن من حليها

ولو قيل: إن هذا أحسن ما قاله محدث في ذلك لم يكن بعيداً.
ومما هو غاية قول امرئ القيس:

ألم تر أني كلما جئت طارقاً

وقد طرف القائل:

أتاها بعطر أهلها فتصاحكت

وقد أجاد البحتري:

لنا من ريقه راح

وأنشدنا أبو أحمد في طيب الريح، إلا أنه وصف رجل:

سقياً لأيام مضت

أيام يفني لي ويف

إذ لا دليل علي في

أحود ما قيل في حب الصغار من شعر المتقدمين قول نصيب.

ولولا أن يقال صبا نصيب

بروحي كل مهضوم حشاها

إذا ما الذلُّ ضاعفن الحشايا

ومن مليح ذلك قول عوف بن محلم:

وصغيرةٍ علقُتها

كالبدرِ إلا أنها

إذا ظلمت فليس لها انتصارُ

كفاها أن يُلاثَ لها الإزارُ

كانت من الفتنِ الكبارِ

تبقى على ضوءِ النهارِ

وأنشدني أبو أحمد عن الصولي قال أنشدني عبد الله بن الحسن وقد ملح وطرف:

جاريةٌ أذهلها اللعِبُ

شكوتُ ما ألقاه من حبِّها

عما يقاسي الهائمُ الصبُّ

فأقبلتُ تسألُ ما الحبُّ

ومن مليح ذلك ما روي أن عبد الملك بن مروان عرضت عليه جارية فقال لها أبكر أنت أم ثيب؟ فقالت بل ثيب، فأنشد عبد الملك:

قالوا عشقت صغيرةً فأجبتهم

كم بين حبةٍ لؤلؤٍ متقوبةٍ

خيرُ المطي لديٍّ ما لم يركبُ

لبستُ وحبّةٍ لؤلؤٍ لم تنقبُ

فقال الجارية:

إن المطايا لا يلذُّ ركوبُها

الحبُّ أملكُ للفؤادِ بقهره

ما لم تذلَّ بالزمام وتركبُ

من أن يرى للسرِّ فيه نصيبُ

قد أحسنا جميعاً، إلا أن وجه الكلام أن يقال ينقب ويؤلف في النظام أصدق ما قيل في صفة الحب قول العباس بن الأحنف:

من كان يزعم أن يداري في الهوى

الحبُّ أملكُ للفؤادِ بقهره

حتى يشكك فيه فهو كذوبُ

من أن يرى للسرِّ فيه نصيبُ

وقلت:

آفةُ السرِّ من جفو

كيف يخفى مع الدمو

ما رأينا أخوا هوى

إن نيرانَ حبه

نِ دوامِ دوامِ

عِ الهوامي الهوامِ

سرُّه غير ذائع

باديات الطوالع

من أظرف ما قيل في ذكر الشركة في الهوى ما أنشدني أبو أحمد:

ما لي جفيتُ وكنْتُ لا أُجفَى

وعلامَةُ الهجرانِ لا تخفى

وأراك تمزجني وتشربني

ولقد عهدتُك شاري صرِفاً

وقد أحسن العباس بن الأحنف في هذا المعنى وهو قوله:

يا فور لم أهرجكمُ لملالةٍ

مني ولا لمقالٍ واشٍ حاسدٍ

لكنني جربتكمُ فوجدتكمُ

لا تصبرونَ على طعامٍ واحدٍ

وقد جاء أبو نواس بهذا المعنى إلا أن قول العباس أطبع، قال أبو نواس:

أتيتُ فؤادها أشكو إليه

فلم أخلص إليه من الزحامِ

فيا منَ ليس يكفيها مُحبُّ

ولا ألفا محبِّ كلِّ عامٍ

أظنك من بقيةِ قومِ موسى

فهمُ لا يصبرونَ على طعامٍ

ومما سبق به العباس الشعراء كلهم قوله:

أحرم منكم بما أقولُ وقد

نال به العاشقونَ من عشقوا

صرتُ كأني ذبالةٌ نصبتُ

تضييءُ للناسِ وهي تحترقُ

وأول من ذكر هذا المعنى صاحب كليلة ودمنة وإلى معنى قول البيت الأول يومىء قول البحري:

قصائد ما تتفكُّ فيها غرائبُ

تألق في أضعافها وبدائعُ

مكرمةُ الأنسابِ فيها وسائلُ

إلى غير من يحبى بها وذرائعُ

ومما سبقت إليه من المعاني ما قلته:

رُفِعَ السترُ فانتتى غصنُ بانٍ

يتجلى الهلالُ في معناه

ليس لي أن أنالَ ما أتمنى

من جنى وصله اللذيذِ جناه

فلو أني كمنت في بعضِ شعري

فإذا ما شداه قبلت فاه

ومن أبلغ ما قيل في بخل المعشوق من قدسم الشعر ما أنشدناه أبو أحمد عن أبي بكر بن دريد عن عبد

الرحمن عن عمه:

وما نطفةٌ كانت سلالةً بارقٍ

نمت على طريق الناسِ ثم استظلتُ

بأطيبَ من أثيابِ نلثم بعدما

حدا الليلُ أعقابُ النجومِ فولتُ

وقد بخلت حتى لو أني سألتها
قذى العين من ضاحي التراب لضنت
ومن أحسن ما قيل في وقوف النظر على المعشوق قول بعضهم قيد الحسن عليه، وهو من قول امرئ
القيس قيد الأوابد وقد أحسن الآخر في قوله:

ظبي له من قلوب الناس نابتة
من المودة تجني أطيب الثمر
إذا بدا رمت الأبصار وجنته
معاً فلم تختلف عينان في نظر
ونحوه قول المتنبي:

وخصر تثبت الأبصار فيه
كأن عليه من حدق نطاقا
ومن أجود ما قيل في كمال الحسن ما أنشدناه أبو أحمد:

كل شيء من محاسنها
كامن في حسنه مثلاً
ليس فيها ما يقال له
كملت لو أن ذا كملاً
وقال أبو نواس:

لو مني الحسن ما تعداها
أخذه أبو تمام فقال:

معتدل لم يعتدل عدله
في عاشق طال به خيله
أظرفه أحسن أم طرفه
وحسنه أكمل أم عقله
انظر فما عاينت في غيره
من حسن فهو له كله
لو قيل للحسن تمنى المنى
إذا تمنى أنه مثله
أي خصال حازها سيدي
لو لم يكدر صفوها مظه
وقال أبو نواس:

تمت وتم الحسن في وجهها
فكل شيء ما خلاها محال
للناس في الشهر هلال ولي
من وجهها كل صباح هلال
وقال:

متتائه بجماله صلف
لا يُستطاع كلامه تبها
لو كانت الأشياء تعرفه
أجللنه إجلال باريها

لو تستطيع الأرض لأجتمعت

حتى يكون جميعه فيها

وقال:

ألاحظُ حسنَ وجنته

فتجرحني وأجرحها

وقال غيره:

شكوتُ إلى شبيبك إذ تجلى

هواك فلم يُزلْ شكوى الحزينِ

وكانَ كأنَّ إشرافاً وحسناً

وقلةَ رحمةٍ للمستكينِ

أحسن ما قيل في إعراض الحبيب قول النمر بن تولب:

فَصَدَّتْ كَأَنَّ الشَّمْسَ تَحْتَ قَنَاعِهَا

بدا حاجبٌ منها وضنتُ بحاجبِ

وقد مر قبل.

ومن ظريف ما جاء في ذلك قول ابن الرومي:

ما ساءني إعراضه

عني ولكن سررتني

سالفناه عوضاً

عن كل شيءٍ حسنٍ

وقال الآخر وأحسن:

صدَّ عني محمدُ بنُ سعيدٍ

أحسن العالمينَ ثاني جيدٍ

صدَّ عني من غير جرمٍ إليه

ليسَ إلا لحسنه في الصدودِ

والفرد الذي لا شبيه له، في كثرة اعتلال المعشوق على العاشق، وكثرة تجنيه عليه قول بعضهم:

شكوت ففالت كل هذا تبرما

بحبي أراح الله قلبك من حبي

فلما كتمتُ الحبَّ قالت لشد ما

صبرتَ وما هذا بفعل الشجي الصبِّ

وأدنو فنقصيني فأبعد طالباً

رضاهما فتعتدُّ التباعدَ من ذنبي

فشكواي تؤذيها وصبري يسوؤها

وتجزع من بعدي وتنفرُ من قربي

وقريب منه قول مسلم:

ويخطيء عذري وجه جرمي عندها

فأجني إليها الذنبَ من حيث لا أدري

إذا أذنبتُ أعددتُ عذراً لذنبيها

فإن سخطتُ كان اعتذاري من العذر

بذكرك ماتَ اليأسُ في حضرةِ المنى

وإن كنتُ لم أذكرك إلا على ذكرٍ

وقد أصاب صفة العاشق.

وقلت:

وصبوة قلب ما ترى الوصل شافيا
فصرت أرى للخلّ ما لا يرى ليا
وأرحم ظلّاماً وأذكرُ ناسيا
جفاني وسماني إذا غبتُ جافيا
ولستُ كمنْ يدنو فينأى تناسيا
إليه وإمساكي عليه وداديا

صبابة نفس لا ترى الهجرَ حاليا
نزلتُ على حكم الصّبابة والهوى
ولولا الهوى ما كنتُ أملُ باخلا
ومن شأنه أني إذا ما ذكرتهُ
على أنني أنأى فأدنو تذكراً
ويعجبني حُبّي له وصبابتي

ولو خالني أنساه لم يكُ نائيا
فيأمن سلواني ويرجو غراميا

قلو ظنني أسلوهُ لم يكُ هاجراً
ولكنّ عشقي في ضمان جفونه

ومن أصاب وصف العاشق الصادق العشق على حقيقته الذي يقول:

أسفتُ فلا للقرب أسلو ولا البعدِ
وإن بخلتُ بالوعدِ متُ على الوعدِ
وحبك ما فيه سوى محكم الجهدِ

إذا قَربتُ دارٌ كلفتُ وإن نأتُ
وإن وَعَدتُ زادَ الهوى لانتظارها
ففي لكّ حال لا محالة فرحةً

ومثله قول الآخر:

وإن وِجدَ الهوى حلوَ المذاقِ
مخافةً فرقةً أو لاشتياق
ويبكي إن دَنوا خوفَ الفراقِ
وتبرد عينهُ عندَ التلاقي

وما في الأرض أشقى من محبٍّ
تراه باكياً في كلِّ حين
فيبكي إن نأوا شوقاً إليهم
فتسخن عينهُ عندَ التناي

ووصفه الهوى بالحلاوة مع هذه الصفات وصف بديع غريب.

ومثله قول ابن الأحنف:

لصحة علمي أن سيتبعه عتبُ
فأسألها مرضاتها ولها الذنبُ
وعطفكمُ صدٌّ وسلمكمُ حربُ

إذا رضيتُ لم يهني ذلك الرضا
وأبكي إذا ما أذنبتُ خوفَ عتبها
وصالكمُ صرماً وحبكمُ قلى

ومثل البيت الأول قول سعيد بن حميد ويروي الفضل الشاعرة:

ما كنتُ أيامَ كنتُ راضيةً
عني بذاك الرضا بمغتبطِ
علماً بأنَّ الرضا سيتبعه
منك التجني وكثرة السخطِ
فكلُّ ما ساءني فعن خلقِ
منك وما سرَّني فعن غلطِ

ومن البديع في طلب نيل المعشوق قول الآخر:

عدينا موعداً ثم اجحدينا
فكم من مبطل حقاً بجحدِ
وإلا فابذلي من غيرِ وعدِ
فقد تكف السماءُ بغيرِ رعدِ

وقلت في نحو ذلك:

تسيء على بعد الديار تنائياً
وخلفك عند القرب من عصب البعدِ
كثير سروري في قليل وفائه
وعند ابتسام البرق قهقهة الرعدِ

ومن أبلغ ما قيل في الرضا عن المعشوق بالقليل قول جميل:

أقلبُ طرفي في السماء لعله
يوافق طرفي طرفها حين تنظرُ

ومثله قول ابن المعلوط:

أليس الليل يلبس أمَّ عمرو
وإيانا فذاك لنا تدان
بلى وأرى السماء كما تراها
ويعلوها النهار كما علاني

وأنشدني أبو أحمد عن ابن الأنباري لجميل:

وإني لأرضى من بثينة بالذي
لو استيقن الواشي لقرت بلابله
بلا وبالا استطيع تنقضي
وبالأمل المكذوب قد خاب آمله

وبالنظرة العجلى وبالحول تنقضي

وكان جميل يصدق في حبه وكثير يكذب.

ومن رديء هذا الباب قول بعضهم:

وما نلت منها محرماً غير أنني

إذا هي بالت بُلْتُ حيث تبولُ

وعفة هذا كعفة المتني في قوله:

إني على شغفي بما في خمرها
لأعفُ عما في سراويلاتها

سمعت بعض الشيوخ يقول من الفجور ما هو أحسن من هذه العفة إذ عبر عنها بهذا اللفظ.
وأخبرنا أبو أحمد، أخبرنا الجوهري، عن عمر بن شبة، قال: حدثني أبو يحيى الزهري عن رجل ذكره قال:
قيل لكثير ما أنسب بيت قالته العرب؟ قال: الناس يقولون:

تمتُّ لي ليلي بكلِّ سبيلٍ

أريدُ لأنسى ذكرَها فكأنما

وأنسب عندي منه:

لديها ورياها الطبيب الموافقُ

وقلُّ أمِّ عمروٍ داؤه ودواؤه

وهذا البيت جيد المعنى رديء الرصف.

وأبلغ ما قيل في شدة الحب ما أنشدناه قدامة:

إذا سمعتُ منه بشكوى ترأسله

يوذُّ بأنَّ يمسي سقيماً لعلها

لتحمدَ يوماً عندَ سلمى شمائله

ويهتزُّ للمعروف في طلب العلى

وقلت في معناه:

فأحببتُ لو أني غدوتُ مريضاً

وقلتُ عساها إن مرضتُ تعودني

ليصبحَ جاهي عندهنَّ عريضاً

وزدتُ اتساعاً في المكارم والعلأ

ومن الشعر المختار في النسب قول أبي المطاع:

ولحظُ عينيه أمضى من مضاربه

أفدى الذي زرته والسيفُ يخفرني

حتى لبستُ نجاداً من ذوائبه

فما خلعت نجاداً في العناقِ لهُ

من كان في الحبِّ أشقانا لصاحبه

فباتَ أنعمنا بالاً بصاحبه

وقلت في معنى البيت الآخر:

تكونُ المسرَّةُ عندَ الحضورِ

بقدرِ الصبابةِ عندَ المغيبِ

إذا هو صادفَ حرَّ الصدورِ

وأطيب ما كان بردُ الثغورِ

ومن المختار في صفة العذار:

ولمَّ أعلمُ بأنَّ الشعرَ حيني

وقلت الشعرُ يسليني هواهُ

سوادَ عذاره بسودا عيني

فظلتُ لشقوتي أفدى وأمي

ومن أعجب ما قيل في التهالك في الحب ونهاية التقرب إلى المعشوق قول ديك الجن:

ما تصنعُ الشمسُ لهُ فياً

بانوا فصارَ الجسمُ من بعدهم

إذا رأوني بعدهم حيًا

بأي وجه ألتقاهم

ومن أبدع ما قيل في عدم السلو قول ابن الرومي:

أشدكما مطالاً فإني لا أدري

أسماء أي الواعدين ترينه

أن النفس بالسلوانِ عنك وبالصبر

أأنت بنيلٍ منك يبردُ غلتي

لم يقل في بعد الحبيب أحسن من قول ابن الأحنف: أخبرنا أبو أحمد عن الصولي، عن هارون بن عبد الله المهلب، قال كنا عند دعبل فذكر العباس بن الأحنف، فقال جیده قليل، ولا أعرف أحسن من شعره في الشمس:

فعرّ الفؤادَ عزاءً جميلاً

هي الشمسُ مسكنها في السماء

ولن تستطيعَ إليك النزولا

فلن تستطيعَ إليها الصعودَ

ومن البديع القليل النظير قوله أيضاً يذكر كلام الناس فيه وفي معشوقه:

وفرقَ الناسُ فينا قولهم فرقا

قد سحبَ الناسُ أذيالَ الظنونِ بنا

وصادقٌ ليس يدري أنه صدقا

فكاذبٌ قد رمى بالظنِّ غيركمُ

وهذا معنى غريب بديع ما أظنه سبق إليه.

ومما هو في معنى قوله:

هي الشمسُ مسكنها في السماء

الخ قول الآخر:

ألست ترى بدرَ السماءِ الذي يسري

شكوتُ إلى بدرٍ هوأيَ فقال لي

نظيري ومثلي في علوِّ وفي قدر

فقلتُ بلى قالَ التمسهُ فإنَّهُ

وإن لم تتلَّهُ فابغِ أمراً سوى أمري

فإن نلتُهُ فاعلمْ بأنك نائلي

فويلي من بدرِ السماءِ ومن بدري

فكانَ كلا البدرين صعباً مرامه

ومن الغريب البديع في مدح الفراق لمكان القبلة والاعتناق قول محمد بن عبد الله بن طاهر:

فيه غمٌّ وفيه كشفُ غموم

ليسَ عندي شحطُ النوى بعظيم

أشتهيه لموضع التسليم

من يكن يكرهُ الفراقَ فإني

وانتظارِ اعتناقه لقدوم

إنَّ فيه اعتناقه لوداع

هي خيرٌ من امتناع مقيم

فلكم قبلةٌ وغيبةٌ شهرٍ

وأخبرنا أبو أحمد عن ابن المسيب لابن الرومي:

جعل الله كلَّ يوم فراقاً

فإذا كان في الفراق عناقاً

أجود ما قيل في خفقان القلب قول قيس بن ذريح:

بليلى العامرية أو يُراحُ

كأنَّ القلبَ ليلةً قيلَ يُغدى

تجاذبه وقد علقَ الجناحُ

قطاةً عزَّها شرَّكُ فباتت

فلولا التضمين الذي فيه لكان غاية.

ومن الغريب في ذلك قول ديك الجن:

يعالج سورة الأرقِ

ومملوء من الحزن

تعمُّ الأرضَ بالغرقِ

تكادُ غروبُ مقلتهِ

لسانُ الحيةِ الفرقِ

كأنَّ فؤاده قلقتا

وقد أحسن في قوله:

ما أنكر القلب إلا كلما خفقا

علمت قلبي وجيباً لست أعرفه

فغافصاه على التوديع فاعتنقا

يا شوق إلفين حال البين بينهما

تطيراً من بكائي بعدهم شفقا

لو كنت أملك عيني ما بكيت بها

وقد أحسن القائل وجاء بما في نفس العاشق:

بغير كلام ليلي ما شفاكا

ولو داواك كلُّ طبيب ركب

سوى ليلي عتبت على غناكا

ولو أصبحت تملك كلَّ شيء

ومن أعجب ما قيل في الشفقة على المعشوق قول أبي دلف العجلي:

مكان الرُّوح من جسد الجبانِ

أحبك جنان وأنت مني

لخفتُ عليك بادرَةَ الطعانِ

ولو أني أحبك حبَّ نفسي

وهابَ شجاعها وقعَ الطعانِ

لإقدامي إذا ما الخيلُ جالتُ

خص الجبان لأنه أشد شفقة على نفسه من الشجاع، وهذا من جيد الاستطراد.

ومن بليغ ما قيل في الحب، مع الشجاعة، ومن أجود ما قيل في اليأس عن الوصل، قول مجنون ليلي أو

غيره:

خرجتُ فلم أظفرُ وعدتُ فلم أفرُ
فيا حسرتي ما أشبهَ اليأسَ بالغنى

وقال:

بنيلِ كِلا اليومينِ يومُ بلاءِ
وإن لم يكونا عندنا بسواءِ

وقد أيقنتُ نفسي بأن حيلَ بينها
أرى النفسَ عن ليلى تعاني بلاعنا

ومثل ذلك:

وبينك لو يأتي بيأس يقينها
وقد جُن من وجدي بليلى جنونها

فإن يك عن ليلى غنى وتجلدُ
ومن أطرف ما قيل في النحول ما أنشدنيه أبو أحمد:

فرُبَّ غنى نفسٍ قريبٌ من الفقرِ

أسر إذا بلبت وذاب جسمي

لعلَّ الريحَ تحملني إليه

وقال ابن المعتز:

ماذا ترى في مدنفٍ

يشكوك طولَ سقمه

أضنيتُهُ فيما يطى

ق ضعفه حملَ اسمه

فلا يراك عائداً

إلا بعينٍ وهمه

وقال كشاحم:

وما زال يبيري أعظمَ الجسمِ حبُّها

وينقصُها حتى لطفنَ عن النقصِ

وقد ذُبتُ حتى صرتُ إن أنا زرتُها

أمنتُ عليها أن يرى أهلُها شخصي

وقال ديك الجن وبالغ:

أنحلَ الوجدُ جسمهُ والحنينِ

وبرأه الهوى فما يستبين

لم يغش أنه جليدٌ ولكن

دقَّ جداً فما تراه المنون

وقال نصر بن أحمد:

قد كان لي فيما مضى خاتمٌ

فاليوم لو شئتُ تمنطقتُ به

وذُبتُ حتى صرتُ لوزجَّ بي

في مُقلةِ النائمِ لم ينتبه

الحسن بن وهب:

أبلبتُ جسمي من بعد جدته

فما تكأذ العيونُ تبصره

تعرفه العينُ ثمَّ تنكرهُ

كأنه رسمُ منزلِ خلقٍ

ومما لا أظن أن له شبيهاً قول بعض الحول وليس في هذا المعنى:

على حَوْلٍ يغني عن النظرِ الشزرِ

حمدتُ إلهي إذ بُليت بحبها

نظرتُ إليه فاسترحتُ من العذرِ

نظرتُ إليها والرقيبُ يظنني

ومن فصيح ما قيل في اقتياد الهوى صاحبه قول بعض نساء الأعراب:

وأصرعه للمرء وهو جليدٌ

ألا قاتل الله الهوى ما أشدهُ

فأصبح بي يستن حيث يريدُ

دعاني الهوى من نحوها فأجبتُهُ

وقال كشاجم وأحسن في قوله وليس من هذا المعنى:

ليتها لم تُعرج

أقبلتُ ثمَّ عرَّجتُ

ورَدَّةٌ في بنفسج

في حدادٍ كأنها

ومن أحسن ما قيل في مجيء الفراق بعد التلاق قوله أيضاً:

حتى بدأتُ عناقه لوداعه

لم أستتمَّ عناقه لقدمه

تركته موقوفاً على أوجاعه

فمضى وأبقى في فؤادي حسرةً

وأنشدني أبو أحمد قال أنشدني الصولي أنشدني الحسين بن يحيى أنشدني الحسين بن الضحاك لنفسه:

فتنفستُ عليه الصعدا

بأبي زورٍ تلفت لي

إذ تقطعتُ عليه كمدا

بينما أضحك مسروراً به

وأنشدنا عنه لأبي العميثل:

ونحن حرامٌ مُسيَ عاشرة العشرِ

لقيتُ ابنةَ السهمي زينبَ عن عُفرِ

وأخرى على لوحٍ أحدٌ من الجمرِ

فكلمتها تنتينِ كالثلجِ منهما

الأولى تسليم اللقاء فيه باردة طيبة والأخرى تسليم الوداع.

ومن جيد ما قيل في تجدد الشوق على قرب الديار قول بعض العرب:

ويبعدُ من فرطِ اشتياقِ طريقها

ويزدادُ في قربِ الديارِ صبايةً

حياضَ القرى مملوءةً لا يذوقها

وما ينفع الحرَّانُ ذا اللوع أن يرى

ومن جيد ما قيل في رد العذول:

هفتُ كبدٌ مما يقلن صديعُ

إذا أمرتني العاذلاتُ بهجرها

وكيفَ أطيعُ العاذلاتِ ووجهُها
يؤرِّقني والعاذلاتُ هجوُ

ومن جيد ما قيل في روضة النفس على الهجو ما أنشده أبو إسحاق الموصلي:

وإني لأستحيي كثيراً وأتقي
عيوباً وأستبقي المودَّةَ بالهجرِ
وأندُرُ بالهجرانِ نفسي أروضُها
لأعلمَ عندَ الهجرِ هل لي من صبرِ

وقال غلام من فزارة:

وأعرض حتى يحسب الناسُ أنما
هي الهجرُ لا والله ما بي لك الهجرُ
ولكن أروضُ النفسَ أنظر هل لها
إذا فارقت يوماً أحببتها صبرُ

وزاد العباس بن الأحنف فقال:

أورضُ على الهجرانِ نفسي لعلها
تمسك لي أسبابها حين تهجرُ
والزيادة في قوله:

وأعلمُ أنَّ النفسَ تكذبُ وعدَّها
إذا صدقَ الهجران يوماً وتغرُّ
وما عرَّضتُ لي نظرةً مذ عرفتها
فأنظر إلا مثلتُ حين أنظر

وهذا من قول جميل:

أريدُ لأنسى ذكرَها فكأنها
تمتُّ لي ليلي بكلِّ سبيلِ

وذكر بعضهم أنه يهجرها مخافة العين تصيب وصلها: أنشدناه أبو أحمد عن الصولي، عن أحمد بن يحيى، وأحمد بن سعيد الدمشقي عن الزبير:

خشيتُ عليها العينَ من طولِ وصلِها
فهاجرتُها يومين خوفاً من الهجرِ
وما كانَ هجراني لها من ملالةٍ
ولكنني جرَّيتُ نفسي على الصبرِ

ومن فصيح الشعر الداخل في هذا الباب قول إبراهيم بن العباس أنشدناه أبو أحمد عن الصولي عن ثعلب وأبي ذكوان قالاً أنشدنا إبراهيم بن العباس لنفسه:

يمرُّ الصبا صفحاً بساكن ذي الغضا
فيصدِّعُ قلبي أن يهبَّ هبوبُها
قريبةٌ عهدٍ بالحبیب وإنما
هوى كلِّ نفسٍ أين حلَّ حبيبها
تطلعُ من نفسي إليك طوالعُ
عوارفُ أن اليأس منك نصيبها

وإنما أغار إبراهيم بن العباس على ذي الرمة حيث يقول:

به أهل ميّ زاد شوقي هبوبها
هوى كلّ نفس أين حلّ حبيبها

إذا هبت الأرواح من نحو جانب
هوى تذرّف العينان منه وإنما
وقال العباس بن الأحنف في غير هذا المعنى:

شمائل بادي البثّ منصدع القلب
لكيما يقال الهجرُ من سبب الذنب
فقد فجعتني بالعتاب وبالعتب

متى تبصريني يا ظلوم تبيني
بريئاً تمنى الذنب لما هجرته
وقد كنت أشكو عتابها وعتابها

أشفق عليها من أن تمجره بغير ذنب، فيقال إنها ملول ليلحقها هجنة.
ومن أجود ما قيل في الوقوف على الديار، قول امرئ القيس:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

وقف واستوقف وبكى واستبكى وذكر الحبيب والمترل في مصراع فليس له شبيه في جميع أشعارهم.
وأحسن ما قيل في وصف الديار وبلاها ما أنشدناه أبو أحمد عن المبرمان عن أبي جعفر عن أبيه:
ولم يترك الأرواح والقطر والندى

من الدار إلا ما يشفّ ويشفق

وقلت:

أردية الرّيح عشياً وضحى
ويصرف النوم ويبعث البكى

قد عريت أنا بها حين اكتست
لم يبق فيها غير ما يذكي الجوى

وأنشدنا أبو القاسم:

لبسن البلى مما لبسن اللبالي

ألا حيّ من أجل الحبيب المغانيا

ولأعرابي:

دثر افلا علم ولا نضد
بعد الأحبة مثل ما أجد

طللان طال عليهما الأبد
لبسا البلى فكأنما وجدا

وهذا مثل قول جرير:

أحب لحب فاطمة الديارا

والذي أورد من أنواع هذه المعاني إنما هو إشارة إلى جمهورها وتنبه على معظمها، ولو اتبعت كل ما فيه أمثاله وعلقت عليه أشكاله، لكثرت واتصلت، وتوفرت حتى أملت وأضجرت، وتجاوز الحد في القول في هذه فيه وهجنة على قاتلة؟ ومن أجود ما قيل في حب السودان:

ومن أجلها أحببتُ من كانَ أسوداً
وجئتني بمثل الليلِ أطيبِ مرقداً

أحبُّ النساءَ السودَ من حبِّ تكتم
فجئتني بمثلِ المسكِ أطيبِ نفحة
البيت الثاني على غاية الجودة وحسن التمثيل.
وقلت:

وما أميلُ إلى رومٍ ولا خزرٍ
ما يعشقُ الناسُ من عينٍ ومن شعرٍ
فانظرِ إلى سفعةٍ في وجنة القمر

صرفتُ ودِّي إلى السودان من هجر
أصبحتُ أعشقُ من وجهٍ ومن بدنٍ
فإنَّ حسبت سوادَ الجلدِ منقصةً
وروي للجاحظ:

فيكسوه الملاحه والجمالا
فكيف إذا رأيتَ الوجهَ خالا

يكونُ الخالُ في وجهٍ مليح
ولستَ تملُّ من نظرٍ إليه
وقد ملح بعضهم في خلاف ذلك:

كميت من شدة الغلطة
لكالذي ذلك في الظلمة

إنَّ الذي يعشق من لا يرى
وإنَّ من يعشقُ زنجيةً

أجود ما قيل في الخيال من قديم الشعر قول قيس بن الخطيم:

وتقرُّ الأحلامُ غيرَ قريبٍ
في النومِ غيرِ مكدرٍ محسوبٍ
ولهوتُ من لهو امرئٍ مكذوبٍ

أنى سربيتِ وكنتِ غيرِ سروبِ
ما تمنعي يقظى فقد توتئنه
كان المنى بلقائها فلقيتها

وقول عمرو بن قميئة:

وإلا خيالاً يوافي خيالاً
ولو قدرتُ لم تخيل نوالاً

نأتك أمانة إلا سؤالا
خيالي يخيل لي نيلها

وهذا من معاني القدماء غريب، وهو أبلغ ما قيل في بخل المعشوق، ومن هاتين القطعتين أخذ المحدثون أكثر معانيهم في الخيال، ومن البارع الفصيح في هذا المعنى قول البيه:

وقد بهر الليل النجوم الطوالعُ
كواذب إن حصلتها وخوادع
جناحيه وانقضت نجوم ضواجع

أزارتك ليلي والركاب خواضع
فأعطتك آيات المنى غير أنها
على حين ضمَّ الليلُ من كلِّ جانب

من الصبح حادٍ يزعج الليل ساطع

يشفي الجوى وهو الجوى

داويت سقماً وقد هيّجت أسقاما

فأناها في خفية واكتتام

واح فيها سراً من الأجسام

غير أنا في دعوة الأحلام

وقضيت شوقي حين كاد يؤوب

ولا طارقاً يقري المنى وينيب

شكره لو كان في النية الجود

من سراها حيث لا تسري الأسود

عادة الأقمار والناس هجود

تحت ليل مطرّز بنهار

غير مستطرف سري الأقمار

جلنارية على جنار

وأعجلها عن زورة لم أفز بها

وأحسن النميري حيث يقول:

عجباً لطيفك أنه

أخذه مسلم فقال:

طيف الخيال عهدنا منك الإماما

ومن اللفظ الغريب قوله:

زف فحياني الكرى طيفها وهنا لخيالي

لا أعرف أنه سبق إلى هذا اللفظ.

وقال أبو تمام:

استزارتُه فكرتي في المنام

يالها ليلةً تزاورت الأُر

مجلسٌ لم يكن لنا فيه عيبٌ

وهذه معان جياذ إلا أنه ليس لألفاظها طلاوة.

ومن غريب المعاني في هذا قول دعبل:

سرى طيفٌ ليلي حين حان هُيوب

ولم أر مطروقاً يحلُّ بطارق

يقول إن العادة إن يقري الطارق المطروق، والخيال طارق يقري المطروق.

ومن الغريب الدقيق قول ابن الرومي:

طرقتنا فأنا لت نائلا

ثم قالت وأحست عَجبي

لا تعجب من سُرانا فالسُرى

فرايت في هذه الأبيات زيادة وتضميناً فقلت:

رقت غفلة الرقيب فزارت

فتعجبت من سراها فقالت

ثم مالت بكأسها فسقتني

آخر:

فيا ليت طيفاً خيلته لي المنى
وأكلف نفسي عنك صبراً وسلوة
وإن زادني شوقاً إليك يعودُ
وتكليف ما لا يستطاع شديداً

الجيد أن يقول تكلف ما لا يستطاع وأما تكليفه في الحقيقة، فغير شديد على المكلف وإنما جعل هذا التكليف مكان التكلف وهو رديء.

وقال الحمدوني:

لم أنله فنلته بالأمانى
وأصل الحلمُ بيننا بعد هجر
فاجتمعنا ونحنُ مفترقان
وكأنَّ الأرواحِ خافتُ رقيباً
في منامي سرّاً من الهجرانِ
منظرٌ كان نزهةَ العينِ إلا

وقال ابن المعتز:

لا فرجَ الله عن عيني برؤيته
إلا خيالاً عسى إن نمت يطرقني
إن كنتُ أبصرتُ شيئاً بعده حسناً
وكيف يحلمُ من لا يعرفُ الوسناً

وقال:

كلامه أخذُ من لحظه
ووعده أكذبُ من طيفه

وليس لأحد في الخيال ما للبحثري كثرة فمنه قوله:

بعينيك إعوالي وطولُ شهيقِي
على أن تهويماً إذا عارض أطبِي
وإخفاقُ عيني من كرى وخُفوقِ
فبات يعاطيني على رِقبة العدى
سرى طارقاً في غيرِ وقتِ طرُوقِ
وبتُ أهابُ المسك منه وأتقي
ويزجُ ريقاً من جنّاه بريقي
أرى كذب الأحلام صدقاً وكم صغَتْ
رُداع عبير صائكٍ وخُلوُقِ
وما كان من حقٍّ وبطلٍ فقد شفى
إلى خيرِ أذناي غيرِ صدُوقِ
حرارةً متبولٍ وخبلٍ مشوقِ

وقلت في خلاف ذلك:

طرق الخيال فزار منه خيالاً
يا كشفه للكرب إلا أنه
فسرى يغازل في الرقاد غزالاً
ولى على دبرِ الظلام فزالاً

وأشدُّ بلبالاً وأكسفُ بالاً

فغدا المنتيمُ وهو أكبرُ صبوةً

وما قيل في الامتزاز والاختلاط مثل قول الخريمي:

وأوي إلى حصن منيع مراتبه

ليالي أرى في جنابك روضةً

بماءٍ لصافٍ ضعفته جنائبه

وإذ أنتَ لي كالخمر والشهدِ ضعفا

وقال بشار:

كما بينَ ريحِ المسكِ والعنبرِ الوردِ

لقد كانَ ما بيني زماناً وبينها

أجود ما قيل في صفة الركب: أخبرنا أبو أحمد أخبرنا الصولي، حدثنا محمد بن سعيد، عن عمر بن شبة قال كان الناس يقدمون قول أبي النجم ويتعجبون من حسنه:

ضخمُ القذالِ حسنِ المخطِّ

كأن تحتَ درعها المنعطُ

كأنما قُطَّ على مقطِّ

وقد بدا منها الذي تغطي

كهامةِ الشيخِ اليمانيِ الشمطِ

شطاً رميتُ فوقه بشطِّ

لم يعلُ في البطنِ ولم ينحطِ

حتى قال بشار:

لها حرٌّ من بطنها أرفعُ

عجاء من سربِ بني مالكِ

وانضمَّ من أسفله المشرع

زيّنَ أعلاهَ بإشرافه

قال أبو هلال رحمه الله تعالى أول من أتى بهذا المعنى النابغة حيث يقول:

رابي المجسةِ بالعبيرِ مُقرِّمِ

وإذا طعنتَ طعنتَ في مستهدفِ

نزع الحزورِ بالرشاءِ المحصدِ

وإذا نزعْتَ تزعتَ عن مستحصدِ

يصف ضيقه ويقول إن النازع منه يتعب من نزعه كما يتعب الحزور - وهو الغلام - إذا فقال الرشيد: من قال هذا وهماً فإني أقوله علماً، والله درك يا أصمعي، فإني أجد عندك ما يضل عنه العلماء، فأخذه محدث فقال:

يدانِ بمنِّ قلبي عليّ دائي

يؤازرُهُ قلبي عليّ وليس لي

وأخذه سهل بن هارون فقال:

بنظرةٍ وقفتُ جسماً عليّ دائي

أعان طرفي على جسماً وأعضائي

لا علم لي أن بعضي بعضُ أعدائي

وكنْتُ غراً بما تجني عليّ يدي

وهذا شعر في تكلف، أخذه البحري:

عمداً إذا كانَ قلبي فيك يعصيني

ولستُ أعجبُ من عصيان قلبك لي

وقال ابن الأحنف:

يكثرُ أسقامي وأوجاعي

قلبي إلى ما ضرَّتني داعي

كان عدوي بين أضلاعي

كيف احترازي من عدوي إذا

ومن جيد ما قيل في قرب الدار مع تباعد القلوب قول النظار الفقعسي:

دنتُ بك أرضٌ نحوها وسماؤُ

يقولونَ هذي أمٌ عمرو قريبة

إذا هو لم يوصلُ إليه سواء

ألا إنما بُعدُ الحبيبِ وقربُهُ

وفي خلافه:

إذا لم يكنْ في ودِّه بمريبِ

وإني زوارٌ لمنْ لا يزورني

وما دارُ من أبغضتهُ بقريبِ

يقربُ لي دارَ الحبيبِ وإنْ نأتُ

ومن ظريف الشكاية قول إبراهيم بن العباس:

وخذ قلبي إليك بغيرِ حمدِ

فدعني راغماً أشقى بوجدي

ووجد لا يكافئهُ بودٌ

سقام لا يرقُّ عليَّ منه

فعارضَ في الجفاءِ بمثلِ جهدي

وقد أصفيتُهُ ودِّي بجهدي

ومن جيد ما مدح به الفراق قول بعض الكتاب: في الفراق مصافحة التسليم، ورجاء الأوبة والسلامة من

الملال، وعمارَةَ القلب بالشوق والدلالة على فضل المواصلة واللقاء.

وقال الشاعر:

أرانا على علاته أم ثابتِ

جزى الله يومَ البينِ خيراً فإنه

وكتب بعضهم في معنى قول الشاعر:

وما في الأرضِ أشقى من محب

وقد تقدم: تفكير في مرارة البين، ينعني من التمتع بحلاوة الصبر، وتكره عيني أن تقربك مخافة أن تسخن

ببعذك، فلي عند الاجتماع كبد ترحف، وعند التناهي مقلة تكف. ومثله: لا والذي بيده السلامة من

نزوح دارك، وبعد مزارك، ما زادني اللقاء إلا صباباً وأسفاً والاجتماع إلا نزاحاً وكلفاً، لأني منقسم

القلب بين رجاء يعدني بقربك، وحذر يوعدي ببعذك، وإذا قربت دارك كلفت، وإن نأت أسفت، فلا في القرب أسلو ولا البعد.

وسمعت لماني الموسوس معنى أظنه ابتكره وهو:

بكت عيني غداة البين دمعاً
وأخرى بالبكى بخلت علينا
فعاقت التي بخلت علينا
بأن غمضتها يوم التقينا

وسبكه البيت الأول، ورففه رديء جداً، لا خير فيه، وإنما استغربت المعنى فأوردته.

وقد أخذه ابن الرومي فشرحه وزاد فيه وهو من قوله:

ولقد يؤلفنا اللقاءً بليلة
وجعلت لنا حتى الصباح نظاماً
نجزي العيون جزاءهنّ عن البكى
وعن السهاد فلا نصيبُ اثماً
فنبیحهنّ مُرادهنّ يردنه
فيما ادّعين ملاحهً وساماً
ونكافىء الأذانَ وهي حقيقةٌ
إذ لا تزال تكابدُ اللوما
فنبثهنّ من الحديّ مثوبةً
تشفي الغليلَ وتكشفُ الأسقاماً
ونكافىء الأفواهَ عن كتمانها
إذ لا يزال لها الصماتُ لجاماً
فنبیحهنّ ملامتاً ومراشفاً
ما ضرّها أن لا تكونَ مداماً
نجزي الثلاثة أنصباء ثلاثة
مقسومةً آناؤها أقساماً

ولخالد الكاتب معنى يلحق بما تقدم وهو قوله:

بكيّت دماً حتى بكيّتُ بلا دم
بكاء فتى فرد على شجن فردٍ
أبكي الذي فارقتُ بالدمع وحدهُ
لقد جلّ قدرُ الدمع فيه إذا عندي

وكتبت في فصل لي: قد جل شوقي إليك ووجدي بك عن أن يبرد نارهما، ويسكن أوراها، دمع ينصب

على مثله، فتحسبه درأً يتكسر على در، ويمتزج بالدم فتخاله شذور عقيق، في نظام فريد.

ومما يلحق بما تقدم أيضاً قول سعيد بن حميد:

وما كان حبيبها لأوّل نظرةٍ
ولا غمرة من بعدها فتجلتِ
ولكنها الدُّنيا تولتُ فما الذي
يسلي عن الدُّنيا إذا ما تولتِ

وقال أعرابي: استقى من البئر.

وأحسن ابن الرومي في وصف الضيق والحرارة حيث يقول:

من قلب صبّ و صدر ذي حنق
ما أوقدت في حشاه من حرق
تزداد ضيقاً أنشوطه الوهق

وهو في أصبعين من إقليم
يا وتحويه دفئا حيزوم

زِ وقَدَّامها من الأدم جنبه

كأن نبت الشعرِ المطليِّ

إلى الوعى مضمره قرح
يحثُّ بالسيرِ ولا يبرح

كمركب بين دملوج و خلخال

ولم يجاوز سيره قيسُ قدم

كمنخرِ الثورِ محبوباً على البقر

تكادُ توقدُ ناراً ليلةَ القدرِ

بثديينِ في نحرِ عريضٍ وكعنبِ

لها هنّ تستعيرُ وقدته
كأنما حره لخابره
يزداد ضيقاً على المراسِ كما

وقال في سعته:

يسعُ السبعةَ الأقاليمَ طراً
كضميرِ الفؤادِ يلتهمُ الدن

ومن النادر قول الناجم:

إن ردفَ الفتاةِ عجنةُ خبا

وقال المعذل بن غيلان:

ومركب كبيضة الأدهيِّ

عليه شونيزٌ على فرنيِّ

ومما يجري مع ذلك قول بعضهم:

أقولُ والقومُ تعادى بهم

استحمل الله على مركبِ

وهو مثل قول مسلم:

ما مركب من ركوب الخيل يعجبني

ومثل الأول:

فبات يسري ليله ولم ينم

وقال الفرزدق:

ثم انقتني بجهم لا سلاح له

كأن رمانة في جوفه انفجرت

وأبلغ ما قيل في كبره قول الفرزدق:

إذا بطحت فوق الأثافي رفعتها

يقول إنها إذا بطحت على وجهها، لم يمس الأرض منها شيء، لأن نهود ثدييها وكبر ركبها مثل أثافي
القدر لبدنهما، وهذا أبلغ من قول بشار الذي اختاره الأصمعي. وقال الراجز في وصف الضيق:

كأنّ حجاماً شديداً أبهره يدارك المصّ ولا يفتره

ومما قيل في حب الكبار قول المنون:

وعهدي بليلي وهي ذاتُ موصد ترد علينا بالعشي المراميا

فشبّ بنو ليلي وشبّ بنوا بنيتها وأعلاقُ ليلي في الفؤادِ كما هيا

ابن المعتز:

من معيني على السهر وعلى الهمّ والفكر

وابلائي من شادنٍ كبر الحبّ إذ كبر

ومن البديع قول ابن الأحنف:

لعمرى لقد كذبَ الزّاعمون بأنّ القلوبَ تحاذي القلوبا

ولو كان حقاً كما يزعمون لما كان يشكو محبُّ حبيبيا

ومما يلحق بالفصل الأول، ما أخبرنا به أبو أحمد، عن الصولي عن البلعي، عن أبي حاتم قال: سمعت
الأصمعي يقول: سمعت الرشيد يقول: قلب العاشق عليه مع معشوقه فقلت له: هذا يا أمير المؤمنين أحسن
من قول عروة بن حزام العذري في آخر أبياته التي أنشدتها:

أراني تعرفوني لذكراك رعدةً لها بينَ جلدي والعظام ديببُ

وما هو إلا أن أراها فجاءةً فأبتهت حتى ما أكاد أجيبُ

وأصرف عن رأيي الذي كنتُ أرتئي ويعزب عني ذكره ويغيبُ

ويضمّر قلبي عذرها ويعينها عليّ فما لي في الفؤادِ نصيبُ

أعللُ أصحابي بجدّي وباطلي وأسماء جدّ القلب مني وباطله

ومن بديع المعاني قول ابن أبي فتن:

أديمتُ بالألحاظِ وجنته فاقتصّ ناظره من القلبِ

أخذ علي بن عاصم فقال:

ضربتُ إلفي بيدي خان يميني جلدي

فاقتصّ لما اغرورقتُ مقلته من كيدي

فر أقلت بعدها

سوطي من الأرض يدي

ومن أجود ما قيل في تكافؤ الحسن قول الراجز وكان ينبغي أن يقدم:

جاءت تهضُّ الأرضُ أي هضُّ

يدفعُ منها بعضها من بعضٍ

يقول: يتحير الناظر فيها، ولا تقف عينه على واحد فيصيبها بعين، لأن بعضها يشغل عن بعض. ومن بديع المعاني قول بعض الشعراء:

قصارك مني الودّ ما دمت حيةً

وودّك ماء المزن غير مشوب

وآخر شيء أنت في كل مضجع

وأول شيء أنت عند هبوب

ومن جيد القول في الفراق قول أبي محلم:

وما خفتُ وشكّ البينِ حتى رأيتهم

تنفض أنماط لهم وقطوع

لعمرك ما شيءٌ مرّيتُ بذكره

كآخر يأتي بغتةً فيروع

ومما لا أعرف في معناه أجود منه قول بعضهم:

ما بينَ بابِ الوزيرِ والمسجدِ الجا

مع ظبيّ كالظباءِ في جيدهِ

أطماره رنةٌ فقد ضاعَ لا

ضاعَ وضاعَ التمييزُ في بلده

ليسَ له ناقدٌ فيعرفه

وأفةُ التبرِ ضعفُ منتقده

وفي خلاف ذلك قول صاحب البصرة:

ولستُ بواصفٍ أبداً حبيباً

أعرّضه لأهواءِ الرّجالِ

تراني آمن الشركاءِ فيه

وآمن فيه أحداثِ الليالي

معنى آخر:

وقائلةٌ متى يفنى هواهُ

فقلتُ لها إذا فني الملاح

معنى آخر:

وإذا أتيتك زائراً منشوقاً

قَصَرَ الطريقُ وطالَ عند رجوعي

معنى آخر:

إذا طلعتُ شمسُ النهارِ فإنها

أمارَةٌ تسليمي عليكِ فسلمي

آخر التشبيب والحمد لله وحده وصلى الله وسلم على من لا نبي بعده.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي قال فأبلغ، وأنعم فأسبغ، أحل الملاذ ومنح لينعم عباده في العاجل، ويدل على ما أعد لحسنهم في الآجل فقال: "يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً" وقال: "يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً". وقال تعالى: "قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق" وله الحمد على كمال بره، وتمام لطفه، والصلاة على خير خلقه، محمد النبي وآله.

هذا

كتاب المبالغة في صفات النار والطبخ وألوان الطعام

وفي ذكر الشراب وما يجري مع ذلك ثلاثة فصول وهو:

الباب الخامس من كتاب ديوان المعاني

الفصل الأول في

ذكر النار

فأول ما نذكر فيها قول الله تعالى: "أفأنتم النار التي تورون" إلى قوله: "نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين" فذكر منفعتها، وحسن عائدتها، في الدنيا والدين، فأما منفعتها في الدين فإنها تذكر ما أعد الله تعالى لعصاته منها في دار العذاب، فيكون ذلك مزجراً لمن تذكر، ومنهارة لمن تبصر، وأما منافعتها في الدنيا وكثرة مرافقتها فغير مجهولة، وقد حصر الإنسان بخيرها، دون سائر الحيوان، فليس يحتاج إليها شيء سواه، وليس به عنا غنى في حال من الأحوال، ولهذا عظمها الجوس وقالوا: إنها قد أفردتنا بنفعها، فينبغي أن نفردها بتعظيمنا، على أنهم يعظمون جميع ما فيه نعمة على العباد، فلا يدفنون موتاهم في الأرض، ولا يستنجون في الأنهار، رؤي على عهد كسرى، رجل يغتسل في دجلة فضربت رقبتة، وكانت العرب إذا تحالفت، تحالفت على النار، ويدعون على من يغدر وينقض العهد بجرمان منافعتها. وقد أحكمنا ذلك في كتاب الأوائل.

ومن عجيب التشبيه في النار قول الأول:

بنايق حبة من أرجوان

كأنَّ الرِّيحَ تقطع من سناها

وقول ابن المعتز:

يشبعنه من فحم ومن حطب

وموقدات بتن يضر من اللهب

يرفعن نيراناً كأشجار الذهب

وقال آخر:

مصبغات على أرسان قصار

كأن نيراننا في جنب قلعتهم

وقول أبي تمام في إحراق الأفسين:

لهب كما عصفت شق إزار

نار يساور جسمه من حرها

ميتاً ويدخلها مع الفجار

صلى لها حياً وكان وقودها

أخبرنا أبو أحمد، عن الصولي، حدثنا أحمد بن اسماعيل، حدثني جعفر بن علي بن الرشيد، فقال: أنشدنا المعتصم قول بعض الهاشميين في فتحه هرقله:

جو السما تزتمي بالنفط والقار

ريعت هرقة لما أن رأته عجباً

مصبغات على أرسان قصار

كأن نيراننا في جنب قلعتهم

فقال لابن داود، وقد أنشدنا شاعر طائي أوصلته إلى في حرق القادر أفسين شيئاً من هذا الجنس، استحسنته فقال أحمد: ما أحفظه، وإنما أحضر الشاعر فقال بعض أولاد الحجاب: أنا أحفظ القصيدة والموضع، فقال هات فأنشد:

حتى اصطلى سر الزناد الواري

ما زال سر الكفر بين ضلوعه

لهب كما عصفت شق إزار

ناراً يساور جسمه من حرها

أركانها هدماً منار

طارت لها شرر يهدم لفحها

وفعلن فاقرة بكل فقار

ففصلن منه كل مجمع مفصل

رمقوا هلال عشية الإفطار

رمقوا أعالي جذعه فكأنما

قيدت لهم من مربط النجار

كروا وراحوا في متون ضوامر

أبدأ على سفر من الأسفار

لا ينزلون ومن رآهم خالهم

فقال المعتصم: أحسن ما شاء، قد أمرت له بعشرة آلاف درهم، ولهذا الذي حفظها بنصفها، قال فتعجبنا من فطنة المعتصم، ومن رزق هؤلاء على غير طلب ولا أمل، قال: فلم يبق في العسكر أحد إلا حفظ قصيدة أبي تمام: وقلت:

لها على الطارقين عَيْنُ
لكنهُ إن هوى لجين
محبهم قرّة رأين
عطاؤهُ للكريم زين
إذ ليس يقضى لهنّ دينُ

كأنه نثارُ ياسمين

حُلٌّ مشققةٌ على حبسانِ
فأنتَ بهِ سباحاً على عصانِ
منها ويعبسُ في اسوداد دخانِ

إذ ذهبَت دولةُ الرّياحينِ
كجلنارٍ من تحتِ نسرينِ

وأختِ الجمرِ صافيةُ الرّحيقِ
ككافورٍ يذُرُّ على خلوقِ

فهايتِ الرّاحَ من أيدي الملاحِ
كمثلِ الوردِ يسترهُ الأقاحي
تطيرُ بهنَّ أنفاسُ الرّياحِ
مطرزةُ الحواشي كالصباحِ

ذا نقطِ سودٍ كجلدِ الفهدِ

أوقدتُ بعدَ الهدوِّ ناراً
شرارها إن علا نضارُ
دعتهمُ فانتنى إليها
إلى كريمِ الفعالِ سمحِ
يقضي ديونَ العلا ببذلِ

وقال ابن المعتز:

وقد تعلّى شررُ الكانونِ

وقلت:

نار تلعبُ بالشقوقِ كأنها
ردّتُ عليها الرّيحُ فضلَ دخانها
فالجوُّ يضحكُ في ابيضاضِ شرائرِ

وقال أبو فضلة:

اشربُ على النارِ في الكوانينِ

بدّت لنا والرّمادُ يحجبها

وقلت في معناه:

قصرتُ يدَ الشتاءِ بحرّ جمرِ

ترى نبذ الرّمادُ بوجنتيه

وقلت:

تحركت الشمالُ فقرّ ليلى

جراد الجمرِ يسترهُ رمادُ

وأنفاسُ الرّياضِ معطراتُ

وأرديةُ الظلامِ ممسكاتُ

وقال ابن المعتز في سقوط الشرر على الثياب والبسط:

فترك البساط بعد الخمدِ

وقال أيضاً:

وصيرت جبابهم مناخلا

وقلت:

والجمرُ من تحته يواقيتُ

كأنما النارُ بينه ذهب

ومن بديع ما قيل في القدور على النار قول بعض العرب:

قصد الشبوح للشيوخ الجهلِ

كأنَّ صوتَ غليه المستعجلِ

وقال ابن المعتز:

يسلمها إلى قدورِ تغلي

والسيفِ راعيِ إبلي في المحلِ

إرقالها في السير تحت الرحلِ

ترقلُ فيها بالوقودِ الجزلِ

وقالوا: أحسن ما قيل في الأثافي والرماد قول ابن هرمة:

وجواثم سفح الخدود رواكد

نبكي على زمنٍ ونؤي هامدِ

فحكفنَ بعدهم بهاب لآبدِ

عرين من عقد القدور وأهلها

دنف يرن الدمع بين عوائدِ

فوقينه عبث الصبا فكأنه

وقال أبو تمام:

ونؤيٌّ مثل ما انفصم السوارُ

أثاف كالخدودِ لظمنَ حزناً

ومما يجري مع ذلك القول في الشمعة. ومن أجود ما قيل في قول السري:

شفاؤها إن مرضت ضرب العنق

وقول الآخر:

موقوفة بين حريق وغرق

وقلت:

ما بين أنوارِ ونوارِ

كم قد جنبتُ اللهو من غصنه

سقيطُ أنداءٍ وأمطارِ

من روضةٍ بللَ أعطافها

في ليلِ أصداعٍ وأطرارِ

وأوجهٍ تحسبها أشمساً

نارٌ على نارٍ على نارِ

وشققتُ عنها ستورَ الدُّجى

وقلت في السراج:

وحيةٌ في رأسها دُرَّةٌ
تعملُ في وجهِ الدُّجى غرَّه
وجنتها أكبرُ من رأسها
فهي إذا أبصرتها عبره
كم من مريبٍ أهتكت ستره
وصيرتهُ في الورى شهره
يردفاها أصفرُ في أصفر
يقدمها أسودُ في حمرة
وقال السري في الكانون:

وكأنما الكانون ألهبَ جمرة
أحداق أسدٍ يدَّرينَ أسودا
يكسو خدود الشربِ من نفحاتها
قبل الكؤوس وحسنها توريدا
وقلت في الكانون:

وبركةٌ مترعة الأرجاء
فارغةٌ من سبيلِ الأنواءِ
يغسل فيها حلة الظلماء
أقامت النارَ مقامَ الماءِ
نارٌ كوجهِ غادةٍ حسناءِ
ترقصُ في مبدعة صفراءِ
والجمرُ في حلتِه الحمراءِ
وأسهمُ تصبغُ بالدماءِ
مثل بنانٍ علَّ بالحناءِ
واشربُ عليها حلبَ الصهباءِ
فهاكها ريحانةُ الشتاءِ
يظرف عينَ البؤسِ والضراءِ
فشربُ صهباءَ على شقراءِ
ومن أجود ما قيل في الفحم قول بعضهم:
فحمٌ كيومِ الفراقِ تشعله
نارٌ كنارِ الفراقِ في الكبدِ
أسود قد صارَ تحت حمرتها
مثلَ العيونِ اكتحلنَ بالرنجِ

الفصل الثاني من الباب الخامس

ذكر ألوان الطعام

العرب تشبه البر بقراضة الذهب وبمناقير النغران، والنغران جمع نغرة وهي عصفورة. أخبرنا أبو أحمد، عن ابن دريد، عن أبي حاتم، عن الأصمعي قال: قال شيخ من أهل البادية: ضفت فلاناً فأتاني بخبزة من حنطة، كأنها مناقير النغران، قد انتفخت في الملة، حتى رأيت الجمر يتحدر منها، تحدر الحشو من البطان،

وتراها حين غمرت بالسمن، يجول فيها المثراد، كما يجول الضبعان في الضفرة، ثم أتانا بتمر كأنه أعناق
الورلان يدخل فيها الفرس. الحشو صغار الإبل، والضفرة الرمل المتعقد.
وأخبرنا أبو أحمد، عن الجلودى عن عبد الله، بن محمد القرشي، عن المثني بن معاذ العنبري، عن بشر بن
المفضل، عن عقبة الراسبي قال: دخلت على الحسن، وهو يأكل خبزاً ولحماً، فقال لي: هلم إلى طعام
الأحرار، والعرب تدعو الخبز أم جابر.

وأخبرنا أبو أحمد حدثنا الجلودى، حدثني محمد بن زكريا، حدثني مهدي بن سابق، حدثنا شبيب قال:
استأذن خالد بن صفوان على يزيد بن المهلب، فأذن له، فوجده يتغدى، فقال: يا بن صفوان أدن فكل،
فقال: أصلح الله الأمير، لقد أكلت أكلة لست ناسيها، قال: وما أكلت؟ فوصف ما أكل، ثم قال: أتيت
بخبز أرز كأنه قطع العقيق، وكأنما تجري عليه سبائك الذهب، ثم أتيت ببناي بيض البطون، زرق العيون،
سود المتون، حذب الظهر، مقفعات الأذنان، صغار الرؤوس، غلاظ القصر، عراض السرر، مع بصل
نظيف كأنه قطع الزند، وخل ثقيف مري حريف، قال أبو هلال ما سمعت في وصف السمك أحسن من
هذا ولا أتم.

وقريب منه، ما أخبرنا به، أبو خليفة عن ابن سلام، عن محمد بن القاسم، قال: قال الأعمش لجليس له:
أما تشتهي بناي زرق العيون، بيض البطون، سود الظهر، وأرغفة باردة لينة، وخلاً حاذقاً؟ قال: بلى
قال: فانهض بنا، قال الرجل: فنهضت معه، فدخل منزله وقال خذ تلك السلة، فكشفتها فإذا فيها رغيفان
يابسان، وسكرجة كامخ، وشبت، قال: فجعل يأكل، وقال لي: تعال كل، قلت: فأين السمك؟ فقال:
ما عندي سمك، وإنما قلت أتشتهيه وأنا والله أشتهي.

أخبرنا أبو أحمد، عن الجلودى عن المغيرة بن محمد، عن أبي عثمان المازني، عن الأصمعي، قال: قال أبو
صوارة، وكان بمكة مثل الأشعب بالمدينة، في شهوة الأكل: يا أبا سعيد، الأرز الأبيض، باللبن الحليب،
بالسكر السليمانى، بالسمن السلى، ليس من طعام أهل الدنيا.

ومن أحسن ما قيل في الرقاق، قول ابن الرومي:

ما أنسَ لا أنسَ خبازاً مررتُ بهِ

وبينَ رؤيتها في كفهِ كرهةٌ

وقلت:

وخبزَ بأيدي الخابزين كأنه

وأطعمة حلتْ بساحتها المنى

تراس تعاطيها الجنود جنود

إذا جاء من أرداحهنَّ يريد

وضمتُ إلى الحلواء فيه فواكةُ

وقال الصنوبري في رفاق ورؤوس:

عليهنَّ أهواءُ النفوسِ وفودُ

فوقَ هامٍ على عِدَادِ الهامِ

ك عليه كطيرِ ماءٍ نيّامٍ

دينَ من مضرمٍ شديدِ الضرامِ

لَ إذا خرجوا من الحمامِ

غير ما راج من رفاقٍ رقيقٍ

ذاك كالماءِ ذي الحُبَابِ وهاتي

يا لأقيالهنَّ وما يب

كأناسٍ يُوشحون منادي

ورصف هذه الأبيات غير مختار عندي، ولكني أوردتها لجودة معانيها، وإصابة التشبيهات فيها، وقلوه غير مارج فإن الرواج لفظ عامي، لا يستعمله الفصحاء. وقال ابن الرومي:

قد أخرجتُ من جاحمٍ فوارٍ

مقرونةً بوجوهِ أهلِ النارِ

مخللِ الشَّقَشِقِ والأنوارِ

يقشرُ جلدًا منه كالنضارِ

هامٌ وأرغفةٌ وضاءٌ فخمَةٌ

كوجوهِ أهلِ الجنةِ ابتسمت لنا

وقال غيره في جوذابة:

وقادمٍ من جاحمٍ فوارٍ

ملبساً حُلَّةَ جَلَنارِ

عن بدنٍ أبيضٍ كالخمارِ

ومن النادر البديع في هذا المعنى.

ما أخبرنا عن محمد بن زكريا، عن الأصمعي، قال: قيل لأعرابي: كيف تأكل الرؤوس؟ قال: أفك لحبيبه، وأبخص عينيه، وأفعض أذنيه وخديه، وأرمي بالدماع إلى من هو أحوج مني إليه. فقيل له: إنك لأحمق من ربع قال: وما حمق ربع؟ إنه ليحتنب العدو، ويتبع المرعى، ويراوح بين الأطباء، فما حمقه يا هؤلاء؟ وقيل لأحدهم: ما أحب الفاكهة إليك؟ قال: أما الرطب فاللحم وأما اليايس فالقديد. وقلت في صفة لحم:

ويحمرُّ بعضُ خلطك الدرَّ بالتبرِ

فبيضُ إلى حمرٍ وحمرٌ إلى صفرِ

مقفعةٌ خضراءُ في ورقِ خضرِ

تركتُ سمينَ اللحمِ ببيضُ بعضه

وأعرضتُ عن حلواءِ شقِ فنونها

إلى ثردةٍ رقطاعٍ قطع فوقها

وحاجة الإنسان إلى الطعام، إنما هي من أجل ما يأخذ الهواء من جسده، فيحدث فيه خلل، فإذا اكل اللحم فقد رم الجسد، بما هو من جنسه، فكأنه رقع الديداج بالديداج، فإذا أكل غير اللحم، فكأنه رقع الديداج بالكرباس وفي الحديث "من ترك اللحم أربعين يوماً ساء خلقه".
وأحسن ما سمعت في جمل مشوي قول السري:

أبيض صافي حُمرة الجنينِ	أنعته معصر البردينِ
ثم رعى بعدهما شهرينِ	خلف شهرينِ على خلفينِ
يا حُسنه وهو صريعُ الحينِ	فجسمه شبرانِ في شبرينِ
بكف شاوِ عطر الكفينِ	بعرفة مرهفة الحدينِ
ذو طرفٍ يستوقِفُ العينينِ	كسارقٍ حدٍّ منَ اليدينِ
مُذهبةً المقبضِ والوجهينِ	يُريكَ مرأةً منَ اللجينِ
أختينِ في القَدِّ شبيهتينِ	شقَّ حشاه عن شقيقتينِ
أختينِ في القَدِّ شبيهتينِ	كما قرنت بين كمأتينِ
فإنه زينٌ بغيرِ شينِ	إن شينِ ذورقينِ ناجمينِ

ومن المشهور قول ابن الرومي في دجاجة مشوية:

ثمناً ولونا زفها لك حزورُ	وسميطة صفراءَ ديناريةً
فأتى لباب اللوز فيها السكرُ	طفقت تجولُ بذربها جودابةً
فكأن تبرا عن لجين يُفسرُ	ظلنا نقشرُ جلدَها عن لحمها
قدّامها بصهيرها تتغرغرُ	يا حسنها فوق الخوانِ وبنتها
مثل الرياضِ بمثلهنَّ يُصدّرُ	وتقدّمته قبل ذلك ثرائدُ
بالبيض منها ملبسٌ ومدنرُ	ومدقات كلهنَّ مخرّفُ
ترضى اللهاة بها ويرضى الحنجرُ	وأنت قطائفُ بعد ذلك لطائفُ
دمع العيون من الدهانُ تعصرُ	ضحكُ الوجوه من الطبرزدِ فوقها

وقلت في سكباجة:

كأنها عودٌ على مجمرِ	سكباجة طيبة نشرها
وهي تحاكي سفتَ الجوهرِ	يا حسنها في القدرِ إذ أقبلتُ

ويستنيرُ الشحمُ في لحمها

يا حسنَ باذنجانها إذ بدا

كأنه ماءُ خلوقٍ جرى

قال ابن الرومي في دجاجة:

عظيمةُ الزورِ بصدرٍ نهد

مرهفة ذات شياً وحداً

بل رغبة فيها شبيه الزهد

وقل تفي قدور على النار:

كتبتُ أستعجل الندامي

وقد أتاني الغلامُ يسعي

وعندنا قهوةٌ شمولٌ

تكونُ قبلَ المزاجِ ناراً

فانهض إلى سرعة إلينا

وقال الشعبي: ما رأيت فارساً أحسن من زبد على التمر، وأنشد لبعض الأعراب:

ألا ليت لي خبزاً تسربل رائباً وخيلاً من البرني فرسانها زبدٌ

ومن عجيب ما روي عن الأعراب، في شهوة الطعام، ما أخبرنا به أبو أحمد، عن أبي بكر، عن أبي حاتم،

عن الأصمعي، عن جعفر بن سليمان، قال: لقيت اعرابياً فقلت: هل لك في ثردة؟ فتنفس الصعداء ثم

قال:

واهاً على مجموعة

بالدسم مؤسومة

قد كملت عراقا

منقوشة الحواشي

وصحفة مكتومة

واللحم مغمومة

والحفت رقاقا

بطيب التماشي

فكل هنيئاً وارقص

بفلفلٍ وحمص

فأخذت بيده وذهبت إلى المنزل، فأمرتهم فصنعوا ثردة كما وصف، فلما قدمتها ارتعش طرباً، ثم قال: أي
بأبي والله هذه المرقصة، ثم وثب على رجليه فرقص ساعة، وجلس فأكل أربعة أرغفة في السقي وستة ثم
قبل رأسي وقال: بأبي وأمي لك حاجة في بدونا؟ قلت: تمضي، ثم قال أي والثردة، والله ما دخلت الحضر
إلا في طلبها، ثم أنشأ يقول:

عمرت بطناً لم يزل مصفراً
حتى لقد أوجعت والله ترى
وقال ابن خلد في خبز الأرز والملح:

لم يعرف الرغف ولا المزدرا
ما صنعت كفاي في جنب القرى

إذا الطابق المنسوب ألقى ثيابه
رغيف بملح طيب النشر خلطة
عليه من الشونيز آثار كاتب
ومن سمس قد زعفرؤه كأنه

وقدت جيوب الخبز شبرين في شبر
حوارجه تغنيك عن أرج العطر
وجلبات وراق ينقط بالحبر
قراضة تبر في لجينية غر

وقال في الباقلاء:

فلاتتس فضل الباقلاء فإنه
إذا جعلوا فيه سذاباً ونعناً
فما صدف العاج المغشي ظواهرأ
بأحسن من مخضرة الغصن إذ بدت

من المن قد وافى به الفضل في الزبر
وجزاء من الزيت المقدس في الذكر
بطاشي أفرند معقدة الخصر
بواكر منها في المجاسد والأزر

ثم قال:

ويا لك باذنجانة سابرية
فجاءت بأثواب الحداد مدلها
وأكرم بهانيا إذ بز ثوبها
فنجعلها شطرين نلقم شطرها

جلاها نسيم الليل نائرة الفجر
بأذناها العم المعقفة الخضر
فأبدت لنا عن واضح الكشح والصدر
ونتبعه قبل الإساعة بالشطر

وقال ابن الرومي في المريسة:

أيا هنتاه هل لك في هريس
أمل الليل صانعها بضرب
وبين يديك من مري عتيق

بلحمان الفراخ أو البطوط
فجاء بها تمدد كالخيوط
توارثه النبيط عن النبيط

أرانا حولَ صُحفتها بُروكاً

فياللّه من لقمٍ هُناكم

وقال مسكين الدرامي في قدور على النار:

كأنَّ قدورَ قومي كلِّ يوم

كأنَّ الموقدين لها جمالٌ

بأيديهم مغارفٌ من حديدٍ

وقلت في هريسة:

هريسةٌ بيضاءُ كافورية

للمرءِ فيها حمةٌ مسكية

تدورُ في مبيضةٍ فضيّه

كما بركَ البعيرُ على الخبيط

تجاذب بالشجيج وبالغطيظِ

قدورُ البرك ملبسة الجلالِ

طلاها الزقّتُ والقطران طالي

تشبهها مغيرة الدوالي

في قصعةٍ صفراءَ ديناريه

وللسلاءِ لمعةٌ تبريه

مثل السوارِ في يدِ الروميه

ومن عجيب ما قيل في قلة الطعام على المائدة، ما أنشدناه أبو أحمد، قال: أنشدني نصر بن أحمد لنفسه:

من حديثي أن ابن بكر دعاني

غرّني منه منظرٌ ولباسٌ

مجلسٌ كالجنانِ حسناً ولكنّ

فلعمري كان الخوانُ ولكنّ

وجفانٍ مثل الجوابي ولكن

غضار الألوان جاءتُ ولكنّ

فإذا ما أدّرتُ فيها بناني

إني ماضغٌ على غير شيء

ترجعُ الكفُّ وهي أفرغُ منها

لو تراني والجوعُ يضحك مني

زادَ في السفرِ مسرفاً مثلما أس

لشقائي فليته ما دعاني

وأثأتُ ومجلسٌ وأوانِ

قبحَ الجوعُ حسنَ تلك الجنانِ

لم يكن ما يكونُ فوق الخوانِ

ليسَ فيهنَّ ما يرى بالعيانِ

ليسَ فيها روائحُ الألوانِ

لم أجِدْ ما أمسهُ بيناني

غير صكِّ الأسنانِ بالأسنانِ

عندَ مدّي لها فد أبي وشاني

عند غسلي يديّ بالأسنانِ

رفاً عند الطعام بالنقصانِ

وسقانا بالمترع الملائن

والغضاراتُ فارغاتُ أنتنا

سكرة فوق جُوعاً تركتني

وقلت في قريب منه:

أُتدعوني وتطعمني يسيراً

فأصبح منك في يوم عسير

هما حرّان من جُوع وسكرٍ

أقولُ وفي غضائره عظامٌ

راحماً علّ جائع سكرانٍ

وتسقينني الكثيرَ على اليسيرِ

فلا ينفكُ في يوم عسير

فيا لك من سعير في سعيرِ

أتعرف من قدور أم قبورِ

ومن جيد ما قيل أيضاً في ذم الدعوة، قول أبي الحسن بن طباطبا، وقد دعاه الكراريسي، فقرب إليه مائدة عليها خيار، وفي وسطها جامات عليها قطر، ولم يصحبها بوارد، فسماها مسيحية، لأنها أشبهت موائد النصرى، وقدم سكباجة بعظام عارية، فسماها شطرنجية، ثم قدم مضيرة في غضارة بيضاء فسماها معقدة لأن البياض ليس المعتدة وهي لا تمس الدهن والطيب، ثم قدم زيرباجة بأطراف جدي صفراء، لقلّة زعفرانها فسماها عابدة، لأن ألوان العباد صفر، ثم قدم لوناً بقضبان محلولة، فسماها قنبية، ثم قدم لوناً بزبيب أسود فسماها سلحية صفراء، ثم قرب فالوذجة قليلة الزعفران والحلاوة، فسماها صابونية، ثم اعتل على الجماعة، بأن ابنه عليل، فحوّهم من منزله إلى بستان، قد طبق بالكراث، وأحضرهم جرة مثلثة، يمزجن منها شراهم، وإذا ضرب أحدهم الغائط نقلها معه، وربط الأكار بجذائهم عجلة تخور عليهم حواراً شبيهاً بغاء فاطمة وكان اسمها فاطمة فقال:

يا دعوة مغبرة قائمة

قد قدموا فيها مسيحيةً

ثم بشطرنجية لم تزلْ

فلم نزلْ في لعبها ساعةً

وبعدها معتدة أختها

في حجرها أطرافُ مؤودة

والقنبياتُ فلا تنسها

أقنبُ ما امتدّ في أصبعي

والحسكياتُ فلا تنسَ في

والموكبياتُ بسطانها

كأنها من سفر قائمة

أضحتُ على أسلافها نادمه

أيدٍ وأيدٍ حولها حائمه

ثم نفضناها على قائمه

عابدة قائمة صائمه

قد قتلتها أمها ظالمه

فحيرتني في وصفها دائمه

أم حية في وسطها نائمه

خندقها أو تادها قائمه

قد تركتُ أنافنا راغمه

والسلحةُ الصفراءُ فاعجب بها

وجام صابونية بعدها

ظلَّ الكراريسيُّ مستعبراً

وقالَ إنَّ ابنيَ عليلٌ ولي

وَوَلَّوْتُ دَايَاتُهُ حَوْلَهُ

وليسَ هذا لسوى كسرةٍ

وقد أكلناها فكم هيجتُ

ثمَّ هَرَبْنَا نَحْوَ بَسْتَانِهِ

ظَلْنَا لَدَى الْكِرَاثِ نَلْهُو بِهِ

وغيابة اللطفِ ففي جرّةٍ

نبولٌ فيها ثم نسقي بها

وعجلة تشدو بألحانها

فكانَ فيما أنشدتُ إذ شدتُ

نشتم من أسمعنا صوتها

ظَلَّتْ تَبْكِي شَجْوً مَا أَبْصُرَتْ

قلو ترانا وترى زادنا

إذ سلحتها أنفسُ هائمه

فافخر بها إذ كانت الخاتمه

من عصبيةٍ في داره طاعمه

قيامته من أجله قائمه

فليسَ إلا عبرةٌ ساجمه

تكسرُ ما زالت له سالمه

من لاطمِ خدأً ومن لاطمه

خوفاً من المنية العازمه

فيا له من زهرةٍ قائمه

محطومةٌ صارتُ لنا حاطمةً

يا لك من عارضةٍ لائمه

وكانت الكيسة الحازمة

من لي من بعدك يا فاطمة

وهي لنا من بعده شاتمه

من أمرنا وهي به عالمه

حياً صادفتُ منا نعماً سائمه

فلما سمعها الكراريسي، حلف لا يدخل أبا الحسن، ولا أحداً من أصحابه داره، واتخذ دعوة، ودعا قوماً

من الشطرنجيين، فقال أبو الحسن: إنما دعاهم لينظروا في الشطرنجية، التي كنا نفضناها على قائمة هل

يمكن فيها من حيلة، وكتب إليه من وقته أبياتاً منها:

طمعت يا أحمق في قمرها

لو أمكن القمرُ قمرناها

فإن أقاموها فما ذنبنا

كنا على ذلك نفضناها

ثم كتب إليه أبو الحسن:

يا من دعاني أطال الله عمرك لي

ولا عدمتك من داعٍ ومحتقلٍ

ظننا لديك بها في أشغل الشغلِ
كأنه متمطٌ دائمُ الكسلِ
بيناً تمتلته من أحسنِ المثلِ
يومَ الفراقِ إلى توديعِ مرتحلِ
مثلَ الفقيرِ إذ ما لاح في سملِ
فصار إيمانه قولاً بلا عملِ
كأنما وقعت منه على طللِ

ما أنسَ لا أنسَ حتى الحشر مائدةً
إذا أقبلَ الجديُّ مكشوفاً ترائبهُ
قد مدَّ كلتا يديه لي فذكرني
كأنه عاشقٌ قد مدَّ بسطتهُ
وقد تردى بأطمار الرِّقاقِ لنا
فليت شعري ماذا كان أنحلّه
مددت كفي فلم ترجع بفائدة

وأخذ أبو الحسن قوله شطرنجية من قول جحظة أظنه:

قد طبختُ بالماء في بُرمتِه
أَلعبُ بالشطرنج في قصعتهِ

قدَّم لي أعظمَ حوليةٍ
فلم أزلُ زَلتُ به نعلهُ

ومن جيد الوصف، قول أبي الفضل بن العميد في وسط: أنشدنا أبو أحمد أنشدنا أبو الفضل بن العميد
لنفسه:

تأليفَ شطريه بالهندمة
ومن عجز ناهضة ملقمه
ودرهم باللوز ما درهمه
صفائح من بيضة مدغمه
بملح ومن أسطر معجمه
فوافي كحاشية معلمه
بديع التغايف والنمنمه

ودونك وسطاً أجاد الصنائعُ
فمن صدر فائقة قد نوت
ودنر بالجوز أجوازه
وقابل زيتونها والجبن
فمن أسطر فيه مشكولة
وطرز بالبقل أعطافه
موسى تخال به مطرفا

وأشد في الشواريز:

يزهى عليك بخال فيه مركز
بدائع بين تسهيم وتطريز
يسراه بالكأس أو يمناه بالكوز
في صحن وجنته خيلان شونيز

ما متعة العين من خد تورده
مستغرق الحسن في توسيع وجنته
يوفي على القمر الموفي إذا اتصلت
انهى إليك من الشيراز إن وضحت

وقد جرى الزيتُ في مثنى أسرته

وقال ابن خلاد:

فضارعتُ فضةً تُعلَى بإبريزِ

فتقسم بالله أن تكرمه

تخطرُ في الحلةِ المسهمه

أطايبَ كالبردةِ المعلمه

كواكب في الليلةِ المظلمه

وسوفَ يزوركَ شيرازها

يميسُ بشونيزةِ كالعروسِ

وتغشى موائدَ قد عوليتُ

تباهى بجاماتها والغضار

وأول من ذلك الفالوذ أبو الصلت جاهلي يذكر عبد الله بن جدعان:

وآخرُ فوقَ دارته ينادي

لهُ داعٍ بمكةَ مشمعلٌ

لبابُ البرِّ يلبكُ بالشهادِ

إلى رُدح من الشيزى عليها

لباب البر يعني النشا.

وكان لعبد الله حفنة يأكل منها القائم، والقاعد، والراكب، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كنت أستظل بحفنة عبد الله بن جدعان في الهواجر".

ومن النوادر في هذا: ما أخبرنا به، أبو أحمد، عن رحاله، قال: سأل أعرابي عن رأيه في الفالوذ فقال: والله لو أن موسى أتى فرعون بفالوذ لآمن به ولكنه أتاه بعصاه. ومن مصيب التشبيه فيه قول بعضهم:

وإن كان بالالطاف غيرَ خليقِ

ولاطفه بالشهدِ المخلَقِ وجهه

كواكبُ تبرٍ في سماءِ عقيقِ

كأنَّ اصفرارَ اللوزِ في جنَّباتِه

وقلت:

وظرف كافور وحشو الخلقِ

حمرأ في بيبضاء فضية

اطافةُ الدَّمعِ بجفنِ المشوقِ

يطوفُ الدُّهنُ بأرجائه

أنصافُ دُرٍّ ركبت في عقيقِ

كأنما اللوزُ بحافاتهِ

ومن المشهور قول ابن الرومي في اللوزينج:

من أعينِ القطرِ إذا قَبَّبا

كأنما قرَّتْ جلابيبُه

أرقُّ جسماً من نسيمِ الصَّبَا

مستكثفُ الحشورِ على أنه

دوراً ترى الدُّهنُ له لولبا

يَدورُ بالنفحةِ في جامه

لو أنه ثغرٌ لروميّةٍ

وقلت في قطائف:

كثيفةُ الحشو ولكنها

رُشّت بماء الوردِ أعطافها

كأنها من طيبِ أنفاسها

جاءت من السكر فضية

قد وهبَ الليلُ لها بُردَه

وقلت في دم الباذنجان:

قرانا بقولاً إذ أنخنا ببابه

وقفنا عليه الركب نساله القرى

فصامَ وصومُ الليلِ ليس بجائزِ

أجاز صيامَ الليلِ حين استفرّه

فبتنا أديمَ الليلِ نطوي على الطوى

وأطعمنا لما مرقنا من الدجى

مُدوّرةً سودَ المتونِ كأنها

فأبشارها تحكي بطون عقاربِ

لكان منه الواضح الأشنبا

رفيقةُ الجلدِ هوانيه

منشورة الطيِّ ومطويه

قد سرقت من نشرِ ماريه

وهي من الأدهان تبريه

ووهبَ الخصبُ لها زيه

فأصبحَ فينا ظالماً للبهائمِ

ونحنُ على أعناقِ أغبرِ قاتمِ

وإن جازَ في فقه اللثامِ الأشائمِ

تعاورُ ضيفِ في دجى الليلِ عائمِ

كأننا على غبراء من ظهرِ واشمِ

دَحَاريجَ لا تتساقُ في حلقِ طاعمِ

خصي الزنجِ لاحت تحت فيشِ قوائمِ

وأرؤسها تحكي أنوفَ محاجمِ

وأخبرنا أبو أحمد، حدثنا إسماعيل بن إسحاق القاضي، حدثنا نصر قال: قال الأصمعي: قيل للفاحري أي التمر أجود؟ قال الجرد الفطس الذي كأن نواه ألسن الطير، تضع الواحدة في فيك، فتجد حلاوتها في كعبك، يعنى الصبحاني تمر العلية.

وأخبرنا أبو أحمد، حدثنا إسماعيل بن أبي أويس، حدثني أبي، حدثني عبد الله بن دينار، عن عبد الله بن عمر، قال: اجتمع أربعة رهط: سروى، ونجدي، وحجازي، وشامي، فقالوا: تعالوا نتناعت الطعام أية أطيب: قال الشامي: إن أطيب الطعام ثريدة موسعة زيتاً، تأخذ أدناها فيضطر عليك أقصاها تسمع لها وقيماً في الحنجرة، كتفحم بنات المخاض في الحرف.

قال السروي: إن أطيب الطعام خبز بر، في يوم قر، على حمر عشر، موسع سمناً وعسلاً.

فقال الحجازي: أطيب الطعام خنس فطس بإهالة حمس يغيب فيها الضرس.
فقال النجدي: أطيب الطعام بكر سنمة مغتبطة نفسها غير ضمنه، في غداة شبمة، بشفار خدمه، في قدور
جذمه.

ثم قال الشامي: دعوني أنعت لكم الطعام، إذا أكلت فابرك على ركبتيك، وافتح فاك، وأحفظ عينيك،
وامرح أصابعك، وعظم لقمته، وأحتسب نفسك. قال عبد الله بن دينار: ما سمعت ابن عمر حدث هذا
الحديث قط فبلغ قول الشامي واحتسب نفسك إلا ضحك.
وقلت في قصيدة:

طَرَارَ الصَّبْحِ فِي ثَوْبِ الظَّلَامِ
كَعَرَفِ الطَّرْفِ فِي زَمَنِ قَتَامِ
يَدُلُّ عَلَى المَشْوَقِ المَسْتَهَامِ
وَمَدَّتْ نَحْوَهَا عَيْنِ اهْتِمَامِي
كَأَنَّ الدَّبْسَ عَلِقَ بِالْغَمَامِ
وَدُونَ النَّارِ بَادِرَةُ الحَسَامِ
فَلَيْسَ يَزُورُ إِلَّا فِي المَنَامِ

وَعَدْتُ عَصِيدَةً شَقْرَاءَ تَحْكِي
تَرَاهَا حِينَ تَبْرُزُ فِي ظَلَامِ
كَذِي دَلٍّ عَلَيْهِ مَعْصِرَاتُ
فَلَمَّا أَنْ صَبَا قَلْبِي إِلَيْهَا
تَقَاصَرَ دُونَهَا كَفَايَ حَتَّى
فَدُونَ السَّمَنِ أَطْرَافُ العَوَالِي
أَتَاكَ عَصِيدَةً أُمُّ طَيْفٍ سَلْمَى

وقلت في سمكة طرية:

فَجَازَ بِنَا فِي الغَيْضِ شَرًّا مَجَازِ
إِلَيْنَا بظَهْرٍ مِثْلِ جَوْجِ بَازِ
سَحَابٌ يَسُحُّ الوُدْقَ فَوْقَ عَزَازِ

يَقْبِضُ لِمَكْتُوبِ مَاجِرًا حَتْفَهُ
بِعَتْنَا إِلَيْهِ مَنَسْرَ البَازِ فَاثْنَى
فَأَطْفَأَ نِيرَانَ الطُّهَاءِ كَأَنَّهَا

العزاز: الأرض الصلبة.

وقال كشاحم في السمك:

وَلَكِنهَا فِي حَجْبِهَا تَتَخَطَفُ
رَوَاصِدٌ إِلَّا أَنهَا لَيْسَ تَطْرَفُ
خَنَاجِرٌ فِي إِيْمَانِنَا تَتَعَطَفُ

وَمَحْجُوبَةٌ فِي البَحْرِ عَنِ كُلِّ نَاطِرٍ
أَخَذْنَا عَلَيْهِنَّ السَّبِيلَ بِأَعْيُنٍ
فَجَاءَ بِهَا بِيضَ المَتُونِ كَأَنَّهَا

أخبرنا أبو أحمد، عن الصولي، عن محمد بن القاسم، عن الأصمعي، قال: دخلت على الرشيد، وهو يأكل

الفالوذ فقال: يا أصمعي هل قالت العرب في هذا شيئاً؟ فقال يا أمير المؤمنين، وأن لها هذا ولكن قالت فيما دونه، قال وما قالت؟ قال: قال مزرد ابن ضرار أخو الشماخ:

ولما غدتُ أُمِّي تزورُ بناتها
أغرَّتْ على العِكمِ الذي كان يُمنعُ
خلطتُ بصاعي حنطةٍ صاعِ عجوةٍ
إلى صاعِ سمنٍ فوقها يتربُّعُ
ودبلتُ أمثالَ الأثافي كأنها
روؤسُ نُقَادٍ قُطعتْ يومَ تجمَعُ
وقلتُ لبطني أبشري اليومَ إنهُ
حمى آمنًا مما تفيذُ وتجمَعُ
فإنْ تكُ مصفوراً فهذا دواؤهُ
وإنْ تكُ جوعاناً فذا يومَ تشبَعُ

فضحك الرشيد، وقال: يا أصمعي ما لدنيا ليس فيها مثلك حسن، فدعوت له وفضلته على الملوك بالعلم، فقال يا أصمعي نحن كل يوم نشيع.

ومما يجري مع هذا القول في الرحا: فمن أجود ما قيل فيها ما أنشدناه أبو أحمد:

عجبتُ من سائرةٍ لا تبرحُ
دائبةٌ تَمسي بحيثُ تُصبحُ
ينهاك عن ركوبها من ينصحُ

والحمد لله وحده.

الفصل الثالث

ذكر الشراب

وما يجري معه من رقيق المعاني

للقدماء في صفة الخمر قول الأعشى:

تريك القذى من دونها وهي دونه

يريد أنها من صفاتها، تريك القذى عالية عليها وهي في أسفلها.

ومن أطرف ما قيل في صفاء الخمر قول أبي نواس:

تري حيثما كانت من البيت مشرقا
وما لم تكن فيه من البيت مغربا
إذا عبَّ فيها شاربُ القوم خلتهُ
يقبلُ في داج من الليل كوكبا

أخذه ابن الرومي فقال وأحسن:

ومهفهفٍ تمت محاسنهُ
حتى تجاوزَ منيةَ النفسِ

وكانه والكأس في فمه

فجعل الشارب قمراً، وليس هذا في بيت أبي نواس.
وقال أبو نواس، يذكر صفاء الخمر ورقتها وحبابها:

قمرٌ يقبلُ عارض الشمسِ

يمنعُ الكفَّ ما يبيحُ العيونَا

لو تجمعنَ في يدٍ لاقتنينا

دئراتِ بروجها أيدينا

فاذا ما غربنَ يغربنَ فينا

قلتُ قومٌ من قرّةٍ يصطلونا

فإذا ما اجتليتها فهباءٌ

ثم شجتُ فاستضحكت عن جمان

في كؤوس كأنهنَّ نجومٌ

طالعاتٌ مع السقاةِ علينا

لو ترى الشربَ حولها من بعيدٍ

وقلت في لطافة الخمر والزجاجة:

كنجوم تلوخُ في أبراج

أم زجاجاً سكبتُم في زجاج

نقشُ عاج يلوخُ في سقف ساج

قلتُ والراحُ في أكف الندامي

أمداماً فرطتمُ لمدامٍ

وكانَ النجومَ والليلُ داج

ومن أعجب ما قيل في صفاتها قول الناشء:

فليس شيء عندها إلا القذى

وقلت:

فرحتُ كأني في مدارِ الكواكبِ

وليسَ بمرودٍ مع الصبحِ غاربِ

تطيبُ لك الصهباءُ من كف قاطبِ

ومشمولةٍ دارت عليَّ كؤوسها

أنازَ عُها بداراً مع الليلِ طالعاً

وقد شابَ لينا بالشماسِ وإنما

وأنشدني أبو أحمد:

فصارَ في البيتِ للمصباحِ مصباحُ

أراحنا دارنا أم دارنا الراحِ

بِ وكادتُ تضيءُ للمصباحِ

ما يعلمُ اللهُ من حزنٍ ومن قلقِ

فنبهتني وساقِي القومِ يمزجها

قلنا على علمنا والشكُّ يغلبنا

ومثله قول البحترى:

فأضاءت تحت الدُّجينة للشَّرِّ

وأحسن ما وصفت به كأس على فم قول ابن المعتز:

ظبيُّ خليٍّ من الأحزانِ أودعني

كَأَنَّهُ وَكَأَنَّ الكَأْسَ فِي فَمِهِ

وقلو الآخر:

هَلَالٌ أَوَّلِ شَهْرِ غَابَ فِي الشَّفَقِ

كَأَنَّمَا الكَأْسُ عَلَى ثَغْرِهَا

مَوْصُولَةٌ بِالْأَنْمَلِ الخَمْسِ

يَاقُوتَةٌ صَفْرَاءُ قَدْ صِيرَتْ

وَاسِطَةً لِلْبَدْرِ وَالشَّمْسِ

قَدْ ذَهَبَتْ نَفْسِي عَلَى نَفْسِهَا

وَآفَةُ النَفْسِ مِنَ النَفْسِ

وقلت:

فَيَسْقِينِي وَيَشْرَبُ مِنْ عَقِيقِ

خَلِيقِ أَنْ يَشْبَهَ بِالخَلُوقِ

كَأَنَّ الكَأْسَ مِنْ يَدِهِ وَفِيهِ

عَقِيقٌ فِي عَقِيقِ فِي عَقِيقِ

الكأس الحمراء مثل العقيق، واليد المخضوبة كالعقيق، والشفة مثل العقيق، في لوها.

وقلت:

وَدَارَ الكَأْسِ فِي يَدِ ذِي دَلَالِ

رَشِيقِ القَدِّ يَعْرِفُ بِالرَّشِيقِ

يَحْلِي بِالتَّبَسُّمِ دَرَّ ثَغْرِ

تَخَلَّه شَوَابِيرُ العَقِيقِ

رَأَيْتُ الكَأْسَ فِي يَدِهِ وَفِيهِ

وَجَنَحُ اللَّيْلِ مَنْصَرَفِ الفَرِيقِ

فَفِي فَمِهِ هَلَالٌ فِي غُرُوبِ

وَفِي يَدِهِ الثَّرِيَا فِي شُرُوقِ

وأحسن ما قيل في الشروق وأتمه، قول ابن الرومي، وأتى بشيء لم يسبق إليه، وهو تشبيه الحجاب بفلق اللؤلؤ، وهو على الحقيقة تشبيهه والناس قبله، إنما شبهوه باللؤلؤ الصحيح، وهو قوله:

لَهَا صَرِيحٌ كَأَنَّهُ ذَهَبٌ

وَرِغْوَةٌ كَاللَّالِيَاءِ الفَلِقِ

فشرحت ذلك وقلت:

وَكَأْسٌ تَمْتَطِي أَطْرَافَ كَفِّ

كَأَنَّ بِنَانَهَا مِنْ أَرْجَوَانِ

أَنَازَ عَمَّا عَلَى العَلَّاتِ شَرِبًا

لَهِنَّ مَضَاحِكٌ مِنْ أَقْحَوَانِ

يَلُوحُ عَلَى مَفَارِقِهَا حَبَابٌ

كَأَنْصَافِ الجِمَانِ وَالفَرَاثِدِ

وفيه هذا زيادة، لأن في الحباب، ما هو كثير يشبهه بأنصاف الفرائد، وهي كبار اللؤلؤ، ومنه ما هو صغير يشبهه بأنصاف الجمان وهي صغار اللؤلؤ:

وَطَالَعَنِي الغَلَامُ بِهَا سَحِيرًا

فَزَادَ عَلَى الكَوَاكِبِ كَوَكِبَانِ

وخالفها بفرع أرجواني

ووافقها بخدّ أرجوان

وأغرب ما قيل في الحباب قول أبي نواس:

حبياً كمثل جلاجلِ الحجلِ

فإذا علاها الماءُ ألبسها

كتبتُ بمثلِ أكارعِ النملِ

حتى إذا سكنتُ جوامحها

ومن غريب ذلك وبديعة الأول ويقال إنه ليزيد بن معاوية:

كرقة ماء المزن في الأعين النجلِ

وكأس سبهاها التجر من أرضِ بابلِ

عيون الدبا من تحت أجنحة النملِ

إذا شجّها الساقى حسبتُ حبابها

وأبدع ما قيل في الحباب قول أبي نواس:

صُبْحاً تولد بين الماءِ والذهبِ

قامت تريني وأمرُ الليلِ مجتمعُ

حصباءُ دُرٍّ على أرضٍ من الذهبِ

كأنَّ صغرى وكبرى من فراقعها

وخطأه النحويون في قوله كبرى وصغرى من فواقعها أحذه ابن المعتز فقال:

ح صباح وأذن الناقوسُ

يا خليلي سقاني فقد لا

في نواحيه لؤلؤ مغروسُ

من كميت كأنها أرضُ تبرِ

وقلت:

لاحتُ تطرّزُ حلة الظلماءِ

راح إذا ما الليل مدّ رواقه

زهراتِ أرضٍ أو نجوم سماءِ

حتى إذ مُزجتُ أراك حبابها

وقلت في المعنى الأول:

إذا ما أدار الكأسَ أُحورُ عاقدُ

تبيتُ لي اللذاتُ معقودة العرى

كؤوس لأعناقِ الليالي قلائدُ

يدبُّ الدجى عن وجهِ نارِ تحله

وقال ابن المعتز:

ساق علامة دينه في خصره

قد حثني بالكأسِ أولَ فجره

وكان طيبَ نسيمها من نشره

فكان حمرة لونها من خده

عن ثغرها فحسبتُه من ثغره

حتى إذا صبَّ المزاجُ تبسّمت

وقال:

للماء فيها كتابةٌ عجبُ

كمثل نقشٍ في فصٍّ ياقوتِ

وقلت:

دارَ في الكأس عقيقٌ فجرى

واطفُ الدُرِّ عليه فطفح

نصب الساقى على أقداحها

شباكُ الفضة تصطادُ الفرَح

وقال ابن الرومي في لطافتها:

لطفتُ فقد كادتُ تكونُ مشاعةً

في الجوِّ مثل شعاعها ونسيمها

ومن الاستعارة البديعة قول ابن المعتز:

فأضحك عن ثغر الحباب فم الكأس

وقلت:

وشراب طوى الزمانَ فحاكى

نفسَ الوردِ رقةً ونسيما

إن يكنْ بالعقول غيرُ رحيم

فهو بالروح لا يزالُ رحيمًا

ومن أحسن ما قيل، في خيال الكأس، على اليد قول بعض المحدثين:

كأنَّ المديرَ لها بالميين

إذا قام للسقي أو باليسارِ

تدرَّعَ ثوباً من الياسمين

لَهُ فردٌ كم من الجنارِ

وقال السري في معناه:

وبكر شربناها على الورد بكرةً

فكانت لنا ورداً على خيرٍ موردِ

إذا قام مبيضُ الجبين يُديرها

توهمته يسعى بكمٍّ مورِدِ

وقال البحترى:

ألا ربما كأس سقاني سلافها

رهيفُ التنتي واضح الثغر أشنبُ

إذا أخذتُ أطرافه من قنوها

رأيت اللجينَ بالمدامة يذهبُ

وقلت:

شغلت كلتا يديه بقهوة

فقلت أرى نجمين أم قدحينِ

كأنَّ خيالَ الكأسِ فوقَ ذراعِه

غشاءً من العقيانِ فوقَ لجينِ

وقلت أيضاً:

كأسٌ وبيّن جُفونه كأسانِ
كفُّ المديرِ ووجنةُ الندمانِ

يسعى إليّ مُقرطَقٌ في كفه
وتناسبتُ فيها بغيرِ قرابةٍ

ومن أحسن ما قيل في الزجاجاة ورقتها وصفائها قول بعضهم:

وتشابهها فتقاربَ الأمرُ
وكأنه قَدَحٌ ولا خمرُ

رَقَّ الزُّجاجُ وراقت الخمرُ
فكأنها خمرٌ ولا قَدَحٌ

وقال ابن المعتز في رقة الخمر وصفائها وذكر الكأس ولطافتها:

فليسَ لناظرٍ فيها طريقُ
وبين الرّاح تحرقها البروقُ

وكأسٌ تحجبُ الأبصارُ عنها
كأنَّ غمامةً بيضاءَ بيني

وقلت:

وجنحُ الليل مرتفعُ السجوفِ
لمعنى دَقِّ في ذهنٍ لطيفِ

وندمان سقيت الرّاح صرفاً
صفتُ وصفتُ زجاجتها عليها

وليس هذا التشبيه بالمختار، ولو أن بعض الناس يستملحه لأنه أخرج ما يرى بالعيان إلى ما يعرف بالفكر.

وقال بعضهم:

يجدون رِيًّا من إناءِ فارغِ

خفيتُ على شرابها فكأنهم

وقال غيره:

فكان الوزنُ بينهما سواء

وزنًا الكأسَ فارغةً وملاى

وقال ابن الرومي:

في الجوّ مثل شعاعِها ونسيمِها

لطفتُ فقد كادتُ تكونُ مشاعةً

وقلت:

صفراء تلمعُ في زجاجِ أقرمِ
شمسُ النهار تختمتُ بالمشتري

حملتُ بخصرها إناءَ مدامةٍ
فكأنها واللحظُ ليس يحورها

ومن أجود ما قيل في الأباريق، وفضول الكأس، وأنشده إسحاق:

ظباءٌ بأعلى الرِّقمتينِ قيامُ
من اللينِ لم يخلقُ لهنَّ عظامُ

كأنَّ أباريقَ المدام لديهم
وقد شربوا حتى كأنَّ رقابهم

وقد أحسن مسلم في قوله:

إبريقنا سلب الغزاة جيدها

وأحسن الآخر وينسب إلى بشار:

كأن إبريقنا والقطر في فمه

إلا أن قوله طير رديء والجيد طائر، وأجازه أبو عبيد ولم يجزه غيره.

وقلت:

وحكى المدير بمقلتيه غزالا

طير تناول ياقوتا بمنقار

وحسب ما يضحكن بيكينا

تعقد في الكأس تلابينا

تضحك في الكأس أباريقنا

كأن أعلاها إذا أسفرت

وأول من شبه الأبريق بالأوزليبيد في قوله ولم يذكر الخمر:

إذا تأقوا أعناقها والحواسلا

تضمن بيضا كالإوز ظروفها

فأخذه بعضهم فقال:

دم الزق عنا واصطكاك المزاهر

إوز بأعلى الطف عوج الحناجر

ويوم كظل الرمح قصر طوله

كأن أباريق المدام عشية

وقال أبو الهندي:

أباريق يعلق بها وضر الزبد

رقاب بنات الماء تفرع للرعدي

سيغنى أبا الهندي عن وطب سالم

مقدمة قزا كأن رقابها

وقوله تفرغ للرعدي زيادة على ما تقدم.

وأما فضول الكؤوس فأحسن ما قيل في قول أبي نواس:

مهاً تدريها بالقسي الفوارس

وللماء ما دارت عليه القلائس

قرارتها كسرى وفي جنباتها

فللخمر ما زرت عليه جيوبهم

وقال السري الموصلبي:

بفضلاتهن أكاليل نور

يلوح عليها بياض النحور

كأن الكؤوس وقد كللت

جيوب من الوشي مزرورة

فجئت به في بيت وقلت:

وهبت لها قلبي وأخدمتها فكري

وبيض تهاوى في مزرعة صفر

فدارت بأقداح كأن فضولها

سوالف تبدو من معصفرة حمر

وقال السري أيضاً:

وصفراء من ماء الكروم شربتها
تبدت وفضل الكاس يلمع ساطعا

على وجه صفراء الغلائل غصنة
كأترجة زينت بإكليل فضة

وقال الناشء:

ملوك ساسان على كأسها

كأنها في عز سلطانها

فخمرها من فوق أذقانها

وماؤها من فوق تيجانها

يصف كأساً نقش فيه صور ملوك ساسان.

ومن أجود ما قيل في صفة الإناء، وحسنه، مع صفاء الخمر، قول ابن المعتز:

غدا بها صفراء كرخية

كأننا في كأسها تتقد

فتحسب الماء زجاجاً جرى

وتحسب الأقداح ماءً جمداً

ومن أجود ما قيل في صوت الأباريق ما أنشدناه أبو أحمد:

وقد حجب الغيم السماء كأنها

يمد عليها منه ثوب ممسك

ومجلسنا في الجو يهوي ويرتقي

وإبريقنا في الكأس يبكي ويضحك

ومن أحسن ما قيل في ابتداء السكر قول بعضهم:

ولها ديبب بالعظام كأنه

فيض النعاس وأخذ بالمفصل

عبقت أكفهم بها فكأنما

يتنازعون بها سخاب قرنفل

وقول أبي نواس:

فأرسلت من فم الأبريق صافية

كأنما أخذها بالعين إغفاء

وقوله:

ثم لما مزجوها

وثبت وثب الجراد

ثم لما شربوها

أخذت أخذ الرقاد

ومن شعر المتقدمين قول الأخطل:

أناخوا فجرًا شاصيات كأنها

رجال من السودان لم يتسر بلوا

لم يتسربلوا تميم حسن، والبيت من أحسن ما قيل في الزقاق:

فقلت اصبحوني لا أبا لأبيكم
وما وضعوا الأثقال إلا ليفعلوا

تدبُ ديبباً في العظام كأنه
دبيبُ نمال في نقاً يتهيلُ

أحسن ما قيل في خروج الخمر من الميزال قول أبي نواس:

وخندريسُ باكرت حانتها
فودّجوا خصرها بميزالِ

فسالَ عرقٌ على ترائبها
كأنَّ مجراهُ قتلٌ خلخالِ

وقال ابن المعتز:

تخرج من دنّها وقد حدبت
مثل هلالِ بدا بتقويسِ

قوله بدا بتقويس فضل لا يحتاج إليه، لأن الهلال لا يبدو إلا بتقويس. وقال:

جاءتك من بيتِ خمارٍ بطينتها
صفراء مثل شعاع الشمسِ تنقدُ

فأرسلت من فم الإبريق فانبعثت
مثل اللسانِ بدا واستمسك الجسدُ

إلا أن هذا في وصفها جارية من فم الإبريق، وقال في المعنى الأول:

سعى إلى الدنّ بالميزال يبقره
ساق توشح بالمنديل حين وثب

لما وجاهها بدت صفراء صافية
كأنه قد سيراً من أديم ذهب

وقلت:

قد بزل الدنّ فقومي انظري
زنجيةً تفتلُ خلخالاً

واسقنيها واشربي واطربي
وجرّري في الهواء أذيالاً

تتعمي ما اسطعتِ واستمتعي
إن وراء المرء أهوالاً

أبلغ ما قيل في الكبر الذي يعتري المنتشي قول الأخطل يخاطب عبد الملك:

إذا ما نديمي علني ثم علني
ثلاث زجاجاتٍ لهنّ هديرُ

خرجتُ أجرُ الذيلِ حتى كأنني
عليك أميرَ المؤمنينَ أميرُ

وإنما صار ذلك، أحسن من غيره، لأنه خاطب به ملك الدنيا وقال: أنا أمير عليك في ملك الحال.

والأصل فيه.

قول حسان:

ونشر بها فتركنا ملوكاً
وأسدأ ما ينهنها اللقاءُ

ومنه قول المخبل يشكري:

وإذا سكرتُ فإنني
وإذا صحوتُ فإنني
رَبُّ الخورنقِ والسريرِ
رَبُّ الشويهةِ والبعيرِ

وأجاد ابن الرومي القول في تفسيح أمل السكران حتى يأمل ما لا يجوز وجوده وهو قوله:

ومدامةٌ كحشاشةِ النفسِ
لنسيمها في قلبِ شاربيها
لطفتُ عن الإدراكِ والحسِّ
روحُ الرِّجاءِ وراحةِ النفسِ
وتمدُّ في أملِ ابنِ نشوتها
حتى يؤمل مرجعِ الأمسِ

وأحود ما قيل في صفة السكران قول عبد الله بن عبد الله بن عتبة:

وشربك من ماءِ الكرومِ كأنه
صريعُ مدامٍ والندامى يلونه
إذا مجَّ صرفاً في الإناءِ خضابُ
وفي الشَّدقِ قيءٌ سائلٌ ولعابُ
وقريب منه قول الآخر في حماد الراوية:

نعم الفتى لو كان يعرفُ ربَّه
هدلتُ مشافره المدامَ وأنفه
ويقيمُ وقتَ صلواته حمادُ
مثل القُدومِ يسنها الحدادُ
وابيضُّ من شربِ المدامةِ وجهه
فبياضه يومَ الحسابِ سوادُ

وأبدع ما قيل في صفة أنف السكران إذا تورم من السكر قول الآخر:

وشربت بعد أبي ظهير وابنه
ومن جيد ما قيل في مبادرة اللذات قول أحمد بن أبي فتن:

جدد اللذاتِ فاليومِ جديد
اله إن أمكنَ يومَ صالح
وامض فيما تنتهي كيف تريدُ
إنَّ يومَ الشربِ لا كان عتيدي

وقال ديك الجن:

تمتع من الدنيا فإنك فاني
ولا تنتظرن اليوم في لهو غد
وإنك في أيدي الحوادثِ عاني
فإني رأيتُ الدهرَ يسرعُ بالفتى
ومن لغدٍ من حادثِ بأمانِ
فأما الذي يمضي فأحلامُ نائم
وينقله حالينِ يختلفان
ونحوه قول عمران بن حطان:

ديوان المعاني - أبو هلال العسكري

يأسفُ المرءُ على ما فاتهُ

وترأهُ فرحاً مستبشراً

عجباً من فرح النفسِ بها

إنها عندي وأحلام الكرى

وقال ابن المعتز:

من لباناتٍ إذا لم يقضها

بالتي أمضى كأن لم يمضها

بعد ما قد خرجت من قبضها

لقريب بعضها من بعضها

وبادر بأيام السرورِ فإنها

وخلَّ عتابَ الحادثاتِ لوجهها

تعالوا فسقوا أنفساً قبل موتها

ونحر عجير السلوي جملة لأصحابه وجعل يشرب معهم ويقول:

سراعٌ وأيامُ الهمومِ بطاءُ

فإنَّ عتابَ الحادثاتِ عناءُ

ليأتي ما يأتي وهنَّ وراءُ

واتركاني من عتابٍ وعدلٍ

واسقياني أبعد الله الجمل

عللاني إنما الدنيا عللٌ

وانشلا ما اغبرَّ من قدريكما

وقال أحمد المدرائي:

واعصِ من لامك فيها وعدلٌ

وإذا قيلَ نصاباً قل أجلٌ

أنتَ فيها وسوى ذاك أملٌ

عافر الرّاحِ ودع نعتَ الطللِ

غادها واسع لها واغربها

إنما دنياك فاعلم ساعةً

ولابن بسام:

نيا مواصلةُ الخليلِ

مكروه من قبلِ النزولِ

تدري متى وقتُ الرّحيلِ

إنَّ الملامَ من الفضولِ

واصلُ خليلك إنما الدُّ

وانعم ولا تتعجل الم

بادر بما تهوى فما

وارفضُ مقالةً لائم

وقد أجاد ديك الجن في قوله يصف السكر، واسمه عبد السلام بن رغبان الحمصي:

قتلتُ إنسانا بغيرِ حلّه

والسكرُ مفتاحُ لهذا كلّه

أستغفرُ الله لذنبي كله

وانصرمَ الليلُ ولم أصله

قد أوطأ إلا أنه أصاب المعنى. وقال أيضاً:

مشعشة من كفّ ظبي كأنما
تتناولها من خدّه فأدارها
فظلت بأيدينا نتعتع روحها
وتأخذُ من أقدامنا الراحُ ثارها
وهذا معني بديع حسن أخذه أبو تمام منه وكان كثير الأخذ منه فقال:

إذا اليدُ نالتها بوترٍ توقّدتُ
على ضعفها ثم استقادتُ من الرجلِ
وبيت عبد السلام أجود منه.

أحسن ما قيل في وصف الساقى إذا أخذ الكأس قول الآخر:

كأنه والكأسُ في كفه
بدرٌ إلى جانبه كوكبُ
وقلت:

وظالعني الغلامُ بها سحيراً
فزادَ على الكواكبِ كوكبانِ
ومما يدخل في مختار هذا المعنى قول ابن الرومي:

ومهفهف تمت محاسنه

وقد مر. ولم أسمع في هذا المعنى أجود ما قول الآخر:

فكانه وكأنها وكأنهم
قمرٌ يدورُ على النجومِ بأشمسِ
ومثله في الجمع قول الآخر:

فالكفُّ عاجٌ والحبابُ لآلىءُ
والراحُ تبرٌ والزجاجُ زبرجدُ
وأجود ما قيل في قيام السقاة بين الندامى قول ابن المعتز:

بين أقداحهم حديثٌ قصير
هو سحرٌ وما سواه الكلام
وكانَ السقاةَ بينَ الندامى
ألفاتٌ بينَ السطورِ قيامُ
فشبه اصططاف الشرب جلوساً بالسطر والسقاة بينهم بالآلفات فأحسن.

ومن البارع الداخل في هذا الباب قول عنترة:

وإذا سكرتُ فإنني مستهلكُ
مالي وعرضي وافرٌ لم يكلم
وإذا صحوتُ فما أقصر عن ندى
وكما علمت شمائلي وتكرمي
أخذه البحري فزاد عليه في قوله:

وما زلتَ خللاً للندامى إذا انتشوا

تكرّمتَ من قبلِ الكؤوسِ عليهم
فما اسطعنَ أن يحدثن فيك تكرّماً

والزيادة أن عنترة ذكر أنه يستهلك ماله إذا سكر، والبحثري ذكر أنه تكرم قبل الكؤوس فيبالغ حتى لا تستطيع الكؤوس أن تزيده تكراً.

ومن أطرف ما قيل في حسن الندامي قول بعضهم:

على الكأس والندمان غير جهول
ولست إلى ما ساءهم بعجول

لقد علم الريحان والراح أنني
فإن ساءني منهم مقام غفرته

قوله:

لقد علم الريحان والراح أنني

في غاية الظرف. وشبيه البيت الثاني قول الآخر:

س فأزرى إدمانه بالحلوم
خطه عند ذلك قول النديم

ليس من شأنه إذا دارت الكأ
قول ما أسخط النديم وإن أس

إلا أن في هذين البيتين عيبين: أحدهما التضمن والآخر قوله عند ذلك وهي زيادة لا يحتاج إليها. وقال يحيى بن زياد:

لأصرفه عنها تحس وقد أبقى
وأشرب ما أبقى وأسقيه ما اشتهى
ولا سامع يقظان شيئاً من الأذى

ولست له في فضلة الكأس قائلاً
ولكن أحييه وأكرم وجهه
وليس إذا ما نام عندي بموقف

وهذا جامع جداً. ومن جيد ما قيل في مدح الندم قول أعرابي وقد قيل له: كم تشرب من النبيذ؟ قال على قدر الندم.

ومن المنظوم قول بعضهم:

فأضحى أماً لدي مطاعاً
صيرت بيننا المدام رضاعاً

ورضيع راضعت في كبر السن
لم يكن بيننا رضاعاً ولكن

وهو من قول الناشء: المدام الرضاع الثاني. ويقولون: ذكر الرجل عمره الثاني.

وروى ابن عون، عن ابن سيرين، أنه قال: لا تكرم أخاك بما يشق عليه، قالوا: معناه لا تسقه من النبيذ ما لا يقوم به.

وجعل آخر الندم قطب السرور في قوله:

لغير الرّاحِ إلا للنديم
رَحَا اللذاتِ في الزّمنِ القديمِ

أرى للرّاحِ حقاً لا أراهُ
هو القطبُ الذي دارتْ عليهِ

وقلت:

كالبدْرِ من خللِ الغمامِ
ح يَميسُ في خلعِ الظلامِ
واخترتُ معصيةَ المدامِ
م سوى منادمةِ الكرامِ
م فقد حننتُ إلى المدامِ
أغناك عن صفو المدامِ

لما تبدّى وجههُ
وكأنهُ ضوؤُ الصبا
آثرتُ طاعةَ حبه
لا أستفيدُ من المدا
فإذا حننتُ إلى الندا
خلقِ النديمِ إذا صفا

وفاجر كاتب نديماً فقال: أنا معونة وأنت مؤونة، وأنا للجد وأنت للهزل، وأنا للشدة وأنت للرخاء، وأنا للحرب وأنت للسلم.
فقال النديم: أنا للنعمة وأنت للخدمة، وأنا للحظوة وأنت للمهنة، تقوم وأنا جالس، وتحتشم وأنا مؤانس، تدأب لمرضاتي، وتسعى لما فيه سعادتِي، فأنا شريك وأنت معين، كما أنا تابع وأنا قرين فغلبه.
وقلت:

إنما عفتهُ لفقْدِ النديمِ
لكريمِ دونِ النديمِ الكريمِ
ذا خلالِ معطراتِ النسيمِ
وضميرِ إذا اختبرتِ سليمِ

ما أعافُ النبيذَ خيفةً إثمِ
ليس في اللهو والمدامةِ حظُّ
فتخيرُ قبلَ النبيذِ نديماً
وجمالِ إذا نظرتِ بديعِ

وأحسن ما قيل في احمرار لون الشارب من الشعر القديم قول الأعشى:

كدمِ الذبيحِ سلبتها جريالها

وسبيبةٌ مما تعنقُ بابلُ

الجريال: اللون.

وقال بعض المحدثين:

وسرتُ بلذتها إلى الأرواحِ

نفضت على الأجسامِ حمرةَ لونها

وأخذ الناجم قول الأعشى سلبتها جريالها فقال:

تصبُّ على الليلِ ثوبَ النهارِ

فخذها مشعشعةٌ قهوة

ويسلبها الخدُ جريالها

إلا أن هذا فيه زيادة وهو قوله:

فتهديه للعين يومَ الخمارِ

فتهديه للعين يوم الخمار

وهو من صفة حمرة العين من الخمار جيد إلا أن قوله مشعشة قهوة رديء، ووجه نظم اللفظ أن يقال قهوة مشعشة، ألا ترى أنك تقول خمر ممزوجة ولا تقول ممزوجة خمر، وإن كان جائزاً، فليس كل جائز حسن فاعلم ذلك.

وقلت:

وأقحوانٌ كئغور الحورِ

شقائقُ كناظرِ المخمورِ

ونرجسٌ كأنجمَ الدَّيجورِ

فشبهت ما يعترى بياض العين والحمايق، من الحمرة عند الخمار، مع سواد الحدقة بحمرة الشقائق حول سوادها. وقد أحسن أبو نواس في ذكر مزاج الكأس حيث يقول:

فلن تُكرِمَ الصَّهباءَ حتى تهينها

ألا دارها بالماءِ حتى تُلينها

أدلت لإكرامِ الصديقِ مصونها

أغالي بها حتى إذا ما مَلَكْتُها

كأنَّ شعاعَ الشمسِ يَلْقاكَ دونها

وصفراءِ قبلَ المزجِ بيضاءَ بعدهُ

وتحسرُ حتى ما تُقلُ جفونها

ترى العينَ تستعفيك من لمعانها

أخذه ابن دريد فقال:

بَدَّتْ بَيْنَ ثوبي نرجسٍ وشقائقِ

وحمرأءِ قبلَ المزجِ صفراءِ بعده

عليها مزاجاً فاكتست لونَ عاشقِ

حكّتُ وجنةَ المعشوقِ صرفاً فسلطوا

ومن أجود ما قيل في صفة القيان:

مها أدمجنَ إدماجا

بَدَّتْ فِي نشوةٍ مثلَ ال

فِ كَثياناً وأمواجا

يجاذبينَ من الأردا

ةٍ قد أثمرتِ العاجا

وقضبناً من الفض

رِ في الدَّيباجِ ديباجا

ويسترنَ من الأبخا

على مفرقها تاجا

وقد لانتُ من الكورِ

سِ أفراداً وأزواجاً

فلما طفنَ بالمجل

كَ أَرْمَالاً وَاهزاجا
ر أَمْسَاداً وَأَدْرَاجا
كَ إِنْ هَيَّجَ فَاهْتاجا

ناعم الصوت متعب مكود
قُ فُضاهى به أنينَ العودِ
أشتهي الضربَ لازماً للعودِ
للمبادي موصولة بالنشيدِ
بينَ حالينِ شدَّةٍ وركودِ

وتنثرُ يسراها على العودِ عُنابا

أيدٍ نثرنَ على الأوتارِ عُنابا
إِنَّ السُرورَ إِذْ ما غبتمُ غابا

بهواها وهو للسكرِ عذراً
لا ولا يقطعنه منه بهراً

من سكونِ الأوصالِ وهي تجيدُ
فِ كَأَنْفاسِ عاشقيها مديدُ
ولها الدَّهرُ سامعٌ مستعيدُ

لا كالتى تندرُ في الندره

تجاذبنَ فغَيَّينَ

وحركنَ من الأوتارِ

فلا لومَ على قلب

ومن جيد ما قيل في بحه حلق المغني قوله أيضاً:

أشتهي في الغناء بحه حلقِ

كأنينِ المحبِّ أضعفه الشو

لا أحبُّ الأوتارَ تعلو كما لا

وأحبُّ المجنباتِ كحبي

كهبوبِ الصبا توسطِ حالاً

وقد أحسن ابن المعتز في صفة أنامل القينة:

وتلفظُ يمانها إذا ضربتُ بها

وقلت:

وهيجتُ لي من شوقٍ ومن فرحِ

لا عيبَ في العيشِ إلا خوفُ غيبتكم

ومن أحسن ما قيل في وصف المغني قول ابن المعتز:

ومغنٍ ملحقٌ كلِّ نفسِ

لا يمدُّ الصوتَ فيه نفورُ

وأجمع من ذلك قول ابن الرومي:

نتغنى كأنها لا تغني

مدَّ في شأوِ صوتها نفسُ كا

ولها الدَّهرُ لاثمٌ مستزيدُ

وللناجم من أبيات:

مندرة في كلِّ أصواتها

وقول الآخر:

إذا وقع بالعودِ

زمرنا بالكؤوس له

فأما أعجب ما قيل، في ذم المغني، والتنائي من سماعه، فقول ابن الرومي:

فظلتُ أشربُ بالأرطال لا طرباً

عليه بل طلباً للسكر والنوم

ومن أحسن ما قيل في مجالس الشرب قول أبي نواس:

في مجلسٍ ضحكَ السرورُ بهِ

عن ناجذيه وحلتِ الخمرُ

وقد أحسن ديك الجن في قوله:

كأنما البيتُ بريحانه

ثوبٌ من الندس مشقوقُ

ومثله قول الصنوبري:

وقد نظم الروض سمطيه من

سنان نؤيق إلى زجه

كفرجك خفتان وشي بد

بياض الغلالة من فرجه

ورأيت قوماً يستحسنون هذين البيتين وهما بالاستهجان أولى لا لرداءة معناهما ولكن لتكلف ألفاظهما، وليس التكلف أن تكون الألفاظ غريبة وحشية، بل وقد يكون الكلام متكلفاً وإن كان ظاهر اللفظ إذا لم يوضع في موضعه وخولف به وجه الاستعمال.

وقال السري، ولا أعرف في معناه أحسن منه، يدعو صديقاً له:

ألست ترى ركب الغمام يُساقُ

وأدمعه بين الرِّياضِ تُراقُ

وقد رقَّ جلبابُ النسيمِ على الثرى

ولكنْ جلابيبُ الغيومِ صفاقُ

وعندي من الرِّيحانِ نوع تحية

وكأسُ كرقراقِ الخلوقي دهاق

وذو أدب جلت صنائع كفه

ولكن معاني الشعرِ فيه دقاق

لنا أبدأ من نثره ونظامه

بدائع حلي ما لهنَّ حقاق

وأعيد مهترٌ على صحنِ خده

غلائلُ من صبغِ الحياءِ رقاقُ

أحاطتْ عيونُ العاشقينَ بخصره

فهنَّ له دونَ النطاقِ نطاقُ

هذا البيت من قول المتنبي:

وخصرٍ تثبتُ الأبصارُ فيه

كأنَّ عليه من حدقِ نطاقا

وقد مر، وبيت السري أجود منه سبكاً ونظماً ورسفاً:

وقد نظم المنثور فهو قلادة
وعرفتنا بين السحائب تلتقي
تقسم زواراً من الهند سقفاها

علينا وعقد مذهب وخناق
لهن علينا كلة ورواق
خفاف على قلب النديم رشاق

وليس في هذه الأبيات عيب إلا هذا الإيطاء، وهو من أسهل العيوب التي تعترى القوافي عندهم:

أعاجم تلتدُ الخصام كأنها
أنسن بنا أنسَ إلا ماء تحببت
مواصلة والوردُ في شجراته
فزرقتيةً بردُ الشرابِ لديهمُ

كواعبُ زنجٍ راعهنَّ طلاقُ
وشيمتها غدرٌ بنا وإباقُ
مفارقُ إلف حانَ منه فارق
حميمٌ إذا فارقتهم وغساقُ

وقلت:

وليلٍ ابتعتُ به لذةً
أصابَ فيه الوصلُ قلبَ الجوى
وقد خلطنا بنسيم الصبا
وأكؤسُ الرّاحِ نجومٌ إذا
تضحكُ في الكأسِ أباريقنا
كأن أعلاها إذا كفرتُ

وبعتُ فيه العقلَ والدينَا
وباتَ فيه الهمُّ مسكينا
نسيمَ راحٍ ورياحينا
لاحتُ بأيدينا هوتُ فينا
وحسبما يضحكنَ بيكينا
يعقدُ الكأسُ ثلاثينا

وقلت:

هذا حبيبٌ وصول
وذاك شرخُ شبابٍ
وقهوةٌ وغناءٌ
فخذ نصيبك منه
وهذا من أجمع ما قيل في هذا الباب.

وذا رقيبٌ صرومُ
أغرٌّ وهو بهيم
وسامرٌ ونديمُ
فليس شيءٌ يدومُ

وقال الصنوبري:

يومٌ ذيولُ مزنه
بروقه سافرةٌ

على الثرى منسحبه
وشمسه منتقبه

ضاحكة منتحبه
منه فنلتُ الطُّلبه
منقبهً فمنقبه
والنقيا في مرتبه
قامتُ بحقِّ الشربه
قامتُ بحقِّ الشربه
على العلا مطنبه
ساعاته المستعذبه
وقبله مستلبه

نُ ونقلُ وغناءُ
نِ شمولُ وطلاءُ

ن طبيخُ وشواءُ
نُ أحاد وثناء
أدباءُ أرباء
فكأنَّ الصحنَ ماء
فحواشيه رداءُ
إنما الهمُّ بلاءُ
قد تخطأه العناءُ
ليسَ للدُّنيا بقاءُ

والرَّاحُ تمشي بهم مشيَ الفرازين
عن القسيِّ وراحوا كالعراجين

فما سى سماءه
طلبتُ أقصى أُملي
بسيدين ارتقيا
واتفقا في كنية
نشربها عذراءَ قد
أكرمُ ذخِرِ ذخرتَه
في مجلسِ أطنابه
أكرمُ به يوماً مضتُ
كلحظةٍ مخلوسةٍ

عندنا طيبٌ وريحا
ومن المشروبِ لونا

ومن اللحمِ خليطا
ومن الحلواءِ ألوا
ولنا غلمانُ صدقِ
أرسلوا في الصحنِ ماءً
وانثنا للحسنِ عدواً
فأتَ ننفِ الهمَّ عنا
واغتنمُ لذةَ يومِ
فهو يطويك ويمضي

ومن المشهور في صفة السكارى قول بعضهم:

مشوا إلى الرَّاحِ مشيَ الرَّخِّ وانصرفوا
غدوا إليها كأمثالِ السهامِ مضتُ

وقلت:

وكان شربهم في صدر مجلسهم

ومثل البيت الأول:

راحوا عن الرّاح وقد بدّلوا

ومما يجري مع هذا قول الآخر:

تزيّد حسا الكأس السفية سفاهةً

وإنّ أقلّ الناس عقلاً إذا انتشى

ومن أحسن ما أنشد في الخيش: ما أنشدناه أبو أحمد، ولم يسم قائله، ورأيتُه بعد في ديوان السري:

من النّدّ إلا أنها ليس تهطلُ

على جلده ثوبُ العروس المصنّدلُ

وقد نشأت بين الكؤوس غمامةً

وعلّ بماء الورد خيش كأنه

وقلت:

ظبي يروق الناظرين بأبيض

ومقومٍ مميل القضيّب مهفهف

ومفرّج من خدّه ومكفر

وبياض وجهه بالصباح مقنع

علقت أباريق المدام بكفه

وعلا دخان النّدّ أبيض ساطعاً

فكأنما الكاسات في حافاته

ومن أبدع ما قيل في لذة الغناء قول الناجم:

شدوّ ألدّ من ابتدا

أحلى وأشهى من منى

وأجود ما قيل في الاصغاء إلى الغناء والسكوت له قول الآخر:

وأصغوا نحوها الآذان حتى

ومن عجيب المعاني في الغناء قول أبي تمام:

حمدتُك ليلة شرفت وطابت

شرب الملوك وناموا كالمساكين

مشى الفرازين بمشي الرّخاخ

وتترك أخلاق الكريم كما هيا

أقلهم عقلاً إذا كان صاحيا

ومن أحسن ما أنشد في الخيش: ما أنشدناه أبو أحمد، ولم يسم قائله، ورأيتُه بعد في ديوان السري:

من النّدّ إلا أنها ليس تهطلُ

على جلده ثوبُ العروس المصنّدلُ

وبأسود وبأخضر وبأشکل

ومعوج كالصولجان محبل

ومخلق من شعره ومسلسل

وسواد فرع بالظلام مكلل

كالبدر يعلق بالسماك الأعزل

مثل الغمامة غير أن لم يهمل

شقر الخيول تجول تحت القسطل

ع العين في إغفائها

نفس وصدق رجائها

كأنهم وما ناموا نيام

أقام سهاؤها ومضى كراها

سمعتُ بها غناءً كان أولى
ومسمعةً تقوتُ السمع حسناً
مرت أوتارها فشفقتُ وشاقتُ
ولم أفهم معانيها ولكنُ
فكنتُ كأنني أعمى معنى
بأن يفتادَ نفسي من عناها
ولم تصممهُ لا يصممُ صداها
ولو يستطيعُ حاسدها فداها
ورثُ كبدي فلم أجهلُ شجاها
بحبِّ الغانياتِ ولا يراها

وكان ينبغي أن يقول فداها حاسدها وليس لقوله فلا يستطيع حاسدها معنى مختار.

وأول من أتى بهذا المعنى حميد بن ثور في قوله:

عجبتُ لها أنى يكونُ غناؤها
ولم أرَ محقوراً لها مثلُ صوتها
ولم أرَ مثلي شاقه صوتُ مثلها
فصيحاً ولم تغرُ بمنطقها فما
أحس وأشجى للحزين وأكلما
ولا عربياً شاقه صوتُ أعجا

ومن أحسن أوصاف العود إذا احتضن تشبيههم إياه بالولد في حجر أمه وتشبيهه إصلاحه بعرك أذنه فمن أحسن ما قيل في ذلك وأجمعه قول بعضهم:

فكأنه في حجرها ولدٌ لها
طوراً تدغدغ بطنه فإذا هفا
ومثله قول الناجم:

إذا احتضنتُ عابثٌ عودها
تدغدغ في مهل بطنه
وذكر الضحك مع الدغدغة جيد.

ونظم كشاحم قول الحكماء إن العود مركب على الطبائع الأربع فقال:

شدتُ فجلتُ أسماعنا بمخفف
مشاكلة أوتارهُ في طباعها
فللنار منه الزيرُ والأرضُ بمه
وكلُّ امرئٍ يرتاحُ منه لنعمة
شكا ضربَ يمانها فظلتُ يسارها
يحدثها عن سرِّها وتحدثه
عناصر منها أحدث الخلق محدثه
وللريح متناهٍ وللماء مثله
على حسب الطبع الذي منه يبعثه
تطوقه طوراً وطوراً ترعته

فما برحت حتى أرتنا مخارقا
وحتى حسبت البابليين القنا
يجاذبه في أحسن النقرِ عثته
على لفظها السحر الذي فيه تنفته
وأجود ما قيل في اتفاق الضرب والزمر قول هارون بن علي المنجم:

غصن على دعص نقا منهال
وفاتتات الطرفِ والدلالِ
سعى بكأسٍ مثل لمع الآلِ
هيفِ الخصورِ رجح الأكفالِ
يأخذن من طرائفِ الأرمالِ
يجري مع الناسِ بلا انفصالِ
ومن حرام اللهو والحلالِ
يدعو إلى الصبوة كلَّ سالِ
وقال كشاحم في وصف العود والقينة وأحسن:

تميسُ من الوشي في حلة
وتحملُ عوداً فصيحَ الجوابِ
تجرُّرُ من فضل أذيالها
لهُ عنقٌ مثل ساقِ الفتاةِ
يضاهي اللحنَ بأشكالها
فظلتُ تطارحُ أوتارهُ
ودستانةٌ مثل خلخالها
وتعملُ جساً كجسِّ العروقِ
بأهزاجها وبأرمالها
وتلوي الملاوي بأمثالها

وقيل لرجل أي المغنين أحذق؟ قال: ابن سريج كأنه خلق من كل قلب فهو يغني لكل إنسان بما يشتهيهِ. وأخبرنا أبو القاسم عن العقدي عن أبي جعفر عن المدائني قال: قال المغيرة للوليد بن يزيد بن عبد الملك: إني خارج إلى العراق فاستهد ما أحببت فقال: إهدلي بربطاً من عمل زلزل فأهدي إليه عوداً وكتب إليه: قد بعثت به أرسح البطن، أحذب الظهر، صافي الوتر رقيق الجلد، وثيق الملاوي كهيئة طاليه، وملاحة محتضنه، وحسن الضارب به، وطرب المستمع له.

ومن أحسن ما قيل في جس الضارب ما تقدم ذكره وهو قول الناشئ:

وكان يمناها إذا ضربت بها

وقال ابن الحاجب:

يجيلُ يديه في مجسِّ عروقِ

إذا هي جستهُ حكّت متطبباً

وقد استحسّن الناس هذا البيت، وأجازوه، وليس في طريقة الاختيار، لأنّ الطيب يجس بيد واحدة، وكذلك الضارب فليس لذكر اليدين وجه.

ومن جيد ما قيل في صحة عبارة العود عن الغناء قول ابن أبي عون:

فتوفيك ألسنة أحرّفه

تتاجيك بالصوت أوتاره

وأبين منه قول الناجم:

أنشدنا شعرها عودها

إذا نوت الضرب قبل الغناء

وقلت:

بين ساقٍ وسامرٍ ونديم

رُبَّ ليلٍ كسالكٍ ثوبٍ نعيم

وأعانت على طريق الهموم

وكؤوسٍ جرّت وراء كؤوس

في يدي مطرب كأمّ الفطيم

ولنا مزهرٌ كمثل فطيم

فزهنته محاسنُ التوسيم

وسموا صدره بعاجٍ وذيل

أو سماءٍ تكللت بنجوم

مثل أرضٍ تحبرت بأفاح

مثل أطرافٍ فرحةٍ ونعيم

ذو ملاوٍ سودٍ الفروعٍ وحمر

كخلاخيلٍ مارٍ وظلوم

ووسانينٍ لا تجولُ عليه

هل رأيتم جداولَ التقويم

أحمر الزير أسود البيم أحوى

ومن جيد ما قيل في سرعة الضرب والجلس قول كشاجم:

وكلامه وكلامها وفقاً

وترى لها عوداً تحركه

كان الهواء يفيدُهُ نطقاً

لو لم تحركه أناملها

جسّ الطبيبٍ لمدنفٍ عرقاً

جسته عالمةً بحالته

رعداً وخلت يمينها برقاً

فحسبت يمانها تحركه

وقال بعضهم في رقص:

يعلوهما طوراً ويعلوانه

عجبت من رجليه تتبعاته

كأنّ أفعيين تلسعانه

ومما لم يقل مثله في إزالة الخمار، بمعاودة الشرب قول الأعشى:

وأخرى تداولت منها بها

وكأسٍ شربت على لذة

كل من أخذ هذا المعنى منه قصر في العبارة عنه، ولا يجوز أن يؤتى بمثله.
قال أبو نواس:

وداوني بالتي كانت هي الداء

فحشا الكلام بما لا وجه له وهو قوله كانت هي الداء.
وقال المجنون:

كما يتداوى شارب الخمر بالخمير

ولا يقع هذا مع قول الأعشى موقعاً.
ومثله قول البحري:

من الداء من قد باتَ بالداءِ يشتفي

تداويتُ من ليلي بليلي فما اشتفى

ومن جيد ما قيل في الدنان والزقاق قول الأخصل:

أناخوا فجروا شاصيات

وقد مر.

وقد أحسن ابن المعتز في صفة الدنان:

قد أقيموا ليرقصوا دستبدا

ودنان كمثل صف رجال

وقال العلوي الأصفهاني في الزق:

لا يدركُ الثأرَ إلا وهو مذبوحُ

عجبتُ من حبشي لا حراكَ به

رغو الزقاقِ وطوراً وهو مشبوحُ

طوراً يرى وهو بين الشرب مضطجعُ

وفي ألفاظ العلوي زيادة على معناه في أكثر شعره، وأخذ البيت الأول من قول بشار يصف ركب المرأة:

لا ينفعُ الدهرَ إلا وهو محمومُ

وصاحب مطرق في طولِ صحبته

وإن كان المعنيان مختلفين، إلا أن حذو الكلامين حذو واحد.

وقال ابن المعتز:

كأسير الزقّ أدى فعتق

إن غدا ملآن أمسى فارغاً

وقال القطامي:

دكن الظواهر قد برنس بالطين

استودعتها رواقيداً مقيرة

كأنهنَّ نبيطٌ في تباين

مكافحات لحرّ الشمس قائمة

وقال آخر:

حبشياً قطعتُ منه الشوى

تحسبُ الزقَّ إذا أسندته

وقال العلوي الأصفهاني يصف شراباً في ظرف حزف:

كراهيةً بينَ الحسانِ الأوانسِ

مخدرةً مكنونةً قد تكشفتُ

هي العُريُّ مقررٌ بها كلُّ لابسِ

وأترابها يلبسنَ بيضَ غلائلِ

أرى مثلها عذراءَ في زيِّ عانسِ

مشعشعةٌ مرهاءُ ما خلتُ أني

المعنى جيد وفي الألفاظ زيادة وليس لها حلاوة.

وقال آخر في الراووق:

خرطومُ فيلٍ سقطتُ أنيابهُ

كأنما الراووقُ وانتصابه

وفيه:

رَحْبُ الذُّرى ينحط فيه الضيقُ

سماءٌ لاذ قطرَها رحيقُ

حتى إذا ألهبها التصفيقُ

ماء حقيق لو جرى العقيقُ

صحنا إلى جيراننا الحريقُ

وأنشد أبو عثمان:

ينلنَ أناملَ الرَّجْلِ القصيرِ

فبتُ أرى الكواكبَ دانياتِ

وأمسحُ عارضَ القمرِ المنيرِ

أدافعهن بالكفين عني

أبو حكيم فمن حكمت كأسك فيه فاحكم له بإقالة عند العثار.

في ضعف السكر:

لما سقيتني إلا بمسعط

فديتك لو علمت بضعفٍ سكري

أمرُ ببابه فأكادُ أسقط

بحسبك أنَّ خماراً بجنبي

ولابن الرومي في نبيذ حامض:

كان يجني عليك في رغفانك

قد لعمرى اقتصصت من كلِّ ضرس

جك والنائبات من أدقانك

قد ردّدناه فاتخذهُ لسكبا

فهو أولى بالخل من إخوانك

واتخذهُ على خوانك خلا

رعدة تعتريك من ضيفانك

أضرسنا حموضةً فيه تحكي

معنى آخر:

إنما يشربُ الصغيرَ الصغيرُ
تحتَ هذا الخشوع فسقٌ كثيرُ

إسقني بالكبير إنني كبير
لا يغرناك يا عبيد خشوعي

وكان ابن عائشة ينشد:

ولم أرَ المغبونَ غيرَ العاقلِ
فبتُّ من عقلي على مراحلٍ

لما رأيتُ الحظَّ حظَّ الجاهلِ
رحلتُ عنا من كروم بابل

وقال غيره في نبيذ الدبس:

شربة نفضت سوادَ الشبابِ
شاب أبصرتَ بازياً في غرابِ

علني أحمد من الدوشاب
لو تراني وفي يدي قدحُ الدو

وقال بعضهم في كيزان الفقاع:

إلا بصافي الشرابِ مقررٍ

لستُ بناف خمارٍ مخمورٍ

نفست عنه خناق مزرور
كأنه صولجانٌ بللورٍ

يطيرُ عن رأسه القناع إذا
يميلُ أعلاه وهو منتصبٌ

وقلت:

قصارُ رجال في المسول قعودُ

وأبيض في أحشاء خضر كأنها

وبعضهم في الطنبور:

جيدُهُ نصفُ سائره

مخطفُ الخصرِ أجوفُ

فاتنِ اللحظِ ساحره

أنطقته يدا فتى

ما جرى في خواطره

فحكى عن ضميره

وقال آخر في المعزفة:

لها حنينٌ كحنينِ الغريبِ
بيضاء من جلدِ غزالِ ربيبِ
نُصبنَ أشراكاً لصيدِ القلوبِ

معلنة الأوتارِ صحابةُ
مكسوةٌ أحشاؤها حلةُ
كأنما تسعةُ أوتاره

آخر الباب والحمد لله وحده.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي جعل السماء سقفاً محفوظاً، شيد بنيانها، ووثق أركانها، فأمنها من التهافت، وبرأها من التفاوت: "فارجع البصر هل ترى من فطور، ثم ارجع البصر كرتين، ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير". وصير لونها أوفق الألوان لأبصار الناظرين، وأحلاها في أنفوس المتوسمين، وحررها بالنجوم، وطرزها بالرجوم، وبيض أعلام صباحها، وسود ذوائب ليلها، وجلا غرة شمسها، ومسح صفحة قمرها، وقدره في منازلها، وخالف بين مناظره، لتعملوا عدد السنين والحساب، ما خلق الله ذلك إلا بالحق. وصلى الله على سيدنا محمد، سيد الأنبياء، وأكرم الأصفياء، وعلى عترته وأصحابه المختارين وسلم تسليماً كثيراً.

هذا كتاب المبالغة في

وصف السماء والنجوم والليل والصبح والشمس والقمر

وما يجري مع ذلك وهو:

الباب السادس من كتاب ديوان المعاني ثلاثة فصول

الفصل الأول

ذكر النجوم

أحسن ما قيل في النجوم من الشعر القديم قول امرئ القيس:

مصائبحُ رهبان تشبُّ لُقُقال

نظرتُ إليها والنجومُ كأنها

وقول الآخر:

قلادةٌ درٍ سَلَّ عنها نظامُها

سرينا بليلاً والنجومُ كأنها

وقد أصاب القائل التشبيه في قوله:

أنَّ مرسوبه من الدرِّ طافي

ورأيتُ السماءَ كالبحرِ إلا

وصغيرٌ ما بينَ ذلك خافي

فيه ما يملأُ العيونَ كبير

المعنى جيد وليس للألفاظ رونق.

وقال ابن طباطبا في معناه:

أحسن بها لجباً إذا التبسَ الدُّجى
كانت نجومُ الليلِ حصباءَها
وأحسن من هذا كله لفظاً وسبكاً مع إصابة المعنى قول ابن المعتز:
كأنَّ سماءَها لما تجلَّتْ
خلالِ نجومِها عندَ الصباحِ
رياضُ بنفسجٍ خضل نداءه
تفتحَ بينها نورُ الأقاليمِ
إلا أنه مضمن.

وقلت:

لبسنا إلى الخمارِ والنجمُ غائرٌ
كأن بياضَ النجمِ في خضرةِ الدُّجى
غلالةٌ ليلٍ بالصباحِ مطرٍ
تفتحَ وردٍ بينَ رندٍ وعبقرٍ
وقلت:

كم سرور زَرَعَتْ بينَ الندامى
وتلوح النجومُ في ظلمةِ الليلِ
وهموم طرَدَتْ بينَ الكؤوسِ
كعاج يلوخُ في أنوسِ
وقلت:

بليل كما ترنو الغزاةُ أسود
كواكبه زهرٌ وصفرٌ كأنها
على أنه من نورٍ وجهك أبيضُ
قبائع منها مذهبٌ ومفضضُ
وفي النجوم ما هو أبيض، ومنها ما هو أصفر وأحمر، فشبه الأبيض بقبيعة مفضضة، والأصفر والأحمر بالمذهبة، والذهب يوصف بالحمرة والصفرة، ومثل هذا التمييز قليل في الشعر.
وقال ابن المعتز:

وخلت نجومَ الليلِ في ظلمِ الدُّجى
وقد أحسن الناشيء القول في اشتباك النجوم والتفافها حيث يقول:
وَرَدَتْ عَلَيْهَا وَالنَّجُومُ كَأَنَّهَا
كثائبُ جيشٍ شوَّمتْ لكثائبِ
وقلت:

وأنجم كربرب في شهبٍ
والحور ترنو من خلالِ الحجبِ
كالشهبِ تجري في خلالِ خطبِ
ومن أحسن ما قيل في الثريا قول امرئ القيس:
إِذَا مَا الثَّرِيَا فِي السَّمَاءِ تَعْرَضَتْ
تعرضَ أثناء الوشاحِ المفصلِ

وقد استحسّن الناس هذا البيت، في صفة الثريا على قديم الدهر وقدموه، ثم قال بعضهم، وهو معيب، لأنّ التعرض إنّما هو أن يدي لك عرضه، أي جانبه قال: والثريا تشق وسط السماء شقاً.
وقالوا: أحسنه قول ذي الرمة:

وردتُ اعتسافاً والثريا كأنها
على قمّة الرأسِ ابنُ ماءٍ محلّقٍ
وقالوا أحسنه قول ابن الطثرية:

إذا ما الثريا في السماء كأنها
جمانٌ وهي من سلكه فتبدّدا
أنشد عبد الملك بن مروان هذا البيت، فقال: ما هي بمتبددة ولكنها مرصوفة. قال أبو هلال.

وإنما أرادها عند غروبها وهي متبددة عند الغروب وامرؤ القيس أيضاً أرادها حين تغيب، لأنها حينئذ تنحرف من وسط السماء إلى جانب، وأحسن الوصف ما يتضمن أكثر صفات الموصوف، والوشاح وابن الماء إنّما شبها بها من جهة البياض فقط. وأخذ معنى ابن الأسلت بعض المحدثين فقال:

قد انقضت دولة الصيام وقد
بشر سقم الهلال بالعيد
تبدو الثريا كفاغر شره
يفتح فاه لأكل عنقود
والأول أجود لذكر وهذا ذكر العنقود ولم يصفه وقد يكون العنقود أسود أو أحمر.
وكان أبو عمرو بن العلاء يقول: أجود ما قيل فيها قول الآخر:

ولاحت لساريها الثريا كأنها
على الأفق الغربي قرطٌ مسلسلٌ
أخذه ابن الرومي فقال:

طيب طعمه إذا دقت فاه
والثريا في جانب الغرب قرطٌ
وقد قصر عن الأول أيضاً، ومثله قول أبي فضلة:

وتأملت الثريا
فتخبرت لها التش
فهي كأسٌ في شروقٍ
في طلوع ومغيبٍ
بيبة بالمعنى المصيب
وهي قرطٌ في غروب
وقلت:

شربنا والنجوم مغفرات
تمرُّ كما تصدّعت الزحُوفُ
وقد أصغت إلى الغرب الثريا
دنو الدلو يسلمها الضعيفُ

وأجود ما قال فيها محدث عندي قول بعضهم:

يسيرُ بها حادٍ من الليل مزعج
قواريرُ فيها زئبقٌ يترجرج

كأنَّ الثريا هودجٌ فوقَ ناقةٍ
وقد لمعتْ بينَ النجومِ كأنها

وتروى لابن المعتز، وفي ألفاظ البيتين زيادة على معناهما.
وقال مخلص الموصلي:

تِ كأنها دُرُّ العِصابه
وكانها زَرْدُ الذَّوابه

وترى النجومَ المشرقاً
وترى الثريا وسطها

وزرد الذؤابة يشبه نجومها وتأليفه يشبه تأليفها فهو تشبيه مصيب.
وقال ابن المعتز:

جنى نرجسٍ حياً الندامى به الساقى

فناولنيها والثريا كأنها

قالوا: لو قال باقة نرجس كأن أتم.
فقلت:

نواظر تزنو من براقع سندسٍ
وما حولها منهنَّ طاقاتُ نرجسٍ

أراعي نجومَ الليل وهي كأنها
كأنَّ الثريا فيه باقة نرجس

وأنشدني بعض العمال:

من غناءٍ وقهوةٍ ومُجونٍ
قد تجمعنَ للحديثِ المصونِ

رُبَّ ليلٍ قطعتُهُ بفنونٍ
والثريا كنسوةٍ خفِراتِ

وقد أحسن وأطراف. وقد أصاب القائل بعض وصفها في قوله:

كأن الثريا حلة النور منخل

وقال ابن المعتز:

وخيلُ الدُّجى نحرَ المغارب تركضُ
تفتحُ نوراً أو لجاماً مفضضُ

ألا فاسقنيها والظلامُ مقوِّضُ
كأنَّ الثريا في أواخرِ ليلها

وشبهت بالقدم.

قال ابن المعتز:

قد كان يبدو الصبحُ أو هو بادٍ

قَمِّ يا نديمي نصطبجُ بسوادٍ

وأرى الثريا في السماء كأنها

وقلت:

قدّم تبدّت في ثياب حداد

كانَ نهوضَ النجمِ والأفقِ أخضرُ

وقلت:

تبلجُ ثغرٍ تحتَ خضرةِ شاربٍ

تلوحُ الثريا والظلامُ مقطبُ

فيضحكُ منها عن أغرِّ مفلجٍ

تسيرُ وراءَ والهلالُ أمامها

كما أوامتُ كفَّ إلى نصفِ دملجٍ

وقلت:

شمسٌ هوتَ وهلالُ الأفقِ يتبعها

كأنها سافرٌ قدّامَ منتقبٍ

تبدو الثريا وأمرُ الليلِ مجتمعُ

كأنها عقربٌ مقطوعةُ الذنبِ

وأحسن ما قيل فيها عند طلوع الفجر قول الآخر:

وكانَ الصبحُ لما

لاحَ من تحتِ الثريا

ملكٌ أقبلَ في التنا

ج يُفدى ويُحيا

وقلت:

وبالثريا أثرُ الخمودِ

كالنارِ لا تسعفُ بالوقودِ

في أنجمٍ كَرَبْرَبٍ في بيدٍ

يلوحُ في التصويبِ والتصعيدِ

كشرفاتِ فدنٍ مشيدٍ

وقلت:

قمُ بنا نظرُ الدُّهمومِ بكأسٍ

والثريا لمفرقِ الليلِ تاجُ

وقد انجرتِ المجرةُ فيه

كسبيبِ يمدهُ نساخُ

وقال العلوي الأصفهاني في حسن الاستعارة:

رُبَّ ليلٍ وهتَ لآلي دُموعي

فيه حتى وهتَ لآلي الثريا

ورداءُ الدُّجى لبيسٍ دريسٍ

بيدِ الصبحِ وهو يطويه طيا

وشبه أبو فراس الثريا بالفخذ من النمر، وهو من المقلوب، لأن أجم الثريا بيض والنقط على فخذ النمر سود.

وقال السري:

كما يحيا بنرجس ملكُ

ترى الثرياَ والبدر في قرْنِ

أجود ما قيل في الجوزاء من الشعر القديم قول كعب الغنوي:

فساطيطُ ركبٍ بالفلاةِ نزولُ

وقد مالت الجوزاءُ حتى كأنها

ولو شبهها المحدثين قول ابن المعتز فيها وفي الثريا:

كذاتِ قُرْطٍ أرادتُهُ وقد سقطا

وقد هوى النجمُ والجوزاءُ تتبعهُ

مع أن المصراع الأخير غير مختار الرصف، والنجم اسم مخصوصه به الشريا.

وقال فيها وفي الشعرى العبور:

كمثلِ رُمحِ جرّةِ رامحُ

ولاحتِ الشّعريُّ وجوزاؤها

وقلت:

طفوٌّ غريقٍ فوقَ ماءٍ مطحلبُ

سقاني والجوزاءُ يحكي شروقها

وهذا وصفها عند طلوعها.

وقلت فيها حين توسط السماء:

يجرُّ في جلبابه كوكبه

شربتها والليلُ مُستوفزُ

ترقصُ في منطقةٍ مذهبه

كأنما الجوزاءُ رقاصةٌ

تحتضنُ الطبلَ على مرقبه

كأنها الجوزاءُ طبالَةٌ

وقلت فيها عند غروبها:

زيّنوهُ بدرّةٍ وجُمانه

إسقنيها والليلُ فرغُ عروس

فارسٌ مالٌ عن سِراةِ حصانه

وكانَ الجوزاءُ حينَ تهاوتُ

وقال آخر:

أخذوا وترهم بقطع يديه

وكانَ الجوزاءُ وانترُ قوم

وقد استحسّن قول العلوي الأصفهاني فيها:

ناعتُ بها الجرباءُ كادتُ تنتني

وتلوحُ لي الجوزاءُ سكرى كلما

فكأنما انتطقتُ بقطعةِ جوشنِ

ونطافُها متراصفٌ في نظمه

الجرباءُ إسم السماء، وفي ألفاظها تكلف كما ترى والمعنى جيد.

وقلت:

وليل أسود الجلبابِ داج
كأن كواكبَ الجوزاءِ فيه
تميسُ بالحلي قُرطُ الثريا
ركبتُ صدورهُ وتركتُ خيلي
ويخبطنَ الصباحَ إذا تبدى
وكفرع الخودِ أو عينِ الغزالِ
زميلةٌ مفجرةُ البُزالِ
إذا انخفضتُ وتوجَّ بالهلالِ
توالي تحتَ أنجمهِ التوالي
كما يكرعنَ في الماءِ الزُّلالِ

ومن ظريف ما قيل في الشعري قول عبد العزيز بن عبد الله بن طاهر:

أقولُ لما هاجَ شوقُ الذَّكرى
كأنها ياقوتةٌ في مدري
واعترضتُ وسطَ السماءِ الشعري
ما أطولَ الليلِ بسرِّمري

وقد أكثروا من وصفها بالعبير وأخذوا ذلك من اسمها وهو العبور.
أحسن ما قيل في سهيل، وبعده من الكواكب قول بعضهم:

ولاح سهيلٌ من بعيدٍ كأنه
وقال ابن المعتز:

وقد لاحَ للساري سهيلٌ كأنه
وأجود ما قيل في خفقانه واضطرابه قول جران العود:

أراقبُ لمحاً من سهيلٍ كأنه
وقلت:

وبسهيل رعدةُ المزوودِ
حلَّ محلَّ الرَّجلِ الطريدِ
وقال ابن طباطبا في المعنى الأول:

كأن سهيلاً والنجومُ أمامه
أجود ما قيل في النسرة الواقع قول الحماني:

وركب ثلاث كالأتافي تعاوروا
إذا اجتمعوا سميتهم باسم واحد
وهو من الغز المليح.

ومن جيد ما قيل في الفرقدين قول ابن المعتز:

نُجى الليل حتى أومضتُ سنة البدرِ
وإن فرقوا لم يعرفوا آخرَ الدهرِ

ورنا إليّ الفرقدان كما رنتُ

وفي المجرة قول بعضهم:

كأنّ المجرة جدولُ ماءٍ

وقال ابن طباطبا:

مجرةٌ كالماءِ إذا ترقرقا

لباسُ ثكلى وشيها المشقفا

ونقله إلى موضع آخر فقال:

كأنّ التي حول المجرة أوردتُ

فوجدته متكلفاً جداً.

فقلت في معناه.

زرقاءُ تنتظرُ من نقابِ أسودِ

نورُ الأفاحِ في جانبه

شقتُ بها الظلماءُ برداً أزرقا

لتكرعَ في ماءٍ هناك صبيبِ

متبّع الأعلى بهيم الأسفلِ

لمع الأسنانُ من فتونِ القسطلِ

مثلَ الظباءِ كوارعاً في جدولِ

ليلٌ كما نفضَ الغرابُ جناحهُ

تبدو الكواكبُ من فتوقِ ظلامه

وترى الكواكبَ في المجرة شُرّعاً

وقلت:

كالماءِ ينساحُ أو كالآيم ينسابُ

كأنه غرض ينحوه نشابُ

تبدو المجرة منجرٌ ذوائبها

وزهرةٍ بإزاء البدرِ واقفة

أغرب ما قيل في صفة الهلال من الشعر القديم قول الأعرابي:

قسبطُ لدى الأفقِ من خنصرِ

كأنّ ابنَ مزنته جانحاً

أي كأن ابن مزنته، وهو الهلال لدى الأفق، قسبط من خنصر، والقسبط القلامة. وهذا لبيت على غاية سوء الرصف.

وقد أخذه ابن المعتز فحسّنه في قوله:

مثلِ القلامةِ قد قُدّت من الظفرِ

ولاح ضوءُ هلالٍ كادَ يفضحه

وقال ابن طباطبا:

يلاحظُ منه ناظر ذات أشفارِ

قصيصُ سوارٍ أو قراضةُ دينارِ

وقد غمض الغرب الهلال كأنما

كأنّ الذي أبقى لنا منه أفاقه

ولا خير في رصف قوله:

كأن الذي أبقى لنا منه أبقه

ومن غريب ما قيل فيه وعجيبه قول ابن المعتز:

إذا الهلالُ فارقتُهُ ليلته

بدا لمن يبصرهُ وينعته

كهامةِ الأسودِ شابِتْ هامتِه

قد سبق إلى هذا المعنى ولم يأخذه من أحد أعرفه، ونقله إلى موضع آخر فقال:

وقد بدا فوقَ الهلالِ كرتُه

كهامةِ الأسودِ شابِتْ لحيتهُ

ومن أطرف ما قيل فيه قوله أيضاً:

أهلاً بفطرٍ قد أنارَ هلاله

فالآن فاغدُ إلى المدام وبكر

وانظر إليه كزورقٍ من فضةٍ

قد أثقلتُه حمولةٌ من عنبرٍ

وقال:

في ليلةٍ أكلَ المحاقُ هلالها

حتى تبدَّى مثلَ وقفِ العاجِ

وقلت:

لست من عاشقٍ أضلَّ السبيلا

فسقى دمعهُ الهطولُ طولاً

بردَ الليلِ حينَ هبتَ شمالاً

فجعلت الصلاءَ فيها الشمولاً

في هلالٍ كأنه حيةُ الرَّم

لِأصابتْ على البقاعِ مقبلاً

باتَ في معصمِ الظلامِ سواراً

وعلى مفرقِ الدُّجى إكليلاً

وقلت:

وكؤوسٍ إذا دجى الليلُ أسرت

تحتَ سقْفِ مرصعٍ باللجينِ

وكأنَّ الهلالَ مرآةَ تبرٍ

تنجلي كلَّ ليلةٍ أصبعينِ

هذا البيت يتضمن صفته من لدن هو هلال إلى أن يتم.

وقلت في هلال شهر رمضان:

جلبَ المجاعةَ ضامرٌ بخل

قد خلتُ فيه لضعفه سلاً

طفلٌ ولكنَّ أمره عجبٌ

قد عاد بعد كهولةٍ طفلاً

قد كانَ حملَ ليلتين فلم

ترَ مثله طفلاً ولا حملاً

ومن العجائب أن يعودَ فتى

وقال السري:

في سبعِ عشرةَ ليلةً كهلا

قَمْ يا غلامُ فهاتها في كأسِها

كالجَنارةِ في جنىِ نسرِينِ

أو ما رأيتَ هلالَ شهرِكِ قد بدا

في الأفقِ مثلَ شعيرةِ السكِينِ

جعل الزجاج كأساً ولا يقال كأس، إلا إذا كانت مملوءة، ولا أعرفه سبق إلى هذا التشبيه.

وقال بعضهم:

والجوُّ صافٍ والهِلالُ مُشَنَّفٌ

بالزُّهرةِ الزَّهراءِ نحوَ المغربِ

كصحيفةٍ زرقاءٍ فيها نقطةٌ

من فضةٍ من تحتِ نونِ مذهبِ

جعل النقطة تحت النون والعادة أن تكون فوقها.

وقلت:

والعيدِ زَيْنٌ للعيونِ هلالُهُ

فرَمَقْنَ منه حاجباً مقرّونا

يبدو ويبدو النجمُ فوقَ جبينهِ

وكأنَّ جُنْحَ الليلِ ينقطُ نونا

وقد استحسنت للعلوي الأصفهاني قوله:

لاحَ الهلالُ فُويقَ مغربهِ

والزُّهرةُ الزَّهراءُ لم تغبِ

تهوي دوينِ مغيبها فهوتُ

تبكي بدمعٍ غيرِ منسكبِ

فكأنها أسماءُ باكيةٌ

عندَ انفصامِ سوارِها الذهبِ

ومن البديع قول الآخر:

لم أنسِ دجلةَ والهوى مُتضرمٌ

والبدرُ في أفقِ السماءِ مُغربٌ

فكأنها فيه رداءٌ أزرقُ

وكأنه فيها طرازٌ مُذهبٌ

حق الدجى أن تؤنث لأهما جمع دجية.

وقلت:

كأنَّ الهلالَ الشَّهرَ قطعُهُ دملجِ

تلوحُ على أعضاءِ معنكرِ عاسِ

ترى الزهرةَ الزهراءَ تهوي وراءه

كما مرَّ سهمٌ قاصدٌ نحوَ قرطاسِ

ومن أجود ما سمعته في الليلة القمرية ما أنشدنيه أبو أحمد:

هل لك في ليلة بيضاء مقمرة

كأنها فضة ذابت على البلد

وقلت:

كم تناولت اللذادة من كذب

والدَّهر مسكون الحوادث والنَّوبِ

في ليلة قمرءَ تحسبُ أنها

تلقى على الأفاقِ أوديةَ قصبِ

ومن البديع قول ابن المعتز:

ما دُقتُ طعمَ النوى لو تدري

كأنما جنبيَّ على جَمْرِ

في قمرٍ مشرقٍ نصفه

كأنه مجرفةُ العِطْرِ

فريسةٌ للبقِّ منهوشةٌ

قد ضعفتُ كفيَّ عن النَّصرِ

وقال في ذم القمر:

وبات كما سرَّ أعداؤه

إذا رامَ قوتاً من النَّومِ شدَّ

تعززه شرراتُ البعوضِ

في قمرٍ مثلِ ظهرِ الجُرْدِ

الفصل الثاني من الباب السادس

ذكر ظلمة الليل وطوله وقصره

وما يجري مع ذلك من سائر أوصافه

فمن أحسن ذلك قول ذي الرمة:

وليلٍ كجلبابِ العروسِ ادرعته

بأربعةٍ والشخصُ في العينِ واحدُ

أحمُّ عِلافيٍّ وأبيضُ صارمِّ

وأعيسُ مهريٍّ وأروعُ ماجدُ

فأحذه ابن المعتز ونقله إلى ما هو أظرف لفظاً منه وهو قوله:

وليلٍ كجلبابِ الشبابِ قطعتهُ

بفتيانِ صدقٍ يملكونَ الأمانيا

جلبابِ الشابِ أظرف من جلبابِ العروسِ.

قالوا: من أبلغ ما قيل في ظلمة الليل قول مضر بن ربيعي:

وليلٍ يقولُ الناسُ من ظلماتهِ

سواء صحِيحاتِ العيونِ وعورُها

كأنَّ لنا منهُ بيوتاً حصينةً

مسوخُ أعاليها وساجِ كسورها

وقريب من هذا قول الأعرابي: خرجنا في ليلة هندس، قد ألفت على الأرض أكارعها، فمحت صورة الأبدان، فما كنا نتعارف إلا بالأذان.

وقلت في هذا المعنى:

مُسَوِّدَةَ الْوَجْهِ مَنْسُوبًا إِلَى الْفَحْمِ
حَتَّى تَعَارَفَتِ الْأَشْخَاصُ بِالْكَلِمِ
وَلَا تَرَى صَاحِبَ الْحَاجَاتِ ذَا سَأَمٍ
وَالنَّجْحُ فِي دَلَجَاتِ الْأَيْنِقِ الرَّسْمِ

وَلَيْلَةَ كِرْجَائِي فِي بَنِي زَمْنِي
سَدَّتْ عَلَى نَظَرِ الرَّائِيْنَ مِنْهَجُهُ
لَا أَسَامُ الْجَهْدَ فِيهَا أَنْ أَكَابِدُهُ
أَحَاوُلُ النَّجْحَ فِي أَمْرٍ أَوَّلُهُ

ومن جيد التشبيه قول أبي تمام:

قَدْ اِكْتَحَلْتُ مِنْهُ الْبِلَادُ بِأَثْمِدِ

إِلَيْكَ هَتَكْنَا جَنَحَ لَيْلٍ كَأَنَّهُ

أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ أَبِي نَوَاسٍ:

وَجَنَحُ اللَّيْلِ مَكْتَحِلٌ بِقَارِ

أَيْنَ لِي كَيْفَ صَرْتَ إِلَى حَرِيمِي

وقول أبي تمام أجود، لأن الاكتحال بالإثم لا بالقارة.

وأظرف ما قيل في ذلك قول مسلم بن الوليد:

كَأَنَّ دُجَاهَا مِنْ قَرُونِكَ تُنْشَرُ
كَغَرَّةٍ يَحْيَى يَوْمَ يَذْكُرُ جَعْفَرُ

أَجْدُكَ مَا تَدْرِيْنَ أَنْ رَبَّ لَيْلَةٍ
صَبْرْتُ لَهَا حَتَّى تَجَلَّتْ بَغْرَةٌ

وقد طرف القائل في قوله:

إِنَّ الْغَبُوقَ حَبِيبِي
وَالصَّبْحُ لَوْنٌ مَشِيبِي

لَا تَدْعَنِي لَصَبُوحِ
فَاللَّيْلُ لَوْنٌ شَبَابِي

ومن الاستعارة قول ذي الرمة:

وَقَدْ صَبَغَ اللَّيْلُ الْحَصَى بِسَوَادِ

وَدَوِيَّةٍ مِثْلَ السَّمَاءِ عَسْفَتِهَا

أَخَذَهُ الْبَحْتَرِيُّ فَقَالَ وَقَصْرُ:

جَوَانِبُهُ مِنْ ظَلْمَةٍ بِمَدَادِ

عَلَى بَابِ قَنْسَرِيْنَ وَاللَّيْلُ لَاطِحٌ

ليس البيت على السكة المختارة وقوله لاطح جوانبه من ظلمة بمداد من بعيد الاستعارة. وأخذ ابن أبي

طاهر قول مسلم:

كأن دجاها من قرونك تنتشر

فقال:

شبيهة خديها بغير رقيب

سقتني في ليلٍ بشعرها

فوقع بعيداً عنه واحتل في النظم وأقلق القافية.

وقلت في معناه:

شبيهاً بعينيها وشكلاً بخدّها

تسقيك في ليلٍ شبيهٍ بفرعها

تحبيك أعقاب الكؤوس بوردها

فتسكر من عين وكأسٍ ووجنةٍ

ومن البديع في هذا المعنى قول ابن المعتز:

يخوضون ضحضاح الكرى وبهم قرّ

أرقت له والركبُ ميلُ رؤوسهم

بُزاة تجلى في مراقبها قمرُ

علاهم جليدُ الليل حتى كأنهم

وقال دليلُ القوم قد نقبَ الفجرُ

إلى أن تعرّى النجم من حلةِ الدجى

لهم ليلةٌ أخرى كما حوّم النسرُ

وقدوا أديمَ الفجرِ حتى ترفعت

وقال ديك الجن:

ومرتقبٌ هو لان موت مرقبُ

سيرضيك أني مسخطٌ فيك كاشحاً

بقطعة صبحٍ لانتنتٌ وهي غيهبُ

وجانب ليلٍ تعلق قطعة

وقلت:

وأشعل فيه الفجر فهو محرقُ

ومدّ علينا الليلُ ثوباً منمقاً

تعلم منّا كيف يبهي ويشرقُ

وصبحنا صبحاً كأنّ ضياءه

وقال ابن المعتز:

رداءً موشى بالكواكب معلماً

فخلتُ الدجى والليلُ قد مدّ خيطه

وهو من قول الله تعالى: "الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر". ومن أتم أوصاف الظلمة، الذي ليس في كلام البشر، مثله قول الله عز وجل: "أو كظلمات في بحرٍ لجي يغشاه موج من فوقه موجٌ من فوقه سحابٌ ظلماتٌ بعضها فوق بعض". وقال الأصفهاني العلوي:

تحملُ في الجوّ سودَ راياتِ

وربّ ليلٍ باتتُ عساكره

مثل الأزاهير وسطَ روضاتِ

لامعة فوقها أسننتها

ولست أورد أكثر شعره، إلا لإصابة معناه، دون لفظه، لأن أكثر لفظه متكلف، وجل صنعته فاسد، وهذا من العجب، لأنه من أكثر الناس نقداً لشعر غيره، وقد صنف كتاب عيار الشعر فأجاده، وهو إذا أراد استعمال ما ذكرناه، لم يكمل له، فهو كالمسن يشحذ ولا يقطع.
ومن أحسن الاستعارة في ذكر الليل قول ابن أبي فنن:

أقولُ وجنحُ الدجى ملبِدُ
ولليل في كلِّ فجٍّ يدُ
ونحنُ ضجيعان في مسجدٍ
فلله ما ضمنَ المسجدُ
أيا ليلة الوصل لا تنفدي
كما ليلة الهجر لا تنفذُ
يا غدُّ إن كنت لي راحماً
فلاتدنْ من ليلتي يا غدُّ

وقال السري:

وشردَّ الصبحُ عنا الليلَ فاتضحت
سطورُه البيضُ في رايته السودِ

وقلت:

ليلٌ كفرع الخودِ تخلفه ضحى
زهراءُ مثل عوارض الزهراءِ
عبقت بأنفاس الرِّياض كأنما
نفض الرِّقيب غلالة الدلتاءِ

وقلت:

والليلُ يمشي مشيةً الوئيدِ
في الخضرِ من لباسه والسودِ
والصبحُ في أخراه ثاني الجيدِ

فأما أجود ما قيل في طول الليل، من الشعر القديم فقول امرئ القيس:

وليلٌ كموج البحرِ أرخى سدوله
عليَّ بأنواع الهموم ليلتلي
فقلتُ له تمطى بصلبه
وأردف أعجازاً وناءً بكللِ
ألا أيها الليلُ الطويلُ ألا انجلِ
بصبحٍ وما الإصباحُ منك بأمتلِ

وهذا من أفصح الكلام وأبرعه، إلا أن فيه تضميناً يلحق به بعض العيب، وهو من أدل شيء على شدة الحب، والهم، لأنه جعل الليل والنهار سواء عليه، فيما يكابده من الوجد والحزن، وجعل النهار لا ينقصه شيء، من ذلك، وهذا خلاف العادة، إلا أنه دخل في باب الغلو.

والذي أخبرنا بما في العادة الطرماح في قوله:

ألا أيها الليلُ الطويلُ ألا أصبح
بصبحٍ وما الإصباحُ منك بأروح

فهذا معنى قول امرئ القيس، ثم استدرك فقال:

على أن للعينين في الصباح راحةً بطرحيهما طرفيهما كل مطرح

فجاء بما لا يشك أحد في صحته، إلا أن لفظه لا يقع مع لفظ امرئ القيس موقعاً، والتكلف في قوله:

بطرحيهما طرفيهما كل مطرح

بين والكراهة فيه ظاهرة.

وقال ابن الدمينة في معنى قول الطرماح:

أظلُّ نهاري فيكم متعللاً ويجمعني والهَمَّ بالليلِ جامع

وقال المجنون:

يضمُّ إليَّ الليلُ أطفالَ حبها كما ضمَّ أزرارَ القميصِ البنائِقُ

جعل ما ينشأ من الهم بالليل أطفالاً، وفي هذا المعنى يقول النابغة:

كليني لهم يا أميمة ناصباً وليل أقاسيه بطيء الكواكب

تطاول حتى قلت ليس بمنقضٍ وليل الذي يرعى النجوم بأيب

وصدر أراح الليل عازباً همه تضاعف فيه الحزن من كل جانب

فجعل الهم يأوي إلى قلبه بالليل كالنعم العازبة، تريحها الرعاة مع الليل إلى أماكنها، وهو أول من ذكر أن الهموم تتزايد بالليل.

وقلت:

وذكرنيه البدرُ والليلِ دونه فبات بحدَّ الشوق والصبر يلعبُ

كذكرى الحمى والحي في منعج اللوى وذكر الصبا والرأس أخلص أشيب

فأزادُ في جنح الظلام صباباً فلا صعب إلا وهو بالليل أصعبُ

وقلت:

ورأيتُ الهمومَ بالليلِ أدهى وكذلك السرورُ بالليلِ أعذبُ

ومما استجدت من شعر أبي بكر الصولي في معنى امرئ القيس قوله:

أسرَّ القلب في هواه وسارا وتجنى عليّ ظلماً وجارا

فنهاري أراه للبعد ليلاً وأرى للسهاد ليلى نهاري

أنت فرقتَ بالفرقِ صبري فأعزني لما عراني اصطبارا

ويستجد هذا، بالإضافة إلى جملة شعره، فأما لنفاسته لنفسه فلا.

وقال إسحاق الموصلي في معنى النابغة:

وَمَعَ اللَّيْلِ نَاشِئَاتُ الْهَمُومِ إِنَّ فِي الصَّبْحِ رَاحَةً لِمَحَبِّ

وهذه اللفظة مأخوذة من قول الله تعالى: "إن ناشئة الليل هي أشد وطناً وأقوم قبلاً" وقال طاهر بن علي بن سليمان:

إِذَا لَاحَ لِي صَبِيحٌ فَهَمِي مَقْسَمٌ وَفِي اللَّيْلِ هَمِي بِالتَّفَرُّدِ أَطُولُ

وتمنى بعض المثقلين بالدين، المبتلين بالفقر، دوام الليل لما يلقي بالنهار مع الغرماء ولما يحتاج إليه من النفقة في كل يوم فقال:

أَلَا لَيْتَ النَّهَارَ يَعودُ لَيْلاً فَإِنَّ الصَّبْحَ يَأْتِي بِالْهَمُومِ

حَوَائِجُ لَا تَطْبِقُ لَهَا قِضَاءً وَلَا رِداً وَرِوعاتِ الْغَرِيمِ

قوله ولا رداً من التتميم الحسن.

وقال التنوخي في طول الليل:

وَلَيْلَةٌ كَأَنَّهَا طَوَّلُ الْأَمَلِ ظِلَامُهَا كَالدَّهْرِ مَا فَهِيَ خَلٌّ

كَأَنَّما الإِصْبَاحُ فِيها باطلٌ أَزْهَقَهُ اللَّهُ لِحَقِّ فِطْلٍ

ساعاتها أطول من يوم النوى وَلَيْلَةُ الْهَجْرِ وَساعاتِ الْعَدْلِ

موصدة على الورى أبوابها كالنار لا يخرج منها من دخل

وهذا يستملح وإن لم يكن مختاراً من التشبيه لأن إخراج المحسوس إلى ما ليس بمحسوس في التشبيه رديء.

ومن التشبيه الغريب في ذلك قول بعض العرب:

وَيَوْمَ كَظَلَّ الرَّمْحُ قِصْرَ طَوْلُهُ دَمَ الزَّقِّ عَنَا وَاصْطَكَاكَ الْمِزَاهِرِ

وقال البحترى:

قَاسِينَ لَيْلاً دُونَ قَاسانَ لَمْ تَكُدْ أَوْ آخِرُهُ مِنْ بَعْدِ قَطْرِيهِ تَلْحَقُ

وقال ابن المعتز في نحوه:

وَحَلَّتْ عَلَيْهِ لَيْلَةٌ أَرْحَبِيَّةٌ إِذَا ما صَفا فِيها الْغَدِيرُ تَكَدَّرَا

بعيدة ما بين البياضين لم يكد يَصْدُقُ فِيها صَبْحُها حِينَ بَشِرا

وقال:

بمخشية الأقطار حيلية الصدى

معطلة الآيات محذورة القصد

كأنَّ نجومَ الليلِ في حجراته

دراهمٌ زيف لم يجزن على النقد

يريد أن نجومه واقفة، ليست تسير، فكأنها زيفت ليست تنقد.

وقد أبر بعض المحدثين، على من تقدم حيث يقول في طول الليل على دناءة لفظه:

عهدي بنا ورداءُ الليل منسدلٌ

والليلُ أطولُهُ كاللمح بالبصر

والآن ليلي مذ بانوا فديتهم

ليلُ الضريرِ فصبحي غير منتظر

وهذا أبلغ معنى من قول امرئ القيس الذي تقدم، إلا أنه لا يدخل في مختار الكلام، لا بتبدال لفظه، وزيادة على معناه، وسوء صنعته، والمعنى أن ليله ممدود بلا انقضاء، كالليل للضرير كله عند الضرير ليل. وقال علي بن الخليل:

لا أظلمُ الليلَ ولا أدعي

أنَّ نجومَ الليلِ ليست تعول

ليلي كما شاءت قصيرٌ إذا

جادت وإن ضنت فليلي طويلٌ

فأغار عليه ابن بسام فقال:

لا أظلمُ الليلَ ولا أدعي

أنَّ نجومَ الليلِ ليست تعورُ

ليلي كما شاءت فإن لم تزُرْ

طال وإن زارت فليلي قصيرٌ

إلا أن بيته الثاني أحسن تقسيماً من بيت الخليل.

وسمعت كافي الكفاة يقول لأبي أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد وقد أنشده:

جُلُّ همي وهمتي جُرْجانُ

فقال هذا المصراع خطبه، قال أبو هلال العسكري: وأنا أقول إن قوله: ليلي كما شاءت خطبه.

وقال سعيد بن حميد:

يا ليلُ بلْ يا أبْدُ

أنائمُ عنك غَدُ

وقال ابن الرومي وأحسن التشبيه:

ليست تزول ولكن تزيد

وقلت:

غابوا فلم أدْرِ ما ألقى

مسٌّ من الوجْدِ أو جنونُ

ليلي لا يبتغي براحاً

كأنه أدهم حرونُ

ما تتلاقى لها جفون

أجبلُ في صفحتيه عيناً

وملح ابن الأحنف في قوله:

وصفوه فقد نسيتُ النهارا

حدّثوني عن النهار حديثاً

وقد أنبأ بشار عن العلة التي يستطال لها الليل وهو السهر فقال:

ونفى عني الكرى طيفٌ ألمّ

لم يطلُ ليلى ولكن لم أنم

ولا أرى في قلة النوم أجود من قول المجنون:

على شعبِ الأكوارِ والليل غاسقُ

ونوم كحشرِ الطيرِ بتنا ننوشه

على أن زهيراً قد قال:

وكصفقة بالكف كان رقادي

والأول أفصح. وأنبأ العجاج أيضاً، عن العلة التي لها يطول الليل:

تطاول الليل على من لم ينم

وقال بشار:

إلى أن ترى ضوء الصباح وسادُ

لخدّيك من كفيك في كل ليلةٍ

وهذا مأخوذ من قول أبي ذؤيب:

نام الخلي وبت الليل مشتجرا

والاشتجار وضع اليد على الخد والاعتماد عليها وهو جلسة المتفكر:

وليس لليلِ العاشقين نفاذُ

نبيت نراعي الليل نرجو نفاذهُ

وقال:

وما بال ضوءِ الصبح لا يتوضحُ

خليلي مات بال الدجى لا ترحزُ

ولكن أطال الليل همّ مبرحُ

كأن الدجى زادت وما زادت الدجى

وقال ديك الجن:

ما يعرف الليل إلا عاشقٌ سهرا

من نام لم يدر طال الليل أم قصرا

وقد أجاد ابن طباطبا العلوي القول في طول الليل وهو:

ووافت عشاءً وهي أنضاء أسفارِ

كأن نجوم الليل سارت نهارها

فلا فلك جار ولا فلك ساري

فخيمن حتى تستريح ركابها

وذكر خالد الكاتب أنه ليس يدري أطال ليله أم قصر لتحيره وتبلده فقال:

كيف يدري بذاك من يتقلّى
ولرعي النجوم كنتُ مخلى

لستُ أدري أطال ليلي أم لا
لو تفرّغتُ لاستطالة ليلي

وتبعه أبو بكر الصولي فقال:

ولكنه يمضي لما بي ولا أدري

وطولت ليلي لو دريتُ بطوله

وقال بشار:

ولقد أعرفُ ليلي بالقصرِ
ناعمُ الأطرافِ فتانُ النظرِ
كلما أبصره النومُ نفر

طالَ هذا الليلُ بلُ طالَ السهرُ
لم يطلُ حتى دهاني بالهوى
فكأنَّ الهجرَ شخصٌ مائلٌ

وقلت:

لا أريحَ اللهَ صفقةَ البينِ
لما يزاها بهمُ قصيرينِ
فكنتُ أدعوها الجديدينِ
فصرتُ أدعوها عتيقينِ

صيرني البينُ عرضةَ الحينِ
قد طالَ يومي وليلتي بهمُ
كان قليلاً لديّ مكثهما
فطالَ بعدَ الحبيبِ لبثهما

وقال آخر:

منتظرٍ في الصبحِ ميعادا
إذا مضى أولها عادا

يا ليلة طالتُ على عاشقٍ
كادتُ تكونُ الحولَ في طولها

أجود ما قيل في قصر الليل وأشدّه اختصاراً قول إبراهيم بن العباس:

قابلتُ فيها بدرها ببدي
حتى تولّتْ وهي بكرُ الدهرِ

وليلة من الليالي الزهر
لم تكُ غيرَ شفقٍ وفجر

وقال غيره:

عشاؤها مثلُ السحرِ

وليلةٍ فيها قصر

وهذا على غاية الاختصار.

وقال العلوي الأصفهاني في قصر الليل واليوم:

ديوان المعاني - أبو هلال العسكري

ويوم دَجِنِ ذُو ضَمِيرٍ مَتَّهَمٍ
صَحْوٌ وَغَيْمٌ وَضِيَاءٌ وَظَلْمٌ
مَا زِلْتُ فِيهِ عَاكِفًا عَلَى صَنَمٍ
تَفَاحَهُ وَقَفْتُ عَلَى لَثْمٍ وَشَمٍّ
مِثْلَ سُرُورِ شَابِئِهِ عَارِضُ غَمٍّ
كَأَنَّهَ مُسْتَعْرٌ قَدْ ابْتَسَمَ
مُهْفَهْفِ الْكَشْحِ لِذَيْدِ الْمَلْتَرَمِ
وَبَانَةِ وَقْفٍ عَلَى هَصْرِ وَضَمٍّ
وَجُودِهِ مِنْ قَصْرِ مِثْلِ الْعَدَمِ

وقلت:

قصر العيش بأكناف الغضا
في ليالٍ كأباهيم القطا
وكذا العيش إذا طاب قصر
لست تدري كيف تأتي وتمرّ

وقلت:

إذا البرق من شرقيّ دجلة ينبري
أشبهه دهرًا أغرّ محجلاً
على صفحات البارق المتألق
نعمنا به في ظلّ فينان مورق
فمرّ كرجع الطرف ليس يرده
وقد يعرض المحذور من حيث يرتجى
ويمكنك المرجو من حي تتقي

أخبرنا أبو أحمد أبو أحمد عن الصولي، عن محمد بن سعيد، عن أبي بكرمة قال: أنشدت اعراياً قول جرير:

أبدلّ الليل لأنسرى كواكبهُ
أم طال حتى حسبت النجم حيرانا

فقال: هذا حسن وأعوذ بالله منه ولكن أنشدك في ضده من قولي وأنشدني:

وليلٍ لم يقصره رقاد
نعيم الحبّ أورق فيه حتى
وقصره لنا وصلّ الحبيب
بمجلس لذة لم نقو فيه
تناولنا جناهُ من قريب
بخلنا أن نقطعه بلفظ
على الشكوى ولا عدّ الذنوب
فترجمت العيون عن القلوب

فقلت له: زدني فما رأيت أظرف منك شعراً، فقال أما من هذا فحسبك ولكن غيره.

وأنشدني:

وكنت إذا علقت حبال قوم
فأحسن حين يحسن محسنوهم
صحبتهم وشيمتي الوفاء
وأجتنب الاساءة إن أسأوا

أشياء سوى مشيئتهم فآتي

وأنشدنا عن محمد بن يزيد:

مشيئتهم وأترك ما أشاء

لله ليلتنا بجوٍ سويقة

والعيشُ غضٌّ والزمانُ غريرٌ

طابت فقصرَ طيبها أيامها

فكأنما فيها السنونُ شهور

وأنشدنا عن عون بن محمد بن إسحاق الموصلي:

لنا في جوارِ أبي الجنب

بيوم مثل سالفه الذبابِ

يقصره لنا شغفُ التلاقي

ويوم فراقنا يوم الحسابِ

وأخبرنا عنه، عن محمد بن الحسن أبي الحسن العتاي، عن عيسى بن إسماعيل، قال: سمعت الأصمعي يقول: قرأت على خلف شعر جرير فلما بلغت إلى قوله:

ويوم كإبهام القطة محبب

إليَّ هواه غالبٌ لي باطله

رزقنا به الصيد العزيز ولم نكن

كمن نبله محرومةً وحبائله

فيا لك يوم خيره قبل شره

تغيّبَ وأشبه وأقصرَ عاذله

فقال: وبه وما ينفعه خير يؤول إلى شر؟ فقلت: كذا قرأته على أبي عمرو، قال: صدقت وقال: كذا قال جرير، وكان قليل التنقيح مشرد الألفاظ، وما كان أبو عمرو ليقرئك إلا كما سمع، قلت: كيف كان يجب أن يقول؟ قال: الأجود له لو قال:

فيا لك يوماً خيره دون شره

فاروه هكذا، وكانت الرواة قديماً تصلح من شعر القدماء، فقلت: والله لا أرويه بعدها إلا هكذا. ومثل ذلك أن أبا الفضل بن العميد أنشد قول أبي تمام:

وكشفت لي عن صفحة الماء الذي

قد كنت أعهدُهُ كثيرَ الطحلبِ

فقال: إنما قال عن جلدة الماء فقال: إذا أمكن أن يصلح قصيدته بتغيير لفظه، فمن حقها وحق قائلها أن تغير. قال أبو هلال وبين الصفحة والجلدة بون بعيد. وقال ابن طباطبا:

بأبي من نعمتٍ فيه بيوم

لم يزل للسرور فيه نموٌ

يوم لهوٍ قد التقى طرفاه

فكأن العشيَّ فيه غدوٌ

ومن قول إبراهيم بن العباس والناس يروونه لغيره:

قصرًا وهي ليلة الميلادِ

ليلةً كاد يلتقي طرفاها

وقلت:

تعدُّ فيه شهور العيش أياما

وطال عمرك في دهرٍ به قصرٌ

وقال القضاعي:

دجى الليل حتى انجاب عنا دياجره

ذكرتكم ليلاً فنورٌ ذكركم

لذكركم أم يسجرُ الليلُ ساجره

فوالله ما أدري أضوءٌ مسجر

صريعٌ مدام لم ينهنه دائره

وبتُ أسقي الشوق حتى كأنني

تمتّل لي منكم خيالاً أسايره

وظلتُ أكفّ الشوق لما ذكرتكم

إلى حيث يعيي وردّه ومصادره

فلو كنتمُ أقصى البلاد لزرتكم

أوائله مما تداني أو اخره

أرى قصرًا بالليل حتى كأنما

وقد أحسن ابن المعتز في صفة ليلة طيبة فقال:

أحداثه كوني بلا فجر

يا ليلة نسي الزمانُ بها

فيها الصبّا بمواقع القطرِ

راح الصباحُ ببدرها ووشتُ

في حيث ما سقطتُ من الدهرِ

ثم انقضتُ والقلبُ يتبعها

وقلت:

تشبهُ اللحظة في انتقالها

وصلت نعم ولكن صلةً

أم بزورِ الزور من خيالها

لستُ أدري أتمتعتُ بها

أنشطتُ دهماء من عقالها

ومضى الليلُ سريعاً مثلما

الفصل الثالث من الباب السادس

ذكر الصباح والشمس والنهار

وما يجري مع ذلك

أجود ما قيل في الصباح من شعر الأعراب

أخبرنا أبو أحمد، أخبرنا أبو بكر ابن دريد، عن أبي حاتم عن الأصمعي، قال: نزلت بقوم من غنى وقد جاوروا قبائل من بني عامر بن صعصعة، فحضرت ناديهم وهناك شيخ طويل الصمت عالم بالشعر، قد جعل الناس يأتونه من كل ناحية، فيجلسون إليه وينشدون أشعارهم، فإذا سمع الشعر الجيد قرع الأرض بمحجنة، فينفذ حكمه على من حضر منهم بشاة، إذا كان ذا غنم، وابن مخاض إن كان ذا إبل، فذبح أو نحر لأهل الوادي فقال حضرتهم يوماً والشيخ جالس فأنشده بعضهم يصف القطا:

غَدَتْ فِي رَعِيلٍ ذِي أَدَاوَى مَنُوطَةٍ بَلْبَاتِهَا مَرْبُوعَةٌ لَمْ تَمَرَّخْ

إِذَا سَرَبَخٌ عَطَّتْ مَجَالَ سِرَائِهِ تَمَطَّعَتْ فَحَطَّتْ بَيْنَ أَرْجَاءِ سَرَبِخِ

فقرع الشيخ الأرض بمحجنة وهو صامت.

ثم أنشده آخر يصف ليلة:

كَأَنَّ شَمِيطَ الصَّبْحِ فِي أَخْرِيَاتِهَا مَلَأَتْ يَنْقِي مَن طِيَالِسَةِ خُضْرِ

تَخَالَ بِقَايَاهَا الَّتِي أَسَارَ الدُّجَى تَمَدُّ وَشَيْعاً فَوْقَ أَرْدِيَةِ الْفَجْرِ

فقام الشيخ كالجنون، مصلتاً سيفه، حتى خالط البرك فجعل يضرب يميناً وشمالاً. وهو يقول:

لَا تَفْرَعْنِ فِي أَدْنَى بَعْدَهَا مَا يَسْتَفْرُغُ فَأَرْيَكَ فَقْدَهَا

إِنِّي إِذَا السَّيْفُ تَوَلَّى نَدَّهَا لَا أَسْتَطِيعُ بَعْدَ ذَلِكَ رَدَّهَا

قال أبو هلال رحمه الله تعالى: وهذا دليل على أن علم الشعر، والتمييز بين جيده ورديته، كان غزيراً عند أهل البوادي، وهم أصوله ومنبعه ومعدته، وكان فعل هذا الشيخ، واستفزاز جيد الشعر له قريباً، مما روي عن محمد الأمين، أنه قال: إني لأطرب على حسن الشعر كما أطرب على حسن الغناء. ومن غريب ما قيل في الصبح، من الشعر القديم قول ذي الرمة، وقد أجمع الناس على أنه أحسن العرب تشبيهاً:

وَقَدْ لَاحَ لِلسَّارِي الَّذِي كَمَلَ السَّرَى عَلَى أَخْرِيَاتِ اللَّيْلِ فَنَقَّ مُشَهَّرُ

كَلُونِ الحِصَانِ الأَنْبِطِ البَطْنِ قَائِماً تَمَائِلَ عَنْهُ الجَلُّ وَاللُّونُ أَشَقَرُ

وهذا أحسن تشبيه أكمله، الأنبط: الأبيض البطن، شبه بياض الصبح تحت حمرة بياض بطن فرس أشقر. أخذه ابن المعتز فقال:

وَمَا رَاعِنَا إِلَّا الصَّبَاخُ كَأَنَّهُ جَلَالُ قِبَاطِيٍّ عَلَى فَرَسٍ وَرَدِ

وقال أو قال غيره:

بدا والصبحُ تحتَ الليلِ بادٍ
ومن أغرب ما قاله محدث فيه قول ابن المعتز:

وقد رفعَ الفجرُ الظلامَ كأنَّهُ
وقد أبدع أيضاً في قوله:

قد اغتدى والليلُ في جلبابه
والصبحُ قد كشفَ عن أنيابه
وقال أبو نواس:

فقمتُ والليلُ يجلوهُ الصباخُ كما
وفي ألفاظ هذا البيت زيادة على معناه.
وقال:

لما تبدى الصبحُ من حجابهِ
وهذا من قول الآخر:

كطلعةِ الأشمط من برد سمل
وقال ابن المعتز:

وقد قفوت الغيثَ ينطفُ دجنهُ
وقلت:

باكرتُها والخيلُ في البكورِ
كما خلطت المسكَ بالكافور
وقال ابن المعتز:

أما ترى الصبحَ تحتَ ليلته
وقال:

والليلُ قد رقَّ وأصفى نجمهُ
معتريضاً بفجرهِ في ليلةٍ
وقال العلوي وأجاد المعنى:

والصبحُ في صفحِ الهواءِ مورداً

كمهرٍ أشقرٍ مُرخى الجلالِ

ظليمٍ على بيضٍ تكشفُ جانبهِ

كالحبشيِّ فرَّ من أصحابهِ
كأنما يضحكُ من ذهابهِ

جلا التبسمُ عن غرِّ التثياتِ

كطلعةِ الأشمط من جلبابه

والصبحُ ملتبسٌ كعينِ الأشهلِ

والصبحُ بالليلِ مكوثِ النورِ

كموقدٍ باتَ ينفخُ الفحماً

واستوفز الصبحُ ولما ينتقب

كفرسٍ بيضاءَ دهماءَ اللبِّبِ

مثلُ المدامةِ في الزُّجاجِ تشعشعُ

وقلت:

إلى أن طويينا اليومَ إلا بقيةً
وجلَّ وجهَ الشمسِ بُردٌ ممسكٌ
فلاح لنا من مَشْرِقِ الشمسِ مغربٌ
ومدَّ علينا الليلُ ثوباً منمقاً
ويصلُ ضياءُ الشمسِ عنها فيزلقُ
وقابلهُ للغربِ بُردٌ ممشقُ
وبان لنا من مغربِ الشمسِ مَشْرِقُ
وأشعلَ فيه الفجرُ فهو يحرقُ
تعلمُ منا كيف يبهي ويُشرقُ
وصبحنا صبحٌ كأنَّ ضياءَهُ

وقلت:

ركبت أعجاز ليالٍ مظلمة
أخطرُ في بردتها المسهمه
قد نثر الليلُ عليه أنجمه
وقد وشى رداءهُ ورقمه
مطرزاتٍ بالصباح معلمه
والرَّوضُ في حلتِه المنمنه
والنبتُ قد دَنَّرَهُ ودرهمه

وقال بعض الأعراب:

والليلُ يطردُهُ النهارُ ولا أرى
وتراهُ مثلَ البيتِ مالَ رواقه
كالليلِ يطردُهُ النهارُ طريداً
هتكَ المقوض ستره الممدودا

وهذا شعر مطبوع.

وقال أبو نواس:

قد اغتدى والليلُ في حريمه
والصبحُ قد نسَم في أديمه
دع الوصي في قفا يتيمة
معسكر في العزِّ من نجومه
يدعه بطرفي حيزومه

ومن الاستعارة المصيبة في صفة الصبح قول سالم بن وابصة:

على حين أتى القومُ خيراً على السرى
وطارَ بأخرى الليلُ أجنحة الفجرِ

والنصف الأول من قول الآخر:

عند الصباح يحمد القوم السرى

وقال العلوي الأصفهاني:

وليل نصرتُ الغيَّ فيه على الرُّشدِ
وأعديتُ فيه الهزلَ مني على الجدِّ

وضيعةً فيه من عناقٍ معانقي
فطنٌ وشاتي أنني نائمٌ وحدي
إلى أن تجلى الصبحُ من خللِ الدُّجى
كما اتخرطَ السيفُ اليماني من الغمدِ
وقلت:

حتى أزالَ الصبحُ فاضلَ ذيله
كالنيلِ يخطرُ في نوادي يعربِ
وقد أحسن ابن المعتز في صفة النجم يبدو في حمرة الفجر حيث يقول:
قد اغتدى على الجيادِ الضمر
والصبحُ قد أسفرَ أو لم يسفرُ
كأنه غرَّةٌ مهرٍ أشقر
حتى بدا في ثوبه المعصفرِ
ونجمه مثل السراجِ الأزهرِ
وقال الشمردل بن شريك:

ولاحَ ضوءُ الصبحِ فاستبيننا
وقال التنوخي:

والثريا كلِّوا
وبدا الفجرُ كسيفٍ
خافق من فوقِ مرقبِ
في يدِ الجوزاءِ مذهبِ
وقلت:

أديرا عليَّ الكأسَ والليلُ راحلُ
وفي إثره للصبحِ بلقُ شوائلُ

ترفع عنه منكبُ الليلِ فانجلي
كما ابتسمتُ لميائِ والسترُ مائلُ
وقال التنوخي:

وبدا الصبحُ كالحسامِ علاه
علق فوقَ شفرتيه متاع
وقال:

أسامره والليلِ أسودُ أورك
تبسمَ محمراً خلالِ سواده
إلى أن جلا الإصباح عن أشقرِ وردِ
تبسمَ وردِ الخدِّ في الصدغِ الجعدِ
ومن حسن الاستعارة في الشفق قول ابن المعتز:

ساروا وقد خضعتُ شمسُ الأصيلِ لهم
حتى توقدَ في جنحِ الدُّجى الشفقُ

وربما جرَّ أسبابَ الكرى الأرقُ

لحاجةٍ لم أضاجعِ دونها وسناً

وأبرع بيت قيل في الصبح من شعر المحدثين قول ابن المعتز

عُريانُ يمشي في الدجى بسراج

والصبحُ ينلُّ المشتري فكأنه

والناس يظنون أنه ابتدأه وابتكره، وإنما أخذه من قول ابن هرمة في وصف السحاب والبرق:

ف يزجى خلفَ اطلاق

تؤام الودق كالزراح

ن يمشي خلفه الصاحي

صدوق البرق كالسكرا

أو أصوات نواح

كأن العازف الحنى

ق يهديه بمصباح

على أرجائه والبر

وهذا البيت مضطرب الرصف مضمن لا خير فيه والمعنى بارد.

ومن أطرف ما قيل في الليالي الطيبة قول ابن المعتز:

فيه فتهديه لحرَّ الهموم

تلتقطُ الأنفاسُ بردَ الندى

وقلت:

وغرَّة الصبح مصقول حواشيها

وقد غدوتُ وصبغُ الليلِ منتقصُ

فشالَ أرجلها وأنحطَّ أيديها

وغربت أنجمُ الظلماء وانحدرتُ

فأما أجود ما قيل في الشمس مما أنشدناه أبو القاسم، عن عبد الوهاب، عن العقدي، عن أبي جعفر، عن

ابن الأعرابي، قديماً في صفة الشمس فقال وهو أحسن وأتم ما قالته العرب فيها:

فتخفى وأما بالنهار فتظهرُ

مخبأةً أما إذا الليلُ جنبها

دجى الليل وانجابَ الحجابُ المستر

إذا انشقَّ عنها ساطعُ الفجرِ فانجلى

على الأفق الشرقي ثوبٌ معصفرُ

وألبسَ عرضَ الأرضِ لونا كأنه

شعاع يلوحُ فهو أزهرُ أصفرُ

ولونِ كدرعِ الزعفرانِ مشبه

وجالتُ كما جالَ المليحُ المشهر

إلى أن علتُ وابيضتُ عنها اصفرارُها

تراهُ إذا مالتُ إلى الأرض ينشر

تري الظلَّ يطوى حينَ تعلق وتارة

يبينُ إذا ولتُ لمن يتبصرُ

وتدنف حتى ما يكاد شعاعها

تموتُ وتحيا كلَّ يومٍ وتشرُ

وأفنت قروناً وهي في ذلك لم تنزل

وأنشدناه أيضاً أبو أحمد، عن الصولي، عن علي بن الصباح، عن ابن أبي محلم، على غير ما تقدم هنا أخذ
ابن الرومي قوله:

وقد جعلت في مجنح الليل تمرض

ومن بديع ما قيل في انقلابها عند الغروب قول الراجز:

وصارت الشمس كعين الأحول

ولأعرابية تذكر السحاب:

طلّاع فتاة تخافُ اشتهارا

تطالعني الشمسُ من دونها

وتحذرُ من زوجها أن يغارا

تخافُ الرقيبَ على سرّها

طوراً وطوراً تزيل الخمارا

فتسترُ غرّتها بالخمارِ

وقال ابن المعتز وأغرب:

خفي مدنف من خلف سترِ

تظلُّ الشمسُ ترمقنا بلحظِ

كعيني يريدُ نكاحَ بكرِ

فتحاولُ فتقَ غيمٍ وهو يأبى

وقال ابن طباطبا:

من خللِ الغيمِ طرفَ عمشاءِ

وأقذيت عينِ شمسٍ فحككتِ

وقلت:

كما أشرقت فوق البرية زينب

فيا بهجة الدنيا إذا الشمسُ أشرقت

ولكنَّ وجهَ الأرضِ فيها مُدَّهَّبُ

يفضضُ منها الجوُّ عندَ طلوعها

على الأفقِ الغربيِّ تبراً يذوبُ

وتحسبُ عينِ الشمسِ إذ هي رنقت

وقلت في يومِ صحو:

صحوٌ يطالعنا بوجهِ مونقِ

ملاً العيونَ غضارةً ونضارةً

وجهُ المليحةِ في الخمارِ الأزرقِ

والشمسُ واضحةُ الجبينِ كأنها

تبرٌ يذوبُ على فروعِ المشرقِ

وكأنها عندَ انبساطِ شعاعها

وتجرُّ إن راحت ذبولَ ممشقِ

جرّت إذا بكرت ذبولَ مزعفرِ

تحكي الصباحَ مع الصباحِ المشرقِ

فشربتها عذراءَ من يدِ مثلها

وقال ابن طباطبا:

كأسماء إذ مدت عليها إزارها

وشمس تجلت في رداءٍ معصفر

وقال ابن المعتز فيها عند غروبها:

كما يصفراً فودي رأسه الحرفُ

حتى علا الطودَ ذيلٌ من أصائله

وقال أبو نواس:

مثل الكعابِ الخودِ في نقابها

قد اغتدي والشمسُ في حجابها

وقال ابن الرومي وهو من المشهور:

وقد جعلتُ في مجنح الليل تمرضُ

كأنَّ خبوءَ الشمسِ ثم غروبها

يرنقُ فيها النومُ ثم تغمضُ

تخاوصُ عينٍ بين أجفانها الكرى

ومن جيد ما قيل في احمرارها عند المغيب قول ابن الحاجب:

بِ جُفُونِ عَيْنِ الأَرْمَدِ

وكأنها عند الغرو

وقال ابن الرومي وهو من المشهور:

على الأفق الغربيِّ ورساً مذعذعا

إذا رنقتُ شمسُ الأصيلِ ونفضت

وشولَ باقي عمرها وتشعشعا

وودعتِ الدنيا لتقضي نحبها

وقد وضعتُ خدّاً على الأرضِ أضرعا

ولاحظت النوار وهي مريضةٌ

توجّع من أوصابه ما توجّعاً

كما لاحظت عواده عينٌ مدنفٍ

كما اغرورقتُ عينُ الشجيِّ لتدمعا

وظلت عيون الروض تخضل بالندى

كأنهما خلا صفاء تودّعا

وبيّن إغضاء الفراقِ عليهما

وقال الآخر

خودٌ تلاحظُ من وراءِ حجابِ

والشمسُ تؤذنُ بالشروقِ كأنها

وقال السري:

تضيءُ والليلُ أسودُ الحجبِ

ومن قصور عليه مُشرفة

حسبت أطفاهنَّ من ذهبِ

بيضٌ إذا الشمسُ حانَ مغربُها

ومن بديع ما قيل فيها من شعر المتقدمين قول أبي ذؤيب:

صلاة طيب ليظها واصفرارها

سبقت إذا ما الشمس عادت كأنها

ومن جيد ما قيل في النهار قول أعرابي:

راملات في مثل ماء زلال

فإذا أشرق النهار تراها

وقلت:

كما يكرعن في الماء الزلال

ويخبطن الصباح إذا تبدى

وقلت:

فيها طراز من خيالك مذهب

وعلى الصباح غلالة فضية

آخر الباب السادس، والحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده وعلى آله وصحبه أجمعين.
نهاية الجزء الأول

ديوان المعاني

الجزء الثاني هذا كتاب المبالغة

صفة السحاب والمطر والبرق والرعد...

وذكر المياه والرياح والنبات والأشجار والرياحين والثمار والنسيم وما يجري مع ذلك وهو:

الباب السابع من كتاب ديوان المعاني وفيه ثلاث فصول

الفصل الأول

صفة السحاب والمطر والبرق والرعد والثلج والضرب

أخبرنا أبو أحمد، عن أبي بكر بن دريد، عن أبي حاتم عن الأصمعي. قال: قال أبو عمرو لذي الرمة: أي قول الشعراء في المطر أشعر؟ قال: قول امرئ القيس:

طَبَقَ الأَرْضَ تحرَّى وتَدَّر

دِيمَةٌ هَطْلَاءُ فِيهَا وَطْفٌ

قوله طبق الأرض، غاية في صفة عموم السحاب، أراد أنها على الأرض بمتلة الطبق على الإناء. ولا أعرف أحداً أخذه فأجاده، كاجادة ابن الرومي حيث يقول:

غِطَاءٌ عَلَى أَعْوَارِهَا وَنَجْوِدِهَا

سَحَابٌ قَيْسَتْ بِالْبِلَادِ فَأَلْقَيْتُ

تَهَادَى رُوَيْدًا سِيرُهَا كَرَكُودِهَا

هَدَتْهَا النُّعَامَى مُتَقَلَاتٍ فَأَقْبَلْتُ

قوله سيرها كركودها غاية في وصف ثقلها وثقلها من كثرة مائها.
والبيت البليغ المشار إليه من أبيات امرئ القيس قوله:

وترى الشجرَاءَ في ريقه **كرووس قُطعت فيها الخُمُرُ**

الشجرَاءُ الأرض ذات الشجر، وإذا غرقت الشجر من ريقه حتى لا يبين منها إلا فروعها فكيف يكون في شدته، وريق المطر أوله وأخفه، وشبه رؤوس الشجر خارجة من الماء برؤوس قطعت عليها عمائم، والخمار ههنا العمامة.

وقولوا: أجود ما قيل في المطر قوله:

كأنَّ أباناً في أفانين وبله **كبيرُ رجالٍ في بجاد مُزملٍ**

يقول كأن أبانا - هو جبل - من التفاف قطره، وتكافئه في الهواء شيخ في كساء، وخفض مزمل على الجواب وهو نعت كبير كما يقول جحر ضبٍ حربٍ.
وقالوا أجود ما قيل فيه قول أبي ذؤيب "

لكل مسيلٍ من تهامة بعد ما **تقطع أقرانُ السحابِ عجيج**

وهذا مع جودة معناه فصيح جداً.

أخبرنا أبو أحمد، عن أبيه، عن عسل بن ذكوان، قال: قال الأصمعي: قال لأبي عمرو ما أحسن ما قيل في المطر فقال: قول القائل:

دانٍ مسفٍّ فويقَ الأرضِ هيدبُه **يكاذُ يدفعُه من قامٍ بالراح**

فمن بنجوته كمن بعقوته **والمستكن كمن يمشي بقرواح**

يقول: قد عم هذا السحاب، فاستوى في شيم برقه، وأصاب مطره المنجد والغائر، والمستكن والمصحح، قرب من الأرض لثقله بالماء، حتى يكاد يدفعه القائم براحته وهذا غاية الوصف.

ومن أبلغ ما جاء في ذلك من نثر الأعراب، ما أخبرنا به أبو أحمد، عن أبي بكر بن دريد، عن أبي حاتم وعبد الرحمن عن الأصمعي قال: سألت أعرابياً من عامر بن صعصعة، عن مطرٍ أصاب بلادهم، فقال: نشأ عارضاً فطلع ناهضاً، ثم ابتسم وامضاً، فاعترض الأمطار فأعشاها، وامتد في الآفاق فغطاها، ثم ارتجز فهمهم، ثم دوي فأظلم، فأرك ودف وبغش، ثم قطقط فأفرط، ثم ديم فأغمط، ثم ركذ فأجثم، ثم وبل فسح وجاد، فأنعم فقمس الربى، وأفرط الربى سبعاً تباعاً، لا يريد انقشاعاً، حتى ارتوت الحزون، وتضحضحت المتون، ساقه ربك إلى حيث شاء، كما جلبه من حيث شاء.

الذث والبغش المطر الخفيف، والققطط المطر الصغار، وقوله أنعم أي بالغ من قولهم دقه دقاً ناعماً، وقمس أي غوص، وأفرط ملاً. والزبي جمع زبية وهي حفرة تحفر للأسد، ويجعل فيها طعم فيجيء حتى يقع فيها، ولا تحفر إلا من مكان عال، فإذا بلغها السيل فهو الغاية، وفي المثل "بلغ السيل الزبي". والمتن صلابة من الأرض فيها ارتفاع، وتضحضح أي صار عليه ضحضاح، وهو الماء يجري على وجه الأرض رقيقاً. وأنشدنا أبو أحمد، عن أبيه، عن ابن أبي طاهر، عن ابن الأعرابي لأعرابية:

فبينا نرمقُ أحشاءنا
أضاء لنا عارضٌ فاستنارا
فأقبل يزحفُ زحفَ الكسير
سياقَ الرعاءِ البطاءِ العشارا
تغني وتضحك حافاته
أمامَ الجنوبِ وتبكي مرارا
كأنا تضيء لنا حرة
تشدُّ إزاراً وتلقي إزارا
فلما حسبنا بأن لا نجا
وأن لا يكون فرارٌ فرارا
أشار له أمرٌ فوقه
هلم فأم إلى ما أشارا

وأنشدنا لغيرها:

تبسمتِ الريحُ ريحُ الجنوب
فهاجتُ هوىً غالباً واذكارا
وساقتُ سحاباً كمثلِ الجبالِ
إذا البرقُ أومضَ فيه أنارا
إذا الرعدُ جلجلَ في جانبيه
فروىَ النباتَ وأروى الصحارى
تطالعنا الشمسُ من دونه
طلاعَ فتاةٍ تخافُ اشتهارا
تخاف الرقيبَ على سرِّها
فتستترُ غرَّتْها بالخمارة
وتحذرُ من زوجها أن يغارا
طوراً وطوراً تزيلُ الخمارا

وقد مرت هذه الأبيات الثلاثة قبل:

فلما مراها هبوبُ الجنوبِ
وانهمرَ الماءُ منه انهمارا
تبسمتِ الأرضُ لما بكت
عليها السماءُ دُموعاً غزارا
فكان نواجذُها الأقحوان
وكان الضواحكُ منها البهارا

وقال ابن مطير وهو أجود ما قيل في سحاب:

مستضحكٌ بلوامعٍ مستعبرٌ
بمدامع لم تمرها الأقداءُ
فله بلا حزنٍ ولا بمسرةٍ
ضحكٌ يؤلفُ بينه وبكاءُ

ثقلت كلاه وأنهرت أصلابه
غَدَقَ يُنْتِجُ بِالْأَبَاطِحِ فَرَقًا
وَكأنَ رَيْقَةً ولما يحتفل
غَرُّ مَحْجَلَةٌ دوالِحُ ضَمَنْتْ

وتبعجت من مائه الأحشاءُ
تَلْدُ السَيُولَ وما لها اسلاءُ
وَدَقُّ السحابِ عِجاجةُ كدراءُ
حَفَلَّ اللقاحُ وكلها عذراءُ

سَحْمٌ فَهِنَّ إِذا كَظَمْنَ فِواحِمٌ
لو كانَ من لَججِ السِواحِلِ ماؤُهُ
وَإِذا ضَحَكَنَ فَإِنَّهِنَّ وِضاءُ
لَم يَبِيقَ من لَججِ السِواحِلِ ماءُ

ومن هذا البيت، أخذ المتكلمون الحجة على الفلاسفة، في قول الفلاسفة: المطر إنما هو البخارات ترتفع من البحر، قالوا لهم: لو كان الأمر كذلك لكان ماء البحر ينقص عند كثرة الأمطار فقالت: لا يلزم ذلك لأن البحر مغيض لمياه الأرض فمصير ما يتحلب من الثلوج إليه ومنه مواد هذه الأشياء فمثله مثل المنجون يعرف من بحر ثم يصب فيه فليس له نقصان والي ينقض هذا أن ماء البحر يزيد عند كثرة الأمطار، وينقص عند قلتها، والعادة في ذلك معروفة، ولو كان الأمر على ما يقولون، لكان ماء البحر ينقص على مرور الأوقات لا محالة، لأن الشمس والهواء لا شك تأخذ مما يتفرق عنه في الأرض بزعمهم، والكلام فيه يتسع وإنما أشرت إلى موضع الدلالة على فساد قولهم.

وقال النظار الفقعسي:

يا صاحبي أعياني بطرفكما
أبصرته حين غاب النجمُ وانسرفت
عنا غفائر من دجنٍ وأمطارٍ
نهبض الكسيرِ بذِي أوثينِ جرَّارٍ
من الروابي بأرجافٍ وأضرارٍ
رِعاِبُ أَفئدةٍ شِعالٍ أَبصارٍ
عِوداً تَدبُّ بِرِماحٍ عِندَ إِمهارٍ

أنى تشيمان بَرِّقَ العارضِ الساري
فباتَ يَنْهَضُ بِالوادي وَجِلْهَتِهِ
حيرانَ سكرانٍ يَغشى كُلَّ رابِيَةٍ
مَفرِّقٌ لَدِماثِ الأَرْضِ مِنْهَمِرٌ
كَأَنَّ بُلْقاَ غِراباً تَحْتِ رَيْقِهِ

وشبه البرق برمح الأبلق، وهو من قول أوس بن حجر:

كَأَنَّ رَيْقَهُ لَمَّا عَلا شَطِباً
أَقْرابُ أبلقِ يَنْفِي الخيلَ رِماحِ

ومن أبلغ ما قيل في ذلك قول الأعرابية التي سألتها ذو الرمة عن الغيث فقالت: غشنا ما شغتنا. فكان ذو الرمة يقول قاتلها الله ما أفصحها. وترك ذو الرمة هذا المذهب على إعجابه به واختياره له وقال:

ألا يا أسلمي يا دارَ مَيِّ على البلى ولا زال مُنهلاً بجر عاتكِ القطرُ

فقليل له هذا بالدعاء عليها أشبه منه بالدعاء لها، لأن القطر إذا دامت فيها فسدت. والجيد قول طرفة:

فسقى بلادك غيرَ مُفسدِها صوبُ الربيعِ وديمةُ تهمي

وقال الأعرابي: أصابتنا سحابة، وإنا لبنوطة بعيدة الأرجاء، فاهر مع مطرها حتى رأيتنا وما رأينا غير السماء والماء، وصهوات الطلح، فضرب السيل النجاف، وملاً الأدوية فرعبها، فما لبثنا إلا عشرًا حتى رأيتها روضة تندي. قوله: ما رأيت غير السماء والماء وصهوات الطلح غاية في صفة كثرة المطر. وأخبرنا أبا أحمد، عن أبي بكر بن دريد، عن أبي حاتم، عن أبي عبيدة، قال: خرج النعمان بن المنذر في بعض أيامه في عقب مطر، فلقي أعرابياً فأمر بإحضاره، فأتي به فقال: كيف تركت الأرض وراءك؟ قال: فيح رحاب، منها السهولة ومنها الصعاب، منوطة بجبالها حاملة أثقالها. قال: إنما عن السماء سألتك. قال: مطلة مستقلة على غير سقاب ولا أطناب، يختلف عصرها، ويتعاقب سراجها، قال: ليس عن هذا أسألك. قال: فسل عما بدا لك قال: هل أصاب الأرض غيث يوصف؟ قال: نعم أغمطت السماء في أرضنا ثلاثاً رهواً فثرت وأرزغت، ورسغت، ثم خرجت من أرض قومي أقروها متواصية لا خطيطة منها حتى هبطت تعشار، فتداعى السحاب من الأقطار، فجاء السيل الجرار، فعفا الآثار، وملاً الجفار، وقوب الأشجار، وأحجر الحضار، ومنع السفار ثم أقلع عن نفع وإضرار، فلما اتلأبت في الغيطان ووضحت السبل في القيعان، تطلعت رقاب العنان، من أقطار الأعنان، فلم أجد وزراً إلا الغيران، فقات وجار الضب، فعادت السهول كالبحار، تتلاطم بالتيار، والحزون متلفعة بالغناء، والوحوش مقدوفة على الأرجاء، فما زلت أظأ السماء، وأخوض الماء، حتى أطلعت أرضكم أ ه.

أغمطت السماء دم مطرها، رهواً ساكتاً، ثرت: تركته ثرية، أرزعت: تركت الأرض في رزعة، والرزعة والرذعة: الطين إذا غطى القدم، رسغت: بلغت الرسغ، متواصية: متصلة، والهطيطة والخطيطة: أرض لم يصبها مطر بين أرضين ممطورتين، وتعشار: موضع، والعنان: السحاب والأعنان: نواحي الشخب فقأت من القي وجار الضب وهو عندهم غاية ما يوصف به المطر، وهو عندهم الذي يجر الضب من وجارها فيخرجها، من كثرة سيله. وقوله: والحزون متلفعة بالغناء يقول: بلغ الماء رؤوس الحزون ثم نضب عنها فبقي الغناء في موضعه.

ومن الوصف الجيد التام في تكاثف المطر قول بعضهم: وقع مطر صغار، وقطر كبار، وكأن الصغار لحمه للكبار، جعل الهواء كالثوب المنسوج من كثرة المطر وتكاثفه.

ومن أجود ما قاله محدث، في وصف السحاب والقطر والرعد والبرق، ما أنشدناه أبو أحمد عن نبطويه للعتابي:

أرقت للبرق يخفو ثم يأتلق
كأنه غرق شهباء لائحة
أو ثغر زنجية تفتتر ضاحكة
أو سلة البيض في جأواء مظلمة
والغيم كالثوب في الآفاق منتشر
تظنه مصمتاً لا فتق فيه فان
إن معم الرعد فيه قلت ينخرق
تستك من رعه أذن السميع كما
فالرعد صهلق والريح منخرق
قد حال فوق الربى نور له أرج
من صفرة بينها حمراء قانية
فاستحسن هذه الطريقة فقلت:

برق يطرز ثوب الليل مؤتلق
توقدت في أديم الأرض حمرته
ما امتد منها على أرجائه ذهب
كأنها في جبين المزن إذ لمعت
فالرعد مرتجس والبرق مختلس
والضال فيما طما من مائه غرق
والغيم خز وأنها اللوى زرد
والروض يزوهه عشب أخضر نصر
ومما ورد في المياه:

من سيول يمجا الواديان
وتلوج يذبيها العصران

ذو استواءٍ إذا جرى والتواءٍ

فهو حيث استدارَ وقفٌ لجينٍ

وقال ابن المعتز:

لا مثل منزلةِ الدويرةِ منزلٌ

بؤساً لدهرٍ غيرتكِ صروفه

لم يحلُّ بالعينين بعدك منظرٌ

أيُّ المعاهدِ منك أندبٌ طيبةٌ

أم بردٌ ظلكِ ذي الغصونِ وذي الحيا

وكأنما سطعتِ مجامرٌ عنبرٍ

وكأنما حصباءُ أرضكِ جوهرٌ

وكان درعاً مفرغاً من فضةٍ

وهذه الأبيات أحسن أبيات قيلت في صفة دار.

وقلت:

شققن بنا تيارَ بحرٍ كأنه

إذا ما جرت فيه السفينُ يُعربدُ

ترى مستقرَّ الماءِ منه كأنه

ويجري إذا الأرواحُ فيه تقابلت

فإن تسكنِ الأرواحُ خلتَ متونه

فطوراً تراه وهو سيفٌ مهندٌ

نصعدُ فيه وهو زُرُقِ جمامه

وقال ابن طباطبا العلوي في مد الوادي:

يا حسن وادينا ومدَّ الماءِ

يختالُ في حُلتهِ الكدراءِ

في صخبِ عالٍ وفي ضوضاءِ

هل تأملت مزحف الأفعوان

وهو حيث استطارَ سيفُ يمان

يا دار جادكِ وابلٍ وسقاكِ

لم يمخُ من قلبي الهوى ومحاكِ

ذمَّ المنازلُ كلَّهنَّ سواكِ

ممساكِ ذا الأصالِ أو مغداكِ

أم أرضكِ الميثاءُ أم ريباكِ

أوفتُ فأرُّ المسكِ فوقَ ثراكِ

وكان ماءَ الوردِ دمعُ نداكِ

ماءُ الغديرِ جرتِ عليه صباكِ

سببٌ على الأرضِ الفضاءِ مُمددٌ

كما مالَ من كفِّ النهاميِّ مبردٌ

متونَ الصفاحِ البيضِ حينَ تجرد

وطوراً تراه وهو درعُ مسرد

فنحسبُ أنا في السماءِ نصعد

قد جاءَ بينَ الصيفِ والشتاءِ

أكدرُ يمتدُّ على غبراءِ

يصافحُ الرياحَ في الهواءِ

جماء قد شُدت إلى جماء
من كدرٍ ينجابُ عن صفاءِ

ترى به تناطحَ الظباء
فانظر إلى أعجبِ مرأى الرائي
تقشع الغيم عن السماء

وقال السري في المد وانقطاع الجسر ببغداد:

مصندلة بالمدِّ أمواجُ مائها
كرقصِ بناتِ الزنجِ عند انتشائها
رَبى الموجِ من قدامها وورائها
وقد بدَّرتها روعةً من ورائها
وقد سامها ضيماً أسودُ سمائها
على تربةٍ محمرةٍ من فضائها

أحذركم أمواجَ دجلةٍ إذ غدت
فظلت صغارُ السفنِ يرقصنَ وسطها
تغرقها هوجُ الرياحِ وتعنلي
فهنَّ كدهم الخيلِ جالت صفوفها
كأن صفوفَ الطيرِ عاذت بأرضها
أو الشبَّحُ المسودُّ حُلَّت عُقودُه

وقلت:

فأبصرتُ أقماراً تروحُ وتغربُ
وغودرَ فوقَ الماءِ يطفو ويرسبُ
فيا مَنْ رأى خشفاً على الماءِ يلعبُ
تجيءُ على زُرُقِ الزجاجِ وتذهبُ

مررتُ بنهرِ المُسرَّقانِ عشيةً
كأنهمُ دُرٌّ تقطعَ سلكه
فكم ثمَّ من خشفٍ على الماءِ لآعبِ
كأن السميرياتِ فيه عقاربُ

وقال أبو بكر الصنوبري:

منها إلى شطِّ وشطِّ
الأمواجُ والأمواجُ بطَّ

إذا السماءُ أعنقت
حسبت أن بطَّها

وقال:

من ذهب الزهر لجين الماء
بين استواءٍ منه والتواء

وروضةً أريضةً الأرجاءِ
يجري على زمردِ الحصباءِ
كما نفضت جَوْنَةَ الحوَّاءِ

وقال أبو فراس بن حمدان:

والماءِ في بركِ الربيعِ

أنظر إلى الزهرِ البديعِ

وإذا الرياحُ جرت عليه
في الذهاب وفي الرجوع
نثرت على بيض الصفا
نَح حَلَقَ الدُّرُوع
ومن أوائل ما جاء في ذكر الماء المظلل بالأشجار قول لبيد:
فتوسطا عرضَ السماء فصدعا
مسجورة متجاوزٌ قلامها
محفوظةٌ وسطَ البراع يظنها
منه مُصرِّعٌ غابَةٌ وقيامها
وقال بشر بن أبي خازم في البحر:
ونحن على جوانبها قعود
نغضُ الطرفَ كالابلِ القماح
إذا قطعت براكبها خليجاً
تذكر ما لديه من الجناح

الفصل الثاني من الباب السابع

ذكر الرياض والأنوار والبساتين والثمار

وما يجري مع ذلك

أخبرنا أبو أحمد، عن رجاله، عن أبي عمرو، وغيره قالوا: أجود ما قيل في وصف روضة قول الأعشى:
ما روضة من رياضِ الحزنِ معشبةٌ
خضراءُ جادَ عليها مسبلٌ هطلُ
يضاحك الشمسَ منها كوكبٌ شرقُ
مؤزرٌ بعميمِ النبتِ مكتهلُ
يوماً بأطيبَ منها نشرَ رائحةٍ
ولا بأحسنَ منها إذ دنا الأصلُ
قال المصنف: خص العشي، لأن كون الانسان بالعشي أحسن منه بالغداة، لرقه تعلوه بالعشي وتبج
يعتاده بالغداة، وتعترى الألوان بالعشيات، صفرة قليلة تستحسن، ولذلك شبهها بالروض لما في الروض
من الزهر وهو أصفر.
ومن هذا قوله أيضاً:

وصفراء العشية كالعرارة

وقال بعضهم: بل خص العشي لنقصان الحسن فيه، قال: فشبها في نقصان الحسن، بالروضة في حال تمام
حسنها، وليس كذلك لأن الروض بالغداة أحسن منه بالعشي.
والتشبيه المصيب من الشعر القديم قول بشر بن أبي خازم:

وروضٍ أحجم الروادُ عنه

له نفلٌ وحوذانٌ توأمٌ

تعالى نبتُهُ واعتَمَّ حتى

كأنَّ منابتَ العُجْجانِ شامٌ

الشام: جمع شامة أي ظاهر كظهور الشامة في الوجه، ويقال: ما أنت إلا شامة أي أمرك ظاهر. وأنشد الجاحظ قول النمر بن تولب العكلي:

ميثاءُ جادَ عليها مسبلٌ هطلٌ

فأمرعت لاحتِيالَ فرطَ أعوام

إذا يجفُّ تراها ديمٌ

من كوكب نازلٍ بالماء سجام

لم يرعها أحدٌ وارتبها زما

فأوَّ من الأرض محفوفٌ بأعلام

تسمعُ للطير في حافاتها زَجَلًا

كأنَّ أصواتها أصواتُ خدام

كأنَّ ريحَ خزاماها وحنوتها

بالليلِ ريحٌ يُلنجوجُ وأهضام

ولم يدع شيئاً يكون في الخصب إلا ذكره.

ومن أبلغ ما وصف به كثرة الكأ، ما أخبرنا به أبو أحمد، عن أبي بكر بن دريد، عن عمه، عن ابن الكلبي، عن أبيه، قال: خطب ابنه الخنس ثلاثة نفر من قومها، فارتضت أنسأهم وجمأهم، وأرادت أن تسبر عقولهم فقالت لهم: إني أريد أن ترتادوا إلى مرعى، فلما أتوها قالت لأحدهم: ما رأيت؟ قال: رأيت بقلًا وبقيلًا، وماءً غدقًا سيلاً، يحسبه الجاهل ليلًا قالت: أمرعت. وقال الآخر: رأيت ديمة فوق ديمة، على عهد غير قديمة، فالناب تشيع قبل الفطيمة.

وقال الثالث: رأيت نبتاً تعداً معداً متراكباً، جعداً، كأفخاذ نساء بني سعد، تشيع منه الناب وهي تعدو. اهـ.

بقلًا وبقيلًا: يقول بقل قد طال وتحتة عمير قد نشأ، والغدق: الكثير يحسبه الجاهل ليلًا من كثافته وشدة خضرته، والديمة المطر يدوم أياماً في سكون ولين، والعهاد أول ما يصيب الأرض من المطر الواحد عهد، تشيع منه الناب قبل الفطيمة: يريد أن العشب قد اكتهل وتم فالناب وهي المسنة من الابل تشيع قبل الصغيرة منها لأنها تنال الكأ وهي قائمة لا تطلبه ولا تبرح موضعها، والفطيمة تتبع ما صغر والصغير فيه قليل. وهذه صفة بليغة.

وأبلغ منها قول الآخر: تشيع منه الناب وهي تعدو أي من طول النبات وكثرته وعمومه، تعدو وتأكل لا يحتاج إلى تتبعه وطأطأة رأسها له. ولا أعرف في جميع ما وصف به كثرة الكأ أبلغ من هذا. والشعد: الرطب اللين والمعد اتباع. والثرى الجعد: الذي قد كثر ندهاء فإذا ضمتمته بيدك اجتمع ودخل بعضه في

بعض كالشعر الجعد، وخص نساء بني سعد لأن الأدمة فيهم فاشية.
ومن أبلغ ما قيل في طول الكلا قول الآخر أنشده ابن السكيت وثلعب:

أرعيثها أطيّب أرضِ عودا
والخازبازِ السنمِ المّجودا
الصلِّ والصفلِّ واليعضيدا
بحيثُ يدعو عامرُ مسعودا

يقول: قد سد النبات، من طوله وسبوغه، مسعوداً فليس يراه عامر، فهو يصيح به، الصل والصفصل
وخازباز ضرب من النبات. وليس ألفاظ الأبيات بالمختارة إنما اخترتها لجودة معناها.
ونظر أعرايي إلى يوم دجن، وإلى نبات غض فاستحسن فقال ارتجالاً:

أنت والله من الأبي
كلما قلبتُ عي
ام لذنُّ الطرفين
نيّ ففي قرّة عينِ

وقلت:

أتاه يُريدُ المزنَ ينشدهُ الصبا
ولاح إليه بالبروقِ مُطرزاً
فدومَ من أعلى رُباهِ ودَيما
فأصبح منها بالزواهرِ معلما

ومن بديع ما قاله محدث، في صفة الرياض واليساتين، قول عبد الصمد بن المعذل أنشدناه أبو أحمد
وغیره:

مغانٍ من العيشِ الغريرِ ومَعمرُ
نما الروضُ منه في غداةٍ مريعةٍ
ومبدي أنيقٌ بالعذيبِ ومَحضرُ
ترى لامعَ الأنوارِ فيها كأنه
لها كوكبٌ يستأنقُ العينَ أزهراً
تسابقَ فيه الأقحوانُ وحنوةُ
إذا اعترضتهُ العينُ وشيٌّ مُدَنَّ
يمجُّ ثراها فيه عفراء جعدة
وساماهما رندٌ نضيرٌ وعبهرُ
كأن نداها ماءً وردٍ وعنبرُ

أعادَ نسيمُ الريحِ أنفاسَ نشره
بدا الشبخُ والقيصومُ عند فروعه
وخايل فيه أحمر اللون أصفرُ
وناضرُ رمانٍ يرفُّ شكيره
وشتٌ وطُباقٌ وبانٌ وعَرعرُ
ويانعُ تفاحٍ كأنَّ جنينهُ
يكادُ إذا ما ذرت الشمسُ يقطرُ
فإذ هاجَ نوحُ الأيكِ في رونقِ الضحى
نجومٌ على أغصانه الخضر تزهر
تذكر محزونٌ أو ارتاح مقصرُ

تجاوبن بالترجيع حتى كأنما
مرانة موموق وترجيع شائق
واني إلى صحن العذيب لتائق
مرعت ولا زالت تصوبك ديمة
أحم الكلى واهي العرى مسبل الجدى
كأن ابتسام البرق في حجراته
ترنم في الأغصان صنع ومزهر
فللقب ملهاة وللعين منظر
واني إليه بالمودة أصور
يجود بها جون الغوارب أقمر
إذا طعنت فيه الصبا يتفجر
مهندة بيض تشام وتشهر

وقول ابن المعتز يتضمن صفة الأنوار على التمام ولا يكاد يشذ منه شيء البتة وهو:

والروض مغسول بليل ممطر
كالعصب أو كالوشي أو كالجوهر
وطارق أجفانه لم تتظر
وفاتق كاد ولم ينور
وأدمع الغدران لم تكدر
أو كعشور المصحف المنشر
كدمعة حائرة في محجر
مدامة تعقر إن لم تعقر
ذي طرة قاطرة بالعنبر
وكفل يشغل فضل المئزر
يعلم الفجور إن لم يفجر
جلا لنا وجه الثرى عنم منظر
من أبيض وأحمر وأصفر
تخاله العين فما لم يغفر
كأنه مبتسم لم يكشر
كأنه دراهم في منثر
والشمس في أصحاء جو أخضر
تسقي عقارا كالسراج الأزهر
يديرها كف غزال أحور
وملثم يكشفه عن جوهر
تخبر عيناه بفسق مضمر

وقلت:

جواهر عشب ونور نظيم
فمن بين صفر وحمر وخضر
ولعس تتاسب لعس الشفاه
نواظر من بين يقظى ووسنى
وأفراد ظل وقطر نثير
على القضب غيد وزور وصور
وبيض تعارض بيض الثغور
ونجل وحزر وحول وحور

وقد استوفى في هذه الأبيات، جميع أوصاف الأنوار، على اختلاف حالاتها. وأنشدنا أبو أحمد قال أنشدنا
التنوخى لنفسه:

أما ترى الروضَ قد وافاك مبتسماً
فأخضرٌ ناضرٌ في أبيض يقق
مثل الرقيبِ بدا للعاشقينِ ضحى
ومن المشهور قول الحماني:

دِيمٌ كَأَنَّ رِياضَهَا
وَكَأَنَّما غُدْرانُها
وَكَأَنَّما أنوارُها
طَرَّرَ الوصائِفِ يَلْتَفِتُ
يُكْسِينُ أعلامَ المطارِفِ
فِيها عِشورٌ في مصاحِفِ
تَهْتَرُ بِالرِيحِ القوصِفِ
نَ بها إلى طَرَرِ الوصايفِ

وقلت:

وروضةٍ حاليةِ الصدورِ
محمودةِ المخبورِ والمنظورِ
معجبةِ الظاهرِ والمستورِ
باكيةِ كالعاشقِ المهجورِ
شقائقِ كناظرِ المخمورِ
ونرجسِ كأنجَمِ الديجورِ
والطلِ منثورِ على منثورِ
يرصعُ الياقوتُ بالبلورِ

وقال السري وأحسن، وليس فيمن تأخر من الشاميين أصفى ألفاظاً مع الجزالة والسهولة وألزم لعمود
الشعر فيه:

وجناتٍ يُحِي الشَرِبَ وَهنا
إذا ركدَ الهواؤُ جرتِ نسيماً
يُفَرِّجُ وشيها عن ماءٍ وردٍ
تعانقُ ريحها لَمَمَ الخزامى
جَنَى وَهَدَاتِها وجنى ربّاهَا
وإن طاحَ الغمامُ طَغَتْ مياها
يفيضُ على اللآليءِ من حصاها
وأعناقُ القرنفلِ في سَراها

ويأبى زهرها إلا هجوعاً

وقال البحترى:

ويأبى عرقها إلا انتباها

قطرات من السحابِ وروض

فالرياحُ التي تهبُّ نسيمٌ

نثرت وردها عليه الخدودُ

والنجومُ التي تطلُّ سعود

وقال ابن الرومي:

أصبحت الدنيا تروقُ من نظرٍ

واها لها مصطنعاً لقد شكرُ

بمنظرٍ فيه جلاءٌ للبصرِ

أثنتُ على الله بالآءِ المطرِ

تبرحتُ بعدَ حياءٍ وخَفَرٍ

والأرضُ في روضِ كأفواهِ الحبرِ

تبرُّجِ الأنثى تصدَّى للذكرِ

وقال وأحسن:

وحلسٍ من الكتانِ أخضرِ ناضرٍ

إذا درجت فيه الرياحُ تتابعتُ

يُبَاكِرُهُ دَانَ الرَّبَابِ مَطِيرُ

ذوائبه حتى يقالَ غديرُ

وقلت:

أنظر إلى الصحراء كيف تزخرت

وعلى الربي حُلٌّ وشَاهُنَّ الحيا

وإلى دموعِ المزنِ كيف تُذَرَّفُ

فَمَسَهُمْ وَمَقْصَبٌ وَمَفُوفٌ

ومضاجعُ الأنداءِ فيها زخرفُ

وملابسِ الأنواءِ فيها سُندسٌ

ذَكَرْنَاكَ الكَافُورَ حِينَ يَدُوفُ

نَمَّ الرِيَاخُ عَلَى الرِيَاضِ نَمَائِمًا

وعلى اليفاع من الشقائقِ مطرف

وعلى التلاع من الأقاحي حُلَّةٌ

كالقطنِ في زرقِ الثيابِ يندفُ

والغيمُ تنقشهُ الرِيَاخُ عَشِيَّةً

ويصيرُ سيلاً وهو أغبرُ أكلف

والقطرِ يهمي وهو أبيضُ ناصعُ

والسيلُ يجري مثلَ أفعى تزحف

والبرقُ يلمعُ مثلَ سيفٍ يُنْتَضَى

وقول أعرابي: باكرنا وسمي، ثم خلفه ولي، فالأرض كأنها وشي منشور، عليه لؤلؤ منشور، ثم أتتنا غيوم
بمناجل حصاد، فاخترت البلاد، وأهلكت العباد فسبحان من يهلك القوي الأكل، بالضعيف المأكول.

وقال أبو تمام:

من ريقِ مختفلاتٍ بالحيا دُلْح

الروضُ ما بينَ مغبوقٍ ومصطبِحِ

عيونُ نوارِها تبكي من الفرح

جُونٌ إذا هطلت في روضةٍ طفقتُ

وقال أبو الغضبان اليمامي:

سحيراً وأوداجُ الأباريقِ تسفكُ

غدونا على الروضِ الذي طلَّهُ الندى

من الروضِ يجري دمعُه وهو يضحكُ

فلم أرَ شيئاً كانَ أحسنَ منظراً

وقال غيره:

ومن اللجين لعسجد ورق

وإذا الزمردُ مثمرٌ ذهباً

وجديده بجديدها خلَقُ

لا زال يُمتنعنا بجديته

وقال غيره في تلون الأرض:

يُنقلنَ في صفراءَ من حمراء

فترى الرياضَ كأنهنَّ عرائسُ

وقال أبو تمام:

وغدا الندى فس حليه يتكسرُ

رقت حواشي الدهرِ وهي تمرُّ مرُّ

صحوً يكادُ من النضارةِ يطرُّ

مطرٌ يروقُ الصحوً منه وبعدهُ

خلت السحابَ أتاهُ وهو معذِرُ

وندى إذا ادَّهنت به لممُ الثرى

لو أن حُسنَ الروضِ كان يُعمرُّ

ما كانت الأيامُ تسلبُ بهجةً

سَمَّجت وحسنُ الروضِ حينَ يغيرُ

أو لا ترى الأشياءَ إذ هي غيرت

تريا وجوهَ الأرضِ كيفَ تصوّرُ

يا صاحبي تقصياً نظريكما

زهرُ الربى فكأنما هو مقمرُ

تريا نهراً مشمساً قد شابهُ

جلّى الربيعُ فإنما هي منظرُ

دنيا معاشٍ للورى حتى إذا

نوراً تكادُ له القلوبُ تنور

أضحت تصوغُ ظهورَها لبطونها

فكأنما عينٌ عليه تحدُرُ

من كلِّ زاهرةٍ ترقرقُ بالندى

عذراءُ تبدو تارةً وتخفرُ

تبدو ويحجبها الجميمُ كأنها

الجميم متكاثف النبت، يقول: يظهر بتحريك الرياح إياه، ويستتر عند سكونها فيغطيها الجميم:

ما عاد أصفراً بعد إذ هو أخضرُ

صنعُ الذي لولا بدائع لطفه

وقلت في مديح:

إني أرى لك في السماحة والندى
طلّق الغمام سرى بوجهٍ باسرٍ
ثقلت على عنق الصبا أعبأؤه
فترى النبات يروق وسط رياضه
وقال البحرّي:

طلقاً ذرّيت به على الأطلاق
يُروي الوجوه ومبسم براق
مثل الضعيف بنوء بالأوساق
مثل الحليّ تروق وسط حقاق

إذا أردت ملأت العين من بلدٍ
يمسي السحاب على أجالها فرقا
فلست تبصر إلا واكفاً خضلاً
وقال أيضاً:

مستحسن وزمان يشبه البلدا
ويصبح الروض في صحرائها بددا
أو يانعا خضراً أو طائراً غردا

ولا زال مخضراً من الأرض يانع
يذكرنا رياً الأحبة كلما
شقائق يحملن الندى فكأنه
ومن لؤلؤ في كالأقحوان منضد
كأن جنى الحوذان في رونق الضحى
رباع تروت بالرياض مَجودة
إذا راوحتها مزنة بكرت لها
كأن يدّ الفتح بن خاقان أقبلت

عليه بمحمر من النور جاسد
تنفس في جنح من الليل بارد
دموع التصابي في خدود الخرائد
على نكت مصفرة كالفرائد
دنائير تبر من توام وفارد
بكل جديد الماء عذب الموارد
شآبيب مجتاز عليها وقاصد
تليها بتلك البارقات الرواعد

وقلت:

أما ترى عود الزمان نضرا
أنته أطفاف السحاب تترى
تبسط في الصحراء بسطاً خضراً
ونرجساً مثل العيون زهرا
كأنما يصوغ فيها تبرا
كأنما ينثر فيها دراً

تري له طلاقة وبشرا
وساقت الجنوب غيماً بكرا
وتمنح الروضة زهراً صفرا
وأقحوان كالثغور غرا
كأنما يدوف فيها عطرا
فأعمل الكاسات شمطاً شقرا

ثم مرّ الزبيرَ يناغي الزمرا
لا تفسدنّ بالغرامِ العمرا

إذا ما منحناه العيونُ عيونُ
مكانَ سوادٍ والبياضُ جفون

خجلاً تورّدها عليه شاهدُ
إلا وناهله الفضيلة عائدُ
آبٍ وحادٍ عن الطريقة حائدُ
زهرَ الربيعِ وأن هذا طاردُ
بتسلّبِ الدنيا وهذا واعدُ
بحياته لو أنّ حياً خالدُ
يحكي مصابيحَ الوجوه تُراصد
وعلى المدامةِ والسماعِ يُساعدُ
يوماً فإنك لا محالةً واجد
بحياناً السحابِ كما يُربّي الوالد
شبهاً بوالده فذاك الماجدُ
ورياسةً لولا القياسُ الفاسدُ

درن علينا بكؤوس الذهبِ
فحلّ من قلبي عقدَ الكُربِ
هذا لعمرى عجبٌ في عجبِ

كالماءِ لوناً والعبيرِ نَشراً
والعيشُ أن تُسرَّ أو تُسرّاً

أحسن ما قيل في النرجس قول أبي نواس:
لدى نرجسٍ غضُّ القطافِ كأنه
مخالفة في شكلهنّ فصفرةُ
والناس يشبهونه بالعيون ولا يفضلونه هذا التفضيل.
ومما لم يقل مثله قول ابن الرومي:

خجلتُ خدودُ الوردِ من تفضيله
لم يخجلِ الوردُ المورودُ لونه
للنرجسِ الفضل المبينُ وإن أباي
فصل القصية أن هذا قائدُ
شئان بين اثنين هذا مُوعِدُ
وإذا احتفظت به فأمتعُ صاحبِ
يحكي مصابيحَ السماءِ وتارةً
ينهي النديمُ عن القبيحِ بلحظه
إن كنتَ تطلبُ في الملاحِ سميّةً
هذي النجومُ هي التي ربتهما
فانظرِ إلى الأخوين من أدناهما
أين العيونُ من الخدودِ نفاسةً

وقلت:

ونرجسٍ مثل أكفٍ خردٍ
ناولنيه مثله في حسنه
مبتسمٌ عنه وناظرٌ به

وقلت في معناه:

ونجري مع اللذاتِ جريَ السوابقِ
كمثلِ سقيطِ الطلِّ فوقَ الشقائقِ
كؤوسٍ عُقارٍ في أكفٍ عواتقِ

ألم ترنا نعطي الغوايةَ حقها
بمحمرةِ الأجسادِ مبيضةِ الذرى
لدى الصفرِ في أوساطِ بيضٍ كأنها

وقال ابن الرومي:

على صنوفِ الوردِ والفضلِ قسمٌ
فما لها والخذّ وهو الملتدمُ
ما هو إلا نعمةٌ من النعمِ

للنرجسِ الفضلُ برغمِ مَنْ رغمُ
العينُ قبلَ السنِّ وهي المبتسمُ
ما أطيبُ الريحِ وما أزكى النسمِ

ومن التشبيه المصيب قول الآخر

يشبهُ ديناراً على درهمِ

ونرجسٌ لاحظني طرفها

وقال ابن الرومي في الخمر والنرجس:

وشرايهم دُررٌ على ذهبِ

ريحانهم ذهبٌ على دُررِ

وقلت:

فترى درهماً على دينارِ
علقت بالنباتِ والأشجارِ
كشئوفِ الكواعبِ الأبيكارِ

يركبُ الأقحوانُ فيها نهاراً
فرشّت فوقها فرائدُ طلِّ
وتدلّت على الغصونِ فجاءت

وقال الآخر:

مثلَ عروسٍ تُجلى وتشتهرُ
فاعتاده من منامه سهرِ
كأنما في جفونه قصرُ
فليس يرقا وليس ينحدرِ
فردّها في جفونه الحذرُ

ونرجس قامَ فوقَ منبره
نامَ الندى في عيونه سحراً
لم يغتمض والظلامُ حلَّ بهِ
تحيرُ الطلِّ في مدامعهِ
كدمعةِ الصبِّ يسكبها

وقلت:

فانتبه النرجسُ من رقدته

وغنت الطيرُ بألحانها

وأحسن ما قيل في الورد قبل أن يتفتح قول بعض المحدثين:

قد ضمه في الغصن قرص برد

وقلت فيه إذا تفتح:

ضم فم لقبلة من بعد

ما بين أغصان وأقمار

جاءت من المسك بأخبار

كالخذ منقوطةً بدينار

مر بنا يهتز في خطره

يدير في أنمله وردة

يلوح في حمرتها صفرة

وقال ابن المعتل:

خوداً أضيفت بعضهم إلى بعض

عشية حياتي برد كأنه

وقلت:

ترك الربيع وراءه وتقدماً

كالصب قبل فاك ثم تبسماً

قومي وانظري ورداً كخدك أحمرأ

قد ضمه برد ففتقه ندى

ولم أجد في تشبيه الورد أبدع مما ذكرته، وتشبيهه بالخذ تشبيه مصيب، ولكني تركت الإكثار منه لشهرته وكثرته، ويقال للوردة الحمراء الحوجة، وللبيضاء الوتيرة، ويشبه بها قرحة الفرس قال عمرو بن معدي كرب:

وتيرة لم تكن معذا

تباري قرحة مثل ال

وقد أحسن علي بن الجهم في قوله يصف الورد:

زمرد وسطها شذر من الذهب

كأنهن يواقيت يطيف بها

وهو من قول أزدشير: الورد ياقوت أحمر وأصفر، ودر أبيض، على كراسي زبرجد، يتوسطه شذور ذهب. وقال البحتري:

أوائل ورد كُن بالأمس نوماً

بيث حديثاً كان قبل مكتماً

وقد نبة النيروز في غلس الدجى

يفتحة برد الندى فكأنه

وقلت في تفضيل الورد على النرجس:

لا أجعل الأنجم كالأشمس

مثل الذي يمتل في المجلس

أفضل الورد على النرجس

ليس الذي يقعد في مجلس

وقال ابن بسام:

على الزمرد في أوساطها الذهب

مداهن من يواقيت منضدة

كَأَنَّهُ حِينَ يَبْدُو مِنْ مَطَالَعِهِ

صَبَّ يُقْبَلُ صَبًّا وَهُوَ مَرْتَقِبٌ

ومن الياقوت الأزرق والأصفر والأحمر، وليس في البيت دليل، على أنه أراد الأحمر دون لأزرق، فهو معيب من هذه الجهة.

وقلت في الورد على الشجر:

أَصْبَحَ الرُّودُ فِي الْغُصُونِ يَحَاكِي

أُوجَةُ الْحُورِ فِي مَقَامِعِ خَضِرِ

مِثْلَ فَرَسَانِ غَارَةٍ يَعْثَلِيهِمْ

لَمْعٌ مِنْ دِمَاءِ سَحَرٍ وَنَحْرِ

وَيَلُوحُ النَّهَارُ أَسْفَلَ مِنْهُ

فَهُوَ كَالرَّجْلِ فِي عِمَائِمِ صَفْرِ

بين نبذ من الشقائق يحكي غلطة الدر في مطارف حمر.

وقال ابن المعتز:

وَلَا زُورَ دِيَّةٍ أَوْفَتَ بِزُرْقَتِهَا

بَيْنَ الرِّيَاضِ عَلَى زُرْقِ الْبِوَاقِيَتِ

كَأَنَّهَا فَوْقَ طَاقَاتِ ضَعْفَنَ بِهَا

أَوَائِلَ النَّارِ فِي أَطْرَافِ كِبْرِيَتِ

والصحيح أنه في الحرم والشاهد قوله:

بِنَفْسِجٍ جَمَعَتْ أَطْرَافَهُ فَحَكَتْ

دِمْعًا يَنْشَفُ كُحْلًا يَوْمَ تَشْتِيَتِ

وقوله:

كَأَنَّهَا فَوْقَ طَاقَاتِ ضَعْفَنَ بِهَا

ويدل على أنه أراد الحرم، لأن ساق البنفسجة لا يضعف عن حمل وردتها، وهذا الوصف بالحرم أشبه منه لكبر نوره ودقة ساقه فاعرف ذلك.

وقلت في البنفسج:

وَرُوضَةٌ كَأَنَّهَا مِنْ حَسَنِهَا

تَبْرَزُ فِي أَثْوَابِ سَعْدٍ وَمُنَى

قَدْ نَثَرَ اللَّيْلُ عَلَى أَنْوَارِهَا

لَأَلَىءَ الطَّلِّ وَأَفْرَادَ النَّدَى

بَكَتْ عَلَيْهَا مُزْنَةٌ فَابْتَسَمَتْ

عَنْ لَوْلُوٍّ بَيْنَ فُرَادَى وَثَنَى

وَحَوْلَهَا بِنَفْسِجٍ كَأَنَّهُ

أَوَاخِرُ النَّيْرَانِ فِي جَزْلِ الْغُضَا

وقال آخر:

وَكَأَنَّ الْبِنَفْسِجَ الْغُضَّ فِيهِ

أَثْرُ اللَّطْمِ فِي خُدُودِ الْغَيْدِ

وقلت:

وبحافاتها البنفسج يحكي أنثر القرصَ في خدودِ العذارى

وقلت في الهنة النادرة تحت ورقة البنفسج ولم أسمع فيها من الشعر العربي شيئاً:

ومغنجَّ قال الكمالُ لخلقه كن مَجْمَعاً للطيباتِ فكانه

زعمَ البنفسجُ أنه كعداره حُسناً فسَلُّوا من قفاهُ لسانه

وقال ابن الرومي:

أشرب على وردِ البنف سج قبل تأنيبِ الحُسودِ

فكأنما أوراقتها آثارُ قرصِ في الخدودِ

أغرب معنى جاء في الشقائق قول الأحيطل:

هذي الشقائقُ قد أبصرتُ حمرتها مستشرفاتٍ على قضبانها الذللِ

كأنها دمةٌ قد مسَّحتُ كُحلاً جالت بهِ وقفةً في وجنتي خجلِ

وأظن الأحيطل ابتكره، إلا أنه أورده في أهجن معرض، وفي أشد ما يكون من التكلف وأتى بالمحال لأن الوقفة لا تجول.

فنظمته وقلت:

وشقائقُ نقشَ الربيعُ ثيابها فيرزن بين مكحلٍ ومُجسِّدِ

كالخذِّ يصبغهُ الحياءُ بجمرة وجرى عليه الدمعُ خلط الإثمِ

ومن غريب ما قيل فيها قول بعض المتأخرين:

طربَ الشقائقُ للحمامِ وقد شجا شجوا القيانِ فشقَّ فضلَ ردائه

وتحيرت ما بين إثمِ ماقه في الخدِّ دمعته وبين حيائه

فكأنه الحبشيُّ بضعَ جسمه فثيابه مخصلةٌ بدمائه

وجعل الشقائق واحداً، وهي جماعة مؤنثة والواحد شقيقه، فإذا ذكر فعلى معنى النور وتسميه العرب الشقر.

وقلت:

وللشقائق خالٌ فوقَ وجنتها ووجنةُ الوردِ بالدينارِ منقوطة

وقال التنوخي:

شقائقٌ مثلُ خدودِ نُقِشتُ

وهو بعيد لأن السواد الذي فيها لا يشبه الشوارب.
ومن أحسن ما قيل في الآذريون قول ابن المعتز:

شواربٌ بالمسكِ فيها ولحي

يا ربما نازعني

في روضةٍ كأنها

كأنما أنهارها

كأن آذريونها

مداهنٌ من ذهبٍ

وقال أيضاً:

رُوحِ دنانٍ صافيه

جلد سماءٍ عاريه

بماءٍ وردٍ جاريه

غِبُّ سماءٍ هاميه

فيها بقايا غاليه

وصير آذريونه فوق أذنه

وقلت:

ككأسٍ عقيقٍ في قرارتها مسكٌ

ولاح آذريونها

وقال الشمشاطي:

مثل الغوالي في السررِ

تراه عيوناً بالنهارِ نواظراً

وقال ابن المعتز:

وبعد غروبِ الشمسِ أزرارِ ديباجِ

كأنها مداهنٌ من ذهبٍ

أتم التشبيه ههنا بقوله مشرفات.

ومن جيد ما قيل في البهار قول ابن الرومي:

مُشرفاتٌ وسطهنَّ غاليه

وروضةٍ عزراءٍ غيرُ عانسه

فيها شمسٌ للبهارِ دارسه

ترؤفك النورُ منها الناسكه

خضراء ما فيها خلاة يابسة

كأنها جماجمُ الشامسه

بعينٍ يقظى وبجيد ناعسه

وخرم في صبغة الطيالس

وقال ابن المعتز:

مثل الطواويسِ غدت مطاوسه

في روضةٍ كحللِ العروسِ

وخرم كهامة الطاوسِ

وقلت في المذهب الذي سلكه ابن الرومي:

خرمة كهامة الطاووسه
والعين في فنائها محبوسه
تعجبنى منظورة ملموسه
ياقوتة لكنها مغروسه
كحل ألوانها ملبوسة

وقال التنوخي:

ومن خرّم عض خلال شقائق
يلوح كخيلاّن على وردتي خدّ

وإذا كان في الخد خيلاّن لم يستحسن الخال الواحد.

وقلت:

على رياض خرّم كأنها
رؤوس هداّب حرير أكحل

وقال ابن طباطبا:

وطوّس فيها خرّم فكأنها
صمامات وشي هُيئت لمخازن

وقلت في البهار والورد:

وردّ إلى جنبه بهار
كالخذ أصغى إليه قرط

وقد جمعت أصناف المنثور في أبيات، وما جمعها أحد إلا بعض الكتاب في أبيات غير مختارة الوصف.

فقلت:

ألوان منثور يريك حسنها
يا حسنها في كف من يشبهها
من أشهل كعينه وأبيض
وأصفر مثل صريع حبه
ألوان ياقوت زها في عقده
فانظر إلى الندّ بكف نده
كثغره وأحمر كخده
إذا تغشاه غواشي صدّه

وقال السري في الورد:

أما ترى الورد قد باح الربيع به
وكان في حلل خضر وقد خلعت
من بعد ما مرّ حول وهو إضمار
إلا عرى أغفلت منها وأزرار

وقلت:

ليس ينفكُ للغمام أياذِ
فترى رعدهُ يشقُ حريراً
وترى للزمانِ غُصناً وريفاً
أنبتَ الأرضَ عسجداً ولجيناً
وجرى الريحُ سجسجاً ورخاءً
وسبى العينَ لؤلؤً وعقيقاً
فترى ثمَّ مضحكاً يتجلى
قطراتِ الندى أحاداً ومثنى
وكانَ الشقيقُ كأسُ عقيقٍ
فترى النجدَ في رداءِ موشى
وعليه من البهارِ عطافٍ
وترى النورَ مثلَ مضحكِ خوذِ

ومن بديع ما قيل في كمون النيلوفر وظهوره قول ابن الرومي:

فكانهُ في الماءِ صاحبُ مذهبِ
أغراهُ وسواسُ بأن لا يطهرِ

وقال السري:

ونيلوفرٍ أوراقهُ الخضرُ تحتهُ
بساطُ إليه الأعينُ النجلُ شُخصُ

هذا البيت غير مختار الرصف ظاهر التكلف: إذا غاص في الماءِ النمير حسبته=رؤوس إوز في الحياض تغوصُ وقوله النمير لا يحتاج إليه.

وقال آخر من أبيات: كأنما كلُّ قضيبٍ بما=يحملُ في أعلاه ياقوته وقلت:

فشربتها عذراء من يدٍ مثلها
تحكي الصباح مع الصباح المشرقِ

في روضةٍ تلقاك حينَ لقيتها
بمنمنم من نبتها ومنمقِ

فانظر إلى عشبٍ هناك مجمع
وانظر إلى زهرٍ هناك مفرقِ

تحبى بوردٍ كالجينِ مكفرِ
منها ووردٍ كالعقيقِ مخلقِ

وكذاك تتحف من مناقع مائها
بمخلقٍ يعلو ذؤابةً أخلقِ

يبدو ويكمن في الغدير كأنه

فإلى السرور لنا عنانٌ مطلقٌ

وقد أحسن القائل في وصفه الرياض:

جانٍ يحاول أن يبينَ ويتقي

إن الفوائدَ في العنانِ المطلقِ

من الروضِ عنهنَّ الثرى متهاملُ

تنوء به أعناقهنَّ الموائلُ

فيصبحنَّ أبكاراً وهنَّ حواملُ

وقلت في الآس ولا أعرف لأحد فيه شيئاً بديعاً: ومهرجانٌ معجبٌ موقنٌ=كالنورِ غبَّ السبيلِ الساجمِ

كمثلِ أيامِ أبي القاسمِ

مثلِ شوابيرِ بني هاشمِ

طلعتُ فيه غرراً ووضحاً

والآس في كفي أحبيهمُ

وقلت في الريحان:

مناطق مثل أطواقِ الحمامِ

وفيها لين أعطافِ الغلامِ

وخضراً يجمع الأعجاز منها

لها حسنُ العوارضِ حينَ تبدو

وقال كشاحم وأحسن: أرتك يدُ الغيثِ آثارها=وأعلنتِ الأرضِ أسرارها

خبيباً فأعطته أذارها

وكانت أكننتُ لكانونها

والنصف الأول من هذا البيت متكلف:

رياضٍ تصنّف أنوارها

جناها فيهتك أستارها

ندى ظلّ يفتضُّ أبكارها

كضمّ الأحبة زوَّارها

عذارى تحلُّ أزرارها

وطوراً تحدقُ أبصارها

على بقعة أشعلت نارها

فما تقع العينُ إلّا على

يفتحُ فيها نسيمُ الصبّا

ويسفح فيها دماءَ الشقيقِ

وتدني إلى بعضها بعضها

كأنَّ تفتحها بالضحي

تفضُّ لئرجسها أعيناً

إذا مزنةً سكبت ماءها

وقال فيها:

بفيضِ المياهِ وأغوارها

وأقبلَ ينظّمُ أنجادها

فعممَ بالنورِ أشجارَها
تُنسي الأوائِلَ برَّ جارِها

وأرضعَ جناتها دَرَّةً
ودارَ بأكتافِها دَوْرَةَ

وقال أيضاً في الباقي:

ولم ينقل من يدٍ إلى يدٍ
أو كالفصوص في أكفِّ الخردِّ
في طيِّ أصدافٍ من الزبرجدِ

جنيُّ يومٍ لم يؤخر لعدِّ
كالعقدِ إلا أنه لم يُعقدِ
أو ككبارِ اللؤلؤِ المنضدِّ
مفروشةً بالكرسفِ الملبَّدِ

وقلت فيه أيضاً:

شباته انفتقت في الشكلِ والصورِ
تحكي القباطيَ تحت السندسِ النضرِ
مثل الزبرجدِ مثنياً على دررِ
كالنخرِ يشرقُ تحتَ الشاربِ الخضرِ

أبدى الربيعُ لنا من حُسنِ صنعتهِ
خضرٌ ظواهرُها بيضٌ بطائنها
بيضٌ شبائه في خضرٍ ململمةٍ
ينشقُّ أخضرُها عن أبيضٍ يققِّ

ومن المشهور في ورد الباقي قول الصنوبري:

بلقَ الحمامِ مُشيلةً أذنانها

وبناتِ باقلي يُشبهه نورُها

وقلت فيه:

كأطواقِ الشعانينِ

ويزهي وِرْدُ باقلي

وقال السري في غير ذلك:

فكأنَّ عطاراً يعطره
وحكى مُدرَّهمه مدرُّه

في زاهرِ عقبِ تزوعه
ضاهي ممسكه معبره

ومن أجود ما قيل في البساتين، ومواضع الأشجار، قول الخليل بن أحمد، أخبرنا أبو أحمد عن رجل عن الرياشي قال: كان في يد الخليل بن أحمد من أراضي البصرة ليتيم، فلما بلغ اليتيم مضى به الخليل إلى الأرض، ومعه قارورة من ماء زمزم، فلما جاء المد صب ما فيها في فوهة نهرها، ليخلص إلى جميعها، ثم قال: يا بني هذه أرضك، فقم فصل فيها ركعتين، واشكر الله على ما أعطاك منها، وادع بالبركة لك ولمن بعدك.

ثم أنشأ يقول في وصفها:

ترفعت عن يدِ الأعماقِ وانخفضت
فالتفت بالزهرِ والريحانِ أسفلها
وصارَ يحسده فيها أصادقهُ
أبا معاوية اشكر فضلَ واهبها
وقال ابن المعتز في السرو والنرجس:

لدى نرجسٍ غضٌّ وسروٍ كأنهُ

وقلت:

لبسَ الماءُ والهواءُ صفاءً

عن المعاطشِ واستغنت بسقيها
ومالَ بالنخلِ والرمانِ أعلاها
ولائمٌ لامَ فيها من تمنائها
وكلما جئتها فاعمر مصلاها

قدودُ جوارٍ رحنَ في أزرٍ خضري

واكتسى الروضُ بهجةً وبهاءً

فكأنَّ النهاءَ صرنَ رياضاً

وكأنَّ الهواءَ صارَ رحيقاً

وتخالُ السماءُ بالليلِ أرضاً

جللتها الأنواءُ زهراً وصفراً

فتراها ما بينَ نوءٍ ونورٍ

وتظلُّ الأشجارُ تتخذُ الحسنَ

لبست حينَ أثمرت خُلداتٍ

وترى السروَ كالمنابرِ تزهى

وقال ابن عيينة:

تذكرني في الفردوسُ طوراً فأرعوي

بغرس كأبكار الجواري وتربةٍ

وقال السري في تفاح ودستبوي وorman:

إنَّ شيطانك في الظرِّ

فلهذا أنتَ فيه

قد أتتنا طرفٌ منك على الظرفِ تزيدُ

وكأنَّ الرياضَ عدنُ نهاءً

وكأنَّ الرحيقَ صارَ هواءً

وترى ظلَّت تتادمُ الأنواءُ

يومَ ظلَّت تتادمُ الأنواءُ

تتكافأ تبتسماً وبكاءً

قميصاً أو الجمالِ رداءً

واكتست حينَ أورقت سيراهاً

وترى الطيرَ فوقها خطباء

وطوراً تواتيني على القصفِ والفتكِ

كأن تراها ماءً وردٍ على مسكٍ

ف لشيطانٌ مریدُ

مُبدئٌ ثم مُعيدُ

طَبِقُ فِيهِ خَدُودٌ

وقدودٌ ونهودٌ

وقد أحسن التوخّي في وصف النارج حيث يقول:

لم لا تجنُّ بها القلوب

وقد غدت مثل القلوب

وقلت:

تطالعا بين الغصون كأنها

خدودٌ عذارى في ملاحفها الخضر

أنت كلُّ مشتاقٍ برياً حبيبهِ

فهاجت له الأحران من حيث لا يدري

وقال:

إذا لاح في أغصانه فكأنه

شموسٌ عقيقٍ في قبابٍ زبرجدٍ

وقلت في المركب:

مركب تعجبٌ من حسنه

قد كنز الفضة في تبره

يشاكلُ العاشق في لونه

ويُشبهُ المعشوق في نشره

وقال الصنوبري في التفاح وقد ظرف:

أعطت يدها محبةً تفاحةً

نعطي المحبّ أمانه من صدّه

وهذا البيت متكلف جداً:

فعلمت حين لثمتها من كفه

سألتم أختها من خده

وقال أيضاً:

جاء فحياني بأترجة

من ذهبٍ قد حُشيت فضه

أتى بها ناعمةً غضةً

من كفه الناعمة الغضه

تبدل للقبلة حسناً ولا

تصلح أن تبدل للعضه

أحبب بها من مسكةٍ مخضة

ناولنيها مسكةً محضة

وقلت في الأترج والنارج:

ترى النارج في ورقٍ نضير

فتحسبه عقيقاً في زبرجدٍ

وأترج على الأغصان يزهي

كما رفع الفتى قنديل عسجد

وقال بعضهم في دستنبوية:

يا حبذا تحيةً

مخزنة من ذهب

وقال غيره في الليمون:

وقهوة تزهرُ في السراج

ملبسات أصفر الديباج

وقتل فيه:

رحت بها مسرورا

قد ملئت كافورا

نشرتها على كراتٍ عاج

كأنجم تحدقُ بالبدر

ملبسات قمص التبر

يا عجباً من ذلك الزرّ

فإنها من تحفِ الدهر

أحدق ليمونٌ بأترجه

مخروطة الأجساد من فضةٍ

قد شدّ من هامتها زرها

اشرب عليها وتمتع بها

ولبعض الكتاب رسالة في التفاح، ليس لها نظير في معناها، وهي التي أخبرنا بها أبو أحمد قال: قال أخبرنا الجلودي قال حدثنا أحمد بن أبي طاهر، قال أهدى ظريف من الكتاب تفاحة وكتب: لما رأته تنافس أحبابك، وثقات أصدقائك: على الهدايا وتواتر الطافهم عليك، تفكرت في هدية تحف مؤنثها، ويعظم خطرهما، ويجل موقعها، تجمع الخصال الحمودة، وتنظم الخلال المرموقة، فلم أجد شيئاً يجتمع فيه ما أحببنا، ويكمل له ما وصفنا غير التفاح، فأهديت إليك منه واحدة، وأحببت أن أنبهك على فضلها، وأقفك على نبلها، وأكشف لك عن سرائرها، وأعرفك لطائف معانيها، وأنعت لك مقالة الأطباء فيها. وما نظمت الشعراء في مدحها، حتى تراها بعين الجلالة، وتنظر إليها نظر الصيانة، فإنه يحكي عن أمير المؤمنين المأمون أنه قال: اجتمع في التفاح الصفرة الدرية، والحمرة الخمرية الذهبية، وبياض الفضة ونور القمر يلتذ بها من الحواس ثلاث: العين لحسن لونها والأنف لطيب عرفها، والفم للذة طعمها. وقال حكيم من الحكماء: الخمر صديقة الجسم والتفاح صديق الروح. وقال آخر منهم وقد حضرت وفاته، واجتمع إليه تلامذته، وأراد مناظرهم فضعف عنها فقال: إئتوني بتفاحة أعتمص برائحتها ريثما أفضي وطري من المناظرة، فلم يستخفها إلا لفضلها على غيرها. وقال آخر: جسم التفاح صديق الجسم وريحه صديق الروح. وقال حكيم من الأطباء: إن أجود الأشياء، لعلاج المزاج الحاد، الكائن في المعدة مع المزاج البارد، الكائن في الرأس، وغثيان النفس، وقلة الاستمرار للطعام: التفاح.

وقال إبراهيم بن هانيء: ما علل المريض المبتلى، وسكنت حرارة الثكلى، وردعت شهوة الحبلى، ولا

كسرت فورة السكران، ولا أرضى الغضبان ولا ردت عرامة الصبيان، بشيء مثل التفاح. والتفاحة إن حملتها لم تثقلك، وإن رميت بها لم تؤلمك، وقد اجتمع فيها لون قوس قزح، من الحمرة والخضرة ولو حل التفاح، لكان قوساً، ولو عقدت القوس لكانت تفاحاً.
وقال بعض الشعراء:

أقربُ الأشياءِ من قوسِ قزح

حُمْرَةُ التَّفَاحِ فِي خُضْرَتِهِ

والحمرة تفاحة ذائبة والتفاحة حمرة جامدة. وقال الشاعر: الخمر والتفاح شكلان وقال الآخر:

ركبتَها في غُصنِ الآسِ

تَفَاحَةٌ حَمْرَاءُ مَنقُوشَةٌ

إكليلِ نسرينِ على الراسِ

ألبستها ورداً وكللتها

وقال آخر في التفاحة:

حمرَةٌ خَدٌّ خَجَلٍ

كأنما حُمُرُهَا

وقال ابن أبي أمية:

معتصماً باللهِ والصبرِ

ما زلتُ أرجوكَ وأخشى الردى

زحزحتِ الأحزانَ عن صدري

حتى أنتتني منك تفاحةٌ

ونقشُ كفيك من السحرِ

حشوتها مسكاً ونقشتها

لو لم تكن من خُدعِ الدهرِ

وأما لها تفاحةٌ أُهديتُ

إذا وصلت إليك - أوصلك الله إلى رحمته وعطفه - فتأمل وصفها بعينك، وتناولها بيمينك، وأحضرها ذهنك، وفرغ لها شغلك، واجمع لها عقلك، وغازلها ساعة، وهازلها أخرى، ولا تكن متهاوناً بقدرها، غير عالم بفضلها، فتتناولها بحركة باردة، وطبيعة جامدة، وقلب ساه، وعقل لاه، وذهن غبي، وشراهية فهم، عساه أن يكلمها بأسنانه، ولا يدري ما قدرك عند إخوانه، ويقصر بمن حياه، وينتقص من أهدها، ولا تخدشها بيدك، ولا تثلمها بظفرك، ولا تبتذلها للغبار، ولا تعرضها للدخان، فإذا طال لبثها لديك، وخفت أن يرميها الزمان بسهمه، ويقصدك بريه ويذهب بهجتها، ويجول نضرتها فهنيئاً لك أكلها والسلام. وشبه بعضهم ورق الريحان بقافات وفاآت، في شعر غير جيد، فتركته ولم أذكره. وقلت في الريحان:

كأنَّ أوراقها آذانُ جُرْدانِ

ثم انثنينا إلى خضرٍ مُنعمَةٍ

من لؤلؤِ القطرِ والأنداءِ سمطانِ

وقهوة كجنبيِّ الوردِ وشحَّةِ

وقال السري في دستنبوية:

رِ نشا خلالَ الربربِ
هُ من القطافِ بعقربِ
مثلَ السنانِ المذهبِ

الإتوهمها سناناً مذهباً

كبدرِ الليلِ تكنفه النجومُ

أنأى التصيرِ طولُ هجرتها

ما ألبستُ من حُسنِ بهجتها
ونسيمُها من عطرِ نكهتها
ما لأضمرتُ من سوءِ غدرتها
قَرُصَ الأكفِ أديمِ وجنتها
تختالُ في أثوابِ زينتها
ذهبَ مصوغُ ثوبِ بذلتها
تُحَفَ السرورِ لطيبِ نشوتها
من أن تباشرها بشمّتها
في نعتِ رِيّأها وصبغتها
راحتَ معذبةً بفكرتها

شبهتها بعدَ فكرةٍ فيها
تَسُدُّ آذانها بأيديها

وأغنّ كالرشأ الغري

في خذّه وردّ حما

حيا بدستنبويةٍ

وقال أيضاً فيها:

صفراء ما عنتَ لعيني ناظرٍ

وقلت:

وأترج يحفُ بها أقاح

وقال السري في نارنجة:

أهدت على نأى المحلِّ وقد

نارنجةً منها استعيرَ لها
وشعاعُها من نورِ وجنتها
وكانَ ما يخفيه باطنها
وحكى اخضراراً شابَ وجنتها
فأنتك مُكملةٌ محاسنها
فشعارُها صفوُ اللجينِ ومن
تُهدي إلى الأرواح من بُعدٍ
ويصونها مسرَى روائحها
فاشربُ عليها من شقيقتها
واعطفُ عنانَ النفسِ عن فكرِ

وقال ابن طباطبا العلوي في الأترج:

ريحانةٌ في اصفرارِ مهديها
أحبةٌ لم تُصخِّ لعاذلها

فأورد المعنى في بيتين فقص من غرابه معناه.

وجعلت دستنبوية مقفعة في غصن آس، فسقطت فناولنيها بعض الأحبة فقلت:

وأصفرُ يهوي من ذؤابةٍ أخضرٍ
له شعبٌ تهوي على سرّواته
فناولنيهِ ذو دلالٍ كأنما
فأصبح مشهورَ الجمالِ مُشهرًا
كما انقضَّ نجمٌ في الدُّجَنَةِ ثاقبٌ
كمثلِ بنانِ الكفِّ يلويه حاسب
لهُ الشمسُ أمٌّ والبدورُ أقارب
له الحسنُ خذنٌ والملاحَةُ صاحب

وقال بعضهم في الأترج:

لها ورقٌ ريحها ريحة
كأن تعطف أوراقها
وما ذاك في غيره لم طلب
أكفٌ تشيرُ إلى من تحب

وقال ابن خلاد في شجر الزيتون:

إذا ذلت الأشجارُ يوماً لجفوة
تصرفُ في اللذاتِ من كلِّ مطعم
فإن لها عزَّ القناعةِ والصبرِ
تصرفَ زيدٌ أخذاً بقفا عمرو

وقلت في التفاح:

ليس ريحُ التفاحِ عندي بريح
حُمرةُ الخدِّ واخضرارُ عذارِ
لا ولكنه صديقٌ لروحي
فمليحٌ يطوفُ حولَ مليح

وقال نصر بن أحمد:

أكلتُ تفاحةً فعاتبني
فقال خذُ الحبيبِ تأكلهُ
فتى رأها كخذٍ معشوقه
فقلتُ لا بل أمصُّ من ريقه

وقال السري:

لم جُمِدْتُ راحنا اغتدت ذهباً
وقلت في الرمان ولا أعرف فيه شيئاً مرضياً:
أو ذابَ تفاحنا غدا راحا

حكى الرُّمانُ أوَّلَ ما تبدَّى
فجاء الصيفُ يحشوه عقيقاً
حقاقَ زبرجدٍ يُحشِينُ ذرّاً
ويكسوه مروراً القَيْظِ تبرا

ويحكى في الغصونِ نُديَّ حورٍ
شفقنَ غلائلاً عنهن خضرا

وقلت في خوخة:

تملكُ لحظَ الأعينِ الرانيةِ
كأنها عاشقةٌ ساليه

كأنه مخاونُ البللورِ
وفي الأعالي ماءٌ وردٍ جُوري
إلا ضياءً في ظروف نور
وبردٌ مسَّ الخصرَ المقرورِ
لو أنه يبقى مع الدهور

قد أيعنت أنصافهُ الأسافلُ
من ماءِ وردٍ فيه مسكٌ ثافلُ

وخوخةٌ ملء يدِ الجانيةِ
مصفرةُ الوجنةِ محمرة

وأجود ما قيل في العنب قول ابن الرومي:

ورازقيّ مخطفِ الخصورِ
قد ملئتُ مسكاً إلى الشطورِ
لم يُبقِ منها وهجُ الحرورِ
له مذاقُ الغسلِ المشورِ
ونفحةُ المسكِ مع الكافورِ
قرطُ آذانِ الحسانِ الحورِ

وقال في معناه:

ورازقيّ مخطفِ خصورهُ
كأنها مخازنٌ مملوءةٌ

لا يزيد على هذا الوصف أحد.

ودخل أعرابي على هشام بن عبد الملك، فقال له هشام: ما أطيب العنب عندكم؟ قال ما أحضر عوده، وغلظ عموده، وسبط عنقوده، ورق لحاؤه، وكثر ماؤه. فقال له كم عطاءك؟ فقال ألفين. فسكت ساعة، ثم قال له كم عطاؤك؟ قال ألفان. قال فلم لحت أولاً؟ قال لم أشته أن أكون فارساً وأمير المؤمنين راجلاً، لحت فلحت، ونحوت فنحوت. فاستحسن أدبه وأجازه. وقلت:

وكفَّ عنا بأسَ بأسائه
يثنى على الدهرِ بآلائه
تناسبُ الرقةِ في مائه
قد ضمها في بردِ أحشائه
تقرصها في بردِ أفنائهِ
يُهدى إلى بهجةِ شعرائهِ

باكرنا الدهرُ بسرَّائه
وجاءنا أيلولُ مستبشراً
أما ترى الرقةَ في جوِّهِ
أنظر إلى أنواعِ أثمارهِ
راحت عليها نسماتُ الصبا
أما ترى حسنَ ملاحيه

أنظر إلى رُمَّانه ضاحكا

وقال ابن المعتز في العنب:

حمرأوه في وجهه بيضائه

ظلت عناقيدُها يخرجن من ورق

ويروى لابن المعتز في التفاح:

كما اختبى الزنجُ في خضرٍ من الأزْرِ

وتفاحة صفراء حمراء غضة

كخذُ مُحِبٍ فوق خدِّ حبيبٍ

أحيا بها طورا وأشربُ مثلها

من الراح في كفي أغن ربيبٍ

وقلت في النارنج:

روضُ زهائه المزنُ في كراته

بمكفرٍ ومُزَعفرٍ ومُضَرِّجٍ

فتبسّم النارنجُ في شجراته

مثلُ العقيقِ يلوحُ في الفيروزِ

والكأسُ يحملها أغنُ يزينه

وجناتُ وردٍ في عذارٍ بنفسجٍ

ومن أجود ما قيل في النخل، من قديم الشعر، ما أنشدناه أبو أحمد، عن الجلودي عن محمد بن العباس، عن أبيه عن الأصمعي للنمر بن تولب:

ضربن العرقَ في يَبْوعِ عينٍ

طلبنَ مَعِينَهُ حتى ارتوينا

بنات الدهرِ لا يخشينَ محلاً

إذا لم تَبْقَ سائمةً بقينا

كأنَّ فروعهنَّ بكلِّ ريحٍ

عذارى بالذوائبِ ينتصينا

وقد ملح النبعة في قوله:

صغارُ النوى مكنوزةٌ ليس قشرها

إذا طارَ قشرُ التمرِ عنها بطائرٍ

من الواردات الماء بالقاع تستقي بأعجازها قبل استقاء الحناجر.

وهذا أجود من الأول، لأنه ذكر أنهن وردن الماء، يعني الماء الذي في بطن الأرض معيناً. وقال النمر: طلبن معينه فجعل الماء، الذي في بطن الأرض معيناً، والمعين إنما هو الماء الجاري على وجه الأرض ظاهراً. ومن أجود ما قيل في الطلع، من الشعر القديم، قول كعب بن الأشرف:

ونخيل في تلاعِ جمّةٍ

تخرجُ الطلعَ كأمثالِ الأكفِّ

وقال الربيع بن أبي الحقيق:

أذلك أم غرسٍ من النخل مترع

بوادي القرى فيه العيونُ الرواجعُ

لها سَعَفٌ جعدٌ وليفٌ كأنه

حواشي بُرودٍ حاكهنَّ الصوانعُ

وهذا في وصف الليف حسن.

وأخبرنا أبو أحمد، عن الجلودي، عن الحارث بن إسماعيل، عن سهل بن محمد، عن علي بن محمد، عن أسلم الأزدي، عن يونس عن الشعبي، قال كتب قيصر إلى عمر: إن رسلي أخبروني أن بأرضك شجرة، كالرجل القائم، تغلق عن مثل آذان الحمر، ثم يصير مثل اللؤلؤ، ثم يعود كالزمرد الأخضر، ثم يصير كالياقوت الأحمر والأصفر، ثم يرطب فيكون كأطيب فالوذ اتخذ، ثم يجف فيكون عصمة للمقيم وزاداً للمسافر، فإن كان رسلي صدقوني، فهي الشجرة التي نبتت على مريم بنت عمران. فكتب عمر إليه: إن رسلك صدقوك وهي شجرة مريم فاتق الله ولا تتخذ عيسى إلهاً من دون الله. وهذه تشبيهات مصيبة أخذها عبد الصمد بن المعدل فقال يصف النخل:

حدائق ملتفة الجنان
رست بشاطى ترع ريان
تمتار بالأعجاز للأذقان
لا ترهب المحل من الأزمان
ولا توي خنل الذوبان
ولا ترى ناشدة الرعيان
ولا تخاف عرة الأوطان
سحم الرؤوس كمت الأبدان
لها بيوم البارح الحنان
مثل تناصي الخرد الحسان

إذ هي أبدت زينة الرهبان
لاحت بكافور على إهان
يطلع منها كيد الإنسان
إذا بدت ملمومة البنان
علت بورس أو بزعفران
حتى إذا شبه بالأذان
من حمر الوحش لذي عيان

وهذا لفظ زائد على معناه:

شققه عجان مهران
من لؤلؤ صيغ على قضبان
مصوغة من ذهب خلصان
ثم ترى للسبع والثمان
قد حال مثل الشدر في الجمان
يضحك عن مشتبه الأقران
كأنه في باطن الأفنان
وانسدلت عثاكل القنوان
حتى إذا تم له شهران
فصلن بالياقوت والمرجان
كأنها قضب من العقيان

وفاقع أصفر كالنيرانِ

من قانى أحمرَ أرجوان

مثل الأكاليل على الغواني

ولا أعرف في النخل، من شعر المحدثين، أجود من هذه الأرجوزة.
وقلت:

لِ وَقُوفَ الحَبْشَانِ فِي التَّيْجَانِ
وتراءت بزينة الرحمان
كأكفَّ خرجن من أردانِ
توافت مُصرَّةُ الأذانِ
حُمَلَّتْ فِي سفائنِ العَقِيَانِ
بأعالي شباته أقرانِ
وهبتها السلوكُ للقضبانِ
لُ فلاحت بجوهرِ ألوانِ
في شماريخها وحمرِ قواني

ونخيل وقفن في معطفِ الرم
شربت بالأعجازِ حتى تروّت
طلّع الطلُعُ فِي الجماجمِ منها
فتراها كأنها كُمتُ الخيلِ
أهو الطلُعُ أم سلاسلُ عاجِ
ثم عادتُ شباتها تتباهى
خرزات من الزبرجدِ خضرٍ
ثم حال النجارُ واختلّف الشكُ
بين صُفْرِ فواقع تتباهى

وقال بعض العرب:

طلعا كأذان الكلابِ البيضِ

وقال ابن المعتز في الرطب:

بخالصِ التبرِ مُنوعَاتِ

كقطعِ العقيقِ يانعاتِ

وأخبرنا أبو أحمد، قال: أخبرنا أبو بكر بن دريد، قال: أخبرنا السكن بن السعيد، قال: أخبرنا محمد بن عباد، قال: تكلم صعصعة، عند معاوية، بكلام أحسن فيه، فحسده عمرو بن العاص فقال: هذا بالتمر أبصر منه بالكلام، قال صعصعة: أجل أجوده ما دق نواه، ورق سحاؤه، وعظم لحاؤه، والريح تنفجه، والشمس تنضجه، والبرد يدجمه، ولكنك يا بن العاص، لا تمرأ تصف، ولا الخير تعرف بل تحسد فتقرف. فقال معاوية: رغماً. فقال عمرو: أضعاف الرغم لك، وما بي إلا بعض ما بك. ومن الغلو في صفة التمر: ما أخبرنا به أبو أحمد، عن ابن الأنباري، عن إسماعيل ابن إسحاق القاضي، عن أبي نصر، قال: قال الأصمعي: قيل للغاضي أي التمر أجود؟ قال: الجرد الفطس الذي كأن نواه ألسن

الطير، تضع الواحدة في فمك، فتجد حلاوتها في كعبك يعني الصيحاني.
وقال الخباز البلدي:

ذرى شجر للطير فيه تشاجرٌ
كأن القمارى والبلابل بينها
شربنا على ذلك الترتم قهوة
وقال غيره:

أى يوم لنا على النل بالما
ورد الدر فيه في شجر اللو
ه وعيش تضيق عنه النعوت
ز وفي الخوخ ورد الياقوت
وقلت: ظل يسقي حدائقاً وجناناً=يا لها من حدائق وجنان

خطرت بينها الرياح سُحيراً
وتتاجى الغصون فيها سراراً
فتتاجى الغصون شبه عتاب
من كروم تمايلت بعناقي
وملاحية تميل أخرى
كلالي تشبثت بلال
فهي كالنجم في فروع كروم
وقلت في البطيخ:

وجامعة لأصناف المعاني
وإحداهن تبرز في عباء
ومنها ما تشبهه بدوراً
وقلت:

بسمران وسودان
كوشي في يدي وأش
فمن آدم ومن نقل
وأنشدنا أبو أحمد في الكرم:

ديوان المعاني- ابو هلال العسكري

لهنّ ظلّ باردُ الودائق

كأنها غدائرُ العواتق

كأنها أناملُ الغرائق

وهو من قول الآخر:

يحملنها بأنامل النقران

وقلت في اللفاح:

انظر إلى اللّفاح تنظرُ معجباً

يعلو مفارقةً قلانسُ أخفيت

وقلت في قصب السكر ولا أعرف فيه شيئاً لأحد:

وممشوقة القامات بيضُ نحورها

لها حقبٌ لا تستطيع أطراحها

وهنّ رماحٌ لا تريق دمّ العدى

يميل على أعرافها عذباتها

تناهى بها الأدراكُ حتى كأنها

ترى الريح يُغريها بنجوى خفيّة

ومن جيد ما قيل في السدر والطلح قول بعضهم:

لم ترَ عَيْنًا ناظرٍ منظرًا

كأنها والريحُ تسمو بها

وسدرة مدّت بأفنانها

يحملنّ لداً طعمه للذائق

تتأط في حُجرٍ من المعالق

يجلو عليك مُفضّضاً في مُذهب

من تحتهنّ دراهمٌ لم تضرب

وخضراً نواصيها وصفرُ جسومها

وليس يطيقُ سلّنها من يرومها

ولكن يُراقُ في القدور صميمها

كحورٍ تتاصي هنداها ورميمها

يُعلُّ بماء الزعفرانِ أديمها

إذا ما جرى قصرَ العشيّ نسيمها

أحسن من أفنان طلح مروح

ألوية منشورة للفتوح

على سواقٍ كمتونٍ الصفيح

إلا أن قوله للفتوح فضلٌ لا يحتاج إليه، لأن الألوية إذا نشرت للفتوح، مثلها إذا نشرت لغير الفتوح فذكر الفتوح لغو.

وإنما أورد في هذا الكتاب، مثل هذا الشعر لأن غيري اختارها، فأريد أن أدل على موضع العيب فيه ليوقف عليه.

ومن جيد ما قيل في النبق قول بعضهم:

أتاني فحيّاني بنبقٍ كأنه

حليّ عروسٍ زانٍ ليتاً وأخدعا

بأحمر كالياقوت يقر ماؤه

وأصفر كالعقيان ضمهما معا

وقال آخر:

أقبل تحت الليل كالظبي الغرق

بالراح والرَّيحان والمسك عبق

فجاد بالوصل وحيًا بالنبق

وقلت نبقى هكذا ونتفق

ما اخضرَّ عودًا أبدًا لا نفرق

وقلت في النبق:

جلى الربيع علينا

كواعباً أبقاراً

مئوجات عقيقاً

مسورات نهارة

تري لهن من الور

دِ شوذراً وخماراً

أهدى لنا جواهرات

تحيرُ الأبصاراً

يا حسن حمرٍ وصفر

تريك جمرًا وناراً

قد راق ذلك احمراراً

وراع ذلك اصفراراً

وخلت هذا عقيقاً

وخلتُ ذاك نُصاراً

وذاك شهداً مشاراً

وذاك راحاً عُقاراً

لو كان يبقى سليماً

نظمته تقصاراً

وقلت في المشمش، ولا أعرف فيه لأحد شيئاً مرضياً:

جنيتها والصبحُ وردِي العذب

بنادقاً مخروطةً من الذهب

قد ضمنت أمثالها من الخشب

والتف منها خشبٌ على غرب

وصار منه السمُّ حشواً للضرب

فهي لعمرى عجبٌ من العجب

الغرب الفضة، والضرب العسل.

ولا أعرف في التين أجود من قول القائل:

أهلاً بتينٍ جاءنا

مبتسماً على طبق

يحكي الصباح بعضه

وبعضه يحكي الغسق

كسفرٍ مضمومة

قد جمعت بلا حلق

وقال الحلبي في الفستق:

من الفستق الشامي كل مصون

تصان من الأحداث في بطن تابوت

زبرجدة ملفوفة في حريرة

مضمّنة ذراً مغشى بياقوت

وقلت في خيارة:

زبرجدة فيها قراضة فضّة

فإن رجعت تبراً فقد خس أمرها

تلم بناطورين في كل حجة

فيكثر فينا خيرها ثم شرها

فعند المصيف ليس يفقد نفعها

وعند الخريف ليس يؤمن ضرها

وأما ذم البساتين، فمن أجود ما قيل فيه قول ابن الرومي:

لله ما ضيّعته من الشجر

أطفال غرس تترجى وتنتظر

ومُعجبات من بقول وزهر

مصفرة قد هرمت لا من كبر

في بقعة لا سقيت صوب المطر

حالقة لنبتها حلق الشعر

ضميرها النار وإن لم تستعر

كل امرئ غيري من هذا البشر

بستانه أنثى وبستاني ذكر

وما يجري مع هذا قول الأعرابي:

مُطِرنا فلما أن روينا تهادرت

شقاشق فيها رائبٌ وحليب

ورامت رجال من رجال ظلامه

وعدت دخول بيننا ودنوب

ونصت ركاباً للصباء فتروحت

ألا ربما هاج الحبيب حبيب

بني عمنا لا تعجلوا نضب الثرى

قليلاً ويشفي المترفين طبيب

ولو قد تولى الضب وامترت القرى

وحنّت ركاب الحي حين تؤوب

وصار غبوق الخود وهي كريمة

على أهلها ذو جدتين مشوب

وصار الذي في أنفه خنزوانة

ينادي إلى هادي الرّحّا فيجيب

أولئك أيام تبين للفتى

أكاب سليب أو أشم نجيب

الفصل الثالث من الباب السابع

ذكر النسيم

من غريب ما قيل فيه قول ابن المعتز:

رِ كذيل الغلالة المبلول

ونسيم يُبَشِّرُ الأرضَ بالقط

ثَ أنتظار المحبِّ رَدَّ الرسولِ

وَوَجْوهُ البلادِ تنتظرُ الغي

وقال ابن الرومي:

بجنة فجرت رَوْحاً وريحانا

حيَّتْكَ عنا شَمالُ طافَ طائفها

سِرّاً بها وتنادى الطيرُ إعلاناً

هَبَّتْ سُحيراً فناجى الغُصنُ صاحبه

تَسْمو بها وتشمُّ الأرضَ أحيانا

وَرُقُّ تُغني على خُضْرٍ مُهدلة

والغصن من هزه عطفيه نشوانا

تخالُ طائرها نشوانَ من طرب

وقال ابن المعتز:

وبلّ لها دمعٌ من المُزَنِ ذَارِفُ

يَشُقُّ رياضاً قد تيقظُ نورُها

يفتحها أيدي الرياح الضعائفُ

كأنَّ عبابُ المسكِ بين بقاعها

وقلت:

فترى القطرَ للرياضِ نديما

والصبا يجلبُ الغمامَ إلينا

وعلى زهرة الرياضِ نميما

وترى للغصون فيها نجياً

وقال ابن الرومي:

ولاها بعد وسمٍ وليُّ

كأنَّ نَسيمها أَرَجُ الخُزامى

لأفنانِ الغُصونِ بها نجيُّ

هديةٌ شمالٍ هبَّتْ بليل

تنفس كالشجيِّ لها الخليُّ

إذا أنفاسُها نسمتُ سُحيراً

وقال ابن المعتز:

وروضٌ من الريحانِ دَرَّتْ سحائبُه

وما ريحُ قاعِ عازبِ ظلِّه الندى

كما جرَّ في ذيلِ الغلالةِ ساحبُه

فجاءت سُحيراً بينَ يومٍ وليلةٍ

وقد أحسن التشبيه أيضاً في قوله:

ومهمه كرداءِ الوشي مُشتبه
نَفْذَتُهُ وَالدُّجَى وَالصَّبْحُ خِيْطَانِ
والريخُ تجذبُ أطرافَ الرداءِ كما
أفضى الشفيقُ إلى تنبيهِ وِسْنَانِ

وقلت:

وأقبل نَشْرُ الرَوْضِ فِي نَفْسِ الصَّبَا
فبات به ثوبُ الهواءِ مُكفراً
ومما لا يجيء في معناه مثله قول بشار: أخبرنا به أبو أحمد، عن الصولي، قال: حدثنا المكفي بالله يوماً، أنه كان نائماً، فسمع دق باب، فانتبه له مرتاعاً ثم سكن قليلاً، ثم عاد فنظر، فإذا الريح تحرك الباب حركةً كأنها دق بيد، قال: فقلت له: قد ذكر الشاعر ذلك وما هو فأنشدته لبشار:

طرقنتي صَباً فحرّكت البَا
بَ هُدُوءاً فارتعتُ منه ارتيابا
فكأنني سمعتُ حسَّ حبيبٍ
نقرَ البابَ نقرَةً ثم هايا

قال ما كنت أظن أنه قيل في هذا الشيء وما أقل ما يجري مما لم يذكره الناس.
وقال ابن الرومي وأحسن:

لولا فواكهُ أيلولِ إذا اجتمعتُ
من كلِّ نوعٍ ورقُ الجوِّ والماءِ
إذا لما حفَلت نفسي متى اشتملتُ
عليه هائلةُ الحالين غبراءِ
يا حبذا ليلُ أيلولِ إذا بردتُ
فيه مضاجعنا والريخُ سجواءِ
وجمّش القرُ فيه الجلدَ وأتلفتُ
من الضجيعين أحشاءً وأحشاءِ
وأسفرَ القمرُ الساري فصفحتهُ
ريالها من صفاءِ الجوِّ للألاءِ
يا حبذا نفحةٌ من ريحه سحراً
يأتيك فيها من الريحانِ أنباءِ
قل فيه ما شئتَ من شهرٍ تعهّدُهُ
في كلِّ يومٍ يدُّ الله بيضاءِ

وقلت:

وله مَجْنَحُ الأصيلِ نسيمٍ
لينُ العطفِ هينَ الخطرانِ
أرجُّ يفتدي به نفسُ المس
ك وتحكيه نكهةُ الزعفرانِ
كم غدا مُدْنفاً وراحَ حسيراً
يتهدى في دجلة المسرفانِ
فرأينا له لبوسَ شجاعِ
ووجدنا بها ارتعاشَ جبانِ

وإلى هذا انتهى بنا القول في هذا الباب، ولو أردنا استقصاءه أضجرنا وأمللنا، ولم نأت على ما في نفوسنا منه، والاختصار على المشاهير والأعيان منه أولى وبالله التوفيق.

انقضى الباب السابع، من كتاب ديوان المعاني والحمد لله وحده، وصلواته على سيدنا محمد، وآله وصحبه
وسلم، كلما ذكره الذاكرون، وغفل عن ذكره الغافلون، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي قمع الضلالة، ودمغ الجهالة، وقذف بالحق على الباطل فأزهقه، وأزاله منه حتى أوبقه، بما أقام من الدلائل الواضحة، وبين من الشواهد اللائحة، وجعل لخلقه حدوداً حذرهم تعديها، وخوفهم تخطئها، بالقول الصادق، والبيان الصادع، إغذاراً وتحذيراً، وحجة وتنبها، فمن لم يقنعه ما سيق من صدق قوله، وحتم أمره ونهيه، حكم فيه السيف، وسلط عليه السوط، ليرداه إلى سبيل الحق، بعد أن يجعله نكالا للخلق، والله عليم حكيم.
وصلى الله على نبيه محمد وآله أجمعين. وهو حسبنا ونعم الوكيل.

هذا كتاب المبالغة

صفات الحرب والسلاح والطعن والضرب

وما يجري مع ذلك وهو:

الباب الثامن من كتاب ديوان المعاني

قالوا:

أبلغ ما قيل في صفة الحرب

قول الأول:

وتحت النارِ آسادٌ تزيرُ

كأنَّ الأفقَ محفوفٌ بنارٍ

وقريب منه قول محدث:

وإن لم يكن جمرٌ وقوفٌ على جمرٍ

ويوم كأن المصطلين بحرهُ

تُفَرِّجُ أيامُ الكريهة بالصبرِ

صبرنا له حتى تجلى وإنما

ومن بليغ ما قيل في شدة الروع قول زيد الخيل:

يوم الأكس به من نجدة روقِ

والخيلُ تعلمُ أني كنتُ فارسها

وقول المفضل النكري:

خصوصاً يوم كَسُّ القومِ رُوقُ

فداءً خالتي لبني حبي

معناه أن الأكس، وهو القصير الأسنان، وقد كلح من كراهة الحال، وشدة الروع، حتى تراه كأنه أروق، وهو الطويل الأسنان، أخذه أبو تمام فأجاده في قوله:

فخيل من شدة التعيبس مبتسماً

على أنه ليس فيه مدح لأن الكلوح في الحرب لا يدل على الشجاعة. ومما يدخل في هذا الباب وليس منه قول أبي فراس بن حمدان في خيل طاردت يوم تلج:

**ويوم كأن الأرض شابت لهوله
تسيرٌ على مثل الملاء منشراً**
**قطعتُ بخيل حشو فرسانها الصبرُ
وأثارها طُرزٌ وأطرافها حُمُرُ**

أجود ما قيل في اصطفاف الخيل قول الأسعر:

**وكتيبة لبستها بكتيبة
يخرجن من خلل الغبار عوابساً**
**حتى تقول نسأؤهم هذا الفتى
كأنامل المقرور ألقى فأصطلى**
**يتخالسون نفوسهم برماحهم
فبمثلم باهى المباهى وانتمى**

أجود ما قيل في انصباب الخيل في الغارة

قول ضمرة بن ضمرة:

**والخيل من خلل الغبار خوارجُ
كالتمر ينثر من جراب الجرم**
وقال آخر:

**وربّت غارة أوضعت فيها
كسحّ الخزرجيّ جريم تمرٍ**
وقد أحسن الأعرابي في قوله:

**نُقاذفُ بالغاراتِ عيساً وطيباً
بغزو كولغ الذئبِ غادٍ ورائح**
وقال أبو فراس:

**وسمر أعاد يلمع البيض بينهم
وخيل يلوح الخير بين عيونها**
**وببيض أعاد في أكفهم السمرُ
ونصل إذا ما شيمته نزل النصر**
**وقوم حتى ما ألقهم روي القنا
وأرض متى ما أغزها سبغ النسرُ**

أبلغ ما قيل في أعمال السيف

قول عمرو بن كلثوم:

مخاريقُ بأيدي لاعبينَا

كأن سيوفنا فينا وفيهم

وقول قيس بن الخطيم:

كأن يدي بالسيفِ مخراقُ لآعبِ

ومن أحسن ما قيل في الضرب قول الحماني:

إذا ما انتضين ليوم سُفوكِ

وإنّا لتصبحُ أسيافنا

وأغمادُهنَّ رؤوسُ الملوكِ

منابرُهنَّ بطونُ الأكفِّ

أخذه من قول سعد بن ناشب:

عتقُ وآثارها في هامكمُ جُدُّ

فإنَّ أسيافنا بيضُ مُهندةٌ

إلا وهامُ بني بكر لها غمدُ

وإن هويتم سللناها فما غمدت

وقال مسلم:

ونغمد السيف بين النحر والجيد

وقال أيضاً:

من بأسهم كانوا بني جبريلا

لو أن قوماً يخلقون منيةً

جعلوا الجماجمَ للسيوف مقيلا

قومٌ إذا احمرَّ الهجيرُ من الوغى

وقال حسان:

أسودُ تنفضُ البادها

ويثربُ تعلمُ أنابها

جعلنا الجماجمَ أغمادها

إذا ما غضبنا بأسيافنا

أحسن ما قيل في الضربة الدامية

قول ابن المعتز:

وشفى حزازاتِ الأحنِ

شقَّ الصفوفَ بسيفه

وردَّ تفتَّح في فننِ

دامي الجراح كأنه

ومن عجيب ما قيل في كثرة الطعن يقع في الجسد قول بعضهم:

لرحت وأنتِ غربالُ الإهابِ

فلولا الله والمهرُ المفدى

وقال قيس بن الخطيم في سعة الطعنة:

لها نفذَ لولا الشعاعُ أضاءها

طعنتُ ابنَ عبدِ القيسِ طعنةً تائراً

يرى قائمٌ من دونها ما وراءها

ملكْتُ بها كفي فأنهتُ فتقها

ومن أبلغ ما قيل في مضاء السيف قول النمر بن تولب:

أسبَادَ سَيْفٍ قديمٍ أثره بادي

أبقى الحوادثُ والأيامُ من نمرٍ

بُعد الذراعين والساقين والهادي

تظلُّ تحفرُّ عنه إن ضربت به

وهذا من الأفرط والغلو، وهو عند بعضهم مذمومٌ، إذا كان في هذا الحد، وعند آخرين ممدوحٌ، يقول إذا ضربت به قطع المضروب وتجاوزه، حتى غاص في الأرض فاحتجت أن تحفر عنه فتستخرجه. ودون ذلك في الغلو قول النابغة:

ويتبعها منهم فراشُ الحواجبِ

يطيرُ فضاءاً بينهم كلُّ قونسٍ

وتوقد بالصفايح نارَ الحبابِ

تقدُّ السلوقي المضاعفَ نسجُهُ

يقول: إنما تقد الدرع التي ضوعف نسجها والفارس حتى تبلغ الأرض فتقدح النار بالصفايح: وهي الحجارة.

ومن بليغ ما قيل في صفة السيف، قول ابن يامين قال محمد بن داود بن الجراح: عن أبي هفان، عن الإياسي القاضي، عن الهيثم بن عدي، قال: لما صار سيف عمرو بن معدي كرب، الذي يسمى الصماصمة إلى الهادي وكان عمرو وهبه لسعيد بن العاص، فتوارثه ولده إلى أن مات المهدي، فاشتراه موسى الهادي منهم بمال جليل، وكان موسى من أوسع بني العباس خلقاً وأكثرهم عطاءً، للمال، قال: فجرده ووضع بين يديه، وأذن للشعراء، فدخلوا ودعا بمكتل فيه دنانير، فقال: قولوا في هذا السيف فبدرهم ابن يامين فقال:

نِ جميع الأنامِ موسى الأمينُ

حازَ صمصامةَ الزُّبيديِّ من بي

خيرَ ما أغمدت عليه الجفون

سيفُ عمروٍ وكانَ فيما سمعنا

ثم شابت به الزُّعافُ القيون

أوقدت فوقه الصواعقُ ناراً

فإذا ما هزرته بهرَ الشم
سَ ضياءَ فلم تكن تستبين
يستطيرُ الأبصارُ كالقبسِ المشع
لِ ما تستقرُّ فيه العيون
وكانَ الفرندَ والجوهرَ الجار
ريَ في صفحتيه ماءً معينُ
نعمَ مخراقُ ذي الحفيظة في الهي
جا بعضاتُها ونعمَ القريرينُ
ما يبالي إذا انتضاهُ لضربِ
أشمالُ سطت به أم يمين
وكانَ المنونَ نيطت إليه
فهو من كلِّ جانبيه منون

أخذ عليه من هذه الأبيات تشبيهه السيف بالشمس، ثم بالقبس، لأنه قد حطه درجات، فقال موسى: أصبت ما في نفسي، واستخفه الفرخ، فأمر له بالمكتل والسيف. فلما خرج الشعراء: إنما حرمتم لأجلي فدونكم المكتل ولي في هذا السيف غني، قال فقال موسى فاشترى اليه منه بمال جزيل ه. وذكر الهيثم بن عدي هبة عمرو بن معديكرب الصمصامة لسعيد بن العاص فقال: قال سعيد بن العاص: وهو بالكوفة لعمرو بن معديكرب هب لي الصمصامة، فإنك قد ضعفت عن حملة، وكان وزنه ستة أرتال فقال عمرو: ما ضعفت قناتي ولا جناني ولا لساني، وإن اختل جثمانني، وهو لك على أنه أوحش من لا يؤنسه، وأظلم من لا يقبسه. ثم قال:

خليلٌ لم أهبةً من قلاه
ولكنَّ المواهبَ في الكرام
خليلٌ لم أخنه ولم يخني
على الصمصامِ أضعافُ السلام

وقوله: أوحش من لم يؤنسه، وأظلم من لا يقبسه يقول: إذا كنت أستوحش من جانب العدو آنسي، وإذا أظلم لي الليل أضاء لي. وقال البحثري:

مُصنَعٌ إلى حُكم الرديِّ فإذا مضى
لم يلتفت وإذا قضى لم يعدل
متوقدٌ ييري بأولِ ضربةٍ
ما أدركت ولو أنها في يذبل
فإذا أصابَ فكلُّ شيءٍ مَقْتَلٌ
وإذا أصيبَ فما له من مَقْتَلِ
يغشى الوغى فالترسُ ليس بجنةٍ
من حدّه والدرعُ ليس بمَعْقَلِ

وذكر عمرو بن معديكرب أنواع السلاح فأجاد: أخبرنا أبو أحمد، قال: أخبرنا أبو عبد الله بن عرفة، قال: أخبرنا أحمد بن يحيى، عن ابن الأعرابي، قال: حدثني رجلٌ من ولد أبي سرحة الغفاري، قال: قدم عمرو بن معديكرب، على عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فسأله عن سعد بن أبي وقاص، فقال عمرو:

أعرابي في نمرته، عاتق في حجلته، أسد في تامورته، نبطي في جبايته. فقال كيف علمك بالسلاح؟ فقال بصير: قال: فأخبرني عن النبل، قال: منايا تخطيء وتصيب، قال: فأخبرني عن النبل، قال: فأخبرني عن الرمح قال: أخوك وربما خانك. قال: فأخبرني عن الترس. قال: هو المخن، وعليه تدور الدوائر. قال: فأخبرني عن السيف. قال: عنده قارعت أمك الثكلي. قال: بل أمك، والحمى أضرعتني لك. النمرة: كساء أسود تلبسه الأعراب، والعاتق: الجارية الكعاب، وصفه بالحياء. والتامورة ههنا الأجمة. فقال: نبطي في جبايته، وصفه بالاستقصاء في جباية الخراج. وقوله: "الحمى أضرعتني لك": أي الاسلام قيدي لك، وأذلي، ولو كنت في الجاهلية ما كلمتني بهذا الكلام، وهو مثل العرب تضربه عند الشيء يضطرها إلى الخضوع.

ومثل ذلك ما أخبرنا به أبو أحمد، عن ابن دريد، عن أبي حاتم، عن أبي عبيدة، قال: قال الأغر النهشلي، ووقع بينه وبين قومه شر، فأرسل ابنه، وقال يا بني، كن يداً لأصحابك على قتالهم، وإياك والسيف، فإنه ظل الموت، واتق الرمح، فإنه رشاً المنية، ولا تقرب السهام، فإنها رسل تعصي وتطيع. قال: فيم أقاتل؟ قال: بما قال الشاعر:

رؤوسُ رجالٍ خلقت في المواسم

جلاميذُ أملاء الأكف كأنها

فعليك بما فألصقها بالأعقاب والسوق.

وقد أحسن التنوخي في صفة الحرب حيث يقول:

عن ساحتيه وزاغت الأبصارُ

في موقف وقف الحمام ولم يَزِغْ

بطوالهن تقصّر الأعمارُ

فقنأ يسيل من الدماء على قنا

فكأنها تحت الغبار غبارُ

ورؤوس أبطال تطايرُ بالطبى

وقد أجاد ابن المعتز في هذا المعنى حيث يقول:

جرؤوا الحديد أزجةً ودروعا

قوم إذا غضبوا على أعدائهم

طيراً على الأبدان كن وقوعا

وكان أيديهم تنفر عنهم

وقال أيضاً:

وضرب كما شق الرداء المرعبُ

بطعن تضيغ الكف في لهواته

وقال أيضاً:

وضرباً مثل أفواه اللقاح

قرينا بعضهم طعناً وجيعاً

وقال البحرني وأحسن في ذلك:

ألوي إذا طعن المدجج صكه
فأنا النذير لمن تغطرس أو طغى
وقد ظرف في قوله أيضاً:

ولو لم يحاجز لؤلؤ بفراره
ومن المختار قول مالك بن نوية:

بسمر كأشطان الجرور نواهل
يقعن معاً فيهم بأيدي كماننا

ومن أبلغ ما قيل، في صفة الضرب والظعن، من قديم الشعر، قول عبد مناف بن ربيعي:

فالظعن شعشعة والضرب هيقة
والمعول تحت الديمة العضا
والمعول الذي يتخذ العالة وهو أن يعمد الراعي، إذا خاف المطر إلى الشجر،
ويعضده ويجعل عضده على شجرتين متقاربتين، ويستكن تحته. والعضد: ما يعضد من الشجر، أي يقطع
والعضد المصدر.

ومن أجود ما قيل، في نفوذ التدبير في الحرب، مع الغيبة عنها قول ابن الرومي في صاعد:

يظل من الحرب العوان بمعزل
كما احتجب المقدار والحكم حكمة
وآثاره فيها وإن غاب شهيد
على الناس طراً ليس عنده معرّد

أخذه من قول بشار بن برد:

الدهر طلاع بأحداثه
محجوبة تنفذ أحكامها
ورسله فيها المقادير
ليس لنا عن ذلك تأخير

وقال:

حصرت عميد الزنج حتى تخاذلت
وكانت نواحيه كثافاً فلم تزل
تفرق عنه بالمكايد جنده
قواه وأودى زاده المتزود
تحيقها حتى كأنك مبرد
وتزدارهم جنداً وجيشك محصد

عَمَّاسٍ كَذَاكَ اللَّيْثُ لِلوَيْثِ يَلْبُدُ

مَكَانَ قَنَاةِ الظَّهْرِ أَسْمَرٌ أَجْرُدُ

تَقْوِضَ نَهْلَانٌ عَلَيْهِ وَصِنْدُدُ

سَكَنْتَ سَكُونًا كَانَ رَهْنًا بُوَيْثَةً

فَمَا رَمْتُهُ حَتَّى اسْتَقَلَّ بِرَأْسِهِ

مَنَاكَ لَهُ مِقْدَارُهُ فَكَأَنَّمَا

فقال: صندد، بفتح حرف الردف، وهو خطأ، وليس في العربية، فعلى إلا درهم وهجرع وهو الطويل الأحمق، وهبلع وهو الكثير البلع، وقلعم وهو الكثير القلع للأشياء، وكان بين قصيدته على فتح الردف، ولم يلزمه ذلك وكابر على فتح صندد ورمدم، وهما مكسوران فزعم محمد بن حبيب أنه رواهما بالفتح، وكابر أيضاً على فتح الراء من درم في قصيدته التي أولها:

أَفِيضًا دَمًا إِنْ الرِّزَايَا لَهَا قِيمٌ

وَإِنَّمَا هُوَ رَدْمٌ. وَأَحْسَنُ مَا قِيلَ فِي الكَيْدِ وَالْحَرْبِ قَوْلُ أَبِي تَمَامٍ:

تُجَذُّ بِهِ الْأَعْنَاقُ مَا لَمْ يَجْرُدِ

وَيُفْضَحُ مِنْ يَسْطُو بِهِ غَيْرَ مُغْمَدِ

هَزَزْتَ لَهُ سَيْفًا مِنَ الكَيْدِ إِنَّمَا

يَسْرُ الَّذِي يَسْطُو بِهِ وَهُوَ مُغْمَدٌ

يقول: إن أخفيت الكيد ظفرت وسررت، وإن أظهرته افتضحت وخبث.

وقد أحسن في وصف الرماح حيث يقول:

فَمَا تُرْدُ لَرِيْبِ المَوْتِ عَنْهُ يَدُ

وَفِي الكُلَى تَجْدُ الغَيْظَ الَّذِي يَجْدُ

إِلَى المَقَاتِلِ مَا فِيهِ مَتْنُهُ أَوْدُ

فَلَيْسَ يُعْجِزُهُ قَلْبٌ وَلَا كِبْدُ

أَنهَيْتَ أرواحَهُ الأَرْمَاحِ إِذْ شُرِعَتْ

كَأَنَّهَا وَهِيَ فِي الأَروَاحِ وَالغَةَ

مَنْ كَلَّ أَرْقَ نَظَارٍ بِلَا نَظَرٍ

كَأَنَّهُ كَانَ خَدِنَ الحَبِّ مُذْ زَمِنَ

ويشبهه بياض السيف بالملح فمن أجود ما قيل فيه قول النمرى:

يَعْلُو الرِّجَالَ بِأَرْجَوَانِ فَاقِعِ

مَلْحٌ تَتَاثَرَ مِنْ وَرَاءِ الدَّارِعِ

فِي مَتْنِهِ كَمَدْبَةِ النَّمْلِ

لَهُ رَوْنَقٌ ذَرِيْبُهُ يَتَأَكَّلُ

غَدِيرٌ جَرَى فِي مَتْنِهِ الرِّيحُ سَلْسَلُ

ذَكَرُ بِرَوْنَقِهِ الدَّمَاءُ كَأَنَّمَا

وَتَرَى مَضَارِبَ شَفَرِ تِيهِ كَأَنَّهَا

مُتَوَسِّدًا عَضْبًا مَضَارِبُهُ

وقول أوس بن حجر:

وَذُو شَطْبَاتٍ قَدَّهُ ابْنُ مُجَدَّعِ

وَأَشْبِرْنِيهِ الهَالِكِيُّ كَأَنَّهُ

وأخرج منه القينُ أثراً كأنه

وقال ابن المعتز وأبدع

وجردَ من أغماده كلَّ مرهفٍ

ترى فوقَ متنيه الفرندَ كأنما

وقال: إسحاق بن خلف:

ألقي بجانبِ خصره

وكانما ذرَّ الهما

وقال قيس بن الخطيم:

أجالدهم يومَ الحديقةِ حاسراً

بسيفٍ كأن الماءَ في صفحاته

أخذه ابن المعتز فقال:

ولي صارمٌ فيه المنايا كوامنٌ

ترى فوقَ متنيه الفرندَ كأنه

وقد أجاد ابن الرومي في قوله:

خيرٌ ما استعصمت به الكفُ عضبٌ

ما تأملته بعينك إلا

مثله أفرعَ الشجاعِ إلى الدرِّ

وما أبالي أصممتُ شفرتاهُ

وقال آخر:

جردوها فألبسوها المنايا

وكان الآجالُ ممن أرادوا

وقلت:

تميلُ كفيّ من سيفٍ إلى قلمٍ

وقال ابن المعتز:

مدبٌ دباً سودٍ سرى وهو مسهلٌ

إذا ما انتضته الكفُ كاد يسيلُ

تنفسَ فيه القينُ وهو صقيلُ

أمضى من الأجلِ المتأح

ءَ عليه أنفاسُ الرياحِ

كأن يدي بالسيفِ مخراقٌ لأعبِ

طحاريرُ غيمٍ أو قرونُ جنادِبِ

فما يُنتضى إلا لسفكِ دماءِ

بقيّةِ غيمٍ رقٍّ دونَ سماءِ

ذكرٌ متتهُ أنيثُ المهزِّ

أبرقت صفحاتاهُ من غيرِ هزِّ

ع فغالى به على كلِّ بزِّ

في محزِّ أو جازتاهُ عن محزِّ

عوضاً عوضت من الأغمادِ

وظباها كانت على ميعادِ

والعزُّ نصفانِ بينَ السيفِ والقلمِ

ورق هزّه سُقوطُ قِطارِ

دُدهينٌ يضلُّ فيه المدّاري

فيه سنانٌ مثلُ ضوءِ الفرقَدِ

كما مال ثعبانُ الرمالِ الموائِلِ

هلالٌ بدا في ظلمةِ الليلِ ناحِلِ

بصيرٌ إذا صوّبته للمقاتِلِ

قطانسقٌ يستورد الماءَ صائفُ

جلا الغيمَ عنه والقَتامَ الحراجفُ

وأحسن ما قيل في سرعة وقع الرماح، وتداركه قول دريد بن الصمة:

كوقع الصياصي في النسيج المددِ

الصيصية: الشوك الذي يسوي به الحائك الثوب، والصيصية أيضاً: الحصن ويقال للناشر من ساق الديك الصيصية أيضاً.

وقد أحسن البحثري في قوله:

بين الضلوع إذا انحنين ضلوعا

على فرسي غُصنٌ من البانِ نابتُ

على أنه يومَ الكريهةِ ساكتُ

والسكوت في الحرب دليل على سكون الجأش، وكثرة الصوت فيها إمارة الفرع.

وقد قيل:

وكثرة الصوت والإيعاد من فشل

وقلت في الرمح:

وسيوفٍ كأنها حينَ سُلت

ودروع كأنها شَمَطُ جَع

وقال ابن الأعرابي أحسن ما قيل في صفة الرماح:

وبكلِّ عَرَّاصِ المَهزَّةِ مارنِ

أحسن ما قيل في صفة الرماح قول المزرذ:

أصم إذا ما هُزَّ مالت سراته

له رائدٌ ماضي الغرار كأنه

وقال الأصمعي أحسن ما قيل في صفة الرمح قول أبي زيد:

وأسمر مربوعٌ يرى ما أريته

وقال ابن الأعرابي أحسن ما قيل في ذلك قول مسكين:

بكلِّ رُدَيْنيِّ كأنَّ كعوبه

كأنَّ هلالاً لاحَ فوق سراته

يغدو بصدق الكعوب لذن

يهتتر ما بين كوكبين

أعني الرج والسنان.

وقال البحري:

كأنما الحربة في كفه

نجم دجى شيعه البدر

وقد شبهت العرب الرماح بالأشطان، والأسنة بالشهبان، فتركنا ذكر ذلك لشهرته واستفاضته. أجد ما قيل في القوس من قديم الشعر قول أوس بن حجر وهو أوصف العرب للسلح:

فجردها صفراء لا الطول عابها

ولا قصر أزرى بها فتعطلا

كتوم طلاع الكف لا دون ملئها

ولا عجبها عن موضع الكف أفضلا

وحشوا جفير من فروع غرائب

تنطع فيها صاع وتأملا

تخيرن أنضاء وركبن أنصلا

كجمر الغضا في يوم ريح تزيلا

وقال الشماخ في صوت القوس:

إذا أنبض الرامون عنها ترنمت

ترنم تكلى أوجعتها الجنائز

وقال آخر:

هي إذا أنبضت عنها تسجع

ترنم التكلى أبت لا تهجع

وقال آخر:

سمع عند النزع والتوتير

في سينيها رنة الطنبور

وقال الأصمعي: أحسن كلام في الإيجاز، قول عكلي في صفة الفرس:

في كفه معطية منوع

ومن أحسن ما قاله محدث في القوس، قول ابن المعتز بالله:

أتيح لها هفان يخطم قوسه

بأصفر حنان القرى غير أعز لا

فأودعه سهما كمدري مواشط

بعثن به في مفرق فتغلغلا

بطيئا إذا أسرعت إطلا فوقه

ولكن إذا أبطأت في النزع عجلا

أفواقها حشوا الجفير كأنها

أفواه أفرخة من النغران

وأجد ما شبه بن أفواق السهام قول الآخر: والنغران: جمع نغرة وهي عصفورة. وقاتل الفند الزماني:

ونبلي وقفها كعراقيب قطا طحل

أخذه عتاب بن ورقاء فقال:

مما اصطفى باري القسيّ وانتقى
ستين في كنانة مما برى
أسافل مثل عراقيب القطا
كحنة الواله من فقد الطلا
لانت ومال طرفاها وانتنى

وحطّ عن منكبه شريانه
أم بنات عدها صانعها
ذات رؤوس كالمصاييح لها
إن حرّكت حنت إلى أولادها
حتى إذا ما قرّنت ببعضها

وقال ابن الرومي في قوس بندق:

وإن لم تجدها العين إلا تتبعا
أدباً عليها دارج الذرّ أكرعاً
إذا سُمّته الإغراق فيه تمنعا
دعاها له داعي المنايا فأسمعا
كعينك بل أذكى ذكاءً وأسرعاً
وأجدراً بالأعوال من كان موجعا

كأنّ قرّاهها والغرور التي بها
مدرّ سحيق المسك فوق صلابة
لها أول طوع اليبدين وآخر
تطوّع لراميتها الرمايا كأنما
يُقلب نحو الجوّ عيناً بصيرة
لها عولة أولى بها من تصيبه

وهذا مثل قوله في امرأة:

كالقوس تصمي الرمايا وهي مرنان

تُشكي المحبّ وتلقى الدهر شاكية

وقال المتنبي في سداد الرمي:

فلولا الكسر لاتصلت قضيبا

تُصيب ببعضها أفواق بعض

وقال الراجز في ضد ذلك:

يطيعه القلب وتعصيه يده
كأنه فؤاده أو كبده

مستهترّ بالرمي واه عّضده
أحصن شيء يوم يرمي طرده

وقال ابن الرومي في سهام:

مروق ومنزوع حومة الجذب
فجاء كما سلّ النخاع من الصلب
لسان شجاع محرّج همّ بالسلب

وكل ابن ريح يسبق الطرف معجه
صنيع مريش قوم القين متنه
يغلغله في الدرّع نصل كأنه

وقال ابن المعتز في قوس البندق:

تحاكي الحلبيَّ بأطواقهما

وماء به الطيرُ مربوطةٌ

لم تكسهُ ثوبَ إشرافها

غدونا عليه وشمسُ النهار

ترمي الطيورَ بأحداقها

فظلنا وظلت عيونُ القسيِّ

وقد أحسن القائل في صفة الرماح على العواتق:

كما أشرفت فوق الصوارِ قرونها

ترى غابةَ الخطيِّ فوق رؤوسهم

ومما يجري مع ذلك قول أبي فراس بن حمدان:

وما ذنبه إن جاوزته المطالبُ

وما الذنبُ إلا العر يركبه الفتى

فلذلَّ منه لا محالةً جانب

ومن كان غير السيفِ كافل رزقه

وما جاء عن أهل الجاهلية في النشاب، شيءٌ إلا قول سيف بن ذي يزن يذكر القوس:

أعوجُّها طامحٌ وزمزمها

هزُّوا بناتِ الرياح نحوهمُ

يخفُّ منقوضها ومُبرمُّها

كأنها بالفضاءِ أرشيةٌ

فأما النبل فقد جاء فيها عنهم شيءٌ كثيرٌ:

نهاه بقاع ماؤها مترايحُ

وبيض من النسيج القديم كأنها

وتعقبها الأمطارُ فالماءُ راجعُ

تصفقها هوجُ الرياح إذا صفت

وهو مأخوذٌ من قول امرئ القيس:

كفيض الأتيِّ على الجدِّدِ

تفيضُ على المرءِ أردانها

وقال البحترى:

في كل معركةٍ متونَ نهاءِ

يمشون في زرد كأنَّ متونها

سيلُ السرابِ بقفرةٍ ببداءِ

بيضُ تسيل على الكمامةِ فضولها

فيها خيال كواكبٍ في ماءِ

وإذا الأسنةُ خالطتها خلتها

ومعنى البيت الأخير دقيقٌ غريبٌ حسنٌ مصيبٌ ما أظنه سبق إليه.

ومن مליح ما جاء في صفة الدروع قول بعض بني هاشم:

سلخُ كسانيه الشجاعُ الأرقمُ

وعليٌّ سابعةُ الذبولِ كأنها

ومن مليح ما جاء في صفة الحرب، ما أخبرنا به أبو القاسم، عن القعدي، عن أبي جعفر، عن المدائني، قال: قال رجل من بني تميم لعبادي: لم يكن لآل نصر بن ربيعة صولة في الحرب. قال: لقد قلت بطلاً، ونطقت خطأً، كانوا والله إذا أطلقوا عقل الحرب، رأيت فرساناً تمور كرجل الجراد، وتدافع كتدافع الأمداد، في فيلق حافاته الأسل، يضطرب عليها الأجل، إذا هاجت لم تتناه دون بلوغ إرادتها، ومنتهى غايات طلباتها، لا يدافعها دافع، ولا يقوم لها جمع جامع، وقد وثقت بالظفر لعز أنفسها، وأيقنت بالغلبة لضرواة عادتها، فلها العلو والتمكين، ولمن ناوأها الذل والتوهين، خصت بذلك على العرب أجمعين. ومما يجري مع ذلك، ما أخبرنا به أبو القاسم عن العقدي عن أبي جعفر قال: أنشد جريرٌ هشام بن عبد الملك:

لقومي أحمي للحقيقة منكم وأضرب للجبار والنقع ساطع

وأوثق عند المردقات عشيةً لحاقاً إذا ما جردَ السيف لامع

فقال هشام لم تركت نساءك حتى أردفن؟ ألا جعلتهم كنسوة المخبل! فما سمعنا بعرييات قط أمتع منهن حيث يقول:

وساقطة كور الخمار حييةً على ظهر عرني زال عنها جلالها

تثدُّ يديها بالسنام وقد رأت مُسومةً يأوي إليها رعالها

نزلنا فساقينا الكمأة دماءها سجال المنايا حيث تسقى سجالها

وأحد ما قيل في ثياب الرجال في الحرب قول الحارث بن عباد:

قرباً مربوط النعامة مني لقحت حرباً وائل عن حيال

قرباًها فإن كفي رهن أن تزول الجبال قبل الرجال

وقد وصف الله ذلك في كتابه فقال: "إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص". ولم يصف أحدٌ من المتقدمين والمتأخرين القتال في المراكب إلا البحري: أخبرنا به أبو أحمد، قال: أخبرنا الصولي، قال: سمعت عبد الله بن المعتز يقول: لو لم يكن للبحري إلا قصيدته السينية، في وصف إيوان كسرى، فليس للعرب سينية مثلها، وقصيدته في البركة:

ميلوا إلى الدار من ليلي نحيبها

واعذارته في قصائده إلى الفتح، التي ليس للعرب، بعد اعتذارات النابغة إلى النعمان مثلها، وقصيدته في دينار بن عبد الله، التي وصفها فيها ما لم يصفه أحدٌ قبله، أولها:

ألم تر تغليس الربيع المبكر

ووصف حرب المراكب في البحر لكان أشعر الناس في زمانه. فكيف إذا أضيف إلى هذا، صفاء مدحه، ورقة تشبيهه. وكان كثيراً ما ينشد له ويعجب من جودته:

غدوتُ على المأمونِ صُحباً وإنما
غدا المركبُ الميمونُ تحتَ المظفرِ
إذا زمجرَ النوتيُّ فوقَ علّاتهِ
رأيتَ خطيباً من ذُوبةِ منبرِ
يغضُّونَ دُونَ الاستتامِ عيونهم
وقوفَ السماطِ للعظيمِ المؤمّرِ
إذا ما علتَ فيه الجنوبُ اعتلى لهُ
جناها عُقَابِ في السماءِ مُهجّرِ

إذا ما انكفا في هبوةِ الماءِ خلّتهُ
تلفعَ في أثناءِ بُردِ محبّرِ
وحولك ركابونَ للهولِ عاقروا
كؤوسَ الردى من دراعينَ وحُسرِ
تميلُ المنايا حيثُ مالتُ أكفُهُم
إذا أصلتوا حدَّ الحديدِ المذكّرِ
إذا رشقوا بالنارِ لم يكُ رشقُهُم
لئُقلعَ إلا عن شِواءِ مُقتّرِ
صدمتَ بهم صُهبَ العثانينِ دونَهُم
ضرابُ كإيقادِ اللظىِ المستعرِ
كأن ضجيجَ البحرِ بينَ رماحِهِم
تُقاربُ من زحفِهِم فكأنما
فما رحت حتى أجلت الحرب عن طُلَى
مقطعةٍ فيهِم وهامٍ مُطيّرِ
على حينَ لا تقعُ يطوِّحُه الصبّا
على الأرضِ يلقي للصريرِ المقطرِ
وكنتَ ابنَ كسرى قبلَ ذلكَ وبعدهُ
ملياً بأن توهي صفاةَ ابنِ قيصرِ
جدحتَ له الموتَ الزعافَ فعافهُ
وطار على ألواحِ شطبِ مسمرِ
مضى وهو موليَ الريحِ يشكرُ فضلها
عليه ومن يولي الصنّيعَةَ يشكرُ

ومن أجود ما قيل في السهم من قديم الشعر قول عنتره:

أبينا فما نعطي السواء عدونا
قياماً بأعضاءِ السراءِ المعطّفِ
بكلِّ هتوفٍ عجبها رضىويةِ
وسهم كسيرِ الحميريِّ الموقّفِ

وقال راشد بن شهاب البشكري:

وَفَلَقِ هَتَوفٍ لا سَقِيٍّ ولا نَشَمٍ

وَذاتِ قَتِيرٍ في مواصلها دَرَمٌ

نبلِ قرانِ كالسيورِ سَلاجِمِ

ومُطَرِّدِ الكعبيينِ أحمرِ عانزِ

وصف النبل والقوس، والرمح والدرع، في بيتين فأحسن، والأدرم: الأملس الذي لا حجم له، والسلاجم الطوال، والسقي الذي يشرب الماء، والنشم شجرٌ. ومن أجود ما قيل في البيض من قديم الشعر قول سلامة بن جندل:

على الهامِ مناقيُضٌ بيضٌ مفلقِ

إذا ما علونا ظهرَ نشرَ كأنما

وقول الآخر:

كأنَّ نعامِ الدَّوِّ باضٍ عليهم

ورواه بعضهم:

كأنَّ نجاجِ الجوِّ باضٍ عليهم

فقيل له: أخطأت من وجهين: أحدهما أن النجاج لا تكون في الجو، والآخر أنها لا تبيض. ومن أحسن ما قيل فيه قول ابن المعتز:

إذا امتحنتهنَّ السيوفُ خيارُ

وبيضُ كأنصافِ البدورِ أبيةٌ

فتشبيهاً بأنصافِ البدورِ تشبيهه غريبٌ مصيبٌ: أجود ما قيل في أتباع الرجال الرئيس في الحرب قول البحري:

أيدي القيونِ صفائحاً من عسجدِ

رَهجٌ ترَفَعَ عن طريقِ السؤددِ

مُنقادةِ خلفِ السنانِ الأصيلِ

حمرُ السيوفِ كأنما ضربت لهم

في فتيةٍ طلبوا غبارك أنه

كالرمح فيه بضعُ عشرةِ فقرة

وقد أحسن ابن هرمة في قوله وهو في غير هذا المعنى:

على كرمٍ وإن سفروا أناروا

ولكن في الطعانِ همُ التجارُ

ولبت عارِفةٌ وذِروةٌ منبرِ

ويُقيمُ هامتهُ مقامَ المغفرِ

فهدمت رُكنَ المجدِ إن لم تعفرِ

إذا شدُّوا عمائمهم ثنوها

يبيعُ ويشترى لهم سواهم

ومن أجود ما قيل في صفة الشجاع الجواد قول الآخر:

خُلقت أناملهُ لقائمٍ مرهفِ

يلقى الرماحَ بوجهه وبصدره

ويقولُ للطرفِ اصطبرِ لشبا القنا

وإذا تأملَ شخصَ ضيقِ مقبل

مُتسرِبِ سربالٍ ليلٍ أُغبرِ

أوما إلى الكوماء هذا طارقٌ

نحرتني الأعداء إن لم تتحري

ومن أبلغ ما حذر به الحرب قول بعض العجم: دافع بالحرب ما أمكن فإن النفقة في كل شيء من الأموال، إلا الحرب فإن النفقة فيها من الأرواح. وقال النابغة الجعدي:

وتستلبُ المالَ الذي كان ربُّها

ضنيناً به والحربُ فيها الحرائبُ

فتبعه أبو تمام فقال:

والحربُ مشقةٌ من الحرب

وقول جذل الطعان:

دعاني أشبُّ الحرب بيني وبينه

فقلت له لا بل هلمَّ إلى السلم

وياك والحرب التي لا أديهما

صحيحٌ وما تنفكُ تأتي على الرغم

فإن يظفرِ الحزبُ الذي أنت منهم

وينقلبوا ملء الأكف من الغنم

فلا بُدَّ من قتلي لعلك فيهم

وإلا فجرحُ لا يكون على العظم

فلما أبتى خليتُ فضلَ ردائه

عليه فلم يرجع بحزمٍ ولا عزم

وكان صريع الخيلِ أولَ وهلة

فبعداً له مختارَ جهلٍ على علم

ومن أجود ما قيل في تموين الحرب والقتل، ما أنشدناه أبو أحمد في خبر أخبرناه عن الصولي، عن عبيد الله السكوني، قال: دخل محمد بن جعفر بن محمد بن زيد بن علي، على بعض أمراء الكوفة، وقد جرى عليه ظلمٌ، فلم ينصفه فخرج من عنده.

وقال:

يا أيها الرجلُ الذي بيمينه

غيثُ الزمانِ وصولُهُ الحدَّانِ

أنعم صباحاً بالسيوفِ وبالقنا

إنَّ السيوفَ تحيةُ الفتيانِ

قد أبطرتك سلامةٌ فنسيتَ ما

أسلفتَ من برٍّ ومن إحسانِ

والدهرُ خدنٌ مسرَّةٌ ومضرةٌ

مُتقلِّبٌ بالناسِ ذو ألوانِ

يخاطب نفسه، ويأمرها بمجاهرة السلطان بالعصيان، إذ ليس عنده للظلم نكير، فيكون ذلك سبباً للحرب،
فحیی بالسیوف فلا یفزع فإلها تحية الفتیان.
وقال علي بن جبلة:

كأنَّ أرماحه تعطي إذا عملت تحت العجاجة أسماعاً وأبصاراً

ومن أحسن ما قيل في تقسيم الخيل في الحرب قول النابغة: أخبرنا أبو أحمد قال: أنشدنا محمد بن يحيى،
قال: أنشدنا المبرد قول النابغة، وذكر أنه أحسن ما قيل في تقسيم الخيل في الحرب:

خيلٌ صيَّامٌ وخيلٌ غيرُ صائِمةٍ تحت العجاج وخيلٌ تعلقُ اللُّجماً

قال ثعلب: قلت لأبي الأعرابي: الصائمة التي لا تصهل وغير الصائمة التي تصهل فما هذه الأخرى؟ قال
التي تعلق اللحم في الكمين.
أخذه محمد بن مسلمة البشري يصف تأديبه فرسه:

عودته فيما يزور حبانبي إمهاله وكذاك كلُّ مخاطرٍ

فإذا احتبى قربوسه بعنانه علك الشكيم إلى انصراف الزائرِ

من أجود ما قيل في ارتفاع الغبار، ولمعان الأسنه فيه، من قديم الشعر قول النابغة:

تبدو كواكبهُ والشمسُ طالعةً نوراً بنورٍ وإظلاماً بأظلامٍ

قالوا أراد قول الناس: لأرينك الكواكب نهاراً، وقالوا: أراد توضيح الأسنه في سواد العجاج: ومن أحسن
ما قيل في ذلك قول بشار:

كأن مثارَ النقع فوق رؤوسنا وأسيفنا ليلٌ تهوى كواكبهِ

وقال النمري:

ليل من النقع لا شمسٌ ولا قمر إلا جبينك والمذروبةُ الشرع

وقول ابن المعتز:

وعمَّ السماءَ النقعُ حتى كأنه دخانٌ وأطرافُ الرماح شرارُ

وأبلغ ما قيل في الإقدام والافتدال على العدو قول بعضهم:

عشيةٌ كنا بالخيارِ عليهم أننقصُ من أعمارهم أم نزيدها

ومن بديع المعاني في صفة اللقاء قول بعض الأعراب:

على كلِّ جرداءِ القرى أعوجيةٍ إذا طردت لم ينج منها طريدها

فنلقاهمُ إلا رجعنا نقودها

وما قادَ من قومِ إلينا جيادهم

وقلت في معناه:

وعمّوا البرايا باللّهي والرغائبِ

إلى ابنِ الأولى شادوا المعاليَ بالطّبي

فبين سواقٍ للردى وحواصب

إذا طلبوا رَوْحَ الحياةِ وطبيها

غواربُ تهوي في الطلى والغوارب

إذ البيضُ في سُودِ القساطلِ أنجمٌ

تشولُ إلى الهيجاءِ شولَ العقارب

وتحملهم يومَ الكريهةِ ضمراً

أثارت بناتِ الحنفِ من كلِّ جانب

فكم وقفةٍ في الرّوعِ منهم وحملةٍ

جنائبُ أو تقتادُها في الجنائب

تردُّ الجيادُ تحت قسطلةِ الوغى

ضرائبَ من تصميمه في الضرائبِ

بابيض مصقولٍ كأن بحدّه

ومن أجود ما قيل في كثرة الجيش قول الأحنس بن شهاب:

كأن وميض البيض فيها كواكبُ

بجأواءٍ ينفى وردّها سرعانها

الجأواء: الكتيبة يضرب لونها إلى الكلفة، وذلك من صدأ الحديد، والسرعان: الأوائل، يقول: إن المياه لا تسعهم، والأمكنة تضيق بهم، فكلما نزل فرقة منهم رحل من تقدمهم.

وقال أوس بن حجر:

مُعَضَّلَةٌ منا بجمعٍ عرمرم

ترى الأرضَ منا بالفضاءِ مريضَةً

التعضيل: أن ينشب الولد في بطن أمه.

ومثله قول النابغة:

يدعُ الأكامَ كأنهنَّ صحاري

جمعُ يظلُّ بهِ الفضاءُ مُعَضَّلًا

وأعجب من هذا قول زيد الخيل:

ترى الأكمَ فيه سُجداً للحوافرِ

بجيشٍ تضلُّ البلقُ في حجراته

كثيرٌ تو إليه سريغُ البوادرِ

وجمع كمثل الليلِ مرتجسِ الوغى

أخبرنا أبو أحمد، عن العبشمي، عن المبرد قال: يروى عن حماد الرواية قال: قالت ليلى بنت عروة بن زيد الخيل لأبيها: كم كانت خيل أبيك؟ حيث يقول:

بجيش تضل البلق في حجراته

قال: ثلاث أفراس أحدها فرسه. قالوا: وقتلت خثعم رجلاً من بني سليم بن منصور، فقالت أخته ترثيه:

لعمرى وما عمري عليّ بهين
لنعم الفتى غادرتُم آل خثعما
وكان إذا ما أورد الخيل بيثيةً
إلى جنب أشراج أناخ فألجما
فأرسلها رهواً كان رعالها
جراد زهته ربح نجد فأتها

فقيل لها: كم كانت خيل أخيك؟ قالت: اللهم لا أعرف إلا فرسه.

قوله: تضل البلق في حجراته، غاية في صفة الكثرة، لأن البلق مشاهير، فإذا خفي مكانها في جمع، فليس وراءه في الكثرة شيء، والعرب تقول "أشهر من فارس الأبلق"، ورؤساء العرب لا يركبون البلق في الحرب لثلا ينم عليهم فيقتصدوا بشر.

أخبرنا أبو أحمد، عن أبي بكر بن دريد، عن أبي حاتم، عن أبي عبيدة، أن النبي صلى الله عليه وسلم لما انصرف من بدر الموعد، لم يلق كيداً وأصحابه سبعون راكباً، وفيهم فرسان: فرس للزبير، وفرس للمقداد، قال حسان بن ثابت:

أقمنا على الرسّ النزوع لياليا
ترى العوفج الحولي تذري أصوله
بأرعن جرار عريض المبارك
مناسم أخفاف المطي الوراثك
إذا ارتحلوا عن منزل خلت أنه
قريب المدى بالموسم المتعارك
نسيرُ فلا تتجو اليعافيرُ وسطنا
وإن داءلت منا بشد مواشك
دعوا فلجات الشام قد حال دونها
ضراب كأفواه المطي الأوارك
بأيدي رجال هاجروا نحو ربهم
وأنصاره حقاً وأيدي الملائك
إذا أقبل العضروط من أرض عالج
فقولاً له ليس الطريق هنالك

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع ويضحك. ومثل هذا في ترهيب العدو حسن.

وقال أبو دعلج بن شداد الكلابي في المعنى الذي تقدم:

وأقبل عامرٌ من لبن سيراً
بجمع تهلك البلقاء فيه
إلينا ثم أقسم لا يديم
فتنشد والمفضضة اللطيم

ومن يبلغ ما قاله محدث في كثرة الجيش وتكاثفه واجتماعه قول أبي نواس:

أمام خميس أدجوان كأنه
قميص محوك من قنا وجياد

الأدجوان: الأسود واشتقاقه من الدجى، وروي الأرجوان وهو الأحمر.
وقال البحري:

لما أتاك يقودُ جيشاً أرعناً
يمشي عليه كثافةً وجموعاً
قال ابن الرومي:

قلو حصبتهم بالفضاء سحابةً
لظل عليهم حصبها يتدحرجُ
وهو من قول قيس بن الخطيم:

لو أنك تلقى حنظلاً فوق بيضنا
تدحرج عن ذي سامة المتقاربِ
السام: عرق الذهب والفضة، وهو ههنا الطرائق المذهبة في البيض.
وقلت:

ولقد نقودُ الخيلَ تخطرُ بالقنا
فتصبُّهنَّ على العدى آجالاً
ما إن يلين لها مدى فتخالها
تجري بطاءً إذ جرَّينَ عجلاً
وقال أبو عمرو بن العلاء: أحسن ما قيل في صفة جيش قول النابغة:

أو يزجروا مكفهرًا لا كفاءَ له
كاللَّيلِ يخلطُ أصراماً بأصرام
تبدو كواكبهُ والشمسُ طالعةً
نوراً بنورٍ وإظلاماً بإظلام
فذكر ذلك ليونس فقال أحسن منه قول العجاج:

كأنما زهاؤه لمن جهر
سارٍ سرى من قبل العينِ فجر
والأول أحسن عندي.

ومن أجود ما قيل في صفة السوط قول الشعبي: أخبرنا أبو أحمد، عن أبيه، عن عسل، قال: كان الشعبي، إذا تحدث، كأنه لم يسمع من غيره، لحلاوة منطقه، وعذوبة لفظه، فتحدث يوماً، فقال له رجلٌ كان يجالسه يقال له حنيش: اتق الله ولا تكذب، فقال له الشعبي: ما أحوجك إلى محذرع عظيم الثمرة، لين المهزة، أخذ من مغرز عنقٍ إلى عجب ذنب، فيوضع على مثل ذلك منك، فيكثر لك رقصاتك من غير جدل. قال: وما هو بأبي أنت وأمي؟ قال: أمرٌ لك فيه أدب، ولنا فيه أربٌ. يعني السوط.

ومن أحسن ما وصف به الرأس إذا حمل على القناة قول مسلم:

ويجعل الهام تيجان القنا الذُّبُلِ

مأخوذ من قول جرير:

تيجان كسرى وقيصر

ومن أجود ما قيل في المصلوب ما أنشدنيه بعض البصريين:

لما توشح بالجبالي ودُّرعا
وأراد صحة رميه فتسمعا

أنظر إليه كأنه في جذعه
رام رمى عن قوسه بمذلق

وهذا من أتم ما قيل فيه.

ومن المستحسن فيه قول البحري:

مثل أطراد كواكب الجوزاء

فتراه مطرداً على أعواده

وقول ابن الرومي:

ن له شاغل عن الدستبند

يلعبُ الدستبند فرداً وإن كا

وقال مسلم بن الوليد:

تنورُ شاويةٍ والجذعُ سفودُ

كأنه شلو كبشٍ والهواءُ له

ومما يجري مع ذلك، ما أخبرنا به أبو القاسم، عن العقدي، عن أبي جعفر، عن المدائني، قال: قال أهل خراسان لو كيع: كيف قتلت ابن خازم؟ قال: لما صرع قعدت على صدره، فحوال القيام فلم يقدر. فغلبته بفضل القنا، وقالت: يا لثارات دوبلة، فقال: لعنك الله أتقتل كبش مضر بأخيك علج، لا يساوي كف نوى؟ وتنخم في وجهي، فما رأيت أحداً أكثر ريقاً منه. فذكر ابن هبيرة يوماً هذا الحديث فقال: هل البسالة إلا أن يكثر الريق على تلك الحال.

ومن جيد ما قيل في طرائق الدم على المطعون قول أبي خراش الهذلي:

كأوشحة العذراء ذات القلائد

ونهنهتُ أولي القوم عني بطعنة

أوشحة جمع وشاح وهو سيرٌ كأنه شركٌ، عليه ودعٌ، فشبّه لون الدم بالسير، والزبد بالودع.

ومما يجري مع ذلك الحذر من الموتور.

ما قلت فيه:

إن أمكنته فرصة لم يمهل

لا تأمنن أخا العداوة إنه

تغلى عداوة صدره في مرجل

لله درك كيف تأمن محنقاً

والأيم لم يؤمن إذا لم يقتل

وما الحزم إلا في اجتنات أصوله

ومن الجيد مما قيل في سعة الطعنة قول بشر:

بطعنٍ مثال أفواه الخبورِ

إذا نفذتهم كرت عليهم

الخبر المزايدة والجمع خبور.

وقال عمرو بن شاس:

وضرب كأفواه المفرجة الهدلِ

بطعن كايذاغ المخاض إذا اتقت

شبه اللحم الذي يتدلى من فم الجرح، بمشفر البعير، الذي به قروح في فمه فيهدل لها مشفرة.

وقال عمرو بن شاس أيضاً:

مشافر قرحى في مباركها هُدلُ

وأسيافنا آثارهن كأنها

وقال غيره:

وطعن كايذاغ المخاض تبورها

بضرب كآذان الفراء فضولهُ

الفراء: جمع الفراء وهو حمار الوحش.

وقال خلف الأحمر:

على غشاش دَهَش وعجله

وأطعن الشجساجة المشلشله

يردُّ في نحرِ الطبيبِ فتله

أي يسح الدم، ويشلشله، يفرقه.

وقال خداهش بن زهير:

أفرغ في متعبِ الحائرِ

وطعنةِ خلَس كفرع الأزاء

تَرَدُّ السِّبَارِ على السابِرِ

تهالُ العوائِدُ من فرغها

السبار: الشيء الذي تسير به الطعنة، أي تقدر والسابر الذي يسيرها، والحائر: المطمئن من الأرض المرتفع

الحروف والجمع حوران، والمتعب: مسيل الماء.

هذا آخر صفة الحرب والسلاح، وما يجري معهما، والحمد لله حق حمده، وصلى الله على سيدنا محمد

وآله وصحبة الطاهرة وعلى الخلفاء الراشدين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي قسم البيان، بين القلم واللسان، لتكون النعمة فيه مشتركة بين الغائب والحاضر، والمقيم والمسافر، إتماماً للنعمة على عباده، وإكمالاً للعارفة في عمارة بلاده، ودل على موضع الصنعة في البيان، ونبه على موضع العارفة في اللسان، حيث يقول تعالى: "الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان" وأخبر عن عظيم قدر القلم، وما تضمن من سوايغ النعم، حيث يقول تعالى: "اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم" وأعلى قدره، وفخم أمره، حين أقسم به على أجل أمرٍ وأنبله، وأشرفه وأفضله، فقال: "ن والقلم وما يسطرون" فسبحان من جعل جلائل النعم، وسوايغ الآلاء والقسم، في شخص ضئيل، وقد قصير، تقل قيمته، وتصغر قمته، مع جلالة شأنه، وعلو مكانه.

هذا كتاب المبالغة

صفة الخط والقلم والدواة والقرطاس وذكر البلاغة

وما يجري مع ذلك، وهو:

الباب التاسع من كتاب ديوان المعاني وهو ثلاثة فصول

الفصل الأول

ذكر الخط والقلم والدواة والقرطاس

وما يسلك مع ذلك.

من أحسن الاستعارة في ذكر الخط: قول عبيد الله بن العباس بن الحسن العلوي: الخط لسان اليد. وقال جعفر بن يحيى: الخط سمط الحكمة به يفصل شذورها، وينظم منثورها. وقلت في معناه:

والخطُ خيطُ فرائدِ الحكم

منها وفصل كل مُنتظم

فرضٌ عليه عبادةُ القلم

الكتبُ عُقلُ شواردِ الكلم

بالخطِ نَظْمٌ كلُّ منتثر

والسيفُ وهو بحيثُ تعرفهُ

واختلف الناس في الخط واللفظ، فقال بعضهم: الخط أفضل من اللفظ، لأن اللفظ يفهم الحاضر، والخطو يفهم الحاضر والغائب.

وقال بعضهم: الخط كلامٌ ميت، والمخاطب به حي يمكن صاحبه أن يبصره، حتى يبلغ منه غرضه. ومن أعاجيب الخط كثرة اختلافه، والأصل واحدٌ، كاختلاف صور الناس، مع اجتماعهم في الصفة، وخط الانسان كحليته ونعته في اللزوم له، والدلالة عليه، والإضافة إليه كإضافة القافة الآثار إلى أصحابها. ومن أحسن ما قيل في حسن الخط والشكل قول أحمد بن إسماعيل:

مستودعٌ قرطاسهُ حكماً
كالروضِ مَيِّزِ بينهُ زهرهُ
وكأنَّ أحرفَ خطه شجرٌ
والشكلُ في أضعافه ثمره

ووصف أحمد بن صالح جاريةً كاتبةً فقال: كأن خطها أشكال صورتها، وكأن مدادها سواد شعرها، وكأن قرطاسها أديم وجهها، وكأن قلمها بعض أناملها، وكأن بيانها سحر مقلتها، وكأن سكينها سيف لخطها، وكان مقطها قلب عاشقها. وقلت:

وخط من التصحيح فيه معالمٌ
من الحسن إذ يبدو عليه سببٌ
يُعبّرُ عنه الروضُ وهو مُنمّمٌ
ويخبرُ عنه الوشيُّ وهو قشيبٌ
سوادٌ مدادٍ في بياض صحيفةٍ
يقول شبابٌ بالمشيبِ مشوبٌ
كأنَّ ظلامَ الليلِ أذرى دموعه
فظلّت على خدِّ الصباحِ تصوب

ومن غريب ما قيل في الشكل، ما أنشدناه أبو أحمد، قال: أنشدنا الصولي قال: أنشدني عبد الله بن المعتز لنفسه:

فدونكهُ موشى نممتهُ
وحاكتهُ الأناملُ أيَّ حوكِ
بشكلٍ يؤمن الأشكالُ فيه
كأنَّ سُطورَهُ أغصانُ شوكِ

وقلت:

بياضُ صحيفةٍ تلتاحُ حسناً
كغيمِ رِقِّ في أطرافِ جوِّ
ويحكي أرضَ كافورِ صريحِ
كمثلِ الليلِ في صُبْحِ صديعِ
كمتنِ السيفِ في كفِّ المليحِ
وماءِ ساحٍ في قاعِ فسيحِ
بها نَبْدٌ من المسكِ الذبيحِ
ومثلِ الصُدْغِ في وجهِ صبي

وبين سطورهِ عَجْمٌ مُصِيبٌ

كَمَثَلِ الْخَالِ فِي الْخَذِّ الْمَلِيحِ

وأحسن ما قيل في صفة الخط الجيد، ما أخبرنا به أبو أحمد، قال: أخبرنا الصولي قال: سئل بعض الكتاب عن الخط، متى يستحق أن يوصف بالجودة؟ فقال:

إذا اعتدلت أقسامه، وطالت ألفه ولامه، واستقامت سطورهِ، وضاهى صعوده حدودهِ، وتفتحت عيونهِ، ولم تشتبه رأؤهُ ونونهِ، وأشرق قرطاسه وأظلمت انقاسه، ولم تختلف أجناسه، وأسرع في العيون تصوره، وإلى العقول تثمرهِ، وقدرت فصولهِ، واندججت وصولهِ، وتناسب دقيقهِ وجليلهِ، وخرج عن نمط الوراقين، وبعد عن تصنع الحررين، وقام لكاتبهِ مقام النسبة والحلية، كان حينئذ كما قيل في صفة الخط:

وساورَهُ القلمُ الأرقشُ

إذا ما تجلج قرطاسه

كمثلِ الدنانيرِ أو أنقش

تضمن من خطهِ حُلَّةً

نشاطاً ويقروها الأخفشُ

حروفاً تُعيدُ لعينِ الكليلِ

ومن ههنا أخذ المتنبى قوله:

وأسمعت كلماتي من به صِمْ

أنا الذي نظرَ الأعمى إلى أدبي

إلا أنه أحسن الأخذ وأجاد اللفظ.

ومن مליح التشبيه قول الأعرابي، وقد قال له هشام بن عبد الملك: أنظر كم على هذا الميل من عدد الأميال، ولم يكن الأعرابي يحسن القراءة فمضى فنظر ثم عاد فقال: رأيت شيئاً كراس المحجن، متصلاً بحلقة صغيرة، تتبعها ثلاث كأطباء الكلبة، يفضي إلى هنة كأنها قطعة بلا منقار. ففهم هشام بالصفة أنها خمسة.

أخبرنا أبو أحمد، عن الصولي عن أبي العباس الربيعي، عن الطلحي عن أحمد ابن إبراهيم، قال: دخل أعرابي إلى الرشيد، فأشده أرجوزة وإسماعيل يكتب بين يديه كتاباً، وكان أحسن الناس خطاً، وأسرعهم يداً وخاطراً، فقال الرشيد للأعرابي: صف هذا الكتاب. فقال: ما رأيت أطيش من قلمهِ، ولا أثبت من كلمهِ، ثم قال ارتجالاً:

يريك الهوينا والأمور تطيرُ

رقيق حواشي الحلم حين تَبورُهُ

سحابتُهُ في الحالتينِ درورُ

له قلماً بؤسى ونعمى كلاهما

ويفتحُ بابَ الأمرِ وهو عسيرُ

يناجيك عما في ضميرك لحظة

فقال الرشيد: قد وجب لك يا أعرابي حق عليه، هو يقضيك إياه، وحق علينا فيه نحن نقوم به، ادفعوا إليه دية الحر، فقال إسماعيل وله على عبدك دية العبد. قوله: رقيق حواشي الحلم، رديء لأن الحلم يوصف

بالرزانة لا بالرقعة، واستعمل أبو تمام هذا اللفظ فعيب به. وقوله: يريك الهوينا والأمور تطير رويناه لمنصور النمري.

وفاجر صاحب قلم صاحب سيف، فقال صاحب القلم: أنا أقتل بلا غرر، وأنت تقتل على غرر. قال صاحب السيف: القلم خادم السيف، إن بلغ مراده وإلا فإلى السيف معاده، أما سمعت قول أبي تمام:

السيفُ أُصدقُ أنباءً من الكتبِ
وأبي ذلك ابن الرومي فقال:

في حدِّه الحدُّ بين الجدِّ واللعبِ
كذا قضى الله للأقام مُذ بُرِيتُ
وقال أيضاً:

لعمرك ما السيفُ سيفُ الكميِّ
له شاهدٌ إن تأملتهُ
بأخوفَ من قلمِ الكاتبِ
أداةُ المنيةِ في جانبِ
ظهرتَ على سرِّه الغائبِ
ألم ترَ في صدره كالسنانِ
وسيفُ المنيةِ في جانبِ
وفي الرِّدفِ كالمرهَفِ العاصِبِ
وقد أحسن الخالدي في قوله:

ففي كفِّ ليثِ الورى للندى
وقلت:

أبيت بالليلِ غريبِ الكرى
وقيمُّ الحكمةِ في أنملي
يأخذُ مني الدرسُ والكتبُ
أنفُ ضميري حينَ أرعفتهُ
يصوغُ ما يسبكه اللبُّ
لسانُ كفي حينَ أنطقتهُ
أفرغ ما استوعبه القلبُ
مُنحَفٌ في خلقه ذابلُ
أرضاك منه المنطقُ العذبُ
إن لم يكن كالعضبِ في حدِّه
مُعظَّمٌ في فعله ندبُ
ينكسه المرءُ فيعلو به
فإنه في فعله عضبُ
ورُبَّ نكسٍ غبُّه نصبُ
ومُدُّ عرفنا لذة العلم لا
يُعجبنا الحلو ولا العذبُ

وقال البحترى في تفضيل السيف على القلم:

ولما التقت أقلامكم وسيوفهم

أبدت بُغاتَ الطير زرقُ الجوارح

فلا غرتي من بعدكم عزُّ كاتبٍ

إذا هو لم يأخذ بحجزة راح

ومن أحسن ما وصف به القلم قول أبي تمام في محمد بن عبد الملك الزيات:

لك القلمُ الأعلى الذي بشباته
لعابُ الأفاعي القاتلات لعابه
له ريقَةٌ طَلُّ ولمن وقعها
فصيحٌ إذا استتطقتُهُ وهو راكبٌ
إذا ما امتطى الخمس اللطاف وأفرغتُ
أطاعته أطراف الرماح وقوِّضتُ
إذا استقرزَ الذهنَ الذكي وأقبلت
وقد رفدته الخنصرانِ وسدَّدت
رأيت جليلاً شأنه وهو مُرَهَفٌ
ضنى وسميناً خطبه وهو ناحلٌ

وقد أحسن القائل في تشبيه أنامل الكاتب، على القلم بالقلم، أنشدناه أبو أحمد، عن الصولي، عن أحمد بن محمد بن إسحاق:

ما ضرَّ مَنْ أضحى بهجرانه
لو فرج الكربة عن مدنفٍ
برقعة ينظمها كفه
بمرهف الأحشاء ذي حلةٍ
لعابُهُ يسرٌ وعسرٌ إذا
إذا امتطاه بشبيهاته
يركض في ميدان قرطاسه

وأحسن القصار في هذا المعنى يصف جاريةً كاتبةً اسمها علم:

أفدى البنانَ وحسن الخطَّ من علمٍ
حتى إذا قابلت قرطاسها يدها
إذا تقمعن بالحناء والكتم
تري ثلاثة أقلام على قلم

ومن أحسن ما قيل في الدواة والأقلام قول أحمد بن إسماعيل:

في كفه مثلُ سنانِ الصعده
 يلتهمُ الجيشُ اللُّهَامَ وحده
 لو صافحَ السيفَ الحسامَ قدّه
 يمزجُ فيها صَبْرًا بشهدهِ
 يمدُّها جارٍ كثيفَ العَدّه
 مُقلَّتُها مكحولةٌ بندّه
 أرقش بزَّ الأفعوانِ جلدّه
 لو صادَمَ الطودَ المنيفَ هدّه
 يأوي إلى ظنرٍ له مُحنتّه
 يُرضعها من مقلّةٍ مُسوده
 كأنّه الليلُ إذا استمدّه

وقلت في القلم:

أنظر إلى قلمٍ تتكسَ رأسُهُ
 تنظر إلى مخلابٍ ليثٍ ضيغِ
 يبدو لناظره بلونٍ أصفرِ
 فالدرجُ أبيضٌ مثلُ خدٍ واضحِ
 قسم العطايا والمنايا في الوري
 طعمان شوبٌ حلاوةٍ بمرارةِ
 فإذا تصرفَ في يدكِ عنانهُ
 ومُدللاً بمُعزَّرٍ ولربّما
 ليضمُّ بينَ موصلٍ ومُفصلِ
 وغرارٍ مسنونٍ المضاربِ مفصلِ
 ومدامعِ سودٍ وجسمٍ مُنحلِ
 يثنيه أسودٌ مثلُ طرفِ أكحلِ
 فإذا نظرتَ إليه فاحذرا وأملِ
 كالدهرِ يخطُ شهدهُ بالحنظلِ
 ألحقت فيه مؤملاً بمؤمّلِ
 ألحقت فيه معزراً بمذللِ

وقلت:

لك القلمُ الجاري ببؤسٍ وأنعم
 إذا ملأ القرطاس سود سطوره
 فتلك جنانٌ تجتني ثمراتها
 وهنَّ برودٌ ما لهنَّ مناسجُ
 وهنَّ حياةٌ للوليّ رضيةٌ
 فمنها بوادٍ ترتجى وعوائدُ
 فتلك أسودٌ تتقى وأساودُ
 ويلقاك من أنفاسهنَّ بواردُ
 وهنَّ عقودٌ ما لهنَّ معاقدُ
 وهنَّ حتوفٌ للعدوِّ رواصدُ

وأنشدنا أبو أحمد، قال: أنشدنا أبو بكر أحمد بن محمد بن الفضل الطائي قال أنشدني أبو الحسين بن أبي
 البغل:

لهم هممٌ تناطُ إلى الثريا
 وتحكم في الطريفِ وفي التلادِ

مُهَنْدَةٌ هَوَادٍ فِي الْهَوَادِي
فَتَحْسَبُهُ بِيَاضًا فِي سَوَادِ
بَخِيلٍ تَسْتَنَارُ مِنَ الْمَدَادِ

وَأَقْلَامٌ تَشْبَهُهَا سَيْوِفًا
يُخَطُّ بِهَا سَوَادٌ فِي بِيَاضٍ
إِذَا فَرَّغَ الصَّرِيخُ أَمَدًا خَيْلًا

وقد أحسن ابن الرومي في وصف الكتاب حيث يقول:

مَتَمَنَّقٌ مِنْ جِلْدِهِ
فِي بَطْنِهِ أَوْ ظَهْرِهِ

مَتَمَنَّقٌ مِنْ جِلْدِهِ
أَبْدًا تَرَاهُ وَصَدْرِهِ

وقال ابن المعتز يذكر أرضةً أكلت كتاباً:

دَفْتَرٌ فَقَهُ أَوْ حَدِيثٌ أَوْ غَزَلٌ
تَخَالُهُ مَكْتَحِلًا وَمَا اكْتَحَلِ
وَهُوَ دَلِيلٌ لِمَقَالٍ أَوْ عَمَلٍ
وَيُذَكِّرُ النَّاسِيَّ مَا كَانَ أَضَلِ
يَخَاطِبُ اللَّحْظَ بِنَطْقٍ لَا يَكِلُ

شَغْلِي إِذَا مَا كَانَ لِلنَّاسِ شَغْلٌ
أَرْقَطُ ذُو لَوْنٍ كَشَيْبِ الْمَكْتَهْلِ
رَاكِبٌ كَفَّ ابْنَ مَا شَاءَ رَحْلٌ
يَقِيمُ وَزْنَ الْعَقْلِ حَتَّى يَعْتَدِلِ
كَأَنَّهُ يَنْشُرُ عَنِ نَقْشِ حَلَلِ
وَلَا يَمَلُّ صَاحِبًا حَتَّى يَمَلِ

ثم قال في وصف الأرضة:

تَأْكُلُ أَثْمَارَ الْقُلُوبِ لَا أَكْلِ

وكتب الصاحب في وصف كتاب: وصل كتابك، فجعلت يوم وصوله عيداً أؤرخ به أيام بهجتي، وأفتح به مواقيت غبطني، وعرفت من خبر سلامتك، ما سألت الله الكريم أن يصله بالدوام، ويرفعه على أيدي الأيام.

وكتب أيضاً: وصل كتابه، أيده الله، يضحك عن أخلاقه الأرجة، ويتهلل عن عشرته البهجة، ويخبر عن رعاية الله إياه عما رأيت شمل الحرية به منتظماً، وشعب المروءة له ملتصماً، ويتحمل من أنواع بره ما أقصر عن ذكره، ولا أطمع في شكره، ويؤدي من لطيف اعتذاره، في أثناء عتبه، ما تزداد به أسباب السرور تمهداً.

وقلت في كتاب أكلته الأرضة:

ضَرٌّ مَأْمُونٌ الْمَغِيبِ

وَجَلِيسٌ حَسَنُ الْمَحِ

بخفيات الغيوب
وهو في حال اللبيب
وهو عونٌ للأديب
وله لفظُ الخطيب
مثل إقبال الحبيب
مثل إعراض الرقيب
هو كالوشي القشيب
كشبابٍ ومشيب
رِ وأنسٌ للقلوب
كان من شرِّ الدبيب
وكبيرات الذنوب
فالتوى منها نصيب
وكوت قلبَ لبیب
من بديعٍ وغريب
بين سهلٍ وصليب
وصحيحٍ ومُصیب
نَّ بإفسادٍ عجيب
م تهاوت للغروب
عن بعيدٍ وقريب

ميتٌ يُخبرُ حياً
أبلهٌ غيرُ لبیب
جاهلٌ غيرُ أديب
أخرسٌ غيرُ خطيب
مفحمٌ ينظمُ شعراً
ساكتٌ يروي حديثاً
نمقته الكفُّ حتى
من سوادٍ وبياض
فيه إمتاعٌ لأبصار
دبٌّ فيهنَّ دبيبٌ
من صغيراتِ جسوم
أخذت منها نصيباً
أفرحت قلبَ جهول
ويل هاتيك المعاني
وأفانينِ كلام
من بديعٍ وفصيح
بُدلَ الإصلاحِ منه
فنجومُ العلمِ والفه
كلُّ شيءٍ سوفَ يفنى

ومن بديع ما وصف به الوراق: ما أحرنا به أبو أحمد عن الصولي، عن أحمد بن يزيد المهلي، عن أبي هفان قال: سألت وراقاً عن حاله فقال: عيشي أضيف من محبرة، وجسمي أدق من مسطرة، وجاهي أرق من الزجاج، وخطي أخفى من شق القلم، ويدي أضعف من قصبه، وطعامي أمر من العفص، وشرابي أسود من الحبر، وسوء الحال ألزم من الصمغ. فقلت: عبرت عن بلاءٍ ببلاءٍ فحسبك. وقلت في المحبرة والأقلام:

تضمنُ رِيَّ الصفرِ الذوابلِ

منهلةً من أشرفِ المناهلِ

إذا مشت عاليةً الأسافل
فارتبطت شوارد المسائل
بيضاء تبدو في لباسِ الثاكل

مركبها ذوائبُ الأناملِ
بكت على الطرسِ بدمعِ هاملِ
وكشفت عن غررِ الدلائلِ

لكنها تلبسه من داخل
ومما لا أعرف في معناه خيراً منه قول كشاجم الكاتب:

هي عندي من الدويّ معييه
فإذا زدت فاستزد أنبويه

لا أحبُّ الدواة تحشى يراعاً
قلمٌ واحدٌ وجودُهُ خطٌ

أبدأ سيره وتلك جنبيه

هذه قعدة الشجاع عليها
ومن البديع الظريف قول أحمد بن إسماعيل:

غالية مذوقة بنده

كأنما النفس إذا استمده

وتن الكرسف مما يعاب به.

ومن البديع المشهور ما أنشدناه أبو أحمد، عن الصولي، عن أحمد بن إسماعيل، للحسن بن وهب:

وأقلام كمرهفة الحرابِ
وألفاظ كأيام الشبابِ

مدادٌ مثل خافية الغرابِ
وقرطاسٌ كرقراقِ السرابِ

وقلت:

لم تسع في زواله الأيامُ
موتى إليها النقضُ والإبرامُ
نظامُ ملكِ خانهِ النظامُ

أكثرُ ما تشبته الأقلامُ
يا لك من خرسٍ لها كلامُ
قوامُ مجد ما له قوامُ
أصاغرُ شؤونها العظامُ

ومن المختار في معناه قول الآخر:

وسوادُ الدويّ عطرُ الرجالِ

إنما الزعفرانُ عطرُ العذارى

وقلت في سكين:

غراء فضلك فيها غيرُ مجودِ
له مناطق من بيضٍ ومن سودِ

انجاز وعذك في السكين مكرمة
أحسن به أزرقاً في أبيضٍ يققِ

خلف الوعيد حميداً لا يذمُّ به

ولم يكن خلف موعودٍ بمحمود

وكتب كافي الكفاة في ذم قلم فأبدع: وليس العجب إلا من قلم منيت به، لا يستقر إذا تأنيت، ولا يستمر إذا جريت، طوله عرض، وابعامه نقض، تستغيث الحروف من التوائه، وتستأنس السطور من استوائه، إن قلت سر وقف، وإن حثته بالأنامل قطف، فألفاظي من سنيه مأسورة، ومعاني في شقيه محصورة، وقد صبرت عليه، ألبسه مع سوء عشرته، واستمنحه مع فضل عسرتة، وأقول لعله يصلح بطول المداراة، وعساه ينجح بكثرة المناوأة، وهو يزداد نفاراً، ويتضاعف زللاً وعتاراً.

ومما يدخل في هذا الباب، قول كشاجم في غلام، رآه يكتب ويخطىء، فيمحو ما يخطه بريقه وهو:

ورأيتُهُ في الطرسِ يكتبُ مرةً

غلطاً يواصلُ محوهُ برُضابهِ

فوددتُ أني في يديه صحيفةٌ

وودتُهُ لا يهتدي لصوابهِ

وأخبرنا أبو أحمد، عن الصولي، عن محمد بن زكريا الغلابي، قال: حدثنا مهدي ابن سباق قال: رأى المأمون في يد جارية له قلماً، وكان ذا شغف بها واسمها منصف فقال:

أراني منحتُ الودَّ من ليسَ يعرفُ

فما أنصفتي في المحبةِ منصفُ

وزادتُ لديَّ حظوةً يومَ أعرضتُ

وفي أصبعيها أسمرُ اللونِ أهيفُ

أصمَّ سميعٌ ساكنٌ متحركٌ

ينالُ جسمياتِ المدى وهو أعجفُ

عجبتُ له أني ودهركَ معجبٌ

يُقومُ تحريفَ العبادِ مُحرفٌ

وكتب الصاحب أبو القاسم في وصف كتاب: ومن هذا الذي لا يجب أن يواصل علم الفضل، وواسطة، وقرارة الأدب، والعلم ومجمع الدراية والفهم، أم من لا يرغب في مكاتبة من ينتسب الربيع إلى خلقه، ويكتسب محاسنه من طبعه، ويتوشح بأنوار لفظه، ويتوضح بآثاره ويده، ووصل كتابه فارتحت لعنوانه قبل عيانه، حتى إذا فضضت ختامه، أقبلت الفكرة تتكاثر، والدرر تتناثر، والغرر تتراكم، والنكت تتراحم، فإذا حكمت للفظة بالسبق أتت أختها تنافس، وأقبلت لدتها تفاخر، حتى استعفيت من الحكومة، ونفضت يدي من غبار الخصومة، وأخذت أقول كلكن صوادراً عن أصول، بل أصل واحد فتسالمن، ونواقذ عن معدن فارد فتصالحن، وقد وليت النظر بينها من كمل لنسج برودها، ووفي نظم عقودها. ومثل ما تقدم من قوله في ذم القلم قوله أيضاً: على أني يا مولاي أنشأت هذه الأحرف، وحوالي أعمال وأشغال، لا يسلم معها فكر، ولا يسمح بينها طبع، وتناولت قلماً كالابن العاق، بل العدو المشاق، فإذا أدرتة استطال، وإذا قومته مال، وإذا حثته وقف، وإذا أوقفته انحدر، أجدل الشق، مضطرب الشق، متفاوت البري، معدوم الجري، محرف القط مشبح الخط، ثم رأيت العدول عنه ضرباً من الانقياد لأمره،

والانخراط في سلكه فجهده على رغبته، وكدده على صغره، لا جرم أن جناية اللجاج بادية على صفحات الحروف لا تخفى، وعادية المحك لائحة على وجوه تتجلى. وكتبت في وصف كتاب.

اللّٰه أعلم أيّ أحييت بورود كتابه فاستغزني الفرح قبل رؤيته، وهز عظمي المرح قبل مشاهدته، فما أدري أسمعت بورود كتاب، أم ظفرت برجوع شباب، ثم وصل بعد انتظار له شديد، وتطلع إلي ووروده طويل عريض، فتأملته فلم أدر ما تأملت أخطأ مسطوراً، أم روضاً ممطوراً، أم كلاماً منشوراً، أم وشياً منشوراً، ولم أدر ما أبصرت في أثنائه. أبيات شعر أم عقود در، ولم أدر ما حملته، أغيث حل بواد ظمان، أم غوث سيق إلى لهفان. وكتب الصاحب: ووصل كتاب القاضي، فأعظمت قدر النعمة في مطلعته، وأجللت محل الموهبة بموقعه وفضضته عن السحر الحلال، والماء الزلال، وسرحت الطرف منه في رياض رقت حواشيتها، وحلل تأنيق واشيها، فلم أتجاوز فصلاً إلا إلى أخضر منه فضلاً، ولم أتخط سطرًا إلا إلى أحسن منه نظماً ونشراً.

ورفع رجلٌ إلى محمد بن عبد الله بن طاهر قصةً يعتذر فيها، فرأى خطه رديئاً فوقع: قد أردنا قبول عذرك، فاقطعنا دونه ما قابلنا من قبح خطك، ولو كنت صادقاً في اعتذارك، لساعدتك حركة يدك، أو علمت أن حسن الخط يناضل عن صاحبه بوضوح الحجّة، ويمكن له درك البغية. وقال علي رضي الله عنه: الخط الحسن يزيد الحق وضوحاً. وقيل: حسن الخط إحدى البلاغتين.

ووصف الجاحظ الكتاب فقال: الكتاب وعاءٌ ملىء علماً وظرفٌ حشي ظرفاً، وإناء شحن مزاجاً وجداً، إن شئت كان أبين من سحبان وائل، وإن شئت كان أعمى من باقل، وإن شئت ضحكت من نوادره، وإن شئت شجنتك مواعظه، ومن لك بواعظٍ مله، وبزاجرٍ مغرٍ، وبناسكٍ فاتك، وبناطقٍ أحرص، وبياردٍ حار، ومن لك بشيء يجمع الأول والآخر، والناقص والوافر، والشاهد والغائب، والرفيع والوضيع، والغث والسمين، والشكل والمثل وخلافه، والجنس وضده.

ودخل المأمون على بعض بنيه، فوجده ينظر في كتاب. فقال: يا بني ما في كتابك؟ قال بعض ما يشحد الذهن ويؤنس الوحدة. فقال: الحمد لله الذي رزقني ولداً يرى بعين عقله، أكثر مما يرى بعين جسده، وظل مفكراً في قول ولده الطفل.

الفصل الثاني من الباب التاسع

ذكر البلاغة

قال بعض الحكماء: البلاغة قول تضطر العقول إلى فهمه.
قال الشيخ أبو هلال: يعني قولاً واضح المعنى غير مشكل المغزى.
وسأل معاوية عمرو بن العاص من أبلغ الناس؟ قال: من اقتصر على الإيجاز وترك الفضول. وليس يصلح الإيجاز في كل مكان، كما لا تصلح الإطالة في كل أوان، بل لكل واحد منهما حين يحسن فيه ومقام يليق به إن أزلته عنه لم توفه حقه ولم تسلك به طريقه.
وقال محمد الأمين: عليكم بالإيجاز فإن للإيجاز إفهاماً وللإطالة استبهاماً. أي عليكم بالإيجاز فيما كان الإيجاز فيه أحسن وأنبغ، فأما إذا كانت الإطالة أرد وأنفع، فليس للإيجاز موقعٌ يحمده ولا حالٌ تعتمد. والإيجاز بجميع الشعر أليق، وبجميع الرسائل والخطب، وقد يكون من الرسائل والخطب، ما يكون الإيجاز فيه عيباً، ولا أعرفه إلا بلاغة في جميع الشعر، لأن سبيل الشعر أن يكون كلامه كالوحي، ومعانيه كالسحر، مع قربها من الفهم.
والذي لا بد منه حسن المعرض ووضوح الغرض.
كقول: النابغة الذبياني:

فإنك كالليل الذي هو مدركي

وقال الفرزدق:

والشيبُ ينهض بالشباب كأنه

ليلٌ يصيحُ بجانبه نهارُ

وقال الأعرابي: أبلغ الناس أسهلهم لفظاً، وأحسنهم بديهةً.
وهذا حسنٌ جداً، لأن سهولة اللفظ، وحسن البديهة، يدلان على جودة القريحة، والبلاغة الغريزية، ووعورة اللفظ، تدل على تكلف وتعسف، ولا شيء أذهب بماء الكلام، وطلاوته ورونقه منهما، ولا يحسن معهما الكلام أصلاً وإن كان لطيف المعنى نبيل الصنعة.
وقد أجاد ابن الرومي في قوله: البلاغة حسن الاقتضاب عند البديهة، والغزارة يوم الإطالة.
فجعل البلاغة في الغزارة، كما جعلها غيره في الإيجاز.
وقيل لهندي: ما البلاغة؟ فقال: وضوح الدلالة، وانتهاز الفرصة، وحسن الكلام.
وقال الحسن بن سهل: البلاغة ما فهمته العامة، ورضيته الخاصة.
وقال عبيد الله بن عتبة: البلاغة دنو المتأخر، وقرع الحجة، وقليل من كثير. وروي هذا عن أكثم بن صيفي أيضاً.

قال ابن المقفع:

البلاغة اسم لمعانٍ تجري في وجوه فمناها: ما يكون شعراً، ومنها ما يكون سجعاً، ومنها ما يكون خطباً، ومنها ما يكون رسائل. فعامّة ما يكون من هذه الأحوال فالوحي فيها، والإشارة إلى المعنى أبلغ، والإيجاز البلاغة.

وتأويل هذا ما قدمناه.

وقال غيره: البلاغة قولٌ يسير، يشتمل على معنى خطير.

وقال الآخر: البلاغة علمٌ كثير، في قول يسير.

وقال جعفر بن يحيى: البلاغة أن يكون الاسم محيطاً بمعناك، ويجلي على مغزاك ولا تستعين عليه بطول الفكرة، ويكون سليماً من التكلف، بعيداً من سوء الصنعة، بريئاً من التعقد غنياً عن التأمل. وقل أعرابي: البلاغة التقرب من معنى البغية، والتبعد من حشو الكلام، وقرب المأخذ، وإيجازاً في صواب، وقصد إلى الحجة، وحسن الاستعارة. وقال محمد بن الحنفية: البلاغة قولٌ مفقهُ في لطف. وقال عليٌّ رضي الله عنه: البلاغة إيضاح المتبسات، وكشف عوار الجهالات، بأحسن ما يمكن من العبارات.

ومثله قول الحسن بن علي رضي الله عنهما: البلاغة الإفصاح عن حكمة مستغلقة، وإبانة علم مشكل، ومثله قول محمد بن علي رضي الله عنه: البلاغة تيسير عسير الحكمة بأقرب الألفاظ.

وقال ابن المقفع: البلاغة كشف ما غمض من الحق، وتصوير الحق في صورة الباطل، والباطل في صورة الحق.

والذي قاله صحيح، لا يخفى موقع الصواب فيه على أحد، من أهل التمييز، وذلك أن الأمر الظاهر الصحيح، الثابت المكشوف، ينادي على نفسه بالصحة، ولا يجوج إلى التكلف لتصحيحه، حتى يوجد العيب فيه خطيباً، وإنما الشأن في تحسين ما لبس بحسن، وتصحيح ما ليس بصحيح، بضرب من الاحتيال والتخييل، ونوع من العلل والمعارض، ليخفى موضع الإساءة ويغمض موضع التقصير فيه. وقد فسرت في كتاب صنعة الكلام، مواضع الأشكال من هذه الفصول، فتركت إعادتها ههنا، فإذا أردتها فاطلبها في مظانها هناك، تظفر ببغيتك منها إن شاء الله تعالى.

وقد أحب قومُ الإيجاز في بعض المواضيع، منهم جعفر بن يحيى قال لكتابه: إن استطعتم أن يكون كلامهم مثل التوقيع فافعلوا.

وقال بعضهم في المذهب الأول: إذا كان الإيجاز كافياً، كان التطويل عيياً، وإذا كان التطويل واجباً كان التقصير عجزاً.

وقيل لأعرابي ما البلاغة؟ فقال: الإيجاز من غير عجز، والاطناب من غير حطل.
فانظر إلى كلام هذا الأعرابي فهو بليغ.

جمل من بلاغات العجم

العجم والعرب في البلاغة سواء، فمن تعلم البلاغة بلغة من اللغات، ثم انتقل إلى لغةٍ أخرى، أمكنه فيها من صنعة الكلام، ما أمكنه في الأولى، وكان عبد الحميد الكاتب استخراج أمثلة الكتابة التي رسمها من اللسان الفارسي، فحوّلها إلى اللسان العربي، ويدل ذلك على هذا أيضاً، أن تراجم خطب الفرس، ورسائلهم هي على نمط خطب العرب ورسائلها، وللفرس أمثال، مثل أمثال العرب معنى وصنعة، وربما كان اللفظ الفارسي، في بعضها، أفصح من اللفظ العربي.

من ذلك قول العرب: "ولدك من دمي عقبيك".

وقول الفرس: "هرك نزاد نرود" واللفظ الفارسي في هذا، أفصح من اللفظ العربي وأحسن.

وقولهم: "كشند ميد" مثل قول العربي: "من يسمع يخل" سواء في المعنى، والفارسي أقل حروفاً.

وقولهم: "أصيد بركة خورده" وليس للعرب في هذا معنى هذا المثل شيء.

ومعناه: "المأمول خير من المأكول".

ولا يعبر عنه بكلام عربي أقل حروفاً مما ذكرته ومع ذلك فإن حروف تفسيره بالعربية ضعفا حروفه

بالفارسية، وقد جاء عن بعضهم في معنى هذا المثل: "انتظار الحاجة خير لك من قضائها".

وقد خالفهم الفرس في مثل واحد وهو قولهم: "به شاه اشناه ونرود همدوره" والعرب تقول: "جاور بجرأ أو ملكاً".

وليس قصدنا لهذا المعنى فنطيل فيه، ولكن لإيراد أمثلة في البلاغة تكون مادة لصانع الكلام: فمن ذلك

قول ابرويز: إذا نزل الخمول استكتنف النقص.

يحث على طالب النباهة، والتماس جلائل الأمور.

وقال بهرام جور: الحاكم ميزان الله في الأرض.

فوافق الله تعالى في قوله: "والسمااء رفعها ووضع الميزان".

يعني العدل في الحكم.

ونحوه قال علي رضي الله عنه: السفر ميزان القوم.

وقول الآخر: العروض ميزان الشعر.

وقال الآخر منهم: أغلق أبواب الشهوات تفتح لك أبواب المحاسن.

وقال آخر منهم: الصواب قرين الثبوت والخطأ شريك العجلة.

وقال بزرجمهر:

عاملوا أحرار الناس بمحض المودة، وعاملوا العامة بالرغبة والرغبة وسوسوا السفلة بالمخافة والهيبية.
وقريبٌ من ذلك قول بعضهم: الكريم يلين إذا استعطف، واللئيم يقسو إذا ألطف.
وقال بعضهم: ينبغي للوالي أن يتفقد أمور رعيتهن فيسد فاقة أحرارها، ويقمع طغيان سفلتها، فإنما يصول
الكريم إذا جاع، واللئيم إذا شبع.
وقال بعض حكماء الفرس: أحزم الملوك، من غلب جده هزلن وقهر رأيه هواه، وعبر عن ضميره فعله،
ولم يحتدعه رضاه من حظه، ولا غضبه عن كيده.
وقال أنوشروان: القصد غاية المنافع. وقال لابنه هرمز: لا يكن عندك لعمل البر غاية في الكثرة، ولا لعمل
الإثم غاية في القلة.

ووافق هذا من العربي قول الأفوه الأودي:

والخيرُ تزدادُ منه ما لقيت به **والشرُّ يكفيك منه قلما زاد**

وقالوا أيضاً: يوم العدل على الظالم، أشد من يوم الظلم على المظلوم.
وقال ابرويز: لا تغشوا قليلاً فتنغصوا به كثيراً. وقال يوماً لجنده: لا يشحذ امرؤ منكم سيفه، حتى يشحذ
عقله.

وأظن المتنبى ألم بهذا فقال:

الرأيُ قبلَ شجاعةِ الشُّجعانِ **هو أولٌ وهي المحلُّ الثاني**

وقال لكاتبه: إذا فكرت فلا تعجل، وإذا كتبت فلا تستعن بالفضول، فإنها علاوة على الكفاية، ولا
تقصرن عن التحقيق، فإنها هجنة في المقالة، ولا تلبس كلاماً بكلام، ولا تباعدن معنى من معنى، واجمع
الكثير مما تريد في القليل مما تقول. ووافق هذا قول العربي: ما رأيت بليغاً، إلا رأيت له في المعاني إطالةً،
وفي الألفاظ تقصيراً. يحث على الإيجاز. وقال له: إذا أمرت فاحكم، وإذا كتبت فأوضح، وإذا ملكت
فأسجع، وإذا سألت فأبلغ.
ووافق هذا النمط قول أبي تمام:

يقولُ فيسمع ويمشي فيسر ع **ويضرب في ذات الآله فيوجع**

وقال أزدشير بن بابك: من لم يرض بما قسم الله له، طالت معتبته، وفحش حرصه، ومن فحش حرصه ذلت نفسه، وغلب عليه الحسد، ومن غلب عليه الحسد، لم يزل مغموماً فيما لا ينفعه، حزيناً على ما لا يناله. وهذا معنى قول الشاعر:

ليس للحاسد إلا ما حسد

وقال: من شغل نفسه بالمنى لم يخل قلبه من الأسى.
وقال بعضهم: الحقوق أربعة: حقُّ الله تعالى، وقضاؤه ارضاً بقضائه، والعمل بطاعته، وإكرام أوليائه، وحق نفسك، وقضاؤه تعهداً، بما يصلحها ويصحها، ويحسم مواد الادواء عنها، وحق الناس، وقضاؤه عمومهم بالمودة، ثم تخصيص كل واحد منهم بالتوقير والتفضيل والصلة، وحق السلطان، وقضاؤه تعريفه ما خفي عليه من منفعة رعية، وجهاد عدو، وعمارة بلدٍ وسد ثغر.
وقال بزرجهمر: لا ينبغي للعاقل أن يجزع من حط السلطان إياه، عن منزلة رفع إليها خاملاً، فإن الأقدار لم تجر على قدر الأخطار.
وقال بزرجهمر: إلزام الجهول الحججة يسير، وإقراره بما عسير.
وقال بزرجهمر: ثمرة القناعة الراحة، وثمره التواضع المحبة، من قلوب الخلق.

من كلام الفلاسفة

قال أرسطاطاليس: ليس الحاجة إلى العقل أقبح من الحاجة إلى المال. وقيل له: ما أشد الأشياء على الأحمق؟ قال السكوت. وقيل له: ما أحسن الأشياء؟ قال: الانسان المزين بالأدب.
وقال: العقل سبب تنغيص العيش.
وإلى هذا المذهب ذهب ابن أبي البغل في قوله:

حُبِسَ الهزازُ لأنه يترنمُ

جهلي كما قد ساعني ما أعلمُ

الصَّعُو يَصْفِرُ دائباً ولأجله

لو كنتُ أجهلُ ما علمتُ لسرتي

وقال المتنبي:

وأخو الجهالة في الشقاوة ينعمُ

كأن بيني وبينهم أرحاماً

رأى السرورَ جوىً والوفرَ إعداماً

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله

أواصلُ لهم في ضيقٍ وفي سعةٍ

إن إمرأاً عظمت في الناس همته

وقلت:

وقلت:

وأكثرُ حالاتِ الزمانِ يغمني وليس لغمِّ العارفينَ مفرجٌ

ورؤي الحسن البصري حزينا، فقيل له في ذلك فقال: غمى مكتسبٌ من عقلي، ولو كنت جاهلاً، لكنت في راحة من عيشي.

وافتخر قومٌ بالمال عند فيثاغورس فقال: وما حاجتي إلى المال الذي يعطيه الحظ ويحفظه اللؤم، ويهلكه السخاء. وقيل له ما أصعب الأشياء على الانسان؟ قال: أن يعرف قدر نفسه ويكتف سره.

وقال بعض أهل الهند:

ليس شيء أعرف بنفسه من الإنسان ولا أجهل بها منه. وقيل لسقراط أي السباع أجمل؟ قال المرأة. ومن التشبيه المصيب، قول سقراط لرجل استشاره في التزويج: إن المتزوجين مثل السمك الذي يصاد بالقفاف، فما حصل فيها يروم الخروج منها وما كان خارجاً يبغى الدخول فيها. وقيل لرجل منهم ما سبب موت أخيك؟ قال كونه.

ومثل ذلك أخبرني به عم أبي أبو سعيد الحسن بن سعيد أظنه عن أبيه قال: ورد البريد إلى المأمون من خراسان بموت ابن المؤيد، فاستدعاه وجعل يعظه ويعزيه من غير أن يذكر له المصيبة، فقال المؤيد: لا عهد لي من أمير المؤمنين بمثل هذا الكلام فما السبب فيه؟ قال: مات ابنك، قال قد عرفت ذلك، قال: ومتى عرفتته وما سبق البريد خبر؟ قال: عرفت ذلك يوم ولد. فعجب المأمون من فهمه، وقال بمثل هذا قدمتك هذه العصابة وجعلتكم قوام دينها ومفزعها فيما ينوبها.

وقال بعضهم: حب المال وتد البلايا.

وقال سقراط: اللذة حناق من عسل.

وقيل لجاوس: توفي مانيدس. فقال: الويح لي قد ضاع مسن عقلي. وقيل له ما أحلى الأشياء؟ قال: الذي تشتهي.

وقريب من قول الأعرابي:

وقلة ما قررت به العين صالح

وقال سقراط: الحظ في إعطاء ما لا ينبغي ومنع ما ينبغي سواء.

ومثل ذلك قول طاهر بن الحسين: التبذير للمال ذمة، كحب التقدير فاجتنب التقدير، وإياك والتبذير.

وقريب منه قول العربي، وقد قيل له: إن فيك إمساكا، فقال: لا أجمد في حق ولا أزور في باطل.

ورأى بعضهم شاباً جاهلاً جالساً على حجر فقال هذا حجر على حجر.
ونحو هذا قول بعض المحدثين:

على البراذين أمثال البراذين

ما أن يزال ببغداد يزاحمنا

وقلت وقد رأيت غلاماً طريراً يخدم لثيماً دميماً:

فانظر إلى البدر في يد القرد

إن كنت تترتأُ منظراً عجباً

يَ على مرقدٍ من الورد

وانظر إلى الضبِّ كيف يفترسُ الطب

على اللئيم المذمم الوغد

وذمُّ دهرًا يفيضُ أنعمه

فوق مُتونِ السوايحِ الجرد

وانظر إلى حمرة وأنته

ماذا أرى في تجنبِ القصد

فأسخنَ الله عينهُ زماناً

وقال بعض اليونانيين للاسكندر: أخلاقك تجعل العدو صديقاً، وأحكامك تجعل الصديق عدواً، ويشهد عدم مثلك فيما كان، بعدم مثلك فيما يكون.

وقال بعض حكمائهم لمتكبر: وددت أني مثلك في نفسك، وأن أعدائي مثلك في الحقيقة. وقريب من هذا المعنى قول علي رضي الله عنه لبعض أعدائه وقد مدحه: أن دون ما تظهر بلسانك، وفوق ما تضرر في جنانك.

وقيل لبطليموس: ما أحسن أن يصبر الانسان عما يشتهي؟ قال: أحسن منه أن لا يشتهي إلا ما ينبغي.
وقال أرسطاليس: إنك إن لم تصبر على تعب التعليم، صبرت على شقاء الجهل ما بقيت يخاطب جاهلاً.

محاسن كلام العرب

والأعراب والخطباء والكتاب

قال بعض حكمائهم: الصبر يناضل الحدثان.

وقال آخر: الحلم فدام السفية.

وقال آخر خاطر من استغنى برأيه.

وقال غيره: الجزع من أعوان الزمان والمودة قرابة مستفادة.

وفضل بعضهم المودة على القرابة فقال: القرابة محتاجةٌ إلى المودة، والمودة مستغنيةٌ عن القرابة.

وقال غيره وسوى بين المودة والقرابة: الصاحب مناسبٌ.

وقالوا: عجب المرء بنفسه أحد حساد عقله. ومن موجز الكلام قول بعضهم: من نال استطال والفاحشة

كاسمها.

وقولهم: أصاب متأملٌ أو كاد.

وقولهم: العفو زكاة الجاه.

وقولهم: راجي البخيل مكذ.

وقول بعضهم: قلما تصدقك الأمنية.

وقيل: الصيانة مألّف المروءة.

وقال بعض الحكماء: البلاء رديف الرخاء.

وقيل: خمول الذكر، أسنى من الذكر الذميم.

وهذا خلاف ما سمعناه، سمعت رجلاً يقول: لأن أكون رأساً في الضلالة أحب إلي من أن كون ذنباً في الهداية.

وكانت قريش تستحسن من الخاطب الإطالة، ومن المخطوب الإيجاز، فخطب محمد بن الوليد بن عتبة إلى عمر بن عبد العزيز ابنة أخيه، فتكلم بكلام جاز الحفظ. فقال عمر:

الحمد لله الذي أنطق البلغاء ذي الكبرياء، وصلى الله على محمد خير الأنبياء، أما بعد فإن الرغبة منك دعتك إلينا، والرغبة فيك اجابتك منا، وقد أحسن بك ظناً من أودعك كرمته، واختارك ولم يختر عليك، وقد زوجناك على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

فكان هذا من أوجز خطبة وأحسنها للمراد.

ومن موجز كلامهم: ليس مع الخلاف ائتلاف.

وقولهم: رضا الناس غاية لا تبلغ.

وقولهم: لا ينفعك من جارٍ سوءٍ توق.

وقولهم: سرك من دمك.

وقيل: من لم يمت لم يف.

وقولهم: عقل الكاتب على قلمه.

ومن الصدق الذي لا ارتياب فيه قولهم من جالس عدوه حفظ عليه عيوبه.

ومن الموجز المليح ما روي أن بني أمية وفدوا على عبد الملك بن مروان، فقال أهل الشام: ما عسى أن يقول خطيبهم؟ فقام رجلٌ منهم فقال: يا أمير المؤمنين نحن من تعرف، وحقنا ما لا تنكر، وحننا من

بعد ونمت من قرب، فمهما تفعل بنا من خير فنحن أهله، فتناول عبد الملك وقال: يا أهل الشام هذا

كلام قومي.

ومن جيد الاستعارة قول بعضهم: كانوا في ظل الحواشي، فطواه الدهر عنهم.
وقيل: القلم أنف الضمير، والخط لسان اليد.
وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "جدع الحلال أنف الغيرة".
وقالوا: الفكرة مخ العمل.
وقيل: الشيب خطام المنية.
وقالوا: المذاكرة حياة العلم.
وقيل: الخمول دفن الحي.
وقلت: السخاء سلم المجد.
وقلت: المرء ينقض مرر المودة، والتواني يثمر الندامة، والكسل ينتج الفقر.
وقيل: البياض علم الجمال.
وقلت: الحياء عنوان الكرم.
وقلت: العتاب مقدمة السخط.
وقال ابن المعتز: المعروف: غلٌّ لا يفكه إلا شكرٌ أو مكافأة.
وقلت: العين رائد القلب.
وقلت: الذل رسيل الدين، والشكر ضامن المزيد، والغنى مظنة البطر.
وقال آخر: اللحظ طرف الضمير.
وقلت: الشكر مرتبط النعم.
وقال آخر: من جرى في عنان أمله عثر بأجله.
وقال: الأعمال ثمار النيات.
وقيل: التواضع سلم الشرف.
وقلت: المال عدو الوفاء.
وقيل: التجني رسول القطيعة.
وقال الأحنف: الأدب عروة العز.
ومن أصدق كلمة أعرفها قول ابن المعتز: من قوي عقله، كثر حلمه، وقل غيظه.
وقال: الفرصة سريعة الفوت، وبطيئة العود.
وقال: نرقع خرق الدنيا ويتسع، ونشبعها وتنصدع، ونجمع منها ما لا يجتمع.
ووقع جعفر بن يحيى إلى بعض إخوانه: إذا وضح العذر لم يكن لسوء الظن مكان إلا لمن أراد التجني.

وقيل للأحنف إن حارثة بن بدر يقع فيك فقال: "عشيئة تقرم جلدًا أملسًا".
وقال بعض الحكماء.

حصاد المنى الأسف وعاقبتها الندامة، وليس لذي لب بها مستمتع.
ومن فصيح أمثال العرب قولهم: "الفرار بقراب أكيس".
وعزى أعرابيُّ رجلاً فقال: لا أراك الله بعد هذه المصيبة ما ينسيكها.
وعزى شبيب بن شيبه ذمياً فقال: أعطاك الله عن مصيبتك أفضل ما أعطى أهل ملتك.
وقال عبد العزيز بن زرارة: أول المعرفة الاختبار.

وقال رجلٌ للأحنف ممن أنت؟ قال: ممن ودي. وقال البلاغة البلوغ عند الكفاية.
وقيل للأحنف ما أحسن المجالس؟ قال: ما سافر فيه البصر، واتدع فيه البدن، وأمن فيه الثقل، وكثرت فيه
الفائدة.

وكتب المهلب إلى عبد الملك حين هزم الأزارقة: أما بعد فإننا لقينا المارقة، ببلاد الأهواز، وكانت في الناس
جولة، ثم تاب أهل الدين والروءة، ونصرنا الله عليهم، فتزل القضاء بأمر، جاوزت النعمة فيه الأمل،
فضاروا درينة رماحنا، وضرائب سيوفنا، وقتل رئيسهم في جماعة من حماهم، وذوي الثبات منهم، وأجلى
الباقون ليلاً عن معسكراتهم، وأرجو أن يكون آخر النعمة كأولها إن شاء الله تعالى.
وكتب إلى الحجاج: الحمد لله الكافي بالاسلام ما وراءه الذي لا تنقطع مواد نعمه، حتى تنقطع من خلقه
مواد الشكر عليها، وإنا كنا وعدونا على حالتين: يسرنا منهم أكثر مما يسوءنا، ويسوءهم منا أكثر مما
يسرهم، فلم يزل الله تعالى يزيدنا وينقصهم، وبمحضنا ويمحقهم، حتى بلغ الكتاب أجله، فقطع دابر القوم
الذي ظلموا والحمد لله رب العالمين.

وكتب ابن المعتز: قد علمتني نبوتك سلوتك وأسلمي اليأس منك إلى الصبر عنك.
وقال أعرابي لمعاوية:

هزرت ذوائب الرحال إليك، إذ لم أجد معولاً إلا عليك، وأمتطي الليل بعد النهار، واسم الجاهل بالآثار،
يقودني نحوك الرجاء، وتسوقني إليك البلوي والنفس مستبطة، والاجتهاد عاذر، وإذ بلغتك فقط.
فقال معاوية: أحطط رحلك يا أعرابي.

رأيت أعرابياً متعلقاً بأستار الكعبة وهو يقول: يا رب عندي لك حقوقٌ فهبها لي وللناس عندي حقوقٌ
فتحملها عني، ولي عندهم حقوقٌ فقيضها لي، وأنا ضيفك اليوم فاجعل قراي الجنة.
وذكر بعضهم رجلاً فقال: كان قريب مدى الوثبة، لين العطفة، يرضيه القليل ولا يسخطه الكثير.

أمثلة في البلاغة الكتابية

أولها التحميد، ومن عادة العارفين أن يبتدئوا في الأمور، بالحمد لله رب العالمين يقدمونه أمام طلابها، كما بدىء بالنعمة فيها قبل استيجائها.

كتب حمد بن مهران: الحمد لله الذي كثرت أياديه عن الإحصاء، وجلت نعمه عن الجزاء. وكتب أيضاً: الحمد لله ذي البلاء الجميل، والعطاء الجزيل، الذي جعل للأمر سنن الرتبة، وعز الدعوة، ووصل له حسن الولاية، بشكر النعمة، وقرن لأوليائه قوة الحجمة، بفضل الإدالة حمداً يؤدي إلى الحق، ويقتضيه ويستمد المزيد ويمتريه، وإلى الله أرغب في زيادة الأمير والزيادة به وعلى يديه، والأيدي الصائلة على عدوه بمنه ولطفه.

فأخذ ابن دريد قوله: ويستمد المزيد ويمتريه فقال: تحرس نعم الله عز وجل عندنا بالحمد عليها ويمتري المزيد منها بالشكر عليها، وترغب الأيدي إليه في التوفيق لما يدي من رضاه، ويجير من سخطه، إنه سميع الدعاء لطيف لما يشاء.

وكتب الصابي: الحمد لله ذي المنن والطول، والقوة والحول، والغاية والوصول، رافع الحق ومعليه، وقامع الباطل ومرديه، ومعز الدين ومديله، ومذل الكفر ومذيله المتزل رحمته على من جاهد في طاعته، والمحل عقوبته بمن جاهر بمعصيته، المتكفل بتأييد حزبه حتى يظفر، وبخذلان حربه حتى يدحر الذي لا يفوته الهارب، ولا ينجو منه الموارب، ولا يعييه العضل، ولا يعجزه المشكل، ولا تبهظه الأشغال، ولا تؤوده الأثقال، الغني المفتقر إليه، القوي المعتمد عليه، بالغ أمره بلا مؤازر، وممضي حكمه بلا مظاهر، ذلكم الله ربكم فاعبدوه مخلصين له الدين.

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم إنه قال لما هزم الأحزاب: "الحمد لله الذي صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده".

وكتبت: الحمد لله الذي وفر على الأنام المحاسن، واكتنفها بالميامن، وبسط بالخير أيديها وأفاض بالاحسان واديتها، وعلمها البر بالأبرار، والعطف على الأحرار، واختيار الخيرة للأخبار، فعادت وقد زكت شجرتها، وحلت ثمرتها، وتنت أغصانها، وتهدلت أفنانها، ولانت أعطافها، وتناهت ألطافها، فكأنما هي أيام أبي تمام التي وصفها، فقال:

بك والليالي كلها أسحارُ

أيامنا مصقولةً أطرافها

بما منح من حسن رأيك، أطال الله في كنف السلامة بقاءك، وحجب عن عيون الغير نعماءك، وخولك من العز أوفره، ومن الظفر أخضره، وأعطاك من النعم أصفها من الشوائب، وأبعدها من ملاحظة

النوائب، ومنحك من الخير برمته، كما قاد إليك الفضل بأزمته، ولا زال بك الزمان جديد الحلتين، مطرز
الطرتين، متوج المفرق بماثرك، حال الجيد بمفاخرك، ولا سلبك نعمة ألبسك جمالها، ولا نزع عنك عارفةً
وفر عليك كما لها:

رَأَيْتُ جَمَالَ الدَّهْرِ فِيكَ مُجَدِّدًا فَكُنْ بَاقِيًا حَتَّى تَرَى الدَّهْرَ فَانِيًا

وكتب بعضهم: الحمد لله الذي استسلمت نهایة الشكر لدون ما أُلزم بصنائه.
وكتبت: الحمد لله على ما تطول به من البر، وما أوزع على ذلك من الشكر، حمداً يتخطى به إلى غاية
رضوانه، ويستدعي المزيد من جزيل إحسانه.
وكتبت: الحمد لله الذي قيض لك السبق إلى البر، والفوز بالمكرمة البكر والاستيلاء على قصبات الحمد
والشكر.
وكتب آخر: الحمد لله الذي جعل من ألبابنا بصائر تقودنا إلى معرفته، ومعارف ترشدنا إلى الاقرار
بربوبيته ليخرجنا من الظلمات إلى النور برحمته.

من جيد الأدعية

ما كتب الصحاح أبو القاسم بن عباد:
أسعد الله سيدنا بالفضل الجديد، والنيروز الحميد، سعادة متصلة المادة، حافظاً لجميل العادة، مودنة بظاهر
العز والبسطة، وتزايد السرور والغبطة، مؤمنة من عوادي الأيام، وبواد الزمان، وأراه سادتي الفتیان، قد
اقتفى كل منهم مجده، وحكى في طلب المعالي أباه وحده، وجعل سيدنا آخداً من كل ما دعي به في
الأعياد، بأجزل الأقسام وأوفر الأعداد.
وكتب الصابي إلى أبي القاسم عبد العزيز بن يوسف: أطال الله بقاء مولاي الأستاذ، وأسعده بفيروزه
الوارد عليه، وأعادته ألف عام إليه، وجعله فيه وفي أيامه كلها معافي سالماً، فائزاً غانماً، مسروراً مجبوراً،
محروساً موفوراً، محتوماً له ببلوغ الآمال، مطروفاً عليه عين الكمال، محظور الافنية عن النوائب، محمى
الشرائع عن الشوائب، مبلغاً غاية ما تسمو همته العالية المشتطة، وأمانيه المنفسحة المنبسطة بقدرته.
والفصل الأخير من هذا يشير إلى قول ابن المعتز: أصحب الله بقاءك عزاً ييسط يدك لوليك، وعلى عدوك
وكلاءة تذب عن ودائع مننه عندك، وزاد في نعمك وإن عظمت، وبلغك آمالك وإن بعدت.
وكتب بعضهم: عش ما شئت كما شئت.
وهو قول أبي نواس:

دارت على فتيّة ذلّ الزمان لهم

فما يُصيبهم إلا بما شاؤوا

وكتب بعضهم: عش أطول الأعمار، موقى من سوء الأقدار، مرزوقاً نهاية الآمال، مغبوطاً على كل حال. وكتب آخر: بلغك الله نهاية من العمر لا نهاية لمستزيد وراؤها. وقريبٌ منه قول البحثري:

عمرت أبا إسحاق ما صلح العُمُرُ

ولا زال معموراً بأيامك الدهرُ

وقول الآخر:

فلا زالت الأرضُ معمورةً

بعُمرِكَ يا خيرَ عُمَارِها

ومما يجري مع ذلك وليس منه، قول أبي تمام:

من يسأل الله أن يُبقي سرّاتكمُ

فإنما رامَ أن يستبقي الكرما

وقول المتنبي:

أعيذكُم من صروف دهركمُ

فإنه بالكرام مُتَّهمُ

قلت:

فلا زالت الأقدارُ دونَ محلّكم

سواقطُ والمكروهُ عنكم مقصراً

وقال بعضهم: جعلك الله من كل محبوب على شرف، ومن كل محذور في كنف.

وكتب آخر: لا زالت الأيام لك المساعدة، والليالي على هواك مساعفة، تتلقاك بأوفر الجبور، وتطلع عليك بعوائد السرور، وتجري مقاديرها لك بالحبيب، وتتقاعس عنك بالمحذور المرهوب، ويحكم لك بالرشد والسعادة، ويقضي على أعدائك بالذل والقماءة.

وكتب ابن المعتز: أحررتني العلة عن الوزير، أيده الله، فحضرت بالدعاء في كتابي لينوب عني، ويعمر ما أخلته العوائق مني، أسأل الله أن يجعل هذا العيد أعظم الأعياد السالفة، بركة عليه ودون الأعياد المستقبلية، فيما يحب ويجب عليه، ويتقبل ما تتوسل به إلى مرضاته، ويضاعف الاحسان إليه على الاحسان منه، ويمتعه بصحبة النعمة ولباس العافية، ولا يريه في مسرة نقيصة، ولا يقطع عنه فيها عادة جميلة. وهذا مأخوذٌ من قول سعيد بن حميد: تابع الله لك صالح الأيام، ومحمود الأعوام، حتى يكون كل يوم منها موفياً على ما قبله، مقصراً عما بعده.

وكتب ابن المعتز: حفظ الله النعمة عليك وفيك، وولي إصلاحك والإصلاح لك، وأجزل من الخير حظك، والحظ منك ومن عليك وعلينا بك.

وكتب إلى عليل: مسحك الله بيد العافية، ووجه إليك وافد السلامة، وملاك ما أفادك وهناك ما قسم

لك، وأمتع بك وليك، وألان لك طاعة عدوك وجمل الدولة ببقائك، وزينها بدوام نعمائك.
وكتب صاحب أبو القاسم: والله يديم لمولانا ولي النعم التمكين والبسطة، والعلو والقدرة، والعز
والنصرة، ولا يسلب القلوب ما أودعها من محبة دولته، ولا يعدم الصدور ما ضمنها من خشية صولته،
ليزداد أولياؤه بصيرة في مناصحته، ويضطر أعداؤه إلى استعطافه واستقالته، إنه قدير على ما يشاء وإليه
أرغب في زيادة مولانا من فضله، وصلة المناجح بسعيه وعزمه، وتعريفه الميامن في ارتحاله وحله، وتوفيقه
لما يحفظ رأي ولي نعمته، ويستديم المقسوم له من محمده.

وكتب أبو الحسن بن أبي البغل إلى علي بن عيسى:
وهنا الله الوزير ما أتاه، وجعله أئمن أمر من أمور الدين والدنيا بدءاً وفتحاً، وأسلمه مالاً وعاقبةً، وأطول
أمداً ومدةً، وأدومه انتظاماً واستقامةً، وأوفره كفايةً لله وحجماً ولايته، وصادق معونته، حظاً وسهماً
ويسر لديه العسير، وقرب على يده البعيد والشطير، إنه على كل شيء قدير.
وقال أعرابي: لرجل النعم ثلاث: نعمة من حال كونها، ونعمة ترجى مستقبلة، ونعمة تأتي غير محتسبة،
فأدام الله لك ما أنت فيه، وحقق ظنك فيما ترجيه، وتفضل عليك بما لم تحتسبه.

المديح

قد صدرت الكتاب بذكر المديح على مذهب الشعراء، وأنا أورد هنا صدرها على مذهب الكتاب،
ليشتمل به على الكمال إن شاء الله تعالى: ذكر رجل لبعض البلغاء فقال: هو أحلى من رخص السعر
وأمن السبل وإدراك الأمانى وبلوغ الآمال.
وكتب بعض الكتاب: وجرى لك من ذكر ما خصك الله به، وأفردك بفضيلته، من شرف النفس والقدر،
وعلو المتلة والذكر، وبعد المهمة ومضاء العزيمة، وكمال الأداة والآلة، والتمهد في السياسة والأيلة،
وحياسة الدين والأدب، وإيجاب عظيم الحق بضعيف السبب، وما لا يزال يجري مثله عند كل ذكر
يتجدد لك، وحديث يؤثر عنك.

وكتبت: من حل محل سيدنا في شرف المنصب، وطهارة العنصر، وزكاء الأصل، ونماء الفرع، وسني
الحسب، وسري النسب، مع الشيم الطاهرة، والمكارم المتظاهرة، كثرت الرغبة إليه، وخيمت الآمال بين
يديه، وهو حقيق بتصديقها فيه، وتحقيقها عند مؤمليه، لكرمه في نفسه وتميزه من جنسه.

وقال بعضهم لرجل: رحم الله أباك فإنه كان يقري العين جمالاً والأذن بياناً.
ومما يجري مع ذلك أن بعض الملوك رأى رجلاً قبيح المنظر، عيب اللسان، فأمر بإسقاطه. وقال: إن روح
الحياة، وهي الإنسانية، إذا كان ظاهراً كان جمالاً، وإذا كان باطناً فمن خلا من الجمال والبيان فليس

بإنسان.

وكتب الصحاح: وليس بدع أن يجود كلامه، وتعدل أقسامه، ويتهدب بيانه، ويتسع جناحه، وقد راض العلوم حتى أعطته زمامها، ومارس الآداب حتى ملكتها خطامها، فإن عد الفقه كان البازل الذي ذلل الفحول مصاوله، وإن ذكر الكلام، كان الجبل الذي فرع الأطواد مطاوله، وإن تصرف في أيام الناس وأخبارهم، وفحص عن سيرهم وآثارهم، حاضر محاضرة الأفراد، وكاثر مكاتبة الآحاد، وإن جوري في سوائر الأمثال، وفقر الأشعار، ترك المجاري لا يدري أي طريق يركب، وأي مذهب يذهب، وأما الخطابة فهو جديلاً المحكك، وعذيقها المرجب، وقد سلمت إليه اختياراً من مواليهن واضطراً من معاديه.

وقال رجل لخالد القسري: إنك لتبذل ما جل، وتجير ما اعتل، وتكثر ما قل.

وكتب إبراهيم بن العباس: وإن أمير المؤمنين، لو استغنى بنظر ناظر من ولاته، واجتهاد مجتهد من كفاته، الذين لهم الأثرة عنده، والموضع الأخص عن الاستظهار عليه، بنظره وعنايته واهتمامه، كنت أولى من خفف بمكانه عن نفسه، واقتصر على عنايته وتدييره، دون إرشاده وتسديده، فالله يعزه ويزيد في تأييده.

الدم والتهجين

فمن بديع الاستعارة فيه قول أعرابي يذم رجلاً: يقطع فماره بالمنى ويتوسد ذراع الهم إذا أمسى. ودخل أعرابي بغداد فقال: فإذا ثياب أحرار على أجساد عبيد، إقبال حظهم إدار، حظ لكرم شجر، فروعه عند أصوله، شغلهم عن المعروف، رغبتهم في المنكر. وقال بعضهم لرجل استضاف بجيلاً: نزلت بوادٍ غير ممتور، ورجل غير مسرور، فأقم بندمٍ وارحل بعدم. وقال أعرابي: أولئك قومٌ سلخت أبقاؤهم بالهجاء، ودبغت جلودهم باللؤم، فلباسهم في الدنيا الملامة، وزادهم في الآخرة الندامة. لا تدنس شعرك بعرض فلان، فإنه سمين المال، مهزول المعروف، من المرزوقين فجأة، قصير عمر الغنى، طويل حياة الفقر، ومن ههنا أخذ أبو نواس قوله:

لساني فيك لا يجري

بما أهجوك لا أدري

ك أشفقتُ على شعري

إذا فكرت في عرض

واستشارت امرأةً امرأةً في رجل تزوجه. فقالت: لا تفعلني فإنه وكلةٌ تكلة يأكل خالله. وكلة وتكلة: بمعنى واحد، وهو الذي يتكل في الأمور على غيره، ولا يقوم فيها بنفسه، والتاء في تكلة واو كما قيل تراثٌ وهو من ورث. والخلل ما يخرج من بين الأسنان عند التخلل، وليس في اللؤم شيء من

الكلام أبلغ من هذا.

وقريب منه قولهم فلان يثير الكلاب عن مراضها، يريدون أنه من طمعه وشرهه يثيرها يطلب تحتها شيئاً
قد فضل منها.

ومن ذلك قول الشاعر:

أمن بيت الكلاب طلبت عظماً لقد حدثت نفسك بالمحال

الشكر

وكتب ابن المعتز في الشكر: قد جلت نعمتك عن شكري، فتولى الله مكافأتك عن عجزني، بعد جهدي،
بما هو أرفع له وأقدر عليه بمنه ورأفته، وهذا من قول طريح بن إسماعيل:

فقصرت مغلوباً وإني لشاكرٌ

وكتب آخر: إذا كان مجهودي في شكر النعمة، واعترافي بحق العارفة، يبلغني أقصى نهاية الشاكرين، وأبعد
غاية المعترفين، وكانت زيادة معروفك على قدر شكري، كزيادة قيمتك في نفسي، فقد أسقط الله تكلف
ما جاوز الطاقة عني.

وكتب بعضهم: قلبي نجى ذكرك، ولساني خادم شكرك.

ومما يجري مع ذلك ما كتب بعضهم: أما بعد فإن أثقل الناس حملاً، من تحمل آمال المؤمنين، وأولاهم
بالمكافأة، من أخدمك عرضه فتدلل لك، ونفسه فتواضع دونك، وقلبه فكان في رجائك وتأميلك، ولسانه
فكان في ذكر محاسنك ونشر مناقبك.

وقريب من هذا المعنى قول ابن الرومي:

إنَّ امرأَ رفضَ المكاسبِ واغتدى

فكسا وحلّى كلَّ أروع ماجدٍ

مُنشأغلاً عما يُمارسُ غيرُهُ

ثقةً برعي الأكرمينَ ذمامُهُ

يتعلم الأدابَ حتى أحكما

من حرّاً ما حاك الضميرُ ونظماً

حتى لقد أثرت اللئامُ وأعدما

لأحقُّ مُلتمسٍ بأن لا يُحرماً

وكتبت: وتأملت التوقيع في معنى المعيشة، فتصور لي الغنى بصورته، وقابلي بصدق مخيلته، وعرفت أن
الدهر قد غضت جفونه، ونامت عيونه، وتنحت عن ساحتي خطوبه، وهذه نعم أعيا بذكرها، فكيف
أطمع في إداء شكرها، بل عسى أن يكون الاعتراف، بقصور الشكر عنها، شكراً لها، ومقابلة بما خلص

إلى منها، وأنا معترفٌ بذلك اعتراف الروض، بحقوق الأنواء، وقائل به كما أقول بفضل الوفاء.
وقال ابن المقفع: الشكر نسيم النعمة.
وقال علي بن عبيدة: النعمة كالروضة والشكر كالزهرة.
وكتب ابن المعتز في معنى آخر: سألت عن خيرى وأنا في عافية لا عيب فيها، إلا فقدك ونعمة لا مزيد
فيها إلا بك.
وكتب أبا العباس بن ثوابة: وأنا أسأل الله إذا من بنعمة أن يجعلك المقدم فيها، وإذا امتحن بمحنة أن
يجعلني وقاءً لك منها.
وكتب في فصل: وإذا ضاق على أن أفعل، فليس يضيق عليك أن تتفضل، إذا كان كل واحد منا يجري
إلى غاية في البر والعقوق.
وكتب أبو علي الضرير: تجاوز بي في ذكر فضلك، ووصف محاسنك، والاختبار بما وهب الله للامام والأمة
فيك، إلى القول بحاجتي قبلك، ليس لأني جهلت الحق علي لك، ولا لأني أدخرت الشاء الحميل لغيرك،
ولكني رأيتني فيما أتعاطى منه، كالمخبر عن ضوء النهار الباهر، الذي لا يخفى على ناظر، وكالمنبه على
الأمر الواضح، الذي يستوي فيه العالم والجاهل، فانصرفت عن الشاء عليك، إلى الدعاء لك ووكلت
الاختبار عنك، إلى علم الناس بك.
قد انتهى بنا القول في هذا الباب إلى هنا، لعلمنا انا إن أردنا استيعابه لم نقدر عليه لكثرتة، ونرجو أن يقع
الاكتفاء به إن شاء الله تعالى وهو حسبنا ونعم الوكيل والحمد لله وحده.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي دل على قدرته، وأبان عن حكمته، باختلاف ما خلق من الصور، وتباين ما أنشأ من الفطر، من ملك وإنسان وبهيمة، وجان وطائر، يمسح صفحات التراب، ويأخذ بإهاب السحاب، وحنش ينطوي على أدرأجه، ويستوي مرة في اعوجاجه، إلى غير ذلك من خلق مختلفة، وأجرام متباينة، حقيرها جليل، وصغيرها كبير، وجعل منافعها متاعاً للإنسان الذي كرمه تكريماً، وفضله على كثير ممن خلق تفضيلاً، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليماً.

هذا كتاب المبالغة في

صفات الخيل والإبل والسير والفلوات

وذكر الوحوش والطيور والحشرات وما يجري مع ذلك وهو:

الباب العاشر من كتاب ديوان المعاني وهو ستة فصول

الفصل الأول

صفات الخيل

قد وصفها الناس، في قديم الدهر وحديثه، وصفاً كثيراً، واتسع فيها قولهم اتساعاً شديداً وأنا أجيء بالبديع الغريب من ذلك، وأضرب عنغيره لكثرتة واستفاضته، ولا حاجة بالناس إلى أن نورد عليهم ما عرفوه، ووقفوا عليه وتداولوه، إلا ما لا بد من إيراده، لفقد شبيه وعدم نظيره: فمن بديع ما جاء عن القدماء في صفة الفرس قول أبي دؤاد:

فراكبٌ منه ومركوبٌ

يحمل منه بعضه بعضه

وقول الأعرابي:

فَرِيًّا وَأَمَّا أَرْضُهُ فَمَحُولٌ

وأحمرٌ كالديباج أما سماؤه

سماؤه: أعاليه، وأرضه: أسافله، يعني حوافره.

ومن أجود ما قيل في تأنيف أذن ما أنشده القتيبي:

كأن أذناها أطراف أقلام

وأحسن ما قيل في اصطفاف الخيل قول الأسعر:

كأنامل المقرورِ ألقى فاصطلى

يخرجن من خلل الغبارِ عوابساً

أي كلهن يبادر الغارة فليس يفوت بعضها بعضاً.
أخذه علي بن جبلة فقال رحمه الله:

أرسالُ قطرٍ تهمَى فوق أرسالِ

كأنَّ خيلك في أثناءِ غمرتها

نشر الأناملِ من ذي القرّة الصالي

يخرجن من غمراتِ النقعِ ساميةً

والأول أجود.

ومثل ذلك قول الراجز.

مستويات كضلوع الجنب

وفي وصف وقع قوائمها قول مالك بن حريم الهمداني:

إذا صبرت صابت قوائمها معا

وتَهدي بي الخيل المغيرة نهدة

ومن أحسن الاستعارة قوله:

تجاوبَ أثناءَ الثلاثِ بدعدعا

وإن عثرت إحدى يديه بثيرة

وكان الأحسن أن لا يصفها بالعثار إلا أن قوله:

تجاوب أثناءَ الثلاثِ بدعدعا

مستعار حسن، يعنى على إساءته في وصفه إياه بالعثار، ودعدع مثل قولهم لعاً وهو دعاء للعاثر بالحياة.
وأهدى بعضهم شهرياً وكتب: بعثت بشهري حسن المجموع، لين الموضوع، وطئ المرفوع، همه أمامه
وسوطه لجامه.

وقد أحسن ابن المعتز في قوله:

أنابيبُ سمرٍ من قنا الخط زبيلُ

وخيل طواها القودُ حتى كأنها

فطارت بها أيدٍ سراعٍ وأرجلُ

صبينا عليهم ظالمينَ سياننا

فذكر أنهم ضربوها من غير أن تمنع شيئاً من مطلوب سيرها فكانوا ظالمين لها.

وقد أجاد في قوله أيضاً:

أضيع شيء سوطه إذ تركبه

وقالوا أحسن بيت قالته العرب قول جرير:

طبي التجار بحضرموت برودا

وطوى الطراد مع القياد بطونها

وقد أحسن الأعرابي القول في سرعة الفرس حيث يقول:

نحن حويناها وكنا أهلها

غايةً مجد رُفعتُ فمن لها

لو ترسلُ الريحُ لجننا قبلها

وقول الآخر:

يسبحُ أولاهُ ويطفو آخره

جاءَ كمثلِ البرقِ جاشَ ماطرُهُ

فما يمسُّ الأرضُ منه حافرُهُ

وهذا غاية في وصف سرعة العدو إلا أن قوله:

يسبحُ أولاهُ ويطفو آخره

رديء لأنه جعله مضطرب المقاديم والمآخير.

وقول عبدة بن الطبيب في الثور:

في أربع مسهنَّ الأرض تحليلُ

يخفي الترابَ بأظلافٍ ثمانية

يقول ان مواصلة هذا الثور، بين خطواته، كمواصلة الحالف يمينه بالتحلة لا تراخي بينهما، والتحلة قول إن شاء الله.

ومن عجيب القول في سرعة الفرس قول ابن المعتز:

كأنَّ ما يهربُ منه يطلبه

كأنَّ جنانَ الفلاةِ تضربه

وقد أجاد القائل في صفة كلاب:

كأنما يرفعن ما لا يُوضع

ومن عجيب ما قيل في إدامة الجري قول العرب: يباري ظله وباري عنانه، وباري شبة الرمح.

ويستحب في الفرس إشراف مقدمه ومؤخره، فمن أجود ما قيل في ذلك قول علي بن جبلة:

حتى إذا استدبرته قلت أكبَّ

تحسبه أقدع في استقبالة

وقد أجاد المتنبي هذا المعنى في قوله:

أو أقبلت قلت ماله كفلُ

إن أدبرت قلت لا تليل لها

وقلت:

طَرَفَ إِذَا اسْتَقْبَلْتَهُ قَلْتَ حَبَا حَتَّى إِذَا اسْتَدْبَرْتَهُ قَلْتَ كَبَا

وَأَرْبَعٌ يَلْقَى الصِّفَا بِمِثْلِهَا وَلِلْحَصَى مِنْ خَلْفِهَا وَثَبَ دَبَا

إِذَا تَرَامَيْنَ بِهِ فِي سَيْرِهِ تَحْسِبُهُ مِنْهَا عَلَى أَنْفِ الصَّبَا

ووصف النبي صلى الله عليه وسلم إناث الخيل، بأعجب وصف في قوله: ظهورها حرز وبطونها كثر
وقال الأسعر الجعفي في معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم ظهورها حرز:

وَلَقَدْ عَلِمْتُ عَلَى تَوَقِّي الرَّدَى أَنْ الْحِصُونَ الْخَيْلَ لَا مَدَرَ الْقَرَى

ومن أجود ما وصف به حضر الفرس، قول الأعرابي في فرسه: حضر ما وجد أرضاً وقد بالغ امرؤ القيس
في قوله:

عَلَى هَيْكَلٍ يَعْطِيكَ قَبْلَ سُؤْلِهِ أَفَانِينَ جَرِيٍّ غَيْرِ كَزٍّ وَلَا وَا

قوله: قبل سؤاله عجيب الموقع، وقوله: أفانين جري أعجب وأبلغ.

وأجود ما وصف به ظفره عند الطلب قوله:

وَقَدْ أَغْتَدِي وَالطَّيْرُ فِي وَكِنَاتِهَا بِمَنْجَرٍ قَيْدِ الْأَوَابِدِ هَيْكَلِ

فجعل الأوابد وهي الوحش مقيدة له يناها كيف يريد.

وقد أجاد أيضاً أحسن القول في اليقين بالظفر حيث يقول:

إِذَا مَا وَلَدْنَا قَالَ وَلَدَانُ أَهْلَنَا تَعَالَوْا إِلَى أَنْ يَأْتِيَ الصَّيْدَ نَحْطَبُ

وأحسن عمارة التقسيم في قوله في هذا المعنى:

وَأَرَى الْوَحْشَ فِي يَمِينِي إِذَا مَا كَانَ يَوْمًا عِنَانُهُ فِي شِمَالِي

ونقله الشماخ بن ضرار إلى وصف رام فأحسن حيث يقول:

قَلِيلُ التَّلَادِ غَيْرِ قَوْسٍ وَأَسْهَمِ كَأَنَّ الَّذِي يَرْمِي مِنَ الْوَحْشِ تَارِزِ

أي جامد بارد يصيبه كيف يريد.

وجعله أبو نواس في نعت كلاب فقال:

بِأَكْلِبٍ تَمْرُحُ فِي قَدَاتِهَا تَعُدُّ عَيْرَ الْوَحْشِ فِي أَقْوَاتِهَا

وهو من قول أبي النجم:

تَعُدُّ غَابَاتِ اللَّوَى مِنْ مَالِهَا

وقوله:

صم الشوى يحملها وتحمله
ثار عجاج مستطيل قسطله
في جنبه الطائر ديث عجله
ضيقُ شياطين زفتهُ شمأله
ترى الغلامَ ساجياً لا يركله
فوافت الخيل ونحن نشكله

يردى على حوافرٍ لا تخذله
حافٍ وما يحفى وما تتعلله
تنفث منه الخيل ما لا تعزله
كأنَّ تُربَ القاع وهو يسحله
أو خَلَقُ ينشقُّ عنه سمله
يعطيه ما شاء وليس يسأله

ويستحب في الخيل سعة المنخرين. فمن أبلغ ما قيل في ذلك.
قول مزاحم بن طفيل العقيلي:

فجعله خرباً ليكون أوسع

من منخرٍ كوجار الثعلب الخرب

وقال العباس بن مرداس:

ينفثُ عندَ الربو منخرين

مِلءِ الحزامين وملء العين

كنفث كيرين بكفي قين

ومن أبلغ ما قيل في طول عنق الفرس: قول مزاحم العقيلي أيضاً:

كأن هاديه جذعٌ على شرف

فلم يرض أن جعلها جذعا، حتى جعلها على شرف كصنيع الخنساء في قولها:

كأنه علمٌ في رأسه نار

وقلت:

ومزورٍ القميصِ على انشمارٍ

بمعقودِ السراةِ على اندماج

وسائرُ جسمه لمعانَ قار

يُريكُ جبينه لمعانَ بَرَقٍ

ويحكي الخالَ في خدِّ النهارِ

فيشهُ تحتَ جُنحِ الليلِ ليلاً

ويُدبرُ حينَ يُدبرُ في انحدارِ

ويقبلُ حينَ يُقبلُ في سموِّ

ويحضرُ وهو كالمسد المغار

ويُمسكُ وهو كالفدن المعلى

وتتضحُ الثريا في عذارِ

يلوحُ البدرُ منه في جبينِ

وقد أبدع القائل في وصف فرس أبلق أغر فقال:

وكانما لطمَ الصباحُ جبينه

فاقتصَّ منه فحاضَ في أحشائه

إلا أنه أسماء في العبارة وذلك أن اللطم لا يكون إلا على الخد، وضرب الجبين لا يسمى لطمًا، والقصاص يكون بمثل الفعل، فالقصاص باللطم اللطم، لا الخوض في الأحشاء.

وقال ابن دريد وأحسن في وصف الغرة والتحجيل:

كانما الجوزاءُ في أرساغِه

والنجمُ في جبهتهِ إذا بدا

ونحوه قول كشاجم:

قد راحَ تحتَ الصبحِ ليلٌ مُظلم

لو راحَ في السرجِ الأدهم

ضحك اللجينُ على سوادِ أديمه

وكذا الظلامُ تنيرُ فيه الأنجمُ

فكانه ببناتِ نعشٍ مُلَبَّبٌ

وكانما هو بالثريا مُلجَمٌ

وقلت:

عارضتُ فيه النجمُ فوقَ مُطهم

يهوى لطينه هُويَّ الأعقب

ذاوي العسيبِ قصيره ضافي السبي

بِ طويلة صافي الأديم محبب

كالنورِ بينَ العشبِ يبهرُ حسنه

بين الجيادِ إذا بدا في موكب

وتطيرُ أربعهُ به في أبطح

فكانه من طولها في مرقب

صمَّ الحوافرِ شرب صمَّ الصفا

منها الأهلةُ في الصفا والصلبِ

وكانَ غرتهُ تفضضُ وجهه

والنقعُ يذهبهُ وإن لم يُذهب

وكانَ في أكفاله وتليهِ

غسقَ النجومِ فتستطيلُ وترتبي

وكانما الأرساغُ ماءً لم يسئل

والجسمُ كأسٌ مُدامةٍ لم يقطبِ

لم يُطلبِ إلا يفوتُ ويُطلبِ

إلا يفوزُ فلم يخبِ في مطلبِ

والعاصفاتُ حسيرةٌ والبارقا

تُأسيرةٌ في شدةِ المتهلبِ

وكانما يحوي مدارُ حزامه

أحناءَ بيتِ بالعرءِ مطنبِ

وأول من شبه الحافر بالحجارة الأفوه في قوله:

يرمي الجلاميد بأمثالها

ثم قال رؤبة:

يرمي الجلاميد بجلمودٍ مدق

وأبلغ ما وصف به شدة قوائم الفرس ما أنشدناه أبو أحمد، عن ابن دريد، عن الاشنانداي عن الجرمي:

سيانَ تحت طمره وطموره
أكمُ الفلا ومقايِلُ الولدانِ
يطأُ الخَبَارُ فلا يطيرُ غبارُهُ
ويرضُ حافرهُ حصى الحزانِ

يقول: سواءً عنده إذا طما في سيره، أي ارتفع، وإذا طمر أي وثب، الأكم: وهي المرتفعات من الأرض، فيها حجارة وطين، والمقاييل: وهي ملاعب الصبيان، إذا لعبوا بالتراب، فمدوا منه طريقين، بينهما كالجدول، ثم خبأوا خبيئاً فمن أخرجته فقد غلب. والخبار: الأرض السهلة، إذا مشى فيه خفف وطأه، فلم يثر غباراً، وإذا جرى في الحزان وهي الغليظ من الأرض، مكن حافره فرض الحصى. ونحو قول جرير:

ضرم الرقاق مناقل الأجرال

يقول: إذا صار في الرقاق من الأرض، اضطرم من جريه، وإذا صار في الأجرال، وهي مواضع الحجارة، ناقل فيها لتطمئن مواقع حوافره.

وقول الآخر: شادحة تشدخ من أدلاها.

يقول تبعد عن الطريق ولا تبالي سهلاً أخذت أم حزناً.

ومن الفرد الذي لا شبيه له قول ابن المعتز:

ولقد غدوتُ على طمرٍ قادحٍ
ومُحجَلٍ غر اليمين كأنه
رفعت قوائمه غمامة قسطلٍ
متبختزٍ يمشي بكمٍ مُسبَلٍ

وقد أحسن القائل في قوله:

مدى خطوه أقصى مواقع طرفه
وقد قطعت من لونها الشمسُ غُرَّةً
وأولُّه في منعه الخطو آخره
له وحجولاً ثم كالظل سائرُه

وقال ابن المعتز:

تمت له غُرَّة كالشمسٍ مُشرِقةً
إذا تقرَّط يوماً بالعدارِ وغدا
يكادُ سائلها عن وجهه يكفُ
كأنه عادةٌ في أذنها شَنَفُ

وقلت:

إذا تحلَّى بالعدارِ ومشى
قلت فتاةً تتصدى لفتى

دَرَّ عليها الزَّهْرُ أَخْلَافَ الحيا

كأنه تحت الحلي رَوْضَةٌ

وأبلغ ما قيل في طول الفرس في الهواء قول أبي دؤاد:

أناخ بهاد مثل جذع سَحُوقٍ

إذا ما جرى شأوينِ وابتلَّ عطفُهُ

تعلق بزبي عند بيض أنوق

كأنني إذا عاليتُ حوزةَ منتَه

وبيض الأنوق في أعلى موضع من الجبل، فلا ترى أشد مبالغة من هذا البيت.

وقلت:

تخاله يمشي على أرماح

مُضْطَرَمُّ الغدوِّ والرَّواح

وأخبرنا أبو القاسم، عن العقدي عن أبي جعفر، عن المدائني قال: أهدى رجل من الدهاقين إلى خالد بن عبد الله القسري برذونا وقعد بين يديه فقال ما هذا؟ فقال:

أطوعُ من عنانه إذا جُذِب

أسرع من لحظته إذا عدا

ويشبه الفرس في عدوه بالنار فأجمع ما جاء فيه قول ابن المعتز:

لاحقٌ بالمهاديات طِمْرُ

ربما أغدو وتحتي طِرْفُ

مثل ما يطوي القباطي تجر

طُوي الشحمُ على منتنيه

مستطيرٌ وحصى الأرض جمرُ

فهو نارٌ والترابُ دُخانُ

وقال:

سوابقُ أحكمتهنَّ المضاميرُ

وكم غدوت بفتيانٍ تسيل بهم

كما يشقُّ عن الطلع الكوافير

مكنفاتٍ بأذانٍ نواصيها

كما يطيرُ من الذعرِ العصافيرُ

تنزو كراتهمُ في كل مُعترك

وقوله: تسيل بهم سوابق من أجود ما وصف به الجري السهل. ويستحب في الفرس الشدق، وهو سعة الشدقين فمن المذكور في ذلك قول بعض العرب:

وان يُلقِ كلبٌ بين لحبيه يذهب

ومن مליح ما قيل فيه قوله ابن المعتز:

شمها واسترطا

ناظر في غرة

يدَه والتقطا

وإذا سار رمي

وكان ملجمه

يفتحان سبطا

وقال:

وغدونا بأعنة خيل

تأخذُ الأرضُ بأيدي عجالٍ

زينتها غررٌ ضاحكاتٌ

كبدورٍ في وجوه الليالي

ومن غريب التشبيه، تشبيههم قوائم الفرس المحجلة عند السير، بجراء كلاب بيض. قال الراجز:

كان إجراء كلاب بيض

دون صافيه إلى التعريضِ

وقال العماني الراجز:

كان تحت البطن منه أكلباً

بيضاً صغاراً ينتهشن المنقبا

وتبعه الحماني فقال:

وليل مثل خافية الغراب

عيي مذهب وخفي باب

دلفت له بأسود مستمر

كما نظر الغضاب إلى الغضاب

أجش كأنما قابلت منه

تبعق لجة وحريق غاب

تراه كأن عينك لا تراه

إذا وصل الوثاب إلى الوثاب

كان لدى مغابنه التماعاً

تهارش عنده بقع الكلاب

وليس نظم هذا البيت بمختار، وذكر قوائمه ثم قال:

يخالس بينها رفعا ووضعاً

كما خفقت بنانك بالحساب

ومن أحسن ما قيل في الحصى الذي يترامى بسنك الفرس إذا جرى قول امرئ القيس:

كان الحصى من خلفها وأمامها

إذا نجلته رجليها حدف أعسرا

وجعله أعسر لذهابه على غير استواء، أخذه ابن المعتز فقال وغير لفظه وأتى بمعناه:

يقذف بالرجل حصى الطريق

كأنه رام بلا تحقيق

وقال:

ينفي خفاف الحصى والنقع منتشر

كأنها خلف رجليه الزنابير

وقد أجاد الكمييت في قوله:

كان الحصى المعزاء بين فروعها

نوى الرضخ يلقي المصعد المنتصوب

فجعلها لكثرتها تتلاقى في الهواء، وزاد في ذلك على الممزق ومنه أخذه وهو قوله:

كأن حصى المعزاء بين فروعها

وقد أجاد الراجز في قوله:

يرضخ ما يرضخ ما لا يرضخ

يقول، إذا وطأ الحصى، نبت من تحت سنبكه، فأصاب ما لم يطأه فدفعه من موضعه، وكأن رضخه أي رمحه والرضخ الرمح. ويشبه الحافر بالقعب، فمن قديم الشعر في ذلك قول امرئ القيس:

لها حافر مثل قعب الوليد

أخذه ابن المعتز فقال:

مُسومَّ يعبوب

كالقدح المكبوب

عن موضع التقطيب

قد اغتدي بقادح

ينفي الحصى بحافر

قد ضحكت غرته

وقد أحسن أبو تمام في قوله:

وأشاعرٍ شعرٍ وحلقٍ أحلق

بحوافرٍ حُفرٍ وصلبٍ صلب

فجعل البيت كله تجنيساً ولعله ما سبق إلى ذلك. وقد عاب الآمدي قوله: وصلب صلب، وقوله وحوافر حفر، وقال: إن الحوافر لا تحفر الأرض، وأكثر ما ذكر في ذلك، أنها تثير الغبار قال: وهو استقصاء المعنى، قلنا: وبعضهم يستحسن ذلك وبعضهم يكرهه.

ومن المذكور في صفة الفرس، قول البحترى، وهو أوصف المحدثين للخيل، وأكثرهم إجادة في نعتها:

وكفى بيومٍ مُخبراً عن عامه

سبقاً وكاد يطيرُ عن أوهامه

جاءت مجيءَ البدرِ حين تمامه

جنباته فأضاء في إظلامه

عذباتُ أثلٍ مالٍ تحت حمامه

بهما يرى الشخصَ الذي لأمامه

ردفٌ فلست تراه من قدامه

للخيزرانٍ مُناسبٍ بعظامه

أما الجوادُ فقد بلونا يومه

جارى الجيادَ فطارَ عن أوهامها

جدلانُ تلطمهُ جوانبُ غرّة

واسودَّ ثم صفتَ لعيني ناظرٍ

مالت نواحي عُرفه فكأنها

ومقدّم الأذنين تحسبُ أنه

وكان فارسه وراء قذاله

لأنت معاطفه فخيّل أنه

وكانَ صَهْلَتَهُ إِذَا اسْتَعْلَى بِهَا

مِثْلَ الْغُرَابِ بَدَا يِبَارِي صَحْبَهُ

وَالطَّرْفُ أَجْلِبُ زَائِرٌ لِمَوْوَنَةٍ

وقوله أيضاً:

وَأَعْرَفَ فِي الزَّمَنِ الْبَهِيمِ مُحَجَّلٍ

كَالْهَيْكَلِ الْمَبْنِيِّ إِلَّا أَنَّهُ

ذَنْبٌ كَمَا سَحَبَ الرِّدَاءَ يَذْبُ عَنْ

جَذْلَانٍ يَنْفُضُ عُدْرَةَ فِي غُرَّةٍ

تَتَوَهَّمُ الْجُوزَاءُ فِي أَرْسَاغِهِ

وَتَرَاهُ يَسْطَعُ فِي الْغُبَارِ لَهَيْبُهُ

هَزَجَ الصَّهِيلِ كَأَنَّ فِي نَعْمَاتِهِ

مَلَكَ الْعُيُونِ فَإِنْ بَدَا أُعْطِينَهُ

وقد أحسن ابن طباطبا في قوله:

عجباً لشمسٍ أشرقت في وجهه

وإذا تمطر في الرهان رأيتُهُ

وقال ابن المعتز:

تحلمني طرفةً

ترضيك في يومها

ورجلها تقنضي

ويأسناد لنا أن رجلاً أنشد أبا البيداء قول أبي نخيلة:

لما رأيت الدينَ ديناً يُؤفكُ

تُفَنقُ من أعراضها وتهتكُ

منها الدَّجُوجِيُّ ومنها الأرمكُ

فقال: لعنك الله، إن كنت أنشدتها، وأنت على غير وضوء، قوله:

رَعْدٌ يَقَعُّ فِي أزدحامِ غَمَامِهِ

بسوادِ صِبْغَتِهِ وَحُسْنِ قَوَامِهِ

ما لم يزره بسرجه ولجامه

قد رُحِتْ مِنْهُ عَلَى أَعْرَ مُحَجَّلٍ

فِي الْحُسْنِ جَاءَ كَصُورَةٍ فِي هَيْكَلٍ

عُرْفٍ وَعُرْفٌ كَالْقِنَاعِ الْمَسِيلِ

يَقِقُ تَسِيلُ حُجُولُهَا فِي جَنْدَلٍ

وَالْبَدْرُ غُرَّةٌ وَجْهَهُ الْمُتَهَلِّلِ

لُونًا وَشَدًّا كَالْحَرِيقِ الْمُشْعَلِ

نَبْرَاتٍ مَعْبَدَةٍ فِي التَّقِيلِ الْأَوَّلِ

نَظَرَ الْمَحَبِّ إِلَى الْحَبِيبِ الْمَقْبَلِ

لم تمح منه دجى الظلام المطبق

يجري أمامَ الريحِ مثلَ مطرَقٍ

صَادِرَةٌ وَارِدَةٌ

وهي غداً زائده

ويدها جاحده

وَأَمْسَتْ الْقَبَّةُ لَا تَسْتَمْسِكُ

سَرَتْ مِنْ الْبَابِ فَسَارَتْ دَكْدَكُ

كَاللَّيْلِ إِلَّا أَنَّهُا تَحْرُكُ

كالليل إلا إنها تحرك

استثناء عجيب.

وقال ابن المعتز:

كعنفود كرم بين غصنين نوراً
عسيباً كعيص الطود لما تحدرأ

إذا ما بدا أبصرت غرة وجهه
وردفأ كظهر الترس أسبل خلفه

ومما يجري مع ذلك قول بعضهم:

على جياذ كتماثيل الصور

قد أشهد الليل بفتيان غرر

أو سمر الفارس فيها فانسمر

كأنما خيطوا عليها بالإبر

وبإسناد لنا أن محمد بن عبد الله بن طاهر، أرق ذات ليلة فقال لكاتبه: أنائم أنت؟ قال: لا وأيد الله الأمير، قال: ما أطيب الطعام؟ قال: طعام شهوة في إبان جوعة، قال: فما ألد الشراب؟ قال شربة ماء بارد تطفئ بها غليلك، أو كأس تعاطي بها نديمك، قال: فما أشهى النساء؟ قال التي تدخل إليها والهأ وتخرج عنها هارباً، قال: فما أجود الخيل؟ قال: الأسوق الأعنق، الذي إذا طلب لحق وإذا طلب سبق وإذا سهل أطربك، وإذا بدا أعجبك. قال: صدقت لله درك، اعطه يا غلام ألف دينار، قال أصلح الله الأمير وأين تقع مني ألفا دينار؟ قال أو زدت نفسك ألفاً قال أو ليس كذا؟ قال لا ولكن حقق ظنه يا غلام. فأعطاه ألفي دينار.

وقيل لأعرابي: أتعرف الجواد المبرز، من البطيء المقرف، قال: نعم، أما الجواد المبرز، فهو الذي لهنز لهنز العير، وأنف تأنيف السير، إذا عدا اسلهب، وإذا انتضب اتلأب، والبطيء المقرف، هو المدلوك الحجة، القحم الأرنبة الغليظ الرقبة، الكثير الجلبة، الذي إذا قلت: أمسكه، قال: أرسلني، وإذا قلت: أرسله قال: أمسكني.

وقال المهدي لمطر بن دراج: أي الخيل أفضل؟ قال: الذي إذا استقبلته قلت: نافر، وإذا استدبرته قلت: زاجر، وإذا استعرضته قلت: زافر، قال: فأبي البراذين خير؟ قال: ما طرفه أمامه، وسوطه عنانه، قال: فأبي البراذين شر؟ قال: الغليظ الرقبة، الكثير الجلبة، إذا أرسلته قال: أمسكني وإذا أمسكته قال: أرسلني. ووصف رجل من العرب خيلاً فقال: إنها خليقة للجودة، وآية ذلك إنها سامية العيون، لاحقة البطون، مصغية الآذان، افتاء الأسنان ضخام الركبات، مشرفات الحجبات، رحاب المناخر، صلاب الحوافر، وقعها تحليل، ورفعها تعليل، وإن طلبت فانت، وإن طلبت نالت.

واستوصف الحجاج ابن القرية فرساً، فقال: طويل الثلاث، قصير الثلاث، حديد الثلاث، رحيب الثلاث، صليب الثلاث، عريض الثلاث، منيف الثلاث، أسود الثلاث. فاستفسره، فقال: طويل العنق والسيب والساق، قصير الظهر والعسيب والشعر، حديد القلب والسمع والمنكب، رحيب المنخرين والشدقين والجوف، صليب الدخيس والكاهل والعجب، عريض اللباب والحجبة والخذ، منيف الجوانح والقذاب والقوائم، أسود الذكر والحافر والعين. وقال محمد بن منذر في وصف فرس:

وفيا واستوفيا قدّاً بقَدّ

وإذا أعرضَ قطريه لنا

كفُّ باريه فما فيه أودّ

فهو كالقذح أقامت درأه

ووصف النظام فرساً فقال: هو صافي القميص، جيد الفصوص، ووثيق القصب، نقي العصب، ييوع بيديه ويندس برجليه، ويشير بأذنيه، ويعد مدى بصر عينيه، يلحق الأرنب في الصعداء، ويجاوز الظباء في الاستواء، إن حرّكته طار، وإن زجرته حار، وإن طرحت عنانه سار كموج في لجة، أو سيل في فجوة، وإن جد علفاً أمعن وإن فقدته ضغن. وأنفذ جعفر بن يحيى إلى أبيه برذوناً وكتب له: قد بعثت إليك برذون لين المرفوع، وطيء الموضوع، حسن المجموع طويل العذار، أمين العثار. ومما يجري مع ذلك ما أخبرني به أبو أحمد، عن أبيه قال: حدثني أحمد ابن طاهر أنه كتب إلى الحسن بن علي بن يحيى يستهديه لجاماً لحماره:

لَهُ سَرَجٌ وَلَيْسَ لَهُ لِجَامٌ

جُعِلَتْ فِدَاكَ قَدْ أَمْسَى حِمَارِي

لَهَا حَلِيٌّ وَلَيْسَ لَهَا نِظَامٌ

كَمِثْلِ الْعَاطِلِ الْحَسَنَاءِ أَمْسَتْ

ثم قال:

وأنت لكل ناقصة تمام

الفصل الثاني من الباب العاشر

ذكر الإبل وسيرها

وما يجري مع ذلك من وصف أحوالها

أطرف ما قيل في صفة الإبل قول القطامي:

يمشِين رَهْوَاً فِلا الأَعْجَازُ خاذِلَةٌ
ولا الصُدُورُ على الأَعْجَازِ تَتَكَلُّ
فَهِنَّ مَعْتَرِضَاتٌ وَالْحَصَى رَمِضٌ
والرِيحُ ساكِنَةٌ وَالظِّلُّ مَعْتَدِلٌ

قالت العلماء: لو كان البيت الأول في صفة النساء لكان أحسن وذلك لما رأوا من تمام حسنه وظريف لفظه. والبيت الآخر هو من أبلغ ما قيل في صفة هاجرة. ومن مליح ما قيل في ضمير الناقاة قول ابن الخطيم:

وقد ضَمَرْتُ حَتَّى كَأَنَّ وَضِيئِهَا
وشاخُ عروسِ جالٍ مَناها على خَصرِ

ويشبهه الزمام بالحية فمن أول ما قيل في ذلك قول الشاعر:

يَعالِجُ مَثى حَضْرَمِي كَأَنَّهُ
حِبابِ نِقا يَنْتَلُوهُ مَرْتَجِلٌ يَرْمِي

وقال ذو الرمة:

رَجِيعةُ أَسْفارِ كَأَنَّ زَمامِها
شِجاعِ على يَسْرِى الذِراعِينِ مَطْرَقِ

أخذه المتنبي فقال:

كَأَنَّ على الأَعناقِ مَناها الأَفْاعِيا

ومن أجود ما قيل في ضمير الابل قول الفرزدق:

إِذا ما أُنِيختُ قَابِلتُ عَن ظَهورِها
حِراجِيجِ أَمثالِ الأَهْلَةِ تُسَفِّ

شبهها بالأهلة لضمرها واحديداها.

وتشبه بالقسي، فمن أجود ما قيل في ذلك وأجمعه قول أبي عبادة البحرني:

وِخْدانِ القِلاصِ حِوالاً إِذاقا
بَلَنَ حِوالاً مَن أُنْجَمِ الأَسْجارِ

يَتَرَقِرْنَ كَالسَّرابِ وَقَدْ خَضْنَ

غَماراً مَن السَّرابِ الجارِ

كَالقِسيِّ المُعْطَفاتِ بِلِ الأَسْهَمِ

مِريَّةً بِلِ الأوتادِ

وقال ابن دريد:

أَلْيَّةٌ بِالِيعْمَلاتِ يَرْتَمِي
بِها النِجاءُ بَينَ أَجوازِ الفِلا

خِوصِ كَأَشْباحِ الحِنايِ ضَمَّرَ

يَرْسُبُنَ في بَحْرِ الدُّجى وَفي الضَحى

ومن غريب ما قيل في عين الناقاة قول ذي الرمة:

كَأَنما عَينِها مَناها وَقَدْ ضَمَرْتُ
وَضمَها السَيرِ في بَعْضِ الأَضى مِيمُ

فشبهها بالميم لاستدارتها وغورها، والأضى: الواحدة أضاة وهي الغدير، وقد قصر بذى الرمة علمه بالكتابة.

أخبرنا أبو أحمد، عن الصولي عن العلاء بن عبد الله بن الضحاك، عن الهيثم بن عدي قال: قرأ حماد الرواية على ذي الرمة شعره، فرآه ترك في الخط لأمأ، فقال له ذو الرمة: أكتب لأمأ فقال حماد: وإنك لتكتب، قال: لا أكتب عليك فإنه كان يأتي باديئنا خطاط فعلمنا الحروف تخطيطاً في الرمل في الليالي المقمرة فاستحسنتها فثبتت في قلبي ولم تخطها يدي. ودخل أبو تمام على المأمون في زي أعرابي فأنشده:

دَمِنَ أَلَمٌ بِهَا فَقَالَ سَلَامٌ كَمَ حَلٌّ عَقْدَةً صَبْرِهِ الْإِلَامُ

فجعل المأمون يتعجب من غريب ما يأتي به من المعاني ويقول ليس هذا من معاني الأعراب. فلما انتهى إلى قوله:

هُنَّ الْحَمَامُ فَإِنْ كَسَرْتَ عِيَاةً مِنْ حَائِهِنَّ فَإِنَّهِنَّ حِمَامُ

فقال المأمون: الله أكبر كنت يا هذا قد خلطت علي الأمر منذ اليوم، وكنت حسبتك بدوياً، ثم تأملت معاني شعرك فإذا هي معاني الحضريين وإذا أنت منهم فقصر به ذلك عنده. وقال أبو نواس في وصف الناقة:

وَلَقَدْ نَجَوْتُ فِي الْفَلَاةِ إِذَا صَامَ النَّهَارُ وَقَالَتْ الْعُفْرُ

شَدْنِيَّةٌ رَعَتْ الْحَمَى فَانْت مَلءَ الْجِبَالِ كَأَنَّهَا قَصْرُ

أخذه من قول عنتره:

فَدَنْ لَأَقْضِي حَاجَةَ الْمُتَلَوِّمِ

فَوَقَفْتُ فِيهَا نَاقَتِي وَكَأَنَّهَا

إِلَّا أَنْ بَيْتَ أَبِي نَوَاسٍ أَحْسَنَ رِصْفًا.

وذكر ذنب الناقة فقال:

فَتَقُولُ رَنْقٌ فَوْقَهَا نَسْرُ

أَمَا إِذَا رَفَعْتَهُ شَامِذَةً

فَتَقُولُ أُسْبِلُ خَلْفَهَا سِتْرُ

أَمَا إِذَا وَضَعْتَهُ عَارِضَةً

أخذه من قول أبي دواد:

قَوَادِمٍ مِنْ نَسُورٍ مُضْرِحِيَاتٍ

وليس بيت أبي دواد شيئاً مع بيت أبي نواس.

ثم قال:

مترسماً يقتاده أثرُ

فوق المقادم ملطّم حُرُ

بعض الحديث بأذنه وقرُ

وتسفُ أحياناً فتحسبها

فإذا قصرت لها الزمام سما

وكأنها مُصنغٌ لتسمعهُ

ومن أجود ما قيل في تقدم الناقة في السير قول القطامي:

ومن عرابٍ بعيدياتٍ من الحادي

ألمعن يقصرن من بخت مخيسة

أي يسبقن الحادي فيبعدن عنه.

ثم قال أبو نواس وأحسن.

صَفُّ تَقْدَمِهِنَّ وَهِيَ إِمَامُ

تَذَرُ الْمَطِيَّ وَرَاءَهَا فَكَأَنَّهَا

وأحسن ابن المعتز في قوله:

هَمَّ إِذَا نَامَ الْوَرَى سَرَى بِهَا

وَنَاقَةٌ فِي مَهْمِهِ رَمَى بِهَا

كسَطَرَ بِسْمِ اللَّهِ فِي كِتَابِهَا

فَهِيَ أَمَامَ الرِّكْبِ فِي ذَهَابِهَا

ومن مصيب التشبيه في موطىء الناقة قوله أيضاً:

خَبَاءٌ فَوْقَ أَطْرَافِ الرِّمَاحِ

تَلْقَى الْفَلَاةَ بِخَفِّ نَهْضَتِهِ رَفَعْنَا

وقوله في ارتفاع الناقة في الهواء وعظمتها:

خَبَاءٌ فَوْقَ أَطْرَافِ الرِّمَاحِ

كَأَنَّ عِنْدَ نَهْضَتِهِ رَفَعْنَا

ومثله قوله أيضاً:

وَقَبُّ أَنْفٍ بِشَاهِقٍ لَمْ يُحَلِّ

تَرْنُو بِنَازِرَةٍ كَأَنَّ حِجَاجِهَا

أَثَارُ مَسْقَطِ سَاجِدٍ مُتَبَتِّلِ

وَكَأَنَّ مَسْقَطَهَا إِذَا مَا عَرَّسَتْ

مَسْرَى الْأَسَاوِدِ فِي دِهَاسِ أَهْيَلِ

وَكَأَنَّ أَثَارَ النَّسْوَعِ بِدَفِّهَا

كَعَسِي نَخْلٍ خَوْصُهُ لَمْ يَنْجَلِ

وَيَشْدُ حَادِيهَا بِحَبْلِ كَامِلِ

وقال أيضاً:

تَرَكْنَ أَفَاحِيصَ الْقَطَا فِي الْمُبَارِكِ

كَأَنَّ الْمَطَايَا إِذْ غَدَوْنَ بِسَحْرَةٍ

ثم قال وهو من أجود ما قيل في سمن الإبل:

حَمَلْنَ التَّلَاعَ الْجَوَّ فَوْقَ الْحَوَارِكِ

لَنَا إِبِلٌ مَلَأَ الْفُضَاءَ كَأَنَّمَا

وقد أحسن القائل في وصف سرعتهم حيث يقول:

خُوصٌ نَوَاجِ إِذَا حَثَّ الْحَدَاةُ بِهَا

حَسَبْتَ أَرْجُلَهَا قَدَامَ أَيْدِيهَا

وذكر دعبل بن علي الخزاعي أن قاتل هذا البيت القضيبي لم يقل بيتاً جيداً سواه وكان يقول الشعر ستين سنة.

وأخذه ابن المعتز فقال:

تَخَالَ آخِرُهُ فِي الشَّدِّ أَوْلَهُ

وَفِيهِ عَدُوٌّ وَرَاءَ السَّبْقِ مَذْخُورٌ

وقد أحسن مسلم في قوله:

إِلَى الْأَمَامِ تَهَادَانَا بِأَرْحَلِنَا

خَلَقَ مِنَ الرِّيحِ فِي أَشْبَاحِ ظُلْمَانِ

كَأَنَّ أَفْلَاتَهَا وَالْفَجْرُ يَأْخُذُهَا

أَفْلَاتٌ صَادِرَةٌ عَنِ قَوْسِ حَسْبَانِ

وقال آخر:

كَأَنَّ يَدَيْهَا حِينَ بَجْرِي ضَفُورِهَا

طَرِيدَانِ وَالرَّجْلَانِ طَالِبَتَا وَتَرِ

ومن بليغ ما جاء في ذلك قول ابن المعتز:

زَجَرْتُ بِهَا سَبَاحَ قَفْرِ كَأَنَّهُ

يَخَافُ لِحَاقًا أَوْ يِبَادِرُ أَوْ لَا

تَوَارِثُهُ الْإِيْجَافُ حَتَّى كَأَنَّهُ

لَمِيسُ ضَنْىِ أَعْيَا الطَّبِيبِ الْمَعْدَلَا

ومن بديع ما جاء في ذلك قول رؤبة بن العجاج:

كَأَنَّ أَيْدِيَهُنَّ بِالْقَاعِ الْفَرْقُ

أَيْدِي الْعِذَارَى يَتَعَاطِينَ الْوَرَقِ

وقد أحسن أبو الشيص في قوله:

وَلَيْلٌ يَرَكِبُ الرِّكْبَا

نُ فِي أَمَوَاجِهِ الْخَضْرِ

تَوَكَّلْتُ عَلَى أَهْوَا

لَهَا بِإِلَهِ الصَّبْرِ

وَأَعْمَالِ بَنَاتِ الرِّي

حِ فِي الْمَهْمَةِ الْقَفْرِ

شِمَالِيْلٍ يَصَافِحْنَ

مُتَوْنَ الصَّخْرِ بِالصَّخْرِ

بِإِيْجَافٍ يَقْدُ اللَّي

لٍ عَنِ نَاصِيَةِ الْفَجْرِ

وقلت:

لَنَا هِجْمَاتٌ تَنْتَنِي سُرُوتَاهَا

بِأَسْنَمَةٍ مِثْلِ الْأَكَامِ سَوَامِقِ

خَبِطْنَ الرِّبِيْعَ وَانْتَسَفْنَ نَبَاتَهُ

كَمَا مَرَّتِ الْأَجْلَامُ فَوْقَ الْمَفَارِقِ

بناها بناء البيت جون رواعدُ
تدورُ بأحقيها البروقُ وتنتهي

وقال ابن المعتز:

تجيء على آثارِ جونِ بوارق
كأنَّ عليها مذهباتٍ مناطقِ

وليل ككحل العينِ خُضتُ ظلامهُ
وطيَّارةٍ بالرحلِ صرفٍ كأنما

وقلت:

بأزرقَ لماعٍ وأخضرَ صارمٍ
تصافحَ رضراضَ الحصىِ بجماجمِ

وليلةٍ خبِطت من ظلماتها
قد انبرَى يعترف السير بنا
ينهى الوجى أمثاله عن السرى

ومن مصيب التشبيه قول الراعي:

بنازح الخطوِ إذا الخطوُ دنا
في طرقٍ يخبط فيهنَّ الهدى
وساعدته مِيعَةٌ تنهى الوحي

في مهمهٍ قلقتُ بها هاماتها

وقول الآخر:

قلقَ الفؤوسِ إذا أردنَ نصولا

حمرأً من نسلِ المهاري نسلها
حسبتهَا غيرَى استنقزَ عقلها

إذا ترامت يدها ورجلها
أتى التي كانت تخافُ بعلمها

أي كأنها من عملها بيديها ورجليها وسرعة تحريكها إياهما غيرى تخاصم وتشير بيديها لا تفتري: وقلت:

ومهمهٍ قلقتُ فيها فيها ركائبنا

والليل في قلق تسري ركائبهُ

ركبته فكأنَّ الصبح راكبه

وجبته فكأن النجم جائبهُ

بكل ذي مِيعَةٍ جدَّ الوجيف به

فانهدَّ غارِبُهُ وانضم حالبه

وبات ينهب جنحَ الليل في عجل

كأنه لآعبٌ طابت ملاعبه

حتى بدا الصبحُ مُبيضاً ترائبه

وأدبرَ الليلُ مخضراً شواربه

وإنما النجحُ في ليلٍ ترادفه

إذا تأوَّبَ أو صبحَ يواكبه

وساهر الليل في الحاجات نائمه

وذاهب المال عند المجد كاسبه

وقال أبو تمام:

عريكته العلياءُ وانضمَّ حالبه

على كلِّ روادِ المِلاطِ تهدمتُ

رَعْتَهُ الْفِيَّافِي بَعْدَ مَا كَانَ حَقْبَةً

وقلت:

رعاها وماء الروضِ ينهل ساكبة

واستنهضتكَ إِلَى الْمَأْتَرِ وَالْعَلَا

هَمٌّ تَخَالُ زَهَاؤُهُنَّ جِبَالَا

أَرَدَفَهُنَّ عَزَائِمًا فَكَأَنَّمَا

أَرَدَفْتُ مُرْهَفَةَ النَّصَالِ نَصَالَا

حَمَلْتَهَا قَلْصُ الرُّكَّابِ كَأَنَّهَا

قُلْصُ النَّعَامِ إِذَا اتَّبَعْنَ رِيَالَا

مَهْرِيَّةٌ أَوْ دَى السَّفَارِ بِنَحْضِهَا

فَتَخَالُهَا تَحْتَ الرِّجَالِ رِحَالَا

وقال مسلم:

إِلَيْكَ أَمِينُ اللَّهِ رَامَتْ بِنَا السَّرَى

بِنَاتِ الْفِيَّافِي كُلِّ مَرَّةٍ وَفَدَفِدِ

أَخَذُنَّ السَّرَى أَخَذَ الْعَنِيفِ وَأَسْرَعَتْ

خُطَاهَا بِهَا وَالنَّجْمُ حَيْرَانٌ مَهْتَدِي

لِبَسْنِ الدَّجَى حَتَّى نَضَتْ وَتَصَوَّبَتْ

هُوَادِي نَجُومِ اللَّيْلِ كَالدَّحْوِ بِالْيَدِ

وهذه استعارة بديعة حسنة عجيبة الموقع جداً.

وقال أبو نواس:

يَكْتَسِي غُثُونُهُ زَبْدًا

فَنَصِيْلَاهُ إِلَى نَحْرِهِ

ثُمَّ يَعْتَمُّ الْحَجَّاجُ بِهِ

كَاعْتِمَامِ النَّوْفِ فِي عَشْرِهِ

ثُمَّ تَذْرُوهُ الرِّيحُ كَمَا

طَارَ قَطْنُ النَّذْفِ عَنْ وَتْرِهِ

ومن فصيح الكلام قوله في هذا المعنى:

نَفَحْنَ اللَّغَامَ الْجَعْدَ ثُمَّ ضَرَبْنَهُ

عَلَى كُلِّ خَيْشُومٍ كَرِيمٍ الْمَخْطَمِ

وقال الشماخ بن ضرار:

كَأَنَّ ذُرَاعِيهَا ذُرَاعَا مُدَّةٍ

بُعِيدِ السَّبَابِ حَاوَلَتْ أَنْ تَعْذُرَا

مِنَ الْبَيْضِ أَعْطَافًا فَإِذَا اتَّصَلَتْ دَعَتْ

فِرَاسَ بَنِ غَنَمٍ أَوْ لَقِيْطَ بَنِ يَعْمُرَا

بِهَا شَرِقٌ مِّنْ زَعْفَرَانٍ وَعَنْبِرٍ

أَطَارَتْ مِنَ الْحَسَنِ الرِّدَاءِ الْمُحْبَرَا

تَقُولُ وَقَدْ بَلَّ الدَّمُوعَ خَمَارَهَا

أَبَتْ عَفْتِي أَوْ مَنْصِبِي أَنْ أُعْيِرَا

كَأَنَّ بَذْفِرَاهَا مَنَادِيلٌ فَارَقَتْ

أَكْفَ رِجَالٍ يَعْصُرُونَ الصَّنُوبِرَا

وقال الراجز:

كأنها نائحة تُرجعُ

تبكي بشجوٍ وسواها الموجعُ

وهو نحو قول الراجز:

حسبتهَا غيرى استفزَّ عقلها

مفجعةٌ لاقت حلائلَ من عُفرِ

كأن ذراعها ذراعاً بذية

فلا شيء يفرى باليدين كما تفري

سمعن لها استفزعت من حديثها

فوصفها بألمها بذية قد أوجعت. نيل منها، ولقيت حلائلها عن عُفر، أي بعد زمان، وتلك الشكوى في نفسها فجعلت تحدث وتحرك يديها في حديثها، فلا تكاد تسكنهما.

قال أبو تمام:

جمر الغضا الجزل إلا السيرُ والابلُ

فما صلاتي إذا كان الصلاءُ بها

والهادياتك هي الشرذُّ الضللُ

المرضياتك ما أرغمت أنفها

قال البحترى:

صبغُ الشَّبَابِ على القَدَالِ الأشيبِ

والعيسُ تتصلُّ من دُجَاهُ كما انجلى

قال ابن المعتز:

فافِ المطايا والظلُّ مُعتدلُ

لم تزلْ نخبِطُ الفلاةَ بأخ

على أكفِّ الرياحِ ينتقلُ

كأنما طارَ تحتنا قَزَعُ

يَطعنُ بيضَ الجوانحِ الأسَلُ

يفري بطونَ النقا النقي كما

وقال في الناقة:

عَطَفْتُ يَدُ الجاني ذُرَى العُصنِ

تُصغي إلى أمرِ الزَّمَامِ كما

وقال في لقاح:

وإن تستغثِ ضراتهنَّ به ذابا

حواملُ شَحْمِ جامدٍ فوقَ أظهرِ

كما سَلَّ خيَطُ من سدى الثوبِ فانسابا

إذا ما مكاءِ الدرِّ جاءتِ بمتعب

وهذا في دقة الشخب حسنٌ جداً:

كما عصرت أيدي الغواسلِ أثوابا

رأيتُ أنهما رَ الدرِّ فوقَ فُروجِها

تُحملُ كُتباناً من الرَّمْلِ أصلابا

خوازنُ نحضِ في الجلودِ كأنها

وقد أحسن في الناقة والزمَام:

يخطمُ الريحُ بثعبانٍ

وسلَّ البيداءَ عن رَجُلٍ

وقال:

ويأمرُها وحيُّ الزمَامِ فترقُلُ

وقَفَّتْ بها عَيْسِي تطيرُ بزجرِها

يُدُّ الخِصمَ حقاً عند آخرِ يُمطلُ

طلوباً برجليها يديها كما اقتضتُ

وقال بعض العرب:

كما نَقَدَ الدرهمَ الصيرفُ

تطيرُ مناسمُها بالحصي

ومن غريب ما قيل في تقدم الناقة صواحبها في السير قول بعض العرب:

يَنسُلُ منهنَّ إذا تدانينُ

جاءَ وقد ملَّ ثَوَاءَ البحرينِ

مِثْلَ انسِلالِ الماءِ من جَفنِ العينِ

وأبلغ ما قيل في غزر الناقة قول أبي حية:

يَمَلُّ مسكَ الفيلِ لو أتاها

تدرُّ للعصفورِ لو مراها

ومن جيد ما وصف به سعة الاخلاف قول ابن لجأ:

من نخرِ الطلحِ مُجَوِّقاتها

كأنما نصتَ إلى ضرَّاتها

وقول مسلم بن الوليد في غير هذا المعنى:

عليها فتى كالنصلِ يونسهُ النصلُ

أنتك المطايا تهتدي بمطيةٍ

وقال أبو نواس:

إلى دُفِّ مِقلاقِ الوضينِ سَعومِ

أيا حبذا عَيْشُ الوجدِ وضجعةً

تحيفُ من أقطارِها بقَومِ

ترامى بها الايجافُ حتى كأنها

وأخبرنا أبو أحمد، عن أبي بكر، عن أبي حاتم، عن الأصمعي، عن أبي عمرو، قال: سمعت جندل بن

الراعي ينشد بلال بن أبي بردة:

بُويزلُ عامٍ أو سديسٌ كَبازلِ

نعوسٌ إذا درتَ جرورٌ إذا غدت

قال: فكاد صدري ينفرج من جودتها حتى كتبتها. ودرة الإبل مع النعاس، والغنم تدر مع الاحتراس، فمن

أجود ما قيل في ذلك: قول جبيها الأشجعي:

لتنحاشَ من قاذورةٍ لم تناكر

رقودٌ لو أنَّ الدُفَّ يُضربُ تحتها

أي من قاذورة فيها، يقال: رجل قاذورة، إذا كان يتجنب النساء ويتقي مجامعتهن. ومن الوصف الحسن قول القطامي في نوق:

جفارٌ إذا صافتْ هضابٌ إذا شئتُ وفي الصيفِ يرُدُّدُنَ المياهَ إلى العشرِ

يشبهها بالآبار، من كثرة ألبانها، في أيام الربيع والقيظ، وهي في الشتاء كالهضاب سمناً، وإذا شربت في اليوم العاشر، التقت في مثله وفي كروشها بقية من الماء. وعرض شريح ناقة للبيعن فقال له المشتري: كيف لبنها؟ قال احلب في أي إناء شئت، قال فيكيف الوطاء؟ قال: افرش ونم، قال فكيف قوتها؟ قال احمل على الحائط ما شئت، قال فكيف نجارها؟ قال علق سوطك وسر. فاشترها فلم ير شيئاً مما توهمه بصفة شريح فعاد إليه فقال: لم أر شيئاً مما وصفت. قال: ما كذبتك قال فأقلني قال نعم فأقاله: وأنشد أبو أحمد رحمه الله:

جاءت تهادي مائلاً ذراها
تحنُّ أولاهها على أخراها
مشي العروس قصرت خطاها
فاسمطت القيعان من رغاها
واتخذتنا كلنا طلاها

يقول: إنها كبيرة غزيرة، إذا مشت سالت ألبانها، فايضت القيعان منها. والرغا: جمع رغو، واتخذتها كلنا طلاها أي لشربنا ألبانها كأننا أولادها.

ومن أجود ما قيل في ارتفاع الإبل وارتفاع اسنمتها قول أبي دؤاد:

فإذا أقبلت تقولُ أكامُ
مشرفاتٌ فوقَ الأكامِ أكامُ
وإذا أعرضتْ تقولُ قصورُ
من سما هيح فوقها أطمُ
وإذا ما فجيتها بطنٍ غيبِ
قلت نخلٌ قد حان منه صرامُ

الغيب ما وارك من الشجر، وسما هيح أرضٌ بالبحرين.

الفصل الثالث

ذكر الفلوات والظلال

والسير والنعاس وما يجري مع ذلك

فمن أبلغ ما قيل في صفة بعد الفلاة قول مسعود أخي ذي الرمة:

يدأبُ فيه القومُ حتى يطلحوا
كأنما أمسوا بحيثُ أصبحوا

ومَهْمِه فيه السرابُ يلمحُ
ثم يظنونَ كأن لم يبرحوا

وقال رؤبة بن العجاج:

يكلُ وفدَ الريح من حيث انخرق

ذكر أن الريح تكل فيه لبعده، ووفد الريح مأخوذ من حيث انخرق

ويسبقُ وفدَ الريح من حيث ينتحي

وقال مسلم بن الوليد:

حسرى تلوذُ بأطرافِ الجلاميدِ

تجري الرياحُ بها مرضى مولهةً

قوله: بأطراف الجلاميد، زيادة ليست في بيت رؤبة.

ويشبهون استواء الفلاة باستواء ظهر الترس، قال الشاعر:

ومهمه كمثل ظهر الترس

وأحسن ذو الرمة حيث يقول في هذا المعنى:

بساطُ لأخماسِ المراسيلِ واسعُ

ودوُّ ككف المشتري غير أنه

شبهه بكف المشتري، لأن كفه ألصق، وفي رواية أخرى لأن المشتري ييسط كفه للصفق.

وقلت في نحوه:

صعيدُ كأيدي السائلين مديدُ

وبحر ككف الأكرمين يحفه

وقال بعض المحدثين:

مطوقةٌ آفاقها بسمائها

ودويةٌ مثل السماء قطعتها

ومن عجيب التشبيه في وصف الآل قول بعض الأعراب:

ذرى علمي دمخ فما يُريان

كفى حزناً أني تطاللت كي أرى

من البعد عينا برقعِ خلقانِ

كأنهما والآل ينجابُ عنهما

وهذا أغرب ما روي من تشبيهات القدماء.

وقال جميل بن معمر في السراب:

كأن ذراها عممته سبيب

الأتيكما أعلامُ بثثة قد بدتُ

ولي من وراء الطامساتِ حبيبُ

طوامسٍ لي من دُونهنَّ عداوةٌ

وأما على ذي حاجةٍ فقريب

بعيدٌ على كسلانٍ أو ذي ملالةٍ

والسبب الشقة البيضاء.

وقال ابن المعتز:

نزوَ القطا الكدريّ في الأشرار

والآل ينزوا بالصوى أواجه

مشى المهارِ الدُّهم بين رِمَاكِ

والظلُّ مقرونٌ بكلِّ مطيِّةٍ

ولا أعرف في هذا المعنى تشبيهاً أحسن ولا أصوب من هذا.

ومن عجيب التشبيه في وصف اعتدال الظل عند الظهيرة قول الراجز:

وانتعل الظل فصار جوربا

وقال آخر:

معي وعقامٌ تنقي الفحل مُقلت

إذا شئت أداني صرومٌ مُشيعٌ

بها الشمس حيٌّ في الأكارع ميتٌ

يطوف بها من جانبيها وينقي

أداني: أعاني، صرومٌ: أي صارمٌ، مشيعٌ: شجاع كأن معه أصحاباً يشيعونه فهو جريءٌ يعني قلبه.

والعقام: التي لا تلد فذاك أشد لها يعني ناقة، والمقلت: التي لا يبقى لها ولدٌ، وحي في الأكارع ميتٌ: يعني ظلاً قد ضارع عند انتصاف النهار.

ومن بديع ما قيل في السراب قول ابن المعتز:

دَعَوْنَ بكائي فاستجابت سواكبه

وما راعني بالبينِ إلا طعائنٌ

كأسطر رِقٍّ أمرضَ الخط كاتبه

بدتُ في بياض الآلِ والبعْدُ دونهُ

ولهم في وصف الأسفار في البحار شعرٌ قليلٌ، فمن أجود ما وصف به الموج قول المهدي:

نعاجٌ يرتمين إلى نعاج

ولا أعرف في السير والنعاس أجود لفظاً واستعارة مما أنشدناه أبو تمام:

نعاساً ومن يعلق سُرى الليل يكسل

يقولُ وقد مالت بنا نشوةُ الكرى

قليلاً ورقهً عن قلائصِ ذبَلِ

أنخُ نعطِ أنضاءِ النعاسِ دواءها

حدا الليل عريان الظريفة مُنجلي

فقلتُ له كيف الإناخةُ بعد ما

ومما يجري مع ذلك قول الآخر:

كأنه الليل يرمي بالغسق

عودٌ على عودٍ عودٍ خلق

مَشَاجِبٌ وَفَلَقٌ سَقَبٌ وَطَلَقٌ

عود: يريد شيخاً كبيراً. على عود أي على بعير مسن، على عود خلق أي طريق قديم دارس فكأنه يريد كأن ذلك كما قال رؤبة:

كأنه في الجلدِ توليعُ البهقِ

فيها خطوطٌ من سوادٍ وبلقِ

أي كأن ذلك شبه البعير بالمشاجب، والطريق بالسقب وهو عمودٌ، من عمد الخباء، وشبه الشيخ بالطلق وهو القيذ لانحنائه. وقريبٌ منه قول الآخر:

يموتُ بالتركِ ويحيا بالعملِ

عودٌ على عودٍ قوودٍ للابلِ

عودٌ: بعير، على عود يعني طريقاً، يموت بالترك: يعني الطريق يدرس إذا لم يسلك، ويحيا بالعمل: إذا سلك استبان.

ومن المختار في صفة النعاس قول الآخر:

نشأوى من الادلاج ميلُ العمائمِ

فأصبحنَ بالموماةِ يحملنَ فتيةً

عُقاراً تمشي في المطا والقوائمِ

كأن الكرى سقاها صر خديبةً

وأخبرنا أبو أحمد، عن أبي بكر عن عبد الرحمن، عن الأصمعي أن أبا عمرو ابن العلاء كان يستحسن قول بشامة بن غدير ويعجب منه غاية العجب:

وقد حرنَ ثم اهتدينَ السبيلا

كأن يديها وقد أرقلت

فأدركه الموتُ إلا قليلا

يدا سابح خرَّ في غمرةٍ

ومما يجري مع ذلك قول الأعرابي:

حُسامٌ جلا عنه القيون صقيلاً

بدأن بنا وابن الليالي كأنه

إلى أن أتتك العيسُ وهو ضئيلُ

فما زلتُ أفني كلَّ يومٍ شبابهُ

الفصل الرابع

ذكر الوحوش والسباع والكلاب والصيد

وما يجري مع ذلك

فمن أجود ما قيل، في وصف الثور إذا عدا فيخفى تارة، ويظهر أخرى، قول الطرماح، وكان الأصمعي يتعجب من حسنه:

بيدو وتضمرة البلاد كأنه سيف على شرف يسئل ويغمد

وقد أحسن عدي بن الرقاع في وصف ثورين وما يثيران في عدوهما من الغبار وهو:

يتعاوران من الغبار ملاءة بيضاء مضملة هما نسجاها

تطوى إذا علوا مكانا جاسيا وإذا السنابك أسهلت نشرها

لا أعرف في صفة الغبار أحسن ولا أتم من هذا. وأما قوله في صفة قرن الظبي فليس له شبيه وهو من المشهور:

يرجى أغن كأن إبرة روقه قلم أصاب من الدواة مدادها

وقد أحسن الراعي في وصف الوعل:

برود بها ذب الرياد كأنه فتى فارسي في سراويل رامج

ذب الرياد: أي الوعل، ويروى: يجيء ويذهب، شبه ما على قوائمه من الشعر بالسراويل وشبه قرنه بالرمح.

وقال ابن المعتز:

كأنى على طاو من الوحش ناشط تخال قرون الأجل من خلفه غابا

الأجل: القطيع من بقر الوحش، والغاب: الأجمة. وقال أيضاً:

وجرت لنا سنحا جاذر رملة تتلو المها كاللؤلؤ المتبدد

قد أطلعت إير القرون كأنها أخذ المرآود من سحيق الإثم

وقال ابن المعتز:

شغلته لواقح ملأته غيرة فهو خلفهن كمي

قابض جمعها إليه كما يجم مع أيتامه إليه الوصي

كلما شم لاقحاسيء منها رأس فحل برجلها معلي

خارج من ظلال نفع كما مزق جلبابه الخليع الغوي

قد طواها التسويق والشدُّ حتى

هربت في رؤوسهن عيونٌ

وقال أيضاً:

كأن آثارَ أظلافِ الظِّباءِ به

ومن فصيح ما قيل في الكلب وبلغه قول أبي نواس:

كأن لحييه على افترارهِ

طواره: نواحيه.

هي قبُّ كأنهن القسيُّ

غائراتُ كأنهن الركيُّ

ودَعَّ يخلّفه أظلافه نسقُ

شكّ مساميرِ على طواره

إلا بأن يطلق من عذارهِ

لفتَ المشير مؤهناً بناره

خرقَ أذنيه شبا أظفاره

سمعٌ إذا استروحَ لم يمارهِ

فانصاع كالكوكب في انحدراه

شداً إذا أخصف في جدارهِ

وهذا مثل قوله:

يشبُّ في القودِ شُوبَ المقربِ

من كل أخذى ميسانِ المنكبِ

يلحق أذنيه بحدِّ المخلبِ

المقرب: الكريم من الخيل يشد لكرمه بقرب البيوت، ميسان المنكب أي من سعة جلده يميس منكبه. ومن بديع الوصف قوله:

موسى صناعِ ردِّ في نصابهِ

يكادُ أن يخرجَ من إهابهِ

حتى تكاد تقري عنهما الأهب

كأنما الأظفورُ في قنابهِ

تراه في الحضُرِ إذا ما هابه

أخذه من قول ذي الرمة:

لا يذخران من الإيغال باقية

والقناب: الغلاف.

وقد أحسن في قوله وأجاد:

شمّ العراقيبِ مؤنفاًتها

مشرفة الأكتاف موفداتها

غرّ الوجوهٍ ومحجلاتها

فجاء يزجيتها على شياتها

مفروشة الأيدي شر نباتها

قود الخراطيم مخرطماتها

الموفدات: المشرفات، خرطوم مخرطم مثل ليل أليل:

ذل المآخير عملساتها

إن حياة الكلب في وفاتها

ضواحك من سعة الأشداق

كأن أقماراً على لبّاتها

لنفتاً الأرنب عن حياتها

وقال ابن المعتز في سعة أشداق الكلاب:

كأنها في حلق الأطواق

وقال في شدة عدو الكلب:

كأنها تعجل شيئاً تحسبه

من قول أبي نواس:

كأنما يُعجلن شيئاً لقطا

ومن بليغ ما قيل في شدة العدو قول الأحمر في الثور:

أن لا تمسّ الأرضَ أربعة

وكأنما جهدت أليته

ومن جيد وصف السرعة قول الحماني:

كأنّ من يُبصره لا يبصره

يبادرُ الناظر وهو يبدره

وقال الأصمعي: وأحسن ما قيل في صفة الذئب قول حميد بن ثور:

كما اهتزّ عودُ النبعة المتتابع

ترى طرفيه ينسلان كلاهما

المنايا فهو يقظانُ هاجع

ينامُ بإحدى مُقلتيه ويتقي بأخرى

وقال الأصمعي من أوجز الكلام قول الراجز في الذئب:

في فمه شفرته وناره

أطلس يخفي شخصه غباره

هو الخبيث عينه فراره

ومما يجري مع ذلك، ما أخبرنا به أبو أحمد، عن أبي بكر بن دريد، عن عبد الرحمن عن عمه، عن أبي عمرو قال: رأيت باليمن غلاماً من جرم، ينشد عزراً فقلت له: صفها يا غلام فقال: حسراء مقبلة، شعراء مدبرة، بين غثرة الدهسة، وقنو الدبسة، سجحاء الحديد، خطلاء الأذنين، قعساء الصورين، كأن زنمتيها تتواقلنسوة، يا لها أم عيال، وثمال مال.

الحسراء: التي قل شعر مقدمها، والشعراء: التي قد كثر شعرها، والغثرة: غثرة كدرّة، والدهسة: لون الأرض، والقنو: شدة الحمرة، والدبسة، حمرة كدرّة، والسجحاء: السهلة الحديد، والخطلاء: الطويلة الأذنين المضطربتهما، والقعساء: المتباعدة بين طرفي القرنين، والصور: القرن والزنمتان: اللحمتان المعلقتان

تحت حنك الشاة، والتتو ذؤابة القلنسوة.

ولأعرابي في الذئب:

وأطلس ملء العين يحملُ زوره
له ذنبٌ مثل الشراع يمدّه
طواه الطوى حتى استمر مريره
يقضضُ عضلاً في أسرتها الردى
وأضلاعه من جانبيه شوى النهدُ
ومتنٌ كمتنِ القوس أعوجُ مُنأدُ
فما فيه إلا الروحُ والعظمُ والجلدُ
كقضضةٍ المقرورُ أرعدَه البرد

عوى ثم ألقى فارتجرتُ فهجته
وأتبعته أخرى وأضلتُ نصله
وقال غيره في الفيل:

أجردٌ كالعود طويل النابيين
ينفض أذنين كفضلى بردين
وقال ابن الرومي فيه:

ولا أعضل النابيين حامل مخطم
يقلب جثماناً عظيماً موتقاً
ويسطو بخرطوم يطاوع أمره
ولست ترى بأساً يقوم لبأسه
به حجنٌ طوراً وطوراً به فعم
يهدُّ بركنيه الجبال إذا زحم
ومشتبهات ما أصابَ بها عثم
إذا عملَ النابيين في الناس أو صدم

الفصل الخامس من الباب العاشر

ذكر الطيور

مما جاء في منشور الكلام، في وصف الحمام، قول بعضهم: بهرمانى العينين عاجي المنقار، أصهب القرطمتين سبحي الجناحين، كأنما خطا بقلمين، دري الدفتين، فضي الحقيية والبطن والكشحين، أرجواني الساقين والقدمين، معتدل الهامة، جاحظ الحدقتين، رحب الأذنين والمنخرين، واسع الحوصلة والشدقين، محدد المنكبين والركبتين، سبط الذنب والكفين، طويل العنق والقوادم والفخذين، قصير الخوافي والساقين، عريض الصدر والدفتين والوظيفتين، غليظ القصب أجش الهدرة، منتصب الهامة، ذكي الحركة بعيد

الذرقه.

ووصف ابن المعتز حماماً طلبه من إنسان: أريد حرمي الطرق، عاجي المنقار، أغن الهدير، ذا ذنبٍ قصير، يسحب حوصلته إذا هدر، وتروح صفقته إذا صفق، قرطاسي الدفتين، سبجي الجناحين، كأن رجليه خاضتا دماً، أو شربتا عندما، وكأن عينيه جمرة، ورأسه زبده. وقلت في حمام أبلق:

وَمُتَّفَقَاتِ الشَّكْلِ مُخْتَلِفَاتِهِ
أَخَذْنَ مِنَ الْكَافُورِ أَنْفَاءً وَمَنْسَرًا
وَتَدْنُو بِأَبْصَارِ إِذَا مَا أُدْرَتْهَا
تَطِيرُ بِأَمْثَالِ الْجَلَامِ كَأَنَّهَا
تَبْرُجُ بِهَا فِي الْجَوْءِ مِنْ غَيْرِ فِتْرَةٍ
إِذَا هِيَ عَبَّتْ فِي الْغَدِيرِ حَسْبَتَهَا
لِبَسْنِ ظَلَامًا بِالصَّبَاحِ مَرْقَعًا
وَخَضَّبِينَ بِالْحِنَاءِ كَفَأً وَإِصْبَعًا
جَلُونَ عَقِيقًا لِلْعَيُونِ مَرْصَعًا
جِنَادُلُ تَدْحُوهَا ثَلَاثًا وَأَرْبَعًا
كَأَنَّ مَجَازِيْفًا تَبْرُجُ بِهَا مَعًا
تَزْرُقُ فَرَاخًا فِي الْمَغَادِرِ جُوعًا
وقال بعضهم في عين العقعق:

يُقَلِّبُ عَيْنَيْنِ فِي رَأْسِهِ
ومِنَ الْمُخْتَارِ فِي الدِّيكِ مَا أَنْشَدَهُ الْجَاحِظُ:
كَأَنَّهُمَا نَقَطْنَا زَنْبِقًا

كَأَنَّ الدِّيكَ دِيكُ بَنِي نَمِيرٍ
وَالنَّاسُ يَسْتَحْسِنُونَ قَوْلَ ابْنِ الْمُعْتَزِ فِي الدِّيكِ:
صَبَّحَ وَإِمَا ارْتِيَاحَةً لِسْنِي أَلِ
وقال ديك الجن:

أَوْفَى بِصَبْغِ أَبِي قَابُوسٍ مَفْرَقُهُ
وقوله صبغ أبي قابوس يعني شقائق النعمان، وهذا كلامٌ بعيد المتناول ظاهر التكلف. وقلت فيه:
مُنَوِّجٌ بِعَقِيقٍ مُقَرَّطٌ بِلَجِينِ فَقِ
دَعَا دُعَاءَ طُرُوبِ مُصَفِّقِ الْكَفِينِ عَلِ
حَتَّى إِذَا الصَّبْحُ يَبْدُو مُطْرَضِّضِ الطَّرْتِينِ يَزِ
وقال السري الرفاء:

مُنَوِّجُ الصَّبَاحِ قَنَاعَهُ فَتَأَلَّفَا
وَسَطَا عَلَى اللَّيْلِ الْبَهِيمِ فَأَطْرَقَا

بالوشي تُوج بالعقيق وطُوقاً
ومُشمرٌ ثوباً عليه مغمقاً

كمثل طُرفِ أعلاه أسوارُ
كأنما العُرفُ منه منشارُ

كرجالِ الحُبشِ تمشي بالعمد

سُودُ الرجالِ تعادي بالمزاريق

وعلا فبشرَ بالصباحِ مُدرِّعُ
مُرْحَى فضولِ التاجِ في لَبَّاته

وقال ابن المعتز:

وقامَ فوقَ الجدارِ مُشترِفُ
رافِعُ رأسٍ طوراً وخافضُهُ

ومن أجود ما قيل في وصف النعام قول عدي بن زيد:

ومكانِ زعلِ ظلمانهُ

فقال شبه أعناقها إذا مدت بالعمد.

ومن أحسن تشبيهه أخذه العماني:

كأنها حين مدت عنقها حرقاً

وكان ينبغي أن يقول: مدت أعناقها الذي قال رديء، وقد جاء مثله.

وقال ابن أبي عيينة:

تبلغها قيمةٌ ولا ثمن

إنَّ فؤادي لحبها وطن

إنَّ الأريبِ المفكرِ الفطنُ

ومن نعامٍ كأنها سفنُ

يا جنةً فانت الجنانَ فما

ألفتها فاتخذتها وطناً

أنظر وفكرٍ فيما تطيفُ به

من سفنٍ كالنعامِ مقبلةٍ

ومثله قوله:

وحبذا أهله من حاضرِ بادي

والضبُّ والنونُ والملاحُ والحادي

زرواديَ القصرِ نعم القصرُ والوادي

ترقى قراقيرُهُ والعيسُ واقفةٌ

وقول الآخر:

عرشاً يخزُّ الریحُ في قصبائه

كأنَّ قوسَ الغيمِ من ورائه

كأنَّ بالسَّهبِ على خربائه

يضحك جنُّ الأرضِ من نحائه

يعني الغبار المنعرج خلفه.

وقلت في فاختة:

مررتُ بمطرابِ الغداةِ كأنَّها
ويروي: تعل رحيقاً في الغصون مفلحلاً:

تُعَلُّ مع الاشراقِ راحاً مُفلحلاً

منمرة كدراء تحسبُ أنها
بَدَّتْ تجتلي للعينِ طوقاً ممسكاً
لها ذنبٌ وافي الجوانبِ مثل ما
إذا حلقت في الجوِّ خلت جناحها

تجلُّ من جلدِ السحابةِ مفصلاً
وطرفاً كما ترنو الخريذةُ أكحلاً
تُقشِّرُ طلحاً أو تجردُ منصلاً
يردُّ صغيراً أو يحرك جُلجلاً

وقال أبو نواس في حباريات:

يخطرَنَ من برانس قُشوب
فهن أمثالُ النصارى الشيب

من حبرِ عُولينَ بالتذهيبِ

وقلت في قبجة:

أهديتها كالهديّ أنسةً
تلبسُ سمورةً مُشمرةً

وهي سليلُ النواشِرِ النفرِ
تصونُ أطرافها من العفرِ

وقد جرى المسكُ من محارها

فضمَّ لِبَاتها مع الثغرِ

تخطرُ في حلةٍ مُصدرةٍ

كأنَّ أكامها من الحبرِ

واحمرَّ منقارها ومنخرها

تفتُحُ الوردِ في ندَى السحرِ

كأنها حينَ نقط قرطمها

تضربُ ياقوتةً على دُرِّ

وقال أبو نواس في طير الماء:

كأنما يصفرنَ من ملاءق

صرصرة الأقالم في المهارق

ونقله إلى موضع آخر فقال أيضاً:

يصفرُ أحياناً إذا لم يهزجُ

من مثلِ حرفِ المجدحِ المغنجِ

المجدح: ما يجده به السويق، والمغنج: المعطف.

وأحسن ما شبه به ذلك قول بعض الأعراب يصف طيراً أنشده الأصمعي:

يضربنَ أحناكاً إلى الماءِ كلِّها

لبيقُ كمفروجِ المناقيشِ أسجح

لبيقُ: أي رفيق بذلك حاذق به، يقول هذه الأحناك لبيقة بالشرب، والمفروج: المفتوح ما بينه.

وقلت في الخطاف:

فِيخْبِرُ عَنْ طَيْبِ الزَّمَانِ مزارها
وَأَنَّ الرِّيَاضَ قَدْ تَوَشَّى إِزارها
وَأَنَّ وُجُوهَ الأَرْضِ رَاعٍ اخضرارها
فَتَدْنُو عَلَى بُعْدٍ مِنَ الشَّكْلِ دارها
وَيُؤَنِّسُنَا بَيْنَ الدِّيَارِ مطارها
وَفَازَ بِالألوانِ اللِّيالي خِمَارها
تَمَشَّتْ إِلَيْهَا هَنَدُها وَنوارها
وَتَقْضِي لِباناتِ النِّفوسِ كِبارها

جاءت تبشرُ بالزمانِ المقبلِ
بالعاجِ فيهِ وقهقهتِ بالصندلِ

يُعاوِدُ وَصِلاً وَهُوَ فِي حَالِ هاجِرِ
وَصِلاً فَقَلَّ فِي زائِرِ غَيْرِ زائِرِ
كَمَا حَرَّكَ الكَعْبِينِ كَفُّ مُقامِرِ

صوتُ الجُلامِ إذا ما قَصَّتِ الشِّعرا

ذو جُوجُؤٍ مِثْلِ الرُّخامِ المَرمارِ
ومِثْلَةِ صَفراءِ مِثْلِ الدِّينارِ

وزائِرَةٌ فِي كُلِّ عامٍ تَزورنا
تَخْبِرُ أَنَّ الجِوَّ رَقَّ قَميصُهُ
وَأَنَّ وُجُوهَ الغُدْرِ راقٍ بِياضِها
تَحْنُ إلينا وَهي مِنَ غَيْرِ شِكلنا
فِيعجَبنا وَسَطَ العِراسِ وَقوْعُها
أغارَ عَلَى ضِوئِ الصِّباحِ قَميصُها
تَصيحُ كَمَا صرَّتْ نعالُ عِرائسِ
تَجاورُنا حَتَّى تَشَبَّ صِغارُها
وَلَمْ أَسْمَعْ فِي ذَلِكَ أَحْسَنَ مِنَ قولِ بَعْضِ المَحدثينِ:

وغيرية حنّت إلى أوطانها
فرشت جناح الأبنوسِ وسطرت

وقلت في أصواتها:

أيا عجباً من أنس لك نافرِ
يزور على بُعدِ المكانِ لم يُرِدِ
له في الذُّرى شذراً يَمُرُّ وَيَنثِي

وهذا معنى لم أسبق إليه.

وقال أبو نواس في أصوات الخطاف:

فكأنَّ أصواتها في الجِوِّ طائِرة

وقال ابن المعتز في البازي:

فارسٌ كَفَّ مائِلِ كالأسوارِ
أو مِصحفٍ مِمنمٍ بِأسطارِ
يَرفَعُ جِفنًا مِثْلَ حِرفِ الزُّنارِ

وهذا تشبيهه في غاية الاصابة.

ومن أحسن ما قيل في منسر البازي قول أبي نواس:

كأنه عقدُ ثمانينا

كأنها نرجسةٌ بلا ورقٍ

كعطفةِ الجيمِ بكفٍّ أعسرا

وضوءُ الصبحِ متهمُ الطلوعِ

على أكتافها صدأُ الدروعِ

كعقدك الخمسينَ بالإبهامِ

ينشرهُ للنهضِ والإقدامِ

ومقلةٌ تلحقُ بالقصيِّ

واتصلت براته القوهيِّ

يصقلُ حملاً شديداً الطحريِّ

في هامةٍ لمتَّ كلمِ الفقرِ

من منخرٍ رحبٍ كعقدِ العشرِ

كأنه إذا هوى للأعفرِ

ومنسرٍ أكلفَ فيه شنجٍ

وقال ابن المعتز في عين البازي وأجاد فيه:

ومقلةٌ تصدقهُ إذا رمقُ

وقال أبو نواس:

في هامةٍ علياءٍ تهدي منسراً

وقال ابن المعتز في بزاة:

وفتيان غدوا ووالليلُ داجٍ

كأن بُراتهم أمراءُ جيشٍ

وقال في عين البازي:

كأنها في الرأسِ مسمارُ ذهبِ

وقال أيضاً:

ومنسرٍ عضبِ الشباهِ دامِ

وخافقٍ للصيدِ ذي اصطلامِ

كنشركِ البردِ على المستامِ

وقال أيضاً:

ذي جوِّ مؤحبرٍ موشيِّ

كأنها دينارُ صيرفيِّ

صافٍ كغصنِ الذهبِ المحليِّ

وقال أيضاً:

أقمر من ضربِ بزاةٍ قمرِ

كأنه مكتحلٌ متبرُّ

تريح إن راح لأميرٍ بهرِ

وقلت في الصقر:

وصلتَانِ فلتانِ أنمرِ

مُعَبَّرٌ يَهْوِي إِلَى مَزْعَفٍ
بأبيضٍ من البزاةِ أقرمِ
منمنم الصدرِ كصدرِ الدفترِ
بمثل أهدابِ جفونِ الأحورِ

وقلت:

بصلتانِ سلطِ جسورِ
تخالهُ في مفصلِ مزرورِ
ضمَّ جناحيه على سمورِ
معوَّج المنسرِ والأظفورِ
وقلت في عصفورةٍ يقال لها السقا:

ومفتنةُ الألوانِ بيضٌ وجوهها
وتمرُّ تراقبها وصفرٌ جنوبُها
كأنَّ درارياً عليها قصيرةً
مرقعةً أعطافها وجيوبُها
تعدلُ ألوانَ الأغاني كأنما
تعدلُ أوزانَ الأغاني عريُّها
تسامُ استقاءً في العشاءِ إذا عرى
وعطلَ أيامِ المصيفِ ذنوبُها

وكان الأصمعي يتعجب من حسن بيت الطرماح في صفة الظليم مجتاب.

وقلت في بلابل:

مررتُ بدينِ القمصِ سودِ العمائمِ
تغني على أعرافِ غيدِ نواعمِ
زُهينَ بأصداغِ تروقُ كأنها
نجومٌ على أعضادِ أسودِ فاحمِ
ترى ذهباً ألقتهُ تحتَ مآخرِ
لها ولجيناً بطنه بالمقدامِ
فيا حسنَ خلقٍ من نضارٍ وفضةٍ
وخزٍ وديباجِ أحمرٍ وقاتمِ

وأخبرنا أبو أحمد، عن الصولي، عن أبي ذكوان، وأبي خليفة عن التوزي، قال: قال عمرو بن الحارث الجمحي: ما رأى الأصمعي مثل نفسه، قال الرشيد يوماً: أنشدونا أحسن ما قيل في وصف العقاب، فعذر القوم ولم يأتوا بشيء.

فقال الأصمعي أحسن ما قيل فيها:

باتتُ يورقها في وكرها سغبٌ
وناهضٌ يخلصُ الأقواتَ من فيها

وقال امرؤ القيس:

كأن قلوبَ الطيرِ رطباً ويابساً
لدى وكرها العنابُ والحشفُ البالي

فقال الرشيد ما بعل القوم بشيء إلا وجدت عندك فيه شيئاً.

وقال آخر في الغراب:

وجرى ببينهم غداةً تحملوا
شنج النسا خرقُ الجناح تخاله
وقال آخر في عقق:

من ذي الأبارقٍ شاجحٌ يتفیدُ
في الدارِ إثرِ الطاعنينَ مُفیدُ

إذا بارك الله في طائرٍ
طويل الذنابي قصير الجنا

فلا بارك الله في عققٍ
ح متى ما يجد غفلةً يسرق

يُقلب عيين في رأسه

كأنهما قطرتا زئبق

وقال آخر في الزنابير:

لها حماة كأنها شعر
قد أذهبت في الجبين غرته

تظهر مسودةً وتستترُ
إذ فضضت في جياتنا الغرر

وقلت في طيبة داجنة وقمارى:

فيها مؤانسة لنا وحشية
تختال في متصنل متكفر
ودقيقة الأطراف هي جسيمة
ومغنيات من وراء ستائر
غنت فلم تحوج إلى مشهورة
تبدو على أعناقهن أهلة

تومي بناظرها إلى ظمياء
تبراً أضر بفضة بيضاء
رياً تمرمر في متون ظماء
مشقوقة الأوساط والأحناء
وشدت فلم تفقر إلى الميلاء
سود تبذل ظلمة بضياء

الفصل السادس من الباب العاشر

ذكر بقية الحيوان

من النسور والقنفذ والفأرة والحية والعقرب والحرباء والضب والبق والبراغيث وما يجري مع ذلك

كتب الصحاب أبو القاسم في وصف قنفذ: قد أتخفتك يا سيدي بعلق نفيس، يتعجب المتأمل من أحواله، ويحار الناظر في أوصافه، ويتبدل المعبر في آياته، فما تعرف بديهة النظر، أمن الحيوان هو، أم من الجماد، أم هو من الشجر، أم من النبات، ومن الناطق هو، أم من الصامت، أم من الحار، أم من البارد، أم من

الرطب، أم من اليابس، حتى إذا أعطى متدبره النظر أوفى حقوقه، والفحص أكمل شروطه، علم أنه حي سلاحه في حصنه، ورام سهامه في ضمنه، ومقاتلٌ رماحه على ظهره، ومخاتلٌ سره خلاف جهره، ومحارب حصنه من نفسه، يلقاتك بأخشن من حد السيف، ويستتر بألين من مسه، حتى إذا جمع أطرافه فتحسبه راوية قتاد، أو كرة حرشف، ومتى أمن بسط أكنافه، وهي أمض من الأجل، وأرمى من ثعل، إن رأته الأرقام رأته حينها، أو عاينته الأسود عاينت حفتها، صعلوك ليل بحجم عن دامسه، وحارس ظلام لا يجين في حنادسه شعر:

كمغشم الفتيان غير مهبل سهد إذا ما نام ليل الهوجل

لجرمه من الضب شبهه، ومن الفأر شكل، ومن الورل نسبة، ومن الدلدل سبب، ولم أعمه عليك هو أنقذ، ولذلك قيل: من لم يذق غماضا، ولم يرقد حثا ثبات بليلة الأنقذ، وذكره الشيهم: وهو الشيطم، وأنتاه: عيمة معرفة لا يدخل الألف واللام عليها كتحوط ودجلة وكحل، ولا أعنيك هو القنفذ، ومن أحواله أن العرب تسلخ جلده، فتخرجه كالشحمة البيضاء، وتجعله من أنف مأكله، وأفخر مطاعمها، حتى تراه أرفع من الأفاعي، وأنفع من الجرذان، وتدعي جهلة الأعراب أنه من مراكب الشيطان، وهو أطف من الفرس حساً، وأصدق سمعاً، وقد جاء في المثل: "أسمع من قنفذ". ومن أوابده أنه يسود إذا هرم، ويصير كأبر ما يكون من الكلاب وأعظم، ويشبه به ركب المرأة عقب التنف والنورة، ولذلك قال ابن طارق في أرجوزة له:

يصيرُ بعدَ حلقه ونورته كقنفذ القف اختبى في فروته

ويشبه الساعي والنمام له لخبثه ومكره واضطرابه في ليله قال أيمن بن حريم:

كقنفذ الرمل لا تخفى مدارجُه خب إذا نام ليل الناس لم ينم

وقال عبدة بن الطبيب:

قوم إذا دمس الظلام عليهم حدجوا قنفاذاً بالنميمة تمرغ

وقال جرير:

يدبون حول ركياتهم دبب القنفاذ في العرفج

فخذه يا سيدي ممتعاً، واقبله شاكراً بري فيه، فاحتط عليه احتياط الشحيح على ماله، والجبان على روحه، وارغب إلى الله تعالى في حفظه، واسأله إطالة عمره، وهو حسبي ونعم الوكيل. ولم أسمع في صفة الهرة أطرف من قول ابن طباطبا العلوي الاصفهاني قال فيها:

أرقت مقلتي لحب عروس طفلة في الملاح غير شمس

إذ بدت لي كالعاج في الأبنوس
بشعاع يحكي شعاع الشمس
مت تهادى طويلة في الجلوس
كل عضو لها مس التجسس
نبر الرطب في الحنوط البييس

فتنتني بظلمة وضياء
تتلقى الظلام من مقلتيها
ذات دل قصيرة كلما قا
لم تزل تسبغ الضوء وتتقى
دأبها ساعة الطهارة دفن الع

ومن أجود ما قيل في الحية قول النابغة:

طويلة الأطراف من غير خفر
تقترب عن عوج حداد كالابر

صل صفا لا ينطوي من القصر
مهرونة الشدقين حولاء النظر
داهية قد صغرت من الكبر

وقال الآخر:

كالقرص فطوح من دقيق شعير
شدا عجوز مضمضت لظهور

خلقت لهازمه عرين ورأسه
فكان شذقيه إذا استعرضته

وأجاد خلف في قوله:

أبتر مثل بيدق الشطرنج

ثم أتى بحية ما تتجي

وليس من شعر المحدثين في الحية أحسن من قول ابن المعتز:

رقشاء مجدولة في لونها بلق
غصن تفتح فيه النور والورق
كما تعود بالسبابة الغرق

كأنني ساورتني يوم بينهم
كأنها حين تبدو من مكانها
ينسل منها لسان تستغيث به

وقوله أيضاً:

لوقدها السيف لم يعلق به بلق
كأنها كم درع قدّه بطل

أنعت رقشاء لا يحيى لديغتها
تلقى إذا انسلخت في الأرض جلدتها

وقلت:

كالبرق يلمع في الغمام الرائح

وخفيفة الحركات تقترع الربى

إبانَ تبدو من بطونِ صفائحِ
ومن المعاشِ باثتمامِ روائحِ

منقوطة تحكي بطونَ صحائفِ
ترضى من الدنيا بظلِّ صُخيرةِ

وهذا من قولهم: إن الحية إذا هرمت لم تحتج إلى الطعام واكتفت بالنسيم. وقال أعرابي:

غايتهُ شبرٌ من الأشبارِ
يفترُّ عن مثلِ تلطي النارِ

وحنشِ كحلقةِ السَّوارِ
كأنه قضيبُ ماءٍ جاري

وقال آخر:

يعنى برقيتهِ سواه

يرقونه فكأنما

وقال أبو العباس ثعلب: يقال إنه لم يسمع في صفة الحية أحسن من هذا البيت وأنشد:

دخانُ مصباحِ ذكتُ ذواكيه

كأنما لسانه على فيه

وقال عبد الصمد بن المعذل في العقرب:

بيرزُ كالقرنينِ حينَ يطلعهُ

يا ربَّ ذي إفكٍ كثيرِ خدعهُ

أسودُ كالسيحةِ فيه مصبعه

في مثلِ ظهرِ السبتِ حينَ تطلعه

لا تصنع الرقشاء ما لا تصنعه

وقلت فيها أيضاً:

كالنارِ طارتُ من زنادِ القادحِ

وإذا شتوتُ أمنتُ لسعةَ عقربِ

كلا لقد تمشي بصعدةِ راح

قد خلتها تمشي بسبحةِ عابدِ

وقال آخر:

فيه سنانٌ كالحريرِ يستعرُ

يحملُ رُمحاً ذا كعوبٍ مُشتهرِ

تأنيفِ أنفِ القوسِ شدَّتْ بالوترِ

انفَ تأنيفاً على حسنِ قدرِ

ومن أحسن ما قيل في الحرباء، وهي دويبة شبيهة بالعظاء تأتي شجرة التنضبة، فتمسك بيديها غصنين منها وتقابل الشمس بوجهها، فكلما زالت عين الشمس عن ساق، منها خلت يديها عنه وأمسكت بساق آخر، حتى تغيب الشمس فتسبح في الأرض وترتع قال أبو داود:

لا يرسلُ الساقَ إلا ممسكاً ساقاً

أنى أتيجُ بها حرباء تنضبة

والعرب تقول: أحزم من الحرباء، لأنها لا ترسل غصناً إلا أمسكت بآخر، ويشبهه به الرجل الحصيف الذي لا يترك سيباً إلا أخذ بسبب أمتن منه.
قال ابن الرومي في امرأة ورقبيها:

ما بالها قد حُسنَت ورقبيها
أبدأ قبيحُ قُبْحِ الرقباءُ
ما ذاك إلا أنها شمسُ الضحى
أبدأ يكونُ رقيبها الحرباءُ

وقال بعض العلماء: الحرباء: فارسيةٌ معربةٌ وأصلها خورباء، أي حافظ الشمس، وخور: اسم للشمس بالفارسية.

وكان ذو الرمة أنعت العرب للحرباء قال:

ودويّة جرداء جداء خيّمَت
بها صبواتُ الصيفِ من كل جانبُ
كأنَّ يدي حربائها متمسكاً
يدا مُذنبِ يستغفرُ الله تائبُ

وقال أيضاً:

وقد جعل الحرباء يصفراً لونهُ
ويخضراً من حرِّ الهجيرِ غباغه
ويسبح بالكفينِ سبحاً كأنه
أخو فجرة أوفى به الجذعُ صالبهُ

وقال أيضاً:

يصلى بها الحرباء للشمس مائلاً
على الجذلِ إلا أنه لا يُكَبَّرُ

إذا حوّلَ الظلَّ العشيُّ رأيتَه
حنيفاً وفي قرنِ الضحى يتنصَّرُ

وهذه تشبيهات مصيبةٌ عجيبة الإصابة دالةٌ على شدة الحذق وثقوب الذهن، وقد أجمعت العرب أن ذا الرمة أحسنهم تشبيهات.

وقال ابن المعتز:

ومهمه فيه بيضات القطا كسرا
كأنَّ حرباءها والشمسُ تصهره
كأنها في الأفاحيص القواريرُ
صال لنا من لهيبِ النارِ مقرر

وهذا تشبيهٌ مصيبٌ أيضاً أن للأول ماءً وطلاوة ليس لذا.

ومن أحسن ما قيل في الضب قول الحماني:

ترى ضبها متسعاً رأسه
كما مدَّ ساعده الأقطعُ

له ظاهرٌ مثل بردِ الوشيِّ
هو الضبُّ ما مدَّ سكانه
وبطنٌ كما حسر الأصلع
فإذا ضمَّه فهو الضفدعُ

ومن أجود ما قيل في البعوض، وأجمعه قول بعضهم أنشده أبو عثمان:

إذا البعوضُ زجلتُ أصواتها
لم تُطربِ السامعِ خافضاتها
وأخذَ اللحنُ مُغنياتها
وأرقَّ العينينِ رافعاتها
يقصر عن بُغيثها بُغاتها
رامحة خرطومها فقاتها
صغيرةٌ كبيرةٌ أذاتها
ولا يصيبُ أبداً رُماتها

وقال آخر:

حنانةٌ أعظمها أذاها

وقال ابن المعتز:

بتُّ بليلِ كلِّه لم أطرفِ
يتقبُّ الجلدَ وراء المطرفِ
قرقسُهُ كالزبيرِ المنتفِ
حتى ترى فيه كشكلِ المصحفِ
أو مثلِ روسِ العصفَرِ المنذِفِ

وقلت:

غناءٌ يسخنُ العينَ
ولا يأتي على الزمرِ
وينفي فرحَ القلبِ
ولا يجري مع الضربِ
غناءُ البقِّ بالليلِ
ينافي طربَ الشربِ
إذا ما طرقت المرءَ
جرى في طلقِ الكربِ
نحيفٌ راح كالشَّنِّ
ولكنُ بات كالوطبِ
إذا ما نقبَ الجلدَ
ة أخفى موضعَ النقبِ
سوى حُمُرِ خفَيَاتِ
تحاكي نقطَ الكتبِ

وقد ذكروا أن كل معنى للأوائل أخذه المتأخرون وتصرفوا فيه إلا قول عنترة في الذباب فإنه لم يتعرض له ولو رامه لافتضح وهو قوله:

وترى الذبابَ بها يُغني وحدهُ
زجلاً كفعل الشاربِ المترنمِ

هزجاً يحكُّ ذراعَه بذراعِهِ

فعلَ المكبِّ على الزنادِ الأجدمِ

وقلت:

وبدا فغناني البعوضُ مُطرباً

فهرقتُ كأسَ النومِ إذ غناني

ثم انبرى البرغوثُ ينقطُ أضلعي

نقطَ المعلمِ مُشكلَ القرآنِ

حتى إذا كشفَ الصباحُ قناعه

قرأتُ لي الذبانُ بالألحانِ

وكتب أبو القاسم الآمدي: وصار كاتب الديوان أفرغ من حجام سابط وحسبك، أيدك الله، أن كاتب الديوان، في هذا الوقت، شيخٌ كان يخلفني ويخلف من كان يلي الديوان قبلي، يعرف بابن نوح، حسن الشيبة عظيم الهامة، كثير الصمت، لو رأيته لقلت: هذا نوح النبي صلى الله عليه وسلم سمتاً ووقاراً، وليس له عملٌ خلف سلته إلا صيد الذبان، فهو أعلم خلق الله بأجناسها، إذا مر به ذبان يطير عرفه بطيرانه، قبل أن يسقط، فيقول: هذا ذكرٌ وهذا أنثى، وهذا ربيعيٌ وهذا صيفي، وهذا ملحٌ وهذا لجوجٌ، يسقط على العين والأنف ويطرد فيعود، وهذا يلسع وهذا ليس بلساع، وهذا يقع على الأقدار وهذا نزهة عيوف، لا يقع إلا على الماكل الحلوة، والأشياء العذبة، وهذا من صيد الليث، وهو جنس من العناكب، وليس هذا من صيده وهذا يقع في شبكة الخدرنق - وهذا العنكبوت الطويل الأرجل - وهذا يسفد وهو يطير، وهذا لا يسفد إلا واقعاً، وهذا مما يدخل رأسه في رؤوس الذبان السبعة، التي تقع في الأكحال، لأنه أقرح، وهذا إن وقع رأسه في كحل عمي من يكتحل به، لأنه أحمر الجبهة، وهذا يقل بدنه على خرطومهن وهذا لا يقبل، وهذا هزجٌ مغنٍ، وهذا صموتٌ، وهذا ينذر، وهذا يبشر بطنينه وزمزمته، فيصدق فيما يعد ويوعد، ويكون ذلك أخذاً بالكف. وقد ألف فيها كتاباً حسناً فيه نواذر وعبر.

وظننته قد نظر في باب الذباب والبعوض، من كتاب الحيوان، واستقى من هناك ففاتحته فإذا هو لا يعرف الجاحظ، ولا سمع بكتاب الحيوان قط، ونظرت فإذا أبو عثمان لم ينته في معرفة الذباب إلى شيء مما انتهى إليه وعرفه.

ومن أجود ما قيل في البراغيث قول بعضهم وقد ظرف في ذلك:

فيا لعبادِ الله ما لقبيلةٍ

إذا ظهرت في الأرض شدَّ مُغيرها

فلا الدينُ ينهاها ولا هي تنتهي

ولا ذو سلاح من معدٍ يضيرها

وقال آخر:

هنيئاً لأهل الرِّيِّ طيبُ بلادهم

بلادٌ إذا جُنَّ الظلامُ تفاقرت

ديازجةٌ سودُ الجلودِ كأنها

وقلت:

وأن أميرَ الرِّيِّ يحيى بنُ خالدٍ

براغيثها من بينِ مثني وواحدٍ

نعالُ بريدٍ أرسلت في المزودِ

ومن براغيث تنفي النوم عن بصري

يطلبن مني ثأراً لست أعرفه

وقد شكاهن الرماح الأَسدي فأحسن في قوله:

كأن جَفنيَّ عن عيني قصيرانِ

إلا عداوة سودانٍ لبيضان

تَطاولَ بالفسطاطِ ليلي ولم يكن

يؤرقني حُذبٌ صغارٌ أدلةٌ

إذا ما قتلناهنَّ أضعفنَ كثرةً

ألا ليت شعري هل ابيننَ ليلةً

وقال ابن المعتز:

بحنو الفضا ليلي عليّ يطولُ

وإن الذي يؤذينه لذليلُ

علينا ولا ينعي لهنَّ قتيلُ

وليس لبرغوثٍ إليّ سبيلُ

وبراغيث إن ظفرنَ بجسمي

وأما القمل فأعجب ما قيل فيه قول بعضهم:

خلتُ في كلِّ موضعٍ منه خالاً

من بينِ مَقْتولٍ وبينِ عَقِيرٍ

فردٌ وتوأمٌ سمسِمٍ مقشورٍ

للقملِ حولَ أبي العلاءِ مصارعُ

وكأنهنَّ إذا علونَ قميصه

وقد أبدع حرير في قوله:

كعنفقة الفرزدقِ حين شابا

تري الصبيانَ عاكفةً عليه

وقلت في النمل:

فصاروا بها بعدَ القطارِ طينا

تبددُ فيها الرِيحُ بزَرَ قطونا

بواطنها مثلَ الظواهرِ جونا

كما مرَّ مرعوبٌ يخافُ كميناً

يجرونَ خيطاً في الترابِ مبيناً

وحيُّ أناخوا بالمنازل باللوى

إذا اختلفوا في الدَّارِ ظلت كأنها

إذا طرَقوا قدري مع الليلِ أصبحتُ

لهم نظرةٌ يُمْنى ويُسرى إذا مشوا

ويمشون صفاً في الدِّيارِ كأنما

ففي كل بيت من بيوتي قرية
تضم صنوفاً منهم وفنونا
فيا من رأى بيتاً يضيق بخمسة
وفيه قريات يسعن مئينا

قالوا ومن الأبيات الجامعة للشر قول بعض القدماء:

به البق والحمى وأسد خفية
وعمرو بن هند يعتدي ويجور
وبالمصر برغوث وبق وحصبة
وحمى وطاعون وتلك شرور
وبالبدو جوع لا يزال كأنه
دخان على حد الأكام يمور
ألا إنما الدنيا كما قال ربنا
لأحمد حزن تارة وسرور

وقلت في الجراد:

أجنحة كأنها أردية من قصب
لكنها منقوطة مثل صدور الكتب
وأرجل كأنها
مناشر من ذهب

وقلت:

وأعرابية ترتاد زادا
فتمرق من بلاد في بلاد
غدت تمشي بمنشار كليل
تبوغ به قرارة كل وادي
وتنشر في الهواء رداء شرب
على أرجائه نقط المداد
وتلبس تحت ذلك عطاف لاذ
على أكنافه ودع الجساد

ومن عجيب ما قيل في الفأر: ما أخبرنا به أبو أحمد، عن الصولي، عن محمد بن سعيد، عن الرياشي، قال دخل أعرابي البصرة، فاشترى خبزاً فأكله الفأر فقال في ذلك:

عجل رب الناس بالعقاب
لعمارات البيت بالخراب
كحل العيون وقص الرقاب
مجردات أحبل الأذنان
مثل مدار الطفلة الكعاب
كيف لها بأنمر وثاب

منهت الشدق حديد الناب
كأنما يكشر عن حراب
يفرسها كالأسد الوثاب

آخر الباب العاشر من كتاب ديوان المعاني والحمد لله حق حمده وصلواته على محمد وآله وصحبه والخلفاء الراشدين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله على ما أراد بنا من عاجل الخير وآجله، ومؤتفه وراهنه، فجعل لنا في أنفسنا مواعظ، وفي أبداننا زواجر يرشدنا ويهدينا ويكفنا عما يردينا من مرض بعد صحة، وشيبة بعد شبية، لنعتبر بتغير الأحوال علينا، وتغيير الحدثن إيانا، حمداً تتألف أشتاته وتتصل مواده، وصلى الله على محمد وآله.

هذا كتاب المبالغة في

صفة الشباب والشيب والخضاب والعلل

والموت والمراثي والزهد وما يجري مع ذلك وهو:

الباب الحادي عشر من كتاب ديوان المعاني

الفصل الأول

الشباب والشيب والخضاب

وما يتصل بهما

فأول ذلك ما أخبرنا به أبو أحمد، عن الصولي قال: سمعت ابن الأعرابي يقول: لا أعرف في التفجع على الشباب وفي ذم الشيب أحسن من قول أبي حازم الباهلي على قرب عهده:

لا تكذبنَّ فما الدنيا بأجمعها	من الشبابِ بيومٍ واحدٍ بدلُ
شَرَّخَ الشبابِ لقد أبقيتَ لي أسفاً	ما جدَّ ذكرك إلا جدَّ لي ثكلُ
كفاك بالشيب ذنباً عند غانيةٍ	وبالشبابِ شفيحاً أيها الرُّجلُ
وأحسن منه عندي قول منصور النمري:	
ما تنقضي حسرةٌ ولا جزعُ	إذا ذكرتُ شباباً ليس يُرتجعُ
بانَ الشبابُ ففانتني بشرتهِ	صروفُ دهرٍ وأيامُ لنا خُدعُ
ما كنتُ أوفي شبابي كُنهَ غرتهِ	حتى انقضى فإذا الدنيا له تبع

قوله: فأذا الدنيا له تبع من أشرف كلام وأنبله وأجمعه وأوجزه، وسمعه الرشيد فقال: نعم، لا خير في دنيا لا يخطر فيها برد الشباب.

وقال محمود الوراق:

ولا البطالاتُ والخضابُ
قبلَ الثلاثينِ يُستطابُ

لا يحسنُ النسكُ والشبابُ
كلُّ نعيمٍ وكلُّ عيشٍ

وقال غيره:

فقلتُ وهل قبلَ الثلاثينِ ملعبُ

فقالَتْ وهل بعدَ الثلاثينِ ملعبُ

وأخبرنا أبو أحمد، قال: أخبرنا الصولي قال: حدثنا الفضل بن الحباب الجمحي، قال: حدثنا محمد بن سلام قال: من كلام يونس بن حبيب: الكبر وكل عيب، والعزل وكل ذم، والولية وكل مدح، والشباب وكل صحة، واليسار وكل فضيلة، والفقر وكل ذلة.
وقال ابن المعتز:

و غُصنه ذي الورقِ النضيرِ
ومَرَحَ القلوبِ في الصُّدورِ
في ظلِّ عيشٍ غافلٍ غريبِ
ملء العيونِ الغانياتِ الحورِ

لهفي على دهرِ الصبا القصيرِ
وسكره وذنبه المغفورِ
وطولِ حبلِ الأملِ المجرورِ
أغدو وجنى الصبا أميري

وقال الحماني:

في المسكِ فوقَ خُدودِ الحسانِ
وأيامه وعُذيقِ الغواني

وأيامه الغرُّ مثلُ الخطوطِ
ليالي أنتِ جُذيلُ الصِّبا

وقال أيضاً:

كالسوادِ من القلوبِ
بين المخانقِ والجيوبِ

أيام كنتُ من الغواني
فإذا استطعنَ خبانني

وقال أبو عبد الله بن المعتز:

فاحزنُ فليستَ بمثلهِ مفجوعا

يا قلبُ ليسَ إلى الصبا من مرجعِ

وقال يصف نفسه في شبيبته:

كقضيبي بانٍ ناعمٍ رطبِ
قالتُ أو ابدُ طرفها حسبي

من بعدِ ما قد كنتُ أيَّ فتىً
فإذا رأنتي عينُ غانيةٍ

ونحوه قوله:

فليستَ تخطَّاني إلى من ورائيا

إذا ما تمشت في عينِ خريدةٍ

وقال أعرابي:

لهنَّ بأكنافِ الشبابِ ملاعبُ
وشاهدُ آفاتِ المحبينَ غائبُ

سقى الله أياماً لنا وليالياً
إذ العيشُ غضُّ والشبابُ بغرةٌ

وإنما آتى بالبيت والبيتين، لأني أعتمد الفقرة فأوردها، وأقصد النادرة فأكتبها، وأتوخى المعنى الشريف، واللفظ الظريف، فأزفهما إليك، وأجلوهما عليك، ولو تحذقت في المعاني، وأضفت إلى كل شيء منها شكله، وقرنت إليه مثله، أو أكثرت من عدد ما أوراده من الأبيات. لصار كل فصل من فصول كتابنا باباً طويلاً، وكل باب منه كتاباً كبيراً، حتى يكون جديراً بالإملال والإضجار وداخلاً في حد الإكثار والإهذار، ونعوذ بالله منهما. وقلت في معنى ابن المعتز:

عليه للحسنِ رداءٌ قشيبُ
ماءُ شبابٍ لم يرقه المشيبُ
غايرَ فيه الشكلَ حسنٌ رطيبُ
وأنتَ من بعدُ قضيبُ قضيبُ
مُعفَّرُ الوجهِ حريبُ سليبُ
فما لشيخٍ من سرورٍ نصيبُ

تذكرُ إذ أنتَ قضيبُ رطيبُ
خالطَ ماءَ الحسنِ في وجهه
إذا مشى يخطر في برده
كنتَ قضيبَ البانِ لم يقتضبُ
فاللهو مُغبرٌ مقاديمه
خذ بنصيبٍ من سرورِ الصبا

وأول من بكى الشباب، وذم المشيب عبيد بن الأبرص فيقوله:

للهِ درُ سوادِ اللمةِ الخالي

والشيبُ شينٌ لمن أمسى بساحته

وقال مزاحم العقيلي:

وريق شبابٍ سلَّ الشيبُ منجلي
بليّنَ وأيامَ قصارٍ بمأسلٍ

عزاء على ما فات من وصلِ خلةٍ
ومثل ليالينا بخرمة فاللوى

وقد أحسن أبو العتاهية في قوله:

كما يعرى من الورقِ القضيبُ
فأخبره بما فعل المشيبُ

عريتُ من الشبابِ وكان غضاً
ألا ليت الشبابَ يعودُ يوماً

وقلت:

ووجهٌ كما لا تشتهيهِ مُشْنَجُ
تغشاهُ معروفٌ من الصُّبْحِ أبلجُ
تجلُّه عُرْفٌ من الليلِ أدعجُ
تروقُ وتصبي أو توضعُ وتأرجُ
تخيطُ لها كفُ الغمامِ وتتسجُ
لها نكهةٌ كالمسكِ إِيَّانَ يُمزَجُ

قوامٌ كما شاءَ المشيبُ معوجُ
وفرغٌ جلاه الشيبُ حتى كأنما
وعهدي به بالأمسِ جونا كأنما
لياليَ جاءتك الليالي عرائساُ
حسانَ الوجوهِ كالرياضِ أنيقة
رِفاقُ جلابيبِ النسيمِ أريجةُ

وقال رؤبة وأحسن في ذلك:

ولا يجدان إذا ما أخلقا
والشيب لا سوق له إن سوفا

كرَّ الجديانِ بنا وانطلقا
ولو يبيعان الشباب أنفقا

وقال المقنع أظنه:

لها في مفرق الرأسِ انتشلرُ
وأحرى أن ينافسه التجار

وذادت عن هواه البيضُ بيضُ
جديدٌ واللبسُ أعزُّ منه

وقد أحسن الفرزدق في قوله:

ومن قبله عيشٌ تعلَّ جادبهُ

وفي الشيبِ لذاتٌ لخادعِ نفسهِ

ومن الشعر الجذل السهل، المطيع الممتع، القريب البعيد، الممكن المتعذر قول النمرى:

وبها الخليطُ نزولُ
وسرورهنَّ طويلُ
ونحوسهنَّ أقولُ
ب وقينةٌ وشمولُ

ومنازل لك بالحمى
أيامهنَّ قصيرةُ
وسعودهنَّ طوالع
والمالكية والشبا

ومن أبلغ ما قيل في كراهة الشيب قول البحري:

مكانَ بياضِ الشيبِ حلَّ بمفرقي

وددتُ بياضَ السيفِ يومَ لقيني

وقد أحسن أبو تمام الاحتجاج للشيب في قوله:

وأكبري أنني في المهدِ لم أشبِ
فالسيفُ لا يُزدرى إن كان ذا شطبِ

فأصغري أن شيباً لاحَ بي حدثاً
لا تنكري منه تجديداً تجلله

فإنَّ ذاك ابتسامُ الرأي والأدب

وما حُسنُ ليلٍ ليسَ فيه نجومٌ

فالشيبُ زينةٌ ووقارٌ

ضحكت في خلالها الأنوار

فقد لآح صُبْحٍ في دُجَاكَ عجيبٌ

فإنَّ الكرى عندَ الصبحِ يطيبُ

أهذا الشيبُ يمنعني مراحِي

مَرَحَ الطرفِ في العذارِ المحلى

في ميادينِ باطلي إذ تولَّى

لأحقُّ امرئٍ بأن يتسلى

بمفروقِ رأسي قلتُ للشيبِ مرحبا

تتكبَّ عني رمتُ أن يتكبا

به النفسُ يوماً كان للكرهِ أذهباً

وفي ألفاظ هذه الأبيات زيادة على معناها، وأبيات ابن الرومي متوازنة اللفظ والمعنى مع إصابة تشبيهه في

قوله:

مرح الطرفِ في العذارِ المحلى

وقد بالغ في ذم الشيبِ أبو تمام فقال:

مثل ما سمِّي اللديغُ سليماً

دقةٌ في الحياة تدعى جمالاً

غرة مرةً ألا إنما كن

ت أغراً أيام كنت بهيما

وقال ابن المعتز:

لقد أبغضت نفسي في مشيبي

فكيف تحبني الخود الكعاب

وقلت:

فلا تعجبا أن يعين المشيب

فما عين من ذلك إلا معيبا

إذا كان شبيبي بغيضاً إلي

فكيف يكون إليها حبيبا

وقد كنت أرقل برد الشباب

قشيباً وأرقل وشياً قشيبا

إذا ملت ملت قضيياً رطيبا

وإن صلت صلت قضيياً قضوبا

ومن مليح ما قيل في الشيب وهزء النساء من صاحبه.

قول كشاجم:

ضحكت من شيبية ضحكت

في سواد اللمة الرجله

ثم قالت وهي هازلة

جاء هذا الشيب بالعجله

قلت: من حبيبك لا كبر

شاب رأسي فانتنت خجله

وتنت جفناً على كحل

هي منه الدهر مكتله

أكثرت منه تعجبها

وهي تجنيه وتضحك له

ومن مليح ما قيل في ذلك وغريبه قول الآخر:

فظللت أطلب وصلها بتعطف

والشيب يغمزها بان لا تفعلي

وذكر مسلم بن الوليد كراهة الشيب، وكراهة مفارقتة، إذا جاء فأحسن حيث يقول:

الشيب كره وكره أن يفارقني

أحبب بشيء على البغضاء مودود

فتبعه علي بن محمد الكوفي فقال:

بكي للشيب ثم بكى عليه

فكان أعز فقداً من شباب

فقل للشيب لا تبرح حميداً

إذا نادى شبائك بالذهاب

ونقله إلى موضع آخر فقال:

لعمرك للمشيب علي مما

فقدت من الشباب أشد فوتا

هذا البيت مضطرب اللفظ والرصف والصنعة فاعتبره:

وأبليت المشيبَ فصارَ موتا

تملّيتُ الشبابَ فكانَ شيباً

وكان من تمام الصنعة أن يقول أشد فقداً لقوله فقدت من الشباب.

وقلت:

لا يرتضى وفقدُهُ لا يُشتهى

والشيب زورٌ يجتوى وقربُهُ

وقلّ من يبلغه إلا شكّا

قد يشتهي كلُّ امرئٍ بلوغه

له من الأنفسِ حبٌّ وقلّي

كأنما الشبابُ كانَ فرقةً

وقد أجاد الأعرابي في قوله في صفة الشيب: أكره ضيف، وأبغض طيف، أحب غائب، وأفجع آيب.

وقلت:

وهل يمدحنّ الشيبُ إلا تكلفا

تكلف مدحَ الشيبِ عندي مُعمرٌ

لقلبِ فتىٍ أو آخرًا منه مُتلفا

فقلت انظرنى أوّلاً منه مؤلماً

لبستُ بها ثوبَ الشبابِ مُطرفًا

تصرّم من عمري ثلاثونَ حجةً

وصرفُ زمانٍ لم أجد عنه مصرفا

شبابُ أطارَ الوجدَ عني غيابُهُ

به الشيبُ حتى ردّه مُتحنّفاً

أقمتُ به صدرَ السرورِ فلم يزلْ

فأخلق به إن شئت أن يتحيفا

فطرَ بجناحِ اللهوِ في زمنِ الصبّا

فأصبحَ ليلاً بالصباحِ مُشنّفاً

تتاوَلَ وخطَ الشيبُ أطرافَ عارضي

ومن المشهور قول دعبل الخزاعي:

ضحك المشيبُ برأسه فبكى

لا تعجبي يا سلمَ من رجلٍ

ومما يحتج به للمشيب على الشباب، أن الشباب قلما يبقى أكثر من أربعين سنة وقد يعيش المرء في الشيب

التسعين والمائة، وقال امرؤ القيس في ذلك:

وبعد المشيبِ طولَ عُمرٍ وملبّساً

ألا إنَّ بعدَ الفقرِ للمرءِ قنوةً

وقال أعرابي:

أبلى ثلاثَ عمائمِ ألوانا

ما بالُ شيخٍ قد تخذد لحمه

وأجدّ لونا بعد ذلك هجانا

سوداءُ داجيةٌ وسحقٌ مَفوفٌ

وحنّونَ قائمَ ظهره فتحاني

قصرَ الليالي خطوةً فتداني

والموت يأتي بعد ذلك كله

وكأنما يعني بذلك سوانا

لا أعرف في وصف الشيب، من أول ما يتدب إلى أن ينتهي أحسن من هذا، وقوله وكأنما يعني بذلك سوانا من أبلغ ما يكون من الموعظة.

وقلت:

وشباب خف نازله

ليته عاد كما كانا

ومشيب أب نازله

ليته إذ كان ما بانا

خانني دهر وثقت به

رُب موثوق به خاننا

وأنشدنا أبو أحمد:

وأنكرت شمس الشيب في ليل لمتي

لعمري لليلي كان أحسن من شمسي

كأن الصبا والسمت بطمس نوره

عروس أناس مات في ليلة العرس

ومن بديع الاستعارة في الشيب قول البحري:

في الشيب زجر له لو كان ينزجر

وبالغ منه لولا أنه حجر

إبيض ما اسود من فوديه وارتجعت

جلية الصبح ما قد أغفل السحر

وللفتى مهلة في الحب واسعة

ما لم يمت في نواحي رأسه الشعر

ولا أعرف في الشيب أجمع من قول أبي تمام:

غدا الشيب مختطاً بفودي خطة

سبيل الردى منها إلى النفس مهيع

هو الزور يجفى والمعاشر يجتوى

وذو الالف يقلى والجديد يرقع

له منظر في العين أبيض ناصع

ولكنه في القلب أسود أسفع

ونحن نرجيه على الكره والرضا

وأنف الفتى في وجهه وهو أجدع

ومن أعجب ما سمعت في الخضاب قول بعضهم:

عجبت لما رأته

غادة ما بين غيد

ضحكت إذ أبصرتني

قد تزينت لعيد

ثم نادين جميعاً

يا عتيقاً في جديد

غرنا منك خضاب

قد تراءى من بعيد

لا تغالطنا فما تص

لح إلا للصود

وقال ابن الرومي:

فدعته إلى الخضابِ وقالتُ
إنّ دفنَ المعيبِ غيرُ مُعيبِ

وقال:

عذارُ كمثلِ الأتحمي مطرَزُ
وقد كانَ من صبغِ الشبابِ ممسكاً
فقلْ للعذولِ أقصرِ الآنِ إنني
كفّاك تكاليفُ الملامِ كواكبُ
لوائح من تحتِ الخضابِ كأنما
وأول من ذلك أنه شاب من غير كبر ابن مقبل في قوله:

ما شبتُ من كبرٍ ولكني أمرؤُ
فرايتها عضلاً موقحةً
فلذاك صرت معَ الشبيبةِ نازلاً
عالجت قرعَ نوائبِ الدهرِ
عزت فما تُسطاع بالكسرِ
في غير منزلتي من العمرِ

ومن أجود ما قيل في تقارب الخطو قول أبي الطمحان: حنتني حادثات الدهر حتى كأني خاتل أدنو لصيد:

قريب الخطو يحسبُ من رأني
وقد أحسن الآخر في قوله أيضاً:

الدَّهرُ أبلاني وما أبليتُهُ
والدَّهرُ قنيدني بقيدِ مُبرمٍ
والدَّهرُ غيرني وما يتغيرُ
فمشيتُ فيه وكلُّ يومٍ يقصرُ

وقوله: وكل يوم يقصر من أحسن العبارة، عن ازدياد الضعف وتقاصر الخطو في كل يوم. ومن أعجب ما قيل في الصلح قول الأعرابي:

قد ترك الدهر عصاتي صفصفا
كأنما قد كان ربعاً فعفا
فصار رأسي جبهةً إلى القفا
يمسي ويضحى للمنايا هدفا

ومثله قول الآخر:

ثم حسرت عن صفاة تلمع
ما رأس ذا إلا جبيناً أجمع

ومثله أيضاً:

جبين وجهٍ وجبينٍ في القفا

جلاه عن أهل الهوى قبج الجلا

وقال ابن الرومي في معناه يهجو رجلاً يجذب طرته من قفاه إلى وجهه:

إلى مدى تقصرُ عن نيّله

يجذبُ من نقرته طُرّةً

أخذَ نهارِ الصيفِ من ليله

فوجههُ يأخذُ من رأسه

وأنشدنا أبو أحمد، عن الصولي لخلف بن خليفة:

فصيرَ من رأسه قرعاً

وقام إلى رأسه حاذقٌ

بيض كما نصب الطلعه

يُريك بريقاً كطست الجلا

كشوقِ يميني للصُّلعه

فما شوق عيني إلى قرّة

تشوقُ الحليمِ إلى صَفْعِه

يكاد وإن لم يردّها الضميرُ

نسائلُهُ عن خبرِ الوقْعِه

فملنا عليه بأيماننا

قال مالك بن أسماء:

إذا الصُّلُعُ واروا هامهم بالقلانسِ

أوارى بذّيال على العقبِ جُنْثي

يعار فيستأجرنه للعرائسِ

تودُّ النساءُ المبصراتي أَنَّهُ

وقلت في مدح الحلق:

كثيرٍ على الرؤوسِ قليل

قُتِلَ الشعرُ من خَفِيفِ ثَقِيلِ

ضامه الله من قصيرِ طويل

ضيقُ الشعرِ حينَ طال قليلاً

فاشدُّد الكفِّ بالمريحِ الجميلِ

إنما الحلقُ راحةٌ وجمالُ

إنما الحسنُ للحسامِ الصَّقِيلِ

ما أرى للحسامِ يصدأ حُسناً

ويشبهون الرأس المخلوق بالصخرة، أخبرنا أبو أحمد، قال: أخبرنا أبو بكر بن دريد، عن عبد الرحمن، عن عمه قال: كان يزيد بن الطثرية زير النساء، يتحدث إليهن فتحدث إلى امرأة من بني أسد فهوها وهويته، فخطبها إلى أبيها فرده، وخطبها ابن عم له فزوجه فدخل عليها ابن عمها وهي تقول:

وأدمعاً تنهلُ منها سجماً

لم يبق إلا شبحاً وعظماً

من سَمِّ الوصلِ تجني الجرماً

علمت ما بي فجفوت علماً

فنهاها زوجها أن تتمثل فأنشأت تقول:

تمثلتُ بيتاً ثم أذريتُ دمعاً
فمن لآمني فيه فبدل ما بيا
فما أشرف الأيفاع إلا صباباً
وما أضربُ الأمثال إلا نداوياً

فأتى الزوج أباه فأخبره، فأتاها أبوها فقال والله لأن تمثلت لأضربن ظهرك وبطنك، فدخل عليها زوجها وهي تقول:

فإن تضربوا ظهري وبطني كلاهما
فليس لقلب بين جنبيّ ضاربُ
فاشدد ذلك على زوجها، وهم بطلاقها، وخرج مغضبا وإذا يزيد بفنائه وهو يقول:

تراعتُ وأستارُ من البيتِ دونها
إلينا وحانت غفلة المتفقدِ
بعيني مهاة تحدرُ الدمعُ منهما
بريمين شتى من دموعٍ واثمدِ
فجمع أهل بيته وإخوته وأتى أخاه واستعداه عليه فضربه أخوه وحلقه.
فقال وهو يخلق:

أقول لثورٍ وهو يخلقُ لمتي
بِعقفاء مردودٍ عليها نصابها
ترفقُ بها يا ثورُ ليس ثوابها
بهذا ولكن غير هذا ثوابها
فيا ربّ يومٍ قد تغلغل وسطها
أنامل رخصات حديث خضابها
تولى بها ثورٌ تزفُ كأنها
سلاسل جرع لينها وانسكابها
وأصبح رأسي كالصخيرة أشرفتُ
عليها عقابٌ ثم طارت عقابها
وقد أحسن الفرزدق الاستعارة في وصف الشيب وهو قوله:

والشيب ينهض بالشباب كأنه
ولأبي إسحاق الصابي أبيات في الصلح لم يسبق إلى معناها قالها على وجه المجون:

لما رمانى الزمان بالصلح
وقلّ مالي وضاق مُتسعي
حاسبتُ عن لمتي مزينها
حسابَ شيخٍ للحقّ متبع
قلتُ له اقنع من أصلٍ واجبها
بالتلث مما به عملت معي
واعملُ على أنها مزارعةُ
شكوتُ فيها شكاة متضع
فاحفظ خراج الذي أصبت به
واستوفِ مني خراج مُزدرع

ومما جاء في مدح الصلح، ما أخبرنا به أبو أحمد، عن ابن الأنباري، عن ثعلب، عن ابن الأعرابي، قال: ألح رجلٌ النظر إلى أمير المؤمنين علي عليه السلام فقال له: إلى أي شيء تنظر؟ قال إلى بطن مندح، وهامة صلحاء، فقال عليه السلام: أما البطن فأسفله طعم، وأعلاه علم، وأما الهامة فكما قال الشاعر:

بنى لنا المجدَ آباءَ لهم شرفٌ
صلحُ الرؤوسِ وسيما السودِ الصلحُ

وقال آخر:

كفى حزناً أني أدبُ على العصا
فيأمنُ أعدائي ويغضني أهلي
ويوصي بي الوغدُ الضعيفُ مخافةً
عليّ وما قام الحواضنُ عن مثلي
أقيم العصا بالرجلِ والرجلَ بالعصا
فما عدلتُ ميلي عصايَ ولا رجلي
وقال محمود الوراق في ذم الخضاب:

يشيبُ الناسُ في زمنٍ طويلٍ
ولِي في كلِّ ثالثَةٍ مشيبُ
وأخفي الشيبَ جهدي وهو يبدو
كما غطى على الريبِ المريبُ

وقلت:

جريت لعارضٍ غيثِ الليالي
تحالك لونه فاييضٌ جُلُّه
وصرت تقصُّ ما يبيضُ منه
أتحلقه إذا ما ابيضُ كُلُّه
تعزُّ عن الشبيبةِ والهَ عنها
فإن الليلَ ليسَ يدوم ظله
وخلُّ الشيبِ يضحكُ ناجذاهِ
فإن الصبحَ لا يخفى مطله
وإن حلتُ عرى اللذاتِ فيه
فلستَ بعاقِدٍ ما جذَّ حبله

الفصل الثاني من الباب الحادي عشر

ذكر العلل والأمراض والمرائي والتعازي والزهد

أحسن ما قيل في الرمد: قال الواثق، أنشدناه أبو أحمد، عن الصولي قال: وجدت مع هارون بن محمد بن عبد الملك الزيات، من شعر الواثق بالله في خادم له قد اشتكت عينه:

لي حبيبٌ قد طال شوقي إليه
لا أسميه من حذاري عليه
لم تكن عينه لتجدد قتلي
ودمي شاهدٌ على جفنيه

ومن ههنا أخذ هذا المعنى فتدوول قال ابن الرومي أو الناجم:

قالوا اشتكت عينه فقلت لهم

من كثرة القتلِ مسها الوصبُ

حُمرتها من دماء من قتلت

والدمُ في النصلِ شاهدٌ عجب

ومن بديع ذلك وغريبه ما أنشدناه أبو أحمد، عن الصولي أيضاً:

يكسر لي طرفاً به حمرة

قد خلطَ النرجسَ في وردهِ

ما احمرت العينُ ولكنه

يكحلها من وردتي خدهِ

أخذه من بعض أهل زمانه:

قالوا بدت في عينه حمرة

قد حازها من وردة الخدِّ

فقلت لم يرمدٌ ولكنه

يصاحفُ النرجسَ بالوردِ

ومن مليح ما قيل في شكاية الحبيب قول العباس بن الأحنف:

زعموا لي أنها صارت تحم

ابتلى الله بهذا من زعم

اشتكتُ أكمل ما كانت كما

يكسف البدر إذا ما قيل تم

ومما قيل في اصفرار اللون من العلة قول أبي تمام:

معدنُ الحسنِ والملاحةِ قد أص

بح للسقَمِ معدناً وقراراً

لم تشنْ وجههُ الجميلَ ولكنْ

جَعَلتُ ورْدَ وجنتيه بهارا

ونحوه قول أحمد بن إسحاق الطالقاني:

لقد حَلَّتِ الحمى بساحةِ خدهِ

فأبدلتِ النَّفَّاحَ بالسوسنِ الغضِّ

والأصل في ذلك، قول عبد بني الحسحاس، أخبرنا أبو أحمد، قال أخبرنا أبو إسحاق الشطبي، قال حدثنا

ابن أبي سعيد، قال: حدثنا الخزامي، قال: حدثنا عبد الملك الماجشون، عن يوسف بن عبد العزيز

الماجشون، قال: كتب عبد الله بن عامر إلى عثمان بن عفان: إني اشتريت لك عبداً حبشياً شاعراً.

فكتب إليه عثمان: لا حاجة لي فيه، فإن قصارى الشاعر منهم، أن يهجو أعراضهم، ويشيب بكرماتهم.

فاشتراه بنو الحسحاس، وكان يكسر في كلامه، فقال يوسف: فحدثني من رآه في شجرة واضعاً إحدى

رجليه على الأخرى يقرض الشعر وينسب بأخبت نسيب ويقول:

ماذا يُريدُ السقامُ من قمرٍ

كلُّ جمالٍ لوجهه تبعُ

ما يبتغي خابَ من محاسنها

أماله في القباحِ متسع

لو كان يبغى الفداء قلت له

ها أنا دون الحبيب يا وجع

ثم يقول لنفسه: أحسنك الله يريد أحسنت. وكان كما حدث عثمان رضي الله عنه. فإنه ما زال يهجو مواليه، ويشيب بفتياهم، حتى قتلوه فضحكت منه امرأة وقد ذهبوا ليقتلوه فقال فيها:

فإن تضحكي مني فيا رباً ليلة

جعلتك فيها كالقباة المفرج

وقال أيضاً:

ولقد تحدر من جبين فتاتكم

عرق على وجه الفراش وطيب

ومن عجيب ما يروى له قوله يمدح نفسه:

إن كنت عبداً فنفسي حرّة كراماً

أو أسود اللون إني أبيض الخلق

وهذا أحسن ما مدح به أسود.

ومن أحسن ما وصف به نخول العليل، قول أبي نواس الحسن بن هانئ:

يا قمرًا للنصف من شهره

أبدى ضياءً لثمان بقين

ومن أحسن ما قيل في تهوين الحمى على المحموم قول محمد بن زياد الكاتب:

قالوا محمدًا المحمّدُ موجع

والشمسُ تكسفُ ساعةً وتعودُ

فلئن حُممتُ فلا حُممتُ فإنها

داءُ الأسودِ وفي الرجالِ أسودُ

وهذا عندي أحسن من قول البحترى:

وما الكلبُ محمومًا وإن طال عمره

ألا إنما الحمى على الأسدِ الوردِ

على أنه معني مولد وشيء تدعيه العامة ولا تعرف صحته.

وقلت:

وقد سررتني أني رأيتك واطنًا

على عقبي داءٍ تراخى فأدبرا

وقد ظلّ يبغى رائدَ البرءِ مورداً

لديك ويبغى فارطَ السقمِ مصدرا

ولا غرواً أن يغشاك عارضُ علّةٍ

فإني رأيتُ الوردَ يغشى الغصنِ فرا

ولو كنتَ نجماً ما كسفتَ وإنما

كسوفُك إن أمسيتَ بدرًا مُنورا

ومن ذلك قول علي بن العباس النوبختي:

لئن تخطتُ إليك نائبةً

حطتُ بقلبي ثقلاً من الألمِ

فالدهرُ لا بُدَّ محدثٍ طبعاً

في صفحتي كلِّ صارمٍ خذمِ

وفي ألفاظ هذا البيت زيادة على معناه.
وقال أيضاً في رجل اعتل:

ذهباً كان يقبلُ الأقداءَ

طالَ فكري تعجباً لمصوغِ

كلما زاده الصقالُ جلاءً

والحسامُ الهذازُ يزدادُ حسناً

والرغبة من هذين البيتين في معنهما، وأما سكبهما ووصفهما فلا خير فيه، والبيت الثاني أصلح، والبيت الأول متكلف جداً.

وقال عبد الصمد بن المعذل يذكر الحمى:

وطوراً ألقيتها فتره

فطرواً ألقيتها سُخنةً

وأورثني إلفها ضجره

وقد أعقتُ خلفي حدةً

وللحرِّ إن ساءني زجره

فللعبدِ إن غاظني لطمهً

فتعلو الترائب والصدرة

ويربو الطحالُ إذا ما شبعت

لبستُ ثيابي على ذُكره

وأمسى كأنني من معدتي

وأمنحهم نظرةً نظره

أسائلُ أهلي عن سحتني

وأشفقُ إن قيل بي حُمره

وأجزعُ إن قيل بي صفرةً

ومن أجود ما قيل في الفصد قول ابن الرومي:

الأمرِ وفي النماء هلالاً

أيها البدرُ لم تزل في كمال

صحةً مستفاداً واندمالاً

كيفَ كانت عقبي افتصادك كانت

تيت في الخلق والخلق اعتدالاً

واعتدالاً بين المزاج كا أو

ت المرضي ما ارتضى فعلاً

فعل الله ذاك أنك ما زل

وفي الفصد، شعرٌ كثيرٌ ليس في أكثر ما مر بي، مختارٌ إلا ما أنشدته لعلي بن عبد العزيز الجرجاني:

وليت نفسي تقسمتُ سقمكُ

يا ليت عيني تحملتُ ألمكُ

عرقك أجرى من ناظري دمك

أو ليت كفَّ الطبيب إذ فصدتُ

تعييره إن لثمت من لثمك

أعرته حسنَ وجنتيك كما

فالحظ به العرق واغتتم ألمك

طرفك أمضى من حدِّ مبيضه

ومن مליح ما قيل في الزكام، ما أخبرنا به أبو أحمد، عن الصولي، عن أبي ذكوان الجرمي، قال: دعا عيسى بن علي عبد الله المقفع إلى الغداء فقال: أعزك الله لست يومي هذا للكرام باكيل، قال ولم؟ قال لأني مزكومٌ، والزكمة قبيحة الجوار، مانعة من عشرة الأحرار. قال: وكانت عجوز من بني عجل تقول: حقر من يحقر الزكام. ولم يمر بي في الصداع شيء مليح أثبتته لك غير أبي سمعت لبعضهم أبياتاً في صغر العمامة، حتى أشبهت عصابة، يعصب بها الصداع وهي هذا الأبيات:

وقدّمت إلي وعداً بأنك مُلبسي ثياباً إليهنّ المحاسنُ تنسبُ

فلا تكسني منهنّ إلا عمامةً

يقول أناسٌ لي إذا ما لبستها

أرأسك هذا من صداع مُعصّبُ

على أن رصفها ليس بمختار.

ولبشار بيت حسن فيه ذكر الصداع وهو وقوله:

حلّ من قلبه محلّ شرابٍ يشتهي شربُهُ ويخشى صدّاعهُ

وقد قارب الآخر:

لطيرتي بالصداع نالتُ فوقَ منالِ الصداعِ مني

وجدتُ فيه اتفاقَ سوءٍ صدّعني مثل صدّعني

وقلت في المعنى الأول:

يقومُ بقامةِ كنواةِ قسبٍ وينشر لحيّة مثل الشراع

عليه عمامةٌ قصّرتُ ودّقتُ فتحسبه تعصباً من صدّاعٍ

وقال بعضهم في الجدرى:

وجههُ للحسنِ معدنٌ فتأمل وتبينُ

نقطٌ من جدريّ كد باقي معيّنُ

وأما النقرس، فقد مرّ في أبيات جواد، أخبرنا أبو أحمد، عن الصولي، عن سوار بن أبي شراة عن عبد الله بن محمد الدمشقي الكاتب، عن محمد بن الفضل بن إسماعيل بن علي عبد الله، أن أبا الفضل ناله نقرس في رجله فدخل إليه أبوه إسماعيل يعوده فقال له كيف أنت يا بني؟ فقال:

أشكو إلى الله ما أُصبتُ به من ألمٍ في أناملِ القدمِ

كأنني لم أطأ بها كبدًا من حاسدٍ سرَّ قلبه ألمي

والحمد لله لا شريك له

لحمي للأرض بعدها ودمي

ما من صحيح إلا ستتقله

الأيام من صحة إلى سقم

أخبرنا أبو أحمد، عن الصولي، عن المبرد وأبي العيناء، قال: كان أبو علي الحرمازي في ناحية عمرو بن مسعدة، وكان يجري عليه فخرج عمرو إلى الشام مع المأمون وتخلف الحرمازي ببغداد لنقرس باله فقال:

أقام بأرض الشام فاختلَّ جانبي

ومطلبه بالشام غير قريب

ولا سيما من مفلسٍ حلفَ نقرس

أما نقرسٌ في مفلسٍ بعجيب

وأخبرنا أبو أحمد، عن الصولي، عن محمد بن زكريا، قال: ذكر الأعرابي رجلاً قد أثرى فقال: قد تنقرس، وذلك لقول الناس: إن النقرس يعرض لذوي النعمة والترفة، ومنه قول الأعرابي:

فصرتُ بعدَ الفقرِ والتَّأيسِ

يخشى عليَّ القومُ داءَ النقرسِ

ويقال للرجل العالم نقرس، وللداهية نقرس قال المتلمس:

ويخشى عليك من الحباء النقرس

ومن مليح النوادر ما أخبرنا به أبو أحمد، عن الصولي، عن يموت بن المزرع، قال: حضر الجماز عند أبي يوماً، ودخل رجلٌ فقال له: ما أخرك عنا؟ فقال: أصابني خلفه أما تري وجهي؟ فقال الجماز: ما أبين الاختلاف على وجهك. وقال المتنبّي في الحمى:

وزائرتي كأنَّ بها حياءَ

فليس تزورُ إلا في الظلام

جعلتُ لها المطارفَ والحشايا

فعاقتها وباتتُ في عظامي

إذا ما فارقتني غسلتني

كأنا عاكفانٍ على حرام

وهذا البيت معيب، لأن الغسل غير مقصور على الحرام وحده، بل هو من الحلال والحرام جميعاً، فليس لتخصيص الحرام به وجه. وقلت في حمى نالتني:

وأخبر أني رحتُ في حلة الضنى

لياليَ عشرًا ضامها الله من عشرٍ

تتفضني الحمى ضحى وعشيةً

كما انتفضتُ في الدجنِ قادمتي نسرٍ

تذرُّ عليَّ الورس في وضح الضحى

وتبدله بالزعرانِ لدى العصرِ

إذا انصرفتُ جاء الصداعُ مشمراً
وتجعلُ أعضائي عيوناً دوامعا
فتحسبه طلاً على أقحوانة
ولما تماردتُ عدتُ منها بحميّة
وما منهما إلا بلاءٌ وفتنةٌ
ومن مرض لمرض الجفون: أنشدني أبو أحمد، عن الصولي، قال: أنشدني أبو عبيد الله ابن عبد الله لنفسه:

تمارضتُ لما تكنُ لك علةٌ
فلا تجعلنُ سقماً بطرفك علةً
وقلتُ شهيدي ما بطرفي من السقم
فقد كانَ ذاك السقم في صحّةِ الجسمِ

وقال غيره:

أحببتُ من أجله من كان يشبهه
وقد جلبتُ بجسمي سقماً مقلته
وكلُّ شيء من المعشوقِ معشوقُ
كأنَّ جسمي من عينيه مسروقُ

وقال الأحيطل:

كيف يضني بعد ما كان
ن الضننى عوناً لعينه

وقال ابن الرومي وقد مرض فتخلف اخوانه عن عيادته:

عليكم لا يعادُ من علة
لا إن جفوتم دنا المماتُ ولا
ما ضرَّ مجفوكم جفاؤكم
بألمس في جسمه ولا أمله
وضيفكم لا يسدّ من خلله
إن زُرتمُ تنسؤونَ في أجله

وأنشدني أبو أحمد، عن الصولي، لمحمد بن محمد بن إبراهيم اليزيدي:

ما لي مرضتُ فلم تعدُ
الحبُّ يذهبُ الأذى
ورغبتُ فيك فلم تجدُ
فاحذرْ عليه ولا تعد

وهذا شعرٌ مطبوعٌ مختار، والبيت الأخير مأخوذ من قول الأعرابي:

فإني رأيتُ الحبَّ في القلبِ والأذى
إذا اجتمعا لم يلبثُ الحبُّ يذهبُ

وقلت:

وقد عادني الإخوانُ من كلِّ جانبٍ
وما قصرُوا في العرفِ والفضلِ والبرِّ

أيا ظالماً أخلَى النجوم من البدرِ
فلم لم تسلُ عني فتخبر عن أمري
تمجمجها إحدى يمينك في ظهرِ
فكيف يُرجى جودُ بادرةِ الشعرِ
وأنتم كرامُ الناسِ في البدوِ والحضرِ
فما ذنبُ ذي جهلٍ فرى مثلَ ما تفري
وأنت على أمثالِ غايرهم تجري

فلم لم تكنَ فيهم فيكمل حسنهم
وإذ كنتَ لم تنهضُ إليَّ ولم تكذب
ومالك لم تبعثُ إليَّ بأسطُرٍ
تضنُّ بتسليمِ وزرةِ ساعةٍ
إذا لم تكونوا للحقوقِ فمنُ لها
وأنت إذا أنحيتَ تفري أديمها
وما لعادةِ العلمِ تذكرُ عيهم

ومن الغريب البديع مدح الموت وهو قول ابن الرومي:

للموت ألفُ فضيلةٍ لا تُعرفُ
وفراقُ كلِّ مُعاشِرٍ لا يُنصفُ

قد قلت إذ مدحوا الحياةَ فأكثرُوا
فيها أمانُ لقائه بلقائه

ومن أحسن ما قيل في مكابدة النفس عند الموت قوله أيضاً:

هذا يُودِّعنا وهذا يكسفُ

بات الأميرُ وبان بدرُ سمائنا

ولعل ذلك مأخوذ من قول الأول:

وللدنيا بأهلها صروفُ
ولم يشركه في الشكوى أليفُ
يجولُ على محاسنه كسوفُ

ألم يبلغك والأنباء تنمى
صريعٌ لم يُوسدَّه قريبُ
يظلُّ كأنه قمرٌ مُنيرٌ

ولهذا البيت رونق عجيب وطلاوة حسنة.

ومن عجيب ما جاء في وصف المصيبة قول حذيفة بن اليمان: إن الله تعالى لم يخلق شيئاً إلا صغيراً ثم يكبر، إلا المصيبة فأنها خلقت كبيرة ثم تصغر. وهذا قول مصيب لا يتمارى به ومنه أخذ قوله:

فكذا يبلى عليهم الحزنُ

وكما تبلى وجوهٌ في الثرى

ولا أعرف في التعزي عن المصيبة، كلاماً أحسن تقسيماً، من قوله الأعرابي ومات له ثلاثة بنين، في يوم واحد، فدفنهم وعاد إلى مجلسه، فجعل يتحدث كأن لم يفقد واحداً فليم على ذلك فقال: ليسوا في الموت ببدع ولا أنا في المصيبة بأوحد، ولا جدوى للجزع فعلام تلوموني. فهذه الثلاثة الأقسام لا رابع لها.

وعزى رجل رجلاً، وقد ولدت امرأته ابناً وماتت في نفاسها، فقال أعظم الله أجرك فيما أباد وأجزل فيما أفاد: ولا أعرف أحداً أجاد هذا المعنى، كما أجاده عبد الملك بن صالح الكاتب: أخبرنا أبو أحمد، عن الصولي قال: قيل للرشيد إن عبد الملك بن صالح، يعد كلامه، ويفكر فيه، فلذلك بانت بلاغته، فأنكر ذلك الرشيد، وقال: هو طيع فيه، ثم أمسك حتى جاء يوماً، ودخل عبد الملك فقال للفضل بن الربيع: إذا قرب من سريري، فقل له ولد لأمر المؤمنين في هذه الليلة ابن، ومات له ابن فقال له الفضل في ذلك، فدنا عبد الملك فقال: يا أمير المؤمنين، سرى الله فيما ساءك، ولا ساءك فيما سرى، وجعلها واحدة بواحدة ثواب الشاكرين، وأجر الصابرين. فلما خرج، قال الرشيد: هذا الذي زعموا أنه يتصنع للكلام ما رأى الناس أطيع من عبد الملك في الفصاحة قط. وعزى أعرابي رجلاً فقال: لا أراك الله بعد مصيبتك ما ينسيكها.

وأحسن ما قيل في مدفون، قول ابن الرومي في بستان جارية أم علي بنت الراس:

من حُسنِ مرأىٍ وطهرِ مُختبرِ

سُكنى الغوالي مدهنِ السُررِ

لانخفاضِ القبرِ غيرِ محقرِ

تاهَ على كلِّ مَنْ يليه

إن الذي تحذرينَ قد وقعا

وأصبحَ مغنى الجود بعدك بلقعا

فأصبحَ للهنديّةِ البيضِ مرتعا

تصلاهَ علماً أن سيحسنُ مسمعا

فخانك حتى لم يجدُ فيك منزعا

فقطعها ثم انثنى فنتقعا

الله ما ضمننتُ حفيرتُها

أضحتُ من الساكني حفائرهمُ

لو علمَ القبرُ من أتيجَ له

وهذا البيت مأخوذ من قول الأول:

لو علمَ القبرُ من يوارى

وقالوا أحسن مرثية للعرب ابتداءً قول أوس بن حجر:

أيتها النفسُ أجملِي جَزَعاً

وأحسن مرثية لمحدث ابتداءً قول أبي تمام الطائي:

أصمَّ بكِ الداعي وإن كان اسمعا

فقال فيها:

فتىَّ كان شرباً للعفاةِ ومرتعى

إذا ساءَ يوماً في الكريهةِ منظرأ

فإن ترم عن عُمرِ تدانى به المدى

فما كنتَ إلا السيفَ لاقى ضريبةً

وقالوا: أرثى بيت قائلته العرب، قول متمم بن نويرة، في أخيه مالك، قتل في الردة، قتله خالد بن الوليد: أخبرنا أبو أحمد، قال: أخبرنا أبو بكر بن دريد، عن أبي حاتم، عن الأصمعي، قال: كان متمم بن نويرة، قدم العراق فأقبل لا يرى قبراً إلا بكى عنده، فقبل له: يموت أخوك بالملا وتبكي على قبره بالعراق! فقال:

لقد لامني عند القبورِ على البكا رفيقي لتذarfِ الدموعِ السوافكِ

وهذا البيت غير مختار الرصف عندي وفي ألفاظه زيادة على معناه:

أمنُ أجلِ قبرٍ بالملا أنتِ نائِحٌ على كلِّ قبرٍ أو على كلِّ هالكِ

فقلت له إنَّ الشجي يبعثُ الشجي فدعني فهذا كله قبرُ مالكِ

يقول: قد ملأ الأرض مصابه عظماً، فكأنه مدفون بكل مكان. وهذا أبلغ ما قيل في تعظيم الميت. ومنه أخذ القائل قوله أخبرنا به أبو أحمد، عن ابن الأنباري، عن ثعلب عن الرياشي لرجل يرثي عمر بن عبد العزيز، وهو عندي من أرثى ما قيل:

لهفي عليك للهفة من خائف كنتَ المجيرَ له وليسَ مجيرُ

عمتُ صنائعه فعمَّ مُصابه فالناسُ فيه كلهم مأجورُ

فالناسُ ماتمهمُ عليه واحدٌ في كلِّ وادٍ رنةٌ وزفيرُ

يثني عليك لسان من لم توله خيراً لأنك بالثناءِ جدير

ردتُ صنائعه إليه حياته فكأنه من نشرها منشورُ

والصحيح أن يقول منشور لأنه يقال انشر الله الموتى فنشروا هم.

وقالوا أرثى بيت قائلته العرب قول المحدث:

على قبره بين القبورِ مُهابَةٌ كما قبلها كانتُ على صاحبِ القبرِ

وقالوا بل قول الآخر:

أدوا ليخفوا قبره عن عدوه فطيبُ ترابِ القبرِ دلَّ على القبرِ

وقالوا أرثاه قول ابن منذر:

أنعى فتى الجودِ إلى الجودِ ما مثل من أنعى بوجودِ

أنعى فتى مصَّ الثرى بعده بقيّة الماءِ من العودِ

وأخبرنا أبو أحمد، قال: سمعت محمد بن يحيى، قال: سمعت محمد بن يزيد يقول: لو سئلت عن أحسن أبيات تعرف في المراثي لم اختر على أبيات الخريمي:

وأحشي عليه الترب لا أتخشع
وسهم المنايا بالذخائر موع
وصانعت أعدائي عليه لموجع
عليه ولكن ساحة الصبر أوسع

ألم تراني أبني على الليث بنية
وأعدته ذخراً لكل ملمة
وأني وإن أظهرت مني جلادة
ولو شئت أن أبكي دماً لبكيتة

وقال أبو عمرو بن العلاء أرثي بيت قول عبدة:

ولكنه بُنيان قوم تهدهما

فما كان قيس هلكه هلك واحد

وقال خلف الأحمر أرثي بيت:

وافتر نابك عن شبابة القارح
وأعنت ذلك بالفعال الصالح

الآن لما كنت أكمل من مشى
وتكاملت فيك المروءة كلها

وقال الأصمعي أرثي بيت للعرب:

وزدت بما زودتني مُتمتعا
خلافك حتى ننطوي في الثرى معا

ومن عجب أن بت مستشعر الثرى
ولو أنني أنصفتك الود لم أبت

ومن أحسن ما قيل في بقايا آثار الميت قول الحسين بن مطير:

كما كان بعد السيل مجراه مرتعا

فتى عيش معروفه بعد موته

وفي هذه القصيدة:

من الأرض خطت للسماحة مضجعا
ولو كان حياً ضقت حتى تصدعا
وأصبح عرنين المكارم أجدعا

أيا قبرٍ معنٍ كنت أول حفرة
ويا قبرٍ معنٍ كيف واريث شخصه
فلما مضى معن مضى الجود والندى

وأنا أقول: إن هذه الأبيات أرثيها قيل في الجاهلية والاسلام.

وقالوا: أرثي بيت قيل قول مهلهل في كليب:

واستبَّ بعدك يا كليب المجلس
لو كنت شاهدهم إذا لم ينبسوا

نبئت أن النار بعدك أوقدت
وتكلموا في أمر كل عظيمة

وكان كليب إذا أوقد ناراً، لم يوقد أحداً ناراً، ولم يتزل ضيف إلا عليه، وإذا جلس مجلساً، لم يتكلم فيه أحد إلا هو.

وقالوا: أحسن ما قيل في المراثي قول متمم بن نويرة في أخيه مالك:

وكنا كندمانِي جُدِيمةَ حَقْبَةٍ من الدهرِ حتى قيلَ لن تتصدعا
فلما تفرقنا كأني ومالكاً لطول اجتماعٍ لم نبتُ ليلَةً معا

وليس في المحدثين أحسن مراثي من أبي تمام فمن ذلك قوله:

غدا غدوةٌ والمجدُ نسجُ ردايهِ فلم ينصرفُ إلا وأكفانهُ الأجرُ
فأثبتَ في مستنقعِ الموتِ رجلَهُ وقال لها من تحتِ أخصكِ الحشرُ
فتى ماتَ بينَ الضربِ والطعنِ ميتَةً تقومُ مقامَ النصرِ إن فاتتهِ النصرُ
فتى سلبتهِ الخيلُ وهو لها حمى وبزتهِ نارُ الحربِ وهو لها جمرُ
كأنَّ نبيَ نبهانٍ يومَ وفاتهِ نجومُ سماءٍ خرَّ من بينها البدرُ
مضى طاهرَ الأثوابِ لم تبقَ روضةً غداةً ثوى إلا اشتهدتُ أنها قبرُ
وكيف احتمالي للسحابِ صنيعة بإسقاتهِ قبراً وفي لحدهِ البحرُ

ولولا كراهة الإطالة، لأوردت القصيدة كلها، إذ ليس فيها إلا مختاراً.

وقوله في إدريس بن بدر السامي:

أدريسُ ضاعُ المجدُ بعدك كلُّهُ ورأي الذي يرجوهُ بعدك أضيغُ
وضلَّ بك المرتادُ من حيث يهتدي وضربَ بك الأيامُ من حيث تنفعُ
وتبسُّ كفاً في الخطوبِ كأنما أناملُها في البأسِ والجودِ أدرغُ
ولم أنسَ سعيَ الجودِ حولَ سريرهِ باكسفِ بالِ يستقيمُ ويظلعُ
وقد كان يدعى لابسَ الصبرِ حازماً فقد صار يدعى حازماً حين يجزغُ

وقوله في بني حميد:

عهدي بهم تستنيرُ الأرضُ إن نزلوا فيها وتجتمعُ الدنيا إذا اجتمعوا
ويضحكُ الدهرُ منهم عن غطارفة كأنَّ أيامهم من أنسها جُمعُ

فيما الشماتة إعلاناً بأسد وغي أفناهم الصبرُ إذ أبقاهم الجزغُ

وقوله أيضاً:

إذا فُقدَ المفقودُ من آل مالكِ
خليليٍّ من بعد الأسيِّ والجوىِّ قفا
ألمّا فهذا مصرعُ البأسِ والندى
ألم تريا الأيامَ كيفَ فجعنا
تقطعَ قلبي رحمةً للمكارمِ
ولا تقفا فيضَ الدُموعِ السّوامِ
وحسبكما إن قلتُ مصرعُ هاشمِ
به تمَّ قد شاركتنا في المآتمِ
خطونَ إليه من نداءه وبأسه
خلائقُ أوقى من سيورِ التمامِ

وقد كثرت علي محاسنه في هذا الباب فما أدري ما أورد وما أترك.
وقد أحسن القائل:

وسميته يحيى ليحيا ولم يكنْ
تيممتُ فيه الفالَ حينَ رزقته
إلى ردِّ أمرِ الله فيه سبيلُ
ولم أدرِ أنَّ الفالَ فيه يفيلُ

وأخذ أبو تمام قول الفرزدق في جارية له ماتت وفي بطنها غلام:

وجفن سلاح من معدِّ رزنته

والبيت:

وفي جوفه من دارم ذو حفيظة
لو أنَّ الليالي أنسأته لياليا

وكان وجه الكلام أن يقول: وفي جوفه ذو حفيظة من دارم. فقال أبو تمام وزاده زيادة أسقط بها بيت الفرزدق حتى صار لا قيمة له معها وهو قوله في ابنين لعبد الله بن طاهر قد ماتا صغيرين في يومٍ واحدٍ:

نجمانِ شاءَ الله أن لا يطلعا
إنَّ الفجيرةَ بالرياضِ نواضراً
إلا ارتدادَ الطرفِ حتى يأفلا
لو ينسيان لكان هذا غاربا
لأجلُ مها بالرياضِ ذوابلا
لهفي على تلك الشواهدِ فيهما
للمكرّماتِ وكان هذا كاهلا
لغدا سكونهما حجاً وصباهما
أيقنت أن سيكونَ بديراً كاملا
إنَّ الهلالَ إذا رأيتَ نموّه

ثم قال يؤسبه:

إن ترزَ في طرفي نهارٍ واحدٍ
فالثقل ليس مضاعفاً لمطيةٍ
رُزعين هاجا لوعة وبلايلا
إلا إذا ما كان وهماً بازلا

ثم قال أيضاً:

شمخت خلائك أن يؤسيك امرؤ
إلا مواعظَ قادهما لك سمحة
هل تكلفُ الأيدي بهزَّ مُهتدٍ
أو أن تذكرَ ناسياً أو غافلاً
أسجاح لُبِّك سامعاً أو قاتلاً
إلا إذا كان الحسامُ الفاصلاً

وقالوا: ليس للعرب مرثية أجود من قصيدة كعب بن سعد، التي يرثي فيها أخاه أبا المغوار ويقول فيها:

أتى دونَ حلوى العيشِ حتى أمره
هوت أمه ما يبعثُ الصبحُ غاديا
هوت أمه إذا ما الحلمُ رينَ أهله
هوت أمه ماذا تضمنَ رحله
فتى أريجيُّ كيف يهتزُّ للندى
حليفُ الندى يدعو الندى فيجيبه
فإن تكنِ الأيامُ أحسنَّ مرّة
وحدّثتُماني إنما الموتُ بالقري
نكوبٌ على آثارهِن نكوبٌ
وماذا يؤدّي الليلُ حينَ يؤوبُ
مع العلمِ في عينِ العدوِّ مهيبُ
من الجودِ والمعروفِ حينَ ينوبُ
كما اهتزَّ من ماءِ الحديدِ قضيبُ
قريباً ويدعوه الندى فيجيبُ
إليّ فقد عادتُ لهنَّ ذنوبُ
فكيف وهذي هضبةٌ وكثيبُ

وقال فيها:

وداعِ دعانا من يجيب إلى الندى
فقلت ادع أخرى وارفض الصوت مسمعا

ومن عجيب المراثي قول الرقاشي في البرامكة:

الآن استرحنا واستراحت ركابنا
فقل للمطايا قد أمنت من السرى
وقل للمنايا قد ظفرت بجعفر
وقل للعطايا بعد فضل تعطلي
وقل الذي يجدي ومن كان يجتدي
وطي الفيافي فدفداً بعد فدفدٍ
ولن تظفري من بعده بمسود
وقل للرزايا كل يوم تجددي
أصيب بسيف الهاشمي المهند

ومن جيد المراثي قول الآخر:

سأبكيك للدنيا وللدين أنني
رأيت يدَ المعروفِ بعدك شلت

وليث إذا ما المشرفية سلّت

ربيع إذا ضنّ الغمام بمائه

وقد أحسن أبو الحسن الأنباري القول في ابن بقية حين صلب:

بحق أنت إحدى المعجرات

علوّ في الحياة وفي الممات

وفود نذاك أيام الصلّات

كأنّ الناس بعدك حين قاموا

وهذا البيت مأخوذ من وقول ابن المعتز في عبد الله بن سليمان حين توفي:

قيام خضوع للسلام عليه

وصلوا عليه خاشعين كأنهم

وكلهم قيام للصلّاة

كأنك قائم فيهم خطيباً

كمدّكها إليهم بالهبّات

مددت يديك نحوهم جميعاً

يضمّ غلاك من بعد الممات

ولما ضاق بطن الأرض عن أن

عن الأكفان ثوب السافيات

أصاروا الجوّ قبرك واستتابوا

تمكّن من عناق المكرمات

فلم أر قبل جذعك قطّ جذعاً

ومن جيد ما قيل في عظم شأن الميت قول ابن المعتز:

قوموا انظروا كيف تزول الجبال

هذا أبو القاسم في نعشه

وقول أبي تمام:

قبور لكم مستشرفات المعالم

بني مالك قد نيّهت حامل الثرى

وفيها عللاً لا يرتقى بالسلام

رواكد قيد الكف من متناول

وقلت:

وأبانا ويذبلاً وحراء

سائل القبر كيف أضمرت قدساً

أو على ذروة النعوش تراءى

من رأى البدر بالتراب توارى

وقال ابن المعتز وأحسن:

ولا نعتذر مع دمع عين على خدّ

تعالوا نرر قبر السماحة والرّفد

ومنت على رغم المحامد والمجد

لقد عشت لم يعلّق بفعلك ذمّة

وقال أيضاً:

وكيف دفننا الخلق في قبر واحد

ألست ترى موت العلى والمحامد

وللدَّهْرِ أَيامٌ يُسْتَنَ عَوامداً

وقال دعبيل بن علي الخزاعي:

حَنَطْتُهُ يَا نَصْرُ بِالْكَافُورِ

هَلَا بَبَعْضِ خِلَالِهِ حَنَطْتُهُ

وقلت:

ويحسن إن أحسن غير عوامدٍ

ورفعتهُ للمنزلِ المهجورِ

فيضوعُ أفقِ منازلٍ وقبورِ

غدتُ داره قفراً ومغناه بلقعا

أشَلَّ وَأَنَّ الْجُودَ أَصْبَحَ أَجْدَعَا

إلى المجدِ والعلياءِ كيف تخشعا

على الجودِ والمعروفِ والفضلِ أربعا

ونوحاً لفقدِ العارفاتِ مُرجعا

ولكنه بنيانُ قومٍ تضعضعا

ولكنني واريتهُ والندي معا

على الرغم من أنف المكارم والعلی

ألم تر أن البأسَ أصبحَ بعدهُ

فمرا على قبرِ المسودِ وانظرا

فإن يكُ واره الترابُ فكثيرا

ولا تسأما نوحاً عليه مكرراً

فما كان قيسٌ هلكهُ هلكُ واحد

ولا تحسبا أني أورايه وحده

ومن بارع المراثي قول ديك الجن الحمصي:

ماتَ حبيبٌ فماتَ ليثٌ

سمتُ عيونُ الردى إليه

ما أمك اجتاحتِ المنايا

ومما جاء في صفة القبر قول الشاعر:

ورسمُ دارٍ مُفقرُ الجنابِ

وقالوا أصدق ما قيل في صفة الدنيا قول أبي نواس:

إذا امتحنَ الدنيا لبيبٌ تكشفتُ

وهو مأخوذٌ من قول جرير في وصف النساء:

دعينَ الهوى ثم ارتمينَ قلوبنا

وقال بل أصدق ما قيل في صفة الدنيا قول الأول:

حُتوفها رصداً وعيشها نكدٌ

وغازٍ بحرٌ وباخٍ نجمُ

وهي إلى المكرماتِ تسمو

كلُّ فؤادٍ عليك أمٌ

يزدادُ عُمرانا على الخرابِ

له عن عدوٍّ في ثيابِ صديقِ

بأسهمِ أعداءٍ وهُنَّ صديقُ

وصفوها رتقٌ وملكها دُولُ

وقلت:

ما بالُ نَفْسِكَ لا تَهْوَى سَلامَتَها
دارٌ إذا أنتِ الأَمالُ تَعَمَّرُها
فأنتِ في عَرَضِ الدنِيا ترغِبا
جاءتِ مَقدِمةُ الأَجالِ تَحْرِبا

أصبحتَ تَطَلِبُ دُنيا لستَ تَدركُها
ومن جَيد ما قَيل في الزهد قول ابن المعتز:
نَسيرٌ إلى الأَجالِ في كُلِّ لَحظةٍ
ولم أرَ مِثْلَ المَوتِ حَقاً كَأَنه
فكيف تُدركُ أُخرى لستَ تَطَلِبُها
وأيامُنا تَطوَى وَهَنٌ مَراحِلُ
إذا ما تَخَطَّتْهُ الأَمانيُّ باطل

وقلت:

أَلستَ تَرى مَوتَ العَلا والفضائلِ
فما للمَنايا أَغفلتِ كُلَّ ناقصِ
على الرِّغمِ من أنفِ العَلا سَبقَ الرَدَى
على أنَّ من أبقتَهُ لَيسَ بِخالِدِ
رأيتُ المَنايا بَينَ غادٍ ورائِحِ
ولم أرَ كالدنِيا حَبيباً مُضِرَّةً
وكيفَ غروبُ النَجمِ بَينَ الجنادلِ
ونقبنَ في الأَفاقِ عن كُلِّ فاضلِ
بكلِّ كَريمِ الفِعلِ حرَّ الشَمائِلِ
ولَيسَ امرؤٌ يَرجو الخلودَ بِعَاقِلِ
فما للبرايا بَينَ ساهٍ وغافلِ
ولم أرَ مِثْلَ المَوتِ حَقاً كَباطِلِ

وقال ابن المعتز:

كَم بدارِ المَوتِ من ذي إِرَبَة
وملوكِ بليتِ أيدِهم
عَجزتُ مِنه على المَوتِ الحَيلِ
ولقد كانتُ مطايا للقبَلِ

وقلت:

فَتعجبتُ كيفَ لا نَحذرُ المَوتِ
تَ وأنفاسُنا خُطانا إليه

وقرأت للجاحظ كلاماً مفقود النظير، معدوم الشبيه، لا أعرف لأحد مثله، وهو: أيها المستدل على أمور الدنيا، كفاك بما على نفسها دليلاً، ويومها لك من غدها تشبيهاً وتمثيلاً، تالله لقد أطلعتك بمؤتلفاتها على حدوث تأليفها، وأثبتت لك الصانع بآثار صنعته فيها، ووقفتك على معرفة كمالها، بما توافي فيك من أجزائها، ودلتك بتحليل المركبات فيها، على انحلال تركيبها، ووقفتك بقطع الشمس والقمر قطرها على إدبارها وانقطاعها، فكشفت لك انتهاء حدودها عن تناهي أمدها، وأبان لك دؤوب اطراد نهارها وليلها،

وتتابع دوران بروجها ونجومها، وتعاقب أزمنة بردها وحرها واعتدالها، وحركات نيرانها ورياحها ومياهها، ألها مسوقة محثوة إلى أمدها، كما تحت براياها بالأوقات الجارية إلى آجالها. ثم قال: وتحدث ما تخوفك به طوارق أحداثها، وتوطنك على إبطان جثمانها، حدثاً من أحداثها، لا تمسك منها بعروة إلا شهدت على أشكالها، فأية نصيحة أصدق لك من نصيحتها، أو عظة أشفى وأبلغ من عظتها، أو شهادة أصح وأعدل من شهادتها، بالفناء على نفسها، ألم تر أجزاءها مؤتلفة بالاجتماع، مختلفة بالطباع، يهلك بعضها بعضاً ويعود إبرامها نقضاً، فيا ناسياً للصخر مفارقك، وأنه وإن جدته مخلقك، وأنك تطلقه في شهواته ويوثقك، ويبقى عليه من التعب ويوبقك، ففيم تشتغل به عن مصلحتك، وعلام تتكل في عقيبك، إلى أن قال: وتقوى على الزهد فيما يتنافس الجهال بذكر الموت وفجأته، وبغتاته ووضوح آياته، وغموض ميقاته، وانخزال المحالة عن دفعه، ويأس النفوس من منعه، عند غوصه عليها في الأبدان، وتحليله لها من الأعظم والأعصاب، والعروق واللحم والإهاب، حتى يسوقها من الأغماض والأوصال، سياق مضيق للخناق، محقق للفراق مؤيس من التلاق، عند إحساسه بموت جسده عضواً فعضواً، وفقدان قوته جزءاً جزءاً وهي تمرح في الصدر حشرجة، وفي الجوانح رجرجة، وفي اللهوات غرغرة، وفي الحلقوم خرخررة، بالترع الجاذب، والعلن الكاذب، والفواق الدائب، الانفاس الذواهب، فهناك تنفس الصعداء وتوقد البرحاء، وفي سمعه وبصره بقية يرمق بها أولاده يتامى، ونساء أيامي وأمواله نهى، وجموعه شتى، ووجوه الشامتين به مشرقة، والدموع من أحبته مستبقة، والجيوب عليه مشققة، والشعور مقطعة، والحدود باللطم مبقعة، وذلك غير عائد عليه ولا عليهم بمنفعة في كلام طويل: ومن جيد ما قيل في إفضاء السلامة بصاحبها إلى الهلاك قول النمر بن تولي:

تدارك ما قبل الشبابِ وبعدهُ

حوادثَ أيامِ تمرُّ وأغفل

يودُّ الفتى طولَ السلامةِ والغنى

فكيف ترى طولَ السلامةِ يفعل

يردُّ الفتى بعدَ اعتدالِ وصِحَّةِ

ينوءُ إذا رامَ القيامَ ويحملُ

وقيل لرجل من الأوثال: ما كان سبب موت أخيك؟ قال: كونه.

فأحسن ما شاء. وقال بعضهم في معناه:

نغصَ عيشي كله فناؤهُ

ما بالُ من آفته بقاؤهُ

وقال آخر في نحوه:

من الأشياءِ تحلوقِ في الحلقِ

فإنَّ الداءَ أكثرَ ما تراهُ

ومن جيد ما قيل في موت الولد قول ابن الرومي:

بكاؤكما يشفي وإن كان لا يجدي
توفى حمام الموت أوسط صبيتي
طواه الردى عني فأضحى مزاره
عجبت لقلبي كيف لم ينفطر له
وما سرني أن بعته بثوابه
ولا بعته طوعاً ولكن غضبته
فجودا فقد أودى نظير كما عندي
فلله كيف اختار واسطة العقد
بعيداً على قرب قريباً على البعد
ولو أنه أقسى من الحجر الصلد
ولو أنه التخليد في جنة الخلد
وليس على ظلم الحوادث من مُعدي

وأما موت الأخ، فقد روينا فيه خبراً مليحاً، أخبرنا به أبو طاهر، محمد بن يوسف، قال: أخبرنا أبو الحسن علي بن محمد بن بكر، قال: حدثنا أيوب بن سليمان، قال حدثني يوسف قال: حدثنا صهيب بن محمد قال حدثنا إسماعيل بن عمرو قال حدثنا إسماعيل بن عياش، عن عبد الله بن دينار، قال: قدم لقمان من سفر، فلقي غلاماً له فقال له: ما فعل أبي؟ قال: مات. قال: ملكت أمري. فما فعلت أمي؟ قال: ماتت قال: ذهب همي قال: فما فعلت أختي؟ قال: ماتت. قال: سترت عورتني قال: فما فعلت امرأتي؟ قال: ماتت قال: جدد فراشي قال: فما فعل أحي؟ قال: مات. قال: أوه انقطع ظهري. انتهى.

وذكر قدامة بن جعفر أن أبا جعفر المنصور لما دفن ابنه جعفر الأصغر قال للربيع كيف قال مطيع بن إياس: فأنشده:

يا أهل بكوا لقلبي القرح
راحوا بيحيى ولو تطاوعني الأ
يا خير من يحسن البكاء له ال
قد شمت الحزن بالسرور وقد
وللدُموع الذوارف السُفح
قدار لم تبتكر ولم ترح
يوم ومن كان أمس للمدح
أدبل مكروهه من الفرح

فبكى المنصور ثم قال: صاحب هذا القبر أحق بهذا الشعر، ثم أذن للناس فدخلوا ونصبت الموائد فلم يقدر أن يمد يده من الجزع الذي كان خامره فقال شبيب بن شيبه فأنشده قول الثقفى في ابنه علي، وكان شرطة عبيد الله بن العباس باليمن فقتله بسر بن أرطاة فقال يرثيه:

لعمري لقد أودى ابن أرطاة فارساً
تأمل فإن كان البكا رداً هالكاً
بصنعاء والليث الهزبر أبي الأجر
على أحد فاجهد بكاك على عمرو

فسري عنه وأكل مع الناس ورفع الحزن مع رفع الطعام.
ومن عجيب المراثي قول الأشجع:

مضى ابن سعيد حين لم يبقَ مَشْرُقٌ
وما كنتُ أدري ما فواضلُ كفه
فأصبحَ في لحدٍ من الأرضِ ميتاً
سأبكيك ما فاضتْ دُموعي وإن تغض
كأن لم يمْتَ حَيٌّ سِوَاكَ ولم تقمُ
لئن حسنتُ فيك المراثي وقيلها
وما أنا من رزءٍ وإن جَلَّ جازعُ
ولا مغربٌ إلا له فيه مادحُ
على الناس حتى غيبتهُ الصفائحُ
وكان به حياً تضيقُ الأباطحُ
فحسبك مني ما تحنُّ الجوانحُ
على أحدٍ إلا عليك النوائحُ
لقد حسنتُ من قبلُ فيك المدائحُ
ولا بسرورٍ بعدَ موتك فارحُ

وأنشدنا أبو القاسم عبد الوهاب بن إبراهيم قال: أنشدنا العقدي، قال: أنشدنا أبو جعفر عن المدائني لعرفجة بن شريك يرثي أوساً:

رأيتُ المنايا تصطفي سِرَّواتنا
فما كانَ قيسٌ عاجزاً غيرَ أنه
وطابَ لوردِ الموتِ نفساً ولم يخمُ
فصادفَ رق الموتِ حراً سميدياً
حمى أنفه أوس ولم يثنَ وجههُ
ومن ههنا أخذ أبو تمام قوله:

وقد كانَ فوتِ الموتِ سهلاً فرَدَّهُ
وعزى ابن السماك الرشيد عن ابن له مات فقال:

أما بعد فإن استطعت أن يكون شكرك لله حين أخذه، أكثر من شكرك لله حين وهبه فافعل، فإنه حين قبضه أحرز لك هبته ولو بقي لم تسلم من فتنته، عجباً لجزعك على ذهابه، وتلهفك على فراقه، أرضيت الدار لنفسك، فترضاها لولدك، أما هو فقد خلص من الكدر، وبقيت معلقاً بالخطر. والسلام.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله حمداً لا يحصى عدده ولا يبلغ أمده، وصلواته على سيدنا ونبينا محمد وآله الطاهرين المختارين وسلم.

هذا كتاب المبالغة في

صفة أشياء مختلفة

يختتم بها كتاب ديوان المعاني وهو:

الباب الثاني عشر منه فأول ذلك

القول في الحنين إلى الأوطان

أخبرنا أبو أحمد عن أبيه عن عسل بن ذكوان قال: قال أبو سرح: سمعني أبو دلف أنشد:

نزوع نفس إلى أهلٍ وأوطانٍ

لا يمنعك خفض العيش في دعةٍ

أهلاً بأهلٍ وجيراناً بجيرانٍ

تلقى بكلِّ بلادٍ أنتَ ساكنها

فقال: هذا ألام بيت قالته العرب.

قال أبو هلال رحمه الله: النزوع ههنا رديء والجيد النزاع، وإنما جعل أبو دلف هذا البيت الأم بيت لأنه يدل على قلة رعاية، وشدة قساوة، وحنين الرجل إلى أوطانه منقبة، من علامات الرشد لما فيه من الدلائل على كرم الطينة وتمام العقل.

وقالت الحكماء: حنين الرجل إلى وطنه من علامات الرشد.

وقال بزرجمهر: من أمارت العاقل بره بإخوانه وحنينه إلى أوطانه، ومداراته لأهل زمانه.

وقال أعرابي: لا تشك بلداً فيه قبائلك ولا تحف أرضاً فيها قوايلك.

وقالت العرب: أكرم الخيل أشدها خوفاً من السوط، وأكيس الصبيان أشدهم بغضاً للمكتب، وأكرم

الصفاي أشدها حنيناً إلى أوطانها، وأكرم المهارة أشدها ملازمة لأمهاقها، وأكرم الناس ألفهم للناس.

وقد بين الله تعالى فضل الوطن، وكلف النفوس به في قوله تعالى: "ولو أنا كتبنا عليهم أن يقتلوا أنفسهم

أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليلاً منهم" فجعل خروجهم من ديارهم كفؤ قتلهم لأنفسهم.

ومنه قوله تعالى: "وإذا أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم" وقوله

تعالى: "ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا" فجعل إخراجهم إياهم من ديارهم بدلاً من العذاب المستأصل لهم لشبهه به عندهم.

وقال بعض الحكماء: الخروج من الوطن أحد السبابين والجلاء أحد القتلين.

وقال يحيى بن طالب:

إذا ارتحلتُ نحو اليمامة رفقةً دعاني الهوى وارتاح قلبي إلى الذكرِ

يقولون إنَّ الهجرَ يشفي من الهوى وما ازددتُ إلا ضعف ما بي على الهجرِ

وكان كثيرٌ من العرب ممن يعتزى إلى فضل كرم ولا ينتجعون وكذلك كانت قريش: وقال الحارث بن ظالم:

رفعتُ الرُّمَحُ إذ قالوا قريشُ وشبهت الشمائل والقبابا

ولو أني أطاوغُ كنتُ فيهم وما سيرتُ أتبع السحابا

وقال الحويدرة:

وتقيمُ في دار الحفاظ بيوتنا زمناً ويطعنُ غيرنا للأمرع

والأمرع: جمع لا واحد له من لفظه، وكانوا يسمون مترهم دار الحفاظ لأنهم كانوا يقيمون فيه لقرى الأضياف، وإعطاء الفقير، وصللة المسكين وابن السبيل.

وقال أبو تمام:

كم منزل في الأرض يألُفه الفتى وحينئذُ أبدأ لأوّل منزلِ

وقد قالت الهند: حرمة بلدك عليك مثل حرمة أبويك، لأنّ غداك منهما وغداهما منك.

وقال آخر: أرض الرجل ظنره ودار مهده.

وقال آخر: الحنين إلى الوطن ورقة القلب من رقة القلب من الرعاية، والرعاية من الرحمة من كرم الفطرة،

وكرم الفطرة من طهارة الرشد، وطهارة الرشد من كرم المحتد.

وقال الشاعر:

لقربُ الدارِ في الاقتار خيرٌ من العيشِ الموسّعِ في اغترابِ

وقال جالينوس: يتروح العليل بنسيم أهله، كما تتقوت الحبة ببل المطر إذا أصاب الأرض.

وقال أفلاطون: غذاء الطبيعة من أنجع أدويتها. وقال: يداوى كل عليل بعقاير أرضه، فإن الطبيعة تتطلع

إلى هوائها وتترع إلى غذائها.

وقلنا: ليس الانسان أقنع بشيء منه بوطنه، لأنه يتبرم بكل شيء رديء ويتدمم من كل شيء، كرهه، إلا

من وطنه وإن كان رديء التربة، كرهه الغذاء، ولولا حب الناس للأوطان، لخرّب أحابث الأرض والبلدان
وقال الشاعر:

ألا ليت شعري هل تحننّ ناقتي بصحراء من نجران ذات ثرى جعدٍ
وهل تنفضنّ الريحُ أفنانَ لمّتي على لاحقِ الأطلين مطمر ورد
وهل أردن الدهر حسمي مزاحم وقد ضربتُهُ نفحةً من صبا نجد

وذكر ابن الرومي العلة التي يحب الوطن لأجلها وليس لها في ذلك امام إلا أحمد بن إسحاق الموصلي فإنه
قال:

أحبُّ الأرضَ تسكنها سليمانى وإن كانت بواديها الجدوب
وما دهري يحب تراب أرض ولكن من يحلُّ بها حبيبٌ

وقال ابن الرومي:

ولي وطنٌ آليتُ أن لا أبيعهُ وألا أرى غيري له الدهرَ مالكا
عهدتُ به شرخَ الشبابِ ونعمةً كنعمةِ قوم أصبحوا في ضلالكا
فقد ألفتُهُ النفسُ حتى كأنهُ لها جسدٌ لولاهُ غودرتُ هالكا
وحببَ أوطانَ الرجالِ إليهم مآربُ قضاها الشبابُ هُنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهمُ عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا
وقد ضامني فيها اللئيم وغرّتي وها أنا منه معصمٌ بحبالكا
فإن أخطأتني من يمينك نعمة فلا تخطئنه نعمةً من شمالكا

وقلت في نحو ذلك: ثوى في حفرة العانات يمنٌ تغلغل في المنازل والرباع

وإن تهوَّ البقاع فليس غرواً هوى أهل البقاع هوى البقاع

وقال ابن الرومي:

فإذا تصوّر في الضمير وجدتهُ وعليه أفنانُ الشبابِ تميدٌ

وقيل لأعرابي: كيف تصنع بالبادية، إذا اشتد القيظ، وانتعل كل شيء ظله؟ فقال: وهل العيش إلا ذاك؟
يمشي أحدنا ميلاً ويرفض عرقاً، ثم ينصب عصاه ويلقي عليها كساءه، ويجلس يكتال الريح، فكأنه في
إيوان كسرى. وذكر أعرابيٌّ فقال: رملَةٌ كنت جنين ركامها، ورضيع غمامها. وقالت أعرابيةٌ: إذا كنت
في غير أهلك، فلا تنس نصيبك من الذل. وقال الشاعر في معناه:

نصيبك من ذلّ إذا كنت خاليا

وقلت:

فكانَ الخَيْرُ أَكْثَرَ فِي التَّدَانِي

حَسِبْتُ الْخَيْرَ يَكْثُرُ فِي التَّدَانِي

فَسَرْتُ مَعَ الْوَسَاوِسِ فِي عَنَانِ

ذَكَرْتُ مَقَامَنَا بِسِرَاةٍ حَزْوِي

تَقَاسَمَهُ بِنِيَاتِ الزَّمَانِ

أَلَا اللَّهُ حَزْمٌ وَاصْطِبَارٌ

فَظَلَّ مِنَ الْمَهَانَةِ فِي ضَمَانِ

عَزِيزٌ أَضْمَرْتُهُ نَوَى شَطُونِ

بِمَنْزَلِ غَرْبَةٍ طَرْفِ الْهُوَانِ

يُنَاطُ إِلَى الْعَزِيزِ إِذَا تَبَوَّى

وقال آخر يحن اللبيب إلى وطنه كما يحن النجيب إلى عطنه.

وقلت:

فَلَيْسَ مَكَانِي فِي النَّهْيِ بِمَكِينِ

إِذْ أَنَا لَا أَشْتَاقُ أَرْضَ عَشِيرَتِي

غَنِيْتُ بِخَفْضِ فِي ذُرَاهِ وَلِينِ

مِنَ الْعَقْلِ أَنْ أَشْتَاقَ أَوَّلَ مَنْزِلِ

وَعَصْنُ ثَنَاهُ بِالْغَدَاةِ يَمِينِي

وَرَوْضِ رِعَاةٍ بِالْأَصَائِلِ نَاطِرِي

وقال ابن المولى:

كَمَا سُرَّ الْمَسَافِرُ بِالْإِيَابِ

سُرِّرْتُ بِجَعْفَرٍ وَالْقَرَبِ مِنْهُ

غَنِيًّا عَنِ مَطَالَعَةِ السَّحَابِ

كَمَطُورِ بِلَدَّتِهِ فَأُضْحَى

وهو من قول الآخر:

فَسَرَّ أَنْ جَمَعَ الْأَوْطَانَ وَالْمَطْرَا

فَكَنْتُ فِيهِمْ كَمَطُورِ بِلَدَّتِهِ

وفضل بعضهم السفر على المقام واحتج بقول الله تعالى: "علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون

في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله".

قال: فقسّم الحاجات فجعل أكثرها في البعد.

وقال تعالى: "فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله".

قال: فاخرج الكلام مخرج العموم، ولم يخص أرضاً دون أرضٍ، ولا قريباً دون بعد، وينشد في هذا المعنى

قول أبي تمام:

لِدِيَابِجَتِيهِ فَاغْتَرَبْتُ تَجَدُّدِ

وَطُولُ مَقَامِ الْمَرْءِ فِي الْحَيِّ مُخْلِقٌ

إِلَى النَّاسِ إِذْ لَيْسَتْ عَلَيْهِمْ بِسَرْمِدِ

فَأِنِّي رَأَيْتُ الشَّمْسَ زَيْدَتْ مَحَبَةً

وقال في الحث على الأسفار والطلب والتزهيد في المقام والدعة: الراحة عقلة، والبركات في الحركات،
ومن إلى دماغه في الصيف، غلت قدره في الشتاء. وقال عبد الله بن وهب: حب المهوينا يكسب الضنى.
وقال أبو المعافى:

وإنَّ التواني أنكحَ العجزَ بنته وساقَ إليها حينَ أنكحها مهرا

فراشاً وطيباً ثمَّ قال لها اتكي فقُصراً كما لا بُدَّ أن تلد الفقرا

وقال نهيك بن أساف:

أمَّ تُهيك إرفعي الطرفَ صادقاً ولا تيأسي أن يثرَي الدهر بئس

سيغنيك سعي في البلادِ وغربتي وبعل التي لم تحظَ في البيتِ جالس

وأخبرنا أبو أحمد، عن ابن دريد، عن أبي حاتم عن الأصمعي قال: قال أكثم بن صيفي: ما يودني أني
مكفي، وأني أسمنت وألنيت، قيل ولم ذاك قال مخافة عادة العجز. وفي الحديث المرفوع سافروا تغنموا.
وقال الشاعر وذم طول الضجعة:

فإن تأتيناني بالشتاء وتلمسا مكان فراشي فهو بالليل بارد

وقال آخر:

أبيض بسام برودٍ مضجعه واللقمة الفردُ مراراً تُشبعه

وقال الحطيئة يهجو القعود والراحة:

دع المكارمَ لا ترحلْ لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

وقال أبو عبادة البحرني:

وقد سألتُ فما أُعطيتُ مرغبةً وكان حقي أن أُعطي ولم أسلِ

أرمني بظني ولا أعدو الخطاءَ به فاعجبْ لاخطاءِ رامٍ من بني ثعلِ

أسيرُ إذ كنت في طولِ المقامِ بها أكدي لعلي أجدي عند مُرتحلي

شرق وغرب فعهد العاهدين بما طالبت في ذمّان الأينقِ الدملي

ولا تقل أممٌ شتّى ولا فرق فالأرض من تربةٍ والناس من رجلِ

وقال بشار بن برد:

تخاف المنايا إذ ترحلَ صاحبي كأنَّ المنايا في المقامِ يناسبه

أخذه من قول الأعشى:

وكم من ردٍ أهله لم يرمٍ

والأول أجود سبكاً وأفصح لفظاً.

وأخبرنا أبو أحمد، عن الجوهري، عن أبي زيد، قال: قال أبو الحسن: كان خالد بن عبد الله القسري يطعم الأعراب في حطمه أصابتهم، في كل يوم يطعم ثلاثين ألف إنسان خبزاً وسويقاً وتمرّاً فقيل لأعرابي: لو أتيت خالداً فإنه يطعم الأعراب فقال:

هزّ الا بحرّان تعاوى كلابها

يقول ابنُ حجاج تجهزْ ولا تمت

تباح ورغفانا شباعاً رغائبها

فقد خبرَ الركبان أنَّ جديده

تدبُّ دبيبَ النملِ فيك شراؤها

وماء فراتٍ ما اشتهيتُ وقرية

بأرواح نجدٍ ما أقامَ تراؤها

فأقسم لا أبتاغُ رُغفانَ خالد

رياح الخزامى حينَ تندى رحابها

إذا باحت بالعرمتين وصارة

وأخبرنا أبو أحمد، قال: حدثنا أبو بكر بن دريد، قال: حدثنا الفضل بن محمد العلاف قال: لما قدم بغاييني نمير، كنت كثيراً ما آتيهم، فلا أعدم أن ألقى منهم الفصيح، فجئت يوماً إليهم في عقب مطر فإذا شابٌ جميلٌ، قد هكّه المرض فليس به حراكٌ وإذا هو ينشد:

ليهنك من برقٍ عليّ كريمٌ

ألا يا سنى برقٍ على قللِ الحمى

فهيجت أسقاماً وأنت سقيمٌ

لمعت اقتداء الطرفِ والقومُ هُجَّع

فإنسانُ طرفِ العامريِّ كريمٌ

فهل من مُعيرِ طرفٍ عينٍ خلية

بذكر الحمى وهناً فبات يهيمٌ

رمى قلبه البرقُ اليمانيُّ رميةً

قال: إن فيما بك لشغلاً عن الشعر. قال: صدقت ولكن البرق أنطقني.

وقال عبد الله بن محمد الفقعسي:

بسلع ولم تغلق عليّ دروبٌ

ألا ليت شعري هل أبيننَّ ليلة

حصان أمام المقربات جنيب

وهل أحدٌ باد لنا وكأنه

فيبدو لعيني تارةً ويغيب

يحول السراب الطلح بيني وبينه

على كلِّ نجمٍ في السماء رقيبٌ

فإني لأرعى النجمَ حتى كأنني

وأزدادُ شوقاً إن تهبَّ جنوب

وأشتاقُ للبرقِ اليمانيِّ إذا بدا

وله أيضاً:

ومن حاجتي لولا الحياء وأنني
مسيري مع الفتیان في طلقِ الهوى
أرى الناسَ قد أغروا بعيب صبا الكهلِ
فلم يبقَ من تلك اللذاذةِ عندهم
أباري مطاياهم على سلسلِ رسلِ
وقال أعرابيٌّ:

أُغترباً أصبحتَ في رامهرمزِ
إذا راحَ ركبٌ مصعداً إنَّ قلبه
الأكل كعبيّ هناك غريبُ
وإنَّ الكنثبَ الفردَ من أيمن الحمى
مع الرائحينَ المصعدينَ جنيبُ
تفوقتُ ذرات الصبا في ظلاله
ليخلو بسمعي ذكره ويطيبُ
إذ هبَّ علويُّ الرِّياحِ استمانني
إلى أن أتاني بالفطام مشيبُ
ومما يجري مع ذلك قول الآخر

إذا عقدَ القضاءُ عليك أمراً
فما لكَ قد أقمتَ بدارِ ذلِّ
فليسَ يحلهُ غيرُ القضاءِ
تبلغُ بالكفافِ فكلُّ شيءٍ
ودارُ العزِّ واسعةُ الفضاءِ
وقال امرؤ القيس:

وقد طوّفتُ في الآفاقِ حتى
وقال البحترى:

وكانَ رجائي أن أووبَ مُملِكاً
فصارتَ رجائي أن أووبَ سليماً

مدح الاخوان

من أحسن التشبيه في مدح الأخ ما أنشدني أبو علي بن أبي حفص عن جعفر بن محمد:

أخ لي كأيام الحياةِ إخاؤه
إذا عبتُ منه خلةٌ فهجرتُهُ
تلونُ ألواناً عليّ خطوبُها
دعتني إليه خلةٌ لا أعيبُها
وقال البحترى:

قدمتُ فأقدمتَ الندى يحمل الرضا
إلى كلِّ غضبانٍ على الدهر عاتبِ

يديك بأخلاف تفي بالسحابِ
جلا الدهرُ منها على خُدودِ الكواعبِ
إليك وتزييني بأعلى المراتبِ
بشكرِك فاعلمُ أنني شرُّ صاحبِ

وجئتُ كما جاء السحابُ محرِّكاً
فعدتُ بك الأيامُ وهي كواكبُ
وما أنسَ لا أنسَ اجتذابك همّتي
فيا خيرَ مصحوبٍ إذا أنا لم أقمُ

وكتب بعضهم: لست أذم من أيامنا إلا قصرها وطول الحسرة على أثرها.
وقريبٌ من المعنى الأول وقول الآخر:

رجعت بما أبغي ووجهي بمائه
فما ازددت إلا رغبة في إخوانه

خليلٌ إذا ما جئتُ أبغيه حاجةً
بلوت رجالاً بعده في إخوانهم

وقال دعبل بن علي:

مذممة فيما لديه المطالبُ
من الناس ردتَه إليك التجاربُ

أخ لي عاداهُ الزمانُ فأصبحتُ
متى ما تذوقتهُ التجارُ صاحباً

وقال إبراهيم ابن العباس:

هبَّ الزمان باذره هباً
جعل الذخائر دونها نهبا

ومؤمل للنائبات إذا
لما رأني نهب حادثة

وقال أيضاً:

وفي العهد مأمونُ المغيبِ
وطلاّع عليك مع الخطوبِ

ولكنَّ الجوادَ أبا هشام
بطيء العهد ما استغنيت عنه

والبيت الأخير يشير إلى قول جرير:

وإني لعف الفقر مشترك الغنى

ونحوه قول إبراهيم أيضاً:

وأبُّ برٍّ إذا ما قدرا
يعرفُ الأدنى إذا ما افتقرا

أسدُّ ضارٍ إذا هيجتهُ
يعرفُ الأبعدُ إن أثرى ولا

وقال أيضاً:

وصار له من بين إخوانه مالٌ

ولكنَّ عبدَ الله لما حوى الغنى

رأى خلةً منهم تُسدُّ بماله
ونحوه قوله أيضاً:

فساهمهم حتى استوت بهم الحال

بدا حينَ أثرى بإخوانه
وذكره الحزمُ غِبَّ الأمور

ففلل عنهم شباه العدم
فبادرَ قبلَ انتقالِ النعم

ومما هو في هذا السبيل ما كتب بعضهم: ما شخصت حتى شخص عقلي فصار عدليك، واستقل ودي فأضحى زميلك، ولا مطمع لي في مستقرهما حتى تستقر النوى بك وتحقق الأمانى فيك ولك. وقال أبو تمام:

ليالي نحنُ في غفلاتِ عيش
وأياماً لنا وله لدانا

كأنَّ الدَّهرَ منها في وثاق
عرينا في حواشيها الرِّقاق

وفي هذا الموضوع أيضاً قوله:

أليامنا ما كنتِ إلا مواهباً
سنغربُ تجديداً لعهدك في البكا
وقلت في فضل الصديق على القريب:

وكننت بإسعافِ الحبيبِ حبايباً
فما كنتِ في الأيامِ إلا غرائباً

رأيتُ بالودِّ عن القربى غنى
وصاحبُ الودِّ حُسامٌ منتضى

وليسَ بالقربى عن الودِّ غنى
يزينُ في السلمِ ويكفي في الوغى

وقلت أيضاً في قوله:

ليسَ حدُّ الحسامِ أكفى وأغنى
وأخُ المرءِ عصمةٌ في بلاءِ

من أخ ذي كفايةٍ وغناءٍ
يعتريه زينةٌ في الرِّخاءِ

وقال شبيب بن البرصاء:

إذا المرءُ أغراه الصديقُ بدا له

بأرض الأعداءِ بعضُ ألوانها الريد

ومن أجود ما قيل في الاغضاء عن الأخ قول النابغة:

ولست بمستبِقٍ أخاً لا تلمهُ

على شعثِ إيِّ الرجالِ المهذبِ

وقال بشار بن برد:

إذا كنتَ في كلِّ الأمورِ معاتباً

صديقك لم تلقَ الذي لا تعاتبه

فعضُّ واحداً أو صلِّ أخاك فإنه

مُقارِفُ ذنبٍ مرَّةً ومجانبةُ

ظمئت وأيُّ الناسِ تصفو مشاربُهُ

إذا أنتَ لم تشربْ مراراً على القذى

وقال آخر:

فلربَّ مُفتضح على النص

ألبس أخاك على تصنُّعه

إلا ذممتُ عواقبَ الفحصِ

ما ظلتُ أفحصُ عن أخي ثقةً

وقال آخر:

كفى المرء نبلاً أن تُعدَّ معائبه

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها

وكتب الصاحب في فصل: وتمثلت لي أخلاقك التي لولاها لم يسلس الماء، ولم يرق الهواء، ولم ترع الحقوق والذمم ولم يعرف المجد والكرم، أخلاقٌ جدُّ غير أخلاق، لا تأخذ الأيام جدتها، ولا تنهض الليالي بردها.

ومن جيد ما قيل في إظهار الرغبة في الإخوان قول أبي فراس بن حمدان:

إذ رجونا إلى احتمال الملل

قل لإخواننا الجفاهِ رويداً

لم يدع في موضعاً للوصالِ

إن ذلك الصدودَ من غير جرمٍ

لا عدمناكم على كلِّ حالٍ

أحسنوا في وصالكم أو فسيئوا

وقلت في معناه:

وليس منك جزاءٌ

كم قد منحتك حسناً

يكون منك وفاءٌ

ترى يضرُّك أن لو

إنَّ الصدودَ بلاءٌ

لا تبلنا بصدودٍ

فاصنع بنا ما تشاءُ

بل ما لنا منك بُدٌّ

وأنشد أبو أحمد:

إني وإن كنتُ لا ألقاهُ ألقاهُ

أذكر أخانا تولى الله صحبتَهُ

وكيف يذكره من ليس ينساهُ

الله يعلمُ أني لستُ أذكره

وقال الحريري:

إذا اختلفتُ بيضُ الليالي وسودها

أخ لي كذوبُ الشهدِ طعمُ إخائه

وعونا على عمياءٍ أمرٍ يكيدها

كأمنيةِ الملهوفِ حزماً ونائلاً

على أنه في كلِّ يومٍ يزيدها

له نعمٌ عندي ضعفتُ بشكرها

وللشكرِ مرقاةً كؤودٌ صعودها

تحملَ عني شكرها فأراحني

وأنشدنا أبو أحمد قال: أنشدني أبو إسحاق الشطبي قال أنشدنا حماد الرواية:

فأصلحتُ منها كلَّ ما أفسدَ الدهرُ

تصفحتُ إخواني بعينِ عنايةٍ

وفي دون ما أوليت ما اجتهدَ الشكرُ

وأرضاك عفو الشكر دونَ اجتهادهِ

ومن مליح ما قيل في مدح الزمان:

ورثي لطولِ تحرُّقي

رَقَّ الزَّمانُ لفاقتي

وأراحَ مما أتقي

فأنالني ما أُنتهي

ر من الذنوبِ السُّبقي

فلأغفرنَّ له الكُثي

فعلَ المشيبِ بمفرقي

حتى جنابتهُ بما

نم الإخوان والرفقاء

وما يجري مع ذلك

من قديم ما يروى في ذلك قول لبيد بن ربيعة:

وبقيت في خلفِ كجلدِ الأجرِبِ

ذهبَ الذين يُعاشُ في أكنافهمُ

وضمنه ححظةَ البرمكي فقال:

حاولتُ نتفَ الشعرِ من آنافهمُ

قومٌ أحاولُ نيلهمُ فكأنني

ذهبَ الذين يُعاشُ في أكنافهمُ

قمُ فاسقنيها بالكبيرِ وغنني

وأنشدنا أبو القاسم عن العقدي عن أبي جعفر لأبي الشيص:

أشفقَ من والدِ على ولدِ

وصاحبِ كان لي وكنتُ له

أو كذراعِ نيطتُ إلى عَضُدِ

كنا كساقِ يمشي بها قدمُ

خطوي وحلَّ الزمانُ من عَقدي

حتى إذا دانتِ الحوادثُ منْ

عيني ويرمي بساعدي ويدي

أحولُ عني وكان ينظرُ منْ

ليس بنا حاجةٌ إلى أحدِ

وكان لي مؤنساً وكنتُ له

كنتُ كمسترفدٍ يدِ الأسدِ

حتى إذا استرفدتُ يدي يدَه

ومن جيد ما قيل في ذي الوجهين:

تعاشرني ضحكاً كأنك ناصحٌ
لسانك لي شهيدٌ وقلبك علقمٌ
أراك إذا لم أهو شيئاً هويته
عدوك يخشى صولتي إن لقيته
وكم موطن لولاي طحت كما هوى
كأنك ان قيل ابن عمك غانمٌ
بدا منك غشٌ طالما قد كتمته

وعينك تُبدي أن قلبك لي دوي
وشرك مبسوطٌ وخيرك ملتوي
ولست لما أهوى من الشيء بالهوي
وأنت عدوي ليس ذاك بمستوي
بإجرامه من قلة النيق منهي
شج أو عميدٌ أو أخو مغلّة جوي
كما كتمت داء ابنها أم مدوي

وقريبٌ من ذلك، ما أخبرنا به أبو أحمد، قال: أخبرنا الصولي، قال: أخبرنا أبو ذكوان عن الرياشي قال: سمعت أبا عبيدة، يقول دخل رجل الكوفة، فتزل بال عطارد فلم يضيفوه ورأى لهم أبنية عالية فقال ارتجالاً:

تتاهاوا برفع الدُّور حتى كأنها
فليسوا بفنّيان السماحة والندى
فقد أصبحت أضياف آل عطارد
ومن ذلك قول الشاعر:

جبال وما شدى بخير شعابها
ولكن فتيانا تسوى ثيابها
خماصاً مطاياها خفافاً عبابها

لعمري لقد أعطيت برداً وحلّة
فما يك من خير فما تستطيعه
وعراك من ثوب السماحة سالبه
وما يك من شرٍّ فإنك صاحبه
وقال يزيد المهلي:

فإذا غنيت فكلهم لي خاتلٌ
وما أكثر أحدٌ في ذم الزمان إكثار إبراهيم بن العباس فمن جيد قوله:

أن رأى الدهر جفاني جفاني
مُستعدٌ لي بسهم فلما
أن رأى الدهر رمانى رمانى
وقال غيره:

إحذر مودّة ماذقٍ
يُحصي العيوب عليك أيّ
شاب المرارة بالحلاوة
أم الصداقة للعداوة

وقال إبراهيم:

وكلُّ بلومٍ وذمُّ حقيقٍ
وأنسني بالعدوِّ الصدي

بلوتُ الزَّمانَ وأهلَ الزَّمانِ
فأوحشني من صديقي الزمان

وقوله:

إلى ظلِّ آباءٍ من العزِّ باذخ
فأقلعنَ منا عن ظلومٍ وصارخ
كملتس إطفاءَ نارٍ بنافخ

أخ كنتُ آوي منه عندَ ادِّكارِهِ
سَعَتُ نوبُ الأيامِ بيني وبينه
وإني وإعدادي لدهري محمداً

وقال بعض الجعفرين:

لا يفسدانِ ولكن أفسدِ الناسِ
قد يُركبُ الدبرَ الدامي بأحلاسِ

إنَّ الجديدينِ في طولِ اختلافهما
فلا يغرُنكَ أضغانٌ مُزَمَلَةٌ

قالوا هو من قول زفر بن الحارث:

وقد ينبتُ المرعى على دَمِنٍ من الثرى
وتبقى حزازاتُ النفوسِ كما هيا

قالوا: يعني الرجل يظهر لك الود، ويضمر خلافه كالنبات الحسن، ينبت على القدر فيصير رائق الظاهر حيث الباطن، وقال آخرون: الدمنة حيث تنزل الأبل فتدمن بالأبوال والأبعار، فلا تنبت شيئاً فإذا طال عليه العهد، وسفته الرياح، وأصابته السماء، نبت بعد حين، فيقول قد ينبت ذاك وهو مما لا ينبت، ويتغير بالنبات وتبقى حزازات القلوب لا تتغير، وهذا التفسير هو الصحيح، لأن ألفاظ البيت تقتضيه والأول فاسدٌ لأنه ليس على مقتضاها.

وقال أبو فراس بن حمدون في ذم الإخوان فأجاد:

ستلحقُ بالأخرى غداً وتحولُ
وذمُّ زمانٍ واستلامُ خليلٍ
وخلَّى أميرَ المؤمنين عقيلُ

تتاساني الأصحابُ إلا عَصِيبةً
فمن قبل كان الغدرُ في الناسِ سُبَّةً
وفارق عمرو بنُ الزبيرِ شقيقه

وإنَّ كُثرتُ دعواهُمُ لقليلُ
وأنَّ خيالاً لا يضرُّ وصولُ
يميلُ مع النعماءِ حيث تميلُ

ومن ذا الذي يبقى على الدهرِ إنهم
وصرنا نرى أنَّ المتاركَ مُحسنُ
أقلُّبُ طرفي لا أرى غيرَ صاحبِ

وقلت:

إلى كم تسمترُ على الجفاء
فمن لي أن أرى لك مثلَ فعلي
ألا أني لأعرفُ كلَّ شيءٍ
عريتَ من الوفاءِ وليس بدعاً
فإن ترجع إلى الحسنى وإلا
وإن كان التقاربُ ليس يُجدي
ولا ترعى حقوقَ الأصدقاءِ
فنصبح في الودادِ على استواءِ
سوى خلقِ الرعايةِ والوفاءِ
لأنك قد عريتَ من الحياءِ
فخيرُ سبيلنا تركُ اللقاءِ
فما الاجداءُ إلا في التناهي

وأنشدنا أبو أحمد، قال أنشدني ابن لنكك البصري لنفسه بدم الزمان:

يا زماناً أليس الأح
لست عندي بزمان
رارَ ذلاً ومهانَةً
إنما أنتَ زمانُهُ

وقلت:

زمانٌ كثوبِ الغولِ فيه تُلونُ
وقال آخر في خلاف ذلك:

أرى حُللاً تصانُ على رجال
يقولونَ الزَّمانَ به فساداً
وأعراضاً تهانُ فلا تصانُ
وهم فسدوا وما فسَدَ الزَّمانُ
وأنشدنا أبو أحمد قال أنشدنا أبو بكر بن دريد:

مشى فوقه رجلاه والرأس تحته
وقال أبو الشعر موسى بن سحيم:

متى ما تفكر في الزَّمانِ وأهله
وأنشدنا الآخر أيضاً:

تبلدَ هذا الدَّهرَ فيما رجوتَه
وأنشدنا أبو أحمد قال أنشدنا جحظة لحمد بن يعقوب بن داود:

لا تعجبك عمامتي
والفقرُ في زمنِ اللئى
على أنه فيما أحاذره نَدب
م لكلِّ ذي كرمِ علامه
وقلت في قريب منه:

وليسَ يَفنكُ كَشخانُ يجاذبنا

وأنشدنا أبو أحمد قال أنشدنا جحظة البرمكي لنفسه:

ربِّ قد ضاقت النفو

فلكٌ لا يدورُ

وقال أبو تمام:

على أنها الأيامُ قد صرنَ كلها

ومن عادةِ الأيامِ أنَّ صُرُوفَها

وقال قابوس بن وشمكير:

قلُّ للذي بصروفِ الدَّهرِ عيِّرنا

فإن تكنُ نشبتُ أيدي الزمانِ بنا

ففي السماءِ نجومٌ غيرُ ذي عدد

أما ترى البحرَ يعلو فوقه جيفُ

وقريب من هذا ما قلته:

إن كنتَ تسلّم من شغبِ الزمانِ ولا

فالعاصفاتُ إذا مرّتْ على شجرٍ

وأنشدنا أبو أحمد قال: أنشدنا جحظة البرمكي لنفسه في المعنى الأول:

يقولونَ زُرنا واقضِ واجبَ حقنا

إذا أبصروا حالي ولم يأنفوا لها

وأنشدنا أبو علي بن أبي حفص قال أنشدني أبو جعفر للعطوي:

ليَ خمسونَ صديقاً

لبسوا الوفرَ فلم أخل

كلهمُ كالِ ليّ الحر

ومن ههنا أخذ ابن الرومي قوله:

سألْتُ قفيزينَ من حنطة

علامةُ الحرِّ أن يبلى بكشخانِ

سُ وقد قلتُ الحيلُ

إلا بما تشتهي السفلى

عجائب حتى ليسَ فيها عجائبُ

إذا سرَّ منها جانبٌ ساء جانبُ

هل عاندَ الدَّهرُ إلا من له خطرُ

ومستأ من تمادي بؤسه ضرُ

وليسَ يُكسَفُ إلا الشمسُ والقمرُ

وتستقرُّ بأقصى قعره الدُّرر

أعطى السلامة منه كلما شغبنا

حطمته وتركنَ البقلَ والعشبا

وقد أسقطتُ حالي حقوقهمُ عني

ولا لهم منها أنفتُ لهم مني

بين قاضٍ وأميرٍ

ع بهم ثوبَ الفقيرِ

مانَ بالصَّاع الكبيرِ

فجدتَ بكَرُّ من المنعِ وافي

وقد تقدم.

وقلت:

مالك بُدُّ من مداراته
أعداد أنفاسي وساعاته

أليس صعباً أن ترى كاشحاً
أصبحت في دار إسآته

وأنشدي عم أبي لأبي الأسد الدينوري:

تقنعني منك آخر الأبدِ
فإنَّ فيها برداً على كبدي
عليّ قرحاً نكأته بيدي
في ناظري حية على رصدِ
نهضت من عثرة إلى سدِّدِ
كددنتي بالمطالٍ لم أعدِ
عدتُ إلى مثلٍ هذه فعد
أكنى أبا الكلبِ لا أبا الأسدِ

ليتكَ أدبتني بواحدة
تحلفُ لي لا تبرئني أبداً
اشفِ فؤادي مني فإنَّ به
إن كانَ رزقي إليك فارم به
فكيف أخطأت لا أصبت ولا
لو كنتُ حراً كما زعمت وقد
لكنني عدتُ ثم عدتُ فإن
قد صرتُ من سوءٍ ما بليتُ به

وقلت:

والوجد يحضر والعزاء يغيبُ
ولكثرة الجهالِ أنت غريب
إلا لأنك عاقلٌ وأديب
أن ليس يدركه أغرٌ نجيبُ
أرأيتَ بديراً ليس فيه قطوب
هل من هلالٍ ليس فيه شحوب
أنني إلى قلبِ الكريم حبيبُ
أنَّ اللئيم لرؤيتي مكروبُ
ومن العجائبِ لآعبٍ مطلوبُ

العين تذرف والفؤاد يذوبُ
ولقلة الكرماء أنت مُضَيِّعُ
تالله لم تخطئك أسباب الغنى
فاصبر فقد عزاك عن درك الغنى
عابوا قطوبي ان تعذرَ مطلبي
وشحوب جسمي من مواصلة السرى
ولقد يدلُّ على كمال كرامتي
ولقد جلا حزني وفرج كربتي
لا تلعبنَّ فمن ورائك طالبُ

وقال أبو تمام:

هَبْ مَنْ لَهُ شَيْءٌ يُرِيدُ حِجَابَهُ
ما بال لا شيء عليه حجابُ
ما زالَ وسواسي لقلبي خادعا
حتى رجا مطراً وليس سحاب
ما إن سمعتُ ولا أراني سامعاً
يوماً بصحراء عليها بابُ
ما كنت أدري لا دريت بأنه
يجري بأفنية البيوتِ سرابُ

فصل

فيما قيل في فضل الوعد ومدح الإنجاز

أخبرنا أبو أحمد قال: أخبرنا الصولي قال: حدثنا ابن زكريا عن ابن دينار قال: حدثنا محمد بن عبيد الله العتيبي قال: كلم منصور بن زياد يحيى بن خالد بن برمك في حاجة لرجل فقال عده عني قضاءها فقال: وما يدعوك أعزك الله إلى العدة مع وجود القدرة؟ فقال له يحيى: هذا قول من لم يعرف موضع الصنائع من القلوب، إن الحاجة إذا لم يقدمها موعد ينتظر به بنحها، لم تتجاذب الأنفس بسرورها، ولم تتلذذ بتناولها، وإن الوعد تطعم والإنجاز طعام. وليس من فاجأه طعام، كمن وجد رائحته وتمطق له وتطعمه، ثم طعمه فدع الحاجة تحتم بالوعد، ليكون لها عند المصطنع حسن موقع، ولطف محل، وحلاوة ذوق. وأخبرنا أبو أحمد قال: حدثنا الصولي قال: حدثنا أحمد بن يزيد المهلي قال: أخبرنا البحري عن خارذجة بن مسلم بن الوليد عن أبيه قال: سألت الفضل بن سهل حاجةً فقال: أسوفك اليوم بالوعد، وأحبوك غداً بالإنجاز، فإني سمعت يحيى بن خالد يقول: المواعيد شباك الكرام، يصطادون بها محامد الإخوان، وإن كان المعطي لا يعد لارتفعت مفاخر إنجاز المواعيد، وبطل فضل صدق القول. وقال عيسى بن ماهان لجلسائه: إني أحب أن أهب بلا وعد وأحب أن أعد لأخرج بالإنجاز من جملة المخلفين، وأدخل في عداد الوافين، ويؤثر عني كرم المنجزين فإن من سبق فعله وعده وصف بكرم فرد وسقط عنه جميع ما ذكرت. وأخبرنا أبو أحمد عن الصولي. قال: أخبرني عون بن محمد قال: ذكر العتابي المأمون فقال: إن ألقح معروفه عندي بالوعد ونتجه بالنجح، وأرضعه بالزيادة، وشيبه بالتعهد، وهرمه باستتمامه من جهاته وهنأه بترك الامتنان به.

ومن عجيب ما جاء في الحث على الإنجاز ما حدثني به أبو أحمد عن الصولي عن يموت بن المزرع قال: حدثنا عبد الصمد بن المعدل قال: شكنا رجل جعفر بن يحيى إلى أبيه بأنه وعده ومطله به. فوقع: يا بني أنتم معاقل الأحرار، ومظان المطالب، ومعادن الشكوى، فكونوا سواءً في الأقوال والأفعال، فإن الحر يدخل وعد الحر ويعتقده وينفقه، قبل ملكته، فإن أخفق أمله، كان سبباً لذمه واتهامه، وسوء ظنه حتى

يوارى قبج ذلك، وحسن تقيته فأنجز الوعد وإلا فقصر القول فإنه أعذر والسلام.

وأخبرنا أبو أحمد، عن الصولي، عن محمد بن يونس، عن الحميدي عن سفيان، قال: سمعت الزهري يقول: حقيق على ما أزره بالوعد أن يثمر بالفعل. ومن جيد ما مدح به المنجز قول أبي تمام:

نؤمُّ أبا الحسين وكان قدما
فتى أعمار موعده قصارُ
وتنتج مثل ما نتج العشارُ
تحنُّ عاداته أثر التقاضي

وأخبرنا أبو أحمد عن الصولي عن المغيرة بن محمد قال كلم المأمون في الحسين بن الضحاك الخليع أن يرد عليه رزقه فقال المأمون: أليس هو القائل في الأمين.

فلا فرح المأمون بالملك بعده
ولا زال في الدنيا طريداً مشرداً
فما زالوا حتى أذن له أن ينشده فأنشده:

ابن لي فإني قد ظمئت إلى الوعد
أعيذك من صدّ الملوك وقد ترى
فما لي شفيح عند حسنك غيره
أبيخل فرد الحسن فرد صفاته
متى تنجز الوعد المؤكّد بالعهد
تقطع أنفاسي عليك من الوجد
ولا سبب إلا التمسك بالوّد
عليّ وقد أفردته بهوى فرد
فاستحسن الناس هذا التشبيب فلما قال:

رأى الله عبد الله خير عباده
فملكه واللهت أعلم بالعبد

قال هذه بتلك وقد عفونا عنك.

فقال: يا أمير المؤمنين، فأتبع عفوك بإحسانك فأمر برد أرزاقه عليه، وكانت في كل شهر خمسمائة دينار، فقال المأمون: لولا أي نويت العفو عنه، وجعلت ذلك وعداً له من قبل ما فعلته، وإنما ذكر العهد في تشبيهه فذكرنيه.

وما أحسن ما قاله بعض ملوك العجم: البخل بعد وعد يضعف قبجه على البخل قبله فما قولك في أمر البخل أحسن منه وأجمل.

ما قيل في الضحك والبشر عند السؤال أول من أتى بذلك زهير في قوله:

ترأه إذا ما جئته متهللاً
كأنك معطيه الذي أنت سائله

ولو قال مكان إذا جئتہ إذا ما سألتہ لكان أجود.
ومن الجيد في ذلك قول أبي نواس:

كالبرق يبدو قبل جودٍ دافقٍ
إن لم يجده بدليلِ البارِقِ

بشرهمُ قبلَ النوالِ اللاحقِ
والغيثُ يخفي وقعةَ المرامقِ
وأخذه أبو تمام هذا فقال:

بُشرى المخيلة بالغيث المغدقِ
معروفها الرُود ما لم تبرقِ

يستنزِلُ الأملَ البعيدَ ببشره
وكذا السحائبُ قلما تدعو إلى
وتبعه البحترى فقال:

بالبشرِ ثم أقتبلنا بعدها النعما
ثم استهلَّتْ بغرزِ تابعِ الدِّيمَا
وقال أبو عبد الله القطر بلي: قلت للبحترى: وقعت دون أبي تمام في هذا المعنى فقال لعمري ولكن
سأرضيك فيه فقال في أبي الصقر:

بفوائد قد كنَّ أمسٍ مواعدا
في عارضٍ إلا تثنينَ رواعدا

يُوليك صدرَ اليومِ قاصيةَ الغنى
سُومِ السحائبِ ما بدانَ بوارقا

والرعد لا يكون إلا ومعه الغيث فكأنه قال إلا تثنين مواطراً ثم رده فقال:

قب بذلاً فروضاً وغديرُ

إنما البشرُ روضةٌ فإذا أع

وقال البحترى:

كرمٌ زائدٌ على التقديرِ
أبدأً بين روضةٍ وغديرِ

ملكٌ عندهُ على كلِّ حالٍ
وكأنَّ من وعدهِ ونداهِ

وقال:

وبروقِ السحابِ قبلَ رُعوده

ضحكاتِ في إثرهنَّ العطايا

وله أيضاً:

بالبشرِ أتبع بشره بالنائلِ
أجلتُ لنا عن ديمةٍ أو وابلِ

مُنهلُّ طلقٌ إذا وعدَ الغنى
كالمزن إن سطعت لوامعُ برقه

وأنشدنا أبو أحمد قال: أنشدنا الصولي لنفسه:

لست تلاقي سائلاً برءً
تعيد بشر سوؤد وتبدي
كالبرق يأتنيك أمام الرعدِ
بشرى الغيوثِ بحبابِ رعدِ
يلقى بك الطالبُ نجمَ السعدِ
بلغت في الأعمار أقصى العدِ

فصل في

تعمية الأشعار

عمى عبد كان للأحول على أبي صالح محمد بن عبيد الله بيتاً غلط فيه ورسمه:

نظيف خفيف نظيف فايق
نظيف مقيل بعلب نظيف
طريف مدل فايق نظيف
فايق مقبل نظيف فايق

رشيقي بدر معلب لمن
نظيف مهذب معشوق نظيف

مهذب ملاحظ رشيقي مغاضب نظيف. فأخرجه وكان البيت:

إذا قلتُ أسلو دامت العينُ بالبكا
دماءً وحفتها مدامعُ حُفْلُ

وكان الجواب الصادر:

ألا أيها الشخصُ الذي كان نزهة
يحصنهُ سترٌ من الله مسبلُ
لماذا هتكتَ الستَرَ تعمداً
ولستَ بحمدِ الله ممن يُجهَلُ
رأيتك قد عميت بيتاً رسمته
بكلِّ خطأٍ فهو مثلك أحولُ
وكان لمتبولِ الفؤادِ معذبُ
أخي حسرةً بالهجرِ والصدِّ يُقتلُ
فقالَ وقد رامَ السلوَّ فلم يجد
وبات كئيباً بالياً يتململُ
إذا قلتُ أسلو دامت العينُ بالبكا
دماءً وحفتها مدامعُ حُفْلُ

وعمى حمزة الأصفهاني على أبي جعفر محمد بن أيوب بيتاً رسمه:

نرجس خيرى بنفسج حماحم
شاهسفرم أقحوان نسرين
نسرين أقحوان نسرين مرزنجوش
ورد ياسمين نسرين
بنفسج نام سؤسن أفرنجمشك
أس منثور مرزنجوش

بنفسج بلحية ياسمين مرزنجوش

نسرين نمام منتور

خيري منتور اقحوان سيسنبر خزامى بنفسج مرزنجوش. فأخرجه وكان البيت:

كفى حزناً أن الجوادَ مُقْتَرٌّ

عليه ولا معروفَ عند بخيل

فكان الجواب الصادر:

فِداك أبا يلغى أخ لك لم يزل

يعدُّك ذخراً عند كلِّ جليل

إلى أن قال:

فقال وقد جاب البلادَ فلم يجد

أخا ثروة يسخى له بفتيل

كفى حزناً أن الجوادَ مُقْتَرٌّ

عليه ولا معروفَ عند بخيل

ومن أحسن ما قيل في هذا قول أبي سعيد الأصفهاني وقد عمى عليه زياد بن جعفر الهمداني بيتاً فأخرجه وكان الجواب:

إذا العارضُ السحُّ بالوبلِ جادا

وأنزل غيثاً أغاثَ البلادا

وأسرج فيه وميضُ البروقِ

مصاييح تزهرُ منه انقادا

وثج فما شكَّ ذو ناظر

رأى سيله أن فيه مزادا

فعمَّ بشؤبوبة سادتي

وخصَّ بأغزرِ سقى زيادا

زياد بن جعفر المستجار

لصرف الزمانِ إذا ما تمادى

فداؤك نفسي وإن سمتي

غناءً طويلاً حماني الرقادا

أنتني الطيورُ فساترنني

ببيت تعمقت فيه عنادا

إلى أن تمكنت من صيدها

وقد صدتها إذ عرفت المصادا

وقلت لها غردي بالذي

كتمت فأسر عن نحوي انقيادا

وأنشدت بيتاً معادَ الفصول

ولست ترى فيه معنى مُعادا

ومن ذلَّ قلَّ ومن قلَّ ذلَّ

ومن سادَ جادَ ومن جادَ سادا

أردت سقاطي فما نلته

فنلت المنى وبلغت المرادا

وأبقاك ربي بقاء النعيم

عليك وملاك منه وزادا

وكتب إلى أبي عبد الله جعفر بن القاسم الكرخي جواباً عن معمي:

ونارُ شوقي تشبُّ
يلقاه قلبي قلبُ
إذ مورد العيش عذبُ
وغصنُ قدي شطب
يدعي إذا جلَّ خطب
إلى لقائك صبُّ
بعدُ لديّ وقرب
منها يبيسُ ورطب
يدوم والنارُ تخبو
وعنبرُ مستحبُّ
ففاح شرقُ وغرب
روائحُ لا تهبُّ

ينله عُجمٌ وعُرب
أو أكملَ الوشي عصب
هذا العمرُك صعب
نالَ الورى ما أحبوا
أهلٌ بالحج ركب
إن عُدَّ للناس ذنب
وذاك للمجد قطب
غيثٌ إذا اشتدَّ جذبُ
يُرى غداً وهو كسبُ

دمعي على الخدِّ سكبُ
وليس يبقى على ما
لله عهد اللبالي
وإذ شبابي لذنُ
يا جعفر القوم يا من
فذاك عبدٌ مشوقُ
أبعدتني وسواءُ
أخلطُ طيبٍ أنتني
قربتها نارُ طبع
عودٌ ومسكٌ ذكيُّ
أوردتها نارَ فكري
وهبٌ للفهم منها

ففلتُ بالشمِّ ما لم
بيتا كما اهترَّ روضُ
شيبٌ وسنٌ وجهلُ
بجعفرٍ وأخيه
نفسي فداكم وما قد
ذنبى انقطاعي إليكم
فذاك للخلق كهفُ
ليثُ إذا عضَّ دهرُ
لي منهما اليومَ رأيُ

والتعمية: أن تجعل مكان كل حرف من البيت اسماً على مثال ما تقدم فإذا مضت الكلمة تدير دائرة على ذلك، حتى تأتي على آخر البيت. ووجه استخراج المعنى أن تنظر إلى السماء التي جعلت مكان الحرف،

فما تكرر منها وكثر في البيت فظن أنه للألف وربما لم يصدق هذا الظن، ولكنه الأمر الأكثر، فاطلب بعده اللام فإنها تقع بعد الألف كثيراً، وانظر إلى ما طال في البيت من الكلمات، فإذا رأيت الألف في أولها فظن بالثانية أنها لام وربما تكرر ذلك في موضعين من البيت وثلاثة، ومما يستدل به على معرفة اللام أيضاً أن يقع بعد الاسم إذا ظننت أنه الألف حرفان، على صورة واحدة في مثل اللبيب والليل والليث وفي قولك: الله وما أشبه ذلك، ومما يستدل به على معرفة اللام أيضاً أن يقع في البيت كلمة على حرفين، وقد عرفت الألف واللام فتكون الكلمة تزداد يقيناً في الألف واللام وإذا صحت لك الألف واللام، رأيت في البيت كلمة على حرفين والثاني منهما ألف فظن أنها: ما أو ذا أو يا لأن ذلك أكثر ما يقع إذا صحت الميم من ما ثم رأيت كلمة على حرفين فظن بها أنها من، فإن رأيت كلمة على حرفين وأولها ألف فظن بالثاني أنه نون أو واو أو ميم، فإذا عرفت الألف في أول الكلمة ورأيت قبلها حرفاً فظن أنه واو أو فاء أو باء أو كاف، فإذا عرفت الألف ورأيتها وقد وقعت آخر البيت، فظن بالحرف الذي قبلها أنه هاء أو كاف لأن ذلك أكثر ما يقع، فإذا تكررت لك هذه الحروف في البيت وقفت منه على أكثر، ثم تعمد إلى الحروف التي يقل تكرارها في البيت، فتتنظر إلى الكلمة الرباعية أو الخماسية فتظن أنها أبداً أن فيها أحد الحروف الستة: اللام والراء والنون والفاء والتاء والميم، لأنها لا تخلو من حرف منها أو حرفين. ولا ينفع ما مثلناه من هذه الأمثلة إلا مع جودة القرينة وشدة الذكاء والفتنة ومع النشاط وصدق الشهوة. وذكر بعض أهل العلم، وأظنه أبا الحسن العروضي، أنه عمي له قول الشاعر:

وكن ذاكرًا بيت النوبيغ إنه سيحلو على سمع اللبيب ويعذب

فكانت تعميته: زيد بكر عمر وسعد بدر بكر بدر سهل صقر فهد شهر عمر وزيد صقر سهل رشد بدر عمرو حمد قصر عقر مكر شهر زيد بدر فخر شهر صقر قصر سلم فخر بدر شهر شهر سهل صقر سهل زيد صقر فخر سعد سهل صقر.

قال: فأول ما استخرجت منه الألف، لأنها أكثر ما فيه من الحروف، ثم عرفت بعدها اللام، لأنهما واقعتان في قوله النوبيغ وفي قوله: اللبيب فلما صحت الألف واللام، رأيت اللام قد تكرر، فعلمت أنها لا تكرر إلا في مثل اللبيب واللطيف، وكان أقربها في ظني اللبيب، عمدت بعد ذلك إلى الكلمة الثالثة فرأيت الباء والياء فيهما وبقي الحرف الثالث، فعرضته على الحروف فخرج لي بيت ويبد ويبيش وبيض وبيع وبين فلم أجزم على شيء منها فتركتها موقوفة ثم قصدت إلى الكلمة السابعة فرأيت فيها اللام والباء، فلم أشك أن الحرف الأول العين وأن الكلمة على ثم قصدت الكلمة الثامنة، فرأيت العين في آخرها فطلبت على هذا المثال ما آخره عين فجاءني جمع ورجع ودمع وسمع، فتركتها موقوفة ثم عمدت إلى الكلمة

الأخيرة، فرأيت فيها ما تبينته وعرفته الياء والعين والباء فعمدت إلى الياء والعين، فوضعتهما مع سائر الحروف فخرج لي:

ويعتب ويعجب ويعذب ويعرب ويعطب وما شاكل ذلك فقابلت ما خرج من وجوه الكلمة الأخيرة على ما يقرب في المعنى مع إدخال الليب بينهما فصح لي أن الثامنة سمع وأن الأخيرة يعذب وعلمت أن زيداً في أول الكلمة الأخيرة واو، فلما صح على سمع الليب لم أشك أن الكلمة السادسة سيحلو قد ظهرت فيه السين والياء واللام والواو والألف فلما عرضت الكلمة مع سائر الحروف، لم يطابق يعذب في المعنى إلا يحلون فلما ظهر ذلك علمت بالمعنى والوزن جميعاً أن الذي ظهر من البيت يدل على أنه في ذكر شيء فيه كناية في وسط البيت وأولها ألف والنون تليها كثيراً. فأدى الوزن إلى أن بعدها هاء وأن الكلمة إنه فلما ظهرت النون، وكنت قد عرفت الواو من الكلمة الأخيرة، علمت أن أول كلمة في البيت وكن بغير شك وأن الثانية ذاكرة لأن الذال ظهرت في يعذب، والألف معروفة والكاف قد بانت من الكلمة الأولى، والألف الثانية معروفة بقيت الراء فلما عرضتها على سائر الحروف لم يجيء غير الراء ثم قصدت إلى الكلمة الرابعة فلم أجد فيها حرفاً غير ظاهر قد عرفته إلا الغين فقط فلم أدر ما هو فلولا أن الوزن أدى إليه بعد طول تعب، لم يكن يظهر فلما علمت أنها النويغ لم أشك أن الثالثة بيت وظهر البيت كله. ومن المعنى بغامض الحساب قول ابن طباطبا:

وكنْتُ أَشْكُو إِلَيْهِ ضَيْقَ يَدِي

منقوصة سبعة من العدد

إِنْ رَحْتُ مَا فِي يَدِيهِ مَلْتَمَساً

أحصت ألوفا يسراه أربعة

وفي هذا المعنى شيء كثير هذا أجوده فاعرف ذلك. وقلت في ضرب من المعنى:

يَا حُسْنَهُ مِنْ مَطْرَفِ مُعَلِّمٍ

وهو مُهَانٌ لَيْسَ بِالْمَكْرَمِ

وهو سَلِيمُ الدِّينِ لَمْ يَأْتِمْ

سُمِّيَ بِاسْمِ الْمَلِكِ الْأَعْظَمِ

وَأَصْفَرٌ تَحْمَرُّ أَطْرَافُهُ

صَدْرُهُ الْإِنْسَانُ فِي بَيْتِهِ

وَالْمَرْءُ قَدْ يَعْلُو عَلَى ظَهْرِهِ

وهو على ما كان من ذلّة

أعني حصيراً والملك يسمى حصيراً.

قال الشاعر:

جَنْدٌ لَدَى بَابِ الْحَصِيرِ قِيَامٌ

ومقامه غلب الرقاب كأنهم

وقلت:

إلا إذا عادَ حياً بعد ما ماتا

عمداً لكي يجعلوا الأحياء أمواتا

وميت لا يكاد المرء يدفنه

وميت غيبوا في الأرض جثته

الأول الذكر والثاني الفخ.

ومن مليح المعمي ما أخبرنا به أحمد، قال: حدثنا ابن عمار قال حدثنا يعقوب بن إسرائيل قال: حدثنا عبد الحميد بن عقبة قال: حدثني أبو عثمان المازني قال هجا أبو عيينة إسماعيل بن جعفر بن سليمان بشعر مورى فلم يقههمه وكان كلما جاءه من يأنس به عرضه عليه حتى دخل رجل فأقرأه إياه وهو قوله:

لؤلؤة منك قد تقبناها

حتى إذا أينعت قطفناها

تشعبت منك قد سلكناهما

ولم نطأها وقد وطنناها

وحاجتي أن تصيب معناها

إني أحاجيك فاعلمنّ فما

وكرمة من أبيك منبتها

تخبرنا ما هما وما سئل

لم نمش فيها ريتاً ولا عجلأ

فإن تصبها فأنت ذو فطن

فقال: أيها الأمير إنه كلام رديء أكره أن أستقبلك به فقال: هاته قال: أما اللؤلؤة فالبنت، وأما الكرمة من أبيك فالأخت، وأما السبل التي تشعبت فالأم لم نطأها بالأقدام، ووطنناها بالفعل. وقال الآخر يذكر دعوة يدعو بها على رجل:

محلّ ولم يقطع بها البيد قاطع

لورد ولم يقصر لها القيد مانع

إذا قرع الأبواب منهنّ قارع

على أهلها والله راءٍ وسامع

أرى بجميل الظنّ ما الله صانع

وسارية لم تسر في الأرض تبتغي

سرت حيث لم تسر الركاب ولم تتخ

تكرّ وراء الليل والليل مظلم

إذا وفدت لم يردد الله وفدها

وإني لأرجو الله حتى كأنتي

أحسن ما قيل في تقبيل اليد

أخبرنا أبو أحمد، عن الصولي، عن محمد بن خالد، عن أبي بكر بن محمد بن خلاد الباهلي، عن محمد بن الفضل، عن أبي الزناد، عن عبد الرحمن، عن ابن أبي ليلى، عن عبد الله بن عمر، قال: كنت في غزوة في بعض مصالح رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتلقنا العدو فحاص الناس حيصة، فكنت فيمن حاص، ثم قلنا، حين رجعنا، إلى أنفسنا: كيف ننظر في وجوه القوم وقد بؤنا بغضب من

الله؟ ثم قلنا: نأتي المدينة فنبيت بها ثم نخرج، فلا يرانا أحدٌ فلما أتينا المدينة، قلنا: لو عرضنا أنفسنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتيناه فلما خرج إلى الصلاة قلنا يا رسول الله نحن الفرارون. قال: بل أنتم الكرارن، فقبلنا يده، قال: ثم قلنا: يا رسول الله، إنا هممنا بكذا، فقال: إنا فئة المسلمين. ثم قرأ: "إلا متحرفاً لقتالٍ أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله".

وياسناد لنا، أن ابن أبي ليلى، قبل يد أبي مسلم فقال له رجلٌ أتقبل يد أبي مسلم؟ قال أوليس أبو عبيدة قبل يد عمر؟ قال أو تجعل أبا مسلم مثل عمر؟ قال أو تجعلني مثل أبي عبيدة. وحدثنا أبو أحمد عن الصولي، عن محمد بن زكريا عن محمد بن عبيد الله العتيبي، قال: قبل رجلٌ يد المهدي، فقال: يد أمير المؤمنين أحق يد بتقبيل، لعلوها في المكارم، وطهارتها من المآثم، وإنك ليوسفى العفو، إسماعيلي الصدق شعبي الرفق، فمن أرادك بريدة خوف أو سوء، فجعله الله طريد خوفك، وحصيد سيفك.

ومن أجود ما قيل في ذلك، من الشعر، ما أنشدنا أبو أحمد، عن الصولي لإبراهيم بن العباس في الفضل بن سهل قال: أنشدنا ثعلب وأبو ذكوان:

تقاصرَ عنها المثلُ

وسطوتُها للأجل

وظاهرُها للقبل

لفضل بن سهل يدُ

فبسطتها للغنى

وباطنها للندى

فأحذه ابن الرومي فقال للقاسم بن عبيد الله رحمه الله:

والمرءُ بينهما يموتُ هزيباً

بذلَ النوالِ وظهرها التقبيلاً

أصبحتَ بين خصاصةٍ وتجمّل

فأمدد إليّ يداً تعودَ بطنها

وقال أيضاً:

له راحةٌ فيها الحطيمُ وزمزم

وقلت:

وباطنُها عينٌ من الجودِ عيلمٌ

عفاء على عينٍ من الجودِ عيلم

وباطنُها عن أن تقاس بزمزم

فظاهرُها للناس ركنٌ مقبّلٌ

هو البحر لا عينٌ من الجودِ عيلمٌ

يجلُّ عن تقبيلِ ظاهرِ كفه

ومما جاء في كراهة ذلك: ما أخبرنا به أبو أحمد، عن الصولي عن الغلابي عن العتي، قال: أستأذن رجل مروان الجعدي في تقبيل يده، فأبى وقال: إنما لمن العربي ذلة، ومن العجمي خدعة، فلا حاجة لي في أن تذل لي، أو تخدع فاعفني من ذلك.

الحض على السلام

أخبرنا أبو أحمد عن الصولي، عن إبراهيم بن عبد الله النمري، عن الضحاك بن مخلد، عن ابن عجلان، عن المقبري عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا جاء أحدكم المجلس فليسلم، فإن قام والقوم جلوس فليسلم، فإن الأولى ليست بأحق من الآخرة".
وأخبرنا أبو أحمد، عن الصولي، عن إبراهيم بن فهد، عن عبد الله بن رجاء عن سعيد بن سلمة عن أبي بكر، عن نافع عن ابن عمر: أن لا جلا مر برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يهرق الماء، فسلم عليه الرجل فرد عليه فقال: إنه ما حملني على الرد عليك إلا أبي خشيت أن تقول سلمت عليه فلم يرد علي فإذا رأيتني هكذا فلا تسلم علي فإنك إن تفعل لا أرد عليك السلام. وعنه عليه السلام: تمام التحية أخذ باليد. وحدثنا أبو أحمد عن الصولي، عن الغلابي، عن العباس بن بكار، عن المفضل الضبي عن جدته عن مكعت الأسدي، قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت:

عليك السلامُ أبا القاسم

يقولُ أبو مُكعتُ صادقاً

سلام الإله وريحانه وروح المصلين والصائم.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "عليك السلام تحية الموتى".

قال المصنف تقول العرب للميت عليك السلام.

قال الشاعر:

وقد بنتَ منا كلنا لك حامدُ

عليك أبا بشر سلامٌ ورحمةٌ

حياةُ الفتى سيرا إلى الموتِ قاصدُ

فلا يُبعدنك الله ميتاً فإنما

وقال عبدة بن الطبيب:

ورحمته ما شاء أن يترحمنا

عليك سلامُ الله قيس بن عاصم

وأخبرنا أبو أحمد، عن الصولي، عن الغلابي، عن ابن عائشة، قال: دخل الحسن بن الكنابي على عبد الله بن جعفر ذي الجناحين فأنشده قوله فيه:

وسيد فهر لدى المحضر

عليك السلامُ أبا جعفرٍ

فأنت المهذب من هاشم

وخير قريش إذا تذكر

فقال له عبد الله: أخطأت مرتين: عليك السلام أكثر ما تستعمل هذه للأموات وقد أمكنك أن تقول:

سلام عليك أبا جعفر

ثم جعلت لي ما كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم ووصفتني بصفته، قال فاستمع البيت الذي سقت له ما سقت قال: هاته فقال:

فهذي ثيابي قد أخلفت

وقد عضني زمن منكر

فقال عبد الله: هذي ثيابي لك بها، ودعا بغيرها ودفعها إليه.

السلام على الكفار

حدثنا أبو أحمد، عن الصولي، عن الغلابي، عن العباس بن بكار، عن أبي بكر الهذلي قال سلم نصراني علي الشعبي، فقال له الشعبي: وعليك السلام ورحمة الله، فقال له رجل سبحان الله تقول لهذا النصراني ورحمة الله! فقال الشعبي أليس في رحمة الله يعيش؟! قال بلى قال: فما وجه الإنكار علي عافاك الله تعالى وإيانا برحمته.

رد السلام بالإشارة

حدثنا أبو أحمد، عن الصولي، عن العباس بن الفضل الأسفاطي عن ثابت عن عبد العزيز، عن هشام بن سعد، عن نافع عن عبد الله، قال: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى البقيع فقام فصلى، فجاءت الأنصار تسلم عليه، قال: فسألت بلالاً كيف كان يرد عليهم؟ قال: كان يشير إليهم بيده. وأنشدنا عنه، عن محمد الأسدي، عن أبي هفان، عن أبي محلم لأبي طراد أسعد بن البكا البكري:

مررنا فقلناها السلام عليكم

فبلغها ضيق المحل غيور

وما كنت أدري أن في الخير ريبة

ولا إن رجعا بالسلام يضير

ما جاء في المصافحة

وأخبرنا أبو أحمد، عن الصولي، عن الأسفاطي، عن يعقوب بن حميد، عن إسحاق بن إبراهيم بن سعيد، عن صفوان بن سليم، عن إبراهيم بن عبيد بن رفاهة، عن ابن أبي ليلى، عن حذيفة، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إذا لقي المؤمن المؤمن فصاح أحدهما صاحبه تناثرت الخطايا بينهما كما يتناثر ورق

الشجر".

وقال الحسن: المصافحة تزيد المودة. وحدثنا عنه، عن الغلابي عن ابن عائشة قال: دخل سوار العنبري على المنصور فقال: يا أمير المؤمنين، على ما أحدث الناس اليوم أم على ما كان عليه الأوائل؟ قال بل على ما كان عليه فدنا فصافحه.

وأخبرنا عنه قال: سمعت إبراهيم بن المنذر يقول: دخل الفقهاء على المتوكل، ونحن وقوف بين يديه فاستدناهم فكل قبل يده إلا إسحاق بن إسرائيل، فإنه قال: يا أمير المؤمنين، ما ينقصك أن أقبل يدك ولم يقبل يد المتوكل وقد حدثني الفضل بن عياض عن هشام بن حسان عن الحسن قال: المصافحة تزيد في المودة، وتتقي بها المؤمنين فبسط المتوكل يده فصافحه، ووصله المتوكل بأكثر مما وصل به أصحابه. وأنشدنا عنه عن أحمد بن إبراهيم المازحي لبعض شعراء الشام:

إلينا لو تصافحت الخدودُ

تصافحت الأكفُ وكان أشهى

فكيف إذا التقى جيدٌ وجيد

نموت إذا التقى كفٌ وكفٌ

وقال آخر:

وكل الهوى مني لمن لم أصافح

فصافحت من لاقيت في البيت غيرها

وقال أبو العتاهية يهجو عبد الله بن معن بن زائدة:

ممسوفة كوراً على بغلٍ

أخت بني الشيبان مرّت بنا

مخافة العين من الكحلِ

قد نقطت في كفّها نقطةً

فقال دع كفي وخذ رجلي

لقبته يوماً فصافحته

حياك الله وبياك

معنى حياك الله سلام عليك، والتحية أيضاً الملك فحياك الله على هذا التأويل ملكك الله، والتحية البقاء، وهو على هذا التأويل أبقاك الله، قال الأصمعي بياك أضحكك، وقال علي الأحمري: أرادوا بواك متزلاً، فقال: بياك للاتباع، كما قالوا الغدايا والعشايا، وقال ابن الأعرابي: معناه قصدك بالتحية، وبيت الشيء قصدته واعتمدته. وحدثنا عنه عن زياد بن خليل التستري عن إبراهيم بن بشار الرمادي عن سفيان عن محمد بن سوقة قال: أتانا ميمون بن مهر أن فقلت له: حياك الله فقال: مه هذه تحية الشباب قل حياك الله بالسلام.

وحدثنا عنه، عن المغيرة بن محمد، عن إسحاق الموصلي، قال نزل الطماح العقيلي بقوم من بني تميم فأحسنوا إليه فأراد الرحيل عنهم فقال:

حَيَّاكُمْ اللَّهُ فَإِنِّي مُنْقَلَبٌ
وإنما الشاعر كالكلبِ الكلبِ
لا يرعوي لمبغض ولا مُحَبَّبٌ
وأنشده عن المبرد لعمارة:

حيًّا الآله خيالها من دانٍ
لو كان عَرَجٌ أو تَعْلَلٌ ساعةً
كفانٍ شيدتا بناءً محامدٍ
تلقى له دعة الكهولِ وحلمهم
وأنشده عن أحمد بن إبراهيم:

حيَّاك من لم تكن ترجو تحيتهُ
لولا الدراهمُ ما حيَّاك إنسانُ

قولهم مرحبا

أخبرنا أبو أحمد عن الصولي، عن محمد بن يزيد المبرد النحوي عن أبي عثمان المازني قال لما أتى الرشيد الرقة تلقاه محمد بن ذؤيب العماني فأنشده:

هارونُ يا بن الأكرمينَ حسباً
من أرضِ بغدادِ تؤمُّ المغربيا
ونزلَ الغيثُ لنا حتى ربا
فمرحباً ومرحباً ومرحباً

فقال الرشيد وبك مرحباً وأهلاً، ووصله بصلة سنيه.

وحدثنا عنه عن عبيد الله بن عبد الله قال لما دخل أبو مضر، أنشده سعيد بن الوليد المعروف بالبطين:

مرحباً مرحباً وأهلاً وسهلاً
مرحباً مرحباً وأهلاً وسهلاً
مرحباً مرحباً وأهلاً وسهلاً
يا بن ذي الجودِ طاهرِ بن الحسينِ
بابن ذي العرَّتَيْنِ في الدَّولَتَيْنِ
بابن ذي المحتدينِ في المصرينِ

مرحباً مرحباً بمن كفه البح

رُ إذا فاضَ مُزبد العبرينِ

فوصله وقدمه.

وقديماً ما استعملوا مرحباً في كلامهم ومنه قول طفيل الغنوي:

وبالسهل ميمون النقيبة قوله

لملتمس المعروف أهلٌ ومرحبٌ

وأخبرنا عنه، عن محمد بن العباس اليزيدي، عن محمد بن الحسن الزرقعي عن الحسين بن علي العلوي المدني، عن بعض أصحابه عن المازني، قال كان أعرابي يلزمننا وكان فصيحاً، فقال له علي بن جعفر بن سليمان: وكان جافياً لا يعطيه شيئاً إلا مرحباً فقال فيه الأعرابي:

وما مرحباً إلا كريح تنسمت

إذا أنت لم تخلط نوالاً بمرحب

ومثل هذا قول جحظة اليرمكي:

قائلٌ إن شدوتُ أحسنتَ زدني

وبأحسنتَ لا يباعُ دقيقٌ

وأخبرنا عنه عن أبي العيناء، قال استأذن رجل على الحسن بن سهل، فقبل له من أنت؟ قال: رجل أمر له الأمير يوم كذا بشعرة آلاف درهم، فأمر بإدخاله فلما رآه، قال: مرحباً بمن توصل إلينا بنا وشكر إحساننا إلينا، وأكرمه.

وأخبرنا عنه، قال: سمعت إبراهيم بن المدبر الكاتب الضبي، يثني على ابن الجهم في صداقته ومروءته فقال في ذلك، كنت واقفاً بين يدي المتوكل، وقد جيء برأس إسحاق بن إسماعيل وجه به بغا، فارتجل علي بن الجهم شعراً وقال:

أهلاً وسهلاً بك من رسول

جئتُ بما يشفي من الغليل

بجملة تغني عن التفصيل

برأس إسحاق بن إسماعيل

ومر بأبيات فاستحسن ذلك المتوكل، ووصله بصلة سنية، قال: وأنشدني ثعلب:

فما لك نعمة سلفت إلينا

وكيف وأنت تبخل بالسلام

سوى أن قلت لي أهلاً وسهلاً

وكانت رمية من غير رام

وقلت:

تضنُّ بتسليم وزورة ساعة

فكيف يرجي جودك كفيك بالوفر

وأنشدنا عنه، عن أبي موسى محمد بن موسى، مولى بني هاشم قال: أنشدني عبد السلام ابن رغبان الحمصي المعروف بديك الجن لنفسه:

من ليسَ يَعْرِفُ غَيْرَهُ أُرْبِي
لَبْلُوغِ مَا أَمَلْتُ مِنْ طَلْبِي
شَهْرَيْنِ أُرْمِي الْأَرْضَ لَمْ أَصْب

بِأَبِي وَإِنْ قُلْتُ لَهُ بِأَبِي
قَرُطُسْتُ عَشْرًا فِي مَوَدَّتِهِ
وَلَقَدْ أَرَانِي لَوْ مَدَدْتُ يَدِي

أُنشِدْنَا عَنْهُ قَوْلَ أُنشِدْنَا عَبْدَ اللَّهِ بْنِ الْمُعْتَزِ لِنَفْسِهِ:

دَ بِمِضْرَابِهَا فَغَنَّتْ وَغَنَّى
فَإِذَا مَا أَخَذَتْهُ صَرْتُ بَطْنًا
مَنْ بِهَذَا أَنْبَاكَ فِي النَّوْمِ عَنَّا
بِأَبِي مَا عَلَيْكَ أَنْ أْتَمَنَّى

قُلْتُ يَوْمًا لَهَا وَحَرَكْتَ الْعَو
لِيَتَّبِعِي كُنْتُ ظَهَرَ عَوْدِكَ يَوْمًا
فَبَكَتْ ثُمَّ أَعْرَضَتْ ثُمَّ قَالَتْ
قُلْتُ لَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ مِنْهَا

قال: وسمعت محمد بن عبيد الله بن يحيى الوزير يقول: دخل أبو العيناء إلى أبي فقال له: كيف حالك فقال أبو العيناء: أنت أعزك الله الحال فانظر كيف أنت لي. فوصله ووقع له بأرزاقه. وحدثنا عنه عن عون بن محمد الكندي عن عبيد الله بن عمر قال: قيل لرجل من قريش كيف حالك؟ فقال: كيف حال من يهلك ببقائه، ويسقم بصحته، ويؤتى من مأمته؟ ومثله:

نَغَصَّ عَيْشِي كُلَّهُ فَنَاوَهُ

مَا حَالٍ مِنْ آفَتِهِ بَقَاؤُهُ

وقال سعيد بن حميد:

تَ بِهِ كَيْفَ حَالُهُ
وَبَعِيدًا نَوَالُهُ
حِينَ يَرْجِي وَصَالَهُ
فَاتَكَ لِي مَطَالَهُ
وَمَسَىءَ فَعَالَهُ

لَكَ عَبْدٌ فَلَوْ سَأَلَ
يَا قَرِيبًا مَزَارُهُ
حَاضِرًا لِي صُدُودَهُ
مَسْعُدٌ لِي مَقَالَهُ
مُحَسِّنٌ فِي كَلَامِهِ

ما جاء في أطلال الله بقاءك

أول من قاله عمر رضي الله عنه روي عن رفاعة عن رافع، قال: شهدت نفرًا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم عمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعدٌ يذكرون الموءودة، فاختلفوا فيها، فقال عمر: أنتم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تختلفون، فكيف بمن بعدكم فقال علي عليه السلام: إنها لا تكون موءودة حتى يأتي عليها الحالات السبع فقال له عمر: صدقت أطلال الله بقاءك.

وقال ابن لهيعة: المعنى لا تكون موعودة حتى تكون نطفة، ثم علقه ثم مضغه ثم عظماً ثم لحماً ثم تظهر ثم تستهل، فحينئذ إذا دفنت فقد وثدت وليس كما يقول بعض الناس: إن المرأة إذا تداوت فأسقطت فقد وأدت.

وأخبرنا أبو أحمد، عن الصولي، عن أحمد بن يحيى بن عبد الله بن شبيب قال: كتب إلي بعض إخواني من البصرة إلى المدينة: أطال الله بقاءك، كما أطال جفاك، وجعلني فداك، إن كان في فداؤك. شعر:

كُتبتُ ولو قدرتُ هوىً وشوقاً **إليك لكنتُ سطرًا في الكتاب**

قال الشيخ أبو هلال رحمه الله تعالى: والبيت لأبي تمام.

جعلت فداك

دخل الزبير على النبي صلى الله عليه وسلم وهو عليل، فقال ما يعمدك جعلني الله فداك. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "يا زبير أما تركت أعرابيتك بعد" وحدثنا عنه، عن يحيى بن علي، عن أبي أيوب المدني، عن إسحاق قال: حجني خادمٌ لجعفر بن يحيى، يقال له نافذ، فانقطعت عنه فسأل عني، فعرفه سبب انقطاعي فقال: قل له إن حجبك إنسانٌ فافعل به لا يكنى قال فحجت فحجني فكتبت إليه ارتجالاً في الحال:

جُعلتُ فداك من كلِّ سوءٍ **إلى حُسنِ رأيك أشكو أناساً**

يحولون بيني وبين الدُخولِ **فما أن أسلم إلا اختلاسا**

وأنفذتُ أمرَك في نافذٍ **فما زاده ذلك إلا شماسا**

فضحك لما قرأ الأبيات وأدخلني وقال: أفعلت يا أبا إسحاق فقلت بعض ذلك، وتقدم إلى نافذ وغيره أن لا أحجب متى حضرت.

دعاء المكاتبة

حدثنا عنه عن أبي ذكوان قال سمعت إبراهيم بن العباس يقول: ما أظن قول الكتاب: وقدمني الله قبلك، مأخوذ إلا من قول الأغر بن كاسر في أخيه صقر:

أخي أنت في دينٍ ودُنيا كلاهما **أُسرُّ بأن تبقى سليماً وأفخرُ**

إذا ما أتى يومٌ يفرِّقُ بيننا **بموتٍ فكن أنت الذي يتأخرُ**

فقبل له هذا يروى لحاتم، فقال: وما على من لا يدري أن ينسب شيئاً إلى غير قائله.
فأما قولهم وأتم نعمته عليه، وزاد في إحسانه إليه فهو من قول عدي بن الرقاع:

صَلَّى الْآلَهَ عَلَى امْرِئٍ وَدَعْتَهُ وَأَتَمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِ وَزَادَهَا

وقالوا وأول من قال: وأسأله أن يصلي على محمد إسحاق بن سليمان بن علي. وأنشد للسري في ضد قولهم مت قبلك، وإن الحظ عنده أن يكون هو ومن يجب يموتان في وقت واحد:

لَا مَتُّ قَبْلَكَ يَا أَخِي لَا بَاخِلًا وَبَقِيْتُ لِي وَبَقِيْتُ فَيْكَ مُمْتَعًا
بِالنَّفْسِ عَنكَ وَلَا تَمْتُ قَبْلِي بِالْبِرِّ وَالنِّعْمَاءِ وَالْفَضْلِ

حتى إذا قصد الحمام لنا من بعد عمرٍ وارد الحبل
مُتْنَا جَمِيعًا لَا يُؤَخَّرُ وَاحِدٌ وَكِفَاكَ مِنْ نَفْسِي شَهِيدٌ نَاطِقٌ
عن واحدٍ لمرارة الثكلِ يا صاح أنك عندها مثلي

وفي نحو ذلك قول الآخر:

إِنِّي لِأَشْفَقُ أَنْ أُؤَخَّرَهَا بَعْدِي وَأَكْرَهُ أَنْ أُقَدِّمَهَا

وقال يعقوب بن الربيع:

فَلَوْ أَنَّهَا إِذْ حَانَ وَقْتُ حِمَامِهَا أُحْكَمُ فِي أَمْرِي لِشَاطِرْتِهَا عَمْرِي
فَمَاتَتْ وَلَا أُدْرِي وَمَتُّ وَلَا تَدْرِي فَحَلَّ بِنَا الْمَقْدَارُ فِي سَاعَةٍ مَعًا

وقريب منه قول الآخر:

لَا مَتُّ مِنْ قَبْلِي وَلَا مَتُّ مِنْ حَتَّى نُوَافِيَ الْمَوْتَ فِي سَاعَةٍ
قَبْلَكَ بَلْ عَشْنَا إِلَى الْحَشْرِ لَا أَنْتَ تَدْرِي بِي وَلَا أُدْرِي

كيف أصبحت

حدثنا عنه، عن أيوب بن سليمان بن داود المهلبي، عن محمد بن عباد، قال: كان جرير ابن حازم يقول:
العرب تقول: كيف أصبحت من نصف الليل إلى نصف النهار، وكيف أمسيت من نصف الزوال إلى
نصف الليل الأول، وتقول في يومك كان الليلة كذا إلى الزوال فإذا زالت الشمس قلت البارحة، هذا
معروفٌ عندهم. وحدثنا عنه، عن الفضل بن الحباب، عن التنوخي قال: العرب تقول: صحبتك الأنعمة

بطيبات الأطعمة. وحدثنا عنه، عن البلعي عن أبي حاتم، عن الأصمعي، قال: قيل لأبي عمرو بن العلاء كيف أصبحت؟ قال: أصبحت كما قال الربيع بن ضبع الفزاري:

أصبحتُ لا أحملُ السلاحَ ولا
أملكُ رأسَ البعيرِ إن نفراً
وحدثنا عنه، عن أبي ذكوان، عن التنوخي، عن الفراء، قال: كنت عند الكسائي فقال له رجل: كيف أصبحت؟ فقال: أصبحت كما قال الصمة بن عبد الله بن طفيل القشيري:

أصبحتُ ما لي من عزِّ ألودٍ بهِ
إلا التَّعزُّزُ بعدَ السيفِ والبدنِ
بعرضةِ جانبِ الأدنونِ جانبِها
والأهلُ بالشامِ والإخوانُ باليمنِ

وأنشدنا عنه قال: أنشدنا محمد بن يزيد المبرد النحوي قال: أنشدني المازني عن أبي زيد:

كيف أصبحتَ كيف أمسيتَ مما
يُثبتُ الودَّ في فؤادِ الكريمِ

وحدثنا عنه، عن محمد بن الفضل بن الأسود، عن عمر بن شبة، عن الحسين ابن الضحاك الخليع، قال: كنت في المسجد الجامع بالبصرة، إذ دخل علينا أبو نواس وعليه جبة خز جديد فقلت له: من أين لك هذا يا أبا علي؟ فلم يجبرني فتوهمت أنه أخذها من موسى بن عمران، لأنه دخل من باب بني تميم فقلت فأجد موسىاً وقد لبس جبة أخرى فقلت:

كيف أصبحتَ يا أبا عمرانِ
يا كريمَ الإخاءِ والإخوانِ

فقال صبحك الله به وأسمعك خيراً.
فقلت:

إنَّ لي حاجةً فرأيك فيها
إننا في قضائها سيَّانِ

فقال هاها على اسم الله تعالى فقلت:

جُبة من جبابك الخزِّ حتى
لا يراني الشتاء حيثُ يراني

قال خذها، ومد كمة فذرعتها، وجئت فقال أبو نواس: من أين لك هذه؟ قلت: من حيث كانت لك تلك. وحدثنا عنه، عن وكيع، عن علي بن عبد الله بن حمزة بن عتبة اللهي قال: دخلت على محمد بن عبد الرحمن بن محمد المخزومي أعوده فقلت له كيف أصبحت فقال كما قال الشاعر:

إنَّ الليالي أسرعت في نقضي
أخذنَ بعضي وتركنَ بعضي

أقعدنني من بعد طول نهضي

وقيل لأعرابي كيف أصبحت؟ فقال أصبحت والله كما قال الشاعر:

يا خيرُ إنِّي قد جعلتُ أشتمر
أرفعُ من ثوبي ما كنتُ أجزرُ

وحدثنا عنه، عن الغلابي، عن محمد بن عبد الرحمن التيمي، عن أبيه قال: لقي بكر بن عبد الله المزني أبا تيممة الهجيمي فقال: كيف أصبحت أبا تيممة؟ فقال أصبحت بين ذنوب قد سترها الله علي، ما يقدر أحدٌ أن يعيرني منها بذنوب، وبين محبةٍ قد ألقاها الله في قلوب الناس، لست لها بأهل، وقد خفت أن أهلك بين هذين وأنا ضعيف الشكر.

قال وقيل لقريبة الدبيرية كيف أصبحت؟ فقالت:

بخيرٍ علي أن النوى مطمئنةٌ
بليلى وإنَّ العينَ يجري مَعينها

وقيل لأعرابي كيف أصبحت؟ قال بخير أحتسب على الله بالحسنة، ولا أحتسب على نفسي بالسيئة. وقال رجلٌ لأبي العيناء وقد كبر وضعف: كيف أصبحت؟ فقال في الداء الذي يتمناه الناس لأعدائهم. وحدثنا عنه، عن الغلابي، عن إبراهيم، عن عمر، عن أبي عبيدة، قال: قيل للنمر بن توبل: كيف أصبحت يا أبا ربيعة؟ فقال ارتجالاً على البديه:

أصبحتُ لا يحملُ بعضي بعضا
أشكو العروقَ النايبات نبضا

كما تشكى الأرحبي الغرضاً
كأنما كان شبابي قرضاً

وحدثنا عنه، عن القاسم بن إسماعيل، عن محمد بن سلام عن ابن داب، قال: قيل لمحارب بن دثار كيف أصبحت؟ فقال أصبحت كما قال الشاعر الأعشى:

أرقتُ وما هذا السُّهادُ المؤرِّقُ
وما بي من سقمٍ وما بي مَعشَقُ

ولكنْ أراني ما أزال بحادثٍ
أغادي بما لم يُمسِ عندي وأطرقُ

وحدثنا عنه، عن المقدمي عن أبي عمر بن خلاد قال: قال الربيع الحاجب لأبي العتاهية كيف أصبحت فقال:

أصبحتُ والله في مضيق
هل من دليلٍ على الطريقِ

أفٌ لدنيا تلاعبتُ بي
تلاعبَ الموج بالغريقِ

أصبتُ فيها دُرِيهماتٍ
فبغضتني إلى الصديقِ

وحدثنا عنه، عن علي بن الصباح، عن بشر بن مسعود المازني، قال: كان لسفيان بن عيينة جارٌ سيء الحال فحسنت حاله، فقال له سفيان: كيف أصبحت؟ وكيف حالك؟ لقد سررت بما صرت إليه بعد غم بما كنت فيه فدعا الرجل له ومضى، فقال له بعض جلسائه: كيف تكلم هذا؟ قال: هو جارٌ. قال: إنه قد صار صراطاً لهؤلاء، قال سفيان إن كان في الناس أحدٌ طلب الدنيا من حيث يستحق فهذا. وحدثنا عنه، عن المغيرة بن محمد المهلي قال قدم أبو العتاهية البصرة إلى عيسى بن جعفر فأقام شهوراً ثم اعتل فقال:

أدفع من همّ إلى كربه

أصبحت بالبصرة ذا غربة

وليس لي عتبي ولا عتبه

أطلب عتبي من حبيب نأى

وحدثنا عنه، عن المبرد قال: قال الجمار لأبي العتاهية: كيف أصبحت؟ قال: على غير ما يجب الله، وغير ما أحب، وغير ما يجب إبليس، لأن الله تعالى أن أطيعه ولا أعصيه ولست كذلك وإبليس يجب أن أعصي الله ولا أطيعه ولست كذلك، وأنا أحب أن أكون على غاية الثروة والصحة ولست كذلك. حدثنا عنه، عن الحسن بن الحسين الأزرق، عن العباس بن محمد، عن عمرو بن الحارث بن محمد بن سلام، قال: قال أبو حراثة وهو من بني ربيعة بن حنظلة ليزيد بن المهلب: كيف أصبحت أصلح الله الأمير؟ قال: كما تحب يا أبا حراثة، قال: لو كنت كذا لكنت قائماً مثلي، وكنت أنا قاعداً في مقعدك، وكان قميص ابني المرقوع على ابنك، والتومتان اللتان في أذن ابنك على ابني. قال يزيد فالحمد لله الذي جعلك كذا وجعلني كذا، فقال إلا أني في ضيق أنتظر سعةً، وأنت في سعة تنتظر ضيقاً. وحدثنا عنه، عن أبي العتاهية، عن العتبي قال: قيل لأعرابي: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت أعرس بالبعرة، وأقيد بالشعرة، وأفزع من النعرة. وحدثنا عنه، عن الغلابي عن دماذ، عن الهيثم بن عدي، قال: كان هرم بن سنان المزني قد آلى على نفسه أن لا يسلم عليه زهير إلا وهب له غرة من ماله، فأشفق عليه زهير من ذلك وكان يمر بالمجلس وهرم فيهم، فيقول: أنعموا صباحاً غير هرم خيركم تركت، ففخر عقبه بن كعب بن زهير بذلك في قوله:

عن مصعب ولقد باننت لي الطرق

إني لأصرف نفسي وهي صادية

قبلبي زهيرٌ وفينا ذلك الخلق

رعوي عليه كما أرعى على هرم

ثم الغنى ويذ الممدوح منطلق

مدح الكرام وسعى في مسرتهم

ومثله قول حاجز الأزدي:

بشاشة وجهي حين تبلى الطبايع

وإني لأستبقي إذا العسر مسني

إذا ما تشكى الملحف المتضارع
وترجعني نحو الرجال المطامع

صلي حسن المقال بحسن فعل
يبين أن شغلك بي كشغلي

فأعفي ثرى قومي ولو شئت نولوا
مخافة أن أقلي إذا جئت زائراً

ومن مليح ما قيل في فديتك:
فدتك النفس وهي أقل بذل
أريني منك في أمري نهوضاً

وأخبرنا عنه، عن محمد بن خلف بن المرزبان، قال: اجتمع عندي أحمد بن أبي طاهر، والناشي ومحمد بن عروس، فدعوت لهم مغنية فجاءت ومعها رقيقة لم ير الناس أحسن منها قط فلما شربوا أخذ الناشي رقعة فكتب فيها:

لردُّوا النواظرَ عن ناظرِك
وهل تنظرُ العينُ إلا إليكَ
من وحي حسنك في وجنتِك
فمن ذا يكون رقيباً عليك

فديتك لو أنهم أنصفوا
تردِّينَ أعيننا عن سواك
ألا يقرؤوا ويحهم ما يرونَ
وقد جعلوك رقيباً علينا

قال: فشغفنا بالأبيات فقال ابن أبي طاهر: أحسنت والله وأجملت، قد والله حسدتك هذه الأبيات، ووالله لا جلست، وقام وخرج من ساعته، ولم يعد إلى الشرب بقية يومه.

ما جاء في الدعاء للخارج إلى السفر

أخبرنا عنه، عن إبراهيم بن فهد الساجي، عن نصر بن علي، عن عبد الله بن داود، عن مسعر، عن ميسرة عن سعيد بن جبير، عن ابن العباس قال: ودع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً أراد سفراً فقال: "أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك". وحدثنا عنه عن أبي علي العتايي قال: رأيت أبا شعاعة القيسي أخذاً بسفينة إبراهيم بن المدبر وقد عزل عن البصرة وهو يريد الخروج وأبو شعاعة ينشده:

فأغيثوا بك من طول العجف
وحُرْمناك لذنبٍ قد سلف
حيثما صرَّفَه الله انصرف

ليت شعري أي قوم أجدبوا
نزل الرَّحْبُ من الله بهم
إنما أنت ربيعٌ باكرٌ

يا أبا إسحاق سرِّ في دَعَا

حيثما شئتَ فما منك خلفٌ

وأخبرنا عنه، عن الغلابي، عن الزبير، قال: ودع ابن المعافي صديقاً له أراد سفراً فأنشدته عند وداعه:

خلفَ الله الذي خلفته

ووقاك الله وعتاءَ السفرِ

إنني أشكرُ ما أوليتني

لم يضع حسن بلاء من شكر

ردك الله إلينا سالماً

بعدَ غنمٍ واغتباطٍ وظفر

الدعاء للقادم من السفر

أنشدنا عنه محمد بن عبد الله الأحيطل:

أقدمُ قدمتَ قدومَ عارضِ مُرنةٍ

يهترئُ بينَ أهابها الفضايفِ

من كلِّ متعبةِ الرياحِ ثقيلةٍ

تمشي به مشي الوجى المنهاضِ

مُسودةٌ مبيضةٌ فكأنها

دُهمٌ مولوعةٌ الشوى ببياضِ

وقال ابن الرومي:

قدومُ سعادةٍ وقفولُ يُمنِ

وهي السراءُ تمحقُ كلَّ حُزنِ

أظلتك السلامة ما تغنتُ

مُطوّقةٌ على فننِ تغني

قوله أظلتك السلامة في غاية الرشاقة وأحسن منه قوله: تمحق كل حزن.

الدعاء للمهزوم

حدثنا عنه، عن الغلابي عن عبد الله بن الضحاك، عن الهيثم بن عدي، عن عوانه قال: لما انهزم أسلم بن زرة الكلبى من مرداس بن أذنية بأسك وكان في ألفي رجل، ومرداس الخارجي في أربعين رجلاً، وفيهم يقول شاعرهم:

أألفا مؤمن منكم زعمتم

ويهزمكم بأسك أربعونا

كذبتم ليس ذاك كما زعمتم

ولكنّ الخوارج مؤمنونا

همُ الفئة القليلة قد علمتم

على الفئة الكثيرة ينصروننا

فدخل أسلم البصرة، فقالت له امرأة من قومه: والله لأن يعيش حميداً خيراً من أن تموت شهيداً، ولأن تدوم عبادتك بحياتك، أزلف لك من أن تنقطع بمماتك، قال ودخل على ابن زياد فعنفه واستعجزه،

فقال: أيها الأمير كنت في ألفين جميعهم مثلي، وقاتلت أربعين كل واحدٍ منهم مثلي ويزيد علي، ولأن يذمني الأمير حياً خيراً من أن يمدحني ميتاً. وحدثنا عنه، عن القاسم بن إسماعيل، عن رفيع بن سلمة، عن أبي عبيدة، قال: لما هزم أبو فديك أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد بهجر، قدم البصرة في ثلاثة أيام فدخل عليه الناس، وفيهم صفوان بن عبد الله بن الأهمم المنقري أبو خالد بن صفوان والناس لا يدرون كيف يدعى للمهزوم، حتى قال صفوان: أم والله أيها الأمير لقد تعرضت للشهادة جهديك، وطلبتها طاقتك ووسعك، فعلم اله فقرنا إليك، وقلة عوضنا منك، فاختار لنا عليك ببقائك، ولم يختار لك علينا باستشهادك، فالحمد لله الذي زين بك مصرنا، وأنس ببقائك وحشنا، وجلا بسلامتك غمنا. فعلم الناس كيف يدعى للمهزوم فسلخوا هذا المسلك.

ومن أحسن الاعتذار للمهزوم قول فروة بن مسيك العطيفي وأجاد:

فإن نهزم فهزامونَ قدماً
وإن نهزم فغير مهزومينا
وما إن طبنا جبنٌ ولكنْ
منايانا ودولة آخرينا

فقوله ودولة آخريين من أحسن الاعتذار الواقع من المهزوم.

الدعاء للمعزول

أنشدنا عنه عن عون بن محمد الكندي لأبي تمام الطائي:

ليهنك إن أصبحتَ مجتمعَ الشملِ
وراعي المعالي والمحامي عن المجدِ
وإنك صنتَ الأمرَ فما وليتهُ
وفرقتَ ما بينَ الغواية والرشدِ
فلا يحسب الأعداءُ عزلك مغنما
فإنَّ إلى الإصدارِ ما غاية الوردِ
وما كنتَ إلا السيفُ جردٌ للوغي
وأخمد فيه ثم رُدَّ إلى الغمدِ

وأخبرنا عنه عن الحسين بن يحيى قال حدثنا إسحاق قال عزل هشام من إسماعيل المخزومي عن المدينة فاشتد العزل عليه فقال له عروة بن أذينة:

فإن تكن الأمانة عنك زالت
فإنك للمغيرة والوليدِ
وقد مرَّ الذي أصبحتَ فيه
على مروانٍ ثم على سعيدِ

وأخبرنا عنه، قال: دخلت يوماً مع أبي العباس محمد بن يزيد النحوي إلى عبد الله بن الحسين القطريلي، وقد صرف عن عمل فقال أقول لك ما قاله أبو عبادة البخثري:

شَهْدَ الخَرْجِ إِذْ تَوَلَّيْتَهُ أَنْ
 كَ فِي جَمْعِهِ الْأَمِينُ الْأَعْفُ
 حَيْثُ لَا عِنْدَ مَجْتَبَى مِنْهُ الْإِظَا
 طُ وَلَا فِي سِيَاقِ جَانِبِهِ عُنْفُ
 سِيرَةُ الْقَصْدِ لَا الْخَشُونَةَ عِنْفُ
 لَتَعْدِي الْمَدَى وَلَا اللَّيْنَ ضَعْفُ
 وَعَلَى حَالَتِكَ يَسْتَصْلِحُ النَّا
 سُ إِبَاءً مِنْ جَانِبِكَ وَعَطْفُ
 لَنْ يُؤَلِّيَ تِلْكَ الطَّسَاسِيحَ إِلَّا
 خَلْفَ مِنْكَ آخَرَ الدَّهْرِ خَلْفُ
 إِنْ تَشَكَّتْ رَعِيَّةٌ سُوءَ قَبْضِ
 بَكَ أَوْ أَعْقَبَ الْوَلَايَةَ صَرْفُ
 فَقَدِيمًا تَدَاوَلَ الْعَسْرُ وَالْيَسْ
 رُ وَكُلَّ قَذَى عَلَى الرِّيحِ يَطْفُو
 يَفْسُدُ الْأَمْرُ ثُمَّ يَصْلِحُ عَنْ قَرُ
 بٍ وَالْمَاءِ كَدْرَةً ثُمَّ يَصْفُو

ولما عزل إبراهيم بن المدبر عن البصرة أنشد أبو صفوان الثقفى:

أَبَا إِسْحَاقَ إِنْ تَكُنَ اللَّيَالِي
 عَطْفَنَ عَلَيْكَ بِالْعِزْلِ اللَّئِيمِ
 فَلَمْ أَرَ صَرْفَ هَذَا الدَّهْرِ يَجْرِي
 بِمَكْرُوهِ عَلَى غَيْرِ الْكَرِيمِ
 وَقَالَ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ فِي مُحَمَّدِ بْنِ هِشَامِ السَّدْرِيِّ:

لَا يَهْنَأُ الْأَعْدَاءُ عِزْلَ ابْنِ هَاشِمٍ
 فَكُلُّ مُؤَلَى قَصْرُهُ الصَّرْفُ وَالْعِزْلُ
 لَقَدْ كَانَ مَيْمُونُ الْوَلَايَةِ قَابِضًا
 يَدَ الْجَوْرِ مَبْسُوطًا بِهِ الْحَقُّ وَالْعَدْلُ
 يَرُومُ رِجَالٌ حَطَّهُ وَهُوَ سَابِقُ
 أَبِي اللَّهِ إِلَّا أَنْ يَطُولَ وَأَنْ يَعْلُو

دعاء الأعياد

أخبرنا عنه، عن جبلة بن محمد الكوفي، عن أبيه قال: قال ابن شبرمة لعيسى بن موسى يوم أضحى: قبل
 الله منك الفرض والسنة، واستقبل منك الخير والنعمة وقرن بالإقبال يومك.

ما قيل في القيام للأجلاء

أخبرنا أبو أحمد، عن الصولي قال: حدثنا محمد بن يزيد بن عبد الأكبر قال: حضر بعض العرب مجلساً
 فجاء صديقاً له فتلقاه من بعيد وقال:

لَنْ قَمْتُ مَا فِي ذَاكَ عِنْدِي غَضَاضَةً
 عَلِيَّ وَإِنِّي لِلشَّرِيفِ مُذَلُّ
 عَلَى أَنَّهُ مَنِي لَغَيْرِكَ ذِلَّةٌ
 وَلَكِنَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ يَجْمَلُ

ومن مشهور ما قيل في هذا المعنى:

فلما بصرنا به ماثلاً
فلا تتكرنَّ قيامي له
حللنا الحبي وأبتدَرْنَا القِيَامَا
فإنَّ الكَرِيمَ يَجَلُّ الكَرَامَا
وأنشد أبو أحمد عن الصولي، عن يحيى البحرى، لأبيه في عيد الله بن عبد الله في قصيدة طويلة:
ومُجَلِّ وَسَطَ الرِّجَالِ خُفُوفَهُمْ
فَاللَّهُ يَكْلُوهُ لَنَا وَيَحُوطُهُ
لِقِيَامِهِ وَقِيَامَهُمْ لِقَعُودِهِ
وَيُعِزُّهُ وَيَزِيدُ فِي تَأْيِيدِهِ
وقال غيره:

أتعجبُ أن أقومَ إذا بدالي
فلا تعجبْ لإسراعي إليه
لأكرمهُ وأعظمهُ هِشَامُ
فإنَّ لِمِثْلِهِ خُلُقَ القِيَامِ
وقال البحرى:

يقومونَ من بُعدٍ إذا بصروا به
ويبتدرونَ الراؤونَ منه إذا بدا
لأبلجِ موفورِ الكرامةِ أروع
سنى قمرٍ من سُدَّةِ الملكِ مَطَّلِعِ
إذا سارَ كَفَّ اللِّحْظُ عن كلِّ منظرٍ
سواه و غُضَّ السَّمْعُ عن كلِّ مسمِعِ
فلستَ ترى إلا إفاضةَ شاخصٍ
إليه بعينٍ أو مشيراً بأصبعِ

ما قيل في شعبان وشهر رمضان وشوال

فمنه قول الفرزدق وأجاد في ذلك:

إذا ما مضى عشرونَ يوماً تحركت
وطارت رِقَاعٌ بالمواعيدِ بيننا
أراجيفُ بالشهرِ الذي أنا صائمه
لكي يلتقي مظلومٌ قومٍ وظالمة
فإن شالَ شِوَالٌ تُشَلُّ في أكفنا
كؤوسٌ تُعادي العِقلَ تسالمة
ومعاني هذه الأبيات كلها مبتكرة لم يسبق إليها الفرزدق.
وأنشدنا أبو أحمد، عن الصولي، عن الرياشي، عن أبيه:
وقفنا فلولاً أننا راضنا الهوى
ومن دونِ ما نلقاهُ من لوعةِ الهوى
لهتكنا عندَ الرقيبِ نحيبُ
تُشَقُّ جُيُوبٌ بل تُشَقُّ قُلُوبُ

على أن شوالاً أشال يوصلنا

وأنشدنا أبو أحمد عن الصولي قال أنشدنا ابن بسام لنفسه:

ومرتعه للعاشقين خصيب

عندي له ما شاء من شكرٍ

أنهضه الليل من الوكر

إلى كحيل العين بالسحر

أعجله ذاك عن الوتر

في ليلة القدر على قدر

وبؤت بالآثام والوزر

سقيا لشهر الصوم من شهرٍ

كم من عزيز فيه فزنا به

ومن إمام كان لي وصله

لو كان يدري بالذي خلفه

وخلة زارتك مشتاقة

فانصرف الناس بما أمّوا

وأنشد المبرد للحرثي:

شهرٌ طويلٌ بطيء السير والحركة

كأنه بطة تنجرُّ في شبكه

فلا سُلَيْكٌ يُدَانِيهِ وَلَا سُلْكَه

أجدَّ في إثرٍ مطلوبٍ على رمكه

إن كان يكنى عن اسم الطول بالبركه

شهرُ الصيام وإن عظمت حرمة

يمشي الهويينا إذا ما رام فرقتنا

لا يستقرُّ فأما حين يطلبنا

كأنه طالبٌ تاراً على فرس

يا صدق من قال أيامَ مباركة

وقال آخر:

علينا الفطرُ يقدمه السرورُ

ونحنُ نحبُّ أن تفتي الشهورُ

مضى رمضانٌ محموداً وأوفى

وفي مرَّ الشهورِ لنا فناءً

وحدثنا أبو أحمد عن الصولي، قال: حدثنا الحسين بن يحيى قال: كتبت الحسين بن وهب إلى الحسن بن

رجاء يوم شك وقد أفطر الواثق:

أميرُ المؤمنين عن الصيام

تطيبُ بهنَّ دائرة المدام

أحبَّ إليَّ من حذفِ الكلام

هزرتك للصباح وقد نهانا

وعندي من قنان المصير عشرٌ

فكن أنتَ الجوابَ فليس شيءٌ

وقال غيره:

هلالُ الفطرِ من تحت الغمام

أقول لصاحبي وقد بدا لي

وننعرُ في قفا شهر الصيام

سنسكرُ سكرةً شنعاءَ جهراً

وقال محمد بن عبد الله بن الحسين بن عبد الله الجعفري:

ليست من الدبسِ الذي ينبذُ

هل لك في صهباءَ مشمولةٍ

درباً إذا فكرتَ لا ينفذُ

فإنَّ شعبانَ على طيبه

وقال أحمد بن يزيد:

فلا عُذِرَ لي في الصبرِ أكثرَ من شهرِ

الأسقياني من معتقَةِ الخمرِ

بأنَّ زمانَ الصومِ ليس من العمرِ

وإنَّ كنتما لم تعلمتا فتعلما

وحدثنا أبو أحمد، عن الصولي قال حدثنا أبو الحسن محمد بن أبي الموج الرازي وقال: حدثني أبي قال: كتب علي بن جبلة، إلى أبي دلف يستسقيه نبيداً في يوم عيد الفطر فوجه إليه بما كفاه وبمائتي دينار فقال علي بن جبلة:

وأسيافهُ تقضي على الحدّثانِ

وأبيض عجلي رأيتُ غمامهُ

وأغنى يدي عن غيره ولساني

مددتُ إليه ذمتي فأجارها

وأدركتُ ثأرَ الراح من رمضانِ

شربتُ ورويتُ النديمَ بماله

فكانت عطايا جوده بضمانِ

وكان لشوّالٍ عليّ ضمانهُ

وحدثنا عن الصولي قال: حدثنا أبو ذكوان القاسم بن إسماعيل قال حدثنا التوزي عن أبي عبيدة قال أسلم أعرابي في أول الإسلام فأدركه شهر رمضان فجاج وعطش فقال الأعرابي يذكر ذلك:

شرائعهُ سوى شهرِ الصيامِ

وجدنا دينكم سهلاً علينا

فصل في معانٍ مختلفة

أخبرنا أبو أحمد عن أبي بكر بن دريد، عن عمه، قال: كانت عند رجل من بني أسد ابنة عم له، ورآها فدخل إليها يوماً وهي متغضبة، فقال ما شأنك؟ قالت: إنك لا تشب بي كما يشب الرجال بنسائهم، قال أفعل ثم أنشأ يقول:

والحسنُ منها بحيثُ الشمسُ والقمرُ

تمتُ عبيدةٌ إلا في ملاحظتها

إلا سوافهُ والجيدُ والنظرُ

ما خالفَ الطبيُّ منها حينَ تبصرها

قُلْ لِلذِّي عَابَهَا مِنْ حَاسِدٍ حَنَقٌ

أَقْصَرَ فِرَاسُ الَّذِي قَدْ عَبَتَ وَالْحَجَرُ

وَأَنشَدْنَا لِلْعَدِيلِ بْنِ الْفَرخِ الْعَجَلِي:

هَلْ تَقْضِينَ لِمَسْتَهَامٍ حَاجَةً

نَيْطُتُ إِلَيْكَ بِهَا حَبَالُ رَجَائِهِ

أَفْنَى تَجْلِدُهُ بَقَاءُ دُمُوعِهِ

وَأَدَامَ عِبْرَتُهُ فَنَاءُ عَزَائِهِ

وحدثنا أبو أحمد، عن الصولي، عن أحمد بن محمد الخراساني قال: كنت في مجلس ابن ثوبة فناظره رجل عن ضيعة له، فاستقصى الحجة وأخذ بنفسه فقال ابن ثوبة: يا مابون فوثب الرجل وهو يقول:

كَلَانَا يَرَى الْجُزَاءَ يَا جُمْلُ أَنْ بَدَتْ

وَنَجْمُ الثَّرِيَا وَالْمَزَارُ بَعِيدُ

فتحدث الناس بما مدة. قال أبو بكر ويشبه هذا حديثاً حدثناه أبو العيناء قال: خاصم يوماً جيلان القمي المقبول الزيادي فقال المقبول يا دعي فأنشأ جيلان يقول:

بُئِينَةُ قَالَتْ يَا جَمِيلُ أُرَبَّتْنِي

فَقَلَّتْ كَلَانَا يَا بَثِينُ مُرِيبُ

فبلغ هذا ابن عائشة التيمي فقال: جيلان في التمثل، بهذا البيت في هذا الموضوع، أشعر من جميل قائله. أنشدنا أبو أحمد قال أنشدنا أبو بكر بن دريد لنفسه يهجو بعض النحويين:

عَفْظِيرُ إِنَّا اخْتَلَفْنَا

فِي الْفَعْلِ مِنْ فَاعِلِينَ

فَقَالَ قَوْمٌ يَبْتَنِي

لَجْمَعِنَا الْهَمْزَتَيْنِ

وَقَالَ قَوْمٌ يَعْدِي

بِمَلْتَقَى السَّاكِنِينَ

وَأَنْتَ أَعْلَمُ مِنَّا

بِذَا وَذَاكَ وَذِينَ

لَأَنَّكَ الدَّهْرَ فَعَلُ

يَعْتَلُّ مِنْ جَهْتَيْنِ

وَأَنشَدَنِي عَمَّ أَبِي رَحِمَهُ اللَّهُ:

صَحْبَتِكُمْ دَهْرًا طَوِيلًا لِعَسْرَتِي

أَرْحَى نَجَاحًا وَالظَّنُونُ فَنُونُ

فَمَا نَلْتُ مِنْكُمْ طَائِلًا غَيْرَ أَنْنِي

تَعَلَّمْتُ ذُلَّ الْعَيْشِ كَيْفَ يَكُونُ

وَأَنشَدَنِي أَيْضًا فِي مَسْجُونٍ:

لئن حجبك الحجبُ عنا فربما

رأينا جلابيبَ السحابِ على الشمسِ

وَأَنشَدْنَا أَبُو أَحْمَدَ عَنِ ابْنِ الْمَسِيْبِ عَنِ ابْنِ الرُّومِيِّ:

خَيْرُ مَالٍ مَوْزُونُهُ لَذْوِي الْحَمِّ

دَكَمَا خَيْرُ حَمْدِهِمْ مَوْزُونُهُ

وَأَصْحُ الْآرَاءِ مَا ظَنَّ ذُو الْأَفِّ

نِ بَدِي الرَّأْيِ أَنَّهُ مَأْفُونُهُ

ومن ههنا أخذ المتنبّي قوله:

وإذا أنتك مذمتي من ناقصٍ
والمحلّ الخلاء من كلّ ضيفٍ
وأخسّ الرجال من راح فيهم
أنفق المال قبل انفاك العم
لا تظننّ أنّ مالك شيءٌ
قلما ينفع الثراء بخيلاً
كلّ وأطعم فربما راع ريعاً
وإذا ما ظننت شراً فخفه
كم ركون جنى عليك حذاراً
وأنشدنا أبو أحمد عن ابن الأنباري عن أبيه:
يموت قومٌ فيحیی العلم ذکرهم
ونحوه قول دعيّل:

سأقضي ببيت يحمّد الناسُ أمره
ويكثر من أهل الرواية حامله

يموت رديء الشعر من قبل ربّه
وجيّد يبقی وإن مات قائله
أخبرنا أبو أحمد عن أبي بكر عن أبي عثمان عن التوزي عن أبي عبيدة عن خالد عن يونس: دخل
الطرماح بن حكيم على خالد بن عبد الله القسري فقال له: أنشدني بعض شعرك فأنشده قوله:
وشيبني أن لا أزال مناهضاً
وإنّ رجال المال أضحوا ومالهم
بغير غنى أسمو به وأبوغ
لهم عند أبواب الملوك شفيع
مختومي ريب المنون ولم أنل
من المال ما أعصى به وأطيع
فأمر له بعشرين ألفاً وقال له اعص بها الآن وأطع إذا شئت.

التفاضل بين الإخوان

أنشدنا أبو أحمد عن أبي بكر:

وبعضُ الأمرِ أصلحهُ ببعضِ
تري بينَ الرجالِ العينُ فضلاً
فإنَّ الغنَّ يحملهُ السمينُ
وفيما أضمروا الفضلُ المبينُ
كلونِ الماءِ مشتبهاً وليست
تخير عن مذاقتهِ العيونُ

الحث على موافقة الناس

من أحسن ما ورد في ذلك قول الشاعر:
الناسُ إن وافقتهم عذبوا
كم من رياضٍ لا نظيرَ لها
وقلت:
لما أدلُّ أملني فسلوته
تالله ما اتبعَ النبيُّ محمدٌ
أولاً فإنَّ جناهمُ مُرٌ
تركتُ لأنَّ طريقها وعرٌ
من ذا يدلُّ فلا يملُّ محبهُ
لو كانَ فظاً أو غليظاً قلبه

إغياب الزيارة

قال مسلم بن الوليد:
إني كثرتُ عليه في زيارتهِ
وطعام عمرو ابن أوفى مثله
وقال الكميت:
ولو لم تغب شمس النهار لَمَلتِ
فأخذه أبو تمام فقال:
فإني رأيتُ الشمسَ زيدتُ محبةً
ونقله آخر إلى ذكر الغيث:
تكون متى دامت إلى الهجرِ مسلكا
ويُطلب بالأيدي إذا هو أمسكا
وقال آخر:
وأغيبتُ الزيارةَ لا ملالاً
ولكن من محاذرةِ المللِ

وهذا كله من قول النبي صلى الله عليه وسلم: "زرغباً تزدد حباً".
وقلت:

ما زلت تلقاه فضاقة صدره
من أكثر الغشيان حساً قدره
وعداء من بعد الوصال هجره
لو كثرت الياقوت هان أمره
ولم يعز حمره وصفره
ولا علا بين الأنام ذكره

في ذم العجائز قول الشاعر

رأيت البيض قد أعرضني عني
كأن مجامع اللحيين منها
فمن لي أن تساعدني عجوز
إذا حسرت عن اللحيين كوز
ومن المشهور قول الحرمازي:

لا تتكحن عجوزاً إن دعيت لها
فإن أتوك وقالوا إنها نصف
واخلع ثيابك عنها ممعناً هرباً
فإن أطيب نصفها الذي ذهباً
وقال آخر:

وما غرني إلا خضاب بكفها
وجاؤوا بها قبل المحاق بليلة
وكحل بعينيها وأثابها الصفر
فكان محاقاً كله ذلك الشهر

ما ورد في فضل الحمام

قال السري بن عبد الله الرفاء:

أسعيد هل لك في زيارة منزل
رحب ترى الجدران فيه يناعاً
تنثني عليه جوارح الزوار
وترى السماء كثيرة الأعمار
ينضو حيي الوجه ثوب حياته
فيه فيخطر كالحسام العاري
وترى على غدراثة بهم الوغى
يخطر ما بين القنا الخطار
سلت سيوفهم بغير بوارق
وَجرت خيولهم بغير غبار

مع أبيات آخر غير مختارة الرصف.

وقلت:

وهي إن ميّزتها شرُّ دارٍ
حين تأتيه خليع الإزار
وترى الأقمار نصف النهار

قُم بنا نَنزل في خيرِ دارٍ
منزلٌ تخلعُ دينك فيه
لا ترى فيه الشمسَ نهاراً

فوق أمهارٍ وفوق مهاري
وسيوف نابيات الشفاري
تكتسي الصحة وهي عواري
تتكافا من وراء الجدار

وعلى حيطانه أسدُ حربٍ
شهدوا الحرب بأرماح زورٍ
ونرى الأبدان حين أنته
بينابيع كقضباني دُرٍّ
وقال عبد الله بن المعتز في ذم حمام:

يشقي بها الوارد
وبيث له بارد

وحمامنا كالعجوز
فبيث له منتن

ولقد أخذ هذا اللفظ بعينه بعض المحدثين وزاد فيه فقال:

تلذ ويشقى بها الواردُ
وبيث لها واسع باردُ

وحمامنا هذه كالعجوز
فبيث لها منتن ضيقُ

ومن أجود ما قيل في صفة النورة قول الآخر:

لمجرد يكسوه ما لا يُنسجُ
ويذيبه الماء القراح فيبهج
نصفان ذا عاجٍ وذا فيروزجُ

ومجرد كالسيف أسلم نفسه
ثوباً تمزقه الأنامل رقة
كأنه لما التقى في خصره

الشطرنج قلت فيه

ء من قدح ومن شج
ومزجي الراح لا يزجي
وأرجى الشرب من يرجي
من الأحزان في لج
ومنها القلب في وهج

إذا أعفيت الصهبا
وكان الكأس لا يجدي
والغى اللهو من يلغى
لأيام أخاضتنا
فمنها الجسم في نقص

وإنْ أصبحتُ في تلجٍ
وما من كيدِها مُنجي
مليحِ النظمِ والنسجِ
على نردٍ وشِطرنجِ
ولسنا منه في هرج
وقامَ الرُّومُ للزنجِ
تمشِينَ إلى دعجِ
بلا عَجِّ ولا ثجِّ
ولا بوقٍ ولا صنجِ
ولا رُمحٍ ولا زجِ
بلا لجمٍ ولا سرجِ
لأمرٍ غيرِ مُعوجِّ
فلا يعدو عن النهجِ
يدا شلجٍ ولا علجِ
لواءِ النصرِ والفلجِ
عليها سيمَةُ السرجِ
تراهمُ أولَ الدرِّجِ

فما أنفكُ في حرِّ
وما من شَرِّها ناجِ
تمتعنا بمسموعِ
ونتلو ذكراً من نهوى
كأنا منه في هرج
تمشَى الزنَّجُ للرُّومِ
فما أحسنها بيضاً
أقمنا بيننا حرباً
شهدناها بلا طبلِ
وجئناها بلا سيفِ
ترى أفراسنا تعدو
مشى الفرزانُ مُعوجاً
ورُخٌّ ينتحي نهجاً
وفيلٌ ليسَ يحدوهُ
وعند الشاهِ منصوبُ
وحولي أوجهٌ غُرُّ
إذا ما دُونَ الحسنِ

ما ورد في النرد

لم يحكما فيهنَّ حكماً عادلاً
ويراهما المحروم سعداً أفلاً
ضراءه أو نفعاه نفعاً عاجلاً

وقال السري بن عبد الله الرفاء:
ومحلمان على النفوسِ وربما
يلقاهما المرزوقُ سعداً طالعاً
فإذا هما اصطحبا على كفِّ الفتى

القدح

فأجود ما قيل فيه قول ابن مقبل:

بدا والعيونُ المستكفةُ تلمحُ
من المسِّ والتقليبِ بالكفِّ أفطح
غدا وبه قيل المفيضين يقدح

خروجٌ من الغمي إذا صكَّ صكةً
غدا وهو مجدولٌ وراح كأنَّهُ
إذا امتحنتهُ من معدِّ عصابةً

انتظار الفرج

أنشدنا أبو أحمد عن ابن دريد:

وضاق بما به الصدرُ الرَّحيبُ
وأرستُ في مطامِنِها الخطوبُ
يَمُنُّ به اللطيفُ المستجيبُ
فمقرونٌ بها الفرجُ القريبُ

إذا اشتملت على اليأسِ القلوبُ
وأوطنت المكارهَ واطمأنتُ
أتاك على قنوطٍ منك غوثُ
وكلُّ الحادثاتِ إذا تناهتُ

وقلت:

كمثلِ الليلِ يتلوه الصباحُ
كذاك لكلِّ فاسدةٍ صلاحُ

لكلِّ مُلمةٍ فرجٌ قريبُ
وإنَّ لكلِّ صالحَةٍ فساداً

وأفنيةٌ موسعةٌ فِساخُ
كما تأتي وأوجهها قباخُ
وللدُّنيا انفلاقٌ وانفتاحُ
فإنَّ الصبرَ عقباهُ النجاحُ
فمقرونٌ بها الفرجُ المتاخُ

وللأيامِ أيدٍ باسطاتُ
وقد تأتي وأوجهها صباحُ
وللحالاتِ ضيقٌ واتساعُ
فلا تجزعْ لها واصبرِ عليها
وكلُّ الحادثاتِ إذا تناهتُ

معنى آخر

وليسَ ينفَعُ بعدَ الكبرَةِ الأدبُ
ولا يَلِينُ إذا قَوِّمتهُ الخشبُ

قد ينفَعُ الأدبُ الأحداثَ في مهلٍ
إنَّ الغصونَ إذا قَوِّمتهَا اعتدلتُ

وأجود ما قيل في ازدحام المنتجعين على أبواب المفضلين البيت المشهور:

وعمَّ بالفضلِ جميعَ الأنامِ
والمشربُ العذبُ كثيرُ الزَّحامِ

مَنْ أَكثَرَ الإحسانَ من فعلِهِ
يَزِدُّهُمْ الناسَ على بابِهِ

وقال أبو الهول:

سَحَّتْ يَدُ الفِضْلِ ياقوتاً وعقيانا
وردَ القِطَا أَقبلتُ مثنى ووحيدانا

إذا السماء أَبَتْ إلا محاذرةً
ترى الرِّفاقَ إلى أبوابِهِ زمراً

معنى آخر

قد يهزُّ السؤالُ غيرَ جوادِ
لم تذقُ فيه ذلةَ الترددِ

ليسَ جودٌ أعطيتُهُ بسؤالِ
إنما الجودُ ما أتاك ابتداءً

من أجود التشبيهات في المحجمة

قول بعضهم

يُلفُفُ بالسَّيرِ منقارها
إذا هنَّ تؤمن آثارها

وخضراء لا من بنات الهديل
كأنَّ مشقَّ عيونِ القِطَا

وقال أيضاً في الحجامة:

مضاربُ سيفهِ البطلُ الكميا
تألقَ فتَحَ الوردِ الجنيا
سقاها من رقابِ الناسِ رِيَا
كسا الوجناتِ ديباجاً بهيا
ويَدْعُوهُ الوريُّ برّاً تقيا

أما وأبيك لا أنساءُ تدمي
وبرقاً في أناملهِ إذا ما
إذا ظمئتُ فراخُ أبيك يوماً
وإن جرحَ الأخادعَ مطمئناً
ولم أرَ مثلهُ يأتي عُقوقاً

وقال آخر:

كم من كميٍّ أدمى ومن بطلِ
لم يمس من ثأره على وجلِ

أبوك أو هي النجادُ عاتقه
يأخذنَ من ماله ومن دمه

مما ما قيل في خطل الرأي قول الآخر

والعتبُ عن مثلكُ محطوطُ
كلُّ الذي يأتيه مسخوطُ

عُذركُ عندي بكِ مبسوطُ
ليس بمسخوطٍ فعالُ امرئ

وقال آخر:

ويفلُّ عزمتهُ صريرُ البابِ
والدَّارُ تعجزُ عن مقيلِ ذبابِ
أرأيتَ حاجبَ حاجبِ البوابِ

يا مَنْ يقلقه طنينُ ذبابِ
ضربَ السرادقِ في رواقِ بابهِ
وأقامَ للبوابِ حاجبَ حاجبِ

إفساد المعروف باليمن

قال بعضهم:

ما دامَ يملكها عليٌّ حرامُ
ما دامَ يسلكُ في البطنِ طعامُ
زادَ يمنٌ عليهم للئامُ
لعننا يشنُّ عليه من قدامُ

ألبانُ إبلِ تَعَلَّةِ بنِ مُساورِ
وطعامُ عمرو بنِ أوفى مثله
إنَّ الذينَ يسوغُ في أحلاقهم
لعن الإلهَ تَعَلَّةَ بنِ مُساورِ

من يعيب غيره وهو معيب

من المشهور في ذلك قول الشاعر:

ويعمى عن العيب الذي هو فيه
ويبدو له العيبُ الذي لأخيه

أرأى كلَّ إنسانٍ يرى عيبَ غيرهِ
وما خيراً من تخفى عليه عيوبُهُ

ولأبي دلامة في معناه:

وإن بحثوا عني ففيهم مباحثُ
ليعلمَ قومٌ ما تضمُّ النبائثُ

إذا الناسُ غطوني تغطيت عنهمُ
وإن حفروا بئري حفرتُ بئارهم

معنى آخر

ومالكُ عندَ فركِ من صديقِ
طوى عنكَ الزَّيَّارةَ عندَ ضيقِ

صديقك حينَ تستغني كثيرُ
فلا تغضبْ على أحدٍ إذا ما

في مدح قواده حاذقة:

تجري من الإنسان مجرى الدم
ولو ثوت في منزل الأعصم

تكاد لو لم تك إنسية
لا تعصم الحساء من كيدها

وقول الآخر في ذلك:

وتأتي بالمراد على اقتصاد
خيال ضحى لزار بلا رقاد

تسهل كل ممتنع عسير
فلو كلفتها تحصيل طيف ال

وقريب من ذلك قول الآخر:

فإنني شاكر لإدريس
أطوع من آدم لإبليس
أصف في حمل عرش بلقيس

من ذم إدريس في قيادته
من بمستصعب فجاء به
وكان في سرعة المجيء به

معنى آخر

إلا تزيدت حرفاً تحته شوم
أنى توجه منها فهو محروم

ما ازددت في أدبي حرفاً أسر به
إن المقدم في حذق بصنعته

وقريب منه:

ولربما حرم الفتى ببيانه

ولربما رزق الفتى بسكوته

ومن الجيد في ذلك قول الآخر:

وأحببت أن تدري الذي هو أحق
وحيث يكون الحذق فالرزق ضيق

إذا اجتمعت في امرئين صناعة
فحيث يكون النقص فالمال واسع

معنى آخر

وهان على الأدنى فكيف الأبعاد

إذا قل مال المرء لانت فئاته

ومثله قول الآخر:

ويهان للعدم العديم

المرء يكرم للغنى

وقال آخر:

ما لم يسقه علمٌ ولا أدبٌ
فأكرم الناسِ من كانت له نشب

غضبان يعلم أن المال ساق له
فمن يكن عن كرام الناس يسألني

وقال آخر:

ومالي من مالٍ أصونُ به عرضي
وذلك لا يغني الصديقَ ولا يرضي

كفي حزناً أني أروحُ وأغتدي
وأكثر ما ألقى صديقي بمرحباً

وقال آخر في معناه:

أجلك قومٌ حينَ صرتَ إلى الغنى وكلُّ غنيٍّ في القلوبِ جليلٌ
وليس الغنى إلا غنى زينَ الفتى
عشيةً يُقري أو غداةً ينيل

ما ورد في حظ الجاهل

فمن جملة ذلك قول الشاعر:

بأغنى في المعيشة من فتيلٍ
وهيئاتِ الحظوظ من العقولِ

وما لبُّ اللبيبِ بغيرِ حظٍّ
رأيتُ الحظَّ يستر كلَّ عيبٍ

والعرب تقول: "إسع يجد أودع".
وقال الحارث بن حلزة:

ل النوكِ ممن عاش كذاً

والعيش خيرٌ في ظلا

وقلت:

يعيش في حال نكد
أثبتُ من وصلٍ وتد
تصدُرُ بحظٍّ وتردُّ
واصبرُ على ما لم ترد
بجدِّ سعدٍ دونَ جد

لكلِّ حرٍّ مبتلى
والنحسُ في طالعه
فكن رقيقاً ساقطاً
وكن رقيقاً ماجداً
هيئاتَ أن يحظى الفتى

وقال آخر:

فانهضُ بجدٍ في الحوادثِ أودر
واستأنفِ الأمرَ الذي لم يعسر

الجدُّ انهضُ بالفتى من عقله
وإذا تعسرتِ الأمورُ فارجهَا

قَدَرَ وَأَبْعَدَهَا إِذَا لَمْ يُقَدَّرْ

مَا أَقْرَبَ الْأَشْيَاءَ حِينَ يَسُوقُهَا

الاستعانة بالجاهل في وقت الحاجة

قال بعضهم:

أخا الحلم ما لم يستعنْ بجهولِ

ولن يلبث الجهالُ أن يتهضموا

وقال الأحنف بن قيس:

بحلم واستمرَّ على المقالِ

وذي ضغنٍ أمتُ القولِ منه

يلاقِي المعضلاتِ من الرجالِ

ومن يحلم وليسَ له سفيهُةٌ

وقال غيره:

ومن عديدٍ يتقى بالراحِ

لا بُدَّ للسيدِ من أرماحِ

ومن سفيهِةٍ دائمِ النباحِ

معنى آخر

ولكنهُ خيمُ النفوسِ وخيرُها

وما الجودُ من فقرِ الرجالِ ولا الغنى

فمالكِ نفسٌ بعدها تستعيرُها

فنفسكِ أكرمُ عن أمورٍ كثيرةٍ

فقيراً ويغنى بعد بُوسٍ فقيرُها

وقد تخذعُ الدُّنيا فيمسي غنيها

وكم آيسٍ منها أتاهُ بشيرُها

وكم طامعٍ في حاجةٍ لا ينالها

الاقتداء بالقرين

أجود ما قيل فيه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الموء على دين خليله".

ومن أقدم ما قيل فيه قول عدي بن زيد العبادي:

فإنَّ القرينَ بالمقارنِ مُقتدي

عن المرءِ لا تسألُ وأبصرُ قرينهُ

وليس رصفه بالجيد. وقال غيره:

وإنَّ لم يكنوا من قبيلٍ ولا بلدِ

ولا يسئل الإنسانُ إلا قرينهُ

المأخوذ بذنب غيره

ومن قدس ما قيل في ذلك قول النابغة:

كذي العرِّ يكوى غيرَهُ وهو راتعُ

أحملتني ذنبَ امرئٍ وتركتهُ

وقال غيره:

كالثورِ يُضربُ لما عافتِ البقرُ

إني وقتلي سُلَيْكاً ثم أعقله

النهى عن الظلم

قول الأول

والظلم مرتعهُ وخيمُ

البغيُّ يصرخُ أهله

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "الظلم ظلمات يوم القيامة".

وقال بعضهم:

والظلمُ مشتقٌّ من الظُّلمة

ظلمك من خلقك مُستخرجٌ

وقلت في عاملٍ صودر:

لأنصفَ الظالمُ في نفسه

لو أنصفَ الظالمُ من نفسه

لكانَ لا يرحمُ في أمسه

إن كانَ لا يرحمُ في يومه

ما ورد في الجبن

يُفدِّي المهر من حُبِّ الإياب

وأفلتتا هجين بني سليم

لأبَّتْ وَأَنْتَ غَرِبَالُ الإِهَابِ

فلولا الله والمهرُ المُفدِّي

وقال آخر:

أن الشجاعةَ مقرونٌ بها العطبُ

باتت تُشجِّعني هندٌ وقد علمتُ

ما يشتهي الموتَ عندي من له أدبُ

يا هندُ لا والذي حجَّ الحجيجُ لهُ

وقال آخر في المعنى:

كأنِّي عَقَابٌ عندَ تيمنِ كاسرُ

نجوتُ نجاءً لم يرَ الناسُ مثله

وقال آخر:

تقدَّم حينَ جدبنا المراسُ

يقولُ ليَ الأميرُ بغيرِ شكِّ

ومالي إنْ أطعتك من حياةٍ

ومالي بعدَ هذا الرَّأسِ راسٍ

ومن المضحكات قول الآخر

ألم تراني و عمرأ حينَ نغدو

إلى الحاجاتِ ليس لنا نظيرُ

أسايرُهُ على يُمنى يديهِ

وفيما بيننا رجلٌ ضريرُ

ومن المضحكات قول القاساني في الجبن والتطفيل:

أرى في النومِ رُمحاً أو سناناً

فأسلحُ في الفراشِ على مكاني

ولكني المُبَارز حينَ أدعى

إلى أكلِ العصيدةِ والفراني

وما عمروٌ هناك أشدَّ مني

ولا العبسي عنتره الطعانِ

ولا زيد الفوارسِ حينَ أدنو

فألقي بالكلاكلِ والجرانِ

تراني عندها لبتاً نفيراً

إذا ما اصطكَّ مني الماضغانِ

أشدُّ على الخبيصةِ لا أبالي

بأبي جنوبها وقعتُ بناني

وكم طبقِ رَدَدْتُ وليس فيه

من البقلِ المحصلِ حبتانِ

الخلق من الثياب

قال الحمدوني:

طالَ تردَّادُهُ إلى الرِّقِّو حتى

لو بعثناه وَحَدَّهُ لتهْدَى

وقال آخر:

قال غسَّالي لما

جنَّته قولاً صحيحاً

يا عزيزي أنا لا أغسلُ بالصابونِ ريحا

وأحسن من ذلك كله وأشهر قول الآخر:

يا بن حربِ كسوتتي طيلساناً

ملَّ من صُحبةِ الزَّمانِ وصدّاً

إن تتحنحت فيه ينحز عيراً

أو تحركت فيه ينقدُّ قدّاً

من أحب لبناته الموت

قال بعض الأعراب:

ألفٌ وعبدان وذوذٌ عشرٌ

إني وإن سيقَ إليّ المهرُ

أحبُّ أصهاري إليّ القبرُ

وقال عبيد الله بن عبد اله بن طاهر:

ثلاثةُ أصهارٍ إذا طُلبَ الصهرُ

لكلِّ أبي بنتٍ يُراعي شؤونها

وقبرٌ يُوارِيها وخيرُهما القبرُ

فبعلٌ يُراعيها وخدرٌ يكنها

جعل القبر خير الثلاثة الأصهار، فإنه نعم الصهر في الستر. كلام الملحدِين لعنهم الله: فمنهم ديك الجن عبد السلام بن رغبان الحمصي:

وتسويفُ النفوسِ من السوافي

هي الدنيا وقد نعيموا بأخرى

فإنَّ المبتليكَ هو المُعافي

فإن كذبوا أمنت وإن أصابوا

بتصديقِ القيامةِ غير صافي

وأصدقُ ما أبْتُكُ أن قلبي

وقال ابن أبي البغل:

وذاك أني أقولُ بالدهرِ

باحَ ضميري بمُضمَرِ الأمرِ

وإنما الموتُ بيضةُ العقرِ

وليسَ بعد المماتِ حادثةٌ

وقال آخر:

لا قدرٌ صحَّ ولا جبرٌ

يا ناظراً في الدين ما الأمرُ

يُذكرُ إلا الموتُ والقبرُ

ما صحَّ عندي من جميعِ الوري

قبحهم الله لقد أعظموا القول ولا ينتفعوا إلا بالفضيحة في الدنيا والاثم في الآخرة. وإنما أورد مثل هذا لتعرف أهله ولأن تسمية الكتاب توجهه. ونحوه قول ابن الرومي وأجاد:

لما كان عدلاً أن نكونَ سواءً

أي ربِّ إن سوَّيتَ بيني وبينه

فكنتُ له أرضاً وكانَ سماءً

فكيفَ وقدَ أعلَّيتُهُ وخفضتني

فصل آخر

كتب أبو الشيص إلى رجل كان وعده مخدة فأبطأت عليه:

كل ما يعرفو وشده

بذر كتان المخده

يا صديقي وأخي فيه

ليت شعري هل زرعتم

وأخبرني أبو أحمد عن أبيه، عن أحمد بن أبي طاهر، قال أهدى بعض العمال إلى دعبل بن علي الخزاعي برذوناً زمناً فرده وكتب إليه:

فلا للركوب ولا للثمن

فسوف يكافي بشعر زمن

فما كنت ترجو بهذا الغبن

وأهديته زمناً فانيا

حملت على زمن شاعراً

أبا الفضل ذمماً وغرمماً معاً

وواعد رجل دعبلاً نعلأ يهديها إليه عند قدمه من الحج فأبطأت عليه فقال دعبل الخزاعي:

كأنك تشتتهي شتما وقذفا

إذا أعجمت بعد النون حرفاً

وعدت النعل ثم صدقت عنها

فإن لم تهد لي نعلأ فكنها

وأخبرني أبو أحمد، عن أبيه، عن أحمد بن أبي طاهر، قال: كتب إلي أبو علي البصير يستهديني بخوراً كنت أهديت منه إلى بعض إخواني، والأبيات:

المرجى لكل خير ومير

غير أني شممته عند غيري

منه إن لم أكن تعديت طوري

يا شقيقي ويا خليلي إباء

أنت من أطيب الأنام بخوراً

وهو جمٌ لديك فابعث بدرج

فكتبت إليه:

وأزرناك منه أطيب زور

ماله مشبة بنجد وغور

وهو أزكى من كل طيب ونور

عندي فتبخر منه بأيمن طير

قد بعثنا إليك منه بدرج

بين ندى وبين عود مطراً

أنت منه أزكى وأطيب عرفاً

ما تعديت فيه طورك

وحدثني أبو أحمد، عن أبيه عن أحمد، قال: حدثني أو دلامة الشاعر قال: كتب العتابي إلى مالك بن طوق يستريده ويستهديه ويدعوه إلى صلة الرحم والقراة بينه وبينه وكان مما كتب: إن قرابتك من قرب منك خيره، وإن ابن عمك من عم نفعه، وإن عشيرتك من أحسن معاشرتك، وإن أحب الناس إليك أجداهم بالمنفعة عليك، وإن أهداهم إلى مودتك من أهدى إليك، ولذلك أقول:

ووصلت ما قطعوا من الأسباب

ولقد بلوت الناس ثم سبرتهم

فإذا القرابة لا تُقربُ قاطعاً

وإذا المودةُ أقربُ الأنسابِ

قال أبو هلال رحمه الله: هذا آخر ما رأينا تضمينه هذا الكتاب وبالله التوفيق والحمد لله حق حمده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه آمين.
نهاية الكتاب.

الفهرس

2	ديوان المعاني
2	الباب الأول
2	كتاب المبالغة
2	الفصل الأول
2	المديح
54	الفصل الثاني من الباب الأول في
54	الافتخار
68	الفصل الثالث من الباب الأول في
68	التهاني
78	الباب الثاني من كتاب ديوان المعاني
78	كتاب المبالغة
78	أوصاف خصال الإنسان المحمودة
78	من : الجود والشجاعة، والعلم والحلم، والحزم والعقل، وما يجري مع ذلك
90	أصدق بيت قالته العرب
102	أحسن ما قيل في الصبر
126	المعاتبات والهجاء والاعتذار
126	الباب الثالث من كتاب ديوان المعاني وهو يشتمل على ثلاثة فصول
126	الفصل الأول في
126	المعاتبات
137	الفصل الثاني من الباب الثالث في
137	الهجاء
165	اتفاق الأسماء والألقاب وتباعد ما بينها في الأخلاق
180	الفصل الثالث
180	الاعتذار

- 186..... هذا
- 186..... كتاب المبالغة في
- 186..... التشبيب وأوصاف الحسان
- 186..... وما يجري مع ذلك وهو
- 186..... الباب الرابع من كتاب ديوان المعاني
- 193..... أجود ما قيل في صفة النساء
- 193..... من الشعر القديم، ما أخبرنا به أبو أحمد قال: قال ابن سلام أحسن ما قيل في صفة النساء:..
- 198..... أحسن ما قيل في العيون
- 201..... أحسن ما قيل في بياض الثغر
- 201..... قول البحترى أيضاً:
- 246..... هذا
- 246..... كتاب المبالغة في صفات النار والطبخ وألوان الطعام
- 246..... وفي ذكر الشراب وما يجري مع ذلك ثلاثة فصول وهو:
- 246..... الباب الخامس من كتاب ديوان المعاني
- 246..... الفصل الأول في
- 246..... ذكر النار
- 250..... الفصل الثاني من الباب الخامس
- 250..... ذكر ألوان الطعام
- 263..... الفصل الثالث
- 263..... ذكر الشراب
- 263..... وما يجري معه من رقيق المعاني
- 290..... هذا كتاب المبالغة في
- 290..... وصف السماء والنجوم والليل والصبح والشمس والقمر
- 290..... وما يجري مع ذلك وهو:
- 290..... الباب السادس من كتاب ديوان المعاني ثلاثة فصول
- 290..... الفصل الأول
- 290..... ذكر النجوم

300.....	الفصل الثاني من الباب السادس
300.....	ذكر ظلمة الليل وطوله وقصره
300.....	وما يجري مع ذلك من سائر أوصافه
311.....	الفصل الثالث من الباب السادس
311.....	ذكر الصباح والشمس والنهار
311.....	وما يجري مع ذلك
319.....	ديوان المعاني
319.....	الجزء الثاني هذا كتاب المبالغة
319.....	صفة السحاب والمطر والبرق والرعد
	وذكر المياه والرياض والنبات والأشجار والرياحين والثمار والنسيم وما يجري مع ذلك وهو:
319.....	
319.....	الباب السابع من كتاب ديوان المعاني وفيه ثلاث فصول
319.....	الفصل الأول
319.....	صفة السحاب والمطر والبرق والرعد والثلج والضرب
327.....	الفصل الثاني من الباب السابع
327.....	ذكر الرياض والأنوار والبساتين والثمار
327.....	وما يجري مع ذلك
359.....	الفصل الثالث من الباب السابع
359.....	ذكر النسيم
362.....	هذا كتاب المبالغة
362.....	صفات الحرب والسلاح والطعن والضرب
362.....	وما يجري مع ذلك وهو:
362.....	الباب الثامن من كتاب ديوان المعاني
362.....	أبلغ ما قيل في صفة الحرب
362.....	قول الأول:
363.....	أجود ما قيل في انصباب الخيل في الغارة
363.....	قول ضمرة بن ضمرة:

- 364.....أبلغ ما قيل في إعمال السيف
- 364.....قول عمرو بن كلثوم:
- 364.....أحسن ما قيل في الضربة الدامية
- 364.....قول ابن المعتز:
- 385.....هذا كتاب المبالغة
- 385.....صفة الخط والقلم والدواة والقرطاس وذكر البلاغة
- 385.....وما يجري مع ذلك، وهو:
- 385.....الباب التاسع من كتاب ديوان المعاني وهو ثلاثة فصول
- 385.....الفصل الأول
- 385.....ذكر الخط والقلم والدواة والقرطاس
- 385.....وما يسلك مع ذلك
- 395.....الفصل الثاني من الباب التاسع
- 396.....ذكر البلاغة
- 402.....والأعراب والخطباء والكتاب
- 413.....هذا كتاب المبالغة في
- 413.....صفات الخيل والإبل والسير والفلوات
- 413.....وذكر الوحوش والطيور والحشرات وما يجري مع ذلك وهو:
- 413.....الباب العاشر من كتاب ديوان المعاني وهو ستة فصول
- 413.....الفصل الأول
- 413.....صفات الخيل
- 425.....الفصل الثاني من الباب العاشر
- 425.....ذكر الإبل وسيرها
- 425.....وما يجري مع ذلك من وصف أحوالها
- 434.....الفصل الثالث
- 434.....ذكر الفلوات والظلال
- 434.....والسير والنعاس وما يجري مع ذلك
- 437.....الفصل الرابع

- 437..... ذكر الوحوش والسباع والكلاب والصيد
- 437..... وما يجري مع ذلك
- 441..... الفصل الخامس من الباب العاشر
- 441..... ذكر الطيور
- 448..... ذكر بقية الحيوان
- من النسور والقنفذ والفأرة والحية والعقرب والحرباء والضب والبق والبراغيث وما يجري مع ذلك
- 448.....
- 457..... هذا كتاب المبالغة في
- 457..... صفة الشباب والشيب والخضاب والعلل
- 457..... والموت والمرائي والزهد وما يجري مع ذلك وهو:
- 457..... الباب الحادي عشر من كتاب ديوان المعاني
- 457..... الفصل الأول
- 457..... الشباب والشيب والخضاب
- 457..... وما يتصل بهما
- 468..... الفصل الثاني من الباب الحادي عشر
- 468..... ذكر العلل والأمراض والمرائي والتعازي والزهد
- 488..... هذا كتاب المبالغة في
- 488..... صفة أشياء مختلفة
- 488..... يحتم بها كتاب ديوان المعاني وهو:
- 488..... الباب الثاني عشر منه فأول ذلك
- 488..... القول في الحنين إلى الأوطان
- 494..... مدح الاخوان
- 498..... ذم الإخوان والرفقاء
- 498..... وما يجري مع ذلك
- 504..... فصل
- 504..... فيما قيل في فضل الوعد ومدح الإنجاز
- 507..... فصل في

- 507.....تعمية الأشعار
- 512.....أحسن ما قيل في تقبيل اليد
- 514.....الحض على السلام
- 515.....السلام على الكفار
- 515.....رد السلام بالإشارة
- 515.....ما جاء في المصافحة
- 516.....حياءك الله وبياك
- 517.....قولهم مرحبا
- 519.....ما جاء في أطال الله بقاءك
- 520.....جعلت فداك
- 520.....دعاء المكاتبة
- 521.....كيف أصبحت
- 525.....ما جاء في الدعاء للخارج إلى السفر
- 526.....الدعاء للقادم من السفر
- 526.....الدعاء للمهزوم
- 527.....الدعاء للمعزول
- 528.....دعاء الأعياد
- 528.....ما قيل في القيام للأجلاء
- 529.....ما قيل في شعبان وشهر رمضان وشوال
- 531.....فصل في معان مختلفة
- 533.....التفاضل بين الإخوان
- 534.....الحث على موافقة الناس
- 534.....إغباب الزيارة
- 535.....في ذم العجائز قول الشاعر
- 535.....ما ورد في فضل الحمام
- 536.....الشطرنج قلت فيه
- 537.....ما ورد في النرد

537.....	القدح
538.....	انتظار الفرج
538.....	معنى آخر
539.....	معنى آخر
539.....	من أجود التشبيهات في المحجمة
539.....	قول بعضهم
539.....	مما ما قيل في حطل الرأي قول الآخر
540.....	إفساد المعروف بالمن
540.....	من يعيب غيره وهو معيب
540.....	معنى آخر
541.....	معنى آخر
541.....	معنى آخر
542.....	ما ورد في حظ الجاهل
543.....	الاستعانة بالجاهل في وقت الحاجة
543.....	معنى آخر
543.....	الاقتماع بالقرين
543.....	المأخوذ بذنب غيره
544.....	النهي عن الظلم
544.....	قول الأول
544.....	ما ورد في الجبن
545.....	ومن المضحكات قول الآخر
545.....	الخلق من الثياب
545.....	من أحب لبناته الموت
546.....	فصل آخر
549.....	الفهرس

To PDF: www.al-mostafa.com